

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نساء من التاريخ

تأليف
أحمد خليل جعبه

اليكامة
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - بيروت

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

www.moswarat.com

رَفَعُ

عبد الرحمن البخاري
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

نَسَاءُ الْمَلَائِكَةِ

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م

الإمامة

للطباعة والنشر والتوزيع



رشته - بركة - جانا الرجوة والمرايات - ص.ب ٣٧٧ - هاتف: ٢١٢٢٠٥٩ - ٢١٢٣٢٤٥
بيروت - برج أبو عبيد - خلف دبرس الصلي - ص.ب ٥٤٨٨ / ١١٣ - هاتف: ٧٠٢٩٥٩

نَسَاءُ الْإِسْلَامِ

تَأَلَّفَ
أحمد خليل جمعة

الْإِكَامَةُ
لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ وَالتَّوْزِيعِ
دمشق - بيروت

لله در

إلى أُمِّ سَيِّدِ الْأَنْبِيَاءِ ، آمَنَتْ نَبَتْ وَهَبَ الزَّهْرِيَّةَ .
إلى كُلِّ امْرَأَةٍ تَوَدُّ أَنْ تَرْسُمَ السَّعَادَةَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ .
إلى الرَّاعِشِينَ فِي سَيْرِ الصَّالِحَاتِ ،
مُذَكِّينَ أَنَّ السَّعَادَةَ تَتَّبِعُ مِنَ الْأَيْمَانِ .
إلى النَّاطِرِينَ فِي حَقِيقَةِ الْمَرْأَةِ ، فَهِيَ تَجْمَعُ كُلَّ
فَضِيلَةٍ ، وَتَنْجِعُ كُلَّ خَيْرٍ .
إلى كُلِّ هَوَلاٍّ أَهْدِي هَذَا الْكِتَابَ .

أحمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بين يدي الكتاب

بقلم

الأستاذ: يوسف علي بديوي

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على سيّدنا محمد النبي المصطفى؛
الذي وفّى ووفى.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعلى دينه،
القائل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۚ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ
وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:
٧٠-٧١].

وأشهد أن محمداً عبداً لله ورسوله، خير نبيّ اصطفاه، ورحمة للعالمين
أرسله، وهو القائل: «إِنَّمَا النِّسَاءُ شِقَاقُ الرِّجَالِ»^(١).

ورضي الله عن الصحابة الكرام، ورحم السلف الصالح، والعلماء
العاملين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أمّا بعد:

فقد سبق للمؤلف الفاضل الأستاذ «أحمد خليل جمعة» أن خطّ - بعون
الله تعالى - عدّة مُصنّفات حول المرأة، مُبرزاً شخصيتها، وأثرها في الأسرة

(١) رواه أبو داود.

والمجتمع عبر العصور التاريخية، ومن تلکم المصنّفات :

* نساء من عصر النبوة

* نساء من عصر التابعين

* نساء الأنبياء

* نساء أهل البيت

* نساء من الإسلام

* نساء مبشرات بالجنة .

واليوم يتابعُ مسيرته في الكتابة عن المرأة في التاريخ العربي والإسلامي ، فأوضح دورَ المرأة في العصور الخوالي، وأبرز البصمات النسوية في خصالها التي عُرِفَتْ بها، وميزاتها التي لمعت من خلالها .

ويمكن أن نتحدث عن هذا الكتاب، وأهميته من خلال نقاط منها :

(١) أنه كتابٌ وثائق قاطعة، وشواهد ماثلة، ونقول صحيحة، دون تزئيد أو انتقاص، ومؤلفه أديبٌ غيور، رَحِبَ المعرفة، جرّد نفسه للولوج في أعماق التاريخ، واستخلاص مخبوءاته؛ للظفر بالدرر الكامنة في ثنايا ذاكرة الأيام، وسطور الزمان. وقد نجح المؤلف - أثابه الله - في جولاته، فكان بحق مُترجماً للشخصيات النسائية التي انتقاها، ونفّض عنها غبارَ النسيان، وأزاح أستار الماضي، فكانت الحصيدُ صيداً وافراً، وسبقاً ظافراً، وسياحة في الزمن الغابر بما يفيد، ويغني، وفي بالمطلوب، ويُحقّق الهدف المنشود .

(٢) في الكتاب عَرَضٌ لفضائل المرأة العربية والإسلامية، وتعدادٌ لمآثرها في الأسرة والمجتمع، من خلال دراسة علمية مُوثّقة بأصحّ التّصوّص، ومُستمدة من أوثق المصادر، دأب المؤلف - نفع الله به - على تحصيلها، وجَمْعها، والبحث عنها هنا وهناك، وأعطاها من خالص وقته، وكبير جهده، وعميق فكره، ودَوَّب قلبه، وواسع علمه، حتى نضجت التراجم، فاستوت قائمةً في كتابٍ مطبوع، يراه القارئ الكريم ماثلاً بين يديه .

فنحنُ أمامَ موسوعةٍ حافلةٍ بشتّى صنُوفِ أدوارِ المرأة، من حيث: العلم، والفضل، والريادة، والأثر الإيجابي، والدّور الخلاق، والمشاركة في الحياة؛ في ضوء الواقع والتاريخ.

(٣) الكتابُ يكشفُ عن دور المرأة عبر العصور، ومدى تفاعلها مع الأحداث في مجالاتها الرّحبة، فهي صانعةُ الرجال، وأمّ الأبطال، وهي الحكيمة العاقلة، والفاضلة التقية، والنّاصحة المرشدة، والعبادة القانتة، والخطيبة المصقعة، والبليغة المعبّرة، والكاتبة الشاعرة... إلى غير ذلك من توجّهات الشخصيات المترجمة.

(٤) اتّبع الكاتبُ - نفعَ اللهُ به - منهجَ الاستقراء للتّقصُّص التي عرّض لها، فلم يكتفِ بالسرد والاستعراض، بل دلّل على صِحّة ما يذهبُ إليه بالنّصّ القاطع، والدّلّيل السّاطع، مع الاستقصاء، والقراءة المتأنّية، والتدبّر الأمثل للمضامين والأفكار المطروحة، فهو لم يقفْ إزاءها مكتوف الأيدي، بل فكّ رموزها، وعلّق عليها، ودَرَس أبعادها، وخَرَج بالنّافع المفيد، فمنهجُه يعرضُ النّصّ ذا الدّلالة مع موضوع البحث؛ بشكلٍ واضح، لا يحتاجُ القارئ من خلاله إلى بذل جهدٍ في الاستنباط، أو إعمال الفِكر، فالمؤلّف - بارك اللهُ فيه - واضحٌ في قراءاته، وعرضه، وشواهد.

(٥) إنّ استعراضَ ثلاث وعشرين شخصية نسائية؛ يكشف عن دور المرأة الواعي، وممارستها للحياة في مختلف مجالاتها، واختصاصاتها، سواء أكان ذلك في مجال النشاط الاجتماعي، أو السياسي، أو المهني، أو التعبدي، أو الأسري... وكان من نتيجة هذه المشاركات وَضْعُ معالم للمرأة العربية والمسلمة، حيث نَمَت مداركُها، ووعتْ مسؤولياتها، وبلغتْ درجةً عاليةً من النضج، والثقافة، والتأثير فيمن حولها.

(٦) الحواشي مفيدة للغاية، ففيها شرحٌ للألفاظ الغريبة، وبعض التعليقات الموضّحة المُعْنية، إضافة إلى الفوائد اللغوية، والشذرات التاريخية، والنظرات الصّائبة، والآراء المحكمة، علاوةً على عزو الثّقول إلى مصادرها.

وجاءت تعليقات المؤلف - زاده الله علماً - قطعة من عقله الرَّاجح، ونبذة عن فكره الناضج؛ قولاً شارحاً، أو ترجيحاً ناطقاً، أو تبصراً نافذاً، أو رصداً رائداً، فَوَضَعَ أمام أعيننا جواهر من القول، تنطقُ بالحق والتَّظْرة الثاقبة، وهو بذلك يضيفي على الكتاب بأدب التعليق: رُوحاً جديدة، وفهماً نيراً، وإضافات لها وزُنْها، وأصالتها.

(٧) النَّصُّ مضبوطٌ بالشكل؛ ممَّا يُسهِّل تناول الكتاب، ويأخذ بيد القارئ إلى جاذبة الصَّواب.

(٨) الشواهد كثيرة ومتنوعة، فهي مُستمدة من القرآن، والسُّنة، وأقوال العلماء، والمؤرِّخين، والحكماء، والمعاصرين، وغير ذلك. وهذا يُشكِّل ثروة ثقافية تُغني الكتاب، وتفي بالأمل المنشود من تدوين صحائف هذا الكتاب.

(٩) بذل المؤلف - جزاه الله خيراً - جهداً خاصاً في الاستطرادات التي حلَّق عبرها، فأدلى دَلْوَهُ في كثير من القضايا، كالمدائح النبوية؛ إذ أعطى فكرة مُهمَّة ومفيدة عن تطوُّر هذا الفن الشعري، وأشهر أعلامه.

(١٠) نلاحظ الجِدَّة في كتابة بعض التراجم، حيث كُتِب عنها للمرة الأولى بهذه التوسعة، وذلك التناول، فللمؤلف - زاده الله من نِعَمِهِ - فَضْلُ الرِّيادة، كما كان له فَضْلُ السَّبْق في كُتُب مَضَتْ، وشخصيات ترجم لها، وَجَمَعَ أطراف أخبارها بجهد الخالص، وخطَّها ببراعه المبدع، فظهرت دُرَّة في جبين التاريخ، وأضحت بديراً منيراً في عالم التراجم^(١).

(١١) أسلوب المؤلف - أدام الله عليه مِنِّه - أدبيٌّ، سيَّال، مُتفَرِّد، يضمُّ بين ثناياه الألفاظ الجميلة والعجزة، والتراكيب العربية الدالَّة، والجَمَل المنسبكة بانسجام وتلاحم؛ مما يشير إلى تمكُّن الكاتب من ناصية اللغة، ومقدرته على التَّحْت والاشتقاق، وتطويع الألفاظ للمعاني، مع الإشراق

(١) يُنظر ما كتبه المؤلف في ترجمة أنس بنت عبد الكريم زوج ابن حجر العسقلاني، وست الركب، وفاطمة الشرطية، وغيرهن.

الأدبي، وسحر الكلمة، وموسيقا التعبير، والتحليق في مجال البلاغة والتصوير الفني؛ ممّا يشدُّ القارئَ لمتابعة الأحداث؛ عبْر مسيرة الترجمة في الخطوط العريضة، ودقائق التفصيلات.

(١٢) في كلّ ترجمة نجدُ عناوين جانبية، تُقسّم حياة المرأة المترجم لها إلى فقرات، والهدف من ذلك: توزيع حياة الشخصية إلى فقرات تفصيلية، بدءاً من النشأة والميلاد، وانتهاءً بلحظات الوداع؛ مما يُعطي القارئ استراحاتٍ متتابعة وهو يتلو المقاطع الواحد تلو الآخر.

ثم إنّ العنوانَ الجانبيّ يُلخّص الأحداث الواردة في الشرح والتفصيل، فهو بمثابة تمهيدٍ ومدخل لكلّ فقرة.

(١٣) ثم إنّ هذا الكتابُ ذوّن في الأصل ليقدّم إلى إحدى الجامعات العربية؛ لنيل شهادة علمية عليا، ولكن حالت ظروف المؤلف الخاصة دون تحقيق ذلك.

(١٤) والكتابُ يجمعُ إجاباتٍ صحيحةً لأسئلة كثيرة تنداح في الذهن...

فما قصّة «عين زُبيدة» في مكة المكرمة؟
ومَن هي الخطيبَةُ البارعة التي وفدت على معاوية، وحفظ لها التاريخُ بلاغتها؟

وما أثرُ زوجة الحافظ ابن حجر العسقلاني في حياة هذا العالم الكبير؟
ولم تطلق أبو الأسود الدؤلي زوجته؟
ولماذا خطبت أم سلمة بنت يعقوب أبا جعفر السَّقّاح؟
وما قصّة أم البنين مع الحجاج؟

ومَن هي المرأةُ صاحبة الوصايا العشر لابنتها التي زوّجت لزوجها؟
ومَن صاحبة الكلمة التي ما إن أطلقتها حتى قُتل ملكُ الحيرة؟
وما قصّة التيس المزعوم في المشهد النفيسي؟

إلى ما هنالك من أسئلة، تجد - عزيزنا القارئ - إجاباتٍ عنها في ثنايا هذا الكتاب.

(١٥) والمؤلف غنيٌّ عن التعريف، فهو كاتبٌ مشهودٌ له، ومؤلفاته متنوّعة ومطبوعة، والقراء يُؤلّونه كلّ الحبّ، والتقدير، ويدعون له بالتوفيق، والمزيد من العطاء العلمي، والإنتاج الأدبي.

ولقد عرفته ذا تفكيرٍ هادئ عميق، وصاحب نظرة نقدية، وشجاعة أدبيّة، زيادة على الصّدق في القول، والاستقامة في السلوك، مع الخُلُق النبيل، إضافة إلى الحسنّ المرهف، والعقل النّافذ، والدّأب في التّحصيل، والصّبر على العلم، والتّحرّي في كشف ملابسات المسألة، والبحث عن الجذور للوصول إلى الحلول.

وعلى الرغم من الظروف القاسية التي مرّت به، فقد تغلّب عليها، ونحّاه جانباً، واستمرَّ يُعطي بجهدٍ دؤوب، ونفسٍ سمحة، ومصابرة على التنقيب في أطواء التاريخ، وصفحات المصنّفات؛ كي يُقدّم الخير، والنفع، والفائدة للناس.

وختاماً لا يسعني إلا أن أشدّ على يدي المؤلّف مُكبراً جهده، وصبره، وتأنّيه في البحث، داعياً الله - عزّ وجلّ - أن يُوفّقه لمزيدٍ من الدراسات القيّمة، والبحوث المفيدة، وأن ينفع بهذا الكتاب النّفع العميم، وأن يجزي مؤلّفه خيراً عمّا بذل من جهدٍ في: الجمع، والإعداد، والتنسيق، والتأليف، والله من وراء القصد، وهو الهادي إلى صراطٍ مستقيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

دمشق في شوال ١٤١٧ هـ

شباط ١٩٩٧ م

يوسف علي بديوي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَقْدَمَةُ الْكِتَابِ

الحمدُ لله ذي الحكمةِ البالغة، والنَّعمةِ السَّابِغة، أنشأنا من نفسٍ واحدةٍ إنشَاءً، فجعل منها زوجها تماماً ووفاءً، ﴿وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [النساء: ١]، وبعث في كلِّ أُمَّةٍ رسولاً يهديهم، وإلى سُبُلِ السَّلامِ يؤدِّيهم، وخصَّنا بالرحمةِ المُهداةِ للعالمين، محمَّد خاتم الأنبياء والمرسلين.

اللهم ارزقنا الألفةَ التي بها تصلحُ النفوسُ والقلوبُ، وارحمنا واغفر لنا ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١٠٩].

والصَّلَاةُ والسَّلامُ على مَنْ خَلَصَ المرأةَ مِنَ المنزلةِ الدُّنيا، وكرَّمها فصارت في المكانةِ العُلْيَا، وحضَّ على العصمةِ والإحْصَانِ، ورَغِبَ في ذاتِ الدِّينِ الحِصَانِ؛ فصلواتُ الله الطَّيِّبَةِ، وغواصي رحمته الصَّيِّبَةِ، على مَنْ كَانَ آخِرَ الْأَنْبِيَاءِ مِيلَاداً، وأكثرهم يومَ الْقِيَامَةِ تَابِعاً وسَوَاداً، مَنْ كَانَتْ بَعَثَتُهُ رَحْمَةً لِلنِّسَاءِ، ورسالتُهُ للبشريةِ جمعاء، وبعد:

إِنَّ لِلنِّسَاءِ - على مدارِ التَّارِيخِ - صفحاتٍ وضيئاتٍ نعتُرُ بها، ونستلهمُ عيبرَ المكارمِ منها، ولعلَّها أحفلُ الصَّفَحاتِ بِالْعِظَاتِ، وأجمَعُها لِلْعِظَائِمِ، وسناءِ الحَيَاةِ؛ ففي تاريخهن الطَّوِيلَ العَرِيضَ، تظهرُ حَيَاةُ الْعِظَمَةِ الْوَادِعَةِ، وَالنَّفْسِ الْأَبْيَةِ الثَّقِيَّةِ، إِذْ جَاذَبْنَ الرِّجَالَ سِيَاسَةَ الْأُمَّةِ، وَوَلَايَةَ الْأَمْرِ، وَجَدَّ

العمل، وشؤون الحياة العملية والعلمية والأدبية والفكرية، ناهيك بتكوين الرجال، وتصريف الأحداث.

وكانت النساء في التاريخ يتحلّين بالأخلاق الفاضلة، كالجرأة الأدبية، والشجاعة، والعفاف، والكرم، والتجدة، والوفاء.

ففي العصر الجاهلي، اشتهرت المرأة بالجرأة الأدبية، والصراحة، وعلو الهمة؛ وفي ظلال الإسلام، والعهد الراشدي، والأموي، والعباسي، وما تلاه من عصور، ظلت المرأة تحتفظ بمكانتها وسناء منزلتها.

أما في الحرب فقد سجّلت النساء أضواء الآثار في هذا الميدان، وأظهرت ضروباً من الشجاعة متعددة الأشكال والألوان؛ وفي التاريخ النسوي صورٌ لكثيرات اشتهرن بمضياء العزيمة، وثبات الجنان في حومة الميدان.

ولما أشرقت الدنيا بنور الإسلام، كان للنساء بصمات واضحة مباركات، فأول من أسلم امرأة، وهي أمّنا خديجة بنت خويلد - رضوان الله عليها - وناهيك بخديجة خير مثال تقتدي بها نساء التاريخ، بل نساء الدنيا أجمع.

وفي رحاب الفضائل كانت النساء من السابقات، فكن قدوة في الصبر، وفي الذكاء، والكرم، والثقافة، والعلم، فقد طرفن أبواب المعرفة، وتلقين العلم عن مشاهير العلماء، وتضلعن بالعلوم الفقهية والشرعية والأدبية، من مثل أنس زوج ابن حجر، وأخته ست الركب، وعائشة الباعونية، وعائشة التيمورية، وفاطمة الشريطية وغيرهن.

وكان للنساء نصيبٌ موفورٌ في ميدان الشعر، وفي موسوعتنا هذه تجد نابغات النساء ممن أثرين فنون الشعر، بأنواع الطرائف الأدبية من مثل: ليلي بنت مُهلhel، ورُبيدة بنت جعفر، وعائشة بنت يوسف الباعونية، وعائشة التيمورية، وأخريات.

واهتمت النساء كذلك في الخط العربي الذي يُعتبر من مفاخر العرب، وكانت عائشة الباعونية جميلة الخط، بارعة في الآداب جميعها.

وقامت نسوة العرب بأعمالٍ جليّةٍ خالدة، فهذه زُبيدة بنت جعفر قد صنعتُ أعمالاً يعجزُ عنها ملايين، وأصحاب الملايين، (ولا تخفى أعمالُها في الحرم المكيّ، بل في الحرمين الشّريّين، ودربُ زُبيدة مشهورٌ في ديوان العظام، ويشيرُ إلى كمالِ مروءتها ونبلِ أخلاقها، ثم أكملت عملها فاطمة بنت السُّلطان سليمان التي حفرت آباراً عديدةً في مكة، ثمّ بحثت عن ماء عرفات، وصرفت على الأعمالِ الخيريّة هذه نصف مليون دينار.

ولم تقف أعمالُ النّساء العربيات في التّاريخ عند هذا الحدّ، بل إنهنّ شيّدن صروحَ العلم، وأوقفنَ عليها أوقافاً كثيرةً، وأكرمنَ العلماءَ وطلّابَ العِلْم، ولهنّ آثارٌ ما تزال شاهدةً لهنّ إلى وقتنا الحاضر.

وهكذا كانت المرأةُ مثارَ عاطفةِ الرّجل، ومعقداً لُفّته، ومطلعَ قصيدته، ومصدرَ إلهامه، ومشرقَ وحيه، وكلّ شيءٍ بين يديه، وذلك طبعُ العرب، وتلك سنّتُهم.

هذا، وسيعيشُ القارىء بين أزاهرِ هذا السّفر، الذي يغنيه عن السّفر، يقتطفُ من زهره ما يعطرُ وجدانه، ويستنشقُ من عبيره ما يروّحُ عن نفسه، فهو يرتعُ في وادٍ خصيب، يقرأ سيرةَ النّساء على مدارِ التّاريخ، في أحوالهنّ المختلفة، ويغذي سمعه بلذيد الأخبار:

تَسَاقَطَ فِي الْأَسْمَاعِ لَوْلُو لَفْظِهِ

تَسَاقَطُ طُلٌّ فَوْقَ زَهْرِ الْكَمَائِمِ

ففي هذا الكتاب تقرأ قصصَ أمّهاتِ الأنبياء، ونساءِ الصّحابة، ونساءِ الفُرسان، ونساءِ الملوك والخلفاء والوزراء، والعلماء والشّعراء والقُضاة والرُّهّاد، وكذلك تطّلع على حياةِ الأدبياتِ والشّاعراتِ والنّاثراتِ والحاكماتِ والبليغاتِ والحكيّماتِ العاقلاتِ والمتصوّفات، وغيرهن ممن لهنّ نصيبٌ في تاريخ الدُّنيا وتواريخ النّساء، كما يتعرّف القارىءُ حقائقَ تُجتلي للمرّة الأولى، ويعرفُ صوراً واضحةً تُبرزُ أيضاً للمرّة الأولى، ويدركُ معالِمَ صحيحةٍ لكثيرٍ من حياةِ نساءٍ قد اكتنفها الغموضُ أو الإيهام.

وأودُّ أن أهمسَ في أذنِ القارىءِ الكريم، بأن يسدّ الخللَ إن وجدَ عيباً في

هذا العمل، فقد كلّفني هذا البحث عناءً كبيراً، وجهداً مُضنياً، وسَفراً بعيداً شاقاً، وذلك كيما أجمعَ شتات هذه المعلومات التي تباعدت في أغوار الأسفار، ناهيك بما جمعتُه من معلوماتٍ ومعارفٍ من الأفواه من خلال الأسفار، وقد كان الكتابُ مُعدّاً لنيلِ رسالةٍ علميّة^(١)، لكنَّ الظروفَ حالتْ دون ذلك لأمرٍ يريدُه الله عزَّ وجلَّ.

وقبل أن أتركك - عزيزي القارئ - مع نساءِ التاريخ، أودُّ أن أوجّه دعوةً أدبيّةً ووديّةً إلى أولئك الذين (يلطشون) الأفكارَ و(يسرقون) الكلمات، فقد وَجَدْتُ مَنْ اسْتَلَّ معظمَ كُتبي بحذافيرها، و(لطشها) ليرصفها بين دفتي كتاب، بعد أن مسحَ العنوان، ووضع اسمه في أعلى الكتاب بخطٍ عريض؛ فليتق الله هؤلاء، ولينتهوا عن هذه الأشياء، [فاللهُ عَدْلٌ والتّلاقي غَدٌ]، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشّعراء: ٢٢٧]؛ ولولا الوشايةُ لذكرتُ أسماءَ هؤلاء الذين يسرقون أعمالَ غيرهم، ولكّني اكتفيتُ بالتّنويه لعلّهم يرجعون.

وقد رجعتُ في هذه الموسوعةِ إلى مئاتِ المصادرِ المختلفةِ، من كُتُب التّفسير والحديث والتّاريخ والأدب والجغرافية والرحلات وكُتُب اللغة وغير ذلك مما سيلاحظُه القارئ، كما سيدركُ القراء ما تجشمتُه من عناءٍ حتى يخرجَ الكتابُ في هذه الحلةِ القشبيّة.

ولابدّ لي وأنا على مشارفِ الخاتمة أن أوجّه سحائبَ الشُّكر إلى الأخ الفاضل الأستاذ عبد الرّؤوف قدّور صاحبِ دارِ اليمامةِ الغراء الذي أوّلِي هذا الكتابَ جُلّ عنايته، كما أشكرُ جميعَ مَنْ ساهمَ في إخراجِ هذا السّفرِ إلى الوجود ليأخذَ مكانه ومكانته في عالمِ المعرفة. وتحيّة شكر أُرْجِيها إلى الأديب الكبير يوسف علي بديوي الذي قرأ الكتابَ، وأبدى ملاحظاته المهمّة التي ارتقتُ بمستوى الكتاب، إضافة إلى تفضّله بكتابة مقدمة تحليلية

(١) لذلك كنْتُ قد كتبتُ مقدمة طويلة عن طريقة هذا البحث، كما كتبتُ فصلاً طويلاً عن المرأة وأحوالها خلال العصور، ولما تعرّثت مناقشة هذا البحث اختصرت ذلك ودمجته في ثنايا الكتاب.

للكتاب، فجزاه الله خيراً. وتحية حبّ خالصة للأخ أحمد علي سعيد الذي أشرف على التنضيد والإخراج الفني لهذا الكتاب. فله كل الشكر والتقدير، وأرجو الله أن يجزل له الثواب جزاء وفاقاً لصبره على إحياء هذه الأعمال الجليلة.

وختاماً، فإنني أسأله - عز وجل - أن يوفقنا إلى ما فيه الخير والصلاح والسداد، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأرجو القارئ الكريم أن يخصني بدعوة خالصة منه بظهر الغيب؛ ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وكتب:

أحمد بن خليل جمعة

دمشق - حرستا - ٩/ ذو الحجة ١٤١٧ هـ

١٦/ نيسان ١٩٩٧ م

١

آمنت بنبوت وهب

سليلة الأمجاد:

* مِنْ دُوْحَةٍ زَكَتْ أَصْلًا، وَطَابَتْ فِرْعَا، وَحُسْنَتْ مَنْظَرًا، وَنَعِمَتْ زَهْرًا،
نَقْتَطِفُ زَهْرَةَ نَدِيَّةٍ مِنْ رِيَاضِهَا نَعْطُرُ بِهَا كِتَابَنَا هَذَا، وَنَزِيْنُ بِهَا هَذِهِ
الصَّفَحَاتِ.

* هَذِهِ الزَّهْرَةُ النَّدِيَّةُ الْمِيْمُونَةُ، هِيَ أُمُّ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ؛ أَمْنَةُ بِنْتُ وَهْبِ بْنِ
عَبْدِ مَنْفٍ بْنِ زُهْرَةَ، سَيِّدَةُ نِسَاءِ بَنِي زُهْرَةَ^(١).

* وَمَنْ كَامَنَةُ الَّتِي حَمَلَتْ بِالنَّبِيِّ ﷺ، فَلَمْ تَلِدْ هِيَ وَلَا أَبُوهُ عَبْدُ اللهِ بْنُ
عَبْدِ الْمَطَّلِبِ غَيْرَ الْحَبِيبِ الْمَصْطَفَى مُحَمَّدٍ ﷺ، فِي ذَلِكَ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّهُ ﷺ
نَسِيجٌ وَحْدَهُ فِي الْعَالَمِ^(٢).

* وَأَمْنَةُ بِنْتُ وَهْبِ الزُّهْرِيَّةِ، مِنْ قَوْمٍ شَهِدَتْ لَهُمُ الْأُمَاطِلُ بِالْمَكَانَةِ،
وَالشُّؤْدُدِ، وَالشَّرَفِ، وَالطَّهَارَةِ، وَظَهَرَتْ مَخَايِلُ أُمَجَادِهِمْ فِي رَجَالَتِهِمْ؛
الَّذِينَ تَسَنَّمُوا ذُرَا نَوَاحِي الْحَيَاةِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ.
* كَانَ وَهْبُ بْنُ عَبْدِ مَنْفٍ بْنِ زُهْرَةَ فِي ذِرْوَةِ الشَّرَفِ، وَالسِّيَادَةِ، فَهُوَ جَدُّ
الْحَبِيبِ الْمَصْطَفَى ﷺ، وَلَوْ هَبَ هَذَا يَقُولُ الشَّاعِرُ مَادِحًا:

(١) بِهِجَةُ الْمُحَافِلِ وَبَغِيَّةُ الْأُمَاطِلِ لِلْعَامِرِيِّ (١/٣٧)، وَالذَّرُّ الْمُنْثَوْرُ فِي طَبَقَاتِ رَبَّاتِ
الْخُدُورِ (ص ١٦ و ١٧)، وَأَعْلَامُ النِّسَاءِ (١/١٨ و ١٩)، وَعَيُونُ الْأَثَرِ (١/٢٣ -
٣٩)، وَشَاعِرَاتُ الْعَرَبِ (ص ٢)، وَتَفْسِيرُ الْقُرْطُبِيِّ (١٦/٥٦)، وَالْمَعَارِفُ
(ص ١٢٩ و ١٣١)، وَالْإِشْتِقَاقُ (ص ٣٣ و ٩٦)، وَالرَّوْضَةُ الْفَيْحَاءُ فِي تَوَارِيخِ النِّسَاءِ
(ص ١٤٤ - ١٧٠)، وَالْمَغَانِمُ الْمُطَابَةُ فِي مَعَالِمِ طَابَةِ (قِسْمُ الْمَوَاضِعِ ص ٦)، وَكُتِبَ
السِّيَرَةُ كُلُّهَا، وَكَثِيرٌ مِنَ الْمَصَادِرِ التَّارِيخِيَّةِ وَكُتِبَ التَّرَاجِمُ.

(٢) انْظُرْ: بِهِجَةُ الْمُحَافِلِ وَبَغِيَّةُ الْأُمَاطِلِ لِلْعَامِرِيِّ (١/٣٧)؛ هَذَا؛ وَلَا يُوجَدُ لَأَمْنَةُ بِنْتُ
وَهْبٍ إِخْوَةٌ، وَلَوْ كَانَ لَهَا إِخْوَةٌ لُنُقِلَ، وَعَدَّوْا أَخَوَالًا لِلنَّبِيِّ ﷺ، كَمَا نُقِلَ عَنْ
أَعْمَامِهِ وَعَمَاتِهِ وَأَخْتَانِهِ، وَغَيْرِهِمْ.

قَالَ ابْنُ قَتِيْبَةَ - رَحِمَهُ اللهُ -: وَلَا نَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لَأَمْنَةَ أَخٌ، فَيَكُونُ خَالًا لِلنَّبِيِّ ﷺ،
وَلَكِنْ بَنُو زُهْرَةَ يَقُولُونَ: نَحْنُ أَخَوَالُ رَسُوْلِ اللهِ ﷺ لِأَنَّ أَمْنَةَ مِنْهُمْ. (المعارف
ص ١٢٩).

يا وهبُ يا بنَ الماجدين زُهرة سُدَّتْ كِلاباً كُلَّها بنَ مرّة
بَحَسَبِ زَاكِ وَأُمِّ حُرّة^(١)

* أمّا «زُهرة» الجدُّ الأعلى للسَّيدة الزَّكية الزَّاكية آمنة أمَّ سيِّدنا وحيبيِّنا
محمَّد ﷺ، فهو الأخُّ الأكبرُ لقُصَيِّ والد عبد مناف، وقد أقامَ زُهرةُ بمكةَ
حياته كُلَّها لم يفارقها، ولم يرحلْ عنها، وكان أولادُه مع أولادِ قُصَيِّ في كلِّ
ما ينوبُ عن قريش، فكانوا يشاركونهم فيما يقومون به مِنْ عَمَلٍ، وأوَّلُ
حَلْفٍ عَقَدَهُ بنو عبد مناف «حلف المُطَيِّبين»، فكان بنو زُهرة معهم على بني
عبد الدَّار.

* وكان بنو زُهرة شركاء بني عبد مناف في نصيبهم عند تجزئة الكعبة
لبنائِها؛ قال أميرُ المؤرخين أبو جعفر الطَّبْرِيُّ - رحمه الله -: ثم إنَّ قريشاً
تجزَّأتِ الكعبة، فكان شقُّ الباب لبني عبد مناف زُهرة.

* ولما جاء الإسلام، كان لبني زُهرة تحتَ أفيائِهِ جهادٌ ماثورٌ، وتبوَّأتْ
رجالُهم المكانةَ العُلى، لِمَا لَهُمْ مِنَ السَّوابِقِ الجليَّةِ، وكذلك لحُسْنِ
اقتدائهم برسولِ الله ﷺ، ونَهْلِهِمْ مِنْ مَعِينِهِ الثَّرِّ الصَّافي المبارك.

* ولعلَّه مِنَ المفيد والمثير أنْ نشيرَ إلى أنَّ رجلينِ زُهريَّينِ قد بشَّروهم
رسولُ الله ﷺ بالجنَّة؛ وهما: سعد بن أبي وقاص، وعبد الرَّحمن بن

(١) انظر: نسب قريش لمصعب الزبيري (ص ٢٦١)؛ وأمَّ وهب بن عبد مناف هي جدَّة
آمنة أم رسول الله ﷺ، واسمها: قيلة بنت وَجْز بن غالب المكنى «أبو كبشة»،
وأبو كبشة رجلٌ من خزاعة، خَالَفَ قريشاً في عبادة الأوثان، وعَبَدَ الشَّعْرَى، فلمَّا
خَالَفَ النَّبِيَّ ﷺ قريشاً في دينها، شَبَّهوه بأبي كبشة هذا في مخالفته إياهم، فقالوا:
ابنُ أبي كبشة، وقيل: إنَّهم قالوا: نَزَعَهُ أبو كبشة. فالعربُ تَظُنُّ أنَّ أَحَدًا لا يعمل
شيئاً إلا بعِزِّ ينزعه شبهه؛ لأنَّ أبا كبشة خَالَفَ قريشاً في عبادة الشَّعْرَى.
قال مصعب الزبيري - رحمه الله -: وكان أبو كبشة سيِّداً في خزاعة، لم يُعَيَّرُوا
رسولَ الله ﷺ من تقصيرٍ كان فيه، ولكنَّهم أرادوا أن يشَبَّهوه بخلاف أبي كبشة،
فيقولون: خَالَفَ كما خَالَفَ أبو كبشة. انظر: (تاريخ القضاعي ص ١٧٤) و(نسب
قريش ص ٢٦١) بتصرف.

عوف^(١) - رضي الله عنهما - فهما من العشرة المبشرين بالجنة، وهؤلاء العشرة أشهر من نجوم السماء، وقد تغنى شعراء العلماء بنظم أسمائهم على مدى الأيتام والأعوام، فهذا أبو بكر العامري - رحمه الله - قد نظم أسماءهم، وذكر أصولهم ونوة إلى قبائلهم، وقد أحسن فقال:

أبو بكر وطلحة نجل تيم وفاروق سعيد من عدي
وعثمان التقي كذا علي لعبد مناف ذي الشرف العلي
وسعد ذو الفضائل وابن عوف لزهرة وهو صاح أخو قصي
ومن أسد زبير وابن جرّ هم من فهر فاحفظ يا أخي

وقال غيره في العشرة المبشرين بالجنة، وقد جعل الزهريان في نسق:
علي والثلاثة وابن عوف وسعد منهم وكذا سعيد
كذاك أبو عبيدة فهو منهم وطلحة والزبير ولا مزيد^(٢)

(١) اقرأ سيرة هذين الفارسين الكريمين في كتابنا «فرسان حول الرسول ﷺ» بجزأيه.
(٢) انظر كتاب: بهجة المحافل للعامري؛ وقوله: «الثلاثة»: أي: أبو بكر، وعمر، وعثمان، عليهم صحابات الرضوان.

هذا وقد تفنن العلماء والشعراء في نظم أسماء العشرة المبشرين بالجنة، وقد تتبعت ذلك فحصل عندي أشعار كثيرة يمكن أن تكون في كتاب وحده، ومن أمثلة ذلك ما قاله عبد القادر المارداني - رحمه الله -:

قد بشر المصطفى من صحبه برضا رب العباد أناساً فضّلهم غابر
عتيق فاروق عثمان ابن عوف علي سعد سعيد زبير طلحة عامر
وقال المارداني أيضاً:

بجنة الخلد خير الخلق بشر من بذكر أسمائهم نظمي حوى شرفا
سعد سعيد زبير وابن عوف أبو عبيدة طلحة والأربع الخلفا

انظر: (الضوء اللامع ٤/ ٢٧٦)

وقال محمد بن عبد الله القيسي في المبشرين بالجنة من العشرة:

وعشرة خير صحب بالجنان أتى وعُد النبي لهم سرّداً بلا خلل
عتيق عثمان عامر طلحة عمر ال زبير سعد سعيد ابن عوف علي

انظر: (الضوء اللامع ٨/ ١٠٦)

ونظم الحافظ العراقي - رحمه الله - العشرة المبشرين بالجنة؛ وقد ذكر العمران =

* في هذه الأسرة القرشيّة الكريمة، نشأت آمنه بنت وهب ترفل في ثياب العزّ والمجدِ والسُّودِ والفخار، ناهيك بالشرفِ الوافي، وقد جمعت آمنه الشرف من أطرافه:

فأبوها: وهب بن عبد مناف، السيّد الحسيب الشريف الزّاكي.

وجدّها لأبيها: عبد مناف بن زهرة الذي جمع أطراف المجد من جميع نواحيه، وكان اسمه يُقرن باسم ابن عمّه عبد مناف بن قصي، فيقال: المنافان تعظيماً وتكريماً.

* ولم يكن نسب آمنه من جهة أمّها أقلّ حسباً وشرفاً من نسبها من جهة أبيها، فقد كانت سلالتها عريقة أصيلةً يمنيةً ويُسرةً، ورثت المجد كابرًا عن كابر:

فأمّها: برة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي بن كلاب. وجدتها لأمتها: أم حبيب بنت أسد بن عبد العزى بن قصي.

* هذا العقد النفيس الذي كانت آمنه إحدى فرائده، بل كانت واسطته، وليكون رسول الله ﷺ من أنفُسِ النَّاسِ نسباً وحسباً، وخيرهم وأزكاهم أصلاً، والله ذو البوصيري حينما قال:

نَسَبٌ تَحَسَّبُ الْعُلَا بِحُلَاهُ قَلْدَتْهُ نَجْوَمَهَا الْجِوَزَاءُ
حَبْدًا عِقْدُ سُودِدٍ وَفَخَّار أَنْتَ فِيهِ الْيَتِيمَةُ الْعَصْمَاءُ

آمنه وصفاء النشأة:

* في بيت بني زهرة^(١) العريق، كانت نشأة آمنه بنت وهب، وفي هاتيك البقاع الطاهرة درجت آمنه قرب البيت العتيق، فكانت تخرج مع أترابها نحو

= وهما: أبو بكر وعمر، فقال:

وأفضل أصحاب النبي مكانة ومنزلة من بُشروا بجنان
سعيد زبير سعد عثمان عامر علي ابن عوف طلحة العمران

(١) «زهرة»: بضم الزاي، وإسكان الهاء؛ وأما الزهرة التي هي النجم: فبضم الزاي وفتح الهاء. والزهرة في الأصل: هي البياض.

الكعبة، وترى الدور التي تحيط بالحرم، وكانت دُور بني زهرة وبني هاشم أقرب بيوت أهل مكة إلى البيت العتيق، فقد كانا أشرف حَيَّين من العرب .

* ويبدو أنَّ مرحلة طفولة آمنة بنت وهب كانت طفولة بريئة، فقد كانت تقفُ قرب الكعبة، وترى الطائفين، كما كانت ترى بئر زمزم الذي يروي الحجيج، وترى كذلك ما حبا الله قريشاً من مكانة وعزٍّ، فكانت على الرِّغم من حداثة سنِّها تشعرُ بأنَّها من أشرف بيوت قريش .

ولكنَّ هذه الطفلة البريئة لم تكن تحسُّ في أعماقها - وهي تقفُ قرب الصِّفا والمروة - بأنَّها أشرف من وطئت قدماها الرِّمال التي وطأتها نساء عصرها، فمنها سينبعث الثور الذي سيخرجُ من مكة ليغمر وجه الأرض كلها .

* وكانت آمنة تدخلُ مع لِداتها الحرم في معظم الأيام، فترى مقام إبراهيم - عليه السَّلام - ثمَّ ترى بئر زمزم، فتنتقل مع صويحباتها نحوه فيشربن منه، ثمَّ ينطلقن ليطفن بالبيت العتيق مع الطائفين .

* وكانت الأصنام منصوبة في الكعبة ومن حولها، وكان كثير من النَّاس يعبدونها لتقرَّبهم إلى الله رُفئى، بينما كانت الطفلة آمنة تنظر إليها في ربيبة، فقد علمت أنَّ جدَّها «أبو كبشة» قد هجر هذه الأصنام وكفَّر بها، وسخَّر من عبادة الأصنام التي لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، وقد سمعت آمنة من أهلها بدعوة أبي كبشة الذي عبدَ كوكب الشعري، وما سنَّه للعرب من عبادة الكواكب، وتسفيه أحلام قومه .

* ولعلَّ آمنة كانت تحسُّ براحة كُبرى كلما لاذت بالبيت العتيق، وتشعرُ بانسراح يملأ وجدانها، ونور ينتشر في جوانب نفسها، وأنَّ قلبها الصَّغير قد اتَّسع ليحتوي الكون كله، ولم تكن تدري بأنَّها ستكون أشهر أمهات الأنبياء على الإطلاق .

* وتمضي الأيام، وتكبر آمنة، وتتوضَّح الأشياء في ذهنها أكثر، فكانت تسمع ما يتناقله النساء من الأخبار والكهَّان على أنَّه كائن في هذه الأمة نبي،

وكانت النسوة يطمعن أن يكون هذا النبيّ منهنّ، لا سيما وأنّه سيكون من العرب، ومن سكّان الحرم.

* وكانت نسوة من قريش قد عُرفنَ بالفِرَاسَة يُنظَرْنَ في وجوه فتیان قريش، بل إنّ عدداً منهن قد تفرّسنَ وقلّبنَ أبصارهُن في وَجْهِ عبد الله بن عبد المطلب والد النبيّ ﷺ، واستراحتْ نفوسُهُنَّ إليه، وتوقَّعنَ أن يكون النبيّ ﷺ منه؛ لأنّ ملامح ذلك كانت تنبعثُ من وجهه الجميل، وجبينه الأزهر.

* كان وهبٌ والد آمنه ينظرُ إلى ابنته نظرةَ عطفٍ وحنانٍ، ويشعرُ بأنّ هذه الفتاة لها شأنٌ ما؛ ولكنّه لم يستطعَ أن يفسرَ ذلك، إلّا أنّ قلبه، وإحساسه، وعواطفه قد أسرَّتْها وحيدته آمنه، فكان يشعرُ بالاطمئنان يسري في حناياه، ويداعبُ وجدانه.

أَفْضَلُ فَتَاةٍ:

* عندما تعرّض ابنُ هشام - رحمه الله - في السيرة إلى ذِكْرِ آمنه بنت وهب، تفتّحت أزهارُ قريحته عن وصف سيّدة الزُّهريات بقوله: وكانت يومئذ أفضل فتاة في قريش نسباً وموضعاً^(١).

* وهذه كلمة حقّ، فلقد درجت آمنه في بيئة طابَ أصلُها، وزكا فرعُها؛ وتفتّحت أزهارُ صباها في أسرة لها من أصالة النّسب، وذروة الحسب، ما تزهو به في مجتمع مكة - يومذاك -، ذلك المجتمع الذي كان يفخرُ بكرم الأصول، وطيبِ الأعراق، بل إنّ عراقة الأصل كانت منى غاياته، وغايات مناه.

* نشأت آمنه بنت وهب نشأة عطرة؛ فشدّا سيرتها الزّاكية المعطار ينبعث من بيتها، فتملأُ أسمع مكة، وتدلُّ على أدبها الكامل، وتشيرُ إلى طهرها وطهارتها، ممّا جعلها درة قريش، ویتيمة الدّهر في ذلك الوقت والعصر.

* ومَرَّتِ الأيام، وتوالى الشُّهور، وتعاقبتِ السّنون، وفتاة زهرة تعيشُ

(١) السيرة النبوية لابن هشام (١٥٦/١).

بين أهلها، ومع لِدَاتِهَا حَيَاءٌ تُجَلِّلُهَا السَّعَادَةُ وتعلوها بِسَمَاتُ الأَيَّامِ، وكانت تشعرُ باطمئنانٍ يغلفُ كِيَانَهَا لا تدري ما مصدره، ولكنَّها حقيقةً استقرَّتْ في أعماقها، فبدتْ علائم الرِّضا على وجهها.

* وذاتَ يومٍ، دخلتْ آمَنَةُ خِدْرَهَا، فإذا بها ترى أبويها يرقبانها، وينظران إليها باهتمام بالغٍ، وإذا بها تسمعهما وهما يتتاجيان بصوتٍ خافتٍ، ولكنَّ أمَّها برة بنتُ عبدِ العزى كانت عاقلةً لبيبةً، فأقبلتْ نحوها وقالت لها في هدوءٍ واتزانٍ: يا آمَنَةُ سيأخذك أبوك إلى دارِ النَّدوة، فاستعدي لذلك.

* وطافتِ الأفكارُ برأسِ آمَنَةٍ، فدَارُ النَّدوة تعني الحدَّ الفاصلَ بين سنِّ الطفولة، وبين سنِّ الشَّباب، فقد أضحتْ آمَنَةُ فتاةً كبيرةً، وتلاشتْ طفولتها شيئاً فشيئاً، ليحلَّ مكانها سنُّ الشَّباب... هاقد أصبحتْ آمَنَةُ شابةً، وعليها أنْ تُحْتَجَبَ.

* وتأنَّبتْ آمَنَةُ للانطلاق إلى دارِ النَّدوة مع أبيها الذي جاء وأخذها، ثمَّ انطلقَ بها نحو الكعبة، وراحا يطوفان بها سبعةً أشواطٍ، ومن ثمَّ انطلقا إلى دارِ النَّدوة - وكانت الدَّارُ لبني عبد الدار بن قصي - وكانوا يقومون بمراسم الزَّواج والخِتَان، والفَصْلِ بين النَّاس في قضاياهم.

* وفي الدَّار تقدَّمتْ آمَنَةُ - ومنْ هُنَّ في سنِّها - وجاء المكلَّفُ بِحُجْبِ فتيات مكة، فشقَّ قميصها، ثمَّ حجب به وجهها، فكان ذلك إيذاناً بأنَّها قد حُجِبَتْ، وعادتْ آمَنَةُ إلى دُورِ بني زُهرة وقد ضُربَ عليها الحجابُ، وحِيلَ بينها وبين مرحلةِ الطفولة.

* ومنذ ذلك الحين، أضحتْ عيونُ النِّساء ترقُبُ فتاةَ بني زُهرة التي غَدَتْ في مصافِّ النِّساء، وغدتْ إحدى عقيلات بني زُهرة اللواتي يُضْرَبُ بهنَّ المثل في الجَمالِ وكمالِ الأخلاق، ناهيك بالحسبِ الرَّاكي، والنَّسبِ العريق.

بشائرُ الخيرِ:

* تحكي قصصُ نساءِ عصرِ الجاهليَّة قصَّة «سودة بنت زهرة» عمَّة

وهب بن عبد مناف؛ بأنها لما وُلدت جاءت زرقاء، فتشاءم أبوها لما رآها على هذه الحال، وأمر بوأدها، فأرسلها إلى الحجون لتُدفن هناك، فلما حفر لها الحافر، وأراد أن يدفنها، سمع هاتفاً يقول: «لا تَدِ الصَّبِيَّةَ، وخَلِّها البرية».

* والتفت الرجل فلم ير شيئاً، فعاد لدفنها، ثم إنه سمع الهاتف مرة أخرى يقول: «لا تَدِ الصَّبِيَّةَ، وخَلِّها البرية»، فالتفت فلم ير شيئاً ولم يجد أثراً لشيء، فعاد ثالثة لدفنها، فسمع الهاتف يسجع بسجع آخر في المعنى، وإذا ذاك ألق عن وأدها، وعاد إلى أبيها، وأخبره بما سمع، فقال: إن لها لشأناً؛ وتركها، فكانت كاهنة قريش، وكانت ذات فِراسة لا تكاد تخيب^(١).

* كانت سودة هذه تجوس دُور قريش وبني زهرة، وذات يوم جاءت إلى دار ابن أخيها وهب، فخفت إليها نسوة بني زهرة وفتياتها يرحبن بها، ويسمعن أحاديثها العذاب، فقد كانت ماهرة في الكهانة، وكانت تخبرهن بأشياء لطيفة تُدخل بها الإيناس إلى قلوبهن العطشى لأحاديث الأيام وما غبر منها، وربما توقعت ببعض ما ستبديه الأيام.

* كانت سودة تنظر في النجوم، وتلتقي بعض الكواهن، حتى غدت إحدى شهيرات النساء في هذا المضمار^(٢)، وجاءت بعض فرائسها موافقة لما أنبأت به نسوة قومها، فقالت عنها قريش: إنها تنظر بنور الله.

(١) انظر: بلوغ الأرب للآلوسي (٤٣/٣ و ٤٤) بتصرف يسير جداً؛ وانظر: السيرة الحلبية (٧٣/١ و ٧٤)؛ ومن الجدير بالذكر أن عمرو بن نفيل كان يُحيي المؤودة لأجل الإملاق، يقول للرجل إذا أراد أن يفعل ذلك: لا تفعل أنا أكفيك مؤونتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤونتها.

انظر: (السيرة الحلبية ٧٣/١).

(٢) اشتهر بالكهانة في العصر الجاهلي نسوة أخريات منهن: سلمى الهمدانية، وعُفراء الحميرية، وفاطمة بنت مَر الخثعمية، وطريفة، وزبراء، وغيرهن كثيرات، وقد ذكر الآلوسي ترجمتهن. انظر (بلوغ الأرب ٢٧٥/٣) وما بعدها.

* وأعدتْ نسوةُ بني زُهرة مَجْلِساً لطيفاً لسودةَ الكاهنةِ ثم تَحَلَّقْنَ حولَها، وتعلَّقْنَ بما ستقوله هذه الكاهنة ذاتِ اللونِ الأزرقِ والشَّكلِ الدَّميمِ، وأصاحتِ النسوةُ أسماعهن، فراحتْ سودةُ تتفرسُ في وجوه الجالساتِ مِنْ حولِها؛ ثم إنَّها قالتَ لهنَّ: إِنَّ فيكم يا بني زُهرة نذيرة، أو تِلْدُ نذيراً، فاعرضوا عليَّ بناتِكم^(١).

* وعرضتْ أمهاتُ بني زُهرة بناتهنَّ على سودة، فراحتْ كاهنةُ قريشٍ تتنبأُ وتقولُ في كلِّ واحدةٍ منهن قولاً ظهرَ بعد حينٍ.

* وسادَ المكانَ صمتٌ وهدوءٌ يشوبُه قلقٌ ولهفةٌ، فما مِنْ فتاةٍ مِنَ اللائي عُرِضْنَ عليها كانتِ التَّذيرةُ، أو التي ستلدُ التَّذيرَ!!!

* وجاءت برةُ بنتُ عبدِ العزى، فقدَّمتْ ابنتها آمنةً إلى سودة، وراحتِ الكاهنةُ تطيلُ النَّظرَ فيها، وتتفرسُ في ملامحها، وانتشرَ في المكانِ سكونٌ امتصَّ اهتمامَ كلِّ واحدةٍ ممن كُنَّ في المجلسِ، ورُحْنٌ يَرِقْبَنَ باهتمامٍ بالغٍ حركاتِ الكاهنةِ التي بدا في وجهها الاهتمامُ الشَّدِيدُ بآمنة، بل كَتَمَتْ أنفاسُها برهةً، ونظرت إلى السَّماءِ نظرةً خاطفةً، ثمَّ إلى وجهِ آمنة، وأرسلتْ زفرةً عميقةً انبسطتْ على إثرها أساريُّها، وظهرَ عليها طمأنينةٌ شدَّتْ أنفاسَ وأنظارِ النسوةِ الزُّهرياتِ اللواتي كُنَّ جميعاً كالأذنِ الواعيةِ الصَّاغيةِ، ثمَّ قالت في لهجةِ الهدوءِ: هذه هي التي ستلدُ التَّذيرَ^(٢).

* وسرَى صوتُ سودةَ عَذْباً ندياً سَاحِراً أسراً رقيقاً رقيقاً، ومسَّ سَمْعَ آمنةَ ولا مَسَّ قلبُها، فأطرقت حياءً، ونغماتِ الفرحِ تدوي في حناياها.

* ألا ما أُحِيلِي تلكَ الهمساتِ! بل ما أجملُ تلكَ الأويقات التي سمعتُ بها تلكَ الكلماتِ: هذه هي التي ستلدُ التَّذيرَ!!!

* وراحتْ هذه الكلماتُ تطوفُ في نَفْسِ آمنة، وتجوب في أغوارها حتى

(١) انظر السيرة الحلبية (١/ ٧٤).

(٢) انظر: بلوغ الأرب (٣/ ٤٤) بشيء من التصرف.

استقرَّت في أضالع حناياها، وظلَّت شيئاً جميلاً لا يُفارق وجدانها، ترى هل يتحقق ما قالتة سودة هذه؟! .

زَوَاجٌ مَيِّمُونَ:

* كَانَ فِي بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَتًى يُعَدُّ زَهْرَةً فَتَيَانٍ قُرَيْشٍ، وَقَمَرِ نَجُومِهَا الزَّوَاهِرِ، وَقَدْ أَصْبَحَ مِلءَ الْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ - خُصُوصاً بَعْدَ قِصَّةِ فِدَائِهِ بِمِئَةِ مَنِ الْإِبِلِ - هَذَا الْفَتَى الْوَسِيمُ هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ الْهَاشِمِيُّ الْقُرَشِيُّ .

* وَهَاهُوَ ذَا عَبْدَ اللَّهِ قَدْ غَدَا شَاباً جَمِيلاً، قَوِيَّ الْبَنِيَانِ، بَهِيَّ الطَّلْعَةِ، تَلُوحُ عَلَائِمُ الْحُسْنِ عَلَى وَجْهِهِ النَّضْرِ، تَشْهَدُ لَهُ، لَا عَلَيْهِ؛ وَكَانَ عَبْدَ اللَّهِ بِالإِضَافَةِ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ نَسِيباً حَسِيباً شَرِيفاً أَصِيلاً، ثَابِتَ الْأَصُولِ فِي مَجْدِ الْعِرَاقَةِ، مَتَطَاوَلَ الْفُرُوعُ فِي أَقْفِ السِّيَادَةِ، وَلَا عَجَبُ أَنْ يَغْدُو مَطْمَعَ الْأَمَالِ، وَغَايَةَ الْأَمَانِي، وَحِرْزاً لِلْغَيْدِ الْحَسَانِ، مِنْ شَرِيفَاتٍ وَفَضْلِيَّاتٍ قُرَيْشٍ، بِأَنْ يَصْرَنَ زَوْجاً لِهَذَا الْفَتَى الْكَرِيمِ النَّبِيلِ؟! .

* كَانَ فِي عَبْدِ اللَّهِ شَيْئاً غَامِضاً جَمِيلاً مُثِيرًا، شَدَّ بَعْضَ نَسْوَةِ قُرَيْشٍ إِلَيْهِ، لَقَدْ كَانَ فِيهِ شَيْءٌ تَتَفَتَّحُ لَهُ الرُّوحُ قَبْلَ أَنْ يَحِنَّ إِلَيْهِ الْجَسَدُ، إِنَّ فِيهِ إِشْرَاقاً رَائِعاً لَمْ يَكُنْ مِثْلُهُ فِي شَبَابِ قُرَيْشٍ، إِنَّ فِيهِ سِرّاً لَا يَعْرِفُ أَحَدٌ حَقِيقَةَ كُنْهِهِ، لَكِنَّ كَثِيراً مِنَ الْمُشْتَغَلِينَ بِالْكَهَانَةِ تَوَقَّعُوا أَنْ يَكُونَ لِهَذَا الْفَتَى شَأْنٌ مَا .

* وَكَانَ لِعَبْدِ الْمُطَّلِبِ عَشْرَةُ بَنِينَ، وَلَكِنَّهُ كَانَ يَحْسُبُ بِمِثْلِ خَاصٍّ نَحْوَ ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ يَخْتَلِفُ عَنْ مِثْلِهِ لِسَائِرِ إِخْوَتِهِ، وَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ لَا يَدْرِي مَا السِّرُّ فِي مِثْلِهِ هَذَا لِعَبْدِ اللَّهِ، وَخُصُوصاً بَعْدَ فِدَائِهِ مِنْ قِصَّةِ الذَّبْحِ الْمَشْهُورَةِ، وَخِلَاصَتِهَا أَنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ نَذَرَ نَحْرَ بَعْضِ وَلَدِهِ إِنْ سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ حَفَرَ زَمْزَمَ، فَلَمَّا تَمَّ لَهُ مَا أَرَادَ أَسْهَمَ بَيْنَ وَلَدِهِ، فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، فَهَمَّ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِذَبْحِهِ، وَلَكِنَّ إِخْوَتَهُ وَقَوْمَهُ أَشَارُوا عَلَيْهِ أَنْ يَفْدِيَهُ بِالْمَالِ، فَأَسْهَمَ عَلَيْهِ عَشْرَةَ مِنَ الْإِبِلِ، فَخَرَجَ السَّهْمُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ، ثُمَّ مَا زَالُوا يَزِيدُونَ عَشراً حَتَّى بَلَغَتِ الْإِبِلُ مِئَةً، عِنْدَئِذٍ وَقَعَ السَّهْمُ عَلَى الْإِبِلِ، وَفَدِيَ عَبْدَ اللَّهِ .

* وَبَعْدَ هَذِهِ الْحَادِثَةِ رَأَى عَبْدَ الْمُطَّلِبِ أَنَّ يَزُوجَ عَبْدَ اللَّهِ بِكُرٍّ مِنْ كُرَائِمِ بَيُوتَاتِ قُرَيْشٍ، وَفَكَرَّ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ فِيمَنْ تَكُونُ قَرِينَةً لِابْنِهِ الْأَثِيرِ الْوَسِيمِ،

فَهْدَاهُ تَفْكِيرَهُ إِلَى الْحَسِيْبَةِ الْمُعْرِقَةِ فِي النَّسَبِ، فَتَاةَ بَنِي زُهْرَةَ آمَنَةَ بِنْتُ وَهْبٍ، فَهِيَ الَّتِي تَتَفَرَّدُ بَيْنَ نِسَاءِ قُرَيْشٍ وَبَنِي زُهْرَةَ بِفَضَائِلَ وَمَكَارِمَ لَا تُوجَدُ فِي غَيْرِهَا.

* وَلَمَّا قَوِيَ عَزْمُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ عَلَى ذَلِكَ، أَرْسَلَ إِلَى بَنِي زُهْرَةَ يَخْبِرُهُمْ بِرَغْبَتِهِ فِي زَوَاجِ ابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ ابْنَتِهِمْ آمَنَةَ، وَبَلَغَ الْخَبْرُ وَهْبَ بْنَ عَبْدِ مَنَافٍ، فَرَحَّبَ بِذَلِكَ، وَبَعَثَ مَنْ ذَهَبَ إِلَى دُورِ بَنِي زُهْرَةَ بِالْبُشْرَى وَقَالَ: إِنَّ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ بْنَ هَاشِمٍ زَعِيمُ قُرَيْشٍ وَشَرِيفُهَا قَادِمٌ هُوَ وَابْنُهُ عَبْدِ اللَّهِ مِنْ أَجْلِ آمَنَةَ.

* وَانْتَشَرَ هَذَا النَّبَأُ بَيْنَ نِسَاءِ بَنِي زُهْرَةَ، فَفَاضَتْ الْقُلُوبُ بِالسُّرُورِ، وَأَسْرَعَتْ بَرَّةُ بِنْتُ عَبْدِ الْعُزَّى لَتَرْفَ إِلَى ابْنَتِهَا آمَنَةَ هَذَا الْخَبْرَ الْكَرِيمَ السَّارَّ، وَقَالَتْ لَهَا وَقَدْ بَدَتْ عَلَائِمُ الْفَرَحِ عَلَى وَجْهِهَا: يَا آمَنَةُ؛ إِنَّ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ سَيِّدَ قُرَيْشٍ قَادِمٌ لِيَزَوِّجَكَ عَبْدِ اللَّهِ.

* وَيَبْدُو أَنَّ آمَنَةَ قَدْ أَطْرَقَتْ حَيَاءٌ عِنْدَ سَمَاعِهَا هَذَا الْخَبْرَ، - وَإِنْ أَشْرَقَتْ أَسَارِيرُهَا - وَبَدَأَ قَلْبُهَا الطَّاهِرُ يَخْفِقُ بِأَعْدَبِ خَفَقَانٍ فِي الْوُجُودِ، وَأَعْظَمِ خَفَقَانٍ يَحَقِّقُ أَحْلَامَ فِتْيَاتِ قُرَيْشٍ اللَّوَاتِي كُنَّ يَحْلُمْنَ لَوْ يُرْفُ إِلَيْهِنَّ ذَلِكَ النَّبَأُ الْجَمِيلُ الْمُفْرِحُ.

* وَأَعْتَقَدُ أَنَّ آمَنَةَ عِنْدَمَا سَمِعَتْ مِنَ الْكَاهِنَةِ سُودَةَ الزَّهْرِيَّةِ مَا سَمِعَتْ مِنْذُ مَدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ، أَصْبَحَتْ الْأُمْنِيَّاتُ تَتَرَاقَصُ أَمَامَ خَيَالِهَا، وَأَضْحَتْ أَعَزَّ أُمْنِيَّاتِ حَيَاتِهَا أَنَّ يَأْتِيَ الْبَشِيرُ بِأَعْدَبِ نَبَأٍ يَهْفُو إِلَيْهِ فُؤَادُهَا، وَتُبْسَطُ لَهُ أَسَارِيرُهَا، وَهِيَ هِيَ الْبَشِيرُ يَأْتِي فَيُلْقِي الْحُلْمَ الَّذِي غَدَا حَقِيقَةً، وَمِنْ هَذَا الْبَشِيرِ؟! كَانَ أُمُّهَا الْحَبِيبَةُ الَّتِي حَمَلَتْ إِلَيْهَا الْبُشْرَى وَهِيَ مَتَهَلِّلَةُ الْأَسَارِيرِ. وَمَنْ هُوَ الْخَاطِبُ؟ إِنَّهُ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ زَيْنَةُ فِتْيَانِ قُرَيْشٍ وَزُهْرَةُ شَبَابِهِمْ، إِنَّهُ الْحَسِيبُ النَّسِيبُ الْأَصِيلُ الشَّرِيفُ.

* اللَّهُ أَكْبَرُ، أَلَا مَا أَحْلَى هَذِهِ الْبُشْرَى، وَمَا أَجْمَلَ تِلْكَ اللَّحْظَاتِ الَّتِي سَمِعَتْ فِيهَا تِلْكَ الْكَلِمَاتِ الْعِذَابِ وَهِيَ تَنْبَعُ مِنْ فَمِ أُمِّهَا: يَا آمَنَةُ إِنَّ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ سَيِّدَ قُرَيْشٍ قَادِمٌ لِيَزَوِّجَكَ عَبْدِ اللَّهِ.

* ها هي آمنة تستشعر أنَّ الوجودَ كله يخفقُ بالفرح ، وأنَّ جبالَ مكة وأوديتها تترنُّمُ بأهازيجِ البهجة ، وتشدو بأعذبِ أنغامِ الشُّرور .

* وها هي آمنة أيضاً تفيقُ من حلمها ، لتحلّقَ في حُلُم آخر ، فإذا بها تستشعرُ بأنَّ إشراقاتِ باهرة قد أطلّت على الكونِ فغمرتَه بأنوارٍ لطيفة تملأُ النفوسَ أمناً ووثاماً ومودة .

* لقد حلّقتُ آمنةً ثانيةً حتى أحسّت كأنما تسبحُ في فضاءٍ رَحْبٍ هواءُه الحبورُ والشُّرور ، ولكنها لمحتُ في تلك اللحظات أنَّ عيني أمّها مصوبتان نحو وجهها المنير ، فراحتُ تجاهدُ نفسها لتداري حقيقةَ مشاعرها ؛ إلا أنَّ وجهها كان مرآةً صادقةً للمشاعرِ النَّاعمة التي ارتسمتُ عليه ، وراحتُ أمُّها ترنو إليها بعينين قد طفرتُ منهما دموعُ الفرح ، وقد هزَّتْها نشوةُ الشُّرور هزّاً .

* وقدمَ شيخُ قریش وسيِّدُها عبد المطلب وفي صحبته ابنُه عبد الله ، ودخل دار وهبٍ في دور بني زُهرة ، ومعه عددٌ من بناته ونسوة من بني هاشم ، ودخل وهبٌ على ابنته وقد تألّقتُ عيناهُ سروراً بهذه المُصاهرة الكريمة ، وقال لها : يا بُنية ، إنَّ شيخَ بني هاشم قد جاء يطلبك زوجةً لابنه عبد الله .

* وسرّت موجةً من الخجلِ جعلتُ آمنة تُسبِلَ عينيها أمامَ أبيها وهو يقرأُ عليها نبأَ الفرحة التي ملأتْ جوانحها ، ولكنَّ وهباً لم ينتظرُ من آمنة ردّاً ، فعلاماتُ الشُّرور المرتسمة على الوجوه ، والكلماتُ التي تنبعثُ من القلوب ، وتسيلُ على الشِّفاه ، أبلغ تعبيرٍ يشيرُ بكلِّ أصابع الودِّ إلى التَّرحيب بهذه المُصاهرة الرَّائعة .

* لقد كانتِ السَّعادة غامرةً ، والفرحةُ هائلةً في بحارِ الشُّرور ، وكلّ هذه الإشراقاتِ الهامسة لَفَّتْ دارَ وهبٍ ، وغمرت كلَّ مَنْ فيها من رجالٍ ونساء وفتيان وفتيات ، بل إنَّ تلكم الإشراقاتِ الآسرة قد فاحتُ حتى ملأتْ دُورَ بني زُهرة ، ثمَّ دورَ مكة كلّها ، ولم يحسَّ بالحسرة والألم ، إلا قلوب أولئك الفتيات اللواتي كنَّ يطمعنَ ويرغبنَ في زواجِ عبد الله ، وكَدَنَ يُمَتِّنَ حَسرةً إذ

لم يتزوجنَ عبد الله، وتحطّمت أحلامهنَّ، وراحت تَذروها رياحُ الخيبة، وتعصفُ بها أعاصير الحسرات.

* واجتمعَ رجالُ بني هاشم، ورجال بني زُهرة، وجلس عبد الله بنُ عبد المطلب متسربلاً بالجمال وإشراق الطَّلعة بين أبيه وإخوته ومنْ حوله منْ باقي أقاربه، بينما جلستُ آمنَةُ بنت وهب فتاة بني زهرة في نسوةٍ من قريش، وكانت تتيهُ بجمالها وشرفها ومقامها على بنات أشراف مكة وساداتها.

* كان ذلك الجمعُ يحتفون ويحتفلون بذلك الرِّباط الوثيق الذي سيربطُ بين أفضلِ حيَّين في العرب، بل وقريش؛ يربطُ بين بني هاشم وبني زُهرة، بل ويربطُ أيضاً بين أفضل رجل وامرأةٍ سيأتي منهما أعظم نبيٍّ أُرسل في الأوّلين والآخريين، سيّدنا وحبيبنا محمّد رسول الله ﷺ.

* وكعادة العرب في الزّواج، نهضَ عبد المطلب، وألقى خطبة الزّواج، وأخذ يعدّد مناقب قريش وبني هاشم، ثمّ طلب من وهب أن يزوّج عبد الله آمنَةَ، فقام وهبٌ وعدّد مناقب بني زُهرة، ثم أنعم بزواج عبد الله وابنته آمنَةَ، فقام جميعُ الحضور مهئين هذا الزّواج الميمون.

* وطارَت النسوة الهاشميات والزّهريات إلى آمنَةَ يقبلُنها ويتمنين لها السُّرور والسَّعادة، ويبدو لي أنّ سودةَ عمّة وهب كاهنة مكة، لم تكن بمعزلٍ عن هذا الجمع الأليف اللطيف، فقد كانت تقفُ وتجيلُ فيهنَّ الطّرف، وها هي قد وقفت تتفرّسُ في وجهِ آمنَةَ، لقد تذكّرت أنّها تنبأت لها ذات يوم بأنّها ستلدُ نديراً، وها هي الآن ترى في وجهها شيئاً مُثيراً يهزُّ وجدانها، وقد عجزتْ هي وكهانتها أن تكشفَ اللثامَ عن حقيقته، أو تزيل حُجب الأسرار عن ماهيته، فهو شيءٌ رائعٌ لم ترَ في وجوه فتيات العرب مثله، إنّه شيءٌ جميلٌ تهفو إليه الأرواحُ، ولكنّه يستعصي على فِراسة الكهان والكاهنات، والعرافين والعرافات، والزّاجرين الطّير والزّاجرات.

* كان رجالُ قريش ونسائُها، ورجال بني زُهرة ونسائُها فرحين مستبشرين بزواج آمنَةَ وعبد الله، فأمنَةُ أفضل امرأةٍ في قريش نسباً

وموضعاً^(١)، وهي زهرة بني زهرة، وعبد الله فتى قريش وريحانة أبيه.

* وبني عبد الله بن عبد المطلب سيد فتیان قريش بزوجه آمنة بنت وهب سيّدة نساء بني زهرة، فأقام عندها ثلاثاً على عادة العرب في ذلك، وكانت تلك السنّة عندهم إذا دخل على امرأته في أهلها أقام عندها ثلاثاً.

* كانت ليلة بناء عبد الله بآمنة ليلة لها قدرها، وما من أحد في مكة قدّر عظم تلك الليلة حقّ قدرها، فقد كانت بحقّ ليلة مباركة متفرّدة من أيّام الزّمان، بل لم يجد الزّمان من قبلُ بمثلها، ليلة قدّر لها بأن تكون مبدأ من سيّجعله الله رحمة للعالمين، كانت ليلة طيبة العبير، نديّة الأريج، ملأ شذاها أرجاء الدّار، بل أرجاء البسيطة، إذ حملت آمنة بنور الهدى والرحمة المهداة محمد ﷺ.

* ومَرَّتِ الأيام الثلاثة المباركة السّعيدة التي أمضاها عبد الله وآمنة في بيت وهب، ثمّ إنّّه أخذها وانطلقا إلى داره قرب البيت العتيق، وما كانت آمنة تدري - للوهلة الأولى - أنّها قد حملت بدعوة إبراهيم أبي الأنبياء - عليه السّلام - هاتيك الدعوة المباركة التي ظلّت تخفق في قلب الوجود منذ مئات السنين، بل من الماضي البعيد، يوم أن رفع إبراهيم وابنه إسماعيل القواعد من البيت؛ يومها دعا إبراهيم - عليه السّلام - فقال: ﴿رَبَّنَا اقْبَلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿البقرة: ١٢٧ - ١٢٩﴾.

* كان عبد الله مُدْ بني بآمنة يستشعر في أعماقه أنّ شيئاً عظيماً مُثيراً قد حَدَثَ، ولكّنه لم يدرك سرّه، فقد شعر منذ الليلة الأولى، التي التقى فيها آمنة؛ بأنّها ليلة رائعة لم ير أجمل منها طوال حياته.

* وجلس عبد الله قرب البيت العتيق، ينظر إلى الكعبة وقد أرخى الليل

(١) «نسباً»: من جهة الأب؛ «موضعاً»: من جهة الأم.

سدوله على الدنيا، إلا أنَّ القمرَ كان يتوسَّط السَّماء، ويرسلُ أشعته إلى جبال مكة وأرضها، وقد انسكب ضوءه على البيتِ العتيق فغمره بنور لطيف.

* كان عبدُ الله ينظر إلى القمرِ نظرةً تختلفُ عما قبل، إنه طالما سرى في الليالي العديدة، وطالما أحسَّ سحرَ القمر وتذوَّق جماله، ولكنه الآن يرى القمر في تلك الليلة شيئاً آخر، كأنه كان أكثر تألقاً ممَّا كان، وكأنَّ أشعته الفضية عواطفُ حانية ساحرة مفعمة بخيوط المحبة، تحتوي الوجود كله بين لحمتها وسُداها، وقد هبَّ نسيمُ الليلِ رخاءً، كأنما يحملُ بشرى ورحمة للناس كافة.

* إنَّ أريجَ تلك الليلة لا يزالُ طيباً في أعماقه، وإنَّه لفي دهشةٍ من أمره، أفاحَ الطيبُ من أرجاء الدنيا حقاً، أم انبعثَ من نفسه؟! فقد أحسَّ برائحة المسك الأذفر منذ تلك الليلة المباركة التي بنى فيها بآمنة، ورأى الدنيا تتلأل بالبهجة والإشراق، ورأى الوجودَ باسمًا من حوله، لكنه لا يدري ما سرَّ ذلك.

أحلامٌ وآمالٌ:

* كان فتى قریش عبد الله بن عبد المطلب يعيشُ على سُنَّة آبائه الأماجدِ تاجراً سَفَّاراً، يذهبُ مع تجار قریش في رحلاتهم التَّجاريةِ إلى أسواقِ العرب^(١)؛ وإلى متاجر اليمن والشَّام.

(١) ذكر الآلوسي وغيره كثيراً من أسواقِ العرب في ذلك العصر، وذكر مواقيتها وأماكنها، ومن تلك الأسواق التي ذكرها:

١ - سوق عكاظ: وهي من أعظم أسواق العرب؛ وعكاظ: واد بين نخلة والطائف، وهو أقرب إلى الطائف، وكانت سوق عكاظ تُقام أيام موسم الحج، وتحضرها كلُّ القبائل، وبها كانت مفاخرة العرب، وحالاتهم، ومهادنتهم.

٢ - سوق مجنة: موضع قرب مكة، تقومُ سوقها قرب أيام الحج، ويحضرها كثير من قبائل العرب.

٣ - سوق ذي المجاز: كانت بناحية عرفة إلى جانبها.

* لم يكن عبد الله واسع الثراء، كثير المال كأصحاب المضاربات، وكأولئك المرابين من سفاسف تجار قريش، ولكنه لم يكن كذلك فقيراً معدماً مُملقاً يقعده الفقر عن أسباب الكسب الطيب، والعمل للحياة من أشرف طرائقها، ولا سيما بعد زواجه آمنة بنت وهب، فقد أصبح مسؤولاً عن بيت فيه زوجته التي وجب عليه أن يعولها، ويقوم على واجباتها، وقد شعر بهذا شعوراً مَلَك عليه أحاسيسه حتى إنه لم يمهل - في أشهر الروايات وأغلبها - أن يقيم إلى جانب زوجته بعد أن بنى بها أكثر من أيام معدودات، ثم أذن مؤذُن العير بالرحيل إلى الشام للتجارة، فأخذ عبد الله يعد العدة لذلك.

* كان عبد المطلب قد وعد فتاه وفلذة كبده عبد الله بأن يبعثه إلى الشام تاجراً مع قوافل قريش، فراح عبد الله يرى نفسه بعين خياله في قافلة قريش وهي تسري إلى بلاد الشام، وتمر في أرض يثرب ذات التخل والبساتين، وتخيل أرضها الجميلة ذات السندس الخضِر، وسرى خياله بعيداً إلى أسواق الحلي، وحلم بأنه سيشتري لآمنة حلياً، ثم يعود وقد كسب مالا حلالاً من تجارته، وإذ ذلك انتبه عبد الله من أحلامه العذاب وقد أشرق وجهه بالابتسام.

* ودخل عبد الله على زوجته آمنة فألفاها تتألق بالبشر، وتقبل عليه مرحبة به كأنما قد عاد من سفر طويل بعيد، وراح الزوجان يتناجيان، فيحس كل واحد منهما أن شيئاً ما قد شد كلاً منهما إلى الآخر، وإن لم يمض على زواجهما أكثر من بضعة أيام، وأن رباطاً روحياً يخترق كل الحواجز، وكل السدود التي تقوم عادة بين نفسين وإن عاشا تحت سقف واحد بضع سنين.

= ٤ - ومن الأسواق الشهيرة: سوق هجر، وسوق عمان، وسوق سحار، وسوق الشحر، وسوق صنعاء، وسوق المشقر، وغير ذلك.

انظر (بلوغ الأرب ١/ ٢٦٥) و(تاريخ يعقوبي ١/ ٢٧٠) مع الجمع والتصرف والاختصار.

* كانت آمنة راضية كل الرضا، سعيدة كل السعادة، تحس كأنما قد احتوت الوجود كله بين جوانحها، وأن فيضاً روحياً ينبعث من أغوار نفسها، فإذا بها تشعر أنها تعيش في دُنيا جديدة تنبض رقةً وأمنًا وسلاماً.

* كان عبد الله يفكر في هدوء؛ إنه خارج في رحلة الصيف إلى الشام، وإنه سعيد بهذه الرحلة، فسيزور المدينة في إياه، وسيشتري لآمنة حليته حلية من ذهب المدينة.

* كانت الأفكار تتوافد على رأس عبد الله، وترحم برهة ثم تتلاشى، إنه سيضرب في الآفاق، ويخرج في غير قريش إلى الشام، وسيكسب من التجارة، وإذ ذاك يقرن بين الغنى والشرف، ويصبح سيداً من سادات بني هاشم وقريش، فيطعم المحتاج والقانع^(١) والمعتز^(٢)، ويغيث الملهوف، ويعين على نوائب الدهر.

* وتهلل وجه عبد الله بالبشر لما تذكر أن أباه قد عهد إليه أن يمتار من المدينة تمراً، وتذكر أن أباه ما فعل ذلك إلا ليشعره أنه قد صار رجلاً يمكن أن تعتمد عليه قبيلته في بعض أمورها، وربما يأتي اليوم الذي يصبح فيه عميد قريش وعماد مكة، وصاحب الكلمة المسموعة فيها.

* وفاضت نفس عبد الله بالشُرور مرةً أخرى، واستشعر أنه دخل الحياة من أرحب أبوابها وأوسع مصراعيها، فهل للحياة بابٌ أوسع من باب التجارة؟! إنه سيطوف بالدنيا، وسيدلف إلى بقاع عدة، وسيعقد صداقات هنا وهناك كما عمل أباه وأجداده هذا من قبل، وفوق كل هذا وذاك أحس عبد الله أن أيام سعادته قد أقبلت تجرُّ إليه أذيال الهناء، وأنه سيغدو شيئاً مذكوراً في مكة أم القرى، بل في طول البلاد وعرضها، أليست التجارة مفتاح ذلك كله؟!!

(١) «القانع»: السائل؛ قال تعالى: ﴿فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمَعْتَزَ﴾ [الحج: ٣٦].

(٢) «المعتز»: الفقير والمتعرض للمعروف من غير أن يسأل. (القاموس المحيط ص ٥٦٣) طبعة مؤسسة الرسالة.

* وفطنت آمنه لشروء عبد الله وهو بجانبها، فسألته: مالك يا بن العم؟! وأب عبد الله من رحلة أحلامه السريعة وهو في بيته، وأمام زوجته الأثيرة الحبيبة، فرأى وجهها الكريم وقد ارتسمت عليه ابتسامة مشرقة، فأحسن كأن الوجود كله قد تهلل بالفرح والبشر.

* وأقبل عبد الله يحدث آمنه عن آماله، وأحلامه، وسؤدده الذي سيبنه ويشيده، وسيكسوه بالمجد والفضائل، وكانت آمنه تصغي إليه وهي منشرحة الصدر، ناعمة البال، تطوف بها سكينه وأمن، وإن كانت تعلم أن زوجها مفارقها بعد سويعات في رحلة تجارة إلى الشام.

* وعاد الزوجان الأليفان إلى المناجاة، فالساعات تزحف نحوهما لتقول: لقد حانت ساعة الوداع، وأزف الرحيل، وراح عبد الله يرنو إلى وجه آمنه الذي كان يتألق بالتور، وأخذ يرنو إليها في حب وإعجاب ودهش، ففي عينها هيام، وعلى شفيتها ابتسامة هادئة معبرة، إن وجهها اللطيف لم يعرف الفزع، وفؤادها لن يرتجف خوفاً من وحدتها، فلن يكون معها في الدار الصغيرة المتواضعة إلا جاريته الحبشية بركة^(١) التي كانت في عمر زوجته آمنه.

* نعم لقد كانت آمنه ثابتة الفؤاد، مرفوعة الجبين، فهي تعرف حقيقة دورها في مجتمع يعيش بالتجارة، وعلى التجارة، وبين أعطاف التجارة، يطوف رجاله بالآفاق، ويجوسون مشارق الأرض ومغاربها، ثم يعودون إلى الزوجة التي تنتظر أوبة زوجها بفارغ الصبر، وإذ ذاك تُنسيه متاعب الرحلة، ووعثاء السفر، ووحشة الطريق.

* وفطن عبد الله إلى مشاعر زوجته كي لا تبدو أمامه منهارة، كانت آمنه تتجلد لتبدو هادئة، ولا عجب في ذلك، فقد كانت من أشرف حي في قريش

(١) اقرأ سيرة بركة «أم أيمن» في كتابنا «نساء من عصر النبوة» (١/ ٣٣ - ٤٣) فسيرتها إمتاعٌ للأسماع، وإرواءٌ للغيل، وبلوغٌ للأرب في معرفة أحوال هذه الصحابة الجليلة رضي الله عنها.

وَمِنْ سَرَواتِ النِّساءِ ، وَمِنْ فَضلياتِهِنَّ .

وَداعُ الحَيِّبِ :

* حانتُ ساعةُ الرَّحيلِ ، وخرجَ عبدُ اللَّهِ من بيته ^(١) ، وقد ارتفعَ القمرُ في السَّماءِ بدرًا يَنيرُ السَّبيلَ ، فسارَ بضعَ خطواتٍ ، ثُمَّ وَقَفَ والتفتَ نحوَ بيتهِ ، وألقىَ نظرةً طويلةً على دارِهِ المتواضعةِ ، فانقبضَ صدرُهُ ، وطافتُ به موجةٌ مِنَ الأسى ، واستشعرَ وحشةً لم يحسَّها من قَبْلُ ، إِنَّهُ يحبُّ أَمَنَةً ، وإنَّه ليؤَلِّمُ نَفْسَهُ أَنْ يفارقَها في أَيَّامِ زواجِهِ المَعْدودةِ ، ولكنَّ عبدَ اللَّهِ ما كانَ يظُنُّ أنَّ فراقَ أَمَنَةٍ يُنْزَلُ به مثلُ هَذا الحزنِ الَّذي انتشرَ بينَ جوانِحِهِ ، ثُمَّ تابَعَ عبدُ اللَّهِ المَسيرَ نحوَ الكعبةِ لِيَسعَى قَبْلَ الرَّحيلِ .

* وبعدَ ذلكَ ذهبَ عبدُ اللَّهِ إلى حَيْثُ العِيرِ ، فإذا بالمكانِ يَموجُ بَساداتِ مَكَّةَ وعبيدِها ورجالِها ونسائِها ، وجاءَ عبدُ المَطلبِ يحفُّ به أبنائُهُ كالقمرِ ، وهم من حوله كالنجومِ الزواهرِ ، فَخَفَّ إِلَيْهِ عبدُ اللَّهِ وارتَمى في أحضانِهِ وقَبَّلَهُ ، ثُمَّ ابتعدَ عن أبيهِ ، فانقبضَ صدرُ عبدِ المَطلبِ ، فَقَدَ أَحسَّ كأنَّما انتزعَ عبدُ اللَّهِ مِنْهُ انتزاعًا ، وسبقتُهُ دموعُهُ إلى وجنتيهِ ؛ أَلَا ما أَقسى أُوَيقاتِ الفِراقِ ، وسُويَعاتِ الوداعِ !!! ؛ أَلَا ما أَقساها !

* وسادَ المكانُ سُكُونٌ رهيبٌ ، ثُمَّ خرجَتِ القافلةُ ، وخرجَ فيها عبدُ اللَّهِ ، خرجَ عبدُ اللَّهِ مُودَّعًا مِنْ أبيهِ الشَّيخِ الأَسيْفِ ، وزوجتِهِ الحَبيبَةِ - على جَدَّةِ عَهْدِهِ بها - ، خرجَ عبدُ اللَّهِ مُودَّعًا مِنْ إِخْوَتِهِ وَأَخواتِهِ وَأَثَرِيهِ وعَشيرَتِهِ ، وهم يَرُقُّونَ عودَتَهُ ، وعيونُهُم تَموجُ بدموعِ الفِراقِ ، ولكنَّ إرادةَ اللَّهِ التي تَعلو بِحِكمَتِها على مَدارِكِ العقولِ ، أَبَتْ عَلَى عبدِ اللَّهِ أَنْ يَرجَعَ مِنْ سَفَرِهِ هَذا لِيَشَهدَ أَمَنَةُ الزَّوْجَةِ الكَريمةِ ، وَقَدَ تَنفَسَ حَمْلُها عَن أَكْرَمِ مولودٍ يَشَهدُ الحياةَ أَوَّلَ ما يَشَهدُها يَتِيمًا .

* وسرتِ القافلةُ القرشيةُ في اللَّيلِ نحوَ الشَّامِ وهي تَسيرُ على بَساطِ

(١) هذه الوقفة تذكرني هاهنا بقول الصمة القشيري :

تلفت نحو الحي حتى وجدتني وجعتُ من الإصغاء ليتاً وأخذعا

الأرض الذي يموجُ بأنوارِ القمرِ الفضيّةِ السّحريّةِ، وانطلقتِ القافلةُ وبعدتُ
عن الوادي المقدّس، وبعدتِ القلوبُ عن الكعبة، وإنْ ظَلَّ البيتُ العتيقُ
مشرقاً في سُويداءِ القلوب، مضيئاً جنباتِ أرواحٍ تعلّقتُ به، وشُغِفْتُ به
حبّاً، وجعلتُ آخرَ عهدِها تطوّافها وطوافها به.

* وراح حادي العيس يغني بصوتٍ ساحرٍ يموجُ بالشّجن، ويصوّرُ حنينه
إلى الوطن، وإلى البيتِ العتيق، وإلى الحُجون، وإلى الصفا، وإلى هاتيك
البقاع الطاهرة، وإلى ما في مكة أيضاً من أحبةٍ وأصحابٍ وأترابٍ.

* كان صوتُ الحادي يمتزجُ بوجودان الرّكب، فإذا بمشاعِرٍ ناعمةٍ تتسلّلُ
إلى أفئدةٍ فتیان القافلة، وإذا بالركبان يشاركون الحادي في أهازيجه، هنالك
تحرّكتْ لواعجُ الشّوقِ في نفس فتى قريش وزهرتها عبد الله بن
عبد المطلب، فقفزتِ الدّموعُ من عينيه، فقد لاحَتْ له زوجته آمنة تملأُ
وجدانه، والثّورُ يشعُ من جبينها الزّاهر، فتدخُلُ في قلبه نسَماتُ الرّأفةِ،
وهمساتُ الرّحمةِ والحبِّ والأمن.

* إنّه منذ هاتيك اللحظات التي ودّع فيها ذويه وآمنة خاصّة، يحسُّ كأنّما
خلّفَ قلبه هنالك، فلمْ يَنْشَنِ طيفُها اللطيفُ عنه في ليلِهِ أو في نهاره، أو
حلّه وترحاله؛ إنّها في خياله، فلا تغيبُ صورتها من وجدانه، بل إنّها في
سُويداءِ فؤاده الذي أصبحَ فارغاً بعد رحيله عنها، إنّها أمامه، وعن يمينه،
وعن شماله، وحيثما اتّجه وقلّبَ وجهه يحسُّ بأنّ حديثها العذب الرّقيقَ
يمسُّ أذنيه مسّاً رقيقاً رفيقاً فيحيي فيه أجملَ الذّكريات، وأعطرَ الأويقات
التي قضّاها هنالك قُربَ البيتِ العتيق.

* وعاد عبدُ الله بذكرياته ليعيشَ بوجودانه في مَسْقَطِ رأسه، في أمّ القرى،
ويطوفُ بالكعبة، ويلقي نظراتِ الحبِّ على البيتِ العتيق، ثم يُهرعُ إلى داره
الحبيبة يناجي الحبيبة آمنة، وبيتسّمُ في وجه جاريتِه الحبشية ويوصيها
بسيدتها خيراً، وهكذا كانتِ الذّكرياتُ تداعبه وهي مفعمةٌ بنشوة الأحلام،
وإنْ كان يطوي البيد طيّاً مع غير قريش، ويسعى في أرضِ الله يضربُ في
مناكبها طلباً للرّزق، والتماساً لجمعِ المال والثّروة.

* وفي الشَّامِ باع التُّجَّارُ القرشيون ما كَانَ معهم من سِلَعٍ ، وَحَقَّقُوا أَرْبَاحاً أَثْلَجَتْ صُدُورَهُمْ ، وَأَقْبَلُوا عَلَى شِرَاءِ سِلَعٍ مِنْ هُنَاكَ لِيَأْخُذُوا إِلَى مَكَّةَ ، وَمَرَّتْ مَوَاسِمُ السُّوقِ وَالتَّجَارَةِ مَفْعَمَةً بِالْبَهْجَةِ وَالْعَمَلِ ، وَكَانَتْ أَيَّامُهَا وَلِيَالِيهَا تَنْبُضُ بِالحَيَاةِ وَالحَرَكَةِ .

* وَأَذُنْ مُؤَذِّنُ القَافِلَةِ أَنَّ حَانَتِ العُودَةُ إِلَى أُمِّ القِرَى ، فَتَجَهَّزَتْ عِيرُ قَرِيشٍ لِلْعُودَةِ ، وَأَعَدَّ الرِّجَالُ رِحَالَهُمْ وَمَا يُلْزِمُهُمْ ، ثُمَّ اسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِ مَطَايَاهُمْ ، وَانْطَلَقَتِ القَافِلَةُ وَقَدْ اسْتَقْبَلَتْ مَكَّةَ ، فَإِذَا القُلُوبُ قَدْ هَامَتْ بِقَرْبِ اللِّقَاءِ ، بَعْدَ عُودَتِهِمُ التَّاجِحةِ فِي هَذِهِ الرِّحْلَةِ التِّجَارِيَةِ المِيمُونَةِ المَوْفَّقَةِ .

* وَسَرَتِ القَافِلَةُ فِي الكَوْنِ الرَّحْبِ ، وَانْصَرَمَتْ أَيَّامٌ وَلَيَالٍ وَهُمْ يَقْطَعُونَ الفَلَوَاتِ ، وَأَحْسَّ عَبْدُ اللَّهِ بُوْهِنَ يَدَبٍ فِي جِسْمِهِ ، فَلَمْ يَحْفَلْ بِهِ كَثِيراً ، وَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ مَرَدُّهُ إِلَى وَعْثَاءِ السَّفَرِ ، وَأَنَّ التَّعَبَ قَدْ دَبَّ فِي أَوْصَالِهِ ، وَأَنَّ هَذَا الإِرْهَاقَ لَنْ يَلْبَثَ أَنْ يَزُولَ إِذَا مَا اسْتَرَاحَ وَأَعْطَى جِسْمُهُ حَقَّهُ مِنَ الرَّاحَةِ وَالهَدْوِ .

* وَفِي إِحْدَى المَنَازِلِ حَطَّ رِجَالُ القَافِلَةِ رِحَالَهُمْ ، وَشَدُّوا الخِيَامَ لِلرَّاحَةِ ، وَدَخَلَ عَبْدُ اللَّهِ خِيَمَتَهُ ، وَمَا أَنَّ أَسْلَمَ جَنْبَهُ لِلرَّقَادِ حَتَّى رَاحَ فِي سُبَاتٍ عَمِيقٍ ، وَغَطَّ فِي نَوْمِهِ ، وَقَدْ ذَبَلَ جِسْمُهُ وَلَوْنُهُ .

* وَحَانَ الرِّحِيلُ ، فَدَلَفَ رَجُلٌ إِلَى خِيَمَةِ عَبْدِ اللَّهِ لِيَوْقِظَهُ ، فَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَى وَجْهِهِ الجَمِيلِ الَّذِي ذَبَلَ وَعَلَاهُ الاَصْفَرَاؤُ ، فَوَقَفَ وَقَدْ أَخَذَهُ القَلَقُ مِنْ حَالَةِ عَبْدِ اللَّهِ ، فَنَادَاهُ بِصَوْتٍ هَادِيٍّ : عَبْدُ اللَّهِ ، عَبْدُ اللَّهِ ، قُمْ فَقَدْ حَانَ الرِّحِيلُ .

* وَيَبْدُو أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ لَمْ تَبْلُغْ أذْنِيهِ مَنَادَةُ الرَّجُلِ ، فَمَدَّ الرَّجُلُ يَدَهُ وَرَاحَ يَهْرُؤُهُ وَهُوَ يَنَادِيهِ : عَبْدُ اللَّهِ ، عَبْدُ اللَّهِ ، هَمَّ النَّاسُ بِالرِّحِيلِ .

* وَفَتَحَ عَبْدُ اللَّهِ عَيْنَيْنِ ذَابِلَتَيْنِ ، وَنَظَرَ إِلَى الرَّجُلِ وَأَرَادَ أَنْ يَنْهَضَ فَعَجَزَ ، فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : مَا بَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ .

فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ فِي صَوْتٍ خَافَتْ : إِنِّي سَقِيمٌ مُتْعَبٌ .

* فَجَاءَ رِجَالٌ مِنْ قَوْمِهِ وَحَمَلُوهُ وَوَضَعُوهُ فِي هَوْدَجٍ عَلَى ظَهْرِ بَعِيرٍ ، وَهُمْ

يظنون أنَّ وعكةً قد أَلَمَّتْ به ، وسرعان ما تزول قبل وصولهم إلى المدينة . ولكنَّ عبدَ الله لم يفارقه المرضُ على الرغم من وصول القافلة إلى المدينة بعد بضعة أيَّام ، بل إنَّ أمره أخذ يسوءُ يوماً بعد يوم ، وقد حارَ فيه أطباءُ القوم وعزَّافوهم .

ونُمي الخبرُ إلى بني النَّجَّارِ أخوالِ عبدِ الله بأنَّه مريضٌ ، فحفُّوا لنقله إلى دُورهم كي يأخذَ قِسْطاً مِنَ الرَّاحَةِ ، ثمَّ يداوونه مما أَلَمَّ به ، وأخذَ رجالُ قريش حاجَتهم من أسواقِ المدينة ، وجاء يومُ الرَّحِيلِ ليأخذوه معهم إلى مكة ، ولكنَّ بني النَّجارِ أبوا أنْ يغادرَ عبدَ الله فراشه ، ولَمَّا ينهضُ من مرضه ، أو يُكْتَبَ له الشِّفاء .

* ولما رأى رجالُ القافلة أن لا بدَّ من مقام عبد الله في أخواله بني النَّجار ، ساروا نحو مكة وقد علاهم الوجومُ والذهولُ مما عراهم ؛ كيف وماذا يقولون لعبد المطلب زعيم قريش ؟!

الخبرُ الأليمُ :

* هاهي قافلةُ قريش تدنو من الحرم ، كان الليلُ قد نشرَ سِرْبَاله الأسودَ على مكة ، وغابتْ نجومُ السَّماءِ تأخذُ مضاجعها ، وهجعَ الكونُ ، وانتشرَ السُّكون ، إلا نسوةً كُنَّ ساهرات ، لم تعرفَ عيونهنَّ النَّومَ ، ولم يعرفِ النَّومُ - على الرغم من سلطانه وسيطرته - إلى عيونهنَّ سبيلاً ، فقد سمعن موعدَ عودةِ قافلة قُريش من بلاد الشَّام ، ودنت ساعة التَّلَاق ، بعد طول الفراق .

* وأخذتِ القافلةُ طريقها داخل مكة ، واقتربت من الحرم ، وحطَّ الرجالُ رحالهم ، وانتشرَ الخبرُ في مكة : أنْ قَدِمَتْ عيرُ قريش من الشَّام ، فتمزَّقَ ذلك السُّكون ، وعادتِ الحركةُ إلى الحرم .

* وهنالك بالقرب من الحرم راحتْ آمنة بنتُ وهب ترقُبُ القادمين خافقة القلب ، وبقربها جارية زوجها بركة الحبشية تتحدث إليها ، ولكنَّ آمنة كانت غائبةً بروحها عنها ، فقد سَبَقَها خيالُها إلى لقاءِ عبد الله زوجها ، وها هي تتخيَّلُ عبد الله وهو ينزلُ عن راحلته يتألَّق وجهه بالتور ، ويُشْرِقُ بالابتسام ، ثم يسيرُ كالقمر المنير يحفُّ به إخوته كالثُّجوم يسعون إلى الحرم

كيما يطوفوا بالبيتِ سَبْعاً، ثمَّ يأتي إلى بيته وتخفُّ لاستقباله .

* ويبدو لي أنَّ أمانة قد أرختْ لخيالها العنانَ، وشعرتْ بارتياحٍ لأحلامِ اليقظةِ التي سَلَسَلَتْ أحداثها في نفسها .

* كان خيالها في تلك اللحظات خصباً، يمدُّها بكثيرٍ من الصُّور المِمرَّاح، فأرختْ له العنانَ أكثرَ وأكثرَ، وغابت أكثرَ عمَّن حولها في دنيا أخرى، دنيا مشرقة تخفق بالأمل الذي أقامته في وجدانها ومشاعرها، فقد تذكرت في معرض خيالاتها أنَّ عبد الله قد وعدها بِعَقْدِ نَفْسٍ يأتي به هدية لها في أوبته من رحلته الشَّامية هذه .

* واستفاقت أمانة من أحلامها على صوتٍ يقول: أقبلت عيرُ قريش، أقبل تجارُ قريش . ورنَّتْ أمانةٌ بنظرها نحو القافلة التي أضاءت المشاعلُ كلَّ جوانبها، واستحال المكانُ علامةً بارزةً وسطَ الظَّلام الحالك .

* وخفق قلبُ أمانة بين أضالعها، ودق دقاتٍ عالية، وسرَّت في جسمها عواطفُ شتَّى متموجةً، وتسابقَ رجالُ مكة لاستقبالِ العائدين؛ وخرج عبدُ المطلب وأولاده لاستقبالِ عبد الله ريحانة الألبا وزهرة الحياة الدنيا، وماجَ القادمون بالمستقبلين، وارتفعَ صوتُ عبد المطلب ينادي: عبد الله، عبد الله، أينَ عبد الله؟! ولكنَّ فتى قريش اليافع الوسيم الغضُّ لم يكن بين جموع العائدين، وأقبلَ زعيمُ القافلة على عبد المطلب، فلَمَّا رآه قال له: أينَ عبد الله؟

* وذهبت نفسُ الرَّجل شعاعاً، ولكنه تصنَّع الهدوء وقال في نبرة حُزنٍ: لقد خلَّفناهُ عند أخواله بني النجار مُدْنَفاً^(١) .

* وشعر عبدُ المطلب بأنَّ يداً قويّة تهصر^(٢) قلبه، وتذكرَ زوجة ابنه أمانة

(١) «مدنفاً»: مريضاً؛ يُقال: أدنفه المرض، فهو مُدْنِفٌ ومُدْنَفٌ. (القاموس المحيط ص ١٠٤٨) مادة (دنف).

(٢) «هصر»: الهصر: الجذب، والإمالة، والكسر، والدفع، والإدناء. (القاموس المحيط ص ٦٤١) مادة (هصر).

بنت وهب، فكادت تنهارُ عزيمة، فماذا يقول لها؟!

* حقاً إنها لمهمة ثقيلة الوطأة على النفس والقلب، أيقولُ لآمنة التي تنتظرُ عبد الله وهي مفعمة بالسُرور: إنَّ فتاها مريضٌ مدنفٌ هنالك في المدينة عند أخواله بني التجار؟!

* لكِ اللهُ يا آمنة! لقد خلا كلُّ حبيبٍ بأهله، وزوجكِ مريضٌ في مكانٍ بعيد؟! ترى أيعودُ عبدُ الله ليخلوَ بأهله؟!

* وعاد عبدُ المطلب وبنوه إلى دارِ عبد الله، وإلى دارِ آمنة، وقلوبهم تتجاذبها مشاعر شتى من الرَّحمة والحزن والإشفاق والشَّوق لعبد الله، ولما رأتهم آمنة وعبد الله ليس بينهم اشتدَّ وجيبُ قلبها، وتدفقتُ مشاعرُ متباينة إلى نفسها، ولقَّها خوفٌ شديدٌ خصوصاً لما رأت عبدَ المطلب بأسر الوجه، وبنوه تعلو وجوههم موجةً من الحزن، فارتسمت على وجهها علامات الدُّهول والرَّعب، ولمح عبدُ المطلب ذلك في محياها وقال لها: لا تخافي يا آمنة، إنَّ عبدَ الله بخير.

قالت آمنة: أين عبد الله؟

قال: هو بخير عند أخواله في المدينة.

قالت: ولمَ لمَ يَعُدْ مع العائدين؟!

قال: إنَّه مريضٌ هناك.

* وساد المكان سكوتٌ ثَقِيلٌ، وخيمَ القَلَقُ والأسى على دار عبد الله، لما حَصَلَ له في هذه الرَّحلة.

* وأرادَ عبدُ المطلب أن يمزِّقَ هذا السُّكون البغيض، ويغرسَ مكانه الطُّمأنينة، بل ويدخلَ الطُّمأنينة إلى قلبِ آمنة فقال لها: سأرسلُ أخاه الحارثَ إلى المدينة كيما يعودَ بزواجكِ عبد الله بعد إبلاله^(١).

* وفي صبيحة تلك الليلة، كان الحارثُ بن عبد المطلب يسيرُ نحو

(١) «إبلاله»: البِلُّ: الشفاء. (القاموس المحيط ص ١٢٥١) مادة (بَلَل).

المدينة مُودَّعاً مِنْ أَبِيهِ وَأَهْلِهِ وَذَوِيهِ، وَأَلَسْتُهُمْ تَلْهُجُ بِالْدَّعَاءِ كِي يُشْفَى
عَبْدُ اللَّهِ مِنْ مَرَضِهِ .

* وَمَا أَنْ وَصَلَ الْحَارِثُ الْمَدِينَةَ حَتَّى عَلِمَ أَنَّ أَخَاهُ عَبْدُ اللَّهِ قَدْ مَاتَ
غَرِيباً، وَقُبِرَ فِي دَارِ النَّابِغَةِ أَحَدِ بَنِي عَدِيِّ بْنِ التَّجَارِ، وَصَارَ الْفَتَى مِنَ
الْغَابِرِينَ .

لَوْعَةُ الْفِرَاقِ وَرِثَاءُ الْحَبِيبِ :

* عَادَ الْحَارِثُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ كَسِيرَ النَّفْسِ، مَهِيضَ الْجَنَاحِ، حَزِينَ
الْقَلْبِ عَلَى فَقْدِ أَخِيهِ، وَانْطَلَقَ إِلَى مَكَّةَ يَحْمِلُ إِلَيْهَا أَسْوَأَ خَبَرٍ يَسْمَعُهُ
عَبْدُ الْمَطْلَبِ فِي حَيَاتِهِ .

* وَحَطَّتْ نَاقَةُ الْحَارِثِ بِفَنَاءِ الْكَعْبَةِ، وَنَزَلَ عَنْ رَاحِلَتِهِ، وَذَهَبَ إِلَى
حَيْثُ يَجْلِسُ عَبْدُ الْمَطْلَبِ وَأَبْنَاؤُهُ، وَأَعْلَمَهُ بِمَوْتِ الْغَائِبِ الَّذِي لَا يَرُوبُ،
فَأَثَارَ النَّبَأِ الْمَوْجِعُ الْأَحْزَانَ فِي نَفْسِ الْوَالِدِ الشَّيْخِ الْمَفْجُوعِ فِي فَقْدِ أَحَبِّ
أَوْلَادِهِ إِلَيْهِ، وَأَلْصَقَهُمْ بِنَفْسِهِ .

* وَوَصَلَ الْخَبْرُ الْأَلِيمُ آمَنَةً، فَأَثَارَ الْأَسَى وَالْحَسْرَةَ فِي نَفْسِهَا، وَفَجَّرَ
الْحُزْنَ فِي دَاخِلِهَا عُيُوناً، فَقَدْ كَانَتْ تَحْلُمُ بِأُوبَةِ الزَّوْجِ الْحَبِيبِ الْغَالِي،
وَتَشْتَاقُ إِلَيْهِ اشْتِيَاقَ الظَّمآنِ فِي الْيَوْمِ الصَّائِفِ الْقَائِظِ إِلَى الشَّرَابِ الْعَذْبِ
الْحَلَوِيِّ الْبَادِرِ، وَتَبَدَّدَ مَا كَانَتْ تَعْلَلُ بِهِ نَفْسَهَا، وَمَا كَانَتْ تَرْقُبُهُ مِنْ سَعَادَةٍ
وَهْنَاءٍ فِي كَنْفِ الزَّوْجِ الْفَتَى الْوَسِيمِ، ذَلِكَ الَّذِي كَانَ مَشْغَلَةَ الْمَجْتَمَعِ
الْقُرَشِيِّ وَالْعَرَبِيِّ حِينَا مِنَ الزَّمَانِ، فَمَا مِثْلُهُ مِنْ فَتَى، وَمَا مِثْلُهُ مِنْ زَوْجٍ .

* وَانْطَلَقَ جَمْعُ بَنِي هَاشِمٍ إِلَى بَيْتِ آمَنَةَ لِيُوَاسِئُوهَا فِي أَفْدَحِ نَكْبَةٍ نَزَلَتْ
بِهِمْ، بَلْ تَنْزَلُ بِامْرَأَةٍ، وَمَا أَنَّ دَخَلُوا عَلَيْهَا حَتَّى رَاحَتْ الدُّمُوعُ تَنْهَارُ مِنْ
عَيْنَيْهَا، فَانْتَبَذَتْ مِنْهُمْ مَكَاناً قَصِيئاً، وَرَاحَتْ تَرِثِي الزَّوْجَ الْحَبِيبَ وَتَقُولُ :
عَفَا جَانِبُ الْبَطْحَاءِ مِنْ آلِ هَاشِمٍ
وَجَاوَرَ لِحْدًا خَارِجًا فِي الْغَمَائِمِ^(١)

(١) «الغنائم» : الأغطية، والمراد بها هنا : الأكفان التي لُفَّ بها .

دَعَتْهُ الْمَنَايَا دَعْوَةً فَأَجَابَهَا

وَمَا تَرَكْتُ فِي النَّاسِ مِثْلَ ابْنِ هَاشِمٍ

عَشِيرَةٍ رَاحُوا يَحْمِلُونُ سَرِيرَهُ

تَعَاوَرَهُ أَصْحَابُهُ فِي التَّزَاخُمِ

فَإِنْ تَلُكُ غَالَتُهُ الْمُنُونُ وَرَيْبُهَا

فَقَدْ كَانَ مَعْطَاءَ كَثِيرِ التَّرَاخُمِ^(١)

* وهكذا ماتَ عبدُ الله بن عبد المطلب في هذه الرحلة، وهو عائدٌ من الشَّامَ ماراً بأخوالِ أبيه عبد المطلب بنِ عدي بنِ التَّجار، ودُفِنَ عبد الله أبو رسول الله ﷺ بيثربَ مدينة الأسرار والأنوار، ومأوى المهاجرين والأنصار، ومهبط الوحي ومنزل الأحرار، ومثوى الكَمَلَةِ الأبرار.

* نعم ماتَ عبدُ الله بن عبد المطلب، وخلَّى مكانَه في مكةَ لكنَّ قلبَ أَمَنَةٍ لم يَخُلْ مِنْهُ، ولقيتْ أَمَنَةٌ ما لقيتْ من عناءِ الفرقَةِ وفداحَةِ المصابِ، ولكنَّ ما العملُ إذا كان الموتُ هو الذي حجزه في المدينة، وقدَّرَ اللهُ أَنْ تكونَ منيته هنالك!؟

* نعم ماتَ عبدُ الله هناك في بقعةٍ بعيدة.. بعيدة.. ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [لقمان: ٣٤]، مات ولم يكن هو ولا غيره يعرف أَنَّهُ سيموت:

مَشِينَاهَا خُطَى كُتِبَتْ عَلَيْنَا وَمَنْ كُتِبَتْ عَلَيْهِ خُطَى مَشَاهَا
وَمَنْ كَانَتْ مِنْتُهُ بِأَرْضٍ فَلَيْسَ يَمُوتُ فِي أَرْضٍ سِوَاهَا
* تلکم - أحبائي القراء - حکمةُ اللهِ خالقِ الأرضِ والسَّماءِ، وخالقِ كلِّ شيءٍ ومقدِّرِ الأشياءِ، ماتَ عبدُ الله غريباً بعيداً عن مدارجِ صباه، ليأتي النَّبِيُّ ﷺ إلى هذا الكونِ يتيماً حتى لا يقول: أبي، أبي، وإنما ليقول: ربِّي، ربِّي، وصدق الله إذ يقول: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى﴾ [الضحى: ٦].

(١) انظر: المواهب اللدنية للقسطلاني (١/١٢٣ و ١٢٤) طبعة المكتب الإسلامي عام (١٤١٢هـ).

آمنة والبشريات بالحمل المبارك :

* حَزَنْتُ آمنةً بِنْتُ وَهْبٍ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ حُزْناً شَدِيداً كَأَنَّهُ يُودِي بِهَا إِلَى الْهَلَاكِ، فَقَدْ أَحَبَّتْ زَوْجَهَا، وَرَاحَتْ تَرْسُمُ الْأَحْلَامَ الْحَسَنَ الْمُجَنِّحَةَ الَّتِي تَعِيشُهَا مَعَهُ، وَتَحْلُقُ فِي أَجْوَائِهَا بِصَحْبَتِهِ، وَمَا كَادَتْ تَسْتَهْلُ حَيَاةَ الزَّوْجِيَّةِ الْهَانِئَةِ حَتَّى كَانَ أَمْرُ اللَّهِ، فَاخْتطفه الموتُ، وَمَاتَ فِي أَرْضٍ غَرِيبَةٍ بَعِيدَةٍ دُونَ أَنْ تَرَاهُ.

وَلَكِنَّ شَيْئاً وَاحِداً كَانَ يَخَفُّ مِنْ حُزْنِ آمنةَ، وَيَسْتَلُّ بَعْضَ كَأْبَتِهَا، إِذْ كَانَتْ قَدْ حَمَلَتْ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بِسَيِّدِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَدْ أَدَّخَرَهَا الْقَدَرُ لِأَعْظَمِ أُمُومَةٍ فِي التَّارِيخِ، وَتَوَالَتْ عَلَيْهَا الرُّؤْيَى وَالْبَشْرِيَّاتُ بِجَلَالِ قَدْرِ هَذَا الْجَنِينِ، فَرَأَتْ فِيمَا يَرَى النَّائِمُ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ أَنَّهُ خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ الْأَرْضَ، وَبَدَتْ مِنْهُ قُصُورٌ بِصَرَى مِنْ أَرْضِ الشَّامِ.

* رَوَى أَبُو نُعَيْمٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «الدَّلَائِلِ»، وَابْنُ سَعْدٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «الطَّبَقَاتِ»، أَنَّ آمنةَ قَالَتْ: رَأَيْتُ كَأَنَّهُ خَرَجَ مِنِّي شَهَابٌ أَضَاءَتْ لَهُ الْأَرْضَ، حَتَّى رَأَيْتُ قُصُورَ الشَّامِ.

* وَلَمْ تَكُنْ هَذِهِ الرُّؤْيَا أَوْ مِثْلَاتِهَا لَتَخْفَى تَأْوِيلَاتِهَا عَلَى السَّيِّدَةِ الْحَصِيْفَةِ الْأَرَبِيَّةِ آمنةَ بِنْتُ وَهْبٍ، وَهِيَ مَنْ هِيَ ذَكَاءٌ وَفُطْنَةٌ، فَقَدْ فَهَمَتْ أَنَّ مَنْ حَمَلَتْ بِهِ سَيْمِلاً الْأَرْضَ نُوراً وَضِيَاءً، وَهَدَى وَرَحْمَةً، وَسَيَكُونُ لَهُ شَأْنٌ وَأَيُّ شَأْنٍ! وَذَكَرْتُ وَأَيُّ ذِكْرٍ!

* هَذَا وَلَمْ تَكُنْ آمنةُ وَحْدَهَا هِيَ الَّتِي رَأَتْ الرُّؤْيَى وَالْبَشَارَاتِ، وَمَقَدِّمَاتِ الْمَوْلُودِ السَّعِيدِ، وَإِنَّمَا حَدَّثَتْ الرُّؤْيَا لَجَدَّهِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ، يَحْسُنُ بِنَا أَنْ نُنَوِّدَهَا هَاهُنَا لِمَا لَهَا مِنْ أَمِيَّةٍ فِي هَذَا الْمَجَالِ.

* رَوَى أَبُو نُعَيْمٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِسَنَدِهِ قَالَ:

قَالَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ: بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ فِي الْحَجَرِ، إِذْ رَأَيْتُ رُؤْيَا هَالِئَةً، فَفَزَعْتُ مِنْهَا فَرَعاً شَدِيداً، فَاتَيْتُ كَاهِنَةً قَرِيشَ فَقُلْتُ لَهَا: إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ كَأَنَّ شَجَرَةً نَبَتَتْ، قَدْ نَالَتْ رَأْسَهَا السَّمَاءَ، وَضَرَبَتْ بِأَغْصَانِهَا الْمَشْرِقَ وَالْمَغْرِبَ،

وما رأيتُ نوراً أزهَرَ منها، أعظم من نورِ الشمسِ سبعين ضعفاً، ورأيتُ العرب والعجم لها ساجدين، وهي تزداد كلَّ ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً، ساعة تخفى، وساعة تظهر.

* ورأيتُ رهطاً من قريش قد تعلّقوا بأغصانها، ورأيتُ قوماً من قريش يريدون قطعها، فإذا دنوا منها أخذهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً، ولا أطيب منه ريحاً، فيكسر أظهرهم، ويقلع أعينهم، فرفعتُ يدي لأتناول منها نصيباً فلم أنل، فقلتُ: لمن النّصيب؟! فقال: النّصيبُ لهؤلاء الذين تعلّقوا بها وسبقوك.

* فانتبهتُ مذعوراً، فرأيتُ وجه الكاهنة قد تغيّر، ثمّ قالت: لئن صدقتُ رؤياك ليخرجنّ من صلبك رجلٌ يملكُ المشرق والمغرب، وتدينُ له الناس.

* فقال عبد المطلب لأبي طالب: لعلك أن تكونَ هو المولود، فكان أبو طالب يحدثُ بهذا الحديث والتّنبؤ ﷺ قد خرج^(١)، ويقول: كانت الشّجرة - والله - أبا القاسم الأمين، فيقال له: ألا تؤمن؟! فيقول: السّبة والعار^(٢).

* وتقدّمتُ أشهر الحملِ بالسّيّدة الشّريفة آمنّة بنتِ وهب الزّهريّة، وهي ترُقّب الوليد الذي لم تجد في حمّله ألماً ولا وهناً؛ وترسمُ كُتب السّيرة، ومصادر التّاريخ، وغيرها من المصادر ميلادَ الحبيبِ المصطفى محمد ﷺ والحمل به في صورة فطريّة طبيعيّة، لأنّ محمّداً ﷺ إنسانٌ قد حمّلت به أمّه كما تحملُ سائر الأمّهات ولدانهنّ زَمَناً وحالةً.

* ذكر القسطلاني - رحمه الله - في كتابه التّفيس «المواهب اللدنيّة»: أنّ رسول الله ﷺ بقي في بطنِ أمّه تسعة أشهرٍ كُملًا، لا تشكو وجعاً ولا مغصاً، ولا ما يعرض لذوات الحمل من النّساء.

(١) «قد خرج»: أي قد بُعث.

(٢) «السّبة والعار»: أي: أخشى العار؛ أو يمتعني. و«السّبة»: العار، ومن يكثر الناس سبّه.

* كانت آمنة تقولُ أثناء حملها: والله ما رأيتُ من حَمَلٍ هو أخفُّ منه، ولا أعظمُ بركةً منه.

* قال ابنُ سعد - رحمه الله - في كتابه: «الطبقات الكبرى»: إِنَّ آمنةَ بنتَ وهبٍ لما حَمَلَتْ برسولِ الله ﷺ كانت تقول: ما شعرتُ أَنِّي حملتُ به، ولا وجدتُ له ثَقْلاً كما تجدُ النساء، إِلَّا أَنِّي قد أنكرتُ رَفَعَ حَيْضَتِي، وربما كانت ترفعُني وتعود.

* وقالت آمنةُ أيضاً: لقد علقْتُ به، فما وجدتُ له مشقةً حتى وضعته.

* وقد هتَفَ بآمنة هاتِفٌ حينما كانت حاملاً بمحمدٍ ﷺ قائلاً: إِنَّكَ قد حملتِ بَسِيْدِ هذهِ الأمة، فإذا وقع على الأرض فقولِي: أعِيْذهُ بالواحد، من شرِّ كلِّ حاسد، وسميه محمدًا.

آمنةُ ومولِدُ الْمُصْطَفَى ﷺ:

* بلغَ الكتابُ أَجَلَه، فبعدَ تسعةِ أشهر، أذنَ اللهُ للثور أن يسطعَ، وأن يظهرَ إلى الوجودِ، وللنَّسَمَةِ المباركة أن تخرجَ إلى الكونِ لتؤدِّيَ أسمى وأعظمَ رسالة عرفتُها الدُّنيا في عمرها الطَّويل.

* ففي ليلةٍ طابَ هَوَاؤُها، وصافحتْ نسماتها الوجود، والقمر يوشك أن يكونَ بَدْرًا، واليوم الإثنين، وقد مضتْ من شهرِ ربيعِ الأوَّلِ^(١) اثنتا عشرة ليلة، وكان العامُ عامَ الفيل، في زمنِ كسرى أنوشروان؛ لم يكنْ في دارِ عبد الله بن عبد المطلب قرب الصِّفا سوى آمنةَ بنتِ وهب، وجاريتها بركة

(١) فيا شهرًا ما أشرفه وأوفرَ حرمة ليليه، كأنها لآلئُ في العقود، ويا وجهًا ما أشرفه

من مولود، فسبحانَ مَنْ جَعَلَ مولده للقلوب ربيعاً، وحسنه بديعاً.

يَقُولُ لِسَانُ الْحَالِ مِنْهُ وَقَوْلُ الْحَقِّ يَعْذِبُ لِلْسَمِيعِ

فوجهي والزَّمانُ وشَهْرُ وضعتي ربيعٌ في ربيعٍ في ربيعٍ

ولله دُرٌّ الآخر إذ قال:

لهذا الشَّهرِ في الإسلامِ فَضْلٌ وَمَنْقَبَةٌ تَفُوقُ عَلَى الشُّهُورِ

ربيعٌ في ربيعٍ في ربيعٍ وَنُورٌ فَوْقَ نُورٍ فَوْقَ نُورٍ

الحبشيّة، وكانت تلکم الليلة ليلةً هادئةً خاشعةً، وكان نورُ القمرِ الفضيّ ينسكبُ على الكون، ويتسلّلُ إلى غُرْفَةِ آمنةَ رائعاً رقيقاً، كأنَّ يدًا حانيةً لطيفةً تمسُّ الكونَ مسّاً رقيقاً فتحركَ مشاعر الرِّقّة والحَنان، وملأت روح آمنةَ روائح أطيّب من المسكِ لم تدرِ ما مبعثها، وسرتُ في الغرقةِ نسماتٍ من الرحمة لا مَسَتْ وَجْهَ آمنةَ التي كانت هادئةً ساكنةً، وإنَّ كانت تهمُّ أن تَضَعَ حَمَلَهَا.

* ورأتِ الجاريةُ الحبشيّةُ هذا الموقفَ، فاستشعرتُ رهبةً ملكتُ كلَّ ذرّةٍ فيها، وخشيتُ أن تتلقّى وحدها مولودَ آمنةَ، فانسلتُ من الدَّارِ مهرولةً نحو قابلةٍ قريش، وسرعان ما عادتُ وبصحبتها الشَّفاء بنت عوف^(١) أم عبد الرحمن بن عوف، ليستقبلا معاً ذلك اليتيم الذي ستضعه آمنة.

* ودنتِ الشَّفاءُ من آمنةَ، وكانت قابلةُ الحبيبِ المصطفى ﷺ، فحضرتُ مولده، وتشرّفت به.

* وطافَ بآمنةَ نُعاسٌ، فسمعتُ هاتفاً يهتفُ بها أن تسميَ مولودها محمّداً، وأفادت من نُعاسِها، فأحسّت كأنما ذلك الاسم قد استقرَّ في فؤادها.

* وولدَ الحبيبُ الأعظمُ محمّدٌ ﷺ، واستقبلته الشَّفاءُ على يديها. ولنستمعُ إلى تلكِ الحادثةِ المباركة وهي ترويها الشَّفاءُ نفسها فتقول: لما ولدت آمنة محمّداً ﷺ وقع على يديّ، فاستهلّ، فسمعتُ قائلاً يقول: رحمك ربُّك^(٢)؛ فأضأ لي ما بين المشرقِ والمغرب حتى نظرتُ إلى بعضِ قصور الشَّام، ثم ألبسته وأضجعتة، فلم أنشب أن غشيتني ظلمة ورعبٌ وقشعريرة، ثم أسفِرَ عن يميني، فسمعتُ قائلاً يقول: أين ذهبتَ به؟

(١) اقرأ سيرة الشَّفاء بنت عوف في كتابنا «نساء من عصر النّبوة» (٢/ ١١٥ - ١٢١) فسيرتها شفاءٌ للنفوس بإذن الله.

(٢) وإلى هذا أشار البوصيري - رحمه الله - في همزيته: شَمَّتْهُ الْأَمْلَاكُ إِذْ وَضَعَتْهُ وَشَفَّتْنَا بِقَوْلِهَا الشَّفاءُ

قال : إلى المشرق ولن يعود أبداً .

فلم يزل الحديثُ مني على بال حتى ابتعث الله - عزَّ وجلَّ - رسوله فكنت في أولِ النَّاسِ إسلاماً^(١) .

* وَحُمِلُ المولودُ، ووضَعَ في جوارِ أمِّه آمناً، كان وجهُه قد تألَّقَ نوراً تهفو إليه الأفئدة، وتفتَحُ له النَّفسُ، ونظرتُ إليه آمناً بقلبٍ خافقٍ يتدفَّقُ منه الحَنانُ، فحُيِّلَ إليها أنَّ الوجودَ قد أشرقَ بالثُّورِ، وفاضت مشاعر الحبِّ فَضَمَّتْهُ إليها في رِقَّةٍ، ومالتُ عليها وقبَّلْتُه، وكان هذا الوليدُ رؤياها من قَبْلُ قد جَعَلَهَا الله حقّاً، فلقد رأْتُ حين ولدته كأنَّ نوراً سَطَعَ منها أضواء لها قصور الشَّامِ، فكان هذا المولود المبارك ذلك النور :

أَنْتَ مِصْبَاحُ كُلِّ فَضْلٍ فَمَا تَصُدُّ دُرّاً إِلَّا عَنْ ضَوْئِكَ الْأَضْوَاءِ
لَمْ تَزَلْ فِي ضَمَائِرِ الْكَوْنِ تُخَدُّ تَارُ لَكَ الْأُمَّهَاتُ وَالْآبَاءُ

* وترقرقت في مآقيها الدُّموعُ، وطافَ بذهنها طائفتُ حَرَكَ الْأَسَى في وجدانها؛ أَنَّ ابنها الحبيبَ قد وُلِدَ يتيماً، آه، ليتَ أباهُ عبدُ الله كان هنا ليسعد بابنه الجميلِ الحبيبِ النَّسيبِ ذي العنصرِ الطَّيِّبِ، والحسبِ الزَّاكي، ذي الأصلِ الثَّابتِ، والمجدِ المتناولِ في سَمَوَاتِ المكارم :

أَبَانَ مَوْلَدُهُ عَنْ طَيْبِ عُنْصِرِهِ يَا طَيْبَ مُبْتَدَأٍ مِنْهُ وَمُخْتَتَمِ
كَالشَّمْسِ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بَعْدِ صَغِيرَةٍ وَتَكُلُّ الطَّرْفُ مِنْ أَمَمِ

* ولم تسترسل آمناً في ذكرياتها وأحزانها، بل حانت منها التفاتة إلى وليدها، فإذا بإشراقِ وجهه الجميل تُبَدِّدُ كُلَّ ما هَمَّ بأن يتوضع في جوفها من حزنٍ، وإذا بها تتذكَّرُ ذلك الهاتفَ الذي هتَفَ بها قائلاً يومَ حملتْ به : «إِنَّكَ حملتِ بسيدِّ هذه الأمة»؛ وإذا بالثُّور يعودُ ليغمَرَ قلبَ آمنة، ويغمُر وجهَ الأرض وكلَّ شيء .

* وهكذا نِعِمَّتِ الْأُمُّ الصَّابِرَةُ - التي ترمَلتُ في شبابها - بهذا المولود

(١) انظر: دلائل النبوة لأبي نعيم الأصفهاني (١/١٦٩ و ١٧٠)، والمواهب اللدنية للقسطلاني (١/١٢٩ و ١٣٠).

الجميل، ذي الجبين الأزهر المشرق، الذي ملأ البيت من حولها نوراً
وسُروراً، ورأت فيه السَّلوى عن الحبيب الغالي الذي تركه لها وديعةً في
ضمير الغيب، ثمَّ مات ولم يرَ هذا الوليد الذي يملأ العيون جمالاً وبهاءً،
والقلوب محبةً وأنساً، ولكنَّ أمانة نالت بولادة هذا النَّبي العظيم ما لم تنله
النِّساء:

فهنيئلاً بهِ لآمنة الفضل ل الذي شرفت به حواءُ
يومَ نالت بوضعه ابنة وه ب من فخارِ مالم تنله النساءُ
وأئت قومها بأفضل ممَّا حملت قبل مريم العذراءُ

* وتنفسَ صبحُ تلك الليلة العطرة الزَّاهية الهادئة الميمونة المباركة،
فأرسلت أمانةً إلى عبد المطلب تبشُّره بغلام، وتبشِّره بميلاد الحفيد
ابن الحبيب، وطار الجدُّ إلى بيتِ ابنه فرحاً ضاحكاً مستبشراً مسروراً، وضمَّ
الحفيد إلى صدره ضماتٍ خَفَقَ لها قلبه، ومسحت من لوعة الحزن على
الحبيب المغيب في ثرى المدينة.

* وانطلق عبد المطلب يحمل الحفيد الحبيب إلى الكعبة، هنالك قام
يدعو الله ويشكره على ما أنعمَ عليه، وأعطاه، ثمَّ إنَّه أنشأ يقول:

الحمدُ لله الذي أعطاني هذا الغلام الطَّيب الأزْدانِ
قد سادَ في المهدِ على الغلمانِ أعيذه بالبيتِ ذي الأركانِ
حتى يكون بلغه الفتيان حتى أراه بالغِ البنيانِ
أعيذه من كل ذي شأن من حاسد مضطرب العنان^(١)

ثمَّ إنَّ عبد المطلب سمَّاه «محمّداً»، ولم يكن هذا الاسم شائعاً عند
العرب، ولا تسمَّى به إلا عددٌ لا يتجاوزُ في العدِّ أصابع اليد، ولكنَّ الله
- عز وجلَّ - ألهمَّ جدَّه ذلك إنفاذاً لأمره، وتحقيقاً لما قدره، وذكره في
الكتب السماوية التي بشرت به، وبشَّر به الأنبياء من قبل:

مَا مَضَتْ فِتْرَةٌ مِنَ الرُّسُلِ إِلَّا بَشَّرَتْ قَوْمَهَا بِكَ الْأَنْبِيَاءُ

(١) انظر: طبقات ابن سعد (١/٦٤)، وأنساب الأشراف (١/٨١).

* وذكر البيهقي - رحمه الله - أنَّ عبدَ المطلب سئل عن سبب تسميته محمداً قال: أردتُ أنْ يحمدهُ اللهُ في السَّماء، وخَلَقه في الأرض.

* ولعلَّ السَّيِّدةَ آمنةَ قد أَخبرتُ عبدَ المطلب بما رأتُ في منامها، فَاتَّفَقَ ما رأتُ وما رأى، وَرَجَعَ عبدُ المطلب إلى دارِ آمنةَ وهو يَضُمُّ الوليدَ إلى صدره، ووضعه في حَضْنِ آمنةَ، ولا تكادُ تسعه نفسُهُ من شِدَّةِ الشُّرور والانشراح، وسرعانَ ما غَصَّتِ الدَّارُ بنساءِ بني زهرة، ونساءِ بني هاشم للاحتفالِ بالمولودِ السَّعيد:

تَجَلَّى مَوْلِدُ الْهَادِي وَعَمَّتْ بَشَائِرُهُ الْبَوَادِي وَالْقَصَابَا
وَأَسَدَتْ لِلْبَرِيَّةِ بَنَتْ وَهَبْ يَدَا بَيْضَاءَ طَوَّقَتِ الرِّقَابَا
لَقَدْ وَلَدَتْهُ وَهَّاجاً مُنِيراً كَمَا تَلِدُ السَّمَوَاتُ الشَّهَابَا
فَقَامَ عَلَى سَمَاءِ الْبَيْتِ نُوراً يُضِيءُ جِبَالَ مَكَّةَ وَالنَّقَابَا

* وفي غُضُونِ ذلكِ المولِدِ الميمون، طارت «ثُوبيةُ الأَسلمِيَّة» جاريةُ أبي لهب عبدِ العزى بن عبدِ المطلب^(١) تبشِّرُ سيِّدها بمولِدِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فامتلاً فرحاً وبهجةً، وأعتقها وقال: اذهبي فأنت حرة.

* وتجلَّتْ أوَّلُ بركةٍ للمولودِ السَّعيد، ولَمَّا يَمُضُ على مولده غير ساعات، فقد دخلتْ ثُوبِيَّةُ دارَ أبي لهب جاريةً مملوكَةً تحملُ البُشْرَى، فخرجتْ من الدَّارِ وقد أصبحت حرةً أعتقها أبو لهب^(٢)، فكانَ هذا إيذاناً

(١) اقرأ سيرة هذا الفاجر في كتابنا «المبشرون بالنار» (٦/٢ - ٤٣) تجد صبرَ الحبيبِ المصطفى ﷺ ووقوفَه الحازمَ مع هؤلاء الأشرار الفجَّار.

(٢) على الرغم من أنَّ أبا لهب من أكابر المجرمين، ومن المبشَّرين بالنَّار، فقد لَمَسَتْهُ نَفْعَةٌ مباركةٌ بسببِ عَتَقِهِ لجاريته ثُوبِيَّةَ؛ فقد روي أنَّ العباسَ بنَ عبدِ المطلب - رضي الله عنه - رأى أخاه أبا لهب بعد موته بِسَنَةٍ، وذلك بعد غزاةِ بَدْر، فسأله عن حاله؛ فأجاب أبو لهب: في النَّارِ إلَّا أنَّ العذابَ يخفَّفُ عَنِّي كُلَّ لَيْلَةٍ إثنينِ بما أمَّصُهُ من بين أصبعي هاتين: السَّبَّابةُ والإِبْهَام، وذلك أني أعتقتُ ثُوبِيَّةَ حينما أخبرتني بولادة محمد. (الاشتقاق ص ١٠٢) بتصرف.

وتنبيهاً للدُّنيا بأنَّ هذا المولود جاءَ ليحرِّرَ بني الإنسان من استعبادِ أخيه الإنسان :

وُلِدَ الْيَتِيمُ لِيُنْقِذَ الْإِيْتَامَ مِنْ بُؤْسِ الْحَيَاةِ إِذَا رَمَى الْحَدَثَانِ
وُلِدَ الْمُنْشَأُ نَشْأَةً أُمِّيَّةً فَسَمَا بِنُورٍ كِتَابَهُ الْعِرْفَانِ
وُلِدَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ أَعْظَمُ مُصْلِحٍ وَأَجَلُ مَنْ دَانَتْ لَهُ التَّيْجَانِ

* لقد كان مولده ﷺ إيذاناً لإشراق الهدى، وظهور الحق، وإحقاق الحق ...

لَمَّا أَرَادَ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ أَنْ يُخْرِجَ الدُّنْيَا مِنَ الْعَثَرَاتِ
أَهْدَاكَ رَبُّكَ لِلْوَرَى يَا سَيِّدِي فَيَضاً مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالنَّفَحَاتِ

* هذا وقد سَعِدَتِ الدُّنْيَا بِأَسْرِهَا بِمَوْلِدِ هَذَا النَّبِيِّ الْكَرِيمِ ﷺ؛ أليس هو الذي وصفه رَبُّهُ بأنه ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]!!؟

* لقد كان مولده ﷺ إيذاناً بانبلاج النور إلى الدُّنيا، وتلاشي الشُّرك ...
سَعِدَتْ بِمَوْلِدِ أَحْمَدَ الْأَرْمَانُ وَتَعَطَّرَتْ بِعَيْبِرِهِ الْأَكْوَانُ
وَالشُّرْكُ أَنْذَرَ بِاللَّهْيَاةِ عِنْدَمَا وُلِدَ الْبَشِيرُ وَأَشْرَقَ الْإِيمَانُ
وَلَدَتْهُ أَمَنَةُ النَّقِيَّةِ مُشْرِقاً بَاهِي الْمَحْيَا صَاغَهُ الْمَنَانُ
تَتَلَأَلُ الْأَنْوَارُ فِي قَسَمَاتِهِ وَأَتَمَّ حُسْنَ صِفَاتِهِ الرَّحْمَنُ
وَبَدَتْ لِمَوْلِدِهِ الْكَرِيمِ بَشَائِرُ قَدْسِيَّةً وَتَزَلَزَلَ الْإِيْوَانُ

* ولقد أَحْسَنَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي زَكْرِيَا الشَّقْرَاطِيْسِي حَيْثُ قَالَ :
ضَاءَتْ لِمَوْلِدِهِ الْآفَاقُ وَاتَّصَلَتْ بَشَرَى الْهَوَاتِفِ فِي الْإِشْرَاقِ وَالطَّفْلِ^(١)
وَصَرَخُ كِسْرَى تَدَاعَى مِنْ قَوَاعِدِهِ وَانْقَضَ مِنْكَسِرِ الْأَرْجَاءِ ذَا مِيلِ
وَنَارُ فَارِسَ لَمْ تُوقَدْ وَمَا خَمَدَتْ مُذْ أَلْفِ عَامٍ وَنَهَرُ الْقَوْمِ لَمْ يَسِلِ

= إذا كان هذا كافرأ قد جاءَ ذمُّه
أتى أَنَّهُ فِي يَوْمِ الْإِثْنَيْنِ دَائِماً
فَمَا الظَّنُّ بِالْعَبْدِ الَّذِي كَانَ عَمْرُهُ
وتبث يداه في الجحيم مخلدا
يخففُ عنه للشُّرورِ بأحمدا
بأحمد مسروراً ومات موحداً
(١) «الطفل»، يقال: طفلت الشمس للغروب: أي: دنت منه.

خَرَّتْ لِمَبْعَثِهِ الْأَوْثَانُ وَانْبَعَثَتْ ثَوَاقِبُ الشُّهْبِ تَرْمِي الحِرْنَ بِالشُّعْلِ^(١)

* هذا ومكانٌ ولادة الحبيب المصطفى ﷺ معروفٌ بمكة مشهور، تَقَلَّبَتْ عليه الأحداثُ عَبرَ الأَيَّامِ، وفي هذه الأوقاتِ سَتَقَامُ مكانُهُ مدرسةٌ لتحفيظ القرآن الكريم - كما ذكر المسؤولون عن الحرم المكي الشريف -؛ ولا شكَّ بأنَّ هذا المكان كان جُزءاً من دار جدّه عبد المطلب، انتقلت إليها أمنة وهي حاملٌ به ﷺ، وفي اليوم السَّابع عَقَّ عنه جدّه، ونَحَرَ الذَّبَائِحَ، وأقام الولائم شُكراً لله، واحتفاءً وفرحاً بالوليد؛ الذي رأى في حياته حياةً موصولةً لابنه الغالي عبد الله.

* وقد شارك البيت الهاشمي في الغبطة بالوليد السَّعيد، ودبَّت الحياة في البيوت الهاشمية، حيث كان أعمامه ﷺ وأقرباؤه فرحين مستبشرين؛ والله درُّ العباس بن عبد المطلب عم النبي ﷺ حينما امتدَحَ الحبيب المصطفى بقوله:

وَأَنْتَ لَمَّا وُلِدْتَ أَشْرَقَتْ الْأَرْضُ وَضَاءَتْ بِنُورِكَ الْأُفُقُ
فَنَحْنُ فِي ذَلِكَ الضِّيَاءِ وَفِي النُّورِ وَسِبْطِ الرَّشَادِ نَخْتَرِقُ

أما الشَّاعر المشهور أحمد شوقي، فقد عارضَ همزية البوصيري بهمزية رائعة - حقاً - اقتادَ فيها سحابَ البلاغة والبيان، وجاوزَ مقدارَ بُلْغَاءِ العَصْرِ الحديث وفصاحتهم، فجادت قريحته بهذه الهمزية التي تطاولُ أعنانُ سماءِ البلاغة بغارِبِها، بل وتسدُّ مَهَبَ رِيحِ الشَّعْرِ من كلِّ وَجْهَةٍ لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَحْلُقَ مع الشَّعر في هذا المضمَر، فكأنَّ هذه القصيدة قد قُدَّتْ من سَرايِلِ البلاغة، لما حوَّته من جَمالٍ في البِناء، وطلاوةٍ في الأسلوب، وحلاوةٍ في التَّغَمَّاتِ، ورشاقةٍ في هَمَسَاتِ الكلمات، ولا بأس أن نقتطفَ بعضَ أزهارها من مطلعها، كي نتذوَّقَ جمالَها؛ ونرتشفَ رحيقَ عباراتها العذاب، قال شوقي:

وُلِدَ الْهُدَى فَالكَائِنَاتُ ضِيَاءُ وَفَمُ الزَّمَانِ تَبَسُّمٌ وَثَنَاءُ

(١) انظر: المواهب اللدنية (١/١٣٢).

الرُّوحُ وَالْمَلَأُ الْمَلَائِكُ حَوْلَهُ لِلدِّينِ وَالْدُّنْيَا بِهِ بُشْرَاءُ
وَالْعَرْشُ يَزْهَوُ وَالْحَظِيرَةُ تَزْدَهِي وَالْمُنْتَهَى وَالسُّدْرَةُ الْعَصْمَاءُ
بِكَ بَشَّرَ اللَّهُ السَّمَاءَ فَزَيَّنَتْ وَتَضَوَّعَتْ مِسْكَاً بِكَ الْغِبْرَاءُ
يَوْمٌ يَتِيهِ عَلَى الزَّمَانِ صَبَاحُهُ وَمَسَاوُهُ بِمُحَمَّدٍ وَضَاءُ
وَالْآيُ تَتَرَى وَالْخَوَارِقُ جَمَّةٌ جَبْرِيلُ رَوَّاحٌ بِهَا غَدَاءُ

* وَتَنَفَّسَ مُحَمَّدٌ ﷺ نَسِيمَ الْحَيَاةِ يَتِيماً، فَقَدَّ أَبَاهُ قَبْلَ أَنْ يَشْهَدَ الْوُجُودَ
طَلَعَتْهُ، فَقَدَ مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَنِينٌ فِي بَطْنِ
أُمِّهِ، وَقَدْ تَرَكَ لَهُ خَمْساً مِنَ الْإِبِلِ، وَقِطْعَةً مِنَ الْغَنَمِ، وَجَارِيَةً هِيَ حَاضِنَتُهُ أُمُّ
أَيْمَنَ بَرَكَةِ الْحَبَشِيَّةِ، وَكَانَ لِلَّهِ حِكْمَةٌ فِي ذَلِكَ لَا يُدْرِكُ غَوْرَهَا، فَقَدْ كَانَ
مُحَمَّدٌ ﷺ خَاتَمَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، وَصُنِعَ عَلَى عَيْنِ اللَّهِ، وَكَانَ السَّرَاجُ
الْمُنِيرُ... .

فَضَلَ النَّبِيُّ الْرَّسُولُ مُحَمَّدٌ
شَرْفَاً يَزِيدُ وَزَادَهُمْ تَعْظِيماً
يَكْفِيهِ أَنْ اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ
أَوَى فَقَالَ: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً﴾ (١)
دُرُّ يَتِيمٍ فِي الْفَخَّارِ وَإِنَّمَا
خَيْرُ الْآلِي أَنْ يَكُونَ يَتِيماً
وَلَقَدْ سَمَّا الرُّسُلُ الْكِرَامُ فَكُلُّهُمْ
قَدْ سَلَّمُوا لَجَلَالِهِ تَسْلِيماً
وَاللَّهُ قَدْ صَلَّى عَلَيْهِ كَرَامَةً
﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ (٢)

أُمُّ الْيَتِيمِ وَرِخْلَةُ رَضَاعِهِ ﷺ:

* كَانَ لِمَوْتِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ أَثَرٌ مِنَ الْحُزَنِ الْفَادِحِ، وَالْأَلَمِ

(١) اقتباس من سورة «الضحى» آية: [٦].

(٢) اقتباس من سورة «الأحزاب» آية: [٥٦].

الممضّر على نفس الشيخ عبد المطلب الذي أفنت السنون جلده وناءً بأثقالها، واشتعل رأسه شيباً، واشتغل تفكيره بمتاعبها، لكنه لما أن بُشّر بميلاد حفيده محمد ﷺ صَبَّ به صبابته بأبيه من قبله، وحظي محمد ﷺ عند جدّه حظوةً لمن تكن لأحدٍ من ولده، فأخذهُ من مهده بين يديه، وطاف به حول الكعبة يباركه ويدعو له، ويستعذب النظر إليه في حنان الأبوة الثائلة، ومن ثمّ رَدَّهُ إلى آمنة كي تقرّ عينها بهذا الوليد الفريد السعيد.

* وأخذ عبد المطلب يطلب لحفيده المراضع في نساء البوادي، على عادة سكّان المُدن والقرى من العرب، في استرضاع أولادهم في البادية اتقاءً لوخامة المدن، وانتجاعاً لجو البادية صحةً، وطلباً للفصاحة والسّلامة من اللحن، والبراءة من الهُجَنَة والعُجَمَة.

* وكانت الممرضعات يَرِدْنَ مكة في المواسم، تَطَلُّباً للرُّضَع الذين يؤمَلَنَ فيهم المال وسعة من العطاء؛ وكان في قبائل العرب بيوتٌ عَرِفَتْ بخصب الدّرّ، ونقاء الجو، وصفاء الطّبيعة، وفصاحة اللهجة، ونصاعة البيان، ونقاء المربى؛ منهم بنو سعد بن بكر القبيلة المعروفة بفصاحتها وتعربها.

* ولما وَرَدَ نساؤها مكة عُرِضَ عليهن فيمن عُرِضَ من الرُّضَع محمد بن عبد الله ﷺ، فأقبلن على غيره، وأعرضن عنه، لأنهنّ قد عَلِمْنَ أَنَّهُ يَتِيمٌ، وكنّ يرتجبن وسيع العطايا، وغامر المِنَح من آباء الأطفال.

* وكان في نسوة بني سعد السيِّدة حليلة بنت عبد الله بن الحارث، ويبدو أنّها كانت من أرقهنّ حالاً، فلم يرغب فيها آباء الأطفال وذووهم، وأصاب صويحباتها طلبتهن من الرُّضَع المكيين، وبقي الحبيب المصطفى محمد ﷺ بغير مريض، وبقيت حليلة من غير رضيع، وعُرِضَ عليها فجعلت تقول: يتيمٌ ولا مال له، وما عَسَتْ أُمّه أن تفعل^(١).

(١) لك - عزيزي القارئ - أن تتصور حال آمنة بنت وهب عندما تسمع مثل هذه العبارات؛ يبدو لي أنّ ذلك كان يؤلمها، ويهدد مشاعرها، فكل النسوة السَّعديّات قد أخذن ما يبيغينه، وكنّ يجفّلن من ابنها لأنّه يتيم، كأنّ اليتم عندهن بلاءٌ =

* ولكنَّ السَّعَادَةَ كانت قد كُتِبَتْ لهذه السَّعدية، ولقد سَبَقَتْهَا العنايةُ الإلهيَّةُ إلى مكةَ لتحظى بهذا المولودِ المبارك الذي قد سبقته العنايةُ الإلهيَّةُ إلى ديار بني سَعْد، فكان ﷺ هو بشيرُ الخير واليُمن، وحُسْنُ الطَّالع، وتَمَامُ السَّعَادَةِ عَلَى حليمة^(١) وعلى بني سَعْد جميعهم، فقد أجمعَ رواةُ السَّيرة أنَّ بادية بني سعد كانت تُعاني - إذ ذاك - سَنَةً مجدبة قد جَفَّ فيها الضَّرْعُ،

= يستوجبُ الإعراضَ والفرارَ، وزَادَ مِنْ أَسَافِهَا أَنَّ أصواتَ أولئك النِّسوة كان يَرْنُ في أعماقها: يتيم، يتيم، يتيم، يـ.. تـ.. يـ.. مـ.. فتمزَّق نياط قلبها، ولكن الله مُقَدِّرُ الأشياءِ هو الذي اختارَ ذلك ليكون هذا اليتيم قد صُنِعَ على عينه، فأواه وهَدَاه وأغناه.

صحيح أنَّ أَمَنَةً كانت تتألم وتتألم، ولكنَّ تلك الآلام كانت آمالاً عِظَاماً عند أَمَنَةٍ حينما علمت أنَّ حليمةً من خَيْرَةِ المراضع في نساء البوادي.

(١) روت حليمةُ السَّعدية - رضي الله عنها - جانباً من حَظَّهَا في سعادَتِها بإرضاع الحبيبِ المصطفى ﷺ فقالت ما مفاده:

استقبلني عبد المطلب عندما كنتُ أبحثُ عن رضيعٍ بمكةَ، فقال لي: مَنْ أَنْتِ؟ قلتُ: امرأةٌ من بني سعدٍ جئتُ أَلْتَمِسُ رضيعاً.

فقال لي: ما اسمك؟!!

قلتُ: حليمة بنت عبد الله بن الحارث السَّعدي.

فتبسَّم عبد المطلب ضاحكاً مَسْروراً وقال لي: بخ بخ؛ سَعْدٌ وحُلْمٌ، هما خصلتان فيهما خيرُ الدهرِ، وعزُّ الأبد. (السَّيرة النبوية لابن هشام ١٦٢/١ و١٦٣) بشيء من التصرف.

ثم إنَّ عبدَ المطلب أدخلَ حليمةَ السَّعدية بيتَ أَمَنَةٍ بنت وهب، فأخذتُ محمداً ﷺ لترضعه. وتحكي بعضُ الروايات أنَّها لما دخلت على النبي ﷺ مع جدِّه عبد المطلب، سمع جدَّه هاتفاً ينشد ويقول:

إِنَّ ابْنَ أَمَنَةَ الْأَمِينِ مُحَمَّدًا
خَيْرُ الْأَنَامِ وَخَيْرَةُ الْأَخْيَارِ
مَا إِنَّ لَهُ غَيْرَ الْحَلِيمَةِ مُرْضِعٌ
نَعَمَ الْأَمِينَةُ هِيَ عَلَى الْأَبْرَارِ
مَأْمُونَةٌ مِنْ كُلِّ غَيْبٍ فَاحِشٍ
وَنَقِيَّةُ الْأَثْوَابِ وَالْأَوْزَارِ
لَا تَسْلَمُنِهِ إِلَّا سِوَاهَا إِنَّهُ
أَمْرٌ وَحَكْمٌ جَاءَ مِنْ جِبَارِ
ويبدو لي أن هذا الخبر مصنوع، ويُسْتَمُّ منه رائحة الوضع.

ويبس الزَّرْعُ، فما هو إلا أن صارَ الحبيبُ المصطفى مُحَمَّدٌ ﷺ في منزلٍ حليلة، واستكان إلى حِجْرِها وثديها، حتى عادتْ منازلها ممرعة خُضْرًا، فكانت أغنامُها من قَبْلُ خِماصًا، وغدت الآن تروحُ منها عائدة إلى الدَّارِ بِطانًا شِباعًا ممتلئة الضَّرْع؛ والله دُرُّ البوصيري إذ يقولُ في همزيتِه الرَّائِعَةِ:

وَإِذَا سَحَّرَ اللَّهُ أَنْاسًا لِسَعِيدٍ فَإِنَّهُمْ سَعَدَاءُ

* وهل هناك أَسْعَدُ في هذا الوجودِ من رسولِ الله ﷺ؟! وما أجملَ ما نظمهُ الشَّيْخُ يُوْسُفُ بنُ إِسماعيلِ النَّبْهاني - رحمه الله - في هذا المجالِ فقال:

وَأَرْضَعَتْهُ ذَاتُ حِظٍّ وَافِرٍ حَلِيمَةً مِنْ غُرْرِ الْعَشَائِرِ
كَانَ لَدَيْهَا الْقُوْتُ غَيْرَ يَاسِرٍ فَأَصْبَحَتْ أَيْسَرَ أَهْلِ الْحَاضِرِ
سَعِيدَةٌ قَدْ سَعِدَتْ مِنْ سَعْدِ^(١)

* وهنا أودُّ أن نتركَ الرِّوَايَةَ التَّارِيخِيَّةَ على لسانِ السَّيِّدَةِ حَلِيمَةِ السَّعْدِيَّةِ، كيما تَوْنسُنَا بِحَدِيثِهَا، وذلك بما اتَّفَقَ عليه الرُّوَاةُ، أو قريب من ذلك.

* روى ابنُ إِسْحاقَ - رحمه الله - بسنِّهِ عن جعفر بنِ أَبِي طالبٍ - رضي الله عنه - قال: حَدَّثْتُ عَنْ حَلِيمَةِ بِنْتِ الْحَارِثِ أَنَّهَا قَالَتْ:

قَدِمْتُ مَكَةَ فِي نِسْوَةٍ مِنْ بَنِي سَعْدٍ نَلْتَمِسُ بِهَا الرُّضْعَاءَ، فِي سَنَةِ شَهْبَاءَ^(٢)، فَقَدِمْتُ عَلَى أَتَانٍ لَهَا قَمْرَاءَ^(٣)، كَانَتْ أَذْمَتْ^(٤) بِالرَّكْبِ، وَمَعِيَ صَبِيٌّ لَنَا،

(١) انظر: حَجَّةُ الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين، ليوسف النبهاني (٢٥٢/١).

(٢) «سنة شهباء»: لا خضرة فيها؛ أو لا مَطَرُ بها. والمراد: أنها جذباء لندرة الخصب فيها، فهي أرض ذات جذب وقحط.

(٣) «أتان قمراء»: «الأتان»: الحِمَارَةُ، و«قمراء»: هو من القمرة: لون إلى الخضرة، أو بياض تشوبه كدرة.

«والقمرة»: بالضم، يُقال: حمار أقمر، وأتان قمراء. (القاموس المحيط ص ٥٩٨) مادة «قمر».

(٤) «أذمت بالركب»: حبستهم لإعيائها، وانقطاع سيرها؛ قال ابن منظور في =

وشارف^(١) لنا والله ما تَبَضُّ^(٢) بقطرة، وما ننأى ليلتنا أجمع من صبيتنا ذاك، ما نجد في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج.

فخرجتُ على أتاني تلك، فلقد أذمت بالركب، حتى شق ذلك عليهم ضعفاً وعجفاً، فقدمنا مكة، فوالله ما علمتُ من امرأة إلا وقد عرضَ عليها رسولُ الله ﷺ فتأبأه، إذا قيل إنه يتيم تركناه، قلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟! إنما نرجو المعروف من أبي الولد، فأما أمه فماذا عسى أن تصنع إلينا، فوالله ما بقي من صواحيبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري. فلما لم نجد غيره، وأجمعنا الانطلاق قلتُ لزوجي الحارث بن عبد العزى: والله إنني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ليس معي رضيع، لأنطلقنَّ إلى ذلك اليتيم فلاخذنه؟ فقال: لا عليك أن تفعلي، فعسى أن يجعلَ الله لنا فيه بركة.

فذهبتُ فأخذته، فوالله ما أخذته إلا أني لم أجِد غيره، فما هو إلا أن أخذته، فجنّت به رجلي، فأقبلَ عليه ثدياي بما شاء من لبنٍ فشرب حتى روي، وشرب أخوه (ولدها) حتى روي، وقام صاحبي إلى شارفنا تلك، فإذا بها لحافل^(٣)، فحلب ما شرب وشربتُ حتى روينا. فبتنا بخير ليلة، فقال صاحبي^(٤) حين أَصَبَحنا: يا حليلة، والله إنني لأراك قد أخذتِ نسمةً مباركة، ألم تَرَي ما بَتْنَا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه؟! فلم يزل الله تعالى يزيدنا خيراً.

ثمَّ خرجنا راجعين إلى بلادنا، فوالله لقطعَتْ أتاني بالركب حتى ما يتعلق

= «اللسان»: وفي حديث حليلة السعدية: فخرجت على أتاني تلك، فلقد أذمت بالركب، أي: حبستهم لانقطاع سيرها.

(١) «الشارف»: الناقة المُسَيَّة الهرمة، والشارف: يُطلق على الذكر والأنثى، والمراد هنا: الأنثى.

(٢) «تبض»: هو من قولهم: بض الماء يبيض؛ إذا سال قليلاً.

(٣) «لحافل»: أي: امتلاً ضرعها باللبن.

(٤) «صاحبي»: تعني زوجها الحارث بن عبد العزى.

بها حمارٌ، حتى إنَّ صواحيبي ليقُلْنَ: ويلك يا بنت أبي ذؤيب، هذه أتانك التي خرجت علينا معنا؟! فأقول: نعم، والله إنها لهي.

فقلن: والله، إنَّ لها لشأناً.

وقدما أرضَ بني سَعْد، وما أعلمُ أيضاً من أرضِ الله أجذبَ منها، فإن كانت غنمي لتسرح، ثم تروحُ شباعاً لبناً، فنحلبُ ما شئنا^(١)، وما حوالينا أحدٌ تبضُّ له شاة بقطرة لبن، وإنَّ أغنامهم لتروحُ جِيعاً، حتى إنهم ليقولون لرعاتهم: ويحكم انظروا حيثُ تسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم، فيسرحون مع غنمي حيثُ تسرح، فتروحُ أغنامهم جِيعاً ما فيها قطرة لبن، وتروحُ أغنامي شباعاً لبناً، نحلبُ ما شئنا.

فلم يزلُ اللهُ يُرينا البركةَ نتعرفها حتى بلغَ سنتين، فكان يشبُّ شباباً لا يشبُّه الغلمان، فوالله ما بلغَ السنتين حتى كان غلاماً جَفرًا^(٢)، فقدمنا به على أمه، ونحنُ أضنُّ شيء به مما رأينا فيه من البركة^(٣).

(١) أشار البوصيري - رحمه الله - إلى قصّة رضاعه ﷺ وإلى كثرة خصب العيش في منازل حليلة السعدية، فقال في همزته الرائعة:

وَبَدَتْ فِي رِضَاعِهِ مُعْجَزَاتٌ	لَيْسَ فِيهَا عَنِ الْعُيُونِ خَفَاءٌ
إِذْ أَتَتْهُ لَيْتَمُهُ مَرْضَعَاتٌ قُلْنَ	مَا فِي الْيَتِيمِ عَنَّا غَنَاءٌ
فَأَتَتْهُ مِنْ آلِ سَعْدٍ فَتَاةٌ	قَدْ أَبْتَهَا لِفَقْرِهَا الرُّضْعَاءُ
أَرْضَعَتْهُ لِبَانِهَا فَسَقَتْهَا	وَبَنِيهَا أَلْبَانَهُنَّ الشَّاءُ
أَخْصَبَ الْعَيْشُ عِنْدَهَا بَعْدَ مَحَلٍّ	إِذْ غَدَا لِلنَّبِيِّ مِنْهَا غَدَاءُ

(السيرة الحلبية ١/ ١٤٩ و ١٥٠).

(٢) «جفراً»: الجفْرُ: الذي استغنى عن الرضاع، وقوي على الأكل؛ وقد ساق ابن منظور - رحمه الله - في «اللسان» هذا الحديث، فقال: وفي حديث حليلة ظئر النبي ﷺ قال: كان يشبُّ في اليوم شباب الصبي في الشهر، فبلغ ستاً وهو جفر؛ ثم قال: والجفر: الصَّبِي إذا انتفخ لحمه وأكل وصارت له كرش. ويلاحظ أنه في رواية ابن منظور مخالفة لرواية ابن إسحاق في تقدير الزمن.

(٣) انظر: السيرة النبوية لابن هشام (١/ ١٦٣ و ١٦٣)، وانظر: دلائل النبوة للأصبهاني (١/ ١٩٨)، والبداية والنهاية (٣/ ٢٥٥)؛ وقد روى هذه القصّة من أعلیاء العلماء =

حَلِيمَةُ تَرْجُو آمَنَةَ :

* هو ذا مُحَمَّدٌ ﷺ قد أَمْضَى عَامَهُ الثَّانِي فِي أَرْضِ بَنِي سَعْدٍ، فَكَانَ يُقَلِّبُ وَجْهَهُ فِي الْكَوْنِ، يُمَعِّنُ فِي آيَاتِهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ، وَقَدْ أَحَبَّهُ النَّاسُ، وَتَفَتَّحَتْ لَهُ الْقُلُوبُ، وَبَشَتْ لَهُ الْوُجُوهُ، وَأَلْقَى اللَّهُ مُحَبَّتَهُ فِي نَفْسِ كُلِّ مَنْ يَرَاهُ.

* وَفِي لَيْلَةٍ مِنْ لَيَالِي بَنِي سَعْدٍ، هَبَطَ عَلَى دَارِ حَلِيمَةَ حَزَنٌ ثَقِيلٌ، فَقَدْ فَصَلَتْ حَلِيمَةُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَفِي غُضُونِ الْأَيَّامِ الْقَادِمَةِ، سَتَنْطَلِقُ بِهِ مَعَ زَوْجِهَا إِلَى مَكَّةَ، كَيْ تَعِيدَهُ إِلَى أَحْضَانِ أُمِّهِ آمَنَةَ بِنْتِ وَهَبٍ.

* وَيَبْدُو لِي أَنَّهُ قَدْ خَيَّمَ وَجُومٌ عَلَى جَمِيعِ أَفْرَادِ الْأُسْرَةِ السَّعْدِيَّةِ، فَقَدْ نَزَلَ هَذَا الطِّفْلُ الْمُبَارَكُ فِي سُوَيْدَاءِ قُلُوبِهِمْ، وَأَحْبَوْهُ حُبًّا عَظِيمًا مَلَكَ عَلَيْهِمْ مَشَاعِرُهُمْ، وَتَمَنَّوْا لَوْ يَبْقَى عِنْدَهُمْ.

* آنَ وَقْتُ الرَّحِيلِ، وَرَكِبَتْ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ أَتَانَهَا الْقَمَرَاءُ، ثُمَّ حَمَلَتْهُ عَلَيْهَا، وَتَوَجَّهَتْ تَلْقَاءَ مَكَّةَ وَبِجَوَارِهَا زَوْجِهَا الْحَارِثُ وَهُوَ مَطْرُقٌ، يُوَدُّ لَوْ يَعُودُ بِالطِّفْلِ الَّذِي لَمَسَ مَعَهُ الْبَرَكَةُ مِنَ اللَّحْظَاتِ الْأُولَى الَّتِي حَلَّ فِيهَا بِدْيَارَهُمْ، بَلْ عِنْدَمَا أَخَذُوهُ مِنْ أُمِّهِ آمَنَةَ لِرِضَاعِهِ.

* وَبَلَغَ الرِّكْبُ مَكَّةَ الْمَكْرَمَةَ، فَذَهَبَتْ حَلِيمَةُ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ فِي يَدِهَا، وَالْحَارِثُ إِلَى جَوَارِهَا لَتَطُوفَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ، وَتَتَمَسَّحُ بِالْأَرْكَانِ مَعَ مَنْ هُوَ مَاسِحٌ، وَلَمَّا قَضَتْ طَوَافَهَا، سَارَتْ إِلَى الصَّفَا حَيْثُ دُورُ بَنِي هَاشِمٍ، وَوَقَفَ جَمِيعُهُمْ أَمَامَ دَارِ آمَنَةَ بِنْتِ وَهَبٍ، وَطَرَقَتْ حَلِيمَةُ الْبَابَ، فَمَا لَبِثَ أَنْ انْفَرَجَ عَنْ بَرَكَةِ الْحَبَشِيَّةِ، فَلَمَّا رَأَتْ مُحَمَّدًا ﷺ أَشْرَقَ وَجْهُهَا بِالْبِشْرِ، وَأَخَذَتْهُ مِنْ حَلِيمَةَ، وَرَاحَتْ تَقْبَلُهُ وَهِيَ فِي غَايَةِ السُّرُورِ.

* وَأَسْرَعَتْ بَرَكَةُ إِلَى حَيْثُ كَانَتْ آمَنَةُ، وَهِيَ تَحْمِلُ ابْنَهَا وَتَهْتَفُ فِي

= والمحدثين منهم: ابن إسحاق، وابن راهويه، وأبو يعلى الموصلي، والطبراني، والبيهقي، وأبو نعيم، وغيرهم كثير كثير.

فرح : جاء محمد... جاء محمد... جاء محمد .

* وصافح صوتُ بركةَ سَمْعَ آمنةَ، فَسَرَتِ البُشْرَى فيها تتمشى في مفاصلها، وأَحَسَّتْ بَنشَوَةِ الفرح تملأُ كيانها، وسارعت إلى حيثُ كانت بركة ومحمد ﷺ، وراح قلبها يخفقُ سروراً، وما أن رأتَه حتى حسبتُ أَنَّها قد ملكَتْ زينةَ الدُّنيا وبهجتها، وأنَّ أهازيجَ النشوةِ قد ملأتْ كلَّ ما حولها، بل قد ملأتِ الكونَ كله .

* وأخذتْ آمنةُ محمدًا ﷺ من بركة في رَفْقٍ، وضَمَّتْه إلى صَدْرِها، وراحتْ تقبلُه وقد تهلَّلَ وجهُها البريء بالفرح، ولفَّ الحبيبُ الصَّغيرُ محمدٌ ﷺ ذِراعِيه الطَّاهرتين حولَ عنقِ أمِّه آمنةَ وهو سعيدٌ، واستسلمَ لنفحاتِ الأمومة التي غمرته بها، نعم لقد استسلمَ للعواطفِ النَّبيلةِ التي تصدرُ عن أمِّه التي آبَ إليها بعد غيابٍ سَتَيْنِ مِنَ الزَّمنِ .

* لقد كانتْ حلِمةٌ تحبُّه، وكثيراً ما كانت تفيضُ عليه بحنانها، وتضمُّه إلى صدرها، لكنَّ ما يشعرُ به الآنَ لمختلفٌ جدًّا عما كان عليه في أرضِ بني سَعْدٍ، فقد كانتْ مشاعرُ آمنةَ تتدفَّقُ من قلبِها العامِرِ بحبٍّ وحيدها الذي تكتحلُّ العيونُ برؤياه، وتنشرحُّ الصُّدورُ بلقىاه .

* كانتْ آمنةُ سعيدةً راضيةً بعودةِ ابنها الذي قدَمَ من البيداء ليملاً نفسها أَملاً وأُنساً وطيباً، وليؤنسَ وحدتها، ويغرسَ السَّعادةَ في قلبها .

* وذهبتْ آمنةُ إلى حيثُ كانتْ حلِمةٌ، وراحتْ تشكرها على حُسْنِ رعايتها وعنايتها بابنها الحبيب، فاغرورقتْ عينا حلِمةَ بدموعِ الفرح، وكانتْ شديدةَ الحرصِ على أن تعودَ، وأن يعودَ محمدٌ ﷺ معها إلى دارها، فقد ملأَ حَبَّه فؤادها، واستولى على مشاعرها .

* وطفقتْ حلِمةٌ ترجو آمنةَ أن تُرسلَ معها ابنها كي يشتدَّ عُوده، وقالت لها : لو تركتِ محمدًا عندي حتى يغلُظَ، فإنِّي أخشى عليه وباءَ مكة .

* وما زالتْ حلِمةٌ بآمنةَ حتَّى أجابَتْها إلى طلبتها، وقالت : خذيه يا حلِمة ما دُمْتَ حريصةً على ذلك .

* وطار فؤادُ حليلة السَّعدية فرحاً بموافقةِ آمنة، ثم إنَّ حليلةً تجهَّزت للعودة، وحملتُ محمداً ﷺ وعادتُ إلى مضارب بني سعد، وآمنة ترنو إلى وحيدها خافقة القلب، دامعة العين، ولكنَّ صحة ابنها أغلَى من كلِّ شيء.

* رجعت حليلةٌ بمحمد ﷺ إلى أرض بني سعد، وقلْبُها يتراقصُ طرباً بين جوانحها، وكان زوجها الحارثُ لا يقلُّ سعادةً عنها لما كان يرى من بركته ﷺ، فقد صارَ التَّوفيقُ قريْنهم مُذْ ذهبوا إلى مكة يلتَمسون الرُّضْعاءَ قبلَ سنَّتَيْنِ، وعادوا به إلى أرضهم، فلله دُرُّها من بركة كثرت بها مواشي حليلة ونمت، وارتفعَ قدرُها به وسَمَتْ، ولم تزل حليلةٌ تتعرف الخَيْرَ والسَّعادة، وتفوز منه بالحسنى وزيادة.

لَقَدْ بَلَغَتْ بِالْهَاشِمِيِّ حَلِيلَةً مَقَاماً عَلَا فِي ذُرْوَةِ الْعِزِّ وَالْمَجْدِ
وَزَادَتْ مَوَاشِيَهَا وَأَخْصَبَتْ رُبْعَهَا وَقَدْ عَمَّ هَذَا السَّعْدُ كُلَّ بَنِي سَعْدٍ
* وفرحَ أهلُ بيتِ حليلة بعودةِ محمد ﷺ إلى أرضهم التي ازيَّنت بالخضرة واكتست بالجمال، مُذْ حلَّ فيها هذا المُبَارَكُ الكريم، ولعلَّ الشِّيماء بنتَ الحارث وابنة حليلة كانت من أشدَّ النَّاسِ سعادةً بعودة أخيها من الرُّضاعةِ محمد ﷺ، فكانت تضمُّه إلى صدرها الذي كان يخفقُ بالحبِّ والحنان له، وكثيراً ما كانت تداعبه وتناغيه وترقِّصُه وتقول:

هَذَا أَخٌ لِي لَمْ تَلِدْهُ أُمِّي وَلَيْسَ مِنِّي نَسْلُ أَبِي وَعَمِّي
فَدَيْتُهُ مِنْ مُخُولٍ مُعَمِّي فَأَنْمِهِ اللَّهُمَّ فِيمَا تُنْمِي^(١)

* ولم تكن الشِّيماء تكتفي بمثل هذا الترقيص، وإنما كانت تحمله إذا ما اشتدَّ حرُّ الظَّهيرة، وطالَ الطَّرِيقُ إلى المرعى، وأحياناً تتركه يدرجُ هنا وهناك، ثمَّ تُتبعه قلبها وبصرها، فإذا ما ابتعد قليلاً، أدركته وضمتَه إلى صدرها، وأجلستَه في الظِّلِّ، ومن ثمَّ تداعبه وتقول:

يَا رَبَّنَا أَبْقِ أَخِي مُحَمَّداً حَتَّى أَرَاهُ يَافِعاً وَأَمْرَداً

(١) «معمي»: كريم الأحوال والأعمام، والياء هنا لضرورة الشعر.

«أنمه»: نمى من باب: رمى، كثر، زاد، ويتعدى بالهمزة والتضعيف.

ثُمَّ أَرَاهُ سَيِّدًا مُسَوِّدًا وَأَكْبَتُ أَعَادِيهِ مَعًا وَالْحُسَّدا
وَأَعْطَاهُ عِزًّا يَدُومُ أَبَدًا

* وكان أبو عروة الأزدي إذا أنشد هذا الترقيص قال: ما أحسن ما أجاب
اللهُ دعاءها^(١).

* ولعل حليلة السَّعدية - رضي الله عنها - كانت ترى ما تفعله ابنتها
الشَّيْماء من ترقيص محمد ﷺ، فكانت هي الأخرى تداعبه، وترقصه،
وتناغيه كما تفعل الأمهات مع أبنائهن، ومما قالت حليلة في هذا المضمار
الجميل:

يَا رَبِّ إِذْ أَعْطَيْتَهُ فَلَأَبْقِيهِ وَأَعْلِيهِ إِلَى الْعُلَا وَرَقِّهِ
وَادْحَضْ أَبَاطِيلَ الْعِدَا بِحَقِّهِ^(٢)

* وهكذا عاش محمد ﷺ في بني سَعْد بضعة أعوام بعيداً عن أمه آمنة
بنت وهب، إلى أن كانت حادثة شقِّ الصِّدر الأشرف، وإذ ذاك أعادته حليلةُ
السَّعدية إلى مكة، إلى أمه آمنة بنت وهب، ولكن كيف كان ذلك؟!
ما أقدمك به يا حليلة؟!

* عاش الحبيبُ المصطفى محمد ﷺ في بادية بني سعد، حيث كان
يعيشُ هنالك بين أحضان طبيعة آسرة ساحرة، يستنشقُ عبيرها، ويتأمل
الكونَ الواسع، إلى أن كانت حادثة شقِّ الصِّدر الأشرف، وسُرعان ما أصبح
فؤاد حليلة فارغاً، وخافت عليه خوفاً شديداً، فاحتملته وعادت به مع
زوجها كي ترده إلى أمه كي تقرَّ عينها به من قَبْلِ أَنْ يحدثَ له مكروه - كما
زعمت وظنَّت -.

* كانت حليلةُ وزوجها يحملان محمدًا ﷺ وهما في طريقهما إلى مكة،
وكانت الأفكار تصولُ وتجولُ في ذهن حليلة، وتساورها الهموم، ماذا

(١) انظر كتابنا: «نساء من عصر النبوة» (١٢٧/٢)، واقرأ فيه بالتفصيل سيرة حليلة
والشَّيْماء، ففي سيرتهما فوائد قيمة جلييلة بإذن الله.

(٢) انظر: أنساب الأشراف للبلاذري (٩٥/١).

ستقول للسيدة آمنة عما حدث لابنها؟! لقد كانت حليلة حريصة على استصحاب محمد ﷺ معها إلى باديتها، وهي تعيده الآن قبل أن ينقضي الأجل!!..

* إنَّ ما حدث لمحمد ﷺ لا تستطيع أن تفسره، إلا أنها تعقله، ولا تكاد أحداثه تبرح ذاكرتها.

* وفي رحلة العودة إلى مكة، وصل الركب اللطيف، ثم اتجه نحو الصفا، ووقعت عينا محمد ﷺ على دار أمه فعرفها، وراح يعدو نحوها في سرور، وقد سالت عواطفه بالحنان إلى أمه آمنة، وسرت نسمات الشوق إليها، وأسرع حتى طرقت الباب، وإذا بأُم أيمن بركة الحبشية تفتح الباب، فمالت عليه ثقبته وقلبها يرفرف بالرحمة والحنان.

* وانطلق محمد ﷺ يجري إلى حيث كانت أمه آمنة التي سمعت صوته، فانسكب ندياً في وجدانها كأنه رحيق الحياة، وهُرعت إليه وقد بسطت له ذراعيها، فارتمى في أحضانها وهو سعيد غاية السعادة، ولف ذراعيه حول عنقها، وراحت تقبله في حب وتأثر، وكادت الدموع تطفر من عينيها، لولا أن رأت بركة وحليمة وهما قادمتان نحوها.

* وذهبت آمنة كي تستقبل حليلة التي بدت عليها علامات الاضطراب، والتي كانت حريصة كل الحرص على أن يمكث محمد ﷺ عندها حيناً من الدهر، ورحبت آمنة بمقدم حليلة، وأخذت تستفسر عن سبب قدومها قبل الأوان.

* وأخذت حليلة تروي سبب ذلك كما جاء في السيرة لابن إسحاق - رحمه الله -، حيث تحدت عن الرضاع، ثم أردف ذلك بقصة شق الصدر الأشرف، وسبب إرجاع محمد ﷺ إلى أمه فقال:

* قالت حليلة: فوالله، إنه - لبعد مقدمنا شهرين أو ثلاثة^(١) - مع أخيه

(١) هذا القول شك من الراوي، والصحيح أن شق الصدر كان في السنة الرابعة، وأن رجوعهما كان بعد الشق في أول السنة الخامسة.

مِنَ الرِّضَاعَةِ لَفِي بَهْمٍ^(١) لَنَا خَلْفَ بَيْوتِنَا، جَاءَ أَخُوهُ يَشْتَدُّ^(٢)، فَقَالَ: ذَاكَ أَخِي الْقَرَشِيُّ قَدْ جَاءَهُ رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضُ، فَأَضْجَعَاهُ، وَشَقَّ بَطْنَهُ!!
فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُوهُ - يَعْنِي مِنَ الرِّضَاعَةِ - نَشْتَدُّ نَحْوَهُ، فَوَجَدْنَاهُ قَائِمًا مُنْتَقِعًا لَوْنَهُ^(٣)، فَاعْتَنَقْتَهُ، وَاعْتَنَقَهُ أَبُوهُ، وَقَالَ: أَيُّ بَنِي مَا شَأْنُكَ؟! قَالَ: «جَاءَنِي رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيْضُ، فَأَضْجَعَانِي، وَشَقَّ بَطْنِي، ثُمَّ اسْتَخْرَجَا مِنْهُ شَيْئًا لَا أَدْرِي مَا هُوَ، فَطَرَحَاهُ، ثُمَّ رَدَّاهُ كَمَا كَانَ»!!

* قَالَتْ حَلِيمَةُ: فَرَجَعْنَاهُ مَعَنَا، فَقَالَ أَبُوهُ: يَا حَلِيمَةُ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ ابْنِي قَدْ أُصِيبَ، فَاذْهَبِي بِنَا نَرِّدْهُ إِلَى أَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ بِهِ مَا نَتَخَوَفُ عَلَيْهِ.
قَالَتْ: فَاحْتَمَلْنَاهُ، فَقَدَمْنَا بِهِ عَلَى أُمِّهِ.

فَقَالَتْ: مَا أَقْدَمْتَ بِهِ يَا ظُئْرٌ^(٤) وَقَدْ كُنْتَ حَرِيصَةً عَلَيْهِ وَعَلَى مَكُّثِهِ عِنْدَكَ؟
فَقُلْتُ: قَدْ بَلَغَ اللَّهُ بَابَنِي، وَقَضَيْتُ الَّذِي عَلَيَّ، وَتَخَوَّفْتُ الْأَحْدَاثَ عَلَيْهِ، فَادْبَيْتُهُ إِلَيْكَ كَمَا تَحْبِبِينَ.

قَالَتْ: مَا هَذَا شَأْنُكَ فَاصْدَقِينِي خَبْرَكَ.
قَالَتْ: فَلَمْ تَدْعُنِي حَتَّى أَخْبَرْتُهَا - أَيُّ: بِحَادِثَةِ شَقِّ الصَّدْرِ الشَّرِيفِ - .
قَالَتْ: أَفَتَخَوَّفْتَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ؟!

قُلْتُ: نَعَمْ.

قَالَتْ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ، وَإِنَّ لِبَنِي لَشَأْنًا، أَفَلَا أَخْبَرَكَ خَبْرَهُ؟

قُلْتُ: بَلَى.

قَالَتْ: رَأَيْتُ حِينَ حَمَلْتُ بِهِ، أَنَّهُ خَرَجَ مِنْ نَوْرِ أَضَاءَ لِي قُصُورٌ بُصْرَى مِنْ

(١) «بَهْمٌ»: جمع بهيمة: والبهيمة: أولاد الضأن والمعز (القاموس المحيط ص ١٣٩٨)
مادة (بهم)

(٢) «يَشْتَدُّ»: يجري ويسعى.

(٣) «مُنْتَقِعًا لَوْنَهُ»: أي: متغير اللون.

(٤) «الظُّرْ»: المرضعة الحانية على مَنْ تَرْضَعُهُ. وَيُقَالُ فِي الْمَثَلِ: ظُئْرٌ رُؤُومٌ خَيْرٌ مِنْ أُمَّ سُوُومٍ.

أَرْضِ الشَّامِ، ثُمَّ حَمَلْتُ بِهِ، فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِنْ حَمْلٍ قَطُّ كَانَ أَخْفَ عَلَيَّ، وَلَا أَيْسَرَ مِنْهُ، وَوَقَعَ حِينَ وَلَدْتَهُ، وَإِنَّهُ لَوَاضِعٌ يَدَيْهِ بِالْأَرْضِ، رَافِعٌ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ، دَعِيهِ عَنْكَ، وَانْطَلِقِي رَاشِدَةً^(١).

* وَهَذِهِ الْقِصَّةُ ثَابِتَةٌ فِي كُتُبِ الصَّحِيحِ وَالسُّنَنِ وَالْمَسَانِيدِ وَالسِّيَرَةِ وَغَيْرِهَا؛ فَقَدْ رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ بِسَنَدِهِ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جَبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغُلَّامَانِ، فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عِلْقَةً فَقَالَ: هَذَا حِطُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءٍ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الْغُلَّامَاءُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظُئْرَهُ - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ.

قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمَخِيطِ فِي صَدْرِهِ»^(٢).

* إِنَّ قِصَّةَ شَقِّ الصَّدْرِ حَادِثٌ كُونِي، وَمُعْجَزَةٌ عَجِيبَةٌ، وَقَعَتْ لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، وَجَاءَتْهَا الرِّوَايَاتُ الصَّحِيحَةُ الثَّابِتَةُ^(٣)، وَلَا يَرُدُّ هَذِهِ الرِّوَايَاتُ إِنْكَارُ الْمُنْكَرِينَ لَشَقِّ الصَّدْرِ، وَلَا يُضَعِّفُ مَنْ شَأْنُهَا، وَلَا يَقْلِلُ مِنْ أَهَمِّيَّتِهَا تَشْكِيكُ الْمُسْتَشْرِقِينَ، وَلَا الْمُسْتَغْرِبِينَ، وَلَا الْمُتَعَالِمِينَ، وَلَا الْمُتَعَاظِلِينَ؛ فَالْحَبِيبُ الْمُصْطَفَى ﷺ لَمْ يَتَّخِذْ مِنْ هَذِهِ الْحَادِثَةِ آيَةً لِلتَّحْدِي، أَوْ الْبَرَهَانِ

(١) انظر: صحيح مسلم (١/١٠١ و ١٠٢) مصورة دار الفكر.

(٢) ورد ذلك بالأحاديث الثابتة الصحيحة من رواية الشيخين: البخاري ومسلم؛ وغيرهما.

(٣) انظر: السيرة النبوية (١/١٦٤ و ١٦٥).

وَمَا أَجْمَلَ مَا رَصَفَ الْبُوصِيرِي هَمْزِيَّتَهُ، إِذَا اسْتَفَادَ مِنْ هَذِهِ الرِّوَايَةِ فَقَالَ:

يَوْمَ نَالَتْ بَوَاضِعُهُ ابْنَةً وَهـ	بِ مَنْ فَخَارَ مَا لَمْ تَنْلَهُ النَّسَاءُ
وَأَتَتْ قَوْمَهَا بِأَفْضَلِ مِمَّا	حَمَلَتْ بِهِ قَبْلَ مَرْيَمَ الْعِذْرَاءِ
شَمَّتْهُ الْأَمْلاَكُ إِذْ وَضَعَتْهُ	وَشَفَّتْنَا بِقَوْلِهَا الشَّفَاءَ
رَافِعاً رَأْسَهُ وَفِي ذَلِكَ الرَّفِّ	عَ إِلَى كُلِّ سَوْدِدٍ إِيْمَاءِ
رَاقِماً طَرَفَهُ السَّمَاءَ وَمَرْمَى	عَيْنَ مَنْ شَأْنُهُ الْعُلُوُّ الْعِلَاءِ

على صِدْق رسالته كغيرها من المعجزات الكونية، والخوارق العجبية قبل البعثة أو بعدها. إِنَّ معجزته العظمى الخالدة التي حملت بين طواياها وحناياها التحدي بها، إنما هي القرآن الكريم، والذكر الحكيم.

* إِنَّ عِظْمَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ تَتِمُّلُ فِي نُبُوَّتِهِ وَرِسَالَتِهِ، لَا فِي عِبْقَرِيَّتِهِ وَبَطُولَتِهِ، فَهُوَ بِالنُّبُوَّةِ، وَهُوَ بِالرَّسَالَةِ قَدْ سَمَا عَلَى الْعِبْقَرِيَّاتِ وَالْبَطُولَاتِ، وَشَرِيعَتُهُ الْغَزَاءُ قَدْ خَتَمَ اللَّهُ بِهَا الشَّرَائِعَ السَّابِقَةَ، وَجَعَلَهَا جَامِعَةً لْجَمِيعِ مَا جَاءَتْ بِهِ الشَّرَائِعُ الْمَتَقَدِّمَةُ مِنْ خَيْرٍ وَإِصْلَاحٍ وَتَهْذِيبٍ، فَهُوَ ﷺ الْجَامِعُ لِمَا تَفَرَّقَ فِي جَمِيعِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ مِنَ الْفَضَائِلِ وَالْمَحَامِدِ، وَفِي شَرِيعَتِهِ تَنْطَوِي شَرَائِعُهُمْ، فَهِيَ خَاتِمَةُ الشَّرَائِعِ، وَهُوَ خَاتِمُ النَّبِيِّينَ، وَإِمَامُ الْمُرْسَلِينَ ﷺ.

فِي أَحْضَانِ أَمْنَةٍ:

* إِنَّ يَتِمَّ مُحَمَّدٍ ﷺ - هُوَ فِي حَقِيقَتِهِ - نِعْمَةٌ عَظْمَى، فِي طَيِّ نِعْمَةٍ مَهْذَبَةٍ لَمْ يَكُنْ أَحَدٌ يَدْرُكُ غُورَهَا، فَقَدْ تَوَلَّى اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - أَمْرَ الْحَبِيبِ الْأَعْظَمِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنْذُ اللَّحْظَةِ الْأُولَى الَّتِي حَظِيَ فِيهَا الْوُجُودُ بِإِشْرَاقِ طَلْعَتِهِ الْمَيْمُونَةِ، فَقَدْ نَشَأَتْ نَشِئَةً جَمَعَ لَهُ فِيهَا خِصَائِصُ الْفِطْرَةِ الْإِنْسَانِيَةِ فِي أَعْلَى مَرَاتِبِهَا، وَأَرْفَعَ دَرَجَاتِهَا، فَلَمْ يَكُلْهُ إِلَى أَبِي يَكْفُلُهُ وَيَرْبِيَهُ، إِذْ لِلْأَبَوَةِ أَثَرُهَا عَلَى حَيَاةِ الطُّفُولِيَّةِ وَتَوَجُّيْهَا فِي رَحْلَةِ الْحَيَاةِ، وَمِنْ ثَمَّ كَانَ فَقْدُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَبَاهُ - قَبْلَ أَنْ يَتَنَسَّمَ نَسِيمَ الْحَيَاةِ - نِعْمَةً مِنْ أَجَلِّ نَعَمِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - فَهُوَ لَمْ يَشْهَدْ أَبَاهُ، وَلَمْ يُشَاهِدْهُ، وَلَمْ يَعْرِفْ عَنْهُ وَعَنْ شِمَائِلِهِ وَحَيَاتِهِ وَمَعِيشَتِهِ، إِلَّا مَا قَدْ حَدَّثَتْهُ بِهِ أُمُّهُ أَمْنَةُ عَنْهُ فِي طِفْلُوَّتِهِ وَهِيَ حَزِينَةُ الْفُؤَادِ، كَسِيرَةُ الْقَلْبِ، مَهِيضَةُ أَجْنَحَةِ الْعَوَاطِفِ لِفِرَاقِ ذَلِكَ الزَّوْجِ الْحَانِي، وَالْأَبِ الْكَرِيمِ.

* إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يَوْمَ أَنْ حَدَّثَتْهُ أَمْنَةُ هَذَا الْحَدِيثَ، وَتَصَوَّرَ مِنْهُ صُورَةَ أَبِيهِ، كَانَ قَدْ أَخَذَ فِي حَيَاتِهِ سَمْتًا وَهَدْيًا لَا تَغْيِيرُهُ الْأَحَادِيثُ، وَلَا تَوَثُّرُ فِيهِ الْقَصَصُ عَمَّنْ كَانَ، وَمَا كَانَ، وَأَيُّ أَثَرٍ لِلْمَاضِي الَّذِي ذَهَبَ وَلَنْ يَعُودَ؟!

* وُلِدَ مُحَمَّدٌ ﷺ يَتِيمًا، وَلَمْ يَسْتَشْعِرْ عَطْفَ الْأَبَوَةِ الَّذِي يَلْمِسُهُ الطُّفْلُ،

فترسمُ على فمه بسمَةً صادقةً؛ إلا أنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قد ارتسمتُ على فمه بسمَةً صادقةً، وطافتُ بعينه نظرةً صافيةً صفاءَ الفِطْرةِ، ونظرتُ إليه آمنةُ بنتُ وهبٍ لَمَّا وُلِدَ - وكانت قريبةَ عهدٍ بفراق زوجها الحبيب عبد الله - فجَدَدَ نَظَرُهَا إليه في نَفْسِهَا حُزناً مَبْرَحاً، فرأتُ على ثَغْرِهِ الشَّرِيفِ ابتسامةً متوهَّجَةً، وفي عينيه تَطَلُّعٌ إلى السَّمَاءِ، ولعلَّ خيالَهَا الخصبَ المصورَّ قد أسعفها، فأراها في وَجْهِ وَلِيدِهَا المحبوب ذكريات والده الحبيب، فثارتُ في نفسها عاطفةُ الأمومةِ الحانيةِ، فضَمَّتْ وَلِيدَهَا إلى صَدْرِهَا، واختلطتُ عليها الأحاسيسُ، واستنارَ وَجْهُهَا، وَحَنَّ ثَدْيُهَا فأَرْضَعَتْ ابْنَهَا، فكان لبْنُهَا أوَّلَ غذاءٍ غُذِّيَ به، وَنَمَتْ عليه خلاياهُ، ومن ثَمَ تناولَتْهُ ثُوْبِيَّةُ أُمِّ مَسْرُوحٍ جاريةَ عَمِّهِ أَبِي لَهَبٍ، فأَلْقَمَتْهُ ثَدْيَهَا فَرَضَعَ مِنْهُ، وظلَّ بين أُمِّهِ وَظَنِّهِ الأوْلَى مُدَيِّدَةً حَتَّى أَهْلَ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ موسِمَ المراضعِ، فقدم التَّسْوَةُ السَّعْدِيَّاتُ يَطْلُبْنَ الرُّضْعَ، وفيهن حلِيمَةُ بِنْتُ الحارثِ، فَكَانَ مُحَمَّدٌ ﷺ نصيبَهَا، وكانت هي مِنْ حَظِّهِ، وحملتُهُ وارتحلتُ به إلى باديتها، وكان الصَّدْرُ الَّذِي يَضُمُّهُ الآنَ لَيْسَ صَدْرَ آمنةَ بنتِ وهبٍ أُمِّهِ، ولكنَّه صدرُ حلِيمَةَ ظَنِّهِ، وهنالك فرقٌ كبيرٌ بَيْنَ العاطفَتَيْنِ: عاطفةُ الأمومةِ الوالدةِ؛ وعاطفةُ الأمومةِ المرضعةِ، فَحَرِمَ حنانُ أُمِّهِ بعدَ أَنْ مَضَى القَدَرُ فحرمَهُ عاطفةُ أَبِيهِ.

* إِنَّ ذَلِكَ لَوُنٌّ مِنَ الثِّمِّ الْجَدِيدِ، فَضَتْ بِهِ الْعَادَاتُ الْمَتَوَارَثَةَ فِيمَا بَيْنَ الْعَرَبِ، فَقَدْ نَشَأَ مُحَمَّدٌ ﷺ بَعِيداً عَنْ بَلَدِهِ وَقَوْمِهِ، وَبَلَدِهِ حَاضِرَةُ الْبِلَادِ الْعَرَبِيَّةِ، وَقَوْمُهُ أَهْلُ شَرَفٍ وَسِيَادَةٍ، وَلِلْمَدَنِيَّةِ آثَارُ اللَّيْنِ وَالِدَّعَةِ، وَلِلشَّرَفِ وَالسِّيَادَةِ آثَارُهُمَا عَلَى الْأَخْلَاقِ وَالسُّلُوكِ.

* نَشَأَ ﷺ فِي بَادِيَةِ بَيْنِ قَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ عُرِفُوا بِصَفَاءِ الْبَيَانِ، وَفَصَاحَةِ اللَّسَنِ، يَعِيشُونَ فِي بَادِيَةٍ تَصْهَرُهَا الشَّمْسُ إِذَا أَسْفَرَتْ، وَتَتَلَأَلُ فِي سَمَاءِ لَيَالِيهَا النُّجُومُ الزَّوَاهِرُ، وَيُضِيئُهَا الْقَمَرُ الْمَنِيرُ، وَيَسْبُحُ فِي أَرْجَائِهَا الرِّعْدُ، وَيَلْمَعُ فِي آفَاقِهَا الْبَرْقُ، وَتَطْبَعُهَا الْحَيَاةُ بِطَابَعِ قَاسٍ؛ وَتَنْتَشِرُ عَلَى أَدِيمِهَا خِيَامٌ مَتَفَرِّقَةٌ يَأْوِي إِلَيْهَا النَّاسُ إِذَا هَجَعَ اللَّيْلُ وَهَجَمَ السُّكُونُ، وَفِي النَّهَارِ

يسرحون بأنعامهم ويرتادون لها المراعي ، وذلك هو كلُّ ما يشغلُ أهل هذه البيئة ، وفيما سواها فراغ .

* إِنَّ تِلْكَ الْبَيْتَةَ تَدْعُو إِلَى التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ ، وَتَقْلِبِ النَّظَرَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ تَعَالَى وَمَظَاهِرِ الْوُجُودِ ، وَقَدْ تَأَثَّرَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِجَلَالِ الطَّبِيعَةِ ، وَجَمَالِ الْكَوْنِ وَهُوَ طِفْلٌ لَمْ يَجَاوِزِ الْخَامِسَةَ مِنْ عَمْرِهِ .

* وَرَجَعَ مُحَمَّدٌ ﷺ مِنْ بَادِيَةِ بَنِي سَعْدِ وَهُوَ فِي سِنِّ الطُّفُولَةِ ، رَجَعَ وَرَأَى لِدَائِهِ مِنَ الْأَطْفَالِ وَهُمْ يَرْتَمُونَ فِي أَحْضَانِ آبَائِهِمْ ، فَيَضُمُّونَهُمْ إِلَى صُدُورِهِمْ فَيَمْلَأُهُ الْحُزْنَ أَلَا يَرَى لَهُ أَبًا بَيْنَ هَؤُلَاءِ الْآبَاءِ ، إِذَا فُلِيزَهُبَ إِلَى أُمِّهِ لِيَسْكُنَ إِلَى ضَمَّةِ صَدْرِهَا ، وَحَنَانِ قَلْبِهَا ، وَهَنَالِكَ بَيْنَ هَمَسَاتِ الْحَنَانِ ، وَدَقَّاتِ الْقَلْبِ الرَّحِيمِ ، كَانَتْ تَحَدِّثُهُ عَنْ أَبِيهِ وَأَسْرَتِهِ وَقَوْمِهِ وَبَلَدِهِ .

* وَفِي تِلْكَ الْفَتْرَةِ ، وَبَعْدَ عَوْدَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مِنَ الْبَادِيَةِ ، يَعِيشُ بَيْنَ أُمِّهِ وَجَدِّهِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ الَّذِي كَانَ يَقُولُ لِأَوْلَادِهِ وَمَنْ حَوْلَهُ عَنْ مُحَمَّدٍ ﷺ : دَعُوا ابْنِي فَوَاللَّهِ إِنَّ لَهُ لَشَأْنًا .

* وَيَعْرِفُ مُحَمَّدٌ ﷺ أَنَّهُ يَتِيمٌ ، وَأَنَّ أَبَاهُ لَيْسَ فِي غِيَبَةٍ لَهَا أَوْبَةٌ ، وَلَكِنَّهُ مَضَى إِلَى حَيْثُ لَا يَعُودُ ، وَيُخْرِجُ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى حَيْثُ فَرَّاشُ جَدِّهِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ ، فَيَلْقَى أَعْمَامَهُ جَالِسِينَ حَوْلَهُ ، فَيَأْخُذُهُ جَدُّهُ وَيَجْلِسُهُ مَعَهُ ، وَيَمْسَحُ رَأْسَهُ وَظَهْرَهُ بِيَدِهِ ، وَيُظْهِرُ لَهُ رِقَّةً وَحُبًّا لَمْ يَكُنَا لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، فَقَدْ كَانَ يَتَوَسَّمُ فِيهِ كُلَّ خَيْرٍ ، وَكَانَ يَجِدُ فِيهِ عَوْضًا عَنْ أَحَبِّ أَبْنَائِهِ إِلَيْهِ .

* وَيُظَلُّ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى جَانِبِ أُمِّهِ آمَنَةَ بِنْتِ وَهْبٍ ، فَكَانَتْ تَفِيضُ عَلَيْهِ نِسَائِمَ حَنَانِهَا ، وَرَفَاتِقَ قُبْلَاتِهَا ، فَقَدْ أَضْحَى كُلُّ شَيْءٍ فِي حَيَاتِهَا ، إِذْ لَيْسَ هُنَاكَ مَا يَشْغُلُهَا أَوْ يُلْهِمُهَا عَنْهُ ، فَهُوَ ﷺ دُنْيَا أَمْلَهَا ، وَأَمَلُ دُنْيَاهَا ، وَزَهْرَةُ حَيَاتِهَا ، تَتَنَسَّمُ مِنْ أَزَاهِرِهِ رَحِيقَ الْوُجُودِ ، وَتَكَادُ تَحْلُقُ فِي فُضَاءٍ لَيْسَ لَهُ حَدُودٌ ، فَقَدْ كَانَ يَنْبَعُثُ مِنْهُ ﷺ أَرِيحُ أَطْيَبُ مِنَ الْمَسْكِ ، وَأَزْكَى مِنْ كُلِّ عَطْرِ فِي الدُّنْيَا . تُرَى ، مَاذَا بَعْدَ هَذَا الْحُبِّ عِنْدَ آمَنَةَ !؟

آمنه والرحلة الأخيرة:

* كانت آمنه تنتظر محمدًا ﷺ عندما يؤوب من مجلس جده بفناء الكعبة، وكان حينما يرجع إليها تحدّثه وتداعبه؛ وفيَمَ كان الحديث بين آمنه وابنها الحبيب؟! لا شكّ أنّها كانت تحدّثه عن أبيه الراحل، وعن مآثره، وعن وفاته غريباً في المدينة، وكانت آمنه تحدّث ابنها، وتنتظر إليه وفي عينها أطياف الذكريات، وبوادر العبرات، ويلمح محمدٌ ﷺ وجه أمّه البريء تكسوه مسحّة من الحزن الصّامت، وتلتقي عيناه الشريفتان بعينيها، فلا تتمالك مشاعرها، وإذ ذاك تضمّه إلى صدرها الحنون، وتنسئ أحزانها، وتقبّل عليه في ابتساميّة دافئة حالمّة، تعبّر من خلالها عن آمالها وأحلامها، وتخبره عن حنينها إلى زيارة أقاربه في المدينة، في ذلك البلد الذي يحتوي جدّ أبيه عبد الله بن عبد المطلب.

* ويبدو أنّ محمدًا ﷺ قد رأى رغبة أمّه في زيارة المدينة، ورأت آمنه أنّ محمدًا قد بلغ ست سنوات، وبه قوّة على احتمال السّفر، فأعدت عدّة السّفر وحملتّه ومعه حاضنته أمّ أيمن التي أورثها له أبوه.

* خرجت آمنه من مكة، ثمّ يمتّ وجهها تلقاء المدينة بعد أن ألقت نظرة عابرة على أمّ القرى، كانت تلك النظرة هي الأخيرة، ولكنها لم تكن تعلم بأنّها الرحلة الأخيرة إلى الدّار الآخرة.

* وسرت القافلة في الكون الواسع، وانسابت بين النّخيل في الواحة الخضراء، وتابعت القافلة المسير حتى وصلت المدينة، فأزارته أحوال جده عبد المطلب، وكان المقام في دار النّابغة من بني النّجار، ومكثوا عندهم شهراً، وزاروا الحبيب الثّاوي في قبره هناك.

* ولما قضوا من المدينة كلّ حاجة، رحلوا عائدين إلى مكة، ولما كانوا على نحو ثلاثة وعشرين ميلاً من المدينة، وقد بلغوا قرية الأبواء^(١)، مرضت

(١) «الأبواء»: قرية بين مكة والمدينة، والأبواء: وادٍ من أودية الحجاز، به آباء كثيرة، ومزارع عامرة، والمكان المزروع منه اليوم يسمّى «الخربة» تصغير الخربة. =

آمنة بنت وهب، وذبلت ذبول الموت، وطفرت الدموع من عينيها وهي ترى محمداً ﷺ قد أضحى وحيداً، وأخذ محمداً ﷺ يحدق النظر في وجه أمه التي أخذت تودع الدنيا، ونظرت إلى وجهه البريء الجميل وقالت:

بَارَكَ فِيكَ اللَّهُ مِنْ غُلَامٍ يَابَنَ الَّذِي مِنْ حَوْمَةِ الْحِمَامِ
نَجَا بَعُونَ الْمَلِكِ الْعَلَامِ فُودِي غَدَاةَ الضَّرْبِ بِالسَّهَامِ^(١)

* روى أبو نعيم عن طريق الزهري عن أسماء بنت رهم عن أمها قالت: شهدت آمنة أم النبي ﷺ في علتها التي ماتت فيها، ومحمداً ﷺ غلام يقع عند رأسها، فنظرت إلى وجهه ثم قالت: كلُّ حيٍّ ميت، وكلُّ جديدٍ بالٍ، وكلُّ كثيرٍ يفنى، وأنا ميتة وذكري باقٍ، وقد تركتُ خيراً، وولدت طهراً^(٢).

* ثم فاضت روحها إلى بارئها، وتلاشى الصوت الدافئ بين رمال الصحراء، واختفى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها^(٣). وبكاها محمداً ﷺ

= من الجدير بالذكر أن أول الغزوات النبوية كانت غزوة الأبواء بعد اثني عشر شهراً من مقدم النبي ﷺ المدينة.

وهناك قبرٌ في الأبواء يُطلق عليه اسم: قبر آمنة؛ والأبواء: لا تزال معروفة إلى اليوم.

(١) انظر: المواهب اللدنية (١/١٦٩)، وشاعرات العرب (ص ٢)؛ والخبر يبدو ضعيفاً مهلهلاً.

(٢) المواهب اللدنية (١/١٦٩ و ١٧٠).

(٣) قيل: إن بعضهم رثى آمنة بأبيات منها:

ذات الجمالِ العَفَّةِ الرَزِينِ	نَبْكَى الْفَتَاةَ الْبَرَّةَ الْأَمِينِ
أُمُّ نَبِيِّ اللَّهِ ذِي السَّكِينِ	زَوْجَةَ عَبْدِ اللَّهِ وَالْقَرِينِ
وَلِلْمَنَايَا شَفَرَةً سَنِينِ	لَوْ فُودِيَتْ لَفُودِيَتْ ثَمِينِ
إِلَّا أَتَتْ وَقَطَعَتْ وَتَيَّنِ	لَا تَبْقَى ظَعَانًا وَلَا ظَعِينِ

يبدو لي أنَّ رائحةَ الوضع تشيعُ من هذه الأبيات، لأنَّ فيها معاني إسلامية، وعبارات لم تكن تعرفها العرب في الجاهلية، بل لم تكن معروفة إلا بعد نزول الوحي، وهي لا تخفى على القارئ الفطن. بل هل كان الذين رثوا آمنة يعلمون الغيب؟! ويعلمون أنها أم نبي؟! من الجدير بالذكر - عزيزي القارئ - أنَّ بعض الأخباريين، =

بكاءً شديداً، فلقد أحسَّ بحقيقة اليُتم^(١) في تلك اللحظات المؤلمة، وفي تلك البقعة البعيدة عن أم القرى.

* وفي الأبواء دُفِنَتْ آمَنَةُ، دَفَنَهَا هُنَاكَ ابْنُهَا الْحَبِيبُ وَحَاضِنَتُهُ أُمُّ أَيْمَنَ، وعاداً على بعيريهما إلى مكة؛ عاد الرَّكْبُ ومحمَّدٌ ﷺ يذرفُ الدَّمْعَ سَخِيّاً سَخِيناً على فراقِ أُمِّهِ الرَّؤُومِ؛ أُمُّهُ الْحَنُونُ الَّتِي كَانَ يَجِدُ فِي كَنَفِهَا الْحَبَّ، وَالْحَنَانَ، وَالسَّلْوى، والعزاء عن فَقْدِ الأبِّ، وهكذا شاءَ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - لِلنَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَكُونَ الْمُصْطَفَى فِي كَهْفِهِ الْحَصِينِ، يُصْنَعُ عَلَى عَيْنِهِ، لِيَكُونَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ.

* وظلَّتْ ذَكَرِياتُ الطُّفُولَةِ ماثِلَةً فِي ذَهْنِ النَّبِيِّ ﷺ لَا تَمْحُوهَا الْأَيَّامُ، فعندما هاجرَ ﷺ إلى المدينة، ونظرَ إلى دارِ بني التَّجَارِ قال: «هنا نزلتُ بي أُمِّي»^(٢).

* وبقيتْ كَلِمَاتُ آمَنَةَ عِنْدَ وَفَاتِهَا تَرْتُّنٌ فِي أُذُنِ الْجُوزَاءِ، وفي أُذُنِ الْوُجُودِ، وظلَّتْ كَلِمَاتُهَا نُوراً فِي جَبِينِ الدَّهْرِ، فلقد قالت: «وقد تركتُ خيراً وولدتُ طهراً».

* نعم يا آمنة الرضا، لقد تركتِ خيراً، وولدتِ طهراً، وكفالكِ ذكراً وشرفاً أنكِ أُمُّ حَبِيبِنَا وَنَبِينَا وَسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وكفالكِ فخراً أنكِ أُمُّ مُحَمَّدٍ أَطْهَرَ الْمُطْهَرِينَ، وَسَيِّدِ الْمُرْسَلِينَ، وحسبك عزّاً أنَّ ربنا - عَزَّ وَجَلَّ - أرسلَ ابنك رحمةً مهداةً للعالمين، فقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

* * *

= وكتاب السيرة قد نسبوا هذه الأبيات إلى الجن، فتأمل؛ ومع ذلك وهذا فالجن لا يعلمون الغيب؟!

(١) والله درُّ ابن نباتة حيث قال:

وَدَعَا فِي الذِّكْرِ الْيَتِيمَ وَإِنَّمَا أَسْنَى الْجَوَاهِرِ مَا يُقَالُ يَتِيمُ

(٢) انظر: شرح المواهب اللدنية (١/ ١٦٧ و ١٦٨).

٢

أُمامة نبت الحارث

نَفْكَةٌ مِنْ مَكَارِمِ الْمَرْأَةِ:

* كانتِ المرأةُ العربيَّةُ في العَصْرِ الجاهليِّ مثالَ الزَّوْجَةِ الصَّالِحَةِ، تحفظُ شرفَ الرَّجُلِ، وتحمي مالهَ، وتعيِّنه على أمورِ الحياة، وامتازتِ المرأةُ العربيَّةُ بحرصها الشَّدِيدِ على إبقاءِ مَهَادِ الزَّوْجِ وثيراً للجسدِ، مريحاً للنَّفْسِ، كانت لا تُسمِّعه ما يكره، ولا تدع عينه تقعُ على مُسْتَكْرِه.

* منْ هنا كان رجالُ العربِ يعزُّونَ المرأةَ ولا يهينونها، وأعطوا النِّساءَ ما لهنَّ من حُقوقٍ، ولم ينسوا أنَّ المرأةَ الحَصَانُ كالرَّجُلِ تغرسُ صالحَ الأعمالِ في نفوسِ أبنائها، وفي نفوسِ مَنْ حَوْلَهَا مِنْ زَوْجٍ، أو أَخٍ، أو قَرِيبٍ، أو حتَّى مِنَ العَشِيرَةِ، وربما كانتِ المرأةُ هي مصدرُ الفَضِيلَةِ، ومَأْوَى الشُّورى في إطفاءِ الفتنِ المُسْتَعِرَةِ، والحروبِ الطَّويلةِ.

* نعم كانت كثيراتٌ من نساءِ العربِ ذواتِ فضائلِ مشهورة، ومواقفُ كريمة مشهودة، ناهيكَ بما لهنَّ من كلماتٍ جعلتهن يَقْتَعِدُنَّ سُدَّةَ المجدِ في صَعَابِ الأمورِ، ومهمَّاتِ الأحداثِ.

* من ذلك فكرةُ إحداهنِ لإطفاءِ نارِ الحربِ التي ظَلَّتْ مستعرةً نحواً من أربعينَ سنةً بين عبسٍ وذيَّانٍ، ولم يفكِّرْ في إطفاءِ نارها إلا امرأةٌ، ولم تتمكنْ هذه المرأةُ من إطفائها إلا بما كانَ لها من المِكانَةِ، وحسَنِ الرَّأيِ، وجمالِ الأحداثِ.

* رُوِيَ أَنَّ بُهَيْسَةَ^(١) بنتَ أوسِ بنِ حارثةِ بنِ لامِ الطَّائِي، لما زَوَّجَهَا

(١) بُهَيْسَةُ بنتُ أوسِ إحدى ربَّاتِ الحِصَافَةِ والبَلَاغَةِ والعقلِ والرَّأيِ والفضلِ في العَصْرِ الجاهليِّ، وقد قدَّم الحارثُ بنُ عوفٍ سيِّدُ العربِ مع غلامه وخطبها من أبيها، فأَنَعَمَ عليه، وأصلحتُ أمُّها شَأْنَهَا، وَضُرِبَتْ قَبَةُ فَتَزَلَّ بِهَا الحارثُ. فلما هَيَّئَتْ بُهَيْسَةُ، وأدخلتْ عليه، لبثَ الحارثُ هنيئَةً، ثم خرجَ، فقال له غلامه: أفرغتِ مِنْ شَأْنِكَ؟ قال: لا واللهِ، لما مددتُ يدي إليها قالت: مَهْ، أعندَ أبي وأمي وإخوتي هذا والله ما لا يكون.

فأمَرَ الحارثُ بالرحلةِ، فرحلاً بها، وساروا ما شاء اللهُ، وقال الحارثُ لغلامه: تقدِّم، فتقدِّمَ الغلامُ، وأرادها الحارثُ فقالت له: أَكَمَا يُفْعَلُ بِالْأَمَةِ الجليبةِ، أو =

أبوها من الحارث بن عوف المري، وأراد أن يدخل عليها، قالت له: يا بنَ الكرام، أتتفرغُ للنساء، والعربُ يقتلُ بعضُها بعضاً؟! - تعني عبس وذبيان -.

فقال لها: ماذا تقولين؟

قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم، فأصلح بينهم ثم ارجع إليّ. فخرج وعرض الأمر لهرم بن سنان، فاستحسن ذلك، وقاما بهذا الأمر، فمشيا بالصّلاح، ودفعوا الدّيّات من أموالهما^(١)؛ وخمدت نارُ الحرب التي أكلت

= السّبية الأخيذة، لا والله، حتى تأتي قومك وتنحر الجزر، وتذبح الغنم، وتدعو العرب، وتعمل ما يُعمل لمثلي. وسأله الغلام: أفرغت.

فقال الحارث: لا والله، وذكر له ما قالت بهيسة. فقال له الغلام: والله إنّي لأرى همّةً وعقلاً، وأرجو أن تكون المرأة منجبة. ثم رحلا، حتى جاءا بلادهما، فأحضَرَ الحارثُ الإبل والغنم، ثم دخلَ عليها وخرج إلى غلامه؛ فقال له غلامه: أفرغت؟

قال الحارث: لا، فقد قالت لي: لقد ذكرت لي من الشرف ما لا أراه فيك. فقلتُ لها: فماذا يكون، وماذا أفعل يا بنت أوس؟!

قالت: اخرج إلى هؤلاء القوم، فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهلِكَ فلن يفوتكَ. وخرجَ الحارثُ وغلامه، وهرمُ بنُ سنان، وأتوا القومَ المتحاربين، ومشوا فيما بينهم بالصّلاح، فاصطلحوا، ودفعوا الدّيّات، ثم رجَعَ الحارث، فدخل بها، فولدت له بنين وبنات. وبهذا أثبتت أنها من ذوات العقل والفضل وحسن الأحداث.

انظر (سرح العيون ص ١٥٩ - ١٦١)، و(أعلام النساء ١/ ١٥٥ - ١٥٧) مع الجمع والتصرف اليسير.

(١) لما نظم زهير بن أبي سلمى الشّاعر الجاهلي الشّهير معلقته، سَبَحَ به خاطره إلى جمالِ الخُلُق، وروعة السُّلوك، وحبِّ الخير، والتّضحية في سبيل الأمان والاستقرار، وشرعَ يتحدّث عن الحارث بن عوف وهرم بن سنان السّاعيين في السّلام، والدّاعيين إلى الإخاء والصّفاء، إذ تحمّلا دِيّات القَتلى، وأصلحا ما أفسد، وجمعا السّمل، فاقسمَ بالبيتِ الحرام بأنّهما نعم السيّدان في جميع الأحوال، =

النَّاسَ حِيناً مِنَ الدَّهْرِ كَانَ شَيْئاً مذكوراً.

* ومن خلال رحلتي مع المرأة في مختلف العصور، كنتُ أجيلُ الطرفَ في سِيرِ أعلام نُبلاءِ نساءِ العربِ في العصر الجاهليِّ، فوقفتُ أمامَ امرأةٍ تستحقُّ الاحترامَ لأنَّها من فَواضِلِ نساءِ العربِ، وممن عُرِفْنَ بالتَّعَقُّلِ والحكمةِ وفَصْلِ الخطابِ، وسَدَادِ الرَّأْيِ، وكَمَالِ التَّربِيَةِ على رَحِيقِ الأخلاقِ الكريمةِ، هذه الفاضلة هي: أَمَامَةُ بِنْتُ الْحَارِثِ^(١)، فهل أَتَاكَ نَبَأُ حديثها؟ وهل أَتَتْكَ أخبارُ حُكْمَتِها، وأنباءُ كَلِمَاتِها العِذابِ في دُنْيَا نَصَائِحِ الأمَّهاتِ لبناتِهِنَّ وأبناءِ جُنُسِهِنَّ؟!

أُمُّ عَاقِلَةَ حَكِيمَةَ:

* ما أَجْمَلَ أَنْ يَعْرِفَ النَّاسُ هَذِهِ الْمَرْأَةَ، وما أَجْمَلَ أَنْ تَتَعَرَّفَ الْأُمَّهَاتُ - فِي عَصْرِنَا - قِصَّةَ وَصِيَّتِهَا لَابْنَتِهَا فِي أَجْمَلَ يَوْمٍ مِنْ حَيَاتِهَا كِي يَقْتَدِينَ بِهَا، ويتخذنها أُسْوَةً لِهِنَّ فِي تَرْبِيَةِ بَنَاتِهِنَّ عَلَى مَنَابِتِ الْفُضِيلَةِ، ومَروِجِ الْأَخْلَاقِ الْعَظِيمَةِ، حَتَّى يَكُنَّ زَوَاجَاتٍ نَاجِحَاتٍ فِي حَيَاتِهِنَّ، يُقَدِّمُنَ الْمَفِيدَ لِلْمَجْتَمَعَاتِ وَلِأَوْلَادِهِنَّ وَمَنْ حَوْلَهُنَّ، وَيَكُنَّ عُنُصُرًا مَبَارَكًا فِي مَجْتَمَعٍ يَتَحَلَّقُ حَوْلَ مَائِدَةِ الْفُضِيلَةِ، وَيُنْشُدُ السَّعَادَةَ فِي كُلِّ مَقُومَاتِهَا.

= وَأَنَّهُمَا فِي أَعْلَى الدَّرَجَاتِ بَيْنَ الْعَرَبِ، وَقَدْ سَجَّلَ مَآثِرُهُمَا فِي مَعْلَقَتِهِ الَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ	رَجَالٌ بَنُوهُ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمُ
يَمِينًا لِنَعْمِ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا	عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ
تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَذُبْيَانِ بَعْدَمَا	تَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُم عَطَرَ مَنْشَمٍ
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنَّ نَدْرَكَ السَّلَمِ وَاسِعًا	بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْقَوْلِ نَسْلَمِ
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ	بَعِيدَيْنِ فِيهَا مِنْ عَقُوقٍ وَمَأْثَمِ
عَظِيمَيْنِ فِي عُليَا مَعْدٍ هَدَيْتُمَا	وَمِنْ يَسْتَبَخُ كَنْزًا مِنَ الْمَجْدِ يَعْظَمِ

(١) محاضرات الأدباء (٢/ ٢١٢)، والبيان والتبيين (٢/ ٧)، ومجمع الأمثال

(٢/ ١٩٢)، وبلوغ الأرب (٢/ ١٧)، والعقد الفريد (٦/ ١١٠)، وقصص العرب

(٢٠/ ٧٨)، وأعلام النساء (١/ ٧٤) وغيرها كثير من كتب الأدب والتراث.

* يمكنني الآن أن أدعو القارئ الكريم إلى هذا المقام الفريد، فأبي بلغي لا تأخذهُ الدَّهْشَةُ وهو يطالعُ كلماتِ هذه المرأةِ الفاضلة، وهذه السَّيِّدَةِ ذاتِ الطَّلَعَةِ المهيبة، والكلمةِ السَّديدةِ المتألِّفةِ في سماءِ السَّعادةِ الزَّوجيَّةِ، إنَّها مزايا فريدة، وأي مزايا هذه التي جُمِعَتْ في أمانةِ بنتِ الحارث؟! ومَزايا كالزَّهرِ نَفْحاً وطيباً وكَزَهرِ السَّما بهاءً ونُورا

* هذه المزايا ليست غريبةً عن نساءِ العربِ في العصرِ الجاهلي، بل هي معهودَةٌ في كثيرٍ من النِّسوة اللاتي حَفِظَ التَّاريخُ مقامهنَّ، واحتفظَ ببدايعِ بدائِه أقالهنَّ، ورسمَ صُوراً صادقةً لحياتهنَّ، كما وعى أسماءَ طائفةٍ كبيرةٍ منهنَّ اشتهرنَّ بالحكمة، والبلاغة، والموعظة، والفكرةِ الوقَّادة، والشَّجاعة وغير ذلك من مكارم^(١).

* وأمانةُ بنتِ الحارثِ واحدةٌ من شهيراتِ نساءِ العربِ ممن عُرِفْنَ بأدبِ الحكمة^(٢)، وجمالِ الفضيلة، وحادَّةِ الذِّكاء، ارتقتْ بمداركها فوقَ كثيرٍ من

(١) هنالك نسوةٌ من نساءِ العصرِ الجاهلي قد اشتهرنَّ بالحكمة، وحادَّةِ الذِّكاء، وقوَّةِ العقل، وسدادِ الرأْي، ومنهن: هند بنتُ الحُصَيْنِ الإياديَّة، وأختُها جمعة، وصُخر بنت لقمان، وخصيلة بنتُ عامر بن الظُّربِ العدواني، وحذام بنت الرِّيان، وهي التي قيل فيها البيت المشهور:

إِذَا قَالَتْ حَذَامٌ فَصَدَّقُوهَا فَإِنَّ الْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامٌ

(تاريخُ اليعقوبي ١/ ٢٥٨)

(٢) «الحكمة»: هي قولٌ رائعٌ يتضمَّنُ حُكماً صحيحاً مُسلَّماً به. والحكمةُ عبارةٌ قصيرةٌ بليغةٌ تؤدِّي المعنى المقصود؛ وقد تكونُ الحكمةُ شِعْراً، وتكونُ نَثْراً، لكنَّها في النَّثرِ أكثرُ دوراناً.

والحكمة ثمرة ناضجة من ثمرات الاختبار الطويل، والتجربة الصادقة، والعقل الراجح، والرأْي السديد، ومن اشتهر بالحكمة من رجال العرب في الجاهلية: أَكْثَمُ بْنُ صَيْفِي التَّمِيمِي، وعامر بنُ الظُّربِ العدواني، وهما من المعمرين، وكانت العربُ تحتكم إليهما.

هذا وكتبُ الأمثال في العادة تذكر المثل وقائله، وتشرحُ السَّببَ الذي قيل من أجله، ومن أشهر تلكم الكتب: «مجمع الأمثال» للميداني.. =

مدارك الرِّجال، وكان لسلامة ذوقها أثره الواضح في توجيه ابنتها لحياة سعيدة في بيت مَلِك من أعظم ملوك بني كندة في عَصْر ما قبل الإسلام، وذلك في وصايا تُعَدُّ من عُيُون الوصايا في عالم نساء التاريخ.

من أخبار أُمَامَةِ وابنتِها:

* كانت أُمَامَةُ ابنةُ الحارث من فاضلاتِ نساءِ العرب، بل من فواضِلِ نساءِ عَصْرِها، فهي من ربّاتِ الفَصَاحَةِ والأدبِ والبلاغةِ، والرّأي والعقلِ والتّجربةِ، وحُسْنِ الأُحدوثةِ، وكانت زوجاً لعوفِ بنِ محلّمِ بنِ ذهلِ الشَّيباني^(١)، وقد عُرِفَتْ بموافقَتِها له، وإكرامِهِ، والوقوفِ على أوامِرِهِ وتنفيذِها، وتحقيقِ كُلِّ السُّبُلِ التي تُؤدِّي إلى السَّعادةِ، وتبني صرْحِ الأسرةِ على أساسِ سليم.

* وولدتْ أُمَامَةُ لعوفِ بنتاً، فاستاءَ عوفٌ وظلَّ وجهُهُ مُسودّاً وهو كظيمٌ، وأخذَ يتوارى من القومِ من سوءِ ما بُشِّرَ به، واختمرتْ في ذهنِهِ فكرةُ الوادِ، وأخذَ يعدُّ العدةَ لذلك.

* ولَمَّا أَرَادَ عوفٌ أَنْ يَتَدَّ^(٢) ابنته، جاءَهُ أَحَدُ أَشرافِ قومه ويُدعى

(١) عوفُ بنُ محلّمِ بنِ ذهلِ الشَّيباني، أحدُ أَشرافِ العربِ في الجاهلية، كان سيِّداً مطاعاً في قومه، قوياً في عصبِيَّتِهِ، طلبَ منه ملكُ الحيرةِ عمرو بنُ هند رجلاً كان قد أجارَهُ فَمَنَعَهُ، فقال عمرو بنُ هند: «لا حُرَّ بوادي عوف»، أي: لا سيّد فيه يناوئه، فسارتْ هذه الكلمة مثلاً.

وقد ضُربَ المثلُ بوفاءِ عوفِ بنِ محلّمِ ففيل: «أوفى من عوفِ بنِ محلّم»، وكانت تضربُ له قبة في سوقِ عكاظ لمكانته من العرب، ويبدو أن وفاته كانت نحو سنة ٤٥ / قبل الهجرة (مجمع الأمثال ٢ / ١٢٤ و ٢٢٢) بتصرف.

(٢) لم يَكُنْ بعضُ الذين يثُدون بناتهم يأتونَ هذا العملَ الفظيعَ تغيطاً من هذه النِّسَماتِ البريئة، أو احتقاراً لجنسِ المرأةِ، كما يلوح للوهلة الأولى، بل كان يسوقُهم إلى ذلك فسادٌ في الخيال، وضعفٌ عظيمٌ في الطَّبِيعَةِ، وإنَّ الخيالَ الفاسدَ ليزين المنكرَ حتى يظنّه صاحبه من المعروف.

وكان بعضُ الذين يثُدون بناتهم توسوسُ لهم شياطينُ الخواطرِ بأنَّ الفتاةَ ربما وقعتْ في يدِ مَنْ لا يرعى لهُ ولها حرمة.

«عمرو» فاستوهبها منه، وقال له: يا سيّد شيبان اتركها لعلّها تلدُ أناساً، فسُميت أمّ أناس^(١)، ففزّوجها فيما بعد ملك كندة فولدت له، ويُعرف ابنها بابن أمّ أناس^(٢)، أو أمّ إياس.

* نشأت أمّ إياس في حضن أمّ نبيلة ترعاها وتغذيها بكلّ ألوان الأدب والمعرفة، وتروي المصادر أنّ أمّ إياس هذه، كانت واحدة من جميلات عصرها، وطار صيت جمالها في الآفاق، كما مشّت بسيرة أدبها ووفرة عقلها الرُكبان، حتى بلغ صيتها هذا عمرو بن حجر^(٣) ملك كندة، فأحبّ أن يصاهر عوف بن محلم الشيباني؛ ويحظى بهذه الجوهرة الفريدة التي مالها من ثاب.

أُمَامَةٌ وَخُطْبَةٌ ابْنَتَاهَا:

* بعد أن بلغ عمرو بن حجر^(٤) ملك كندة جمال أمّ إياس ابنة عوف بن محلم الشيباني - وكانت ذات جمالٍ وكمالٍ وقوّة عقلٍ كما أسلفنا -، وبلغه كذلك مكانة أمّها في عالم فضليات النساء وعقلائهن، فأخذ يفكر في طريقة تقرب له صورة أمّ إياس ليكون على بصيرة من أمره.

* وكان في كندة امرأة ذات رأي، وعقل، وفصاحة، وبيان، ولسان

= وكان منهم فقراء يزين لهم خيالهم الفاسد أنّ فتاتهم إذا ظلّت في ميدان الحياة، فربما نالها ضيمٌ من فقرهم، وربما عجزوا عن أن يكرمواهن بنفقةٍ تساويهن بأترابهن من ذوي قرباهن أو جوارهن، فيرون مواراتهن في التراب خيراً لهنّ من بقائهنّ دون الأتراب.

لذلك كان بعض العرب يفضل القبر عن الصهر؛ قال عبدُ الله بن طاهر:
لكلّ أبي بُنْتٍ يُراعي شُؤونها ثلاثة أصهار إذا حُمد الصهر
فبعل يُراعيها وخدرٌ يكتها وقبرٌ يُوارِيها وأفضلها القبر

(١) ورد في بعض المصادر «أمّ إياس» بدلاً من أمّ أناس.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ (٥٠٧/١) بشي من التصرف.

(٣) هو جدّ امرئ القيس الشاعر الجاهلي المشهور.

(٤) وقيل اسمه: الحارث بن عمرو.

وأدب، وفضل، تُسمّى «عصام»، فدعاها الملك عمرو، وأمرها أن تذهب
لتنظرَ إلى أمّ إياس، وتمتحنَ ما بلغه عنها، وأوصاها قائلاً: يا عصام، اذهبي
إلى بيتِ عوفِ بنِ محلم حتى تعلمي لي علماً ابنته أمّ إياس. فأخذت عصامُ
أهبتها للرحيل، ومضت حتى انتهت إلى والدتها أمانة بنت الحارث،
فأعلمتها بما قدمت له، وما أتت من أجله.

* رحبت أمانة بمقدم عصام الكنديّة، ثم أرسلت إلى ابنتها أمّ إياس
وقالت لها: أي بنية، هذه خالتك أتت إليك لتنظر إلى بعض شأنك، فلا
تستري عنها شيئاً أرادت النظر إليه من وجهٍ وخلقٍ، وناطقٍها فيما استنطقتك
فيه.

* فدخلت عصامُ على أمّ إياس، فنظرت إلى ما لم ترَ عينيها مثله قطّ
بهجةً وحُسناً وجمالاً وبهاءً ورقّةً، فإذا هي أكملُ الناس عقلاً، وأفصحهم
لساناً، وأقومهم بياناً.

* وخرجت عصامُ من عند أمّ إياس وهي تقول: «ترك الخداع من كشف
القناع» فذهبت مثلاً.

* ثمّ إنّها أقبلت إلى ملك كندة فقال لها: «ما وراءك يا عصام؟» فأرسلها
مثلاً.

قالت: «صرّح المخض عن الرّيد»^(١) فذهبت مثلاً.

قال: أخبريني عما عاينت.

قالت: أخبرك صدقاً وحقاً أيّها الملك الهمام.

* وأخذت عصامُ تحدّث الملك بما شاهدت من كمال عقل أمانة بنت
الحارث، وجمال ابنتها أمّ إياس، فكان مما قالته:

* رأيتُ جبهة كالمرآة الصّقيلة، يزيئها شعْرٌ حالكٌ كأذنانِ الخيلِ
المصفورة، إذا أرسلته خلته السّلاسل، وإنّ مشطته قلت عنه قيد كرم جلاه

(١) مثل يضرب للأمر إذا انكشف وتبين. و«مُخض اللبن»: أخذ زبده؛ و«التصريح»: التبيين.

الوابل^(١)؛ ومع ذلك حَاجِبَانِ كَأَنَّهُمَا خُطَا بِقَلَمٍ، أَوْ سُودًا بِحَمَمٍ^(٢)، قد تقوَّسَا على مثلِ عينِ العُبْهَةِ^(٣)، التي لم يُرْعَهَا قَانِصٌ، ولم يذِعْزَهَا قَسُورَةٌ، بينهما أَنْفٌ كَحَدِّ السَّيْفِ المصقول، لم يخنس^(٤) به قصر، ولم يمعن به طولٌ، حُقَّتْ به وَجْتَتَانِ كالأرجوان^(٥)، في بياضٍ محض كالجُمان^(٦)، شُقَّ فيه فَمٌ كالخاتمِ لذيدِ المبتسم، فيه ثنَايا غُرٌّ، وأسنانٌ تُعَدُّ كالدرِّ^(٧)، يتقلَّبُ فيه لسانٌ ذو فصاحةٍ وبيان، يزيّنُ به عقلٌ وافرٌ، وجوابٌ حاضر... وتحت ذاك عُنُقٌ كإبريقِ الفضة^(٨)... إلى أنْ قالت: فأما ما سوى ذلك فتركتُ أنْ

(١) «الوابل»: المطر الشديد، وفي القرآن الكريم: ﴿فَأَصَابُ الْوَابِلُ فَرَكَّهُ صَلَدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤] أي: مطر شديد عظيم القطر.

(٢) «حمم»: الفحم (القاموس المحيط ص ١٤١٨) مادة (حمم).

(٣) «العُبْهَةُ»: الجامعة للحسن في الجسم والخلق، والرقيقة البشرة النَّاصعة البياض والسَّمينَة الممتلئة الجسم.

(٤) «يخنس»: يتأخر.

(٥) «الأرجوان»: صبغ أحمر.

(٦) «الجمان»: اللؤلؤ، واحدها جمانة.

(٧) إنَّ العرب هم عمالقةُ البلاغة في فنِّ الوصف، وخاصة في وصف الحسن والجمال، وقد أبدعوا في شعرهم بهذا الفنِّ، كقولِ دوقلة المنبجي في القصيدة المسماة «اليتيمة» والتي نقتطف منها هذه الأبيات:

وَيَزِينُ فُودِيهَا إِذَا حَسَرْتُ صَافِي الْغَدَائِرِ فَاحِمْ جَعْدُ
فَالْوَجْهُ مِثْلَ الصَّبْحِ مُبَيَّضُ وَالْفَرْعُ مِثْلَ اللَّيْلِ مَسْوَدُ
وَجَبِيئُهَا صَلَّتْ وَحَاجِبُهَا شَخِثَ الْمَخْطِ أَزْجُ مَمْتَدُ
وَكَأَنَّهَا وَسَنَى إِذَا نَظَرْتُ أَوْ مَدْنَفُ لَمَّا يَفِيقُ بَعْدُ

(٨) مما يزيّنُ بحثنا ما وردَ عند ابن عبد ربّه قال: سئل أعرابي عن النِّساء، وكان ذا تجربة وعلم بهنّ فقال: أَفْضَلُ النِّسَاءِ أَطْوَلُهُنَّ إِذَا قَامَتْ، وَأَعْظَمُهُنَّ إِذَا قَعَدَتْ، وَأَصْدَقُهُنَّ إِذَا قَالَتْ، التي إِذَا غَضِبَتْ حَلِمَتْ، وَإِذَا ضَحِكَتْ تَبَسَّمَتْ، وَإِذَا صَنَعَتْ شَيْئًا جَوَدَتْ، التي تطيعُ زوجها، وتلزم بيتها، العزيزة في قومها، الدّليّة في نفسها، الودودُ الولودُ، وكل أمرها محمود.

(العقد الفريد ٦/١٠٧).

أَصْفَهُ غَيْرَ أَنَّهُ أَحْسَنُ مَا وَصَفَهُ وَاصْفَ بِنَظْمٍ أَوْ نَثْرٍ^(١).

كَيْفَ خَطَبَ الْمَلِكُ ابْنَةَ أُمَامَةَ؟

* عندما سمع عمرو بنُ حجر ما جاءَتْ به عصامُ من وصف لأمّ إيّاس بنت عوف الشَّيبانية، وقعتْ في نفسه موقعاً لطيفاً، ورغب في ودّها^(٢)، وأزْمَعَ على أنْ يخطبَ هذه الدُّرَّة اليتيمة، والجوهرة الفريدة في عقد نساء بني شيبان، وارتحل إلى عوفِ بن محلّم، وخطب^(٣) ابنته أمّ إيّاس.

* ورَحَّبَ عوفُ بنُ محلّم بهذا الملك الخطير، وأحسنَ وفادته، هنالك تقدّم الملك وخطبَ أمّ إيّاس بنت عوف، فقال عوفٌ بكلّ سُرور: نعم أيّها الملك، قد زوّجناكِها، ولكنْ اشترطُ عليك!

قال الملك عمرو: وما شرطك يا عوف؟

قال عوف: أزوجهّا على أنْ أسَمِّيَ بنيتها الذَّكور، وأزوّجَ بناتها.

فأجابَه الملكُ في أناةٍ وروية: أو غيرَ هذا يا بن مُحلّم؟!

قال عوف: هذا ما اشترط.

(١) انظر: مجمع الأمثال (١٩٢/٢)، والعقد الفريد (١١٠/٦ و ١١١)، وبلوغ الأرب (١٧/٢ و ١٨) بشيء من التصرف.

(٢) والله دَرَّ مَنْ قال:

كَأَنَّمَا الشَّمْسُ إِذَا مَا بَدَتْ تِلْكَ الَّتِي قَلْبِي لَهَا يَضْرِبُ
تِلْكَ سُلَيْمَي إِذَا مَا بَدَتْ وَمَنْ أَنَا فِي وَدَّهَا أَرْغَبُ

(٣) كان أسلوبُ الزَّوْاجِ الصَّحِيحِ عند العربِ في عَصْرِ الجاهلية، يدلُّ على احترام المرأةِ العربيّة، ومعرفةِ مكانتها، فكان إذا رغب أحدُهم الزَّوْاجَ، ذهبَ هو أو أشرف قومه إلى والدِ الفتاة، فيخطبُ أمامَ المجتمعين مَنْ وُكِّلَ بذلك من ذوي الشَّرَفِ والحسبِ والفصاحةِ والبيان، ومن خُطِبِ النكاح قولهم: «باسمك اللهم ذكرت فلانة، وفلان بها مشغوف، باسمك اللهم لك ما سألت ولنا ما أعطيت». وكان والدُ الفتاة يقصر في الإجابة بالقبول أو الرفض، ويحدد المهر، وشروط العقد؛ وكان والدُ الفتاة أو والدتها غالباً ما يستشيران ابنتهما قبل إجابة الخاطب، وكان للفتاة حقّ الرفض.

فقال الملكُ في تعقُّلٍ وهدوءٍ: يا بن الكرام، إنَّ ما ذكرته هو مِنْ حَقِّنا،
أما بنونا فنُسَمِّيهم بأسمائنا، وأسماء آبائنا، وعمومتنا؛ وأما بناتنا فينكحْنَ
أكفأهن مِنَ الملوك، ولكِنِّي أجعل صدَاقَها عقاراً في كندة، وأمنحها
حاجات قومها، فلا تُردُّ لأحدٍ منهم حاجة، ولا تقفُ في وجهه عشرة.

فقال عوف: أنصفتَ أيها الملك الهمام، وقَبِلَ عوف ذلك وأنكحه ابنته
أمَّ إياس، وأوصاه أن يحسَنَ عشرتها ويكرمها، فإنَّها قطعةٌ من كبده^(١).
وصايا أُمّامة العشر لابنتِها:

* يمكننا الآن أن نقولَ باختصار: ليست وصايا أُمّامة بنت الحارث
لابنتها أمَّ إياس مجردَ مواعظٍ وتوجيهاتٍ وتحذيراتٍ مِنَ الزَّوجِ أو الزَّوْجِ،
وإنما هي حِكْمٌ وفرائدٌ يمكنُ أن تُصاغَ في عقدٍ نفيس، يصلحُ لأنَّ تزدانَ به
كلُّ فتاةٍ تؤدُّ حياةَ السَّعادة في ظلالِ الحياةِ الزَّوجيةِ، وفي ظلالِ رجلٍ ينشدُ
المودةَ والتَّجاحَ والوفاء.

* لقد بلغت نساءُ القومِ قدماً مبلغاً عظيماً في الحكمةِ والأدبِ والبيان،
وقد أُوتينَ مِنْ جوامعِ الكلمِ وبيانِ القولِ ما يعجزُ عن الإتيانِ بمثله فحولُ
الفُصحاءِ، وبلغاءُ الفحولِ، ناهيك بوفرةِ عقلهن، وسدادِ رأيهن في إدارةِ

(١) لعله مما تحسَّنَ روايته، وتُستجَادُ حكايته، وتُسْتَمْلَحُ كتابته في هذا المجال، ما جاء
عن العربِ الأَقحاحِ، الذين وردوا مناهلَ الأخلاقِ، وعَبَّوا منها، ونفحوا الأيامَ
بأوراقٍ قد خُطَّ فيها أدبهم الوضاء، وحديثهم المغناج المعطاء، وأقوالهم التي تزينُ
جبينَ الدَّهرِ بعقودٍ منيفة، بما ورد عنهم من حكمٍ لطيفة.

فقد ورد أنَّ صَعْصَعَةَ بِنَ معاويةَ قد خطبَ إلى عامر بن الظُّربِ حكيمِ العربِ ابنته
عمرة - وهي أم عامر بن صَعْصَعَةَ - فقال: يا صَعْصَعَةُ؛ إِنَّكَ أَتَيْتَنِي تَشْتَرِي مِنِّي
كَبْدِي، فَارْحَمِي وَلَدِي قَبْلَ تَكِ أَوْ رَدْدَتِكِ، وَالْحَسِيبُ كَفَاءُ الْحَسِيبِ، وَالزَّوْجُ
الصَّالِحُ أَبٌ بَعْدَ أَبٍ؛ وَقَدْ أَنْكَحْتُكَ خَشِيَةً أَلَا أَجِدُ مِثْلَكَ، أَفَرُّ مِنَ السَّرِّ إِلَى الْعَلَانِيَةِ؛
يَا مَعْشَرَ عَدَوَانِ، خَرَجْتُ بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ كَرِيمَتِكُمْ مِنْ غَيْرِ رَهْبَةٍ، وَأَقْسَمُ لَوْ لَا قِسْمَ
الْحِفْظِ عَلَى قَدْرِ الْجَدُودِ، مَا تَرَكْتُ الْأَوَّلَ لِلْآخِرِ مَا يَعِيشُ بِهِ.

(العقد الفريد ٧/ ٧٧) بتحقيق: محمد سعيد العريان.

بيوتهن مما جعلهن مصدرَ إشعاعٍ حضاري واجتماعي، تقتدي به نساءُ التاريخ على مدارِ التاريخ.

* نعم لقد كانت ضيفتنا امرأةً من طرازٍ فريد، وحبذا وجودُ مئاتِ بل ألوفٍ مثلها في هذا الزَّمن وكلِّ زمان، كي ترفرف السَّعادةُ الزَّوجيةُ بجناحيها على كلِّ البيوت، لأنَّها كانت تقدِّسُ الحياةَ الزَّوجيةَ، وتغرسُ في نفسِ ابنتها هذا الإجلالَ، وهذا الاحترامَ، لتكونَ مطَّوعاً للرجل، معواناً له، ونستطيعُ أن نلمسَ نظرةَ هذه المرأةِ للزَّواج والزَّوج في وصيّتها، بل وصاياها العشرَ لابنتها أمَّ إياس في ليلةِ زفافها، تلکمُ الوصايا التي قدَّمت لها أُمّامةٌ بمقدمةٍ تضيءُ لها بها دَرَبَ الزَّوجيةَ، وتمهِّدُ لها فيها حكمةَ الزَّواج حيث قالت لها بعد أن خلَّت بها:

* أي بُنية! إنَّ الوصيةَ^(١) لو تُرِكَتَ لفضَّلِ أدبَ، لتركْتُ ذلكَ لك، لكنَّها تذكرةٌ للعاقِلِ، وتوعيةٌ للغافلِ، ولو أنَّ امرأةً استغنت عن الزَّوج لغنى أبويها، وشدة حاجتها إليها، كنتِ أغنى النَّاسِ عنه، ولكنَّ النساءَ للرجالِ خُلِقْنَ، ولهنَّ خُلِقَ الرِّجال.

* أي بُنية! إنَّك فارقتِ الجو الذي منه خرجتِ، وخلفتِ العشَّ الذي فيه درَجْتَ، إلى وكرٍ لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه، فأصبحَ بملكه عليك رقيباً ومليكاً، فكوني له أمةً يكنُ لك عبداً وشيكاً.

(١) «الوصيةُ»: الوصيةُ بمعنى: التُّصح، والإرشاد، والتَّوجيه، وهي قولٌ بليغٌ مؤثِّرٌ، يتضمَّنُ حقاً على سلوكٍ طيِّب نافع، حباً فيمن توجَّه إليه الوصيةُ، ورغبة في رفعة شأنه وجلبِ الخير له. وعادة تكون الوصية من أولياء الأمور، وخصوصاً الأب والأم لأبنائهما عند المناسبات، وعند حلول الشَّدائد، أو حدوث الأزمات، أو الإحساس بدنو الفراق.

والوصيةُ نتيجة الخبرة الطويلة، والملاحظة الدقيقة، والعقل الواعي، والتفكير السليم، ويدفع إليها المودة الصادقة، والحب العميق. هذا وكتبُ المصادر تزدان بكثير من الوصايا الجميلة التي تزيِّنُ جيَدَ الأيام، لما تحمله من معاني عظام، وفوائد جسام، تصلح للخاص والعام.

* ولما انتهت أمانة من هذه المقدمة النفيسة، قالت لأمّ إياس بلسان النصّح، والإرشاد، والحبّ، والعلم:

* يا بنية! احلمي عني عشر خصال تكن لك ذخراً، واحفظيها له تكن لك ذكراً.

أمّا الأولى والثانية: فالصُّحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السَّمع والطّاعة.

وأمّا الثالثة والرابعة: فالتَّعهّد لمواضع عينيه، والتَّقدُّد لموقع أنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيّب ريح، والكحلُّ أحسنُ الحُسن، والماء أطيّب الطَّيب المفقود.

أمّا الخامسة والسادسة: فالتَّعهّد لوقت طعامه، والهدوء عند منامه، فإنَّ حرارة الجوع ملهبة، وتنغيصُ التَّوم مغضبة.

وأمّا السابعة والثامنة: فالاحتراشُ ببيتِه وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله، وملاك الأمر في المال حسنُ التَّقدير، والإرعاء على العيال والحشم جميل حسن التَّقدير.

وأمّا التاسعة والعاشر: فلا تعصي له أمراً، ولا تفشي له سراً، فإنَّك إن خالفت أمره أو غرت صدره، وإن أفشيت سرّه لم تأمني غدره، ثم اتقي مع ذلك الفرَح بين يديه إن كان ترَحاً، والكآبة عنده إن كان فرَحاً، فإنَّ الخصلة الأولى من التَّقصير، والثانية من التَّكدير، وكوني أشدَّ ما تكونين له موافقةً، يكن أطول ما تكونين له مرافقةً، واعلمي أنَّك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تُؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك فيما أحببت وكرهت، والله يُخيرُ لك^(١).

(١) انظر المصادر التالية مع الجمع بينها والتصرّف اليسير: مجمع الأمثال للميداني (٢/١٩٢)، والعقد الفريد (٦/١١٠ و ١١١)، وقصص العرب (٢/٧٨ و ٧٩)، ومحاضرات الأدباء: (٢/٢١٢)، وبلوغ الأرب (٢/١٩)، وغيرها كثير من المصادر المتنوعة.

أَضَوَاءٌ عَلَى مُقَدِّمَةِ وَصَايَا أُمَامَةٍ:

* لا شكَّ بأنَّ كلماتِ أُمَامَةٍ عَقْدٌ مُنْظُومٌ، تزدانُ بهِ المجالسُ، وتتحلَّى بهِ أفواهُ مَنْ يُشَدُّ السَّعَادَةُ مِنَ النِّسَاءِ، ولا ريبَ بأنَّ أُمَامَةَ بنتِ الحارثِ قد خَبِرَتِ الحَيَاةَ وتَجَرَّبَتِ الرِّوَجِيَّةَ، فصاغَتْ تجاربها بتلكمِ الوصايا النَّبيلةِ التي وَعَّتْها لَنَا أَدُنُ الأَيَّامِ الواعيةِ، وحفظتها لَنَا كُتُبُ العَرَبِ ومجالسهم.

* لذلك أَحْبَبْتُ أَنْ أَلْقِيَ بَعْضَ الأَضَوَاءِ الكاشفةِ عَلَى فُقَرَاتِ هذهِ المرأةِ الفاضلةِ كي تترسَّخَ صورتها أَكْثَرَ فِي الأَذْهَانِ، وَتُحْفَظَ وَصَاياها فِي قُلُوبِ الحِسانِ، بَلْ وَتُطَبِّقُ هذهِ الوصايا النَّسَاءُ فِي كُلِّ عَصْرِ وَزَمَانٍ، لكونها صدرتَ عَنْ أُمِّ حَكِيمَةٍ معروفةٍ بالفصاحةِ وسَدَادِ الرِّأْيِ، ورائعِ التَّربِيَةِ، وحسنِ التَّبَعْلِ لزوجها.

* فَمَّا يَدُلُّ عَلَى ذِكائِها أَنَّها اختارتْ مَكَانَ الوصِيَّةِ، إِذِ انْفَرَدَتْ بِابْنَتِها كَيْما يَكُونُ الحَدِيثُ صَرِيحاً لا مِجَامَلَةً فِيهِ ولا مِوَارِبَةً، ولا تَأْثِيرَ فِيهِ لِأَحَدٍ مِنْ أَقاربِها أو أَترابِها، كما هو مَعهودٌ فِي سائِرِ الأَعْرَاسِ.

* واختارتْ أُمَامَةُ زَمَنَ الوصِيَّةِ أيضاً، فَكانَ قُبيلَ أَنْ تُحْمَلَ إِلَى زَوجِها مَلِكِ كَنْدَةَ، وَذلكَ لَكِي تَبْقَى آثارُ وَصِيَّتِها ماثِلَةً فِي ذَهَنِ ابْنَتِها، وَإِذْ ذاكَ لا تَحِيدُ ولا تَرِيضُ عَمَّا قالَتْهُ أُمُّها قُبيلَ وداعِها وانطلاقِها إِلَى عِشِّ الرِّوَجِيَّةِ.

* وَإِذا أَمَعْنَا النَّظَرَ فِي مُقَدِّمَةِ الوصِيَّةِ أَلْفِينا تَعَقَّلَ هذهِ الأُمُّ الواعيةِ الكريمةِ، إِذْ خاطبتْ ابْنَتَها بِلَفْظٍ يُدْخِلُ الأَنْسَ إِلَى نَفْسِها، وَهو اسْتِخدامُ لَفْظٍ: «بُنْيَّةٌ»، وَالتَّصْغِيرُ وَسِيلَةٌ مِنْ وَسائِلِ التَّحَبُّبِ إِلَى النَّفْسِ.

* وَبَعْدَ هذهِ الكَلِمَةِ المِغْناجِ اللطيفةِ، أَبانتْ لَها الأُمُّ بِأنَّ الوصِيَّةَ مِهمَّةٌ، وَأَنَّ جَمِيعَ النِّسَاءِ بِحاجَةٍ إِلَيْها، بَلْ جَمِيعَ النَّاسِ عَلَى اِختلافِ أُلُوانِهِمْ ومشارِبِهِمْ ومنابتِهِمْ وأحوالِهِمْ، حَتَّى مَعَ الَّذِينَ أَحَسَّنَ أَهلُوهم تَأديبَهُمْ وتربيتَهُمْ عَلَى صالِحِ الأَعْمالِ، وَكَرِيمِ الخِلالِ، وَأَبانتِ الأُمُّ أَنَّ الوصِيَّةَ هذهِ تَأْتِي مِنْ بابِ الذِّكْرِ؛ فَالذِّكْرُ يُنْفَعُ، وَكُلُّ ذاكَ مِنْ بابِ الاسْتِعاْنَةِ بِأَهْلِ العَقْلِ والحِكمةِ والحِياءِ، وَإِنَّهَ ما خابَ مِنْ اسْتِشارٍ، ولا نَدَمَ مِنْ اسْتِخارِ أَهْلِ

العقل والحكمة، والأخلاء من أهل الحزم والفطنة^(١).

* وتأتي أمانة بعد هذا لتغرس في نفس ابنتها أهمية الزوج في حياة الزوجية، ومكانته في نفسها، وإن كانت الزوجة من الثراء والمكانة، وعزجت أمانة على الفطرة الإلهية، وحسن استخدامهما في حياة التبعل، وأبانت بأن الله قد جعل من الحكمة في مخلوقاته أن خلق النساء للرجال ليكن سكناً وأنساً لهم، وخلق كذلك الرجال للنساء ليكونوا لهم عوناً على تقلبات الأيام.

* وطرحت أمانة حكمة مهمة جداً، وأوقفت ابنتها على حقيقة ظاهرة، وهي مفارقتها البيت الذي درجت فيه وعاشت صباها تحت أفيائه، ومن ثم انتقلها إلى البيت الذي سيكون مآلها ووكرها، وهذا البيت مغاير لبيتها الأول بمن فيه وما فيه.

* ثم بعد ذلك كله أخذت الأم تمهد لابنتها السبيل القويم الوضيء للحياة الزوجية، وامتلاك ناصية الزوج، ورسمت لها الخطوات الصحيحة في انقياد الزوج لها إذا ما سارت على النهج الآتي: فقد أمرتها أن تكون كالأممة المطواع عند سيدها الشجاع، وإذا ذاك يكون هذا الزوج رهن إشارتها مهما علت مرتبته، ومهما عظمت شوكته، وتناهت خبرته، وفاحت شهرته، وامتد سلطانه، وكثر أعوانه وخلانه وأخدانه وإخوانه.

وَقَفَاتُ عَطِرَاتٍ مَعَ وَصَايَا أُمَامَةٍ:

* عندما أرادت أمانة بنت الحارث أن تهدي وصاياها الخالدة لابنتها أم إياس قبل أن تهدى إلى زوجها، وضعت نصب عينيها عقداً فريداً من خصائص الغرر الواضحة في الحكمة، ودعتها إلى حفظها وتطبيقها ليلاً ونهاراً، وسراً وجهاراً، وبكرة وعشيّاً؛ وها نحن مرسلو القول في هذه

(١) ويحضرني قول الشاعر في هذه المناسبة:

إذا ما كنت متخذاً خليلاً
فلا تتقن بكل أخي إخاء
فإن خيّر بينهم فالصق
بأهل العقل منهم والحياء

الخصائص كما نتعرف أسرار هذه الوصايا، وخفاياها، وكيفية الاستفادة والإفادة منها.

جاء في الوصية الأولى والثانية :

* أن تخضع أم إياس خضوعاً مناسباً لما يريد زوجها، وذلك عن قناعة نابعة من ذاتها، ومن قرارة نفسها وحنايا فؤادها، وتنفيذ أوامره وعدم عصيانه، أو التمرد على أوامره.

* نعم لقد كانت المرأة في الجاهلية تحترم الحياة الزوجية، وكان يسرها أن ترى زوجها سيّداً عزيز الجانب، ويؤلمها أن يذل أو يهان، فإن عرّها مستمد من عزّه، وذُلّها منوط بمهانته.

* إن بناتنا وأخواتنا في مَسِينِ الحاجة إلى تعلّم تلکم الخصلة المفيدة، وخصوصاً الفتيات اللواتي سيقدمن على دخول الحياة الزوجية، فإن أجمل هدية يقدمنها للأزواج الحذر من الدُخول في منازعات منذ بداية حياتهن الزوجية، لأنّ المنافسات والإعراض عن رغبات الأزواج المعقولة من أسباب تصدّع بناء الزوجية الجديد، وإخلال بقاعدته الأولى، وأسس مقوماته، وأسرار بقاءه دائماً ما دامت حياة الزوجين قائمة.

وفي الوصية الثالثة والرابعة :

* نشمّ في هذه الوصية عبر نساء الحياة السليمة التي تقوم على الاعتناء بمحيط الزوجة، والعناية التامة بأمور النظافة والطهارة، فقد أكدت أمانة على ابنتها أن تكون شديدة الحرص على بيت الزوجية من حيث الاهتمام بنظافته صباح مساء، وترتيبه وتجميله، لأن البيت النظيف الذي قوامه الترتيب والطهارة والتنظيم يُدخل الطمأنينة والسعادة إلى نفس الزوج، وتجعله يعشق بيته، ولا يكاد يخرج منه حتّى يشتاّق إلى العودة ليعيش فيه.

* وثمة وصية مهمّة ترفّها أمانة لابنتها وهي محور حياة المرأة مع زوجها، فقد أوحى لها أن تكون طيبة النّشر، نظيفة في ملابسها، طاهرة في جسمها، تحسن اختيار الطيب والعطر عند مقابلة زوجها لتدخل السرور

والمسرات إلى قلبه، فإنَّ الرجال يحبُّون زينة^(١) المرأة بعدما يقضون عناءَ يومهم خارج بيوتهم.

* إنَّ من أسباب تقويضِ عروشِ الرِّوَجِيَّةِ في كُلِّ زمانٍ عدمَ الاهتمامِ بالنِّظافةِ بنوعِها: نظافةُ المنزل؛ ونظافةُ الجسم، بل إنَّ كثيراتٍ منَ النِّساءِ المتزوِّجاتِ في عصرنا الحاضرِ، وحاضرِ عَصْرِنَا يقابلن أزواجهن بملابسٍ لا تليقُ باستقباله، إذ تستقبلُ الزَّوْجَةَ زَوْجَهَا بملابسِ المطبخ، وفيه ما فيه من روائحٍ لا تُرضي بل تنفِّرُ أحياناً، وتهملُ نظافةَ منزلها، بل إنَّ الأمرَ ليصلُ ببعضهنَّ إلى الإهمالِ، وعدمِ الاكتراثِ بنظافةِ جسمها، ولعلَّها لا تضعُ الطِّيبَ وروائحَ العِطْرِ إلا عندما تودُّ أن تخرجَ من منزلها إلى بعضِ المناسباتِ أو الأعراسِ، أمَّا الزَّوْجُ فهو محرومٌ منَ الزَّيْنَةِ أو منَ رائحةِ العِطْرِ داخلِ منزله، وبالتالي تفقدُ الحياةَ الزَّوْجِيَّةَ بريقها^(٢)، وتصبحُ عَشْواءَ، ومن ثمَّ

(١) عَرَفَتِ المرأةُ في عَصْرِ الجاهليَّةِ بعضَ أساليبِ الزَّيْنَةِ: كالتخضُّبِ بالحناءِ، والتكحُّلِ بالإثمد، والتطيُّبِ، واستعمالِ السَّوَاك، والوشمِ، وهو نوعٌ منَ الزَّيْنَةِ، وكانتِ الزَّيْنَةُ مستحبَّةً للمرأةِ إنَّ كانتِ لزوجها، بل تُطالبُ المرأةُ بذلك، فهذا طرفه بنُ العبدِ يصفُ يدَ فتاته، وقد ازدان وزينته الوشمُ:

لِخَوْلَةٍ أَطْلَالٍ يَبْرُقَةُ ثُهُمَدٌ تَلُوْحُ كِبَاقِي الْوَشْمِ فِي ظَاهِرِ الْيَدِ
وَالْمَرْأَةُ الْعَرَبِيَّةُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ لَمْ تَعْرِفْ شَيْئاً يَرْضِي زَوْجَهَا فِي زِينَتِهَا إِلَّا فَعَلَتَهُ، وَلَمْ تَعْرِفْ شَيْئاً يَضَاقِقُهُ إِلَّا تَرَكَّتَهُ.

ونحنُ إذ نرى أنَّ للعربَ الحظَّ الأوفرَ منَ الشَّغفِ بالحُسْنِ والاستحسانِ، وهذا يزيدُ من قدرهم في اعتقادنا، ونرى أنَّهم كانوا في عهدهم ذلك من أرقى الأجيالِ الرَّاقِيَةِ لبعدهم عن الزَّخرفِ، وعدمِ تعلقهم بكلِّ أسبابِ الحضارةِ، فالْحُسْنُ لا يُشْتَرَى ولا يباعُ، وإنَّما هو فِطْرَةٌ إلهيَّةٌ، وقد أشارَ المتنبيُّ الشَّاعرُ المشهورُ إلى هذه القضيةِ فقال:

حُسْنُ الْحَضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِطَطْرِيةٍ وفي البَدَاةِ حُسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ
لذلكَ حظيَتْ نِسَاءُ الْقَوْمِ قَدَمًا عِنْدَ أَزْوَاجِهِنَّ فِي عَدَمِ التَّبَدُّلِ، وفي شِعْرِ الْقَدَامَى أدلةٌ كثيرةٌ على ذلك.

(٢) جاءَ في وصايا العربِ إلى بناتهم ما يشيرُ إلى فهمهم أصولَ الحياةِ، ومعرفتهم محاسنَ السَّعادةِ، من ذلك وصيةُ عبد الله بن جعفر - رضي الله عنه - ابنته قائلاً: =

يسودُّها الظَّلام، فقَلَّةُ الكلام، فكثرةُ الخصام، فالفِرَاق إلى الأبد.

وفي الوصية الخامسة والسادسة:

* تطلعُ أُمَامَةُ في وصيَّتها هذه على ابنتِها بفائدَتَيْنِ مهمَّتَيْنِ هما عصبُ الحياةِ اليوميَّة لكلِّ بيتٍ؛ الأولى: الحاجةُ للطَّعام؛ والثَّانية: الحاجةُ للرَّاحة. فإذا ما عرَفَتِ المرأةُ مزاجَ زوجها في تناوُلِهِ طعامه، وما يرغبه، وما يعافه، وحرصتْ على الوقتِ الذي يشتهي فيه الطَّعام، فذلك المنى المطلوب الهانئ، وإذا هيأتْ له فرصةً لياخذَ قِسْطاً من الرَّاحة، ويخلدَ إلى النوم، فذلك أيضاً يغرسُ الرَّاحة في هذا البيت، وكيف لا، والطَّعامُ والنومُ من حاجاتِ النَّاسِ اليوميَّة؟! بل لا حياة من دون هاتين النَّاحيتين.

* إِنَّ المرأةَ التي تَوَدُّ أَنْ ترفرفَ السَّعادةُ على بيتها، تستطيعُ إرضاءَ زوجها بقليلٍ عَناءٍ منها، فما إعدادُ الطَّعامِ إلا من مهامِّها اليوميَّة، ثم توفيرُ الجوِّ الملائم لراحته لا يحتاج منها إلا بعضَ التدبيرِ البسيط، وبذلك تكسبُ ودَّ زوجها، وتأخذُ بمجامعِ قلبه ونفسه، وتجعله مُطمئنناً إلى عنايةِها به.

أما الوصية السابعة والثامنة:

* في هذه الوصية تأكيدٌ من أُمَامَةَ لابنتِها لكي تُحسِّنَ التَّصرُّفَ بِمال زوجها، وتنثرَ زَهْرَ الودِّ والمحبة في عياله، وفي رعيته وحشمه.

* فالمرأة ذاتُ مسؤوليَّة خطيرة في رعاية المال أمامَ الله، وأمامَ الزَّوج، وذلك في حُسْنِ تصرُّفها في إنفاقِ المال، وفي الطَّلَبات التي تُؤاَم حياتها وصَلاحها وصَلاح الأسرة في عمل المعروف^(١)، وذلك بما يتناسبُ ويناسبُ معيشته بما لا يشقُّ عليه ويرهقه مالياً واجتماعياً، وهذا يسبَّبُ

= إياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق، وإياك وكثرة العتب، فإنه يورث البغضاء، وعليك بالكحل، فإنه أزينُ الزينة، وأطيبُ الطيبِ الماء.

(١) والله درُّ القائل:

فما المأل والأخلاقُ إلا معارة فما استطعت من معروفها فتزوَّد

التَّغْيِصُ فِي الْحَيَاةِ إِذَا لَمْ تَتَدَارَكِ الْمَرْأَةُ بِحَسَنِ فِطْنَتِهَا، وَكَمَالِ دُرْبَتِهَا، وَكَرَامَةِ أَصْلِهَا.

* ثُمَّ إِنَّ أَمَامَةَ تَثِيرُ فِي نَفْسِ ابْنَتِهَا أَنْ تَحْرَصَ عَلَى رِعَايَةِ حَشَمِهِ، وَسُلُوكِ سَبِيلِ الْهُدُوءِ وَالْأَنَانَةِ وَالْحِلْمِ، وَمَا أَجْمَلَ قَوْلَ شَاعِرِهِمْ حَاتِمِ الطَّائِي:

تَحَلَّمْ عَنِ الْأَدْنَيْنِ وَاسْتَبَقِ وَدَّهْمَ وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْحِلْمَ حَتَّى تَحَلَّمَا

* وَمَعَ رِعَايَةِ الْحَشَمِ تَأْخُذُ أَمَامَةُ بِبِدِّ ابْنَتِهَا إِلَى تَرْبِيَةِ الْأَوْلَادِ عَلَى مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَحَاسِنِ الْفَضَائِلِ، فَإِنَّ الْوَلَدَ مَرَأَةً الْأَهْلِ، فَإِنْ فَعَلْتَ ذَلِكَ حَظَيْتِ بِالسَّعَادَةِ، وَذَلَلْتَ لَهَا قُطُوفُ الْهَنَاءِ فِي مَحِيطِ أُسْرَةِ الرَّوْجِ.

الْوَصِيَّةُ الْأَخِيرَةُ، وَهِيَ التَّاسِعَةُ وَالْعَاشِرَةُ:

* فِي هَذِهِ الْوَصِيَّةِ زَبْدَةُ الْقَوْلِ، وَسَنَامُ الْوِفَاقِ، وَذِرْوَةُ السَّعَادَةِ الرَّوْجِيَّةِ، إِذْ حَثَّتْ أَمَامَةُ ابْنَتَهَا أُمَّ إِيَّاسَ عَلَى مُوَافَقَةِ زَوْجِهَا مُوَافَقَةً تَامَةً، لِأَنَّ مَعَارِضَةَ الرَّوْجِ وَعَصْيَانَهُ يَسَبِّبُ غَضَبَهُ عَلَيْهَا، وَيُبْعِدُ قَلْبَهُ عَنْ مُوَدَّتِهَا، وَقَدْ لَا تُحْمَدُ عَاقِبَةُ عَصْيَانِ الزَّوْجَةِ لَزَوْجِهَا، حَيْثُ إِنَّ كَرَامَةَ الرَّوْجِ مَنُوطَةٌ بِطَاعَةِ الزَّوْجَةِ، وَإِذَا ذَاكَ يَكُونُ بِنَاءُ صَرْحِ الْحَيَاةِ الرَّوْجِيَّةِ عَلَى أُسَاسٍ قَوِيمٍ.

* قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ سُلَيْمَانُ بْنُ دَاوُدَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ -: إِنَّمَا تَسْتَحِقُّ الْمَدْحَ الْمَرْأَةُ الْمُوَافِقَةَ^(١)؛ وَقَالَ أَيْضاً: الْمَرْأَةُ الْعَاقِلَةُ تَبْنِي بَيْتَهَا، وَالسَّفِيهَةُ تَهْدِمُهُ^(٢).

* وَمِنْ أَسْرَارِ وَصَايَا أَمَامَةِ الْقِيَمَةِ، وَالَّتِي تَوْثَّقُ عُرَى الْمَحَبَّةِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ: مَحَافِظَةُ الزَّوْجَةِ عَلَى أَسْرَارِ زَوْجِهَا، وَعَدَمُ نَقْلِهَا أَخْبَارَهُ لِلْآخَرِينَ، وَإِنْ كَانُوا مِنَ الْأَقْرَابِ، فَإِنَّ الْمَحَافِظَةَ عَلَى الْأَسْرَارِ وَالْحِفَافَ عَلَيْهَا، وَخَزَنَ اللِّسَانَ دَلِيلٌ عَلَى اسْتِمْرَارِ عُرَى الْمُوَدَّةِ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ، وَالْمَرْأَةُ الَّتِي لَا تَسْتَطِيعُ أَنْ تَحْفَظَ سِرَّ زَوْجِهَا لَا خَيْرَ فِيهَا، وَخُصُوصاً إِذَا أَفْشَتِ السَّرَّ

(١) انظر: العقد الفريد (٦/٨٢ و ٨٣).

(٢) المصدر السابق.

إلى أهلها^(١)، وقد لا تأمنُ غَضَبَ زوجها، وقد توغُرَ صدره عليها؛ وكذلك المرء الذي لا يستطيع أن يخزنَ لسانه، لن يستطيع أن يحفظَ سواه، كما قال الشاعر الجاهلي:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَخْزِنْ عَلَيْهِ لِسَانَهُ

فليسَ على شيءٍ سِوَاهُ بِخَزَانٍ

* وقد عبَّرَ قيسُ بنُ الحطيمِ الشاعر الجاهلي الشهير عن خاصية حفظ السرِّ، وحضَّ على كتمان الأسرار فقال:

إِذَا جَاوَزَ الْاِثْنَيْنِ سِرٌّ فَإِنَّهُ بَنَشْرٍ وَتَكْثِيرِ الْحَدِيثِ قَمِينُ
وَإِنَّ ضَيِّعَ الْإِخْوَانِ سِرًّا فَإِنِّي كَتُومٌ لِأَسْرَارِ الْعَشِيرِ أَمِينُ
يَكُونُ لَهُ عِنْدِي إِذَا مَا ضَمِنْتُهُ مَقَرٌّ بِسُودَاءِ الْفُؤَادِ كَفِينُ

* إنَّ من حُسْنِ المعاشرة، وحُسْنِ تصرُّفِ الزَّوجة وموافقتها لزوجها: الإقلالُ مِنَ الثَّرَثَةِ، وعدمُ البوحِ بالأسرار، وقد امتدَحَ العربُ هذه الصِّفةَ بهم وبنسائهم، قال الأعشى:

(١) إنَّ بعضَ الزَّوجاتِ قد يقعنَ في بدايةِ حياتهن الزَّوجية في شَرِّ رهيبٍ، وحُفْرِ عميقة، وأخطاءٍ ذميمة، فلا تستطيعُ إحداهن أن تحفظَ شيئاً مما تسمعه من زوجها، بل تشيعه فوراً، وتنقله مباشرةً إلى أهلها على جميع الموجات، فقد تلجأ إلى الهاتفِ، وتسارعُ لإيصالِ الخبر وإفشاءِ السرِّ دون إبطاءٍ أو إهمالٍ، وقد تهملُ من الأمور ما يجعل بيتها قاعاً صفصفاً، وهذا التصرف غير اللائق قد يكون من أسباب بثِّ المشكلات في الحياة اليومية بين الزوجين، نظراً لتدخل أهل أحدهما في حياتهما، نتيجة نقل كلِّ صغيرة وكبيرة إلى الأهل، وعدم صيانة الأسرار. هذا وإنَّ كثيراً من حوادث الطلاق أو الخلاف في وقتنا الحاضر يرجعُ إلى ذلك، فالمرأة العاقلة هي التي تصون سرَّ زوجها لتكفل حياة السَّعادة.

وقديماً عاب الحطيئة الشاعر المخضرم المعروف المرأة التي لا تحفظ السرَّ، وهجاها هجاءً ساخراً، وعيَّرها بهذه الخصلة الذميمة فقال:

تَنْحِي فَاِجْلِسِي مَنِّي بَعِيداً أَرَاكِ اللَّهُ مِنْكَ الْعَالَمِينَا
أَغْرِبَالاً إِذَا اسْتُودِعْتَ سِرّاً وَكَانُونَا عَلَى الْمُتَحَدِّثِينَا
حَيَاتُكَ مَا عَلِمْتُ حَيَاةَ سُوءٍ وَمَوْتُكَ قَدْ يَسُرُّ الصَّالِحِينَا

لَا سِرَّهُنَّ لَدِينَا ضَائِعٌ مَذِقٌ وَكَاتِمَاتٌ إِذَا اسْتُودِعْنَ أَسْرَارًا
وَقَالَ أَيْضًا:

لَيْسَتْ كَمَنْ يَكْرَهُ الْجِيرَانَ طَلَعَتْهَا وَلَا تَرَاهَا لِسِرِّ الْجَارِ تَخْتَلِ
* وتبدو أمامه وهي في شوطها الأخير من الوصايا لابنتها، تسعى بين
معنيين لطيفين، إلا أنهما في غاية الأهمية، وفي غاية سبر أغوار النفس
ومعرفة أسرارها، فكأنها طبيبة اختصاصية بالنفوس وأمراضها، فقد لفتت
نظر ابنتها - أم إياس - إلى مظهر نفسي في غاية الدقة، إذ تحذرها من إظهار
المشاعر المغيرة لمشاعر زوجها، لما يسبب ذلك من ضيق وتذمر في نفس
الزوج، ويعكس عدم المشاركة في مشاعره مقاصد الحياة فتسوء الحياة
الزوجية.

* والحقيقة فهذه لفظة رائعة من هذه الأم الحكيمة التي خبرت الداء
فعرفت الدواء، لذا فيجب على كل زوجة أن تنتبه إلى هذه الناحية الطيبة
التي تساعد وتعضد الحياة الزوجية، وتشد أزرها، وتجعلها متماسكة
كالبنيان المرصوص، وخصوصاً عندما تُؤثر الزوجة رضاء زوجها على
رضاهها، وهواه على هواها^(١)، وعند إذ ترنو إلى ما تحب، وتكتب لها
السعادة، والله - قبل وبعد - هو الموفق.

* وبعد - عزيزي القارئ - فهذه أمانة بنت الحارث إحدى نساء العرب
الفاضلات اللواتي نُظمن في عقد نساء التاريخ، فقد كانت وصاياها نغم رفيق
لمن سلك طريق التوفيق، ويمكن أن نجمل وصاياها بقول القائل:
فَمَنْ تَخَلَّقَ بِالْأَدَابِ ظَلَّ بِهَا

رئيس قوم إذا ما فارق الرؤسا
* وعندما قرأ الكمال المقدسي وصايا أمانة لابنتها قال: لله ما أحسنها

(١) ويكون ذلك بحسن المعاشرة، واللين في المعاملة، والرفق واللفظ بالزوج، قال
الطائفة الذبياني:

فالرفق يمن والأناة سعادة
فتأن في رفق تنل نجاحا
(سير أعلام النبلاء ٥/ ٤٤٥ - ٤٥١).

من وصية جامعة لكل أسباب الهناء والرخاء، والسعادة بين الزوجين، لو عملا بها ما حصل خلاف علي وجه الأرض أصلاً.

* أخيراً، هل تعمل النساء بوصايا أمامة؟! وهل تقتدي نساؤنا بفواضل نساء التاريخ ليكن ممن يحفظهن التاريخ، وتخلدهن ذاكرة الأيام؟.

* * *

رقع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٣

أم البنين بنت عبد العزيز

المشهور، فقد وَرَدَ أَنَّ عَبْدَ الْعَزِيزِ قَدْ بَعَثَ ابْنَهُ عَمْرًا مِنْ مِصْرَ إِلَى الْمَدِينَةِ فَتَفَقَّهَ حَتَّى بَلَغَ رَتَبَةَ الْجَاهِدِ، وَقَدْ اِكْتَسَى عَمْرٌ أَخْلَاقَ أَبِيهِ، وَزَادَ عَلَيْهِ أُمُورًا كَثِيرَةً جَعَلَتْهُ مِنْ نُبَلَاءِ الْأَعْلَامِ وَأَعْلَامِ النَّبَلَاءِ.

* وأخوها: الخليفةُ العادل، أميرُ المؤمنين، أبو حفص عمرُ بنُ عبد العزيز بن مروان الأمويّ، وعمرُ هذا كالقمر، فهل يخفى القمر؟! فعمر هو الإمامُ الحافظ، العلامةُ المجتهدُ، الزاهدُ العابدُ، السَّيِّدُ أميرُ المؤمنين حقًّا، ومن أولياءِ الله المتّقين؛ وجدهَ لأُمِّهِ عاصمُ بنُ عمر بن الخطّاب، ففي عمر بن عبد العزيز نفحةٌ عُمرية، بل نفحاتٌ عمرية ندية منداة برحيقِ عَطْرِ زكي زاكي الأريج، كان فاضلاً حليماً رقيقَ الطّبع، حَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ فِي صَغُرِهِ، وَمَنَاقِبُهُ شَهِيرَةٌ، وَحَسَنُ سِيرَتِهِ الْحَسَنَاءُ، وَأَوْصَافُهُ الْجَمِيلَةُ قَدْ مَلَأَتْ الْوُجُودَ شَهْرَةً. تُوُفِيَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لَخْمَسٍ بَقِيْنَ مِنْ رَجَبِ سَنَةِ (١٠١ هـ) بِدِيرِ سَمْعَانَ مِنْ أَرْضِ حَمَصِ الشَّامِ.

* وزوجةُ أخيها عمر، هي ابنة عمّها فاطمة بنتُ عبد الملك، إحدى فرائد الدهر علماً وأدباً وشرفاً وديناً، وصيانةً وشهرةً، فقد كانت رايات المجد ترفرفُ من فوقها، وتخفقُ أُرْدِيَةُ الْمَكَارِمِ أَمَامَهَا وَعَنْ يَمِينِهَا وَشِمَالِهَا، فَقَدْ كَانَ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنْ مُحَارِمِهَا خُلَفَاءَ؛ وَهُمْ: أَبُوهَا عَبْدُ الْمَلِكِ، وَجَدُّهَا مَرْوَانُ، وَزَوْجُهَا عَمْرٌ، وَإِخْوَتُهَا الْوَلِيدُ وَسُلَيْمَانُ وَهَشَامُ وَيَزِيدُ، وَكَذَلِكَ أَبْنَاءُ إِخْوَتِهَا كَانُوا خُلَفَاءَ؛ وَقَدْ سَجَّلَتْ فَاطِمَةُ هَذِهِ آثَارًا رَاضِيَةً فِي تَارِيخِ النِّسَاءِ عِبْرَ تَارِيخِهنِ الْوُضِيءِ.

* أمّا زوجها: فهو الوليدُ بن عبد الملك، فهل أتاك نبأ الوليد؟ كان نَقَشَ خَاتَمِهِ: أَوْ مِنْ بَالِهِ مَخْلَصًا، وَكَانَ آخِرَ مَا تَكَلَّمَ بِهِ: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ^(١).

* بنى الجامع الأموي فلم يكن له في الدُّنْيَا نظير، وبنى صخرة بيت

(١) انظر: البداية والنهاية (٩/ ١٦٢)، ونهاية الأرب (٢١/ ٣٣٥ - ٣٣٨).

المقدس عَقَدَ عليها القبة، وبنى مسجد النَّبِيِّ ﷺ ووسَّعَهُ^(١).

* كان كثيرَ التَّلَاوةِ للقرآن العظيم، يَخْتُمُ في ثلاثٍ، وكان يَخْتُمُ في رمضانَ سَبْعَ عَشْرَةَ خَتْمَةً، وطابَ حاله في دنياه، ورُزِقَ سعادةً عظيمةً مع جانب الدين، فبنى جامعَ دمشق، وافتتح الهند، والتَّرك، والأندلس، وتصدَّقَ كثيرًا^(٢)، توفي في جمادى الآخرة سنة (٩٦ هـ).

* وأما ضيفُ رحلتنا فهي أُمُّ البنين بنتُ عبد العزيز بن مروان الأمويَّة القرشيَّة^(٣)، أختُ عمر بن عبد العزيز، وزوجُ الوليد بن عبد الملك، وإحدى فقيهاة النساء في القرن الهجري الأوَّل، بل إحدى العابِداةِ الحافظاتِ العالِماتِ المحدثاتِ الطَّاهراتِ الفصيحاتِ الحكيماتِ ذواتِ الرَّأي والحزم والجودِ والسَّخاءِ، ومع وُجودِ هذه الصِّفاتِ الحميدةِ المثلَى، فقد حاولَ بعضُ العاشقين أن يسيءَ إلى سيرتها - كما سنرى بإذن الله -.

* كان مولدُ أُم البنين في المدينة المنورة، وكان مولدها على الأغلب

(١) البداية والنهاية (٩/ ١٦٥).

(٢) قال إبراهيم بن أبي عبلة: كان الوليد يَخْتُمُ القرآن في رمضان سبع عشرة ختمة. وقال أيضاً: رحم الله الوليد، وأين مثل الوليد؟ فتح الهند والسُّند والأندلس وغيرها، وبنى مسجد النبي ﷺ ووسَّعَهُ، وبنى مسجد دمشق، وكان يعطيني قطع الفضة أقسمها على قراء بيت المقدس.

(٣) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤٨٠ وما بعدها)، وانظر: نسب قریش (ص ١٦٥ و ١٦٨)، ومروج الذهب (٣/ ١٩٤ - ١٩٦)، ووفيات الأعيان (٢/ ٤٤ - ٤٦) و (٤/ ١٠٨)، وأعلام النساء (١/ ١٥٠ - ١٥٤)، والفرج بعد الشدة (٤/ ٢٨٢ - ٢٨٥)، والأخبار الموفقيات (ص ٤٧٦ - ٤٧٩)، وتهذيب تاريخ ابن عساكر (٧/ ٢٩٨)، والروضة الفيحاء (ص ٢٦١ و ٢٦٢)، وبلاغات النساء (ص ١٢٤ و ١٢٥)، والشعراء والشعراء (١/ ٥١٠)، والأغاني (٦/ ٢٠٩ - ٢٤١). وزهر الآداب (١/ ٢٤٤ و ٢٤٥) بتحقيق علي محمد البجاوي، والعقد الفريد (٥/ ٣٦ و ١٥٩ و ٢٢٧) و (٧/ ١٣٤) بتحقيق محمد سعيد العريان، وصفة الصفوة (٤/ ٢٩٨ - ٤٠٠) وصفة جزيرة العرب للهمذاني (ص ٣٢٣ - ٣٢٥)، ونوادر المخطوطات (٢/ ٢٧٣)، وغيرها كثير جداً.

بُعِيدَ منتصفِ القرنِ الهجري الأولِ بقليل، ولا نعرفُ بالتحديد من هي أمُّها، إلا أنَّ أغلبَ الذين ترجموا لها من القدامى بقولهم: أمُّ البنين أختُ عمر بن عبد العزيز، وأغلب الظَّنَّ عندي أنَّ أمَّ البنين هذه تنضجُ بنفحةٍ عُمرية، وكانت أيضاً على سيرة أخوها عمر في الصَّلاح والخيرات.

* وكانَ لأمِّ البنين عدَّةُ إخوة، وهم: عمر، عاصم، أبو بكر، محمَّد، الأصْبغ، وسُهَيْل؛ ولها عدَّةُ أخوات بنات، وهُنَّ: أمُّ محمَّد، وأمُّ سُهَيْل، وأمُّ عثمان، وأمُّ الحكم، وهؤلاء من أمَّهات شتَّى^(١). ومن الجدير بالذكر أنَّه لم يحلَّق في سماءِ الشَّهرة من أولادِ عبد العزيز بن مروان غير أمِّ البنين^(٢) وعمر - رحمهما الله -.

* ومن جوانبِ سيرة أمِّ البنين أنَّها تزوجتُ ابنَ عمها الوليد بن عبد الملك، فقد حجَّ الوليد مرَّةً، وزارَ المدينة المنورة، فبلغه جمالُ أمِّ البنين، وأدبها، وعلمها، فخطَّبها من عمِّه، وتزوَّجها ونقلها معه إلى الشَّام، وهي أمُّ أولاده: عبد العزيز، ومحمَّد، وعائشة^(٣).

العابدةُ العالمَةُ الفقيهةُ:

* على مائدةِ العلمِ تغذَّت أمُّ البنين بنت عبد العزيز، ودرجت على منابتِ الثَّقافة الإسلامية، فقرأت القرآن الكريم وهي في سنِّ الزَّهر، وحفظت شيئاً جَمًّا من الأحاديث النبوية وهي في عمر الوَرْد، وروته عن أهله، وهذا ليس

(١) البدايةُ والنهايةُ (٥٨/٩).

(٢) لِمَ كان العربُ يسمون بناتهم أمَّ البنين؟!

يكون الذكور فخراً للأمَّهات، وقوةً لهنَّ، ويُقال للمرأة التي تلدُ الأولاد الكرماء الأشراف: منجبة، ومنجاب، ولم تكن العربُ تُعدُّ منجبةً مَنْ لها أقل من ثلاثة بنين أشراف، وتعرف بـ (أم البنين) كذلك. ومن الصَّحابيَّات التَّحيَّيات المنجبات: أم الفضل زوج العباس بن عبد المطلب - رضي الله عنها وعنه - وأسماؤ بنت عميس - رضي الله عنها - وللمزيد من أخبار هؤلاء اقرأ كتابنا «نساء من عصر النبوة» في جزأيه، ففيه أشياء طيبة مباركة بإذن الله.

(٣) نسب قريش (ص ١٦٥)، وتاريخ دمشق (تراجم النساء ٤٨٠).

بغريب، لأنَّ المدينة المنورة كانت عَصْرَ ذاك مؤنَّل العِلْم والعُلَماء ومجمع الرِّوَاة والفُضلاء، ومركز كلِّ فضيلة، وعاصمة الفقه والرِّوَاية والتفسير والأدب وجميع العلوم؛ وقد نشأت في عَصْر أُمِّ البَينين طبقةٌ ممتازةٌ من النساء اللواتي أثَّرنَ إعجاب علماء الدُّنيا في عَصْرهن وباقي العصور، وأثَّرنَ في العِلْم وأثَّرنَ المعرفة، وتركْنَ آثاراً مباركة في عالم الرِّوَاية المباركة لأحاديثِ المُصطفى ﷺ.

* ولقد أتقنت أُمُّ البَينين - رحمها الله - معارفَ عصرها، فقد أخذت أصول العِلْم عن جَلَّة العُلَماء وأكابر التَّابعين، ومن ثم تصدَّت للحديث والرِّوَاية عندما انتقلت إلى الشَّام مع زوجها الوليد، وهناك راحت تنقلُ ما حفظته لأكابر عُلَماء الشَّام، وتخرَّج في مدرستها عددٌ من علماء العصر آنذاك.

* وقد شهد لأمِّ البَينين بالعِلْم والرِّوَاية الإمامُ الحافظُ، العَلَمُ، الثَّبْتُ، أبو زُرعة عبد الرحمن بن عمرو النَّصري الدمشقي محدِّث الشَّام في زمانه والمُتوفى سنة (٢٨١ هـ)، وذكر في طبقاته جماعةٌ من النسوة اللواتي حدَّثن بالشَّام، وذكر منهن أُمُّ البَينين بنت عبد العزيز بن مروان الأمويَّة، وهي فيمن حدَّث بالشَّام من النساء اللواتي كُنَّ يتقن الرِّوَاية ونقل الحديث النبوي الشريف، وقال: أُمُّ البَينين ابنَةُ عبد العزيز بن مروان، وروى عنها ابنُ أبي عَبلَة^(١).

(١) إبراهيم بنُ أبي عَبلَة، واسم أبي عَبلَة: شِمْر بن يقظان بن عبد الله الشَّامي التَّابعي، كنيته: أبو إسماعيل، من رجال الحديث الثَّقَات، روى عن عددٍ من الصَّحابة وجلة التَّابعين، كان ثقةً، صدوقاً، فصيحاً، فاضلاً، ونقل ابنُ حجر عن ابن عبد البر في «التمهيد» أنَّ ابنَ أبي عَبلَة كان ثقة فاضلاً، له أدبٌ ومعرفةٌ، وكان يقول الشعر الحسن. ووثقه علي بنُ المديني فقال: كان أحد الثَّقَات.

وقال أكابرُ أهل الحديث من مثل: يحيى بن معين، ويعقوب بن سفيان، والنسائي: كان ابنُ أبي عَبلَة ثقةً، كما أثنى عليه إمامُ المحدثين وأميرهم البخاري، وأثنى عليه الدارقطني والذهلي وضمرة بن ربيعة وغيرهم من جلة العلماء. توفي ابن أبي عَبلَة سنة (١٥٢ هـ) - رحمه الله - . (تهذيب التهذيب ١/ ١٦٢ و ١٦٣) طبعة دار الفكر الأولى.

* وأثنى على أمّ البنين، وشهد لها بمعرفة الحديث الإمام الحافظ الكبير أبو نصر علي بن هبة الله بن ماکولا النّسابة صاحب التّصانيف، المولود في شعبان سنة (٤٢١ هـ) والمتوفى في سنة (٤٨٧ هـ) حيث ذكرها في كتابه الشّهير «الإكمال»^(١) فيمن حدّث ورؤي عنه فقال: أمّ البنين^(٢) بنت عبد العزيز بن مروان أخت عمر بن عبد العزيز، روى عنها إبراهيم بن أبي عبلة^(٣).

* وتفصّل سيرة أمّ البنين عن أنّها قد تفقّهت، وعرفت الحلال والحرام، واغتنمت أوقاتها في اقتناص دُرر العلم، وشوارد الفقه، وزهر الآداب، وحلّى المعارف والأخبار.

(١) قال ابن خلكان - رحمه الله -: للأمير أبي نصر بن ماکولا كتاب الإكمال، وهو في غاية الإفادة في رفع الالتباس، والضبط، والتقييد، وعليه اعتمد المحدثون وأرباب هذا الشأن، فإنه لم يوضع مثله - أي: في المؤتلف والمختلف ومشتبه النسب - وهو في غاية الإحسان، وما يحتاج الأمير المذكور مع هذا الكتاب إلى فضيلة أخرى، ففيه دلالة كبيرة على كثرة اطلاعه وضبطه وإتقانه (وفيات الأعيان ٣/٣٠٥).

(٢) ذكر ابن ماکولا - رحمه الله - عدداً من النساء، وكلّ واحدة منهن اسمها «أمّ البنين» وهنّ ست نساء:

أمّ البنين بنت حزام بن خالد، تزوّجها علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - فولدت له العباس وإخوته: عثمان، وجعفر، وعبد الله.
وأمّ البنين بنت الصّعب بن منقذ، روت عن أبيها، وروت عن سلامة بنت عمرو القيسية.

وأمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان أخت عمر بن عبد العزيز، روى عنها إبراهيم بن أبي عبلة.

وأمّ البنين ابنة عياض الأسلمية، روت عنها قسيمة بنت عياض.

وأمّ البنين بنت عيينة بن حصن الفزاري، زوجة عثمان - رضي الله عنه -.

وأمّ البنين بنت عمرو ذي الحبرين بن ربيعة. (الإكمال ١/٥١٨ و ٥١٩).

(٣) انظر: الإكمال (١/٥١٨) طبعة دار الكتب العلمية عام (١٤١١هـ).

* هذا ولم تُغْرِها الشُّرُ المرفوعة، ولا التَّمَارِقُ المصفوفة، ولا الزَّرَابِيُّ المبوثة في قصر زوجها الوليد بن عبد الملك، وإنما كانت تُغْرِها العبادة والوقوف بين يدي الله - عزَّ وجلَّ - فكانت كثيرة الصَّلَاة، تستغرق كثيراً في مناجاة الله تعالى، وتستشعر عظمته، فكانت إذا ما قامت إلى الصَّلَاة تلاشت الصُّورُ كُلُّها من ذهنها، وتلاشى عندها كلُّ ما حَوْلها، ومن عندها، فلا تُعَدُّ تنبُّه إلى أحدٍ، لأنَّ لَذَّةَ المُنَاجَاةِ عندها لا تُدَانِيها لَذَّةٌ.

* حَدَّثَ سعيد بنُ مسلمة بن هشام الأموي قال: كانت أمُّ البنين ابنة عبد العزيز بن مروان تبعثُ إلى نساءها فيجتمعن ويتحدثن عندها، وهي قائمةٌ تصلي، ثم تنصرفُ إليهن فتقول: أحبُّ حديثكن، فإذا قمتُ في صلاتي، لهوتُ عنكن ونسيتكن^(١).

* وكانت أمُّ البنين - رحمها الله - من الذاكرين الله كثيراً والذاكرات، تستحضر مهابة الله، وتستشعر عظمته في نفسها دائماً، وتتعاهدُ كتابه الكريم في العشي والإبكار، وتتحلَّى بسماعه وقراءته، وحفظه ودراسته، ومراجعته ومذاكرته، حتى عَدَتْ ممن عُرِفْنَ بالورع والخوف من الله، فكان إذا مرَّت بها آيةٌ أو سمعتُ آيةً شعرت بالخشية تسري في حنايا قلبها المُفْعَم بذكر الله، لذلك كانت كثيراً ما تردد قولتها المشهورة: ما تحلَّى المتحلِّون بشيء أحسن عليهم من عِظَمِ مهابة الله - عزَّ وجلَّ - في صدورهم^(٢).

* ولعلَّ العبادة قد أثَّرت في أمِّ البنين إلى حدٍّ بعيد، فأثَّرت سيرتها بمواقف رائعة، فواحة بالندى والفضل، فكانت تسمع وترى فتوح البلدان والأمصار على يد زوجها، فعظُم الجهادُ في عينها، وعظُمت مكانته في قلبها، فإذا بها تدلي دلوها في إعزاز المجاهدين ومساعدتهم بكلِّ سبيل، وتجعل أموالها في سبيل الله لتحظى بجزءٍ من شرف الجهاد، فكانت تنفق على المجاهدين، وعلى المُرابطين في سبيل الله، فكانت في كلِّ أسبوع

(١) انظر: صفة الصفوة (٤/٢٩٩).

(٢) صفة الصفوة (٤/٣٠٠).

تشتري فرساً وتعطيه فارساً كيما يجاهد في سبيل الله - عز وجل^(١) - لتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

* وتضيف أم البنين إلى رصيدها في مجال العباداة والتقرب إلى الله إعتاق الرقاب، ولئن كانت تساهم في الجهاد، فقد كانت تعتق في كل جمعة رقبة، وتُعطي من أعتقته شيئاً من مالها ليكون حُرّاً يقدم المفيد لما فيه خير لنفسه وللمجتمع الإسلامي.

وَرَعَهَا وَقَصَّتْهَا مَعَ مُحَمَّدَ بْنِ يُوسُفَ الثَّقَفِيِّ :

* بلغت أم البنين - رحمها الله - مرتبة عالية في مجال الورع، ومراقبة النفس، والخوف من الله - عز وجل - والتقوي في الأمور كلها، فقد كانت تنظر إلى ولاة الأمصار نظرة فاحصة، وتتسقط أخبارهم ممن كانوا يفدون على دار الخلافة في دمشق الشام، لذلك كان لها بعض الآراء الكاشفة لأحوال الرجال، فكانت تتحرى ما يقدمونه من هدايا يبتغون بها عرض الحياة الدنيا وزخرفها المائل، أو رضا زوجها الوليد بن عبد الملك - وإن ظلموا وساموا الناس سوء العذاب - ولذا فإنها كانت ترفض بشدة وحزم كل هدية تأتيها من مكان فيه مجال للظن، أو من مال أخذ بسيف الحياء، أو اغتصب من قبل الولاة والأمراء.

* ولأم البنين قصة رائعة في هذا المجال تشير إلى عظم ورعها، ونبل زهداها، وتدل على علو همتها، كما تؤكد على طيب عرقها، وحسن منبتها، وكمال تحريها للحلال والبعد عن الحرام.

* وهذه القصة حدثت مع محمد بن يوسف الثقفي أخي الحجاج بن يوسف؛ فقد كان محمد بن يوسف هذا والياً على اليمن، وكانت سيرته غير محمودة في الناس. وقد وصفه أحد أهل اليمن عندما كان في أداء فريضة الحج، فاستدعاه الحجاج بمكة وسأله: كيف خلفت محمد بن يوسف؟! يعني: أخاه! - وكان عامله على اليمن -.

(١) المصدر السابق (٢٩٩/٤).

فقال الرَّجل : خلفته عظيمًا جسيمًا خراجًا ولآجًا.

قال الحجاجُ : ليسَ عن هذا سألتُكَ ، كيف خلفتَ سيرته في الناس ؟

قال اليميني : خلفته ظلومًا ، غشومًا ، عاصيًا للخالق مُطيعًا للمخلوق^(١) ! .

* أمّا قصّة أمّ البنين مع محمّد بن يوسف الثّقفي ، فقد أوردها أميرُ المؤرخين محمّد بن جرير الطّبري في تأريخه الثّقيس^(٢) ، وأشار إلى ورع أمّ البنين وتحريّها أخبار محمّد بن يوسف وظلمه فقال ما مفاده : حجّ الوليد بن عبد الملك في إحدى سني خلافته ، وحجّ في تلك السّنة من اليمنِ محمد بن يوسف الثّقفي ؛ وكان محمّد بن يوسف قد علّم بحجّ الوليد ، فحمل معه من طرائف اليمن وتحفها أشياء كثيرة ، وقدمها هدايا للخليفة الوليد بن عبد الملك .

* ولما فرغ النَّاسُ من مناسك الحجّ جاءَ الولاةُ والأمرء ، وسلموا على الوليد ، وكان محمّد بن يوسف ممن قدم للسلام وتقديم الهدايا ، وعلمت أمّ البنين بذلك ، فقالت لزوجها الوليد : يا أمير المؤمنين ! أودّ لو تجعل لي هدية محمّد بن يوسف الثّقفي ، فإني أحبُّ هدايا اليمن .

فقال الوليد : حبًّا وكرامة يا بنة العمّ ! ثم أمرَ بأن تُساق الهدية إلى زوجته أمّ البنين ، وجعلَ لها حرية التّصرف فيها . وانطلقتْ رسلُ أمّ البنين إلى محمد بن يوسف كي يأتوا بالهدية ، ولكنّ محمّد بن يوسف أبى ذلك ، وقال لهم : لن أرسلها حتى ينظرَ فيها أمير المؤمنين ، ويرى رأيه فيها - وكانت هدايا كثيرة - .

وأخبر الرُّسلُ أمّ البنين بمقولة محمّد بن يوسف ، فدخلت على زوجها وقالت له : يا أمير المؤمنين ، لقد أمرتَ بهدايا محمد بن يوسف أن تُساق إليّ ، وإنّي أصدقك القول بأنّه لا حاجة لي بهداياه .

(١) انظر : العقد الفريد (٧/٤) بتحقيق : محمد سعيد العريان ، بتصرف يسير جداً .

(٢) أي : كتابه : «تاريخ الأمم والملوك» المشهور : بتاريخ الطبري .

فقال الوليد متعجباً: وَلِمَ يَا أُمَّ الْبَنِينَ، أَلَمْ تَطْلُبِي ذَلِكَ؟!

قالت: يا أمير المؤمنين قد بلغني أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ يُوسُفٍ قد غَضِبَهَا النَّاسُ فِي الْيَمَنِ، وَقَدْ كَلَّفَهُمْ مَا لَا يَطِيقُونَ، وَظَلَمَهُمْ وَأَرْغَمَهُمْ عَمَلَهَا، وَمَنْ خَالَفَهُ أَنْزَلَ بِهِ أَلِيمَ الْعِقَابِ.

* وَحَمَلَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفٍ الْهَدَايَا إِلَى الْوَلِيدِ لِيَنْظُرَهَا، فَطَلَبَهُ الْوَلِيدُ وَقَالَ لَهُ: يَا بَنَ يُوسُفَ، قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكَ أَصَبْتَ الْهَدَايَا غَضَباً وَظُلماً.
قال: معاذَ اللَّهِ! يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ مَا أَصَبْتُهَا إِلَّا مِنْ طَيِّبٍ.

فَأَمَرَ الْوَلِيدُ، فَاسْتُخْلِفَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ خَمْسِينَ يَمِيناً بِاللَّهِ أَنَّهُ مَا غَضِبَ أَحَدٌ شَيْئاً مِنْهَا، وَلَا ظَلَمَ أَحَدًا، وَأَنَّهُ مَا أَصَابَهَا إِلَّا مِنْ طَيِّبٍ، وَمِنْ حَلَالٍ. فَحَلَفَ مُحَمَّدُ بْنُ يُوسُفَ بَيْنَ الرُّكْنِ وَالْمَقَامِ؛ وَعِنْدَ ذَلِكَ قَبِلَ الْوَلِيدُ الْهَدِيَّةَ، وَمِنْ ثَمَّ دَفَعَهَا إِلَى أُمِّ الْبَنِينَ، وَلَكِنَّ مُحَمَّدَ بْنَ يُوسُفَ لَمْ تَطَّلُ بِهِ الْحَيَاةَ بَعْدَهَا، فَمَاتَ فِي رَجَبِ سَنَةِ (٩١ هـ) أَصَابَهُ دَاءٌ شَدِيدٌ تَقَطَّعَ مِنْهُ^(١).

(١) انظر: تاريخ الطبري (٣٠/٤) بتصرف، طبعة دار الكتب العلمية الثانية (١٤٠٨ هـ).

وَمِنَ الْمَفِيدِ هُنَا أَنَّ نَشِيرَ إِلَى أَنَّ الْحِجَاجَ بْنَ يُوسُفَ قَدْ مَاتَ ابْنَهُ صَبَاحَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ مِنْ سَنَةِ (٩١ هـ) وَلَمَّا كَانَ بِالْعِشِيِّ أَتَاهُ بَرِيدٌ مِنَ الْيَمَنِ بِوَفَاةِ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ، فَفَرَحَ أَهْلُ الْعِرَاقِ وَقَالُوا: انْقَطَعَ ظَهْرُ الْحِجَاجِ وَهَيْضَ جَنَاحِهِ، فَخَرَجَ فَصَعِدَ الْمَنْبِرَ، ثُمَّ خَطَبَ النَّاسَ خُطْبَةً مِنْهَا قَوْلُهُ: أَيُّهَا النَّاسُ مُحَمَّدَانِ فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ! أَمَّا وَاللَّهِ مَا كُنْتُ أَحِبُّ أَنْهُمَا مَعِيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لَمَّا أَرْجُو مِنْ ثَوَابِ اللَّهِ لَهُمَا فِي الْآخِرَةِ... ثُمَّ تَمَثَّلَ بِهِذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ:

عَزَائِي نَبِيُّ اللَّهِ مِنْ كُلِّ مَيِّتٍ وَحَسْبِي ثَوَابُ اللَّهِ مِنْ كُلِّ هَالِكٍ
إِذَا مَا لَقِيتُ اللَّهَ عَتَيَ رَاضِيًا فَإِنَّ سُرُورَ النَّفْسِ فِيمَا هُنَاكَ
ثُمَّ نَزَلَ، وَأَذِنَ لِلنَّاسِ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ يَعْزُونَهُ، وَدَخَلَ الْفَرَزْدَقُ، فَقَالَ لَهُ الْحِجَاجُ:

يَا فَرَزْدَقُ، أَمَا رَثِيْتُ مُحَمَّدًا وَمُحَمَّدًا؟ قَالَ: نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ، وَأَنْشَدَهُ:

إِنَّ الرِّزْيَةَ لَا رِزْيَةَ مِثْلَهَا فَكِدَانُ مِثْلِ مُحَمَّدٍ وَمُحَمَّدٍ
مَلِكًا قَدْ خَلَّتِ الْمَنَابِرُ مِنْهُمَا أَخَذَ الْحِمَامُ عَلَيْهِمَا بِالْمَرْصِدِ=

قَصَّتْهَا مَعَ الْحَجَّاجِ بْنِ يُوسُفَ :

* يبدو أنَّ أُمَّ البنين - رحمها الله - كانت لا ترتاحُ إلى أبناءِ يوسف الثَّقَفِي، فقد رأينا موقفها مع ابنه محمد بن يوسف، والآن سنتعرَّف قصَّتها مع أخيه الحجَّاج الذي حجَّته بقوة حجَّتها، واستطالت عليه ببلاغتها وبيانها.

* إنَّ الذي يقرأُ سيرةَ هذه الفاضلة، يطلُّعُ على ألوانٍ وضيئةٍ من بلاغتها التي تسحرُ الألباب، كما يتعرَّفُ بعضَ جوانبِ الفصاحةِ وفُضْلِ الخطاب، فهي امرأةٌ من نوعٍ فريدٍ تمتلكُ ناصيةَ البيان، وغيرةَ البلاغةِ، وقوةَ الإقناع، وجمالَ الحجة، ولا غرابةَ في هذا، فأُمُّ البنين إحدى النساء اللواتي تذوَّقْنَ اللغةَ وعرفنَ طعمها، فأثَّرتُ عنهن كلمات رائعات ظلَّتْ تقرعُ أبوابَ البلاغةِ على مرِّ الأَيَّامِ.

* ولعلَّ قَصَّتْهَا مع الحجَّاجِ بنِ يوسف، وما تفوهتُ به من بليغِ الكلام، وما قرعته بالحجة، لدليلٍ على ذلك، ودليلٌ على فضلِها، ومضاءٍ عزيمتها، وثباتِ قلبها، فهل أتاكَ خبرُ ذلك؟

* المصادرُ العديدة وافتنَّا بالقصةِ كاملة على أتمِّ الوجوه، وأبانتُ جوانبَ وضيئةَ في حياة أُمِّ البنين، وكشفتُ النَّقابَ عن فضائلها ومكارمها، من ذلك احترامها الشَّدِيدَ للصَّحابة والصَّحابيات، ومعرفة أقدارهم، كما سيظهرُ ذلك في معرفتها قَدَرَ الصَّحابيةِ الجليلةِ أسماء بنت أبي بكر الصَّدِّيقِ وابنها

= وأنشده كذلك أبيات أخرى، فقال له : أحسنت، وأمر له بصلة.

انظر: (العقد الفريد ٢٨١/٥)، و(وفيات الأعيان ٥٤/٢)، و(مرآة الجنان ١٩٥/١).

ومما يُستجاد ذِكرُهُ في هذا المقام أنَّ الحجَّاج كان إذا سمعَ أحداً ينوحُ في دارٍ، أمرَ بهدمها، فلما مات ابنه وأخوه، حنَّ إلى النوح، وكان يعجبه أن يسمعه، وكان كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

هل ابنك إلا ابنٌ من النَّاسِ فاضْبِري
فلنْ يُرجِعَ الموتى حنينُ المآتمِ
وكان يتمثل بهذا البيت أيضاً وهو :
فإنْ تَحْتَسِبْ تُوجَزْ وإنْ تبكِ تَكُنْ
كباكيةٍ لم يُخيِّ مَيِّتاً بكاؤها

عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهم أجمعين - .

* تقولُ القصةُ: وفدَ الحجاجُ بنُ يوسفَ على الوليد بن عبد الملك في مقرِّ خلافته بالشَّام، فوجده في بعضِ نُزهِهِ، فاستقبله، فلمَّا رآه الحجاجُ نزلَ عن فرسه، وتقدَّم فقبل يده، وجعلَ يمشي بجانبه، وعليه درعٌ وكنانةٌ وقوسٌ عربية؛ فقال الوليدُ للحجاج: اركبُ أبا محمَّد.

فأجابه الحجاجُ في نبرة الخضوع: يا أمير المؤمنين، دعني أستكثرُ من الجهادِ وفي خدمتك، فإنَّ عبدَ الله بنَ الزبير، وعبد الرحمن بن الأشعث قد شغلاني عنك.

فأقسم الوليدُ وعزم عليه حتى امتطى صهوة الجوادِ، وركبَ حتى وصلا دار الوليد بن عبد الملك.

* ودخل الوليدُ داره، ونزعَ ثيابه، ثمَّ تَغَلَّلَ في غِلالة^(١)، ثم إنَّه أذن للحجاج بالدخولِ عليه، فدخلَ الحجاجُ على الوليد وهو في حاله تلك، وطابَ له الحديث، فأطالَ الجلوسَ عند الوليد، ونُمي الخبرُ إلى أمِّ البنين أنَّ رجلاً عند زوجها الوليد، وهو في عدَّةِ الحرب بيده رمحٌ، وعلى رأسه بَيْضَةٌ، وعلى وجهه مِغْفَرٌ، يتوشَّحُ سيفاً صقيلاً، وخلفَ ظهره كنانةٌ قد غصَّتْ بالتِّبَالِ والسَّهامِ، فأوجستْ خيفةً في نفسها مِنْ هذا الرجل، فبعثتْ جاريتها إلى الوليدِ تسأله: مَنْ هذا الأعرابي الجَلْفُ المستلثمُ^(٢) في السِّلَاحِ عندك، وأنتَ في غِلالةٍ غرُّ؟!

* وجاءتِ الجاريةُ الوليدَ على استحياءٍ وحَذَرٍ، فسارته بما أمرتها به أمُّ البنين، فأخبرها أنَّ جليسه إنَّما هو الحجاج، وأمرها أن تخبرَ أمَّ البنين بالأمر.

(١) «الغِلالة»: شعار يُلبَسُ تحت الثوب لأنه يُتغلل فيها، أي: يُدخل (لسان العرب مادة غلل) و(مختار الصحاح).

(٢) «المستلثم»: استلأم الرجل؛ إذا لبس ما عنده من عدة السلاح، كالرمح والسيف وأدوات الحرب.

تخاف ولا تضطرب، ولتطمئن، فأبلغت الجارية أم البنين الخبر، فراعها ذلك.

* ولحظ الحجاج أن الوليد قد قال للجارية شيئاً، وعرف الوليد مقصده فقال له: أتدري ما هذا أبا محمد؟! قال: لا والله يا أمير المؤمنين.

فقال الوليد: إن ابنة عمي أم البنين بنت عبد العزيز قد بعثت تقول لي: ما مجالستك هذا الأعرابي الغارق في سلاحه، وأنت في غلالة، ألا تخشى غدره منه؟! فأرسلت إليها، وأخبرتها بأنه الحجاج بن يوسف.

* وصمت الوليد هنيهات، فإذا بالجارية نفسها تعود مسرعة لتتقل للوليد مشاعر أم البنين، وتقول له: يا أمير المؤمنين، والله ما أحب أن يخلو بك وقد قتل الخلق، وأهل الطاعة والحق، والله لأن يخلو بك ملك الموت، أحب إلي من أن يخلو بك الحجاج بن يوسف!!

* وذعر الحجاج بن يوسف ذعراً شديداً لرأي أم البنين فيه، ومقاتلتها عنه، لكنه أظهر الجلد، وتوجه إلى الوليد، وحذره بصفة الناصح الأمين من النساء، فقال له: يا أمير المؤمنين، دع عنك مفاكهة النساء بزخرف القول، فإنما المرأة ريحانة، وليست بقهرمانة^(١)، فلا تطلعهن على سرّك، ولا على مكيدة عدوك، فإن رأيهن إلى أفن^(٢)، وعزمهن إلى وهن^(٣)، ولا تملك الواحدة منهن من الأمور ما يجاوز نفسها، ولا تطمعها أن تشفع عندك لغيرها، ولا تطل الجلوس معهن، فإن ذلك أوفر لعقلك، وأبين لفضلك.

* ولما انتهى الحجاج من مقالته، استأذن الوليد فأذن له، فنهض وخرج

(١) «القهرمان»: هو كالحازن والوكيل الحافظ لما تحت يده، والقائم بأمور الرجل، وهي لفظة فارسية.

(٢) «أفن»: يقال: أفن الناقة يأفنها: حلبها في غير حينها، فيفسدها ذلك. والمأفون: الضعيف الرأي والعقل.

(٣) «وهن»: ضعف.

إلى معسكره، ودخل الوليدُ على زوجته أم البنين، فحدّثها برأي الحجاج في جماعة التّسوة، ومقالته فيهن، وخبرته إياهن.

* فَاسْرَتْ أُمُّ الْبَنِينَ ذَلِكَ فِي نَفْسِهَا، وَلَمْ تُبْدِ شَيْئاً لَزَوْجِهَا، ثُمَّ إِنَّهَا تَقَدَّمَتْ مِنَ الْوَلِيدِ بِأَدَبٍ وَاسْتِحْيَاءٍ وَقَالَتْ لَهُ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَتَسْمَحُ أَنْ أَطْلُبَ مِنْكَ شَيْئاً؟!

قال الوليد: وما هو يا أم البنين؟

قالت: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَحَبُّ أَنْ تَأْمَرَ الْحَجَّاجَ بْنَ يُوسُفَ بِالتَّسْلِيمِ عَلَيَّ فِي الْعَدُوِّ.

قال: أفعل إن شاء الله تعالى يا بنة العم.

* وَفِي الْيَوْمِ التَّالِي، قَدِمَ الْحَجَّاجُ مَبْكَراً عَلَى الْوَلِيدِ، فَاسْتَأْذَنَ عَلَيْهِ، فَأَذِنَ لَهُ، فَلَمَّا اسْتَقَرَّ بِهِ الْجُلُوسُ قَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، صِرْ إِلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، فَسَلِّمْ عَلَيْهَا.

فقال الحجاجُ وقد علاهُ الوجوم: اعفني من ذلك يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنَّ شَيْئاً.

قال الوليد: ويحك لا بدّ من ذلك، ولتفعَلَنَّ.

* وَلَمَّا وَجَدَ الْحَجَّاجُ أَنَّه لَا مَفْرَءَ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا بَدَ مِنْهُ، قَالَ: سَمِعاً وَطَاعَةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؛ ثُمَّ مَضَى الْحَجَّاجُ إِلَيْهَا وَقَدْ سَقَطَ فِي يَدِهِ، فَهُوَ يَدْرِكُ مَنْ هِيَ أُمُّ الْبَنِينَ، وَيَدْرِكُ مَكَانَتَهَا فِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَفِي دِمَشْقِ الشَّامِ، وَهُوَ يَعْلَمُ رَأْيَهَا مِنْ قَبْلُ فِي أَخِيهِ مُحَمَّدَ بْنَ يُوسُفَ، وَمَا صَارَ إِلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ خَفِيَ عَلَيْهِ مَا سَتَقُولُ لَهُ الْآنَ، بَلْ مَا سَيَسْفُرُ عَنْهُ هَذَا اللَّقَاءُ.

* وَعَلِمَتْ أُمُّ الْبَنِينَ بِقُدُومِهِ، فَأَمَرَتْ بِحُجْبِهِ طَوِيلاً، وَوَقَفَ فِي ذِلَّةٍ أَمَامَ مَقْصُورَتِهَا يَضْرِبُ أَخْمَاساً بِأَسَدَاسٍ، وَبَعْدَ مَدَّةٍ طَوِيلَةٍ أَمَرَتْ الْخَادِمَ بِالْإِذْنِ لَهُ، فَدَخَلَ، فَتَرَكْتَهُ قَائِماً عَلَى قَدَمِيهِ، وَلَمْ تَأْذِنْ لَهُ فِي الْجُلُوسِ، وَإِنَّمَا

ابتدرته قائلة من وراء سترتها: ^(١) يا حجاج، أنت الممتنُّ على أمير المؤمنين بقتل عبد الله بن الزبير ابنِ حواري رسول الله ﷺ، الصَّوامِ القَوَّامِ، المستغرقِ السَّاعاتِ في الطَّاعاتِ، ذي المناقبِ الشَّهيرةِ الكثيرةِ؟! وابنِ أسماءِ ذاتِ النُّطاقينِ؟ ^(٢) وأوَّلَ مولودٍ وُلِدَ بالمدينةِ المنورةِ من المسلمين بعد الهجرة؟! يا حجاج وأنت الممتنُّ على أمير المؤمنين بقتل عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث؟! .

* ثُمَّ إِنَّ أُمَّ الْبَنِينَ قَرَعَتْ الْحَجَّاجَ، وَذَكَرَتْ بَعْضَ فِظَائِعِهِ، وَجَرَائِمِهِ، وَأَبَانَتْ لَهُ قُبْحَ مَنْظَرِهِ، وَسَوْءَ مَخْبَرِهِ، وَشَرِاشَةَ خَلْقِهِ، ثُمَّ أَتْبَعَتْ ذَلِكَ بِقَوْلِهَا: وَيْحَكَ يَا بَنَ يُوسُفَ، أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَلِمَ أَنَّكَ شَرُّ خَلْقِهِ، وَأَهْوَنُ خَلْقِهِتِهِ مَا ابْتَلَاكَ بِرَمِيِ الْكَعْبَةِ بِحِجَارَةِ الْمَنْجَنِيْقِ، وَقَتْلِ التَّقِيِّ النَّقِيِّ ابْنِ ذَاتِ النَّطَاقَيْنِ؛ فَأَمَّا ابْنُ الْأَشْعَثِ فَقَدْ وَاللَّهِ وَالِيٌ عَلَيْكَ الْهَزَائِمُ ^(٣) حَتَّى لُدْتَ بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، فَأَغَاثَكَ بِأَهْلِ الشَّامِ، وَأَنْتَ فِي أَضْيَقٍ مَا يَكُونُ مِنْ أَمْرِكَ، وَأَوْهَنٍ مِنْ بَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، فَأَظْلَمْتَكَ رَمَاحُهُمْ، وَحَجَبْتَكَ عَنِ الْأَخْطَارِ سِيوفُهُمْ، وَنَصَرْتَكَ عَزِيْمَتُهُمْ، وَقَهَرَ الْأَعْدَاءَ كِفَاحُهُمْ! .

* وَأَمَّا نَهْيُكَ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ مِفَاكِهِ النَّسَاءِ، فَلَطَالَمَا نَفَضَ نِسَاءُ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمِسْكَ مِنْ غَدَائِرِهِنَّ، وَالْحَلِيَّ مِنْ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ، وَبِعْنَهُ فِي الْأَسْوَاقِ حَتَّى أَخْرَجَ فِي أُعْطِيَاتِ أَهْلِ الشَّامِ إِلَيْكَ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكُنْتَ أَذَلَّ مِنَ الْبَقَّةِ .

(١) «إِيهِ»: اسْمُ فَعْلٍ أَمْرٍ، وَمَعْنَاهُ: الْاسْتِزَادَةُ مِنْ حَدِيثٍ مَعْهُودٍ، وَإِذَا نَوَّتَهُ كَانَ لِلْاسْتِزَادَةِ مِنْ حَدِيثٍ مَا . وَقَدْ جَاءَ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَقَفْنَا فَعَلْنَا إِيهِ عَنْ أُمِّ سَالِمٍ وَمَا بَالُ تَكْلِيمِ الدِّيَارِ الْبَلَّاقِعِ
(٢) اِقْرَأْ سِيرَةَ أَسْمَاءِ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - فِي كِتَابِنَا «نِسَاءُ مَبْشُرَاتِ بِالْجَنَّةِ» طَبْعَةً ثَالِثَةً، فِي سِيرَتِهَا إِمْتِنَاعٌ لِلْأَسْمَاعِ، وَنَزْهَةٌ لِلْقُلُوبِ الْعَطْشَى إِلَى الْمَعْرِفَةِ، وَفَائِدَةٌ كَبِيرَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

(٣) قِيلَ: كَانَ بَيْنَ الْحَجَّاجِ وَابْنِ الْأَشْعَثِ أَرْبَعٌ وَثَمَانُونَ مَوْقَعَةً، ثَلَاثٌ وَثَمَانُونَ عَلَى الْحَجَّاجِ، وَوَاحِدَةٌ كَانَتْ لِلْحَجَّاجِ .

* ويحك يا حجاج! إن ما أشرت به على أمير المؤمنين من ترك لذاته، والامتناع عن بلوغ أوطاره من نسائه، فإنه غير قابل منك ذلك، ولا مُصْغٍ إلى نصيحتك، فإن كانتِ النساء يلدن مثلك كما ولدت أمك، فما أحقه بالأخذ عنك، والقبول منك، ولا مصغٍ إلى نصيحتك. فوجم الحجاج، وفغر فاه، ولم يُحر جواباً.

* ثم إنَّ أمَّ البنين تابعتْ تقريعها الحجاج وقالت تعيره بفراره من امرأة: قاتل الله الشَّاعر وقد نظرَ إليك، وسِنَانُ غزاةِ الحرورية^(١) ..

(١) غزاةُ الحرورية: امرأة أبي الضحَّاك شبيب بن يزيد بن نعيم الشَّيباني الخارجي، بطل الخوارج وقائدهم في عهد عبد الملك بن مروان، والحجاج بن يوسف الثقفي.

ولدت غزاة هذه في مدينة الموصل، وهي من شهيرات النساء، وكانت من الشَّجاعة والفروسية بالموضع العظيم، وكانت من الذين دوخوا البلاد، وملؤوا بالربح قلوب العباد، خرجت مع زوجها شبيب سنة (٧٦ هـ) على عبد الملك بن مروان أيام ولاية الحجاج على العراق، فكانت تقاتل في الحروب بنفسها، حتى ملأت الأفواه خبراً، والأرض عبراً، وحتى إن الحجاج نفسه قد هرب منها في بعض الوقائع، ولاذ بالفرار، فعيده حطان بن عمران بذلك في قوله: «أسد علي وفي الحروب نعام» الأبيات . . .

وبلغت غزاة من الجسارة وقوة القلب ما خلع قلب الحجاج وغيره منها، فقد كانت قد أقسمت ونذرت أن تدخل مسجد الكوفة فتصلي فيه ركعتين، تقرأ في الأولى: سورة «البقرة»، وفي الثانية: سورة «آل عمران» فأتت الجامع في سبعين رجلاً، فصلت فيه الغداة، ووفت بنذرهما، فقبل فيها:

وَفَتْ غَزَالَةً نَذَرَهَا يَا رَبِّ لَا تَغْفِرْ لَهَا
وتدلُّ أخبارُ غزاة أنَّها قد هزمت للحجاج بن يوسف الثقفي خمسة جيوش خضارم، حتى أضحت أرض العراق وما حولها ترتجف إذا ما ذُكرت غزاة، وفي ذلك يقول أيمن بن خريم:

أَقَامَتْ غَزَالَةُ سَوْقِ الضَّرَابِ لِأَهْلِ الْعِرَاقَيْنِ شَهْرًا قَمِيطًا
سَمَتْ لِلْعِرَاقَيْنِ فِي جَمْعِهَا فَلَا قِيَّ الْعِرَاقَانِ مِنْهَا بَطِيطًا
ومن الجدير بالذكر أنَّ حَمَاةَ غزاة - أي: أم زوجها شبيب - واسمها جَهيزَة، كانت =

بين كتفك حيث يقول :

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَتَحَاءَ تَنْفَرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ
هَلَّا بَرَزْتَ إِلَى غَزَالَةٍ فِي الْوَعَى أَمْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرِ
صَدَعْتَ غَزَالَةَ قَلْبِهِ بِفُؤَارِسٍ تَرَكْتَ نَوَاطِرَهُ كَأَمْسِ الدَّابِرِ

* ثم إِنَّ أُمَّ البنين قالت لجواربها: أخرجوه عني، فأخرجوه مقبوحاً لا يعرفُ الطريقَ لدهشته، ولما ناله من أُمِّ البنين، فدخل على الوليد من فوره فقال له الوليد: يا أبا محمد! ما كنتَ فيه؟ فقال الحجاجُ وهو يلتقط أنفاسه: والله يا أمير المؤمنين ما سكنتُ أُمَّ البنين حتى كان بطنُ الأرض أحبَّ إليَّ من ظهرها، وما ظننْتُ أنَّ امرأةً تبلغُ بلاغتها، وتحسن فصاحتها، وتدلي حجتها. فضحك الوليدُ حتى استلقى، وفحصَ برجليه الأرضَ ثم قال: يا حجاج، إنَّها ابنة عبد العزيز بن مروان^(١).

وعاد الحجاجُ من حيثُ أتى، عاد إلى العراقِ وهو لا ينسى ذلك الدرسَ القاسي الذي لفتته له أُمُّ البنين، حتى مات في سنة (٩٥ هـ)^(٢).

= امرأة شجاعة تشهد الحروب، وتخوض غمارها، وقد قُتِلَتْ جَهِيزَةً مع غزاة سنة (٧٧ هـ).

قُتِلَتْ غزاة خدعة في موقعة الكوفة بين شبيب زوجها، وبين الحجاج بن يوسف الثقفي، وكان قد قتلها خالد بن عتاب الرياحي. هذا وأخبار غزاة مشهورة في كتب الأدب والأخبار والتراجم والتاريخ وغيرها.

(١) عن وفيات الأعيان (٢/٤٤ و ٤٥)، ومروج الذهب (٣/١٦٧ - ١٦٩) مع الجمع والتصرف. وانظر: الأخبار الموفقيات (من ٤٧٦ - ٤٧٩)، والعقد الفريد (٥/٤٣)، وعيون الأخبار (١/١٦٩)، والنجوم الزاهرة (١/١٩٦)، وبلاغات النساء (ص ١٢٤ و ١٢٥)، وقصص العرب (٢/١٤٥ و ١٤٦)، وأعلام النساء (١/١٥٠ - ١٥٢) وغيرها.

(٢) قال ابنُ العماد في «الشذرات» في مفتتح سنة (٩٥ هـ) نقلاً عن اليافعي في «مرآة الجنان»: فيها أراحَ اللهُ العبادَ والبلادَ بموتِ الحجاج بن يوسف الثقفي، في ليلة مباركة على الأمة، ليلة سبع وعشرين من رمضان. وكان شجاعاً مقداماً مهيباً مفوهاً =

سَخَاؤُهَا وَأَقْوَالُهَا فِي الْجُودِ:

* السَّخَاءُ سَجِيَّةٌ أَصِيلَةٌ بِنَفْسِ أُمِّ الْبَنِينَ - رحمها الله - فقد كانت حكيمةً تضعُ العطاءَ في مواضعه، تتوخى بذلك مرضاة الله ورضوانه، وهي طيبةُ النَّفْسِ، راضيةُ القلبِ، مؤمّلةُ الثَّوابِ في الآخرة.

* وليس ذا ببعيد عن أُمِّ الْبَنِينَ، فأبوها عبد العزيز بن مروان من خيار الأمراء، وكان كريماً جَوَاداً ممدحاً، ومن كلامه في الجود والسَّخَاءِ قوله: عجباً لمؤمن يؤمن ويوقن أنَّ الله يرزقه ويخلفُ عليه، كيف يحبسُ مالا عن عظيم أجر، وحسن ثناء^(١).

* من هذه الأخلاقِ الفاضلة، والمكارمِ النَّبيلة، استقت أُمُّ الْبَنِينَ فضائلها، وعززتها بمحبَّتها لفضيلةِ الجود والإنفاق في سبيلِ الله حتى غدا السَّخَاءُ عادتها:

لَهَا سَحَائِبُ جُودٍ فِي أَنَامِلِهَا أَمْطَارُهَا الْفِضَّةُ الْبِيضَاءُ وَالذَّهَبُ

* كما غدا فِعْلُ الْخَيْرِ مِنْ أَخْلَاقِهَا:

تَعَوَّدَ فِعَالُ الْخَيْرِ جَمْعاً فَكُلُّ مَا تَعَوَّدَهُ الْإِنْسَانُ صَارَ لَهُ خُلُقاً

= فصيحاً سفاكاً. . . وله مقحّمات عظام، وأخبار مهولة. (مرآة الجنان ١/ ١٩٢).
(شذرات الذهب ١/ ٣٧٧).

أمّا الإمامُ الذهبي - رحمه الله - فَلَهُ رَأْيٌ جَمِيلٌ فِي الْحِجَاجِ، يَشِيرُ إِلَى مَدَى تَبَحُّرِ
الذهبي في العِلْمِ ومعرفةِ الرِّجَالِ، بل ويشير إلى المكانة العلمية التي يتمتع بها
الذهبي حينما يحكم على الرِّجَالِ. قال الذهبي عن الحجاج: وله حسناتٌ مغمورةٌ
في بحرِ ذنوبه، وأمره إلى الله. (سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٤٣).

وقال فيه ابنُ حجر - رحمه الله -: كان فصيحاً بليغاً فقيهاً، وكان يزعم أنَّ طاعةَ
الخليفةِ فرضٌ على النَّاسِ في كلِّ ما يروحه، ويجادل عن ذلك. (تهذيب التهذيب
١٨٦/٢ - ١٨٩) وقرأ رأي ابن حجر وآراء العلماء فيه في الترجمة نفسها.

وعندما استعرض ابن كثير - رحمه الله - ترجمة الحجاج قال فيه: كان حريصاً على
الجهاد، وفتح البلاد، وكان يعطي على القرآن كثيراً. (البداية والنهاية ٩/ ١٣٩).

(١) انظر: البداية والنهاية (٨٥/٩).

* وكذلك أصبح فعلُ الخيرِ ديدنها، وهدفَ نفسها الكريمة التي هذبتها وربّتها على مكارم الأخلاق :

وَمَا النَّفْسُ إِلَّا حَيْثُ يَجْعَلُهَا الْفَتَى فَإِنْ أُطِمِعَتْ تَأَقَّتْ وَإِلَّا تَسَلَّتْ

* ولذلك فقد أثرتُ عنها هذه العبارة الطيّبة الكريمة: جُعِلَ لكلِّ قومٍ نَهْمَةٌ في شيءٍ، وجعلتْ نهمتي في البذلِّ والإعطاء، واللهِ لِلصَّلةِ والمواساةِ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الطَّعَامِ الطَّيِّبِ عَلَى الْجُوعِ، ومن الشَّرَابِ الباردِ عَلَى الظَّمَا^(١).

* وقد حُبَّبَ الإنفاقَ إلى أمِّ البنين، والتَّحدُّثَ بنعمِ الله عليها، فكانت ترى هذه الأشياءَ بعين الرِّضا، لكي تنفقَ ما يأتيها في الطُّرُقِ التي تؤدِّي إلى مرضاةِ الله تعالى؛ لذلك كانت ترى أَنَّ النِّعمَ أحسنَ شيءٍ؛ فقد قيل لها: يا أمِّ البنين، ما أحسنَ شيءٍ رأيته؟

فأجابتُ بكلماتٍ مندّاةٍ بعبيرِ الشُّكرِ: نِعَمُ اللهِ مَقْبَلَةٌ عَلَيَّ^(٢).

* وكانت أمُّ البنين تكرهُ البخلَ والبُخلَاءَ، وتبتعدُ عن سُبُلِ البخلِ بكلِّ الوسائلِ، حتى لو كان البخلُ لباساً لطرحته؛ قال إبراهيم بن أبي عبلة: سمعتُ أمَّ البنين أختَ عمر بن عبد العزيز تقول: أَفٍ لِلْبُخْلِ! واللهِ لو كان طريقاً ما سلكته، ولو كان ثوباً طريفاً ما لبسته^(٣).

* إِنَّ هَذَا النَّفْسَ اللَّطِيفَ - كراهيةِ البُخْلِ والبُخْلَاءِ - قد ورثته أمُّ البنين عن أبيها أيضاً، فقد كان هو الآخر يكرهُ البُخلَاءَ ويذمُّهم. ومن رقيقِ أقواله في هذا المجال ما أثر عنه قوله: لو لم يدخلْ على البُخْلَاءِ في بخلهم إلا سوءَ ظنهم بالله - عزَّ وجلَّ - لكان عظيمًا^(٤).

(١) انظر: صفة الصفوة (٤/٢٩٨)، و«النهمة»: الشهوة والرغبة.

(٢) انظر: بهجة المجالس (١/١١٩)، والبصائر والذخائر (١/٢٢٠) طبعة دار صادر بيروت، وتحقيق وداد القاضي.

(٣) صفة الصفوة (٤/٢٩٨).

(٤) إِنَّ الْبُخْلَ أَوْ الشَّحَّ خُلُقٌ ذَمِيمٌ مِنَ الْأَخْلَاقِ الَّتِي لَا يَرْضَاهَا الْمُسْلِمُ، وَالشَّحُّ يَتَوَلَّدُ مِنْ سُوءِ الظَّنِّ وَضَعْفِ النَّفْسِ، وَيَمُدُّهُ وَعْدُ الشَّيْطَانِ حَتَّى يَصِيرَهُ إِلَى شِدَّةِ الْحَرَصِ =

* ومن هنا كانت أمُّ البنين ترى أنَّ السَّخاء من مفاتيح الجَنَّة، فكانت تقول: البخلُ كُلُّ البخلِ مَنْ بَخَلَ عَلَى نَفْسِهِ بِالْجَنَّةِ^(١).

* ويبدو أنَّ أمَّ البنين عرفت آثارَ الجود، فعزَّفتْ نَفْسُهَا عَنْ إِمْسَاكِ الْمَالِ، فلم تكن الدَّرَاهِم تستقرُّ في كَفِّهَا إِلَّا عَابِرَاتُ سَبِيلٍ، وكانت تجودُ بِهَا لِلنَّاسِ وَأَهْلِ الْحَاجَةِ. لذلك ظلَّ ذِكْرُهَا عَطْرًا بَيْنَ النَّاسِ، وأخبارُهَا مَنَادًا بِرَحِيْقِ الْجُودِ وَالسَّخَاءِ.

اصْطِنَاعُهَا لِلْمَعْرُوفِ وَجَبْرُهَا عَثَرَاتِ الْكِرَامِ:

* قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَعْرُوفٍ صَدَقَةٌ»^(٢). وأخرج مسلمٌ بسنده عن أَبِي ذَرٍّ - رضي الله عنه - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَا تَحْقِرَنَّ مِنَ الْمَعْرُوفِ شَيْئًا وَلَوْ أَنَّ تَلَقَّى أَخَاكَ بِوَجْهِ طَلْقٍ»^(٣).

* وَعَلَى حُبِّ الْمَعْرُوفِ وَاصْطِنَاعِ الْخَيْرَاتِ عَمَّرَتْ أُمُّ الْبَنِينَ أَعْمَالُهَا، وَزَيَّنَتْ سِيرَتَهَا، فَقَدْ كَانَتْ تَكْثُرُ مِنْ اصْطِنَاعِ كُلِّ عَمَلٍ يَدْعُو إِلَى خَيْرٍ، فَكَانَتْ تَحْسِنُ إِلَى النَّاسِ، وَإِلَى مَنْ تَدْعُوهُنَّ مِنَ النِّسَاءِ، حَتَّى ظَفَرَتْ بِمُحِبَّتِهِنَّ، وَلَهَجْنَ بِالشَّائِءِ عَلَيْهَا.

* ذَكَرَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهَا كَانَتْ تَدْعُو النِّسَاءَ وَتَكْسُوهُنَّ الثِّيَابَ الْحَسَنَةَ، وَتُعْطِيَهُنَّ الدَّنَانِيرَ وَتَقُولُ لَهُنَّ: الْكِسْوَةُ لَكُنَّ، وَالدَّنَانِيرُ اقْسِمْنَهَا بَيْنَ فَقَرَائِكُنَّ^(٤).

= عَلَى الشَّيْءِ، فَيَتَوَلَّدُ الْمَنْعُ لِلْبَذْلِ وَالْجُزْءِ لِفَقْدِ الْمَالِ وَإِنْفَاقِهِ.

(١) انظر: المحاسن والمساوي للبيهقي (ص ١٨٦).

(٢) أخرجه البخاري برقم (٦٠٢١)، ومسلم برقم (٠٠٥)، وأخرجه كذلك الترمذي برقم (١٩٧٠)، وابن حبان برقم (٣٣٧٩).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٦٢٦)، والترمذي برقم (١٨٣٣)، وابن حبان برقم (٥٢٣)، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -: ما رأيت رجلاً أوليته معروفًا إلا أضاء ما بينه وبينه. ولا رأيت رجلاً فرط إليه مني شيء إلا أظلم ما بيني وبينه.

(٤) صفة الصفوة (٤/٢٩٨).

* ومن خلالِ هذا التَّصَرُّفِ الحكيمِ كانت توجَّه النَّساءُ إلى اصطناعِ الخيرِ والمعروفِ، ولهذا كانت تكثرُ من قولها: وهل يُنالُ الخيرُ إلا باصطناعه؟.

* ومن أقوالها الشَّهيرة في هذا المجال قولها: ما حَسَدْتُ أحداً قطَّ على شيءٍ إلا أن يكونَ ذا معروفٍ، فَإِنِّي أَحِبُّ أنْ أَشْرَكَه في ذلك^(١). والله دُرٌّ مَنْ قال:

يَدُ الْمَعْرُوفِ غُنْمٌ حَيْثُ كَانَتْ تَحْمَلُهَا شُكُورٌ أَوْ كَفُورٌ
فَفِي شُكْرِ الشُّكُورِ لَهَا جَزَاءٌ وَعِنْدَ اللَّهِ مَا كَفَرَ الْكُفُورُ
* إِنَّ صَاحِبَ الْمَعْرُوفِ لَا يَقَعُ فِيمَا يَكْرَهُ، وَلَا يَمْسَهُ مَكْرُوهٌ، فَإِذَا وَقَعَ وَجَدَ مَتَكاً، لِأَنَّ «صَنَائِعَ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَيْتَةَ الشُّوءِ»^(٢).

* ولهذا كانت أُمُّ الْبَنِينَ - رحمها الله - تسارعُ إلى الخيراتِ، وتتزوَّدُ من إكثارِ اصطناعِ المعروفِ، وتجعله في أهلِ الأحسابِ والأعرافِ ليكونَ أعظمَ: فَمَا هَذِهِ الْأَيَّامُ إِلَّا مُعَارَةٌ فَمَا اسْطَعْتُ مِنْ مَعْرُوفِهَا فَتَزَوَّدِ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي بِأَيَّةِ بَلَدَةٍ تَمُوتُ وَلَا مَا يُحْدِثُ اللَّهُ فِي غَدٍ
* إِنَّ خَيْرَ أَيَّامِ الْمَرْءِ مَا أَغَاثَ فِيهِ الْمُضْطَرُ، وَارْتَهَنَ فِيهِ الشُّكْرَ، وَجَذَبَ إِلَيْهِ الْحَرَّ، وَذَلِكَ بِاصْطِنَاعِهِ الْمَعْرُوفِ، وَكَانَتْ أُمُّ الْبَنِينَ كَذَلِكَ تَعِينُ عَلَى الْمَعْرُوفِ، وَتَنْجِدُ الْمَلْهُوفَ، وَتَجْبِرُ عَثَرَاتِ الْكِرَامِ، فَمِنْ جُمْلَةِ أَخْبَارِهَا فِي ذَلِكَ مَا وَرَدَ أَنَّ الثُّرَيَّا بِنْتَ عَلِيٍّ^(٣)، لَمَّا مَاتَ زَوْجُهَا سُهَيْلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ

(١) صفة الصفوة (٤/٢٩٩)، وقال عمرو بن العاص - رضي الله عنه -: في كل شيء سرف إلا في إتيان مكرمة، أو اصطناع معروف، أو إظهار مروءة. (الآداب الشرعية ٣٢٨/١).

(٢) حديث شريف.

(٣) الثُّرَيَّا بِنْتُ عَلِيٍّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ أُمَيَّةِ الْأَصْغَرِ، كَانَتْ مَوْصُوفَةً بِالْجَمَالِ، تَزَوَّجَهَا سُهَيْلُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفِ الزَّهْرِيِّ، فَنَقَلَهَا إِلَى مِصْرَ، وَفِيهَا وَفِي زَوْجِهَا يَقُولُ عُمَرُ بْنُ أَبِي رَبِيعَةَ الْمَخْزُومِيُّ الْمَتَوَفَى سَنَةَ (٩٣هـ)، وَضَرَبَ لَهَا الْمَثَلَ بِالنَّجْمَتَيْنِ، - وَكَانَ يَكْثُرُ مِنْ ذِكْرِهَا فِي شَعْرِهِ -:
أَيُّهَا الْمُنْكَحُ الثُّرَيَّا سُهَيْلاً عُمَرَاكَ اللَّهُ كَيْفَ يَلْتَقِيَانِ=

- أو طَلَّقَهَا - خرجتْ تقصدُ الوليدَ بنَ عبدِ الملكِ، وهو خليفةُ بدمشقَ في دَيْنٍ كان عليها كيما يعينها على قضائِهِ، فدخلتْ على زوجه أُمِّ البنين ابنة عبد العزيز وعَرَفَتْهَا مقصدها، وبينما هي كذلك، إذ دخلَ الوليدُ على أُمِّ البنين، فقال الوليدُ: مَنْ هذه عندك؟ قالت: يا أمير المؤمنين هذه الثريا بنتُ علي جاءتني كي أطلبَ إليك في قضاءِ دَيْنٍ قد أثْقَلَ كاهِلَهَا.

* ورَحَّبَ الوليدُ بالثريا، وأقبلَ عليها وقال: أتروينَ من شِعْرِ عمر بن أبي ربيعة شيئاً؟

قالتِ الثريا: نعم يا أمير المؤمنين، أمّا إِنَّه - رحمه الله - كَانَ عَفِيفاً، عَفِيفَ الشَّعْرِ، أروي له أبياتاً منها:

وَحِسَاناً جَوَارِياً خَفِرَاتٍ حَافِظَاتٍ عِنْدَ الْهَوَى الْأَحْسَابِ
فقال الوليد: لله دَرَكٌ يا بنة علي.

* ثم إِنَّ أُمَّ البنين أمرتْ بقضاءِ حوائجِ الثريا، فانصرفت شاكراً هذا المعروف لها ولزوجها الوليد^(١).

= هِيَ شَامِيَةٌ إِذَا مَا اسْتَقَلَّتْ وَسُهَيْلٌ إِذَا اسْتَقَلَّ يَمَانِي
وقوله: «استقلَّ»: أي: ارتفع؛ وقد ورى عن الثريا بنجم السماء، وورى عن الرجل بنجم السماء لإظهار إنكاره التقائهما بالزواج، وقد مثل للبعد بين الزَّوجين، بالبعد بين النجمين، لأنَّ الثريا كانت فائقةَ الجمال، وسهيلاً كان قبيحَ المنظر.
ومن الجدير بالذكر هنا، أَنَّ البيتَ الأوَّلَ من شواهدِ كُتُبِ النَّحْوِ، وذلك في قوله: «عمرُكَ اللهُ»، وهو لفظٌ قد وَرَدَ كثيراً في قَسَمِ العرب وتأكيداتها في شِعْرهم ونثرهم، وأصله دعاء بطولِ العمر.

وللتنحية في هذا البيتِ تخريجات عدة منها: أسأل اللهَ عَمْرُكَ؛ ويعرب: «عمرُكَ»: مفعول به ثانٍ لفعلٍ محذوف تقديره أسأل، ولفظ الجلالة: مفعول به.

هذا؛ ونعود إلى الثريا، إذ أخبارها كثيرة ترددت في كُتُبِ الأدب وما مائلها. انظر مثلاً: (زهر الآداب ١/ ٢٤٤ و ٢٤٥) بتحقيق: محمد علي البجاوي، و(الدر المنثور ص ١١٧ - ١٢١)، و(نسب قريش ص ١٥١ و ٢٦٩)، وكتاب الأغاني في مواطن متفرقة، ونهاية الأرب أيضاً.

(١) شذرات الذهب (١/ ٣٦٥ - ٣٦٧) والدر المنثور (ص ١١٧ - ١٢١) مع الجمع =

* وهكذا قلدت أم البنين الثريا هذا المعروف الذي وعته لنا أذن تاريخ أم البنين الواعية، وسجله لنا تاريخها الوضيء على ثنانيا الورْد، وعبقات الزهر، وأنداء النسيم العطر، كيما تقتدي بمآثرها نسوة العرب ونساء الدنيا على مر الدهر.

* ولأم البنين أخبارٌ وضيئة في اصطناع المعروف قبل أن يلي زوجها الخلافة، ومن روائع بدائع أخبارها في اصطناع المعروف، ما ذكرته المصادر بأنها كانت سبب حَقْنِ دم عُبيد الله بن قيس الرقيات، من سطوة عمها عبد الملك بن مروان، الذي كان يجلها، ويكرمها، ويعرف قدرها، ومكانتها، ويحفظ جاهها، ويقضي حوائجها، إذ هي زوج ابنة الأثير الوليد - ولي عهده -، وابنة أخيه الرقيق الشفيق عبد العزيز بن مروان، ثم إن أم البنين نفسها كانت ذات أدب زاهر، ورأي صائب، وحكمة رشيدة، وخصال حسن، وكانت تحترم عمها عبد الملك وتكبره وتجله.

* أما كيف اصطنعت المعروف مع الشاعر المعروف عُبيد الله بن قيس الرقيات، فقد جاء مفصلاً في المصادر، وخاصة كتب الأدب منها، وكتب التاريخ، فقد ذكروا أنَّ عُبيد الله بن قيس الرقيات الشاعر الأموي المتوفى نحو سنة (٨٥ هـ)، كان منقطعاً إلى مُصعب بن الزبير بن العوام يمدحه، ويثني عليه، ويذكره بكلِّ مَحْمَدة وفضيلة، ومن بدائع قوله في مصعب قصيدته الهمزية المشهورة التي منها:

إِنَّمَا مُصْعَبٌ شَهَابٌ مِنَ الدِّهَانِ تَجَلَّتْ عَنْ وَجْهِهِ الظُّلُمَاءُ
مُلْكُهُ مُلْكُ رَحْمَةٍ لَيْسَ فِيهِ جَبَرُوتٌ يُخْشَى وَلَا كِبَرِيَاءُ
يَتَّقِي اللَّهَ فِي الْأُمُورِ وَقَدْ أَفْ لَحَ مَنْ كَانَ هَمَّهُ الْإِتْقَاءُ^(١)

* وقد خرج عُبيد الله مع مصعب بن الزبير على عبد الملك بن مروان، فلما قُتِلَ مصعب طلبه عبد الملك، فهرب عُبيد الله والتجأ إلى مَعْدِنِ الخير

= والاختصار، وانظر: أعلام النساء (١/ ١٨٤).

(١) انظر: سمط اللآلي (١/ ٢٩٤).

والجود والكرم، إلى الجواد بن الجواد، عبد الله بن جعفر^(١) بن أبي طالب - رضي الله عنهما - كيما يكون وساطةً بينه وبين عبد الملك، وليشفع له عنده .

* واستقبله عبدُ الله بن جعفر - رضي الله عنهما - ولم يشأ أن يغريه بالمواعيدِ الباطلة، وإنما أبانَ له حقيقةَ جُرمِهِ، وقال له: ويحك يا بن قيس، ما أجدهم في طلبك، وما أحرصهم على الظفر بك، فقد ملأَ شِعْرُكَ الأسماعَ في غريمهم مصعب بن الزبير، وشغل النَّاسَ بطلاوتهِ وجماله، وأثره في النفوس؛ ولكنِّي أكتبُ إلى النجبية الأريبة أم البنين ابنة عبد العزيز بن مروان، فعبد الملك أرق شيءٍ عليها، ولعلَّ الله يُحدثُ بعد ذلك أمراً.

* وأخذَ عبدُ الله بن جعفر قرطاساً، وكتبَ إلى أم البنين وهي بدمشق، فسألها التَّشَفُّعَ إلى عمِّها عبد الملك لعبيد الله بن قيس الرقيات، فإنه قد لاذ بنا، ودللناه عليك .

* ولما وصلها الكتابُ، قرأته، وأحبت أن تقضي حاجةَ أميرِ الأجواد عبد الله بن جعفر، وتمضي وساطته لابن قيس الرقيات، فقامتُ واستأذنتُ ودخلتُ على عمِّها عبد الملك، وألقتُ السَّلامَ، فأشارَ إليها بالجلوس، ثمَّ أقبلَ عليها هاشماً وسألها: هل لك من حاجة يا أم البنين؟!

(١) عبدُ الله بن جعفر بن أبي طالب الهاشمي القرشيَّ الصحابي، وهو آخر مَنْ رأى النَّبِيَّ ﷺ من بني هاشم، وُلدَ بآرض الحبشة لما هاجر أبواه إليها، وأمّه أسماء بنت عميس إحدى نجيبات ومنجبات الصحابيَّات - رضي الله عنهن -، وهو أوَّل مَنْ وُلدَ بالحبشة من المسلمين، وكان كريماً يُسمَّى: بحر الجود، ولم يكن في المسلمين أجودَ منه، وله في السَّخاء أخبارٌ كريمة طويلةٌ رائعة، وقيل: إنَّ أجوادَ المسلمين عشرة؛ منهم: عبد الله بن جعفر، وعبيد الله بن عباس، وطلحة بن عبد الله بن خلف المشهور بلقب طلحة الطَّلحات الخزاعي. وكان للشَّعراء مدائح كثيرة في عبد الله بن جعفر، وكان أحد الأمراء في جيش ابن عمه علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - يوم صفين، وتوفي عبد الله بالمدينة سنة (٨٠هـ) رضي الله عنه وأرضاه. (الإصابة ٦/ ٣٨ - ٤١) ترجمة رقم (٤٥٨٢) تحقيق: طه محمد الزيني.

قالت أمُّ البنين بأدبٍ واستحياء : نعم يا أمير المؤمنين ، نعم يا عماه ، إنَّ لي حاجةً أودُّ قضاءَها .

فقال عبدُ الملك - وكان لماحاً ذكياً - : قد قضيتُ لك كلَّ حاجةٍ ، إلا واحدةً ، وهي عُبيد الله بن قيس الرقيات .

قالت في هدوء : يا أمير المؤمنين ، لا تستئينَّ عليَّ .

فنفخَ عبد الملك بيده ، فأصابَ وجنتها ، وغضبَ ، فوضعت أمُّ البنين يدها على خدِّها ، وتأثَّرتْ أشدَّ الأثر ، ثمَّ إنَّها لم تتكلَّم كلمةً واحدةً ، وأطرقتْ برأسها إلى الأرضِ ، وتساقطت دمعاتٌ من عينيها .

* وتأثَّر عبدُ الملك لما حَدَّث ، فقال لها : ارفعي يدك عن وجهك يا أمَّ البنين ، قد قضيتُ لك حاجاتك كلَّها ، وإنَّ كانت فيهن شفاعة ابن قيس الرقيات .

* فوضعتْ يدها عن خدِّها وقالت : حاجتي - يا أمير المؤمنين - أن تؤمِّنَ ابنَ قيس الرقيات ، فقد كتبَ إلى عبد الله بن جعفر يسألني أن أسألك ذلك لعلَّه بحلمك وسعةِ صدرك .

فقال عبد الملك : حبّاً وكرامةً يا أمَّ البنين ، هو آمِنٌ ، ووهبتُ لك دمه .

* وسرعانَ ما زفَّتْ أمُّ البنين هذا الخبر إلى بحرِ الجودِ عبد الله بن جعفر الذي أبلغَ ابنَ قيس الرقيات بالأمان ، وعفو عبد الملك ، ووساطة أمَّ البنين في موضوعه ، فشكرَ لابن جعفر^(١) وساطته ، وشكر كذلك لأمَّ البنين صنيعةً ، إذ أنقذته من موتٍ محقق ، وأُبدِلَ بعد الخوفِ أمناً وطمأنينةً ، ووفدَ

(١) مدح ابنُ قيس الرقيات عبد الله بن جعفر فقال :

تقدَّتْ بي الشهباءُ نحوَ ابن جعفرٍ سواءٌ عليَّها ليلُها ونهارُها
والله لولا أن تزورَ ابنَ جعفرٍ لكان قليلاً في دمشقَ قرارُها
أتيناك نثني بالذي أنتَ أهلُهُ عليك كما أثنى على الروض جارها
انظر : (سمط اللآلي ١/ ٢٩٥) و(الشعر والشعراء ص ٣٦٢) طبعة دار الكتب العلمية .

على عبد الملك وامتدحه بقصيدة مشهورة منها :

يَأْتَلِقُ التَّاجُ فَوْقَ مَفْرِقِهِ عَلَى جَبِينٍ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ
كما مدحه بقوله :

أَنْتَ ابْنُ عَائِشَةَ^(١) الَّتِي فَضَلْتَ أَرْوَمَ نِسَائِهَا
لَمْ تَلْتَفِتْ لِدَدَاتِهَا وَمَضْتَ عَلَى غُلَوَائِهَا
وَلَدْتَ أَغْرَ مُبَارَكَا كَالشَّمْسِ وَشَطَّ سَمَائِهَا^(٢)

* وهكذا كانت أيادي أمّ البنين البيض ومعروفها قد طوقت ابن قيس الرقيات وغيره، فكم من راغبٍ وراهبٍ وبائسٍ قد اصطنعت معهم كلّ معروف، وأغدقت عليهم من عطائِها، وكم من رجلٍ قد شفعت له، وقبّلت شفاعتها إعظاماً لها، فهي جابرةٌ عثراتِ الكرام، و:

كَمْ رَاغِبِينَ وَرَاهِبِينَ وَبُؤْسٍ عُصِمُوا بِقُرْبِ جَنَابِهَا إِعْظَامَا
بِجَنَابِ ظَاهِرَةِ الثَّنَاءِ مَحْمُودَةٍ لَا يُسْتَطَاعُ كَلَامُهَا إِعْظَامَا
يَا رَبِّ مَتَّعْنَا بِطُولِ بَقَائِهَا وَاجْبُرْ بِهَا الْأَرْمَالَ وَالْأَيْتَامَا

* لذلك كان النَّاسُ يلهجون بالثناء عليها، ويذكرون نجدتها واصطناعها المعروف مع كلّ أحدٍ، والله درُّ القائل :

وَمَا تَخْفَى الصَّنِيعَةُ حَيْثُ كَانَتْ وَلَا الشُّكْرُ الصَّحِيحُ مِنَ السَّقِيمِ

* وكأني بالشاعر قد عني أمّ البنين وأمثالها بقوله :

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بُنُوا أَحْسَنُوا الْبِنَا
وَإِنْ عَاهَدُوا أَوْفَوْا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا

(١) أم عبد الملك هي : عائشة بنت معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية .

(٢) انظر : الفرج بعد الشدة للتنوخي (٤/ ٢٨٢ - ٢٨٥)، وسمط اللّالي (١/ ٢٩٥ و٢٩٦) مع الجمع والتصرف .

وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها
وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
وإن قال مولاهم على حمل حادث
من الأمر ردوا فضل أحلامكم ردوا
* لقد كان حب اصطناع المعروف سجية من سجايا أم البنين، فهي تود
قضاء حاجة كل من لاذ بها، فقد كان شعارها ودثارها: اصنع المعروف إلى
كل أحد، فإن كان من أهله، فقد وضعته في موضعه، وإن لم يكن من أهله،
كنت أنت من أهله^(١).

وما أجمل قول من قال:

ولم أر كالمعروف أمًا مذاقه فخلو وأما وجهه فجميل
* ويبدو لي أن أم البنين - رحمها الله - قد قرأت قول النبي ﷺ في قضاء
الحوائج واصطناع المعروف: «إن الله عباداً اختصهم بقضاء حوائج الناس،
حببهم في الخير، وحبب الخير إليهم، إنهم الآمنون من عذاب الله يوم
القيامة»، فأحبت أم البنين أن تكون من هؤلاء الذين اختصهم الله بقضاء
الحوائج، ومن الآمنين يوم الفرع الأكبر، فهذا هو مئناها، وتلك هي السعادة
الحقيقية عندها:

وأسعد الناس في دنياكمو رجلٌ تُقضى على يده للناس حاجات
هل صحيح ما يُنسب إلى أم البنين؟!

* قد علمنا وعرفنا فيما مضى من الصفحات جوانب من شخصية هذه
المرأة المعطاء، وعرفنا أنها فيمن حدثت من النساء، كما تعرّفنا أصلاتها
ومنابتها وحبها لكتاب الله - عز وجل - ومسارعتها لتشييد المكارم، وبناء
صروح الفضائل، فهل يُعقل أن تُحب صعلوكاً من صعاليك الشعراء وهي
زوج أمير المؤمنين يأتيه خراج ثلاثة أرباع الأرض في وقته؟

(١) الآداب الشرعية (١/٣٢٧).

* بل، هل يُعقل أن تُظهر محاسنها ومفاتنها ووجهها، وتعرض للشعراء
كيما يتغزلوا بها لتحظى بالشهرة حسب ما زعموا؟

* إنَّ بعضاً من المصادر - على جلاله قدرها وأصالتها - قد ذكرت ترجمة
أم البنين، وقرنت معها قصة الحب العنيف مع وضاح اليمن^(١)، وصنعت من
ذلك قصةً أشبه بما ورد في بعض قصص «ألف ليلة وليلة» ذلك الكتاب
الشعبي الشهير الخطير.

* هذا وقد غاب عن بال الذين نسجوا هذه القصة وحاكوها في مصانعهم
الهزيلة، أن مثل هذه القصة لا تثبت عن أم البنين ولا عن امرأة أقل منها
بمئات الدرجات^(٢)، فلقد كانت - رحمها الله - من أحض النساء على مكارم
الأخلاق، وعلى ارتداء ثياب العفاف وصيانة النفس، بل قرأنا كيف كانت
تستغرق الساعات الطوال مع الله - عز وجل - وهي قائمة تصلي التوابع، فما
بالك بالفروض؟!

* لقد كانت أم البنين تعلم علم اليقين أن من ابتغى المكارم، اجتنب
المحارم^(٣)، فهل يعقل أن تقدم على أعظم الحرمات، وترتكب أفظع

(١) «وضاح اليمن»: اسمه عبد الله بن إسماعيل بن عبد كلال، المعروف بوضاح
اليمن.

(٢) في عصر أم البنين لم تقبل جارية من الجواري أن ينظر إليها الرجال مجرد نظرة،
فقد ورد أنه نظر رجلان إلى جارية حسناء في بعض طرق مكة، فمالا إليها،
واستسقىاها، فسقتهما، فجعلوا يشربانه ولا يسيغانه، فعرفت ما بهما، فجعلت
تقول:

هما استسقىا ماء على غير ظمأة ليستمتعا باللحظ ممن سقاها
فجعا من ذلك، فدفعوا الإناء إليها، فمرت وهي تقول:

وكنّت متى أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر
(الآداب الشرعية ٣/ ١٢٤).

(٣) ويحضرني في هذا الموقف قول الزبير بن عبد المطلب:
وأجتنب الكبائر حيث كانت وأترك ما هويت لما خشيت

الجرائم، وهي الخيانة الزوجية؟ وخيانة مَنْ؟! خيانة أمير المؤمنين وحاكم الدنيا في عصره!!!.

وهي مَنْ؟! أختُ عمر بن عبد العزيز، وهما فيهما نفحةٌ عمريةٌ تعودُ إلى الفاروق عمر بن الخطاب؟!

وفي أي عصر؟! في خير القرون، القرن الهجري الأول؟! خير القرون بشهادة الحبيب الأعظم سيدنا وحبينا رسول الله ﷺ.

* إنَّ هذا ليس بغريب أن تُتَّهَمَ أمُّ البنين، فلقد رمى المنافقون والمرجفون - مِنْ قَبْلُ - أمنا الصديقة عائشة^(١) بنت أبي بكر الصديق - رضي الله عنهما -، ونزل القرآن العظيم كاشفاً أحوالهم، ومظهراً كرامة عائشة وبراءتها.

* ولم تكن عائشة - رضي الله عنها -، أو أم البنين هما الوحيدتان في هذا الميدان، وإنما رميت بعد ذلك زُبَيْدَة^(٢) بنت جعفر زوج الرّشيد بقصص غريبة، وهي مِنْ أكرم نساء عَصْرَها أصلاً وجوداً ومعروفاً وصيانةً وديناً. وكذلك العباسية^(٣) بنت المهدي أختُ الرّشيد لم تَقَلَّتْ هي الأخرى من برائن الحاقدين وأهل الأهواء، وبعض الذين يَجْهَلُونَ مقدار ومكانة المرأة عَصْرَ ذاك.

* لذلك رأينا - ونحن نستعرض حياة وسيرة أم البنين - أن نورد قصّة وضّاح اليمن، بل قصص وضّاح اليمن المزعومة، كيما نستوعب الصّورة

(١) اقرأ سيرة أمنا عائشة الصديقة ابنة الصديق في كتابنا «نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث» طبعة دار اليمامة بدمشق (ص ١٠٣ - ١٦٦)، فيه خير كثير، وبركة بإذن الله تعالى.

(٢) اقرأ سيرة زُبَيْدَة - رحمها الله - في هذه الموسوعة، ولا حظ أعمالها الخيرية التي صنعتها على طريق الحجاج، تلك الأعمال التي تعجز عنها فحول الرجال، بل تقصر عنها همم ذوي الجد والنهي والاجتهاد.

(٣) سنلتقي العباسية بنت المهدي في كتاب آخر إن شاء الله، وبعنوان آخر مع ثلة من فضليات النساء، من بنات وأخوات الخلفاء.

كاملة، ومن ثمّ نكشف - بعون الله - زيوف تلكم القصص الواهيّة، ونجلي الحقيقة من أجل الحقيقة والحقّ، ومن أجل الأمانة العلميّة، بل ومن أجل إبراز صور النساء العريّيات الحرائر اللواتي ضمّحن جيّد الدهر بأريج أخبارهن الحسان، وكُنّ القدوة المثلّية لغيرهن من النساء على مرّ الأيّام والأزمان.

* تقول بعض كُتُب الأخبار والمصادر - مع الجمع بينها - والتّصرف اليسير: إنّ أمّ البنين بنت عبد العزيز بن مروان كانت تهوى وضّاح اليمن الشّاعر، وكان جميلاً، ولذا فقد لقّب بوضّاح اليمن لجماله، نشأ هو وأمّ البنين صغيرين فأحبّها وأحبّته، فكان لا يصبر عنها، حتى إذا بلغت حُبّته عنه، فطال بهما البلاء، فحجّ الوليد بن عبد الملك، وزار المدينة فبلغه جمال أمّ البنين، وأدبها، فتزوجها ونقلها معه إلى الشّام.

* وبرّح الحبّ قلب وضّاح اليمن فتبعها إلى الشّام، وجعل يطيف بقصر الوليد بن عبد الملك في كلّ يوم لا يجد حيلة، حتى رأى يوماً جارية، فلم يزل بها حتى أنست به، فقال لها: هل تعرفين أمّ البنين؟

ف قالت: إنّك تسأل عن مولاتي.

ف قال لها: إنّها لابنة عمّي، وإنّها لتسرّ بموضعي لو أخبرتها.

قالت الجارية: فإنّي سأخبرها خبرك.

ف مضت الجارية، وأبلغت أمّ البنين عنه، فأقبلت أمّ البنين على الجارية متلهّفة وقالت لها: ويليّك أو حيّ هو؟!

قالت: نعم يا مولاتي وهو قريب من هنا!

قالت: قولي له: كُن مكانك حتى يأتيك رسولي، فلن أدع الاحتيال لك.

* ومكثت أمّ البنين حيناً من الدّهر لم يكن شيئاً مذكوراً، فاحتالت لوضّاح اليمن بحيلة لطيفة، إذ صنعت صندوقاً خشبياً، فأدخلته فيه، ثمّ دخل القصر على هذه الصّورة، فكان يُقيم عندها.

* ومكث وضّاح اليمن عندها حيناً داخل الصندوق الخشبي، حتى إذا

أَمِنْتُ واطمأنتُ أخرجته، فقَعَدَ معها، وإذا ما خافتُ عَيْنَ رَقِيبٍ، أو واشٍ، أو عدولٍ، وارثُهُ في ذلك الصَّنَدُوقِ - السَّحَرِي - ثمَّ أَقْفَلْتُ عليه، وكأنَّ شَيْئاً لم يكنْ، وبراءةِ الأَطْفَالِ في عينيها وعينه!!

* قَالَتِ الْأَخْبَارُ: وَأَهْدِي ذَاتَ يَوْمٍ لِلْوَلِيدِ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ زَوْجَهَا جَوْهَرٌ لَهُ قِيَمَةٌ وَقَدْرٌ، فَأَعْجَبَهُ وَاسْتَحْسَنَهُ، فَدَعَا خَادِمًا لَهُ، وَبِعَثَ بِالْجَوْهَرِ مَعَهُ إِلَى أُمِّ الْبَنِينِ وَقَالَ: قُلْ لَهَا: إِنَّ هَذَا الْجَوْهَرَ أَعْجَبَنِي، فَأَثَرْتُكَ بِهِ.

* فَذَهَبَ الْخَادِمُ وَدَخَلَ مِنْ غَيْرِ اسْتِئْذَانٍ، وَعَلَى غَيْرِ اسْتِحْيَاءٍ، وَوَضَّاحٍ عِنْدَهَا، فَأَدْخَلَتْهُ الصَّنَدُوقَ وَهُوَ يَرَى، ثُمَّ أَقْفَلْتُ عَلَيْهِ، فَأَدَّى إِلَيْهَا الْخَادِمُ رِسَالَةَ الْوَلِيدِ، وَدَفَعَ إِلَيْهَا الْجَوْهَرَ، ثُمَّ إِنَّ الْخَادِمَ قَالَ لِأُمِّ الْبَنِينِ: يَا مَوْلَاتِي، هَبِي لِي مِنْ هَذَا الْجَوْهَرِ حَجَرًا.

فَقَالَتْ لَهُ: وَيْلَكَ لَا أُمُّ لَكَ، وَمَا تَصْنَعُ أَنْتَ بِهَذَا؟ لَا يَابْنَ اللَّخْنَاءِ وَلَا كِرَامَةَ!!

* فَخَرَجَ الْخَادِمُ يَجْرُرُ أَذْيَالَ الْقَهْرُ وَالْخِيْبَةِ وَهُوَ حَنْقٌ عَلَى أُمِّ الْبَنِينِ، وَأَسْرَرٌ مَا رَأَاهُ فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يُبْدِ لَهَا شَيْئًا، وَمَضَى، وَأَفْرَغَ مَا بِنَفْسِهِ أَمَامَ الْوَلِيدِ، وَحَكَى لَهُ مَا رَأَاهُ، وَمَا سَمِعَهُ، وَمَا خَبَرَهُ وَعَايَنَهُ، وَوَصَفَ لَهُ الصَّنَدُوقَ الَّذِي رَأَى وَضَّاحَ الْيَمَنِ وَقَدْ دَخَلَهُ.

فَقَالَ لَهُ الْوَلِيدُ: كَذَبْتَ يَابْنَ اللَّخْنَاءِ، كَذَبْتَ لَا أُمُّ لَكَ، وَأَمَرَ بِهِ فَوُجِّتَ عُنُقُهُ.

* ثُمَّ إِنَّ الْوَلِيدَ نَهَضَ مَسْرِعًا وَلَبَسَ نَعْلَيْهِ، وَدَخَلَ عَلَى أُمِّ الْبَنِينِ وَهِيَ جَالِسَةٌ فِي ذَلِكَ الْبَيْتِ تَمْشِطُ رَأْسَهَا، وَقَدْ وَصَفَ لَهُ الْخَادِمُ الصَّنَدُوقَ الَّذِي أَدْخَلَتْ فِيهِ وَضَّاحًا، وَفِيهِ صَنَادِيقُ أُخْرَى؛ فَجَلَسَ الْوَلِيدُ فَوْقَ الصَّنَدُوقِ الْمُدْعَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ لَهَا: يَا أُمُّ الْبَنِينِ، لَمْ حُبِّبَ إِلَيْكَ هَذَا الْبَيْتَ مِنْ بَيْنِ بَيْتِكَ، فَلِمَ تَخْتَارِينَهُ؟!

قَالَتْ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَجْلِسُ فِيهِ وَأَخْتَارُهُ، لِأَنَّهُ يَجْمَعُ حَوَائِجِي كُلَّهَا، فَأَنَا أَتَنَاوَلُهَا مِنْهُ كَمَا أُرِيدُ مِنْ قَرَبٍ.

فقال لها: يا أم البنين، هبي لي صندوقاً من صناديقك هذه.

قالت: يا أمير المؤمنين، هي وأنا لك.

فقال: ما أريدها كلها، وإنما أريد واحداً منها.

فقالت له: خذ أيها شئت.

قال: أريد هذا الذي جلست عليه.

قالت: يا أمير المؤمنين، إن فيه شيئاً من أمور النساء، وفيه أشياء أحتاج إليها، وغيره أحب إليك منه.

فقال: ما أريد سواه.

قالت: خذه يا أمير المؤمنين، هو لك.

* فدعا الوليد بالخدم، وأمرهم بحمل الصندوق حتى انتهى به إلى مجلس فوضعه فيه، ثم دعا عبداً له عجمياً، وأمرهم بحفر بئر في ذلك المجلس، فحفروا عميقاً حتى بلغوا الماء، ثم دعا بالصندوق، فوضعه على سفير البئر، ودنا منه وقال: يا صاحب الصندوق، يا أيها الصندوق، إنه قد بلغنا عنك شيء، إن كان حقاً فقد دفنك، ودفننا ذكرك إلى آخر الدهر، وإن كان باطلاً، فإنما دفننا الخشب، وما أهون ذلك، وما علينا في دفن صندوق من حرج، ثم أمر بالصندوق فقذف به في البئر، وأمر بالخادم التمام فقذف في ذلك المكان، ثم هيل عليهما التراب، وسويت الأرض، ثم ما روي لوضاح أثر في الدنيا بعد ذلك اليوم، ولا أبصرت أم البنين أثراً في وجه الوليد حتى فرق الموت بينهما.

* وزادت بعض الأخبار بأن أم البنين كانت توجد في ذلك المكان تبكي، إلى أن وجدت فيه يوماً مكبوبة على وجهها ميتة^(١).

(١) انظر: وفيات الأعيان (٢/ ٤٥ و ٤٦)، ونوادر المخطوطات (٢/ ٢٧٣)، ومصارع العشاق (٢/ ١٩٢ و ١٩٣)، وصفة جزيرة العرب للهمذاني (ص ٣٢٤ و ٣٢٥) مع الجمع والتصرف بينهما. وانظر الأغاني (٦/ ٢٢٤ - ٢٢٦) وانظر كتاب: ذم الهوى =

* وزاد بعضهم قوله: لما قَتَلَ الوليدُ وضَّاحَ اليمن، حَجَّتْ بعد ذلك أُمّ البنين محتجبةً لا تكلم أحداً، وشخصتُ كذلك^(١).

* هذه هي القصة المزعومة التي شغلت النَّاسَ وملأت الدنيا، وهي واهيةٌ من عدة وجوه، ولا يمكن أن تُعَقَّلَ أبداً، ومن ذلك خلوة أُمّ البنين بوضَّاح؛ ثم هل يُعَقَّلُ أَنَّ الوليدَ يجلسُ على صندوقٍ فيه ما فيه من ظنونٍ ولا يعرفُ ما بداخله؟! بل كيف حفرَ في مجلسه بئراً عميقة حتى خرج الماء، ثم دفنَ الصندوق دون أن يرى ما بداخله، أو دون أن يتحدث أو يتكلَّم مَنْ بداخله؟! وهل الوليد بلغَ حداً لا يكلم فيه زوجته عن عشيقها؟

* إنَّ ظاهرةَ الوضع واضحةٌ في هذه القصة وهي تريد أن تشيرَ إلى أَنَّ أُمّ البنين امرأةٌ فاسدةٌ، وأنَّ الوليدَ ديوثٌ لا يأبه لعرضه إذا ناله أحدٌ، ناهيك بأنَّ هذه القصة مستوحاةٌ من قصص الفرس في سابق الأزمان، أضف إلى ذلك كله أَنَّ الذي وضع هذه القصة فيه نفسٌ شعوبي، ومما يؤيد رأينا ما وردَ أَنَّهُ قد وقعَ بين رجلٍ من زنادقة الشعوبية، وبين رجلٍ من ولدِ الوليد، وتساباً وأغلظ، كلٌ واحدٍ منهما على الآخر، وذلك في دولة بني العباس، فوضع الشعوبي عليهم كتاباً زعم فيه أَنَّ أُمّ البنين قد عَشَقَتْ وضَّاحاً، فكانت تُدخله في صندوقٍ عندها، فوقفَ على ذلك خادم الوليد، فأنهاه إليه، وأراه الصندوقَ، فأخذه فدفنه^(٢).

* ومن القصص المصنوعة الموضوعية التي صيغت نثراً وشعراً، هذه القصة التي مفادها أَنَّ وضَّاحَ اليمن قد وفدَ على الوليد بن عبد الملك، ومدحه بقصائد كثيرة منها:

وَأَلْقَى ابْنُ مَرْوَانَ الَّذِي قَدْ هَزَّهُ عِرْقُ الْمَكَارِمِ وَالنَّدَى فَأَقْلَهُ

= لابن الجوزي (ص ٣٧٣ - ٣٧٦) وقد ساق هذه القصة بروايتين متقاربتين. ويبدو أن هذه المصادر ترجع إلى رواية واحدة هي رواية الأغاني.

(١) الأغاني (٦/٢١): وهذا يعني أن أُمّ البنين كانت تحبُّ من قبل غير محتجبة، وتكلم الغادي والرائح؟! فتأمل!

(٢) انظر: صفة جزيرة العرب للهمداني (ص ٣٢٤).

فَعَلَى ابْنِ مِرْوَانَ السَّلَامُ مِنْ أَمْرِيءِ أَمْسَى يَذُوقُ مِنَ الرَّقَادِ أَقْلَهُ

* وكان وضاح قد شَبَّ بأم البنين بنت عبد العزيز امرأة الوليد، وهي أم ابنه عبد العزيز بن الوليد والشرف فيهم، فبلغ ذلك الوليد تشييبه بها، فأمر بطلبه، فأُتِيَ به، فأمر بقتله؛ فقال له ابنه عبد العزيز: لا تفعل يا أمير المؤمنين، فتحقق قوله، ولكن افعل به كما فعل معاوية بأبي دهل^(١)، فإنه لما شَبَّ بابنته، شكاه يزيد، وسأله أن يقتله، فقال: إذا، تحقق قوله، ولكن تبره وتحسن إليه، فيستحي ويكف ويكذب نفسه؛ فلم يقبل منه، ودفنه حيًّا^(٢).

* ومن القصص المصنوعة التي تشوه سُمعة أم البنين ما ذكره أبو الفرج الأصبهاني - ومعظم البلاء منه - أنَّ أم البنين قد مَرَضَتْ، ووضاح مقيم بدمشق، وكان نازلاً عليها، فقال في علتها:

حَتَامَ نَكْتُمُ حُزْنَنا حَتَامَا وَعَلَامَ نَسْتَبْقِي الدَّمْعَ عَلَامَا
إِنَّ الَّذِي بِي قَدْ تَفَاقَمَ وَاعْتَلَى وَنَمَا وَزَادَ وَأَوْرَثَ الْأَسْقَامَا
قَدْ أَصْبَحَتْ أُمُّ الْبَنِينَ مَرِيضَةً نَخْشَى وَنَشْفِقُ أَنْ يَكُونَ حِمَامَا^(٣)

(١) أبو دهل: اسمه وهب بن زمعة بن أسد، من أشraf بني جُمح بن لؤي بن غالب، من قريش، كان أحد الشعراء العشاق المشهورين، له ديوان شعر من رواية الزبير بن بكار، توفي سنة (٦٣هـ).

(٢) انظر: صفة جزيرة العرب (من ٣٢٣ و ٣٢٤) بتصرف يسير جداً. وفي تصوّري أراد واضع هذه القصة أن يرمي أربعة عصفير بوقت واحد: معاوية - رضي الله عنه - وابنته، والوليد وزوجه. فالأول صحابي جليل القدر، وهل يُعقل أن تكون ابنته ممن يُتغزل بها وهي تابعة كبيرة القدر؟ والثاني ملك ثلاثة أرباع الأرض، وفتح البلدان، وكان تلاء للقرآن، وزوجه كذلك. ونلاحظ أنَّ الأول ينصح ابنه يزيد ويأمره بالحلم والتحمل.

والثاني: ينصح أباه الوليد، إلا أنَّ الوليد لم يقبل النصيح، وقد وادَّ وضاحاً وهو حيٌّ؟! فتأمل!!

(٣) انظر: الأغاني (٢٢٦/٦)، ووفيات الأعيان (٤٥/٢)، وتهذيب تاريخ دمشق=

* ومن القصص العجيبة التي طاب للواضعين نسجها هذه القصة التي تقول: استأذنت أم البنين زوجها الوليد بن عبد الملك في الحج، فأذن لها، وكتب الوليد يتوعد الشعراء جميعاً ألا يذكرها أحد منهم، أو يذكر أحداً ممن معها. فقدمت مكة وتراءت للناس، وتصدى لها أهل الغزل والشعراء، ووقعت عينها على وضاح اليمن، فهويته، وأنفذت إلى كثير عزة، وإلى وضاح اليمن أن شبيباً بي، فكره ذلك كثير عزة، وشبب بجاريتها غاضرة، وذلك في قوله:

شجاً أظعان غاضرة الغواضي بغير مشورة عرضاً فؤادي
وأما وضاح اليمن، فإنه صرح، فبلغ ذلك الوليد فقتله.

* وقيل: إنه مدح الوليد، فوعده أم البنين أن تساعد وتعينه على رده، فقدم على الوليد وأنشده:

صبا قلبي ومال إليك ميلاً وأرقتني خيالك يا أثيلاً^(١)
يمانية تلم بنا فتبدي دقيق محاسن وتكر غيلاً
وهي أبيات مشهورة، فأحسن الوليد رده، ثم نمي إليه أنه يشبب بأم البنين، فجفاه، وحجبه، ودبر في قتله، واختلسه ودفنه في داره^(٢).

* ومن القصص المصنوعة والموضوعة هذه القصة التي غاب عن واضعها التاريخ الصحيح للخلفاء، وإنما وضعها دون أن يلتفت إلى زمان أو إلى مكان، فهذا لا يهم؛ إنما يهم أن تنطلي القصة على من لا يعرف أصول التاريخ.

= (٧/٢٩٩)، وإن ظاهر الصنعة تبدو تماماً في هذه الأبيات، وأنها قيلت بعد أكثر من قرن من الزمن من عصر أم البنين.

(١) «أثيلاً»: ترخيم أثيلة، وهو اسم امرأة.

(٢) انظر: أعلام النساء (١/١٥٢ و ١٥٣) نقلاً عن الأغاني (٦/٢١٩)؛ ومن الملاحظ

أن قصص الغرام هذه كلها وُضعت في حج أم البنين، ثم لاحظ أنها تدعو الشعراء كي يتغزلوا بها، وتحض وضاحاً بذلك، فهل يستقيم ذلك؟! لا شك بأن هذه فرية كبيرة.

* تقولُ القصة: بلغ الوليدُ بنُ عبد الملك تشيبَ وضاحَ بأمِّ البنين، فهَمَّ بقتله، فسأله عبد العزيز ابنه فيه وقال له: إن قتلته فضحتني وحققت قوله، وتوهم الناس أن بيّنة وبين أمي ريبة. فأمسك عنه على غيظٍ وحنقٍ حتى بلغ الوليد أنه تعدى أم البنين إلى أخته فاطمة بنت عبد الملك، وكانت زوجة عمر بن عبد العزيز، وقال فيها:

بُنْتُ الْخَلِيفَةِ وَالْخَلِيفَةُ جَدُّهَا أَخْتُ الْخَلِيفَةِ وَالْخَلِيفَةُ بَعْلُهَا
فَرِحْتُ قَوَائِلُهَا بِهَا وَتَبَاشَرْتُ وَكَذَاكَ كَانُوا فِي الْمَسَرَّةِ أَهْلُهَا
فَأَحْنَقُ وَاشْتَدَّ غَيْظُهُ وَقَالَ: أَمَا لِهَذَا الْكَلْبِ مُزْدَجَرٌّ عَنْ نَسَائِنَا وَأَخَوَاتِنَا،
وَلَا لَهُ عَنَّا مَذْهَبٌ؟! ثُمَّ دَعَا بِهِ فَأُخْضِرَ، وَأَمَرَ بِبَيْتٍ فَحُفِرَتْ وَدْفَنَتْ فِيهَا حَيًّا^(١).

* وهذه القصة ظاهرة الخطأ من وجوه كثيرة، منها: أن زوجَ فاطمة بنت عبد الملك لم يكن خليفةً حينما صُنِعَتْ هذه الأبيات، وإنما كان أميراً على المدينة المنورة من سنة (٨٦ هـ إلى سنة ٩٣ هـ) حيث ولّاه الوليد نفسه على المدينة، لما له من منزلة عندهم، ولخوولته في آل الخطاب؛ ثم إنَّ واضعَ هذه القصة نفسه يقول: إنَّ الوليد قد دَفَنَ وضاحَ اليمَن حَيًّا، والوليدُ توفي سنة (٩٦ هـ)، وعمر بن العزيز كان خليفة من سنة (٩٩ هـ إلى ١٠١ هـ) فكيف يصحُّ ذلك؟! ثم هل أعاد الوليد سُنَّةَ الوَادِ وبعثها من جديد بعد مضي قرنٍ من الزَّمن على اندثارها؟ إلا أنه في هذه المَرَّةِ يثُدُّ الشُّعراء الذين يتغزلون بالنساء؟ وكان بعضُ العرب قَدَمًا - في الجاهليَّة - يثدّون البنات إذا ما بُشِّرَ أحدهم بالأُنثى.

* ومن الأخبارِ والقَصَصِ الشهيرة التي تُحكى عن أمِّ البنين قصة دخول عزة صاحبة كثير بن عبد الرحمن الشاعر المشهور، فقد رُوي أنَّ عزة قد دخلت على أم البنين، فقالت لها أم البنين: رأيت قول كثير فيك:
قَضَى كُلُّ ذِي دَيْنٍ فَوْقِي غَرِيمَهُ وَعَزَّةٌ مَمْطُولٌ مُعْنَى غَرِيمُهَا
فما هذا الدَّينُ يا عَزَّة؟

(١) الأغاني (٦/ ٢٢٧).

قالت : كنت وعدته قبلة ، فتحرّجتُ منها .

فقالَت أُمّ البنين : أنجزِها ، وإثمها عليّ .

قال الراوي : فتندمت أُمّ البنين على قولها هذا ، وأعتقت عند ذلك رقاباً ، فقد أعتقتُ لكلمتها هذه أربعين أو سبعين رقبة ، وكانت إذا ذكرتها بكّت وقالت : ليتني خرسْتُ ولم أتكلّم بها^(١) .

* ويكفي أن تُردّ هذه الرواية ، بأنّ عزة قد تخرجت وتأثمت وهي امرأة لم تشتهر لولا شعُر كثير ، وهي عزة بنت جميل بن حفص الغفارية الضميرية التي هامَ بها كثيرُ الشاعر المشهور ؛ وأمّا أُمّ البنين - رحمها الله - فلها مكانة عظمت في عالم التّقيات ، والعالمات ، والقانتات ، فهل تُقدّم على الأمر بمعصية فظيعة كهذه ؟!

* لقد وصلتنا كثيرٌ من الصُّور الشّائهة عن فضليات النِّساء في صدر الإسلام ، أرادَ واضعوها أن ينالوا من عفتهن وصلّاهن ليفسدوا غيرهن ممن أتى بعدهن ، والله درُّ القائل^(٢) :
وَأَفْسَدُوا بِلِسَانِ الْحِقْدِ حَاضِرَنَا وَزَوَّرُوا بِرِاعِ الْبُغْضِ مَاضِيَنَا

(١) انظر : الشعر والشّعراء (١/٥١٠) ، وشذرات الذهب (٢/٣٦ و ٣٧) ، وعيون الأخبار (٤/٩٢) ، ومرآة الجنان (١/٢٢٢) ، وصفة الصفوة (٤/٢٩٩ و ٣٠٠) ، وأعلام النساء (١/١٥٣) ، ووفيات الأعيان (٤/١٠٩) ، والأغاني (٩/٢٥) ، والبصائر والذخائر (٧/٤٤ و ٤٥) ، وذمّ الهوى (ص ٢٢٥) ، والدرّ المنثور لزینب فواز (ص ٣٤٣) ومن العجيب أن زينب فواز لم تترجم لأُمّ البنين ، بل ترجمت لمن هي أدنى منها وأقل شهرة ، ولم تورد سوى هذا الخبر في ثنایا ترجمتها لعزة صاحبة كثير . وقد نسب السّراج صاحب كتاب «مصارع العشاق» أن هذه القصة قد حدثت بين عزة وسكينة بنت الحسين بن علي ، وفي هذا مصيبة أشد وأكبر وأنكى . انظر (مصارع العشاق ٢/٨٤) .

(٢) هو صديقنا سليمان محمد محمد غزال من مواليد غزة (١٩٣٨م) وشعره سلس يفيض عذوبة ، ورقة ، وجزالة . وله قصائد جميلة في مختلف المناسبات ، وقد جمعها في ديوان وهو مطبوع بعنوان «همسات الفؤاد» .

* لقد كان مجتمع القرن الهجري الأوّل هو القدوة، والناس ما زالوا قرييين من أنوار الهدى النبوي، وجميع العادات والتقاليد لا تخرج عن الأخلاق والفضائل الإسلامية.

* إنّ التّغيّرات في السّلوک والعادات والأخلاق لا تزول في عشر سنين، أو ربع قرن، بل نصف قرن، فكيف نرى تغيّر الحرّة القرشية الدّينّة الصّينّة أمّ البنين^(١) وغيرها من فواضل النّساء، وتركها الآداب الفاضلة، وجريها وراء الشّهوات والعشق والغرام والغزل؟!

* لقد كانت أمّ البنين وغيرها من نساء عصر التّابعين، وبنات الصّحابة، وبنات العلماء، ومن نشأ في ذلك العصر المثل الأعلى في العلم والأدب والفضل والسّلوک^(٢).

(١) مرّة أخرى أدعو القارئ الكريم ليطلع على كتابنا «نساء من عصر التابعين» بجزأيه، ليجد مصداق ما ذكرناه، وليلاحظ كيف كان لهنّ ذلك الدور العظيم في رواية العلم ونقل الأحاديث إلى السّلف، وإلى كبار علماء الدنيا في عصرهن.

(٢) من المعروف أنّ النساء الحرائر كنّ يستغربين أعمال الخنا والزّنى في الجاهلية، فكيف المسلمات العفيفات، القرشيات الطاهرات؟!

أمّا اللواتي كنّ يقمن بالبغاء في الجاهلية، فلسنّ من قريش، ولا هن من صميمها، بل كنّ من الإمام السّواقط، ويدلّ على ذلك قول الله - عزّ وجلّ -: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيَتَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّبَلْغَاءِ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ [النور: ٣٣]، لأنّ الفتيات في عرف القرآن الكريم لا تُطلق إلا على الإمام، يدلّ عليه قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحَصَّنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَمِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥]، ولو وُجد بغيّ بين حرائر العرب لما خصّ النهي عن البغاء بالإماء، فتخصيص النهي بالإماء يدلّ على أنّ البغاء لم يكن بين حرائر العرب، وأنّ أنفة العرب عن بغاء الحرائر قد أغنى عن نزول النهي عنه.

وقد استبعد ابن خلدون منّ هي دون أمّ البنين في المنزلة العلمية، ولكنهما مشتركتان في طيب عرق النّسب، فقال: ومن الحكايات المدخولة للمؤرخين قصّة العباسة أخت الرشيد مع جعفر بن يحيى وأنها سبب نكبة البرامكة. ثم يقول: وهيها ذلك من منصب العباسة في دينها وأبويها وجلالها، وإنّها بنت عبد الله بن =

* إِنَّ مَنْ يَتَصَدَّى لقراءة الأخبار القديمة عن كرائم النساء وفضلائهن، عليه أن يتصدَّى لتمييز الخبيث من الطَّيِّب، وأن يجلو الحقيقة لأهل الحقَّ ليعرفوها، فليس يعقل أن يكونَ مجتمع نساء القرن الهجري الأوّل مجتمعاً خلعت فيه المرأةُ الحرّةُ الحسيبةُ النسيبةُ، والأديبةُ الأريبةُ، والحافظةُ العالمَةُ، قناعَ الحياءِ، وجالستِ الشعراءَ، ونادمتِ الخُلعاءَ والمجانَ، وعشقتْ أخابثَ النَّاسِ لحلاوة شعرهم ولطيف كلامهم؟!

* إِنَّ الذين صاغوا تلکم القصص، وصنعوا تلکم الأخبار، واخترعوا حكايات خرافية، وادّعوا أنَّهم أخذوها من روايات موثوقة، ومصادر وثيقة، فدعواهم واهية، فيها تعميم ولا تستندُ إلى دليلٍ علمي صحيح، بل إِنَّ كَلَّ ما جاؤوا به من رواياتٍ منقوضٍ من أساسه، فاعتمادهم على كُتُب الأدب بعامة، وعلى كتاب الأغاني للأصبهاني^(١) بخاصة، ليس حجة.

* صحيح أنَّ الأصبهاني قد ساقَ معظم أخباره بالإسنادِ عن رجالٍ ذكَّروهم، والرواية بالإسناد تلقي في روع القارئ الثقة، لذلك اطمأن بعضُ الباحثين إلى روايات الأغاني وأخبار الأصبهاني، فضلُّوا وأضلُّوا، ضلُّوا في

= عباس ليس بينها وبينه إلا أربعة رجال هم أشراف الدين وعظماء الملة من بعده، والعباسة بنت المهدي بن أبي جعفر المنصور ابن محمد السجاد ابن علي بن عبد الله بن عباس، ابنة خليفة، وأخت خليفة، محفوفة بالملك العزيز، والخلافة النبوية، وصحبة الرسول وعمومته، قريبة العهد من بداوة العروبة، وسذاجة الدين البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش، فأين يُطلب الصون والعفاف إذا ذهب عنها، أو أين توجد الطهارة والذكاء إذا فُقد من بيتها؟! (مقدمة ابن خلدون ص ١٥) بتصرف. أقول: إن أم البنين جدها صحابي وهو مروان بن الحكم.

(١) نقل ابن كثير - رحمه الله - عن أبي الفرج بن الجوزي قوله عن الأصبهاني:

ومثله لا يُوثقُ به، فإنَّه يُصرِّح في كتبه بما يوجبُ العشق، ويهون شرب الخمر، وربما حكى ذلك عن نفسه، ومن تأمل كتابه الأغاني رأى فيه كل قبيح ومنكر. (البداية والنهاية ١١/٢٦٣).

وذكر ابن حجر عنه بأنَّه كان أكذب النَّاسِ. (لسان الميزان ٤/٢٢٣).

وقال أيضاً: كذاب، مارق، من الغلاة. (لسان الميزان ١/٣٧٣).

حقائق التاريخ، وأضلّوا من بعدهم في حقائق الرجال والنساء وأخلاقهم.

* ولكي نزف الحقيقة إلى أحباب الفضائل وعشاق المكارم، ونقيم لها من الصدق مركباً، نسوق هنا كلام الدكتور زكي مبارك عندما تحدّث في كتابه «النثر الفني في القرن الرابع الهجري» عن الأصبهاني وكتابه فقال: أريد أن أنصّ على ناحيتين في الأصبهاني وكتابه، لم أجد من تنبّه لهما من الباحثين، ولهاتين الناحيتين أهمية عظيمة في فهم الحياة الأدبية، وسيكون لهما أثر عظيم في دعوة المؤلفين إلى الاحتياط حين يرجعون إلى كتاب الأغاني، يتلمسون الشواهد في الأدب والتاريخ.

الناحية الأولى: خاصة بالأصبهاني، تلك الناحية هي خلقه الشخصي، فقد كان الأصبهاني مُسرفاً أشنع الإسراف في اللذات والشّهوات، وقد كان لهذا الجانب من تكوينه الخلقي أثر ظاهر في كتابه، فإنّ كتاب الأغاني أحفل كتاب بأخبار الخلاعة والمجون، وهو حين يعرض للكتاب والشعراء يهتم بسرد الجوانب الضعيفة من أخلاقهم الشخصية، ويهمل الجوانب الجديّة إهمالاً يدلّ على أنّه كان قليل العناية بتدوين أخبار الجدّ والرّزانة والتّجمل والاعتدال.

وهذه النّاحية من الأصبهاني قد أفسدت كثيراً من آراء المؤلفين الذين اعتمدوا عليه. إنّ إكثار الأصبهاني من تتبع سقطات الشعراء، وتلمس هفوات الكتاب، جعل في كتابه جواً مشبعاً بأوزار الإثم والغواية، وأذاع في النّاس فكرة خاطئة هي اقتران العبقرية بالتّزق والطّيش، والخروج على ما ألّفَت الجماهير من رعاية العرف والدين.

أمّا النّاحية الثّانية: فهي خاصة بكتاب الأغاني، تلك النّاحية هي نظّم ذلك الكتاب، ففي مقدمته عبارات صريحة في الدّلالة على أنّ مؤلفه قصر اهتمامه، أو كاد على إمتاع النفوس والقلوب والأذواق، فهو كتاب أدب لا كتاب تاريخ، وأريد بذلك أنّ المؤلّف أراد أن يقدّم لأهل عصره أكبر مجموعة تُغذّي بها الأنديّة، ومجامع السّمر، ومواطن اللّهُو، ومغاني الشّراب، وإنّه ليحدثنا في المقدمة بأنّه أتى في كلّ فصل من كتابه بفقر جد

وهزل، وآثار وأخبار، وسير أشعار متصلة بأيام العرب المشهورة، وأخبارها
المأثورة، وقصص الملوك في الجاهلية، والخلفاء في الإسلام، ولهذا
التحوي في التأليف قيمة عظيمة جداً، إذا فهمه القارئ على وجهه الصحيح،
فهو دليل على خصوبة التصور والخيال، وبرهان على أن كتاب اللغة العربية
لم يُحرّموا من القصص الشائق الخلاب، ولكن الخطر كل الخطر، أن
يطمئن الباحثون إلى أن لرواية الأغاني قيمة تاريخية، وأن يبنيوا على أساسها
ما يشاؤون من حقائق التاريخ^(١).

* ويمكننا الآن أن نقول بدورنا: يجب أن ننتبه إلى روايات الأغاني
وأخباره، وروايات غيره من كتب الأدب، ونعرضها على الميزان الذي نهجه
أهل الحق في أحكامهم، حتى تتوضح صورة أي امرأة ذكرها الأصبهاني، أو
ترجمة أي رجل أو شاعر ممن أوردتهم، لكي نكون على بصيرة ونور من الأمر.

* كما نود أن نشير إشارة أخرى إلى أن كثيراً من المجالس الأدبية التي
كانت تُعقد في بيوت الأدباء، وفي مجالس بعض الأمراء بعد القرن الهجري
الثالث، كانت تشوبها كثير من الأخبار الموضوعة لتزيّن تلکم المجالس،
ولإثراء التاريخ بغرائب الأخبار - كما زعموا - ولهذا نجد أن كثيراً من
القصص مختلفة لا تتفق وحقائق التاريخ، بل نجد في القصة نفسها تناقضات
كثيرة، لا ينظمها خيط واحد، ومن هنا كانت تلکم المجالس عرية عن
الصواب، يهذي فيها بعض المتحذلقين عن فلان وفلانة، ويهذي بالقليل
والقال، ليُقال عنه أخباري، والله دُرٌّ مَنْ قال:

لِقَاءُ النَّاسِ لَيْسَ يُفِيدُ شَيْئاً

سِوَى الْهَذْيَانِ مَنْ قِيلَ وَقَالَ

فَأَقْلِلْ مَنْ لِقَاءِ النَّاسِ إِلَّا

لَأُخَذَ الْعِلْمُ أَوْ إِضْلَاحُ حَالِ

(١) النشر الفني في القرن الرابع الهجري (ص ٢٨٨ - ٢٩٠).

مَعَ فَاضِلَاتِ الْخَالِدَاتِ :

* لقد كانت أُمُّ البنين - رحمها الله - من أكثر النساء في زمانها عبادةً وصلاةً وصلاً، وحبّت مراراً تبتغي مرضاة الله - عزّ وجلّ -، وكانت في حياتها مثلاً ميموناً للمرأة الذاكرة العابدة الموصولة القلب بالله تعالى، اتخذت الذكر أنساً لوحدها، وغذاءً لروحها، وشفاءً لقلبها، وزاداً لمعادها، والله دُرُّ القائل :

اتَّخَذَ اللهُ مُؤْنَساً ودَعَ النَّاسَ جَانِباً
وَتَشَاغَلَ بِذِكْرِهِ إِنَّ فِي ذِكْرِهِ الشِّفَا^(١)

* أمّا في محاسن الجود والسّخاء، فلها أخبارٌ حسان، ولها المستجاد من فعلات الأجواد، وقد مرّ بعضها معنا.

* وخلاصة القول: إنّ أُمَّ البنين كانت ذرّوة كلّ فضيلة، وكلّ مكرمة، وقل أن يجود الزّمان بمثلها.

* وعاشت أُمُّ البنين خلافة زوجها الوليد، وبموته في سنة (٩٦ هـ) لم نعد نسمع عنها شيئاً يذكر^(٢)، وأغلب الظنّ أنها توفيت في بداية القرن الثاني الهجري في مدينة دمشق، بعد أن ظلّت مشغلةً بالعبادات والصّدقات وأعمال البرّ والخيرات وجبّ العثرات.

* أمّا دارُها فقد كانت بدمشق قرب طاحونة الثّقفيين المعروفة في زمنٍ

(١) طبقات الحنابلة (٢/١٥٥).

(٢) هناك خبرٌ أورده ابن عساكر - رحمه الله - يُشتمُّ منه أنها قد لزمت أخاها عمر بن

عبد العزيز، حيثُ أورد ابن عساكر بسنده عن إبراهيم بن أبي عبلة، قال :

دخلتُ على أُمِّ البنين وهي تعالج قدرأ لها، فقلت : ما هذا؟

فقلت : شيءٌ اشتهاه أمير المؤمنين، فأنا أعالجه .

قال ابن عساكر : لعلها كانت تطبخ لأخيها عمر، والله أعلم .

(تاريخ مدينة دمشق تراجم النساء ص ٤٨١).

ابن عساكر^(١) بطاحونة القلعة. وكانت لها دار أخرى خارج باب الفراديس على يسرة المار إلى المقبرة^(٢).

* تلکم - أحبائي - هي أم البنين بنت عبد العزيز التي خلدت في عالم فضليات النساء، وكانت من اللاتي عمّرن المحامد في ميادين الفضائل، وأرجو أن أكون قد وفّيت حقّها، وعرضت سيرتها عرضاً حسناً صحيحاً يتناسب مع مقدارها وشأنها.

* وتبقى أم البنين خالدة مع الخالدات في تاريخ النساء، وتواريخ الفضليات اللاتي حفظ الدهر مقامهن، فلقد رأينا صوراً من صفحات حياتها، وكلّها وضیئة مباركة على الرغم مما نسب إليها بهتاناً وزوراً وهوى. * فرحم الله أم البنين، وأخاها عمر بن عبد العزيز، وأجزل مثوبتها، وأسكنها عليين، وغفر لنا ولها؛ اللهم وفقنا للصواب وقول الحق، ومعرفة الحق، والسیر على طريق الحق، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

(١) توفي ابن عساكر في رجب سنة (٥٧١هـ) ودُفنَ بدمشق في باب الصغير.
(٢) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٤٨٠)، وأعلام النساء (١/ ١٥٣ و ١٥٤).

٤
أمّ جعفر بن يحيى

امرأة من العصر الذهبي:

* هذه امرأة من نساء العصر العباسي الأول، ذلك العصر الذي أطلق عليه المؤرخون: العصر الذهبي، لما شهد من نهضة علمية وعمرانية واقتصادية عمّت جميع الأقاليم التي تبسط عليها الخلافة سجاها من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب.

* وهذه المرأة شهدت أحداثاً متموجة في حياتها، فقد عاشت حيناً من الدهر في ثياب الملوك، يقف عند رأسها مئات الوصيفات والمملوكات ينتظرن إشارتها، ويسارعن إلى قضاء أوامرها؛ ثم دالت تلكم الأيام فعاشت شطر حياتها الآخر ترجو نوال الناس، ولا يأبى لها أحد، حتى إن التاريخ قد نسي أو تناسى مكانتها.

* ولعلّ الوقت قد حان لمعرفة هوية هذه المرأة؛ إذن فلنقرأ بطاقة تعريفها، فهي أم جعفر بن يحيى البرمكي، وتدعى فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة^(١)، إحدى نساء الوزراء، وإحدى أمهات أشهر الوزراء في العصر العباسي، وإحدى النسوة البرمكيات اللواتي لمعت أسماؤهن في قصور الخلفاء.

* ولا نعلم كثيراً عن مراحل نشأتها، وعن بداية تربيتها، والجو الذي نشأت فيه في مستقبل حياتها، إلا أن مجمل الأخبار التي وصلتنا عنها تشير إلى رجاحة عقلها، ونفاذ رأيها، وصفاء نظرتها، وقوة عارضتها، فقد نضرت جوانب التاريخ النسوي بموقف ندي، وكلام رقيق يشير إلى ما انحسر عنه عقلها من نثر جميل، وإلى ذلك الشعر الجميل الذي تختزنه ذاكرتها في المواقف الصعبة.

(١) انظر العقد الفريد (٥/٦٢ - ٦٥)، ومروج الذهب للمسعودي (٣/٣٩٥)، ووفيات الأعيان (١/٣٤١) وأعلام النساء (١/١٩٦ - ١٩٩)، وغيرها من الكتب المتنوعة من مثل: تاريخ الطبري، والوزراء والكتاب للجّهشيار، وصبح الأعشى للقلقشندي وغيرها كثير. وقيل: اسمها: «عتابة».

* وحينما نتأمل موقفها مع هارون الرشيد - بعد مقتل ابنها جعفر بن يحيى - ندرك أن كلامها وكلماتها كانت قطعاً من قلبها ومشاعرها وعقلها وفهمها .

* ولما رخت أدرس كلامها مع الرشيد ألفت أن أم جعفر هذه واحدة من فصيحات نساء العصر العباسي ، وبلغات نساء الوزراء اللواتي حفظ الدهر مقالاتهن ، واعترف بمقاماتهن ، وسجل آثارهن ، وبدائعهن .

* لقد استمدت وحي البلاغة ، وسحر البراعة ، وهمس البيان من صبيب قلبها ، وخطرات سرائرها ، على الرغم من صعوبة الموقف الذي كانت تقفه بين يدي الخليفة هارون الرشيد ملك ثلاثة أرباع الأرض يوم ذاك .

* وعلى الرغم من أن ابنها جعفر بن يحيى ، والفضل بن يحيى كانا من خواص الرشيد ؛ إلا أن أم جعفر كانت قد أرضعت هارون الرشيد مع الفضل ؛ ويبدو أنها قد نهلت من ينابيع الثقافة وموارد العلم عصر ذاك ، وعُرفت بجودة القريحة ، وصفاء الذهن ، وبلاغة المقال ، وقد شهد لها بهذا أهل الفن في هذا المجال .

* وقد عُرفت أم جعفر أيضاً بحضور البديهة ، وسلامة الأدب ، وجمال الكلام ، فقد قيل لها يوماً عن ولديها :
يا أم جعفر ! بعض الناس يفضل جعفرًا على الفضل ، وبعضهم يفضل الفضل على جعفر .

فقلت : مازلنا نعرف الفضل للفضل^(١) .

* وهذه الإجابة - كما تلاحظ - تدل على تمكّنها من زمام الفصاحة ، وناصية البلاغة ، ورأس البيان .

* وعندما أذن الله - عز وجل - ببلاء البرامكة ، وزوال دولتهم ، وقتل جعفر البرمكي ، ظلت أم جعفر متزنة ، تحتفظ بهدوئها ، ورباطة جأشها ،

(١) انظر : أعلام النساء (١/١٩٩) .

وتنشأ على لسانها روائع العبارات، وبدائع الألفاظ.

* أما سبب نكبة البرامكة، فذلك شيء ذكرته كُتُبُ التاريخ وفي مقدمتها: تاريخ الطبري، وكامل ابن الأثير، وبداية ونهاية ابن كثير، والمصادر الأدبية وكتب التراجم وغيرها من كتب المعارف المتنوعة.

* وبعد أن نكب الرشيد البرامكة، استصفى أموالهم، وأخذ ضياعهم، ومتاعهم، فوجد لهم مائة حياهم به اثني عشر ألف ألف، ووجد من سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف، وستمئة وستة وسبعين ألفاً.

* وأما غير الأموال من الضياع والغلات، والأواني فشيء لا يُوصف أقله، ولا يُعرف أيسره، فضلاً عن جميعه، إلا من أحصى الأعمال، وعرف منتهى الآجال^(١).

دُخُولُهَا عَلَى الرَّشِيدِ:

* روى سهل بن هارون^(٢) قصة أم جعفر فقال: كانت أم جعفر بن يحيى قد أرضعت هارون الرشيد مع ابنها جعفر بن يحيى، لأنه كان رُبِّي في حجرها، وغُذِّي برسلها^(٣).

(١) انظر: شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي (٣٩٧/٢) طبعة دار ابن كثير المحققة.

(٢) سهل بن هارون بن راهبون، يُكنى أبا عمرو، من أهل نيسابور، نزل البصرة فُنسب إليها، ويُقال: إنه كان شعوبياً يبغيض العرب. انفرد سهل في زمانه بالبلاغة والحكمة، وله يد في النظم والشعر، كان كاتباً للمأمون على خزائن الحكمة وخازناً لها، صنّف كتاباً في مدح البخل، ثم أهداه للحسن بن سهل واستماحه، فكتب إليه الحسن: قد مدحت ما ذمه الله، وحسنت ما قبحه الله. ولم يعطه شيئاً. وكان سهل بن هارون من أبخل الناس، وله في البخل وغيره نوادر حسنة، أورد الجاحظ شيئاً منها. وله كلمات في غاية البلاغة، من مثل قوله: حق على كل ذي مقالة أن يبدأ بحمد الله قبل استفتاحها، كما بدىء بالنعمة قبل استحقاقها. وله نظم جميل أيضاً. مات سنة (٢١٥ هـ).

(٣) «غذي برسلها»: غذي بلبنها. والصحيح أن الذي أرضعته هو الفضل بن يحيى الذي ولد قبل الرشيد بسبعة أيام (الكامل ١٠٦/١).

* فنشأ هارون الرشيد، وقد حفظ لها عنايتها به، فكان يشاورها في بعض أموره مظهرًا لإكرامها والتبرك برأيها.

* وكان هارون الرشيد قد آلى وهو في كفالتها ألا يحجبها عنه، ولا استشفعته لأحدٍ إلا شفّعها فيه.

* وكانت أمّ جعفر قد آلت عليه ألا دخلت على هارون إلا مأذوناً لها، ولا شفعت لأحدٍ لغرضٍ دنيا، أو مقترفٍ ذنباً.

* قال سهل بن هارون متحدثاً عن أعمال أمّ جعفر بن يحيى: فكم من أسيرٍ فكّت، ومُبْنهم عنده فَتَحَتْ، ومُسْتَغْلَقٍ منه فَزَجَتْ.

* ولما فَتَكَ هارون الرشيد بابنها جعفر بن يحيى في سنة (١٨٧ هـ)، قَذَفَ أيضاً زوجها يحيى بن خالد البرمكي، وبقية الأسرة البرمكية في غياهب السّجن بعد إيقاعه بالبرامكة، احتجب الرشيد بعد قدومه من الرّقة^(١)، فطلبت الإذن عليه من دار البانوقه^(٢) بنت المهدي، ومثّت

(١) «الرّقة»: هي البلد المشهور الآن على شاطئ الفرات. (وفيات الأعيان ٦/ ٢٢٧)، والرّاققة: هي الرّقة القديمة، وتجاور الرقة الجديدة، ويقال لهما الرقتان، تغليباً لأحد الاسمين على الآخر، كما قيل: العُمران، والقمران، وغير ذلك. و«الرّقة»: كل أرض إلى جنب وادٍ، ينسبط الماء عليها أيام المدّ ثم ينضب (القاموس المحيط ص ١١٤٥).

(٢) «البانوقه بنت المهدي»: سمّاها ابن الأثير في «كامله»: «الياقوتة». قال ابن الأثير - رحمه الله -: البانوقه بنت المهدي، كان المهديّ معجباً بها لا يطيق الصّبر عنها، حتّى إنّه كان يلبسها لبسة الغلمان، ويركبها معه، فلما ماتت وجدّ عليها، وأمر ألا يحجب عنه أحد، فدخل النّاس يعزّونه، وأجمعوا على أنّهم لم يسمعوا تعزيةً أبغ ولا أوجز من تعزية شبيب بن شيبه، فإنّه قال:

يا أمير المؤمنين! ما عند الله خيرٌ لها منك، وثوابُ الله خيرٌ لك منها، وأنا أسأل الله ألا يحزنك، ولا يفتنك، وأن يعطيك على ما رزئت أجراً، ويعقبك صبراً، ولا يجهد لك بلاء، ولا ينزع منك نعمة، وأحقّ ما صبرَ عليه، مالا سبيل إلى ردّه. (الكامل ٦/ ٨٧).

بوسائلها^(١) إليه، فلم يأذن لها الرشيد، ولا أمر بشيء فيها.

* فلما طال ذلك بها خرجت أم جعفر كاشفة وجهها، واضعة لثامها، حافية في مشيتها، حتى صارت بباب قصر الرشيد. فدخل عبد الملك بن الفضل الحاجب، وقد رأى أم جعفر على تلك الحال، فقال الرشيد: ظئر^(٢) أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب شماتة الحاسد إلى حنين الوالد، وشفقة أم الواحد!..

فقال الرشيد: ويحك يا عبد الملك! أو ساعية؟

قال عبد الملك: نعم أعز الله أمير المؤمنين حافية!

قال الرشيد: إذًا، أدخلها يا عبد الملك، فربَّ كبدٍ كريمٍ غذتها، وربَّ كربةٍ حلِيمٍ فَرَجَّتْهَا، وعورةٍ شريفٍ سَتَرْتُهَا!

قال سهل بن هارون: فما شككتُ يومئذ في النجاة بطلبتِها، وإسعافِها بحاجتِها، لما سمعتُ من كلام هارون الرشيد، وحرصه على دخولها عليه، ومثولها بين يديه.

حوارها مع الرشيد:

* أذن هارون الرشيد لأُم جعفر بن يحيى بالدُخول عليه، فدخلت، فلما نظر الرشيد إليها داخلَةً حافيةً، قام هو الآخرُ حافياً حتى تلقّاها بين عُمَدِ المجلس، وأكبَّ على تقبيل رأسها، ثم أجلسها معه.

* ولما اطمأنت في مجلسها التفتت إلى هارون الرشيد والأسى يرتسم على محيّاها، والحزن ي موج فوق جبينها؛ وقالت: يا أمير المؤمنين، أيعدو

(١) «مَتَتْ»: التوسل بقربة.

«بوسائلها»: جمع وسيلة؛ ومعناها: المنزلة عند الملك، والدرجة، والقربة.

(٢) «ظئر»: العاطفة على ولد غيرها، المرضعة له في الناس، وغيرهم، للذكر والأنثى، وجمعها: أظؤور، وأظار، وظؤور. (القاموس المحيط ص ٥٥٥).

علينا الزمان، ويجفونا خوفاً لك الأعوان، ويحردك^(١) عنا البهتان،
ويوسوس لك الشيطان؟!

* ثم إنَّ أمَّ جعفر أخذتْ تُذكِّرُ الرشيدَ بحنوها عليه، وتربيتها له فقالت:
يا أمير المؤمنين، أكونُ هذا وقد ربَّيتُك في حجري، وأخذتُ برضاعي لك
الأمانَ من دهري، ومن عدوي؟! .

فقال لها الرشيدُ في هدوءِ المطمئن: وما ذلك يا أم الرشيد؟!

* يقول سهلُ بن هارون راوي هذه القصة: فوالله لقد آيسني أميرُ
المؤمنين هارون من رأفته بأمِّ جعفر بتركه كنيثها آخرًا، ما أطمعني من برِّه بها
أولاً^(٢).

* عندئذ قالت أمُّ جعفر في شيءٍ من الأمل: ظنُّك^(٣) يحيى، وأبوك بعدَ
أبيك، ولا أصِفُه بأكثرَ مما عرفَه به أميرُ المؤمنين من نصيحته له، وإشفاقه
عليه!

فقال لها هارونُ في حَزْمٍ قد شَيَّبَ^(٤) بلين: يا أم الرشيد، أمرٌ سبقَ،
وقضاءٌ حُمَّ، وغضبٌ نزلَ ونفَذَ. قالت أمُّ جعفر بشيءٍ من الخضوع: يا أمير
المؤمنين؛ ﴿يَمَحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد: ٣٩]؛
قال الرشيدُ: صدقت! فهذا أمرٌ مما لم يَمَحُه الله - عزَّ وجلَّ - .

* وهنا قالت أمُّ جعفر بشيءٍ من التَّهَيَّبِ: الغيبُ محجوبٌ عن النَّبِيِّينَ،
فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟!

قال سهل بن هارون:

(١) «يحردك»: يمنعك ويغضبك.

(٢) يقصد سهلُ بن هارون: أنَّ تَرَكَ الرشيدِ نداءها بأمِّ جعفر آيسَهُ مما طمَعَ فيه من العفو
عن أهلها وذويها.

(٣) «ظنُّك»: تقصد زوج مرضعتك، وهو زوجها يحيى بن خالد المطروح في سجن
الرشيد.

(٤) «شَيَّبَ»: خُلِطَ ومُزِجَ.

ولما سمعَ منها الرشيد ذلك، أطرق مليّاً، ثم إنّه رفعَ رأسه وتمثّل بقولِ
أبي ذؤيب الهذلي^(١):

وَإِذَا الْمِنِيَّةُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا

أَلْفَيْتَ كُلَّ تَمِيمَةٍ لَا تَنْفَعُ

وعندئذ قالت أمّ جعفر بغير رواية: ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين،
وقد قال الأول:

وَإِذَا افْتَقَرْتَ إِلَى الذَّخَائِرِ لَمْ تَجِدْ

ذُخْرًا يَكُونُ كَصَالِحِ الْأَعْمَالِ^(٢)

ثمّ إنّها أردفت إنشادها بقولها: وإنّ هذا يا أمير المؤمنين بعد قولِ الله
- عزّ وجلّ - في القرآن العظيم: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ
وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

قال سهل بن هارون: فأطرق هارون الرشيد مليّاً، ثم قال: يا أمّ الرشيد،
أقول:

إِذَا انصَرَفْتَ نَفْسِي عَنِ الشَّيْءِ لَمْ تَكْدُ

إِلَيْهِ بِوَجْهِهِ آخِرَ الدَّهْرِ تَقْبَلُ

(١) «أبو ذؤيب الهذلي»: خويلد بن خالد الهذلي شاعر مخضرم، وبيته هذا من قصيدة
له شهيرة في عالم الرثاء، حيث يرثي بها بنيه، وكان قد هلك له خمس بنين في عام
واحد، أصابهم الطاعون، وكانوا هاجروا معه إلى مصر، وهلك أبو ذؤيب في
طريق مصر سنة (٢٧ هـ). ومن أبيات القصيدة هذا البيت المشهور:
وتجلّدي للشّاميتين أريهم أني لريب الدّهر لا أتضععُ
(ديوان الهذليين ٤/١).

(٢) هذا البيت للأخطل وهو غياث بن غوث التغلبي شاعر بني أمية، مات سنة
(٩٠ هـ)، ويحكى أنّ الخليل بن أحمد - رحمه الله - كان ينشد هذا البيت كثيراً،
وهذا البيت في ديوان الأخطل (ص ١٥٨).

فأجابت أم جعفر: يا أمير المؤمنين وأنا أقول: سَتَقْطَعُ فِي الدُّنْيَا إِذَا مَا قَطَعْتَنِي يَمِينُكَ فَاَنْظُرْ أَيَّ كَفٍّ تَبْدُلُ

قال هارون: رضيتُ.

قالت أم جعفر وقد برقَ في وجهها بصيصٌ من أملِ العفو: فهَبْهُ لِي يا أمير المؤمنين، أَوْ هَبْهُ لَهِ تَعَالَى، فَقَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ شَيْئاً لِلَّهِ لَمْ يَوْجِدْهُ اللَّهُ فَقْدَهُ».

وهنا أكبَّ هارون الرشيد مليّاً يتفكّر في قولها، ثم رفع رأسه، وقرأ قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ الْأَمْثَرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

قالت أم جعفر على الفور: يا أمير المؤمنين؛ قال تعالى أيضاً: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١ ينصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿ [الروم: ٤، ٥]، واذكر يا أمير المؤمنين أَلَيْتَكَ^(١): ما استشفعتُ إلا شَفَعْتَنِي.

فقال: واذكري يا أم الرشيد أَلَيْتَكَ أَلَا شَفَعْتَ لِمَقْتَرِفٍ ذَنْباً.

* قال سهل بن هارون راوي القصة:

فلَمَّا رَأَتْ أُمُّ جَعْفَرٍ أَنَّ الرَّشِيدَ قَدْ صَرَحَ بِمَنْعِهَا، وَلَا ذَعْنَ لِمَطْلَبِهَا، أَخْرَجَتْ حُقَّةً مِنْ زَمْزَمَةٍ خَضِرَاءَ، ثُمَّ وَضَعَتْهَا بَيْنَ يَدَيْهِ؛ فَنَظَرَ إِلَيْهَا الرَّشِيدُ وَقَالَ: مَا هَذَا؟

* فتقدمت أم جعفر، وفتحت عنه قُفْلاً من ذهب، فأخرجت منه ذوائبه وثناياه وقميصه، وقد غمست جميع ذلك في المِسْكِ والطِّيبِ والغالية، وقالت: يا أمير المؤمنين، أَسْتَشْفَعُ إِلَيْكَ، وَأَسْتَعِينُ بِاللَّهِ عَلَيْكَ، وَبِمَا صَارَ مَعِيَ مِنْ كَرِيمِ جَسَدِكَ، وَطِيبِ جَوَارِحِكَ لِيَحْيِيَ بَنُ خَالِدِ عَبْدِكَ.

* قال سهل بن هارون: فلَمَّا رَأَى الرَّشِيدُ ذَلِكَ، أَخَذَهُ، فَلَثَمَهُ، ثُمَّ إِنَّهُ

(١) «أليتكَ»: الألية: اليمين.

استعبر، وبكى بكاءً شديداً، وبكى أهل المجلس، وفي تلك الأثناء، وهاتيكُم اللحظات المتموجة بالعواطف، مضى البشيرُ إلى يحيى بن خالد، وهو لا يظنُّ إلا أنَّ البكاءَ رحمةٌ له، ورجوعٌ عنه، وسيعفو الرشيد عنه، ويخرجه من غياهبِ السجن، وضيقِ الحبس.

* ولما أفاق الرشيدُ من بكائه، أخذَ تلك الأشياءَ وردّها في الحقّة^(١)، وقال لها: لحسنّا ما حفظتِ الوديعة!.

قالت: وأنتَ أهلٌ للمكافأةِ يا أمير المؤمنين.

* قال سهلٌ: فسكتَ هارونُ الرشيد، ثمَّ أقفلَ الحقّةَ ودفعها إليه، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

قال أمّ جعفر: واللهُ يقول: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨] ويقول أيضاً: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ [النحل: ٩١].

قال: وما ذاك يا أمّ الرشيد؟

قالت: ما أقسمت لي به ألاّ تحجبني ولا تجهني ولا تمهني.

قال: أحبُّ يا أمّ الرشيد أنْ نشتره محكمةً فيه.

فقالت: أنصفتَ يا أمير المؤمنين، وقد فعلتُ غير مستقيلة لك، ولا راجعة عنك.

قال: بكم يا أمّ الرشيد؟

قالت: برضاكَ عمّن لا يُسخطُك.

قال: يا أمّ الرشيد، أمّا لي عليك من الحقّ مثل الذي لهم؟

قالت: بلى يا أمير المؤمنين، أنتَ أعزُّ عليّ، وهم أحبُّ إليّ.

قال: فتحكّمي في تمنيةٍ بغيرهم.

(١) «الحقّة»: بالضم: وعاء من خشب، وجمعها: حقّ، وحقوق، وحُقّ، وأحقاق، وحِقاق (القاموس المحيط ص ١١٣٠).

قالت: بلى، قد وهبتكه، وجعلتك في حلٍّ منه، وقامتُ عنه، وبقيَ الرشيدُ مبهوراً ما يحيرُ لفظه.

* قال سهل بنُ هارون: وخرجتُ أمُّ جعفر البرمكي عن الرشيد، فلم تُعدْ إليه، ولا والله ما رأيتُ عبرةً، ولا سمعتُ لها أنَّةً^(١).

استشفاعُ زوجِ أمِّ جعفر:

* كان يحيى بنُ خالد بن برمك زوجُ فاطمة أم جعفر في سجن الرشيد، وقد بلغه أنَّ زوجةَ فاطمة أم جعفر قد دخلتُ على الرشيد واستعطفته، فلم يردَّ عليها، وفكرَ يحيى وهو في السجن أن يكتبَ رسالةً إلى هارون الرشيد يصوِّرُ بها حالَ زوجته وحاله، ويستعطفه، فلعلَّه يلينُ ويخرجه من السجن.

* وكتبَ يحيى بن خالد وهو في السجن رسالةً طويلةً جاء فيها: لأمرِ المؤمنين، وخليفةِ المهديين، وإمام المسلمين، وخليفة ربِّ العالمين: مَنْ عَبْدٍ أَسْلَمْتَهُ ذَنْبُهُ، وَأَوْبَقْتَهُ^(٢) عِيوبُهُ، وَخَذَلْتَهُ شَقِيقُهُ، وَرَفَضَهُ صَدِيقُهُ، وَزَلَّ بِهِ الزَّمَانُ، وَأَنَاخَ عَلَيْهِ الْحِذْثَانُ^(٣)، فَصَارَ إِلَى الضَّيْقِ بَعْدَ السَّعَةِ، فَعَالَجَ الْبُؤْسَ بَعْدَ الدَّعَةِ^(٤)، وَافْتَرَشَ السُّخْطَ بَعْدَ الرِّضَا، وَاکْتَحَلَ الشُّهَادَ^(٥) بَعْدَ الْهَجُودِ^(٦)، سَاعَتُهُ شَهْرٌ، وَلَيْلَتُهُ دَهْرٌ، وَقَدْ عَايَنَ الْمَوْتَ، وَشَارَفَ الْفُوتَ، جَزَعاً لِمَوْجِدَّتِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَسْفَافاً عَلَى مَا فَاتَ مِنْ قُرْبِكَ، لَا عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْمَوَاهِبِ، لِأَنَّ الْأَهْلَ وَالْمَالَ إِنَّمَا كَانَا لَكَ وَبِكَ، وَكَانَا فِي يَدَيَّ عَارِيَةً، وَالْعَارِيَةُ مَرْدُودَةٌ؛ وَأَمَّا مَا أَصَبْتَ بِهِ وَلَدِي - جَعْفَرَ - فَبَذْنِهِ، وَلَا أَخْشَى عَلَيْكَ الْخَطَأَ فِي أَمْرِهِ، وَلَا أَنْ تَكُونَ تَجَاوَزْتَ بِهِ فَوْقَ حُدِّهِ.

(١) انظر: العقد الفريد (٦٢/٥ - ٦٥) ببسیر تصرّف.

(٢) «أوبقته»: حَبَسْتَهُ، و«أوبقته»: حَبَسَهُ أَوْ أَهْلَكَه. (القاموس المحيط ص ١١٩٧).

(٣) «الحِذْثَانُ»: نَوَائِبُ الدَّهْرِ، قَالَ الزَّرْكَلِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - مِنْ مَطْلَعِ قَصِيدَةٍ رَائِعَةٍ لَهُ: اللَّهُ لِلْحِذْثَانِ كَيْفَ تَكِيدُ - بَرْدِيُّ يَغِيضُ وَقَاسِيُونَ يَمِيدُ

(٤) «الدَّعَةُ»: سَعَةُ الْعِيشِ.

(٥) «الشُّهَادُ»: الْأَرْقُ.

(٦) «الْهَجُودُ»: النَّوْمُ.

* تفكّر في أمري ، - جعلني الله فداك - ، ولِيَمِلْ هَوَاكَ بالعفو عن ذنب
 إن كان فَمِنْ مثلي الزَّلل ، ومن مثلك الإقالة^(١) ، وإنما أعتذرُ إليك بإقرار
 ما يجبُ به الإقرار حتى ترضى ، فإذا رضيت رجوتُ إن شاء الله أن يتبيّن لك
 من أمري ، وبراءة ساحتي ما لا يتعاضمُ بعده ذنبُ أن تغفرهُ ، مدَّ اللهُ لي في
 عمرك ، وجعل يومِي قَبْلَ يومك .

* ثمَّ إنَّ يحيى البرمكي ذلَّل رسالته بأبياتٍ استعطافٍ بلغت (٤١ بيتاً) ،
 ذكرَ له خلالها زوجه فاطمة أم جعفر ، وحالها التي صارت إليها ، ومن تلکم
 الأبيات :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ ذِي الصَّنِيعِ	عَةِ وَالْعَطَايَا الْفَاشِيَةِ
وَابْنِ الْخَلَائِفِ مِنْ قُرَيْدٍ	شِ وَالْمُلُوكِ الْهَادِيَةِ
إِنَّ الْبَرَامِكَةَ الَّذِي	نَ رُمُوا لَدَيْكَ بِدَاهِيَةِ
صُفِّرُ الْوُجُوهِ عَلَيْهِمْ	خَلَعُ الْمَذَلَّةِ بَادِيَةِ
فَكَأَنَّهُمْ مِمَّا بِهِمْ	أَعْجَارُ نَخْلٍ خَاوِيَةِ
عَمَّتْهُمْ لَكَ سَخَطَةٌ	لَمْ تُبْقِ مِنْهُمْ بَاقِيَةِ
أَضَحُوا وَجُلُّ مُنَاهُمْ	مَنْكَ الرُّضَا وَالْعَافِيَةِ
يَكْفِيكَ مَا أَبْصَرْتَ مِنْ	ذُلِّي وَذُلِّ مَكَانِيَةِ
أَخْلِيفَةُ الرَّحْمَنِ إِنَّ	كَ لَوْ رَأَيْتَ بَنَاتِيَةِ
وَبُكَاءَ فَاطِمَةَ ^(٢) الْكَثِي	بَةِ وَالْمَدَامِيعُ جَارِيَةِ
وَمَقَالَهَا بِتَوَجُّعٍ	يَا سَوَّأَتِي وَشَقَائِيَةِ
مَنْ لِي وَقَدْ غَضِبَ الزَّمَا	نُ عَلَى جَمِيعِ رَجَالِيَةِ
وَعَدِمْتُ طِيبَ مَعِيشَتِي	وَتَغَيَّرْتُ حَالَاتِيَةِ
يَا لَهْفَ نَفْسِي لَهْفَهَا	مَا لِلزَّمَانِ وَمَالِيَةِ
يَا عَطْفَةَ الْمَلِكِ الرُّضَا	عُودِي عَلَيْنَا ثَانِيَةِ

(١) «الإقالة»: الصّفح والعفو .

(٢) «فاطمة»: هي أم جعفر البرمكي زوج يحيى بن خالد .

فلم يكن ليحيى البرمكي من هارون الرشيد جواب^(١) .

* ويروى أنَّ الرشيدَ لما قرأَ الأبياتَ السَّابقةَ، وقَّعَ تحتَ ذلكَ الشَّعرِ

يقول :

أَجْرِي الْقَضَاءُ عَلَيْكُمْ	مَا جِئْتُمُوهُ عَلاَنِيَةً
مِنْ تَرْكِ نَصْحِ إِمَامِكُمْ	عِنْدَ الْأُمُورِ الْبَادِيَةِ
يَا آلَ بَرْمَكٍ إِنَّمَا	كُنْتُمْ مَلُوكًا عَادِيَةً
فَكَفَرْتُمْ وَعَصَيْتُمْ	وَجَحَدْتُمْ نِعْمَائِيَهُ
فَسُلِبْتُمْوهَا هَكَذَا	وَكَذَا تُرَدُّ الْعَارِيَةُ
هَذِي عَقُوبَةُ مَنْ عَصَا	مَعْبُودَهُ وَعِصَانِيَهُ

وكتبَ تحتَ الشَّعرِ : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [النحل : ١١٢] ^(٢) .

أَتَعْرِفُ هَذِهِ؟!

* لا نعرفُ على وجهِ التَّحديدِ أينَ ذهبتِ فاطمةُ أمَّ جعفر بن يحيى ، وفي أيِّ بلدٍ عاشت بعد أن خرجتُ من عند هارون الرشيد بعد حوارها معه - كما رأينا - .

* ولكنَّ بعضَ الأخبارِ تشيرُ إلى أنها ظلت تعيشُ بقيَّةَ حياتها في شدَّةٍ وضيقٍ، ويبدو أنها عاشتُ فيما بعد بالكوفةَ ، أو الرِّقَّةَ .

(١) عن العقد الفريد لابن عبد ربه (٦٨/٥ و ٦٩)، ونهاية الأرب للنويري (١٤٤/٢٢) - (١٤٧) مع الجمع والاختصار اليسير والتصرف .

(٢) انظر : نهاية الأرب في فنون الأدب (١٤٧/٢٢ و ١٤٨) . ويروى أنَّ الرشيد قد وقَّع في أسفل الرسالة : عِظْمْ ذَنْبِكَ أَمَاتَ خَوَاطِرَ الْعَفْوِ عَنْكَ .

ورُوي أنَّ يحيى البرمكي كتبَ للرشيد رسالةً أخرى جاء فيها : إِنْ كَانَ الذَّنْبُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ خَاصًّا ، فَلَا تَعَمْ بِالْعُقُوبَةِ ، فَإِنَّ لِي سَلَامَةً الْبَرِيِّ ، وَمُودَةً الْوَلِيِّ . فوقَّع الرشيد عليها ﴿ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ [يوسف : ٤١] انظر (الوزراء والكتاب للجهشياري ص ٢٥٣) .

* أوردت المصادر المتنوعة أنه من أعجب ما يؤرخ من تقلبات الدنيا بأهلها، ما حكاه محمد بن عبد الرحمن الهاشمي صاحب صلاة الكوفة قال :

* دخلت على أمي في يوم عيد النحر - الأضحى - فألفت عندها امرأة برزة جلدة، في أثواب رثة، وهيئة كئيبة؛ فقالت لي أمي: أتعرف هذه المرأة؟

قلت: لا يا أمي .

فقالت: هذه أم جعفر بن يحيى البرمكية!

فأقبلت عليها بوجهي، وسلمت، ورحبت بها، وأكرمتها، وتحادثنا زماناً، ثم إنني قلت لها: ما أعجب ما رأيت؟ حدثينا عن بعض أموركم .

فقالت: أذكر لك جملةً فيها عبرة، لقد أتى عليّ يا بني عيّد مثل هذا العيد، وكان عليّ رأسي أربعمئة جارية ووصيفة، وأنا أزعم أنّ ابني جعفر عاق لي^(١). ولقد أتى عليّ يا بني هذا العيد، وما مناي من الدنيا إلا جلد شاتين أفترش أحدهما، وألتحف الآخر .

قال محمد بن عبد الرحمن: فدفعْتُ إليها خمسمئة درهم، فكادت تموت فرحاً بها، ولم تزل تختلف إلينا حتى فرّق الموت بيننا^(٢).

* وبعد، فهذه شذرات من سيرة امرأة من وزراء العصر العباسي، ومن

(١) في الحقيقة هذا قولٌ يشير إلى ما كانت عليه هذه المرأة من ترفٍ وسرفٍ، فإذا كان على رأسها أربعمئة جارية، وتعدّ ابنها من جملة العقّة، فكيف تريد أم جعفر من الجوّاري حتى لا تعدّ ابنها عاقاً لها، ويكون من جملة البرّة؟! حقاً إنّ هذا شيءٌ عجيبٌ!! وصدق ربنا إذ يقول:

﴿وَلَوْلَا أَلَيُّنَا مُنَادَاؤُهُمَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

(٢) عن وفيات الأعيان (١/٣٤١)، ومروج الذهب (٣/٣٩٢)، والوافي بالوفيات (١١/١٦٤) مع الجمع والتصرف اليسير. وفي وفاة أم جعفر هذه قيل: توفيت أم جعفر بالرقة، فاشترى لها عشرة أجرية عند وادي القناطر على شاطئ الفرات ودُفنت فيها، وبني عليها قبة عرفت: بقبة البرمكية. (أعلام النساء ١/١٩٩).

نساء الإسلام اللواتي تركزن أثراً بارزاً في تاريخ النساء في دنيا التاريخ^(١).

* * *

(١) ذكر الجاحظ أنَّ جعفر بن يحيى وزير هارون الرشيد كان من أرفق الناس بريضة القول، وأعرفهم بفنون الكلام، وكان إذا عقب رسالة، أو وقع كتاباً، فإليه مباءةُ البلاغة، ونهايةُ الإيجاز، حتى لقد يتدافع الكتاب على بابه فيشترون من حجابهِ كلَّ توقيع بدينار. كل ذلك ورثه جعفر عن أمِّه، لا عن أبيه.

٥

أم سلمة بنت يعقوب

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

مِنْ حَازِمَاتِ النِّسَاءِ :

* كان للمرأة في أدوار الخلافة رأيٌ ماثلاً، وصوتٌ مسموعٌ، وفي بعض الأحيان كانت لها يدٌ مدبرةٌ قويّة، وبطشٌ شديدٌ، ورأيٌ حازمٌ، وفي بعضها الآخر كانت من صانعات الرجال في المواقف التي تدلُّ على كرامتها، وتشيرُ إلى عقلها الكبير، وأفقها الواسع، ونظرتها الثاقبة.

* وأجدني أمامَ امرأةٍ من نساء الإسلام، ومن نساء الخلفاء قد جمعت تلك الصفات؛ امرأة عاقلة حازمة عاصرت الدولتين: الأموية؛ والعباسية، وكانت بذكاها زوجاً لأبي العباس السفاح، رأس الدولة العباسية، وأول خلفائها، وباني مجدها وصرحها.

* وفي سبب اقترانها بأبي العباس السفاح موقفٌ حازمٌ رائعٌ يجعلنا نقفُ وقفةً احترام لهذه المرأة التي طرقت أبواب المكارم من ذراها، واقتعدت سدة الفضائل طيلة حياتها، وتسمنت لواء الشهرة في دنيا نساء التاريخ، في عصر ليس من السهل فيه أن تكون المرأة من صانعات التاريخ في منازل الخلفاء.

* فهذا أبو العباس السفاح، ثائر بني العباس الهاشميين، ومن ورث بني أمية، كان في بداية أمره - على الرغم من عراقة مجده، وسمو فضائله، ووفر فضله - فقيراً لا مال له، ومن الصعب أن ينجح بثورته إلا بالمال، ولكن من أين المال؟ هنالك قيض الله - عز وجل - لأبي العباس امرأة ملأت يده مالا، وقلبه عزماً، ونفسه إقداماً، وطريقه وضحاً ونوراً، وحياته ألقاً وعبيراً وأنداءً وصفاءً ورقياً، تلکم هي زوجته: أم سلمة بنت يعقوب بن سلمة بن عبد الله القرشية المخزومية^(١)، المرأة التي رسمتها خطوط التاريخ بعبير الحروف،

(١) تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٥٢٤ - ٥٢٩)، ومروج الذهب (٢/ ٢١٥)، وثمرات الأوراق (٢/ ٢٩٢)، والمجبر (ص ٤٤٥)، ونسب قریش (ص ٣٣٠)، والدر المنثور (ص ٥٨ و ٥٩)، وأعلام النساء (٢/ ٢٣٥ - ٢٣٩)، ومصادر أخرى كثيرة متنوعة.

وأريج الكلمات، فقد ذُكِرَ أنَّها امرأةٌ حازمةٌ بصيرةٌ بتدبير الأمور، وعواقب الأحداث، وجمالِ الأحداث، ولطائفِ الأحاديث؛ وأمُّها هي هندُ بنتُ عبد الله بن جبار بن سلمى^(١).

* كانت أمُّ سلمةَ بنت يعقوب قبل أن تصيرَ إلى أبي العباس السَّفَّاح زوجاً لعبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك، وكانت من أعرفِ النَّاسِ بِسِرِّ بني أمية وخبيثةِ أمورهم، وأحوالهم، فلما ماتَ زوجها، اجتمعَ لديها ثُراثُ زوجها وأبيها، وكلاهما كان غنياً موفوراً الغنى، ثم خَلَفَ عليها مسلمة بن هشام بن عبد الملك، فهلكَ عنها أيضاً.

* وأصبحتُ أمُّ سلمةَ أيَّماً، ولكنَّ اللهَ - عزَّ وجلَّ - قد آتاها ما آتاها من راحةِ العقل، وحباًها ما حبَّها من كمالِ الرأى، وأعطاهَا حُسْنَ النَّظَرِ في الأمور، فكان ذلك كله أوفرَّ لها من مالها، وأكملَ وأشملَ، ناهيك بآتها كانت ذات أدبٍ وجمالٍ، وكمالِ سيرة وأحدوثة.

أمُّ سَلَمَةَ تَخْطُبُ أَبَا الْعَبَّاسِ:

* تروي أخبارُ أمِّ سلمةَ بنت يعقوب بأنها أرسلتُ مولاتها إلى أبي العباس تخطبه، إذ توسَّمت فيه معاني التَّجَابَةِ، ومعالي الأمور.

* حدثت هذه الخطبة عندما خرجت ذات مرَّة إلى البادية، وبينما هي جالسةٌ مع جواربها وحشمها، إذ مر بها أبو العباس عبدُ الله بنُ محمَّد بن علي بن عبد الله بن العباس، وهو يومئذ عَزَبٌ، وكان جميلاً وسيماً، ذا طلعةٍ وبهاءٍ، فسألته عنه، فقليل لها: هذا أبو العباس بن محمَّد العباسي، فأرسلت إليه مولاةً لها تعرضُ عليه أن يتزوَّجها.

* فجاءته الجاريةُ تمشي على استحياءٍ، وأبلغتهُ سلامَ سيِّدتها أمِّ سلمة، وأدَّت إليه رسالتها ورغبتها فيه.

فقال أبو العباس للجارية: يا هذه، أبلغني سيِّدتك السَّلام، وأخبريها

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٥٢٥).

برغبتي فيها، وقولي لها: لو كان عندي من المال ما أرضاه لك فَعَلْتُ.

* هنالك بعثت أم سلمة بنت يعقوب مع مولاتها سبعمئة دينار، وقالت لها: قولي لأبي العباس: هذه سبعمئة دينار أبعث بها إليك، فأتته الجارية، وعرضت عليه ذلك، فأنعم لها بالإجابة؛ فدفعت إليه المال، فأقبل إلى أخيها، فخطبها إليه، فزوجه إياها، فأرسل بصادقها خمسمئة دينار، وأهدى إليها مئتي دينار^(١).

* وسارع أبو العباس إلى الزوجة المواتية بمالها، وكان ما لقيه من نفاذ رأيها، وإحكام تدبيرها أتم وأوفى؛ فلم يكن يصدر إلا عن رأيها ومشورتها، وبها عرف موطن الداء من أعدائه، وإليها كانت إفاءته في خلافته، وقد حظيت عنده، وحلف ألا يتزوج عليها، ولا يتخذ جارية؛ وقد ولدت أم سلمة هذه للسفاح: محمداً، وريطة.

* كان أبو العباس السفاح جميل العشرة، جواداً بالمال، يحب مسامرة الرجال، ومنادمة العلماء، وكان كثيراً ما يقول: العجب لمن يترك أن يزداد علماً، ويختار أن يزداد جهلاً!! فقال له أبو بكر الهذلي: ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين؟ قال: يترك مجالسة مثلك ومثل أصحابك، ويدخل إلى امرأة وجارية، فلا يزال يسمع سخفاً ويرى نقصاً.

فقال له الهذلي: لذلك فضلكم الله على العالمين، وجعل منكم خاتم النبیین.

* وخطب أبو العباس السفاح قائماً، وكانت بنو أمية تخطب قعوداً، فضج الناس وقالوا: أحييت الشنة يابن عم رسول الله ﷺ.

* وكان أبو العباس السفاح في أموره هذه يصدر عن رأي زوجه أم سلمة بنت يعقوب، فاستطاع أن يضع أساساً ثابتاً لأركان دولته.

* ولعل من أئمن ما وصل إلى أبي العباس السفاح من ميراث بني أمية؛

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٥٢٦) بتصرف.

بردة رسول الله ﷺ وقضيبه، وكان مروان بن محمد - آخر خلفاء بني أمية - حين أُحيطَ به في مصر، قد دفعهما إلى خادمٍ له، وأمره أن يدفنهما في بعض تلك الرمال.

* وعندما أُخِذَ الخادمُ مع مَنْ أُخِذَ مِنَ الأسرى قال: إن قتلتموني ضاع ميراثُ النَّبِيِّ ﷺ. وعند ذلك أَمَّنُوهُ على أن يسلمَ لهم ذلك. وكان للبردة والقضيب شأنٌ وأي شأنٍ عند جميع الخلفاء من بعده.

هَلْ بَقِيَ السَّفَّاحُ وَفِيًّا لَأُمِّ سَلَمَةَ؟

* أتت الخلافةُ أبا العباس السَّفَّاحَ منقادَةً تجرُّ أذيالها، وكانت زوجته أم سلمة بنت يعقوب المخزومية تجرُّ أذيال الدَّمَقْسِ والحرير في قصوره. وكان أبو العباس وفيًّا لزوجهِ المعطاء، فلم يكن يفكرُ في الدنُو مِنَ النِّسَاءِ غيرها، ولم يفكرُ في امرأةٍ حرّةٍ ولا أمةٍ ولا جاريةٍ وفاءً لها بما وعدّها، وبما قطعَ على نفسه من عهدٍ ألا يتزوَّجَ غيرها مهما تبدلتِ الأيامُ، وتوالَتِ الأعوامُ. . ولكنَّ الدَّهْرَ ذو غَيْرٍ، فماذا كان؟!

* أخرج ابنُ عساكر - رحمه الله - بسنده عن شبيب بن شيبَةَ قال: دخل خالد بن صفوان التَّمِيمِي^(١) ذات يوم على أبي العباس السَّفَّاحَ وليس عنده أحدٌ فقال: يا أمير المؤمنين! إنِّي والله ما زلتُ منذ قلدك الله - عزَّ وجلَّ - خلافتَه، أطلبُ أن أصيرَ إلى مثلِ هذا الموقفِ في الخلوة، فإن رأى أمير المؤمنين أن يأمرَ بِإِمْساكِ البابِ حتى أفرغَ فَعَلَ.

* قال: فأمرَ أبو العباسَ الحاجبَ بأن يمنعَ الدَّخُولَ عليه، ففعل. فقال له خالد بن صفوان: يا أمير المؤمنين! إنِّي فكَّرتُ في أمرِك، وأَجَلْتُ الفِكرَ

(١) خالد بن صفوان الأهممي التميمي من الخطباء المشهورين في العوام والمتقدمين في الخواص، كان من سُمَّار أبي العباس السَّفَّاح، ومن ذوي المنزلة عنده، وكان لفصاحته أقدر الناس على مدح الشيء وذمّه. وله أقوالٌ رائعة منها: إنِّي لأفرح بِإِفادَتِي المُتعلِّم، أكثر من فرحي باستفادتي مِنَ المُعلِّم. وأخباره كثيرة متناثرة ومنثورة في كتب الأدب والأسمار.

فيك ، فلم أرَ أحداً له مثل ما قلّدتك أقلّ اتساعاً في الاستمتاع بالنساء منك ، ولا أضيّقَ فيهن عيشاً ، إنك قد ملّكتَ نفسك امرأة من نساء العالمين ، واقتصرتَ عليها ! إن مرضتَ مَرَضتَ ، وإن غابتُ غبتَ ، وحرمتَ نفسك يا أمير المؤمنين التلذذ باستطرافِ الجواري ، وبمعرفة اختلاف أحوالهن ، والتلذذ بما يُشْتَهَى منهن .

* إنَّ منهن يا أمير المؤمنين الطَّويلة التي تُشْتَهَى لجسمها ، والبيضاء التي تُحِبُّ للونها ، والسَّمرَاء اللعساء^(١) ، والصَّفرَاء العجزاء ، ومولّدات المدينة والطائف واليمامة ، ذوات الألسن العذبة ، والجوابِ الحاضر ، وبنات سائر الملوك ، وما يُشْتَهَى من نظائِفهن ، وحُسنِ أنسهن .

* وجعلَ خالد بنُ صفوان يجيّدُ في وصف النِّساء ، ويجدُ في الإطنابِ بحلاوة لفظه ، وجودة وصفه لسائر ما يصفُ من نساء ، ومن ثمَّ شوقه إليهنّ ، ورغبه فيهن .

* فلما فرغَ خالدُ من كلامه ، قال له أبو العباس : ويحك يا خالد ! والله ما سلّك مسامعي كلامٌ قطّ أحسنَ من هذا ، فأعدْ عليّ كلامك ، فقد وقع مني موقعاً حسناً ، فأخذ خالد بنُ صفوان يعيدُ عليه كلامه بأحسن مما ابتدأه ، وزوّقه ونمّقه وحسنه ، وزاد فيه تحسيناً وتجويداً في ذكرِ محاسنِ الجواري ، وصنوفِ النساء ، ولما انتهى قال أبو العباس : أحسنتَ ، أنصرف الآن .

أَمْ سَلَمَةَ تَكْشِفُ سِرّاً :

* تركَ خالد بنُ صفوان أثراً بارزاً في نفس أبي العباس ، ممّا جعله يغرقُ في التفكير ممّا سمعَ منه .

* وبقي أبو العباس متفكراً مفكراً فيما سمعَ من ابن صفوان ، يُقلِّبُ أمره ، ويجمعُ ويطرَحُ ، ويقرّبُ ويبعدُ ، وبينما هو على تلك الحالِ واجماً

(١) «السَّمرَاء اللعساء» : التي في شفتيها سُمرَةٌ وسواد . وذكر عن الأصمعي أنّه قال : اللعس : السّواد الخالص . ويقال : ليل العس .

مطرقاً، إذ دخلت عليه أم سلمة، فلما رأتَه مفكراً متغيّراً مغموماً، ارتاعت لذلك وأرعبها أمره، وكعادتها في زرع الطمأنينة والحزم بنفسه سألته: إني لأنكرُك يا أمير المؤمنين، فهل حدثَ أمرٌ تكرهه، أو أتاكَ خبرٌ ارتعتَ له؟!

فقال أبو العباس: لا، لم يكنْ منْ ذلك شيءٌ، والحمد لله.

* ثمَّ إنَّ أمَّ سلمة ابنة يعقوب أخذتْ تُدخِلُ السُّرورَ إلى قلبه، ومن ثمَّ لم تزلْ به تستخبره، وهو ينزوي عنها، إلى أنْ أخبرها بمقالةِ خالد بن صفوان آنفاً.

فقالت أمُّ سلمة بشيءٍ من الغَضَبِ: فما قُلْتَ لابنِ صَفْوان يا أمير المؤمنين، وجعلتْ تُشتمُّه وتنتقصُه.

فقال أبو العباس لها: سبحانَ الله، ينصِّحني^(١) وتشتمينه وتكلمين في حقِّه، ولم يَقُلْ إلا خيراً!!.

* فلم تتكلَّم أمُّ سلمة بكلمة، وإنَّما خرجتْ من مجلسه وهي مغضبةٌ، يغلفُ الحزنُ قلبها، والأسى صدرها، وقد ملئتْ نفسها غيظاً وحنقاً على خالد بن صفوان التميمي - وربما على بني تميم^(٢) -، ثمَّ إنَّ أمَّ سلمة اتخذتْ في نفسها قراراً أنْ تكافئَ ابن صفوان مكافأةً لن ينساها ما دام حياً.

* وعند ذلك دعتْ بجماعةٍ من موالِيتها وغلَمانها من العَجَم، فأمرتهم أنْ

(١) «ينصِّحني»: هذه العبارة مخالفة للفصاحة، والكلام الفصيح السائر: ينصح لي؛ قال الله - عز وجل -: ﴿وَلَا يَفْعَلُوكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ﴾ [هود: ٣٤]؛ ويقال: نصحت لكم، ونصحت فلاناً. وأصل النَّصْح: الإخلاص؛ والمناصحة: المخالصة. ويُقال: هذا شيء ناصح: أي: خالص.

(٢) ولعلَّ أمَّ سلمة قد تذكرت أيضاً هجاء الطُّرُمَاح بن حكيم للفرزدق وبني تميم من قصيدته الشهيرة التي منها:

أرى الليلَ يجلسوه النهار ولا أرى	خلالَ المخازي عن تميم تجلَّتْ
تميمٌ بطُرُقِ اللؤم أهدى من القطا	ولو سلكتْ سُبُلَ المكارم ضلَّتْ
ولو أنْ بُرغوثاً على ظهر قملةٍ	يكرُّ على صَفْفي تميمٍ لولَّتْ
دَبَحْنَا فسمَّينا فتمَّ ذبيحنا	وما ذبحتْ يوماً تميمٌ فسمَّتْ

يذهبوا إلى بيت خالد بن صفوان ويضربونه، كما أمرتهم ألا يشفقوا عليه،
وألا يتركوا منه عضواً إلا وينا له العقاب بالضرب الأليم.

* وسترك الحديث الآن لخالد بن صفوان كيما يحدثنا عن عقوبة وانتقام
أم سلمة منه .

* قال خالد بن صفوان: فخرجت من مجلس أبي العباس إلى الدار
مسروراً بما ألقيت إلى أمير المؤمنين، وبما رأيته منه من الشرور، وإعجابه
بما حدثته عن محاسن الجواري، ولم أشك في أن صلته وجائزته ستأتيني
فور وصولي إلى منزلي .

* وبينما أنا واقفٌ مع بعض أصحابي على باب داري، إذ أقبل أولئك
الغلمان والموالي، فلما رأيتهم قد أقبلوا نحوي، أيقنت بالجائزة والصلّة،
فوقفوا ثم سألوا عني، فقلتُ لهم: ها أنا ذا خالد بن صفوان! فسبق إليّ
أحدهم بخشبة غليظة، فلما أهوى بها إليّ، وثبت فابتعدت عنها، وتعادى
عليّ الباكون، فأسرعتُ ودخلتُ منزلي، وأغلقتُ الباب عليّ واستخفيتُ في
منزلي بضعة أيام على تلك الحال، لا أخرج من منزلي، ووقع في قلبي
وخاطري أنني أتيتُ ودُهيتُ من قبل أم سلمة زوج أبي العباس، وقد قصّ
عليها القصص الذي كان بيننا، وأنها قد كشفت السرّ .

صَدَقْتَ وَاللَّهِ يَا عَمَّاهُ:

* ظلَّ خالد بن صفوان أياماً وهو خائفٌ يترقبُ من أن يتسوّر عليه أولئك
الغلاظ الشّداد، ومن ثمّ يشبعونه ضرباً ولكماً؛ وكلّما تحرك شيءٌ يظنُّ خالد
أن أولئك قد قدموا، وصادف أن افتقدّه السّفاح، ولم يعد يغشى مجلسه كما
كان يغشاه بالأمس، فطلبه وألحّ في طلبه إلحاحاً شديداً، فلم يجده .

* يقول خالد بن صفوان بعد أن ظلَّ بضعة أيام على تلك الحال من
الخوفِ والذعر والهلع: فلم أشعر ذات يوم إلا بقوم قد هجموا عليّ وقالوا:
ويحك يا بن صفوان، أجب أمير المؤمنين أبا العباس، فإنّه يطلبك منذ أيام .

* فسبقَ إلى قلبي أنّه الهلاك، وأيقنتُ بالموت، فقلتُ: إنا لله وإنا إليه

راجعون، لم أرَ دَمَ شيخٍ أضيعَ منْ دمي. ثمَّ ركبْتُ إلى دارِ أمير المؤمنين وليس عليَّ لحمٌ ولا دَمٌ من شدة الرَّهب والرَّعب، فلما وصلتُ إلى الدَّار، لم ألبثُ إلا قليلاً حتى أذن لي بالدَّخول، وأومأ إليَّ بالجلوس، فوجدته خالياً، فرجعَ إليَّ عَقلي، وهدأت نفسي، وسكنَ قلبي، وارتاحت جوارحي.

* قال خالدُ بنُ صفوان: فنظرتُ في المجلس، فإذا خَلْفَ ظهري بيتٌ عليه ستور رقاق قد أرخيت، وإذا حركةٌ خفيفةٌ من خلفها. ثمَّ إنَّ أبا العباس ابتدرني بالحديث وقال: يا خالد، إنِّي لم أرك منذ ثلاث أو أكثر! قلتُ: يا أمير المؤمنين، لقد كنتُ عليلاً أكابدُ مرضاً أَلَمَ بي، وسكنَ بين أعضالي.

قال أبو العباس بشيءٍ من اللطف: ويحك يا خالد، إنَّك قد وصفتُ لأُمير المؤمنين في آخرِ دخلةٍ دخلتها عليَّ من أمور النِّساء صفة لم يخرقُ مسامعي كلامٌ قط أحسنَ منه، وأحبُّ أن تعيده عليَّ الآن.

* قلتُ: - وقد سمعتُ حساً خلف السِّتر - نعم يا أمير المؤمنين لقد أعلمتك أنَّ العربَ إنَّما اشتقت اسمَ الضَّرَتَيْنِ من الضَّرِّ، وأنَّ أحدهم لم يكن عنده من النِّساء أكثر من واحدة إلا كان في ضرٍّ وجَهدٍ وتنغيص.

قال أبو العباس: ويحك يا خالد، لم يكن هذا في الحديث الذي حدَّثت به!!

قلتُ: بلى يا أمير المؤمنين.

قال: فأُنسيتُ إذاً، وما أنسانيه إلا الشَّيطان أن أذكره، فأتَمَّ الحديث.

قلتُ: يا أمير المؤمنين لقد أخبرْتُك أنَّ الثَّلاث من النِّساء كأثافي القدر يغلي عليهن، فيحرقنه ويتلفنه، ويهلكنه ويُسفنه.

قال أبو العباس بشيءٍ من الانزعاج: برئتُ من قرابتي من رسولِ الله ﷺ إنَّ كنتُ سمعتُ منك هذا الحديث أو شيئاً منه، ولا مرَّ في حديثك مما تقول جملة واحدة.

قال خالد: فقلتُ: وأخبرتكَ يا أمير المؤمنين أن الأربع من النساء شرُّ مجموع لصاحبه، يُشَبَّهُ، ويهرمُّه، ويحقِّرنه، ويسقمُّه، ويقتسمنه حيًّا وميتاً.

قال أبو العباس: ويلك، لا والله، ما سمعتُ هذا منك ولا من غيرك قبل هذا الوقت.

قلت: بلى والله يا أمير المؤمنين.

قال: أفتكذبني ويحك؟!!

قلت: وتريدُ أن تقتلني يا أمير المؤمنين؟

قال أبو العباس: امضِ في حديثك إذا!

قلتُ: وأخبرتُك يا أمير المؤمنين أنَّ أباكَّارَ الجواري والإماء رجالٌ إلا أنهم لستَ لهم خصي.

قال خالد بن صفوان: فتعجَّب أبو العباس من قلبي، وسمعتُ ضحكاً من خلف السَّتر، فتابعْتُ حديثي وقلتُ له: نعم يا أمير المؤمنين، وأخبرتُك أيضاً فيما أخبرتُك أنَّ بني مخزوم هم ريحانةُ قريش، وأنتَ عندك ريحانة من الرِّياحين، وأنتَ تطمَحُ بعينيك إلى النساء وإلى الجواري.

قال خالد: فقل لي من وراء السَّتر: صدقتَ والله يا عماء، وبهذا حدَّثَ أمير المؤمنين، ولكنه غيَّرَ حديثك، ونطقَ عن لسانك ما نطقَ.

فقال له أبو العباس: مالك قاتلك اللهُ وأخزأك، وفعلَ بك وفعل.

قال خالد: فأنسللتُ، وتركتُ المجلسَ وخرجتُ وقد أيقنتُ بالحياة، ولما وصلتُ منزلي لم أشعرُ إلا برسلِ أم سلمة بنت يعقوب قد صاروا إليّ، وقد بعثتُ معهم عشرة آلاف درهم، وغلام، وثياب، ودابة للركوب^(١).

(١) انظر: تاريخ مدينة دمشق (تراجم النساء ص ٥٢٨ و ٥٢٩)، وثمرات الأوراق (ص ٤١١ و ٤١٢)، والدر المنثور (ص ٥٨ و ٥٩).

* ويبدو أن أبا العباس قد ظلّ وفيّاً لأمّ سلمة وفاءً منقطع التّظير؛ فقد ذكر الثّعالبي - رحمه الله - قصّة تشير إلى مكانة أمّ سلمة في نفس أبي العباس فقال: كان أبو العباس السّفّاح يوماً مشرفاً على صحن داره ينظرها، ومعه امرأته أمّ سلمة، فعبثت بخاتمها، فسقط من يدها إلى الدّار، فألقى السّفّاح أيضاً خاتمه، فقالت: يا أمير المؤمنين، ما أردت بهذا؟

قال: خشيتُ أن يستوحش خاتمك فأنسته بخاتمي غيرّةً عليه لانفراده^(١).

أُمُّ سَلَمَةَ وَالْأَيَّامُ الْآخِرَةُ:

* ظلت أمّ سلمة عند أبي العباس السّفّاح إلى أن توفاه^(٢) الله وهي مالكة قلبه آسرةً جوارحه.

* ولما توفي السّفّاح تزوّجت عبد الله بن الحميد المخزومي، فمالت إليه كلّ الميل، فأعطته عطاءً جزيلاً، ممّا جعله موسراً غنياً يعطي الشّعراء على مدائحهم، فيجزّل لهم العطاء.

* ولكنّ أمّ سلمة اتهمته بجارية لها، فاحتجبت عنه، ولم تعدّ إليه حتى وافاها الأجل. ومنّ الجدير بالذكر أنّ أمّ سلمة تُنسب لها صحراء أمّ سلمة.

* ويبدو أنّ الحياة قد امتدت بأمّ سلمة بنت يعقوب إلى خلافة أبي جعفر المنصور، ولا نعلم زمان ولا مكان وفاتها، حيث لم تُفصح المصادرُ صراحةً عن ذلك.

* وبعد - عزيزي القارئ -، فهذه أمّ سلمة ابنة يعقوب المخزومية السيّدة الجليلة ذات العقل الرّاجح، والرّأي النّافذ، عاشت حميدةً في خلافة السّفّاح، وكانت من أعلام نساء الخلفاء، وماتت بعد أن تركت ذكراً حميداً في العالم النّسوي، وفي دنيا نساء الخلفاء في عصر الإسلام، عصر السّناء والبهاء.

* * *

(١) انظر كتاب: اللطائف والظرائف لأبي منصور الثعالبي (ص ٣٧).

(٢) مات السّفّاح بالأنبار شاباً سنة (١٣٦هـ) وعمره (٣٢ عاماً).

٦

أم عوف امرأة أبي الأسود

إِخْدَى فَصِيحَاتِ نِسَاءِ الْعُلَمَاءِ :

* إذا كان الرجال مَعْقَدَ الفضائل، ومعدن العلوم والحكم ومجمع الخيرات والفضائل، فإن نساء العرب في الإسلام لم يدعن لرجالهن خلة يستأثرون بها دونهن، ولم يتركن طريقاً من طرق العظام، ولا مشرفاً من مشارف المكارم، إلا وكن من السابقات إليه، فقد أثرت المرأة العربية في العصر الإسلامي تاريخنا الوضيء في الفضائل بجميع ألوانها وأنواعها وأشكالها.

* لقد برزت المرأة إلى ميادين القتال أحياناً، وحلقت في سماء الفروسيّة، وطاولت الثريا في الشجاعة، وهمست في أذن الجوزاء تحكي له مآثرها، وبرزت المرأة في ميادين العلم والفقه، وأبدعت في رحاب الأدب والفن والمعرفة، ورفعت فوق سموات البلاغة والفصاحة والبيان، ولم تدع مكرمة إلا أدلت دلوها فيها، وأبانت عن مكانتها وفضلها.

* ولم تقف المرأة المسلمة لتزاحم الرجال في مواطن الفضيلة، ولكنها كانت العضد الأقوى في الوصول إلى الكمال. ولقد حفلت مجالس الخلفاء، وقصور الأمراء بمواقف رائعة ناصعة لامعة للمرأة التي أثرت الدنيا بفرائد أقوالها، وجمال بيانها، وكمال أدبها، ووفرة معرفتها، وسمو غايتها. وسنعيش اليوم مع امرأة من نسوة العصر الأموي، ومن نساء العلماء، قد ذللت لها قطوف البلاغة تذليلاً، وكان أدبها عليها دليلاً، فكانت من كبريات فصيحيات عصرها، وأديبات دهرها.

* هذه المرأة لا نعرف اسمها، وإنما اشتهرت بكنتيتها، فهي أم عوف امرأة أبي الأسود الدؤلي، تلك التي وقفت أمام أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما -، وخاطبته بأفصح بيان، وأبين فصاحة، دون وجل أو تردد في الكلام، واستطاعت أن تنثر من أزهار بلاغتها، وورد فصاحتها، وجمال حججها أمام الفصحاء في مجلس معاوية - رضي الله عنه -، ففي أي مدرسة درجت أم عوف هذه، وأي معهد تخرّجت؟! (١)

(١) تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر (تراجم النساء ص ٥٥٥ - ٥٥٩)، وبلاغات النساء =

* لا شكَّ أَنَّ أُمَّ عَوْفٍ قد درجت في مجتمع لم تعرفِ العجمةُ إليه سبيلاً، بل كانت مغارسُ الحكمة تحيطُ بها من كلِّ جانب، لا سيما وأنَّ زوجها أبا الأسود الدؤلي أحدُ أذكىءِ الدُّنيا في مختلفِ العلوم والمعارف.

* فأبو الأسود الدؤلي - أو الدَّيْلي - واسمه: ظالمُ بنُ عمرو كان قاضي البصرة في العهدِ الأمويِّ وأخريات العصرِ الرَّاشدي، وكان أحدَ فقهاءِ البصرة وعلمايهم وفصحائهم ونصحائهم؛ روى عن عددٍ من أكابر الصَّحابة؛ منهم: عليُّ بنُ أبي طالب، والزُّبيرُ بنُ العوام، وعبدُ الله بن مسعود - رضي الله عنهم - كما روى عن غيرهم، وروى عنه كبار الثَّقَات وأعلیاء العلماء الرواة.

* وأبو الأسود الدؤلي هو أوَّلُ مَنْ تكلَّم بالنَّحو^(١)، وكان له شأنٌ كبيرٌ في المجتمع الإسلامي في عصره، وكان من أكبر النَّاس عند معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما -، وأقربهم مجلساً، وكان لا ينطقُ إلا بعقل، ولا يتكلَّمُ إلا بعد فُهم. قال ابنُ خلكان - رحمه الله -: كان من أكمل الرِّجال رأياً، وأسدهم عقلاً^(٢).

= لطيفور (ص ٥٣ - ٥٥)، وشرح مقامات الحريري للشريشي (١٦٤/٢ و ١٦٥)، وأعلام النساء (٣٧٦/٣ - ٣٧٩) وغيرها كثير.

(١) ذكر ابنُ خلكان - رحمه الله - طرفاً من معرفة أبي الأسود ببيدایات النَّحو فقال: دخل بيته يوماً، فقال له بعضُ بناته: يا أبتِ، ما أحسنَ السَّماء؟ فقال: يا بُنية، نجوُّها.

فقلت: إني لم أَرُدْ أي شيء منها أحسن، إنما تغجبتُ من حُسْنِها. فقال: إذاً فقولِي: ما أحسنَ السَّماء! وحينئذ وضعَ علم النَّحو. (وفيات الأعيان ٥٣٧/٢).

وذكر ابنُ نباتة المصري - رحمه الله - خبراً آخر في سبب وضع أبي الأسود علم النَّحو فقال: دخلَ أبو الأسود على ابنته بالبصرة، فقلت: يا أبتِ ما أشدُّ الحرَّ! فقال: شهر آذار. فقلت: يا أبتِ إنما أخبرتك ولم أسألك. وكان مرادها التَّعجب. (سرحُ العيون في شرح رسالة ابن زيدون ص ٢٧٦). وهناك أقوالٌ أخرى أوردها ابن نباتة في سرح العيون فانظرها إن شئت.

(٢) وفیات الأعیان (٥٣٥/٢).

* قال أبو عثمان الجاحظ: أبو الأسود مقدّم في طبقات الناس؛ كان معدوداً في الفقهاء، والشّعراء^(١)، والمُحدّثين، والأشراف، والفرسان، والأمراء، والزهاد، والنحاة، والحاضري الجواب، والشيعة^(٢)، والبخلاء^(٣)، والأشراف^(٤).

(١) لأبي الأسود شعر جميلٌ وردّ في كثيرٍ من المصادر وكتب التراجم والطبقات وكتب الأدب، ومن روائع شعره قوله المشهور:

يا أيُّها الرّجلُ المعلّمُ غيرُهُ	هلاً لنفسِكَ كانَ ذا التّعليمُ
تصفُ الدّواءَ لذي السّقامِ وذِي الضّنى	كيما يصحّ به وأنْتَ سقيمُ
وأراك تصلحُ بالرشادِ عقولنا	أبدأ وأنْتَ من الرّشادِ عديمُ
لا تنه عن خُلقي وتأتي مثله	عارٌ عليك إذا فعلتَ عظيمُ
ابدأ بنفسك فانهها عن غيرها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ
فهُناك يُسمع ما تقول ويقتدى	بالعلم منك وينفع التّعليمُ

(٢) كان أبو الأسود - رحمه الله - عالماً شاعراً، ذا رأي، وكان شديد الشّيع، فمن أخباره ما حدّث أبو عمرو قال: كان أبو الأسود نازلاً في بني قُشير، وكانوا يخالفونه في المذهب، لأنَّ أبا الأسود كان شيعياً، فكانوا يسرحونه بالليل، فإذا أصبح شكوا ذلك، فشكاهم مرّة، فقالوا: نحنُ ما نرميك، ولكنَّ الله يرميك؛ فقال: كذبتُم، لو كان الله يرميني ما أخطأني. (سرح العيون ص ٢٧٧ و ٢٧٨).

وقال لهم يوماً: يا بني قُشير، ما أحبّ إليّ طولُ بقاءِ منكم، قالوا: ولم ذاك؟ قال: لأنكم إذا ركبتُم أمراً علمتُ أنه غيٌّ فاجتنبته، وإذا اجتنبتم أمراً علمتُ أنه رشْدٌ فاتّبعته.

ومن نظمه في رثاءِ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ومحاكاة بني قُشير قوله:

يقولُ الأرذلونَ بنو قُشير	طوالَ الدّهْرِ لا تنسى علينا
بنو عمِّ التّبي وأقربُوه	أحبُّ النَّاسِ كلّهم إلينا
أحبّهم كحبِّ الله حتّى	أجيء إذا بُعثت على هويّا
فإن يك حبُّهم رشداً أصبهُ	ولستُ بمخطيء إن كان غيّا

(ديوانه ص ٣٢).

(٣) البيان والتبيين (١/ ٣٢٤)، ومعجم الأدباء (١٢/ ٣٤)، وبغية الوعاة (٢/ ٢٢).

(٤) قال رجلٌ لأبي الأسود: أنتَ والله ظَرَفَ عِلْمٍ وحِلْمٍ؛ غير أنّك بخيلٌ.

فقال: وما خيرُ ظرفٍ لا يمسك ما فيه!

* ويمكننا أن نقول: إِنَّ أبا الأسود أحد نوادر الأذكياء، وممن صدرت عنه البلاغة، وأثرت عنه الحكمة، وحُفِظَتْ عنه كلماتٌ ذهبَتْ مذهبَ الأمثال^(١)؛ ونظم جميل سار حكمةً بين الأجيال.

* إذًا، لقد اغترفتُ أمَّ عوفٍ من زوجها أبي الأسود معظمَ هذه المعارف الشريفة، فكانت واحدةً من نوادر فصيحات النساء اللواتي حفظَ لها التَّأريخُ موقفها، واحتفظَ ببلاغتها، وأقرَّ لها بالفصاحة والبيان.

فَصَاحَتُهَا فِي شَكْوَى زَوْجِهَا:

* تروي المصادرُ المتنوعةُ أَنَّ أبا الأسود الدؤلي كان كبيرَ القَدَر عند معاوية - رضوان الله عليه -، وكان معاويةً يقربُ مجلسه، ويقرُّ بعلمه، ويدنيه من مجلسه عندما يَفِدُ عليه زائرًا، وكان يسأله عن أشياء كثيرة، فيجيبُ عنها بعلم ودراية وفهم.

* وصادفَ مرَّةً أنْ خاصمت أمَّ عوف زوجها، فقررت أنْ تدخلَ على معاوية بن أبي سفيان في مجلسه، وتشكو أبا الأسود، فلعلَّها تصلُّ إلى حقِّها.

* وبينما كان أبو الأسود ذاتَ يومٍ عند معاوية، وعنده وجوه القوم، وأشرف العرب، وفصحاء الأقاليم، إذ دخلت عليه امرأةٌ برزة - ظاهرة الوجه - فقالت: السَّلام عليكم ورحمة الله يا أمير المؤمنين!

فقال معاوية: وعليك السَّلام ورحمة الله وبركاته يا أمةَ الله.

* فتكلَّمت أمَّ عوف بكلامٍ يرشُّ بالفصاحة، والبيان والإيجاز، ويشيرُ إلى رباطة الجأش، وحسن الطَّلَب، وجمال العرض، ورشاقة المعنى فقالت:

(١) كان لأبي الأسود بالبصرة دارٌ، وله جارٌ يتأذى منه في كلِّ وقت، فباع الدار، فقيل له: بعْ دارك. فقال: بل بعْتُ جاري - وكان جارٍ سوء -، فأرسلها مثلاً. (وفيات الأعيان ٢/٥٣٧)، و(شذرات الذهب ١/٣٩٧) طبعة دار ابن كثير المحققة.

* أَصْلَحَ اللهُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَمْتَعَ بِهِ؛ إِنَّ اللَّهَ جَعَلَكَ خَلِيفَةً فِي الْبِلَادِ، وَرَقِيباً عَلَى الْعِبَادِ، فَيُسْتَسْقَى بِكَ الْمَطَرُ؛ وَيُسْتَنْبَتُ بِكَ الشَّجَرُ، وَتَوَلَّفُ بِكَ الْأَهْوَاءَ، وَيُؤَمَّنُ بِكَ الْخَائِفُ، وَيُرَوَّعُ بِكَ الْجَانِفُ^(١)، فَأَنْتَ الْخَلِيفَةُ الْمَصْطَفَى^(٢)؛ وَالْإِمَامُ الْمُرْتَضَى.

* وَإِنِّي أَسْأَلُ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - لَكَ النُّعْمَةَ مِنْ غَيْرِ تَقْصِيرٍ، وَالْبَرَكَةَ مِنْ غَيْرِ تَقْتِيرٍ، وَالْعَافِيَةَ مِنْ غَيْرِ تَغْذِيرٍ^(٣).

* لَقَدْ أَلْجَأَنِي^(٤) إِلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَمْرٌ ضَاقَ عَلَيَّ فِيهِ الْمَنْهَجُ^(٥)، وَتَفَاقَمَ عَلَيَّ فِيهِ الْمَخْرَجُ، مِنْ أَمْرِ كَرِهْتُ عَارَهُ، لَمَّا خَشِيتُ إِظْهَارَهُ؛ فَلِيَكْشِفَ عَنِّي أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ، وَلِيَنْصِفَنِي مِنَ الْخَصْمِ، وَلِيَكُنْ ذَلِكَ عَلَيَّ يَدِيهِ، وَإِنِّي أَعُوذُ بِسَاحَتِكَ مِنَ الْعَارِ الْوَبِيلِ^(٦)، وَالْأَمْرِ الْجَلِيلِ، الَّذِي يَشْتَدُّ عَلَى الْحَرَائِرِ ذَوَاتِ الْبَعُولِ الْأَجَائِرِ^(٧).

* كَانَ مُعَاوِيَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَصْغِي لَمَّا يَسِيلُ بِهِ بَيَانُ هَذِهِ الْمَرْأَةِ مِنْ سِحْرِ الْقَوْلِ، وَسَاحِرِ الْعِبَارَةِ، وَبَدِيعِ الْأَسْلُوبِ، وَنِصَاعَةِ الْكَلَامِ، فَقَالَ لَهَا: مَنْ هَذَا الَّذِي تَصِفِينَ مِنْ أَمْرِهِ الْمُنْكَرِ، وَمَنْ فَعَلَهُ الْمَشْهُرُ؟ وَمَا أَمْرُكَ؟! قَالَتْ: أَمْرٌ طَلَّقَ جَاءَنِي مِنْ بَعْلِ عَادٍ، لَا تَأْخُذْهُ مِنَ اللَّهِ مَخَافَةً، وَهُوَ فِي مَجْلِسِكَ.

فَقَالَ مُعَاوِيَةُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: وَمَنْ بَعْلُكَ يَا أُمَّةَ اللَّهِ؟!

(١) «الجنف»: الميل عن الحق خطأ وجهلاً، قال تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٨٢].

(٢) «المصطفى»: المختار.

(٣) «تغذير»: تخليط.

(٤) «ألجأني»: اضطرني.

(٥) «المنهج»: الطريق الواضح.

(٦) «الوبيل»: الشديد؛ قال تعالى: ﴿فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [المزمل: ١٦] أي: إهلاكاً شديداً.

(٧) «الأجائر»: لعلها جمع جائر، والجائر: المائل عن الحق، المنحرف عنه، الظالم.

قالت بجرأة: هو أبو الأسود ظالم بن عمرو، وهو ظالمٌ لي، - وأشارت إلى مجلسه ومكانه -.

من أسباب طلاقها وفراقها:

* ساد مجلس معاوية - رضي الله عنه - لحظات صمتٍ، وكلُّ واحدٍ أخذ ينظرُ إلى الآخرِ نظراتٍ متموجة يريدُ أن يستوضح الأمر، ويستجلي الحقيقة، وهنا التفت معاويةُ إلى أبي الأسود الدؤلي الذي زانه الهدوء والوقار وقال له: حقاً ما تقول هذه المرأة يا أبا الأسود؟!

فأجاب أبو الأسود في هدوء العلماء: نعم يا أمير المؤمنين، إنها لتقول من الحق بعضاً، وليس يستطيعُ عليها أحدٌ نقضاً.

قال معاوية: إذا فما الخبر، وما جلية الأمر؟!

قال أبو الأسود: أما ما ذكرتُ من أمرٍ طلاقها وفراقها فهو حق، وأنا مخبرٌ أمير المؤمنين عنه بالصدق.

* وصمت أبو الأسود هنيهةً، ثم بدأ حديثه ثانية فقال: والله يا أمير المؤمنين، ما طلقْتُها لريبةٍ ظهرت، ولا من هفوةٍ خطرت، ولكنني كرهْتُ شمائلها، فقطعتُ حبالها.

* وأحب معاوية - رضي الله عنه - أن يستوضح عن الخلال التي كرهها أبو الأسود في امرأته أم عوف، فقال لأبي الأسود: وأي شمائلها وصفاتها كرهت يا أبا الأسود؟!

فقال أبو الأسود: يا أمير المؤمنين، إنك مهتجها عليّ بكلامٍ عنيد، ولسانٍ حديدٍ شديد.

قال معاوية - وأحب أن يسمع ذلك منهما معاً - : لا بد لك من مجاوبتها، فارددْ عليها قولها عند محاورتها.

* وهنا أخذ أبو الأسود الدؤلي يذكر مساوئ أم عوف زوجته، ويرصفُ مثالبها، ويصفُ حقيقتها فقال: هي يا أمير المؤمنين كثيرة الصخب؛ دائمة

الذَّرب^(١)، مهينةٌ للأهل؛ مؤذيةٌ للبعل^(٢)، إن ذكرتُ خيراً دفنته، وإن ذكرتُ شراً أذاعته، تخبرُ بالباطل؛ وتطيرُ مع الهازل، لا تنكلُ عن عتبٍ؛ ولا يزال زوجها معها في تعب.

* وهنا قالت أم عوفٍ بشيء من الجرأة بعد أن أَلَقَتْ نظرةً حادةً على زوجها أبي الأسود: أما والله لولا حضورُ أمير المؤمنين، ومَنْ حضره من المسلمين، لرددتُ عليك بواد^(٣) كلامك، ببوادٍ يُردع بها كلَّ سهامك، وإن كان لا يَحْسُنُ بالمرأة الحرة أن تَشْتَمَ بعلاً، ولا أن تظهرَ لأحدٍ جهلاً!.. ثم صمتت عن الكلام، ونظرت في وجوه القوم، ثم نظرت إلى وجه معاوية لعله يطلبُ منها أن تدليَ دلوها لتأتي بحجتها.

(١) «الذَّرب»: بذاءة اللسان، و«الدَّربة»: بالكسر: سليطة اللسان.

(٢) كان أبو الأسود يصفُ زوجه بأنها تجد عوناً من جاراتها، وتقوى عليه بهنً، حتى عندما تكون غير محقة في طلبها، فتشكو إلى الجارات ما تجد من بخله وسوء عشرته؛ وفي ذلك يقول:

فتشكو إلى جاراتها وبناتها إذا لم تجد ذنباً عليّ تجئت
(ديوانه ص ٦٣ طبعة بغداد ١٩٦٤).

وقد عُرفَ عن أبي الأسود البخل الشديد، وعُرف عنه الاقتصاد في النفقة، وهو يعترف بحسن التدبير، وعدم التبذير، إلا أنه لا يعترف بأنه بخيل على جاره، ولا يودُّ أن يُوصف بهذه الصفة، ويصرُّ على نفي التهمة عنه فيقول:

وإنَّ امرأً بُنِّيَتْهُ مِنْ صديقنا يسائل هل أسقي من اللبن الجارا
وإنِّي لأسقي الجارَ في قعرِ بيته وأشربُ مالا إثم فيه ولا عارا
(ديوان أبي الأسود ص ١٠٥).

وأورد ابنُ العماد الحنبلي قصّة عن أبي الأسود أنّه سمع رجلاً يقول: مَنْ يعشي الجائع؟ فعشاه، وكان السائل لجوجاً. ثم ذهب السائل ليخرج بعد العشاء؛ فقال له أبو الأسود: هيهات! على ألا تؤذي المسلمين الليلة؛ ثم إنَّ أبا الأسود وضع رجل السائل في القيد حتى أصبح، ثم أطلقه. (شذرات الذهب ١/ ٣٩٧) بتصرف يسير.

(٣) «بوادٍ»: جمع «بادرة»: وهي ما يبدّر من الحدة والغضب في قول أو فعل.

أُمُّ عَوْفٍ تُذْنِعُ مَثَالِبَ زَوْجِهَا:

* سَمِعَ معاويةٌ - رضي الله عنه - مِنْ أُمِّ عَوْفٍ مَا سَمِعَ مِنْ فَصَاحَتِهَا وَلِسَنِهَا، وَعَرَفَ مَكَانَتَهَا فِي عَالَمِ الْبَلَاغَةِ، وَمِيدَانِ الْإِعْجَازِ، فَأَحَبَّ أَنْ يَسْمَعَ مِنْ دُرَرِ كَلَامِهَا فِي هَذِهِ الْمَحَاجَةِ لِيَزِينَ بِهِ الْمَجَالِسُ، وَيَعْرِفَ كَيْفَ تَدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُدْفِعُ خَصْمَهَا، وَتَدْلِي دَلْوَهَا فِي بَابِ الْحِجَّةِ كَيْمَا تَأْتِيَ بِمَا يَدْفَعُ زَوْجَهَا مِنْ فَيْصَلِ الْقَوْلِ، وَلَطِيفِ الْعِبَارَةِ، وَقُوَّةِ اللَّفْظِ، وَكَمَالِ الْبَيَانِ، لِذَلِكَ تَوَجَّهَ معاويةٌ إِلَى أُمِّ عَوْفٍ وَقَالَ لَهَا: عَزَمْتُ عَلَيْكَ لَمَّا أَجَبْتُ أَبَا الْأَسْوَدِ.

فَقَالَتْ أُمُّ عَوْفٍ - وَقَدْ رَدَّتِ الصَّاعَ صَاعَيْنِ عَلَى زَوْجِهَا -: حَبَّاً وَكَرَامَةً يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّهُ وَاللَّهِ سَوْوُلٌ جَهْلٌ، مِلْحَاحٌ بَخِيلٌ^(١)، إِنْ قَالَ فَشَرُّ قَائِلٍ، وَإِنْ سَكَتَ فَذُو غَوَائِلٍ؛ لَيْثٌ حَيْثُ يَأْمَنُ، ثَعْلَبٌ حِينَ يَخَافُ، شَحِيحٌ حِينَ يُضَافُ، إِنْ ذُكِرَ الْجُودُ عِنْدَهُ انْقَمَعَ^(٢) لَمَّا يَعْرِفُ مِنْ لَوْمِ آبَائِهِ؛ وَقَصُرَ رِشَائِهِ^(٣)، ضَيْفُهُ جَائِعٌ؛ وَجَارُهُ ضَائِعٌ، لَا يَحْمِي ذِمَاراً؛ وَلَا يَضُرُّمُ نَاراً؛

(١) إِنَّ الْبَخْلَ صِفَةٌ قَبِيحَةٌ مِنْ أَذَمِّ الْخَلَاتِقِ، وَأَنْكَرِ الطَّرَائِقِ، نَهَى عَنْهُ الشَّرْعُ، وَقَضَى بِقَبْحِهِ الْعَقْلُ؛ وَحَقِيقَةُ الْبَخْلِ: مَنَعُ الْحَقُوقِ الْوَاجِبَةِ، وَتَقْتِيرُ التَّفَقَّاتِ الْمُسْتَحَقَّةِ، وَفِي الْعَرَفِ وَالْعَادَةِ: هُوَ خَزَنَ الْمَالِ وَمَنَعَ الْمُسْتَرْفِدِينَ مِنْ فَضُولِهِ. وَالْبَخِيلُ لَا يَزَالُ مَسْلُوبَ الْهَيْبَةِ، مَفْقُودَ الرُّهْبَةِ، ثَقِيلاً عَلَى النُّفُوسِ، بَغِيضاً إِلَى الْقُلُوبِ، تَرْمَقُهُ الْأَبْصَارُ بِالْإِحْتِقَارِ، وَبِقَلَّةِ الْوَقَارِ، وَالْبَخْلُ يَغْطِي الْفَضَائِلَ، وَيُظْهِرُ الرِّذَائِلَ، وَاسْمَعُ قَوْلَ الْقَائِلِ:

وَيُظْهِرُ عَيْبَ الْمَرْءِ فِي النَّاسِ بَخْلُهُ وَيَسْتُرُهُ عَنْهُمْ جَمِيعاً سَخَاؤُهُ
تَغْطِ بِأَثْوَابِ السَّخَاءِ فَإِنَّنِي أَرَى كُلَّ عَيْبٍ وَالسَّخَاءِ غَطَاؤُهُ
وَقَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: الْبَخْلُ جَلْبَابُ الْمَسْكِنَةِ؛ وَقَالَ غَيْرُهُ: لَا يَدْخُلُ الْبَخْلُ مَسْكناً إِلَّا أَعْقَبَهُ الْحَسْرَةَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: الْبَخِيلُ لَيْسَ لَهُ الْخَلِيلُ.

(٢) «انْقَمَعَ»: انْقَهَرَ، وَذَلَّ.

(٣) «الرِّشَاءُ»: الْحَبْلُ، وَأَرَادَتْ هُنَا أُمُّ عَوْفٍ: أَنَّ أَبَا الْأَسْوَدِ لَنْ يَتَوَصَّلَ إِلَى عِظَائِمِ الْأُمُورِ، وَأَسْبَابِ الْمَجْدِ لِهَوَانِهِ.

ولا يرعى جواراً، أهونُ الناسِ عنده مَنْ أكرمه ؛ وأكرمهم عليه مَنْ أهانه .

* ولما سمع معاوية - رضوان الله عليه - منطلقاً أمّ عوف اهتزّ طرباً لحسن ترسلها وأدبها وقال: سبحان الله لما تأتي به هذه المرأة من السّجع، وما رأيتُ أعجبَ من أمرها .

فقال أبو الأسود لمعاوية: أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنين، إنّها مطلّقة، ومَنْ أكثرَ كلاماً مِنْ مطلّقة؟! فالتفت معاوية إليها وقال لها: إذا كان رَواحاً فتعالى أفصل بينك وبينه بالقضاء .

اللَّهُمَّ اكْفِنِي شَرَّهَا :

* انصرفتُ أمّ عوفٍ من مجلسِ أميرِ المؤمنين معاوية بن أبي سفيان على أن تعودَ إليه في العشي، بينما ظلَّ أبو الأسود مشدوهاً لما كان يسمعُ من كلامها الذي جارتُ عليه به في بعض المواقفِ، وأبانتُ خِلاله، وذمّتُ خصاله .

* ولما كان العشي جاءت أمّ عوف، ومعها ابنها قد احتضنته، فألفت معاوية يخطبُ، والجلوس يسمعون، فلما رآها أبو الأسود، توسّل إلى الله قائلاً: اللهم اكفني شرّها .

* والتقطتُ أذنًا أمّ عوف توسّلَ ودعاءَ أبي الأسود، فقالت له في بساطةٍ: قد كفّاكَ اللهُ شَرِّي يا أبا الأسود، وأرجو الله أن يعيذك من شرِّ نفسك .

فقال أبو الأسود لها - وأشارَ إلى ابنه الذي تحمله - : ناوليني هذا الصّبي لأحمله .

فقالت له بشدّة وحزمٍ: ما جعلك الله أحقّ بحملِ هذا الصّبي مِنّي ولن أعطيكه .

* ولم يتمالك أبو الأسود نفسه، فوثبَ فانترعه منها وحمله . وهنا تدخل معاوية - رضي الله عنه - في الأمر، وخاطبَ أبا الأسود قائلاً: مهلاً يا أبا الأسود! لا تعجل المرأة أن تنطق بحجّتها .

فقال أبو الأسود: يا أمير المؤمنين، لقد حملته قبل أن تحمله، ووضعتُه قبل أن تضعه.

فردّت أمّ عوف بأبلغ حجّة وقالت: صدقَ اللهُ يا أمير المؤمنين فيما قال، لقد حمَله خِفّاً، وحملته ثِقْلاً، ووضعه شهوةً، ووضعتُه كرهاً، وقد كان حجري حِواءً، وبطني وعاءً، وثديي سقاءً.

* وتعجّب معاوية - رضوان الله عليه - من سرعة بديهة أم عوف، ومن حسن ردّها على زوجها بحجّة دامغة؛ ثم قال: ما رأيتُ أعجب من هذه المرأة؛ ثمّ التفتَ إلى أبي الأسود وقال له: إنّها قد غلبتك في الكلام بحسن حجّتها.

وساد الصمتُ ذاك المجلس الأنيق؛ ولكنّ ماذا حدث بعد ذلك؟!

أمّ عوفٍ والشّعْرُ:

* مرّق سكون الصمتِ الذي خيمَ على مجلس معاوية - رضي الله عنه - صوتُ أبي الأسود الذي قال: يا أمير المؤمنين، إنّ أمّ عوفٍ هذه تقول من الشعر أبياتاً، وإنّها تجيده، وتحسنه فاسمع منها ذلك إن شئتَ.

قال معاوية: إنّ كلامها لفي غاية البيان، ثمّ إن معاوية أشار على أبي الأسود بأنّ ينظم شعراً فقال له: تكلف أنت أبياتاً فلعلّك تقهرها بالشعر؛ واستجاب أبو الأسود لرغبة معاوية، فلعله يتغلّب على أمّ عوف، فأنشأ يقول مصوراً حاله وحالته مع أمّ عوف:

مَرَحَباً بِالتي تُجُورُ عَلَيْنَا ثُمَّ سَهْلاً بِحامِلٍ مَحْمُولٍ
أَغْلَقْتُ بِابِها عَلَيَّ وَقَالَتْ إِنَّ شَرَّ النِّسَاءِ ذَاتُ الْبِعُولِ^(١)
شَغَلْتُ قَلْبَها عَلَيَّ فَرَاغاً هَلْ سَمِعْتُمْ بِفَارِغٍ مَشْغُولٍ
* وبعد أن فرغ أبو الأسود من نظمه، أشار معاوية إلى أمّ عوف أن تردّ

(١) ورد هذا الشطر في بلاغات النساء: إن خير النساء ذات البعول.

على أبي الأسود بما تقدّر عليه من القول، فأجابته بنفس الروي وأنشأت تقول:

لَيْسَ مَنْ قَالَ بِالصَّوَابِ وَبِالْحَقِّ كَمَنْ حَادَ عَنْ مَنَارِ السَّبِيلِ
كَانَ حِجْرِي حَوَاءَ حِينَ يَضْحِي ثُمَّ ثِدْيِي سَقَاءَ بِالْأَصِيلِ
لَسْتُ أَبْغِي بَوَاحِدِي يَابْنَ حَرْبٍ بَدَلًا مَا رَأَيْتُهُ وَالْجَلِيلِ

* ولما سمع معاوية - رضي الله عنه - كلام أم عوف، وما قالته وأنشدته في الوقت والحال، تحرّكت بداخله لواعج الشعر، فأدلى دلوّه في هذا المضمّار، وأنشأ يقول:

لَيْسَ مَنْ قَدْ غَذَاهُ طِفْلاً صَغِيراً وَسَقَاهُ مِنْ ثِدْيِهِ بِالْخَذُولِ
هِيَ أَوْلَى بِهِ وَأَقْرَبُ رَحْماً مِنْ أَبِيهِ وَفِي قَضَاءِ الرَّسُولِ^(١)
أُمُّهُ بِمَا حَنَّتْ عَلَيْهِ وَأَوْلَى مِنْ أَبِيهِ بِذَا الْغَلَامِ الْأَصِيلِ^(٢)

* ثم إن معاوية - رضي الله عنه - قضى لامرأة أبي الأسود، وحكم لها، فاحتملت ابنها، وانصرفت شاكراً فعله، حامدةً أصله.

وَدَاعَا أُمَّ عَوْفٍ:

* تلکم رحلة طيبة التشر مع أم عوف، وقد رأينا خلالها كيف أوتيت هذه المرأة من فصاحة الكلم، وجمعت لها باقات من أشات الحكم، فنبذت بحجتها زوجها، وحكم لها معاوية عليه، فكانت قريرة العين، رضية القلب، منشرة النفس.

* وبخروج أم عوف من مجلس معاوية يغلق التاريخ وراءها صفحة حياتها، فلا نعلم لها خبراً، ولا أين ومتى توفيت؛ ولكن بلاغتها ما تزال

(١) ورد هذا الشطر في بلاغات النساء: من أبيه بالوحي والتنزيل.

(٢) انظر: بلاغات النساء (ص ٥٤ و ٥٥)، وشرح مقامات الحريري للشريشي (١٦٥/٢)، بتصرف، ويبدو لي أن هذه القصة وأمثالها من القصص التي حاكها القصّاص وزادوا فيها وأغربوا، والله أعلم بالصواب والحقيقة.

تلمعُ في جنحِ الليالي، تروي ذكريات أمّ عوف في حياتها مع أبي الأسود الدؤلي.

* أمّا أبو الأسود فقد توفي سنة (٦٩ هـ) وله خمسٌ وثمانون سنة، ترك خلالها أعطر الأثر في دنيا الفكر والعلم والأدب والمعرفة.

* رحمَ اللهُ أبا الأسود، وأمّ عوف، وأجزَلَ لهما المثوبة، وجعلهما في مستقرِّ رحمته.

* * *

٧

أُمُّ كَثُومِ بِنْتُ عُقْبَةَ

من سوابق المؤمنات :

* في بيئة تتنازعها الأهواء، وفي عصر تفترس الفضيلة فيه الجاهلية العمياء، نشأت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط الأموية القرشية المكية^(١)، إحدى النسوة القرشيات اللواتي حزن ذروة الفضل، وسنام المكارم، على الرغم من الأحداث الجسام التي كانت تلم بالمجتمع المكي عند مطلع فجر الدعوة إلى دوحة الإيمان، وعز الإسلام، ونور اليقين الذي كان يدعو إليه محمد رسول الله ﷺ في أم القرى.

* كان أبوها عقبة بن أبي معيط من أكابر المجرمين، ومن أعلام فجار الكفار، ومن أعداء رسول الله ﷺ، وأحد أعداء الحق والحقيقة، أحب أن يطفىء نور الله بما يملك، ولكن الله متم نوره ولو كرهه عقبة وأمثاله من أجلاف قريش، ومن شايعهم من المشركين والكافرين.

* أفرط عقبة بن أبي معيط - أخزاه الله - في عداوته لرسول الله ﷺ إلى حد جعله أحد الأشقياء المحرومين ومن المبشرين بالنار^(٢) وبس القرار، وفي السطور التالية سأقدم بعض الصور من عداوة هذا الخبيث الرعدي للنبي الكريم ﷺ.

* ورد في كتب الصحيح والسيرة والتراجم والتأريخ وغيرها؛ أن النبي ﷺ كان ذات يوم يصلي عند الكعبة، وصناديد قريش جلوس. فقال بعضهم: من ينطلق إلى سلا^(٣) جزور بني فلان، فيأتي به فيضعه على ظهر

(١) انظر ترجمتها في: الاستيعاب (٤/٤٦٥)، ونسب قريش (ص ١٤٥ و ٢٦٦)،

وتهذيب الأسماء واللغات (٢/٣٦٥)، والإصابة (٤/٤٦٧)، وسير أعلام النبلاء

(٢/٢٧٦)، والدر المنثور (ص ٦٢ و ٦٣)، وأعلام النساء (٤/٢٥٥)، وغيرها كثير

جداً من المصادر المتنوعة من مثل كتب التفسير والسيرة وغير ذلك.

(٢) للمزيد من أخبار المبشرين بالنار ومواقفهم المخزية، اقرأ كتابنا «المبشرون بالنار»

في جزأيه؛ تجد عظمة الحبيب المصطفى ﷺ.

(٣) «سلا»: السلا: هو الذي يخرج منه ولد الناقة، كالمشيمة لمولد المرأة، ويكون به قدر ودماء.

محمّد وهو ساجدٌ؟! فذهبَ أشقى القوم عقبةُ بنُ أبي معيط، فجاء به، ووضعهُ على ظهرِ رسولِ الله ﷺ، وهم يتضحكون، ويميلُ بعضهم على بعض، فلم يزلْ ﷺ ساجداً، حتى جاءت فاطمةُ الزَّهراءُ (١) وهي فتاةٌ صغيرة، فأخذته عن ظهره، ثمَّ أقبلتْ عليهم، فسبَّتْهم ووبَّختْهم، فدعا عليهم رسولُ الله ﷺ قائلاً:

«اللهمّ عليك بهذا الملاً من قريش، اللهمّ عليك بعقبة بن ربيعة، اللهمّ عليك بشيبة بن ربيعة، اللهمّ عليك بأبي جهل بن هشام، اللهمّ عليك بعقبة بن أبي معيط، اللهمّ عليك بأمية بن خلف». وقد استجاب الله الدعاء فقتلوا جميعاً يوم بدر (٢).

* وتحدّثنا المصادرُ الحديثيّةُ وغيرها من كُتُب السيرة عن صورةٍ أخرى من صُورٍ وحشية المجرم عقبة بن أبي معيط التي تُظهر مدى إغراقه في الكفر والفسوق والعصيان؛ فبينما النبي ﷺ في حِجْرِ الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فوضع ثوبه في عنقه، فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر الصديق رضي الله عنه، حتى أخذ بمنكب عقبة، ودفعه عن النبي ﷺ، وقال: ﴿أَنْقَتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] (٣).

(١) اقرأ سيرة «فاطمة الزهراء» في كتابنا: «نساء أهل البيت» (ص ٥٢٩ - ٦٠٤) فسيرتها إمتاع للأسماع والكتاب مطبوع بدار الإمامة الغراء بدمشق أكثر من مرة.

(٢) انظر: دلائل النبوة للبيهقي (٣/ ٨٢ و ٨٣)، وتاريخ الإسلام للذهبي (السيرة النبوية ص ٢١٦ و ٢١٧)، وللحديث أصل في الصّحيحين فقد أخرجه البخاري في صحيحه (٤/ ١٢٧)، و (٥/ ٥٧) ومسلم في الجهاد (١٠٨)، وأحمد (٤١٧/١)، وابن خزيمة في صحيحه (٧٨٥) وغيرهم.

وقال رسول الله ﷺ: «أشدّ الناس بلاء الأنبياء»، وما أجمل البوصيري في همزيته إذ قال:

لا تَحُلْ جانبَ النبي مضاماً حين مسّته منهم الأسواءُ
كُلُّ أمرٍ نابٍ التّيين فالشَّ سدةٌ محمودةٌ والرّخاءُ
(٣) فتح الباري (٧/ ٢٠٣) حديث رقم (٣٨٥٦)، وانظر الفتح أيضاً (٧/ ٢٦) حديث =

* وفي مرةٍ ثالثةٍ جاء عقبهُ هذا، والنَّبِيُّ ﷺ يصلي عند الكعبة، فوضع رجله على عُنُقِ رسولِ الله ﷺ، حتى كادت عيناه تندران^(١).

* يُضاف إلى ذلك كُلُّهُ أَنَّ عقبهُ لم يجد طريقاً يشوش فيه على رسولِ الله ﷺ، ويؤذي أصحابه المسلمين إلا سلكه إلى آخره وعاث فيه فساداً وعناداً^(٢).

* أمّا ابتته أمّ كلثوم فقد كانت على غير ما يهوى عقبهُ، فقد كانت من السَّابِقَاتِ الأوَّلِ إلى ساحةِ الإسلام، والتَّصديق برسالةِ النبي محمد ﷺ، وحظيتُ بشرفِ الصُّحبةِ النبوية، فحازت قصبَ السَّبقِ في مضمَارِ الإيمان، وفي مضمَارِ السَّابِقِينَ والسَّابِقَاتِ الذين امتدحهم الله - عزَّ وجلَّ - بقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿١٦﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿١٧﴾﴾ [الواقعة: ١٠ - ١٢].

* وفي مضمَارِ السَّوَابِقِ كانت أمّ كلثوم بنتُ عقبهُ منهن، فقد صلَّتِ القبليتين، وبايعت رسولَ الله ﷺ بمكة قبل هجرته إلى المدينة المنورة،

= رقم (٣٦٧٨)، وكذلك (٤١٦/٨) حديث رقم (٤٨١٥)، وانظر: دلائل النبوة للبيهقي (٢٧٤/٢ و ٢٧٥)، وتاريخ الطبري (٥٤٨/١)، وتاريخ الإسلام للذهبي (السيرة النبوية ص ١٢٥)، والكامل في التاريخ (٧٩/٢)، والبداية والنهاية (٤٦/٣)، وصفة الصفوة (٩٩/١)، وانظر: تفسير القرطبي (٣٠٨/١٥)، وتفسير ابن كثير (٦٩/٤)، وتفسير الخازن (٩٣/٦ و ٩٤)، وغيرها كثير.

(١) انظر: السيرة الحلبية (٤٧٢/١)، و«تندران»: نذر الشيء ندوراً: سقط من جوف شيء، أو من بين أشياء فظهر، وتندران معناها هنا: تخرجان من شدة الضغط أو تسقطان.

(٢) كان عقبهُ بنُ أبي مُعيط يتمادى في الغي والفجور، والأذى، وكان يسانده في الأذى «أبو لهب» فكان هذان المجرمان يؤذيان النبي ﷺ، فقد روث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «كنتُ بين شرِّ جارَيْنِ، بين أبي لهب، وعقبهُ بن أبي معيط، إن كانا ليأتيان بالفروث فيطرحانها على بابي حتى إنهم ليأتون ببعض ما يطرحون من الأذى فيطرحونه على بابي» قالت عائشة: فيخرج رسول الله ﷺ فيقول: «يا بني عبد مناف أي جوار هذا؟» ثم يلقيه في الطريق. (الطبقات الكبرى لابن سعد ٢٠١/١)، وكنز العمال برقم (٤٩٠٠).

وسلكتُ طريقَ الهدايةِ، فكانت منَ الخالداتِ السَّعيداتِ اللواتي نَعْمَنُ بنعيمِ الإسلامِ، علي الرِّغم من معرفتها بمواقف أبيها العدائية للرسولِ الكريم ﷺ، ولأصحابه الغرِّ الميامين.

* وأما والدَةُ أمِّ كلثوم فهي أروى بنتُ كُريز بن ربيعة العبشميَّة، من نساءِ الإسلام اللاتي انضوينَ تحت رايةِ الإيمان، وصدقن رسالةَ النَّبيِّ ﷺ. أسلمتُ أروى وباعَتُ رسولَ الله ﷺ، وهاجرتُ إلى المدينة المنورة، وهي من الصَّحَابياتِ المعمرَّاتِ، فقد عاشت حتى بلغتِ التسعين، وتوفيتُ بالمدينة، ودُفِنَتْ في خلافةِ ابنها عثمان بن عفان رضي الله عنه^(١).

* ومن بيئَةِ أمِّ كلثوم - رضي الله عنها - يظهر لنا عثمان بن عفان - عليه سحائب الرِّضوان -، وعثمانُ ذو الثَّورين أخو أمِّ كلثوم لأمِّها أروى بنت كُريز، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأحد السَّابِقين الأولين إلى الإسلام، إذ أسلم قديماً قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين، وسُمِّي ذا الثَّورين لجمعه بين بنتي رسول الله ﷺ، ومناقبه ومحاسنه كثيرة شهيرة رضي الله عنه وأرضاه.

* وفي حاجةِ الأنس والأيْناس كانت أمُّ كلثوم تأنسُ بأخيها عثمان، وأمَّها أروى، وتبغضُ أعمالَ أبيها الشَّنيعة التي أودت به إلى النار، حيثُ وقع في الأسر يومَ بدر، فأمرَ النَّبيُّ ﷺ بقتله، فقتلَ كافراً جزاءً بما قدَّمتُ يداه. واعتقدُ أنَّ أمَّ كلثوم لما علمتُ بمقتل أبيها كافراً لم تحزن ولم تذرف دُمعةً واحدةً عليه، إذ علمتُ أنَّ الدِّينَ حقٌّ، وأنَّ النَّبيَّ ﷺ على الحقِّ، وكانت تعلمُ عِلْمَ اليقين أنَّ أباهَا سارَ علي طريقِ الضَّلال، وكان شديدَ العداوةِ لله ولرسوله وللمؤمنين، لذلك لما قُتِلَ أبوها عقبة لم تأخذها العزة بالإثم، وإنما ظَلَّتُ وفيةً لدينها، مخلصَةً للرسول، صادقةً في بيعتها، مطمئنةً النَّفس لإسلامِها الذي انشرحَ له صدرها، واطمأن لتعاليمه فؤادها، وزادت صِلَتُها

(١) انظر: الإصابة (٤/٢٢٢ و ٢٢٣).

وثوقاً بالله تعالى، الذي أخرجها من ظلمات الجاهلية إلى نور الحق، وطريق الهداية والثور.

أُولَى الْمُهَاجِرَاتِ:

* في رحلة الهجرة إلى المدينة المنورة، كان المسلمون والمسلمات يخرجون مهاجرين إلى المدينة المنورة جماعات أحياناً، وأحياناً كانت تظهر بعض الهجرات الفردية كهجرة: عمر بن الخطاب، وأبي سلمة بن عبد الأسد^(١) - رضي الله عنهما -.

* وهاجر كثير من نساء الإسلام في صحبة أزواجهن أو أقربائهن، بينما مُنعت أم كلثوم بنت عقبة من الهجرة إلى المدينة، كي تلحق ركب المؤمنين، ومواكب المهاجرين هنالك، وتبعد الله دون أن تلقى أذى المشركين. مُنعت أم كلثوم من الهجرة، فظلت مقيمة وعيناها تفيض من الدمع حزناً لعدم تمكنها من الهجرة.

* ومكثت أم كلثوم في مكة المكرمة بضع سنين، وهي صابرة تتحمل الشدائد في سبيل الله، وفي سبيل رسول الله ﷺ، وكانت ترجو الله أن يأتي بالفرج من عنده، أو يقضي الله أمراً كان مفعولاً.

* وتشير المصادر الموثوقة إلى أن أم كلثوم بنت عقبة - رضي الله عنها - قد مكثت في مكة المكرمة إلى سنة سبع من الهجرة، ومن ثم هاجرت إلى المدينة في زمن صلح الحديبية.

(١) أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال المخزومي، صحابي أسلم قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وهاجر إلى الحبشة الهجرتين، ومعه امرأته أم سلمة. قال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: أول من قدم علينا المدينة من أصحاب رسول الله ﷺ للهجرة أبو سلمة. شهد أبو سلمة بدرًا وجُرح بأحد، فمكث شهراً يداوي جراحه، ثم بعثه رسول الله ﷺ في سرية، فلما قدم انتفض جرحه، ثم توفي فحضره رسول الله ﷺ عند وفاته، وأغمضه بيده الشريفة، توفي سنة ثلاث من الهجرة. (فرسان حول الرسول، الجزء الثاني).

* لقد ترامت الأنبياءُ إلى سَمْعِ أُمِّ كَلْثُومَ بَأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وأصحابه من المسلمين في الحديبية يستعدون لأداء العمرة في مكة، وعند ذلك هزَّها الشوق إلى الخروج للمدينة المنورة كي تلحق بأخواتها المسلمات هناك؛ ولكنَّ رسولَ الله ﷺ ترك الحديبية وعادَ إلى المدينة بعد أن عَقَدَ معاهدة^(١)

(١) هذه المعاهدة تتألف من سبعة شروط مهمة؛ أذكرها هنا لتعلِّقها بسيرة أُمِّ كَلْثُوم بنت عقبة؛ وهي:

١ - الشَّرْطُ الأوَّل: وَضَعُ الحربِ عن النَّاسِ عَشْرَ سَنِينَ، يَأْمَنُ فِيهَا النَّاسُ، وَيَكْفُ بَعْضُهُمْ عَنْ بَعْضٍ.

٢ - الشَّرْطُ الثَّانِي: مَنْ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَرِيشٍ بِغَيْرِ إِذْنٍ وَلِيَّهِ رَدُّهُ عَلَيْهِمْ.

٣ - الشَّرْطُ الثَّالِث: مَنْ أَتَى قَرِيشاً مِمَّنْ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَرُدِّهِ عَلَيْهِ.

٤ - الشَّرْطُ الرَّابِع: أَنْ يَبْنِئَا - أَيِ: الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُشْرِكِينَ - عَيْبَةً مَكْفُوفَةً - أَيِ: صَدْرًا نَقِيًّا مِنَ الْغِلِّ وَالْخِدَاعِ وَالْغِشِّ مَطْوِيًّا عَلَى الْوَفَاءِ وَالْأَمَانَةِ.

٥ - الشَّرْطُ الْخَامِس: أَنَّهُ لَا إِسْلَالَ وَلَا إِغْلَالَ - أَيِ: لَا سِلَّ لِلسُّيُوفِ لِلْقِتَالِ، وَلَا خِيَانَةَ وَسُوءَ تَدْبِيرٍ بِالْمَكْرِ -.

٦ - الشَّرْطُ السَّادِس: مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ مُحَمَّدٍ وَعَهْدِهِ دَخَلَ فِيهِ، وَمَنْ أَحَبَّ أَنْ يَدْخُلَ فِي عَقْدِ قَرِيشٍ وَعَهْدِهِمْ دَخَلَ فِيهِ.

٧ - الشَّرْطُ السَّابِع: أَنْ يَرْجِعَ مُحَمَّدٌ عَنْ قَرِيشٍ عَامَهُ هَذَا، فَلَا يَدْخُلُ مَكَّةَ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ، وَإِذَا كَانَ عَامَ قَابِلٍ خَرَجَتْ قَرِيشٌ عَنْ مَكَّةَ وَأَخْلَتْهَا فَدَخَلَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ بِأَصْحَابِهِ، فَأَقَامَ بِهَا ثَلَاثًا لَيْسَ مَعَهُ إِلَّا سِلَاحُ الرَّاكِبِ، السُّيُوفُ فِي قُرْبِهَا. قَالَ ابْنُ قَيْمٍ الْجَوْزِيَّة - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «زَادِ الْمَعَادِ»: مِنَ الْحِكْمِ الَّتِي تَضَمَّنَتْهَا هَذِهِ الْهَدَنَةُ أَنَّهَا كَانَتْ مَقْدَمَةً بَيْنَ يَدَيْ الْفَتْحِ الْأَعْظَمِ الَّذِي أَعَزَّ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ وَجُنْدَهُ، وَدَخَلَ النَّاسُ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا.

ومنها: أَنَّ هَذِهِ الْمَعَاهِدَةَ وَالْهَدَنَةَ كَانَتْ مِنْ أَعْظَمِ الْفَتْوحِ، فَإِنَّ النَّاسَ أَمِنَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَاخْتَلَطَ الْمُسْلِمُونَ بِالْكَفَّارِ، وَنَادَوْهُمْ بِالْدَّعْوَةِ، وَأَسْمَعُوهُمْ الْقُرْآنَ، وَنَازَلُوهُمْ عَلَى الْإِسْلَامِ جَهْرَةً آمَنِينَ، وَظَهَرَ مَنْ كَانَ مَخْتَفِيًّا بِالْإِسْلَامِ، وَدَخَلَ فِيهِ فِي مَدَّةِ الْهَدَنَةِ مَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَدْخُلَ، وَلِهَذَا سَمَّاهُ اللَّهُ فَتْحًا مَبِينًا. وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ خَيْرَ شُرُوطِ هَذِهِ الْمَعَاهِدَةِ وَأَبْرَكُهَا هُوَ الشَّرْطُ الْأَوَّلُ، لِأَنَّهُ أَمَّنَ النَّاسَ، وَفَتَحَ أَمَامَ دَعْوَةَ الْإِسْلَامِ الطَّرِيقَ إِلَى الْقُلُوبِ وَالْآفَاقِ. وَبِذَلِكَ كَانَتْ هَذِهِ الْهَدَنَةُ هِيَ الْفَتْحُ الْمَبِينُ الَّذِي بَشَّرَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ، وَآمَنَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ الْأَمِينِ مُحَمَّدٍ ﷺ.

مع أهل مكة .

* وأخذت أم كلثوم تعدُّ العدة كيما تهاجرَ إلى المدينةِ مهما كان الأمرُ وكانتِ الظروفُ، وراحتُ ترقُبُ فرصةً كي تخرجَ من بين قومها وهم لا يشعرون .

* ذكر محمد بنُ سعد - رحمه الله - في «طبقاته» مكرمةً لطيفةً لأم كلثوم بنت عقبة - رضي الله عنها - فقال : ولم نعلم قرشيةً خرجت من بين أبويها مسلمةً مهاجرةً إلى الله ورسوله إلا أم كلثوم بنت عقبة رضي الله عنها^(١) .

أُمُ كُلْثُومَ وَقِصَّةَ هِجْرَتِهَا :

* في ديوانه «مجد الإسلام» قال أحمد محرم - رحمه الله - متحدثاً عن أم كلثوم :

أَجِييْ أُمُّ كُلْثُومِ أَجِييْ	تَرَامَتْ دَعْوَةَ الدَّاعِي الْمَهِيْبِ
لَمَكَّةُ إِذْ يُضَامُ الدِّينُ فِيهَا	أَحَقَّ بِكُلِّ أَفَّاكٍ مُرِيْبِ
خُذِي قَصْدَ السَّبِيلِ إِلَى دِيَارِ	مَحَبَّةِ الْمَسَالِكِ وَالْدُّرُوبِ
حِمَى الْإِسْلَامِ يَمْنَعُ كُلَّ عَادِ	وِغِيلِ الْحَقِّ يَدْفَعُ كُلَّ ذِيْبِ
رَعَاكَ اللهُ فَانْطَلَقِي وَسِيرِي	وَلَا تَهْنِي عَلَى طَوْلِ الدُّوْبِ
رَوَيْدِكَ إِنَّ عَيْنَ اللهِ تَرَعَى	خُطَاكَ فَلَنْ يَسْوَكَ أَنْ تَوُوبِي ^(٢)

إنَّ قِصَّةَ هِجْرَةِ أُمِّ كُلْثُومِ بِنْتِ عَقْبَةَ مِنَ الْقَصَصِ الطَّرِيفَةِ ذَاتِ الْعِبْرَةِ وَالْعِظَةِ فِي حَيَاةِ الصَّحَابِيَّاتِ، إِذْ خَرَجَتْ مُهَاجِرَةً إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ بَعْدَ أَنْ عَزَمَتْ عَلَى ذَلِكَ، وَتَحَيَّيَّتِ الْفُرْصَةَ الْمَلَائِمَةَ لِذَلِكَ، وَلَكِنْ كَيْفَ تَخَلَّصَتْ أُمُّ كُلْثُومِ مِنَ أَعْيُنِ الرِّقَبَاءِ، وَاسْتَطَاعَتْ أَنْ تَهَاجِرَ؟! لَا شَكَّ بَأَنَّ هُنَاكَ قِصَّةً رَائِعَةً تَشِيرُ إِلَى فُطْنَتِهَا وَذَكَائِهَا. أَمَّا قِصَّةُ هِجْرَتِهَا فَتُرْوِيهَا لَنَا أُمُّ كُلْثُومِ نَفْسُهَا فَتَقُولُ :

(١) انظر : طبقات ابن سعد (٨/ ٢٣٠) .

(٢) ديوان مجد الإسلام (ص ٢٨٨) طبعة مكتبة الفلاح بالكويت عام (١٤٠٢ هـ) الطبعة الأولى .

* كُنْتُ بِمَكَّةَ الْمَكْرَمَةِ أَخْرَجُ إِلَى بَادِيَةٍ لَنَا قَرِيبَةً فِيهَا أَهْلِي، وَكُنْتُ أَقِيمُ بِالْبَادِيَةِ الثَّلَاثَ وَالْأَرْبَعَ، وَمَنْ ثُمَّ أَرْجَعُ إِلَيْهِمْ، فَكَانُوا لَا يَنْكُرُونَ ذَهَابِي لِلْبَادِيَةِ، وَلَا يَدْخُلُ الشُّكُّ إِلَى نَفْسِهِمْ فِي شَيْءٍ مِنْ أَمْرِي، إِلَى أَنْ اسْتَقَرَّ فِي نَفْسِي الْمَسِيرُ وَالْهَجْرَةُ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَاللِّحَاقُ بِالْمُؤْمِنِينَ.

* وَفِي ذَاتِ يَوْمٍ مِنَ الْأَيَّامِ، خَرَجْتُ مِنْ مَكَّةَ كَأَنِّي أُرِيدُ الْبَادِيَةَ وَأَهْلِي، وَعِنْدَ ذَلِكَ رَجَعْتُ مَنْ كَانَ يَتَّبِعُنِي وَيَرَاقِبُنِي وَقَدْ اطمأنَّ إِلَى أَنَّ أَنْصَرَفِي سَيَكُونُ إِلَى الْبَادِيَةِ وَأَهْلِي؛ بَيْنَمَا كُنْتُ أَرْسِمُ طَرِيقَ الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ كِي الْحَقِّ بِجَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

* وَبَيْنَمَا أَنَا فِي طَرِيقِي، إِذَا بِرَجُلٍ مِنْ قَبِيلَةِ خُزَاعَةَ، تَبَدُّو عَلَيْهِ عَلَائِمَ الشَّهَامَةِ، وَإِشَارَاتِ الْمَرْوَةِ، وَقَدْ رَأَيْتِي وَحِيدَةً فِي تَلْكَمِ الْفَلَاةِ، فَقَالَ لِي: أَيْنَ تَرِيدِينَ يَا أُخْتُ الْعَرَبِ؟! وَقَبْلَ أَنْ أَجِيبَهُ عَنْ سُؤَالِهِ، قُلْتُ لَهُ بِحَزَمٍ: مَا مَسَأَلْتُكَ؟ وَمَنْ أَنْتَ يَا هَذَا؟!

قَالَ الرَّجُلُ فِي هَدْوٍ: إِنِّي رَجُلٌ مِنْ خُزَاعَةَ يَا أُخْتُ الْعَرَبِ.

* وَلَمَّا ذَكَرَ الرَّجُلُ قَبِيلَةَ خُزَاعَةَ، تَمَشَّتِ الطُّمَأْنِينَةُ فِي نَفْسِي، وَسَرْتُ نَسَمَاتُ الْاِطْمِئْنَانِ إِلَى قَلْبِي، حَيْثُ إِنَّ خُزَاعَةَ كَانَتْ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفِي عَقْدِهِ، وَسَاعَةً إِذْ قُلْتُ لَهُ: إِنِّي امْرَأَةٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَإِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَلْحَقَ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ بِالْمَدِينَةِ، وَلَا عِلْمَ لِي بِالطَّرِيقِ إِلَيْهَا إِذْ لَمْ أَسْلُكْهَا قَبْلَ الْيَوْمِ.

فَقَالَ الرَّجُلُ فِي مَرْوَةٍ وَشَهَامَةٍ: يَا هَذِهِ، إِذَا أَنَا صَاحِبُكَ حَتَّى أَوْرِدَكَ الْمَدِينَةَ.

* وَانْطَلَقَ الرَّجُلُ الْخُزَاعِيُّ، ثُمَّ جَاءَنِي بِبَعِيرٍ فَرَكَبْتُهُ^(١)، وَسَارَ مَعِيَ حَتَّى قَدَمْنَا الْمَدِينَةَ، وَكَانَ خَيْرُ صَاحِبٍ شَهْمٍ فِي تِلْكَ الطَّرِيقِ، فَجَزَاهُ اللَّهُ خَيْرَ الْجَزَاءِ؛ فَقَدْ كَانَ يَقُودُ بِي الْبَعِيرَ، وَلَا وَاللَّهِ مَا كَانَ يَكْلِمُنِي بِكَلِمَةٍ قَطُّ، فَكَانَ إِذَا أَنَاخَ الْبَعِيرَ تَنَحَّى عَنِّي، فَإِذَا نَزَلْتُ جَاءَ إِلَى الْبَعِيرِ فَقَيَّدَهُ بِالشَّجَرَةِ، وَتَنَحَّى

(١) وَقِيلَ: إِنَّهَا هَاجَرَتْ مَاشِيَةً عَلَى قَدَمَيْهَا.

إلى ظلِّ الشَّجرة، حتى إذا كان الرِّواحُ جهَّزَ البعيرَ فقرَّبه وولَّى عني، فإذا ركبْتُ واستويتُ على ظهر البعير، أخذَ برأسه، فلم يلتفتْ وراءه حتى أنزل، فلم يزلْ كذلك على هذه الحال الكريمة حتى قدمنا المدينة.

* ولما وصلتُ المدينة، لم أدخلْ على أخي عثمانَ بن عفان، وإنَّما قصدتُ نَبْعَ وَمُنْبَعِ الأنوارِ، فدخلتُ على أمِّ سلمة أمِّ المؤمنين وأنا متنقِّبة، فما عرفتني حتى انتسبتُ وكشفتُ النَّقابَ، وعندها التزمتني وقالت لي: يا أمِّ كلثوم، هاجرتِ إلى الله - عزَّ وجلَّ - وإلى رسولِ الله ﷺ؟

قلتُ: نعم، وأنا أخافُ أن يردَّني رسولُ الله ﷺ إلى قومي، كما ردَّ أبا جندل^(١) وأبا بصير، وحالُ الرِّجالِ ليس كحالِ النِّساءِ، والقومُ مصبحي، قد طالت غيبتِي اليوم عنهم خمسة أيام منذ فارقتهم، وهم يتحنُّون قدر ما كنتُ أغيبُ، ثم يطلبوني، فإن لم يجدوني رحلوا.

* وبعد سُويعَة دخلَ رسولُ الله ﷺ على زوجته أمِّ سلمة، فأعلَمَتْهُ بأمرِي، وقصَّتْ عليه خبري، فرحَّبَ بي وسهَّلَ؛ فقلتُ: يا رسولَ الله، إنِّي فررتُ إليك بدِيني، فامنعني ولا تردَّني إلى الكفارِ يفتنوني ويعذبوني، ولا صَبِرْ لي على العذابِ، إنَّما أنا امرأةٌ وضَعُفُ النِّساءِ إلى ما تعرف، وقد رأيتُكَ رَدَدْتَ رجلين حتى امتنع أحدهما.

فقال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ - عزَّ وجلَّ - قد نقضَ العَهْدَ في النِّساءِ».

* وكان أخوأي عمارة والوليد قد لحقاني إلى المدينة ليردَّاني إلى مكة، فمنعني اللهُ منهما بالإسلام، وخرج رسولُ الله ﷺ من عند أمِّ سلمة، وقد أنزلَ الله - عزَّ وجلَّ - آيةَ الامتحانِ فقال سبحانه: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مِنْهُنَّ جَرَّتْ فَأَمْتَحِنُوهُنَّ اللَّهُ أَعْلَمَ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَءَاثُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْنَهُنَّ أَجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعَصَمِ الْكُوفَرِ وَسَلُّوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلَيْسَ لَكُمْ أَنْفَقُوا ذَلِكَمُ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ

(١) اقرأ سيرة هذين الصَّحابيَّين في الإصابة وأسد الغابة والاستيعاب وغير ذلك من كتب السيرة.

بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ قَاتَلْتُمُوهُمْ مِنْ أَرْوَاحِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعاقِبْتُمْ فَتَاتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَرْوَاحُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ [الممتحنة: ١٠ - ١١].^(١)

امْتِحَانُ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ :

* لقد نزل القرآن الكريم واضحاً موضعاً مفصلاً مبيناً الحكم الإلهي في هذه القضية، قضية امتحان المؤمنات عند الهجرة، وعدم ردهن إلى الكفار إذا ثبت إيمانهن، وعند ذلك امتحن النبي ﷺ أم كلثوم بنت عقبة ومن بعدها من النساء المهاجرات إلى الله ورسوله.

* ولرب سائل يسأل: كيف كان امتحان رسول الله ﷺ لأم كلثوم بنت عقبة وللنساء؟! وكيف كانت صيغة الامتحان؟!

* إنَّ الجواب عن هذا السؤال، يرويه عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - فيما أخرجه ابن جرير عنه قال: أنْ تُقَسِّمَ بالله ما خرجت التماس دُنْيَا، ولا عَشْقاً لرجلٍ، وبالله ما خرجت إلا حباً لله ولرسوله.

* فإذا قالت ذلك اكتفي به في إيمانها، وحرّم إرجاعها إلى المشركين، وذلك أنَّ المرأة لا يؤمن عليها الفتنة.

* وحلفت أم كلثوم بأن هجرتها كانت إلى الله ورسوله، وبذلك قطعت كل أمل يداعب خيال أخويها «عمارة» و«الوليد»^(٢) في ردها إلى أهلها، فعاد

(١) عن مختصر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٨٥)، وتفسير الخازن (٧/ ٧٨)، وتاريخ الإسلام للذهبي (المغازي ص ٤٠٠) مع الجمع والتصرف. وانظر: نسب قریش (ص ١٤٥ و ٢٢٦)، وصفة الصفوة (٢/ ٣٠)، وتفسير الآلوسي (٢٨/ ٧٦)، وغيرها كثير من المصادر الحديثية والتفسيرية وكتب السيرة والتراجم.

(٢) قال المفسرون: كان صلح الحديبية الذي جرى بين رسول الله ﷺ وكفار مكة قد تضمن أن من أتى أهل مكة من المسلمين لم يرد إليهم، ومن أتى المسلمين من أهل مكة - يعني المسلمين - رد إليهم، فجاءت أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط مهاجرة إلى رسول الله ﷺ، فخرج في أثرها أخوها «عمارة» و«الوليد» فقالوا للنبي ﷺ: =

أخواها عمارة والوليد إلى مكة، وأخبرا قريشاً بذلك، فرضوا أن تُحْبَسَ النساء.

* وبهذا رَضَعْتُ أُمَّ كَلْثُومَ بِنْتُ عَقْبَةَ جَبِينَ سِيرَتَهَا بِجَوَاهِرِ الْمَوَاقِفِ النَّفِيسَةِ الَّتِي تَشِيرُ إِلَى قُوَّةِ إِيْمَانِهَا، وَكَمَالِ عَقْلِهَا؛ يُضَافُ إِلَى ذَلِكَ كُلُّهُ أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - قَدْ شَهِدَ لَهَا بِالْإِيْمَانِ، وَسَمَّاها مُؤْمِنَةً، وَكَفَّاهَا بِهَذِهِ الْمَكْرَمَةِ فَضْلاً وَشَرْفاً.

* وَبَايَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَمَاعَةَ النِّسَاءِ عَلَى الشَّرُوطِ الْمَذْكُورَةِ فِي سُورَةِ الْمُمْتَحِنَةِ^(١)، قَالَ أَبُو حَيَّانٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: كَانَتْ بَيْعَةُ النِّسَاءِ فِي ثَانِي يَوْمِ الْفَتْحِ عَلَى جَبَلِ الصَّفَا، بَعْدَمَا فَرَّغَ مِنْ بَيْعَةِ الرِّجَالِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الصَّفَا، وَعَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ أَسْفَلَ مِنْهُ، يَبَايِعُهُنَّ بِأَمْرِهِ، وَيَبْلُغُهُنَّ عَنْهُ، وَمَا مَسَّتْ يَدُهُ الشَّرِيفَةَ ﷺ يَدَ امْرَأَةٍ أَجْنَبِيَّةٍ قَطَّ. قَالَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ السَّكَنِ: كُنْتُ فِي النَّسْوَةِ الْمَبَايِعَاتِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ابْسُطْ يَدَكَ نَبَايَعُكَ، فَقَالَ لِي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ، لَكِنْ آخِذُ عَلَيْهِنَّ مَا آخِذُ اللَّهُ عَلَيْهِنَّ».

* وَهَكَذَا أُثْبِتَتْ أُمُّ كَلْثُومَ بِنْتُ عَقْبَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - أَنَّهَا هَاجَرَتْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَبَايَعَتْ عَلَى مَا بَايَعَ عَلَيْهِ النِّسَاءَ، وَبَقِيَتْ فِي الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ أَوَّلَ مَهَاجِرَةٍ إِلَى الْمَدِينَةِ عَلَى هَذِهِ الشَّكْلَةِ، وَحَمَاهَا اللَّهُ تَعَالَى وَحَفَظَهَا مِنْ كَيْدِ أَخَوَيْهَا وَكَيْدِ الْمُشْرِكِينَ، وَقَدْ أَجَادَ أَحْمَدُ مُحَرَّمٌ - يَرْحَمُهُ اللَّهُ - رَسْمَ هَذِهِ

= رُدَّهَا عَلَيْنَا بِالْشَّرْطِ؛ فَقَالَ ﷺ: «كَانَ الشَّرْطُ فِي الرِّجَالِ لَا فِي النِّسَاءِ»، فَأَنْزَلَ اللَّهُ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ...﴾ [الْمُمْتَحِنَةُ: ١٠]، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: كَانَتِ الْمَرْأَةُ تُسْتَحْلَفُ أَنَّهَا مَا هَاجَرَتْ بَغْضًا لِرُزُوجِهَا، وَلَا طَمَعًا فِي الدُّنْيَا، وَأَنَّهَا مَا خَرَجَتْ إِلَّا حَبًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَرَغْبَةً فِي دِينِ الْإِسْلَامِ.

(تفسير البحر المحيط ٨/٢٥٦).

(١) الْآيَةُ (١٠ وَ ١١)، وَانْظُرْ تَفْسِيرَ أَبِي حَيَّانٍ لِهَاتَيْنِ الْآيَتَيْنِ.

الواقعة شعراً في ديوانه اللطيف «مجد الإسلام» فقال من قصيدة طويلة
نقتطف منها:

وَهَمٌّ مِنْ مَصَابِيهِمَا مَذِيبٌ^(١)
لِرُوعَةٍ ذَلِكَ الْحَدَثِ الرَّهِيْبِ
تَعَاوُدُ خِذْرُهَا بَعْدَ الْمَغِيْبِ
وَلَا هُوَ عِنْدَهُ عِلْمُ اللَّيْبِ
مِنَ الْأَحْدَاثِ بَعْدَكَ وَالْخُطُوبِ

أَرَى أَخَوَيْكَ فِي أَمْرِ مَرِيحٍ
يَلْفُ حُشَاهُمَا حَزَنٌ عَجِيبٌ
هَنَا كَانَتْ فَأَيْنَ مَضَتْ وَأَتَى
أَتَذْهَبُ أَخْتُنَا لَا نَحْنُ نَدْرِي
كَفَى يَا بِنْتَ عَقَبَةَ مَا لَقِينَا

* ومن هذه القصيدة قوله :

مَحَطُّ الرَّحْلِ لِلنَّائِي الْغَرِيبِ
بَطِيئَةٌ فَاَنْعِمِي نَفْساً وَطِييِ
رَعَتْ عَيْنَاكَ فِي الْكَرَمِ الْخَصِيبِ
عَلَيْكَ حَنَا ذِي النَّسَبِ الْقَرِيبِ
عَلَى فَرَطِ التَّجْهَمِ وَالشَّحُوبِ
وَدِيعَتُنَا فَمَا بِكَ مِنْ نَكُوبِ^(٢)
عَلَيْكَ الدَّهْرُ مِنْ خُلُقٍ مَعِيبِ
فَإِنَّكَ أَنْتَ ذُو الرَّأْيِ الْمَصِيبِ
عَلَى الْمَكْرُوهِ مِنْ عِزْمِ صَلِيبِ^(٣)
فَرِيسَةٍ كُلِّ جَبَّارٍ رَهِيْبِ
إِلَى دِينِ الْمَآثِمِ وَالذَّنُوبِ
وَيَجْلُو مَا اسْتَكَنَّ مِنَ الْغُيُوبِ
يُرْدُنَ اللَّهَ دِيَّانَ الشُّعُوبِ
لِجَاغَةِ كُلِّ عَرِيضٍ شُغُوبِ^(٤)

قَفِي يَا أُمَّ كُلْثُومٍ فَهَذَا
حَلَلْتُ بِفَضْلِ رَبِّكَ خَيْرَ دَارٍ
تَلَقَّاكَ النَّبِيُّ فَأَيُّ بَشَرٍ
يُرْحَبُ مَا يَرْحَبُ ثُمَّ يَضْفِي
عِمَارَةً وَالْوَلِيدُ وَلَا خَفَاءُ
أَهَابَا بِالرَّسُولِ أَعْدُ إِلَيْنَا
سَجِيَّتَكَ الْوَفَاءُ وَمَا عَلَّمْنَا
بِرَأْيِكَ فَاَقْضِ وَارْدُدْهَا عَلَيْنَا
فَصَاحَتْ إِنَّنِي امْرَأَةٌ وَمَالِي
بِرَبِّكَ يَا مُحَمَّدٌ لَا تَدْعُنِي
يَعْذِبُنِي لِأَتَرَكَ دِينَ رَبِّي
أَتَى التَّنْزِيلُ يَصْدُعُ كُلَّ شَكٍّ
إِذَا جَاءَ النَّسَاءُ مَهَاجِرَاتٍ
بَقِينَ مَعَ النَّبِيِّ وَإِنْ تَمَادَتْ

(١) «أمر مريح»: مختلط أو ملتبس .

(٢) «نكوب»: الميل والعدول .

(٣) «صليب»: شديد .

(٤) انظر: مجد الإسلام (ص ٢٨٩ - ٢٩١) و«عريض»: الذي يتعرض للناس بالشر .

مَقَامُهَا وَزَوَاجُهَا فِي الْمَدِينَةِ:

* كانت أم كلثوم من السَّعِيدَات بِالْإِيمَانِ، وكانت ممن نَعِمْنَ بِنُورِ اليقين في المدينة المنورة في جوار الرِّسُولِ الْكَرِيمِ ﷺ، ولما قدمت أم كلثوم المدينة كانت ما تزال عَاتِقًا^(١)، فأقامت حيناً من الدَّهْرِ بلا زوج، وتقدَّم لخطبتها عددٌ من الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ وهم: الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَامِ^(٢)، وزيد بن حارثة^(٣)، وعبد الرحمن بن عوف^(٤)، وعمر بن العاص^(٥) - رضوان الله عليهم -، وإذ ذاك شاورت أخاها لأمها عثمان بن عفان - رضي الله عنه -، فأشار عليها أن تذهب إلى رسول الله ﷺ فهو أعلمُ بصالحها ومصلحتها.

* وانطلقت أم كلثوم إلى رسول الله ﷺ وقصَّت عليه قصَّةَ الخطبة، فأشار عليها بالحَبِّ زيد بن حارثة وقال لها: «تزوَّجي زيد بن حارثة فإنه خيرٌ لك».

* ولم يُتْرَ هذا الزَّوْجَ عاصفةَ الفخر والتَّفاخر في نفوس المؤمنين، فقد سبق أن زوَّج رسول الله ﷺ زيد بن حارثة من ابنة عمته زينب بنت جحش^(٦) الشَّريفة الحسبية النَّسيبة، لقد قضى الإسلامُ الحنيفُ على عادة استهجانِ زواجِ الحرَّة من المولى، وغرس في النفوس المؤمنة غراساً طيِّبةً عنوانها أنَّ

(١) «عاتقاً»: العاتق: الجارية التي لم تتزوج. (القاموس المحيط ص ١١٧١).

(٢) اقرأ سيرته في كتابنا «فرسان حول الرسول ﷺ» (١ / ٣٢٩).

(٣) المصدر السابق (١ / ٣٥٧).

(٤) المصدر السابق (٢ / ١٣٥).

(٥) المصدر السابق (٢ / ٣٣٧).

(٦) اقرأ سيرة أم المؤمنين زينب بنت جحش في كتابنا «نساء أهل البيت» (ص ٢٧١ - ٣١٤) طبعة دار اليمامة الثانية.

النَّاسَ سَوَاسِيَةً، وَأَنَّهُ لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ إِلَّا بِالتَّقْوَى، وَحَسِبُ
جَمَاعَةَ الْمُؤْمِنِينَ قَوْلَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُ﴾
[الحجرات: ١٣].

* كَانَ زَوْاجُ أُمِّ كُلْثُومَ بِنْتِ عَقْبَةَ مِنْ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ زَوْاجًا مُوَفَّقًا مِيمُونًا،
وَقَدْ أَكْرَمَهُمَا اللَّهُ بِالذَّرِيَةِ الطَّيِّبَةِ، فَوَلَدَتْ لَهُ زَيْدًا وَرَقِيَّةً؛ وَلَكِنَّ زَيْدًا لَمْ يَمُكِّثْ
مَعَهَا طَوِيلًا، حَيْثُ لَقِيَ اللَّهَ شَهِيدًا فِي سَرِيَةِ مُؤْتَةَ، وَقَضَى نَحْبَهُ فِي بِلَادِ
الشَّامِ.

* وَلَمَّا انْقَضَتْ عِدَّتُهَا تَزَوَّجَهَا الزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ الْأَسَدِيُّ، حَوَارِي
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَوَلَدَتْ لَهُ ابْنَةً يُقَالُ لَهَا زَيْنَبٌ^(١)؛ وَيَبْدُو أَنَّهُ كَانَتْ فِي الزُّبَيْرِ
- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بَعْضُ الشَّدَّةِ عَلَى النِّسَاءِ، فَسَأَلَتْهُ أُمُّ كُلْثُومَ أَنْ يَطْلُقَهَا،
فَاسْتَجَابَ لِرَغْبَتِهَا وَطَلَّقَهَا.

* وَمَكَّثَتْ أُمُّ كُلْثُومَ مَدَّةً حَتَّى انْقَضَتْ عِدَّتُهَا، فَتَزَوَّجَهَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ
عَوْفٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -، وَعَاشَتْ فِي كَنْفِهِ عَيْشَةً رَاضِيَةً، وَوَلَدَتْ لَهُ إِبْرَاهِيمَ
وَحُمَيْدًا؛ وَمَنْ الْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّ ابْنِي أُمِّ كُلْثُومَ كَانَا مِنْ سَادَةِ الْعُلَمَاءِ، وَمِنْ
أَكَابِرِ الثُّجَبَاءِ، فَقَدْ كَانَ ابْنُهَا حُمَيْدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْفُقَهَاءِ الَّذِينَ
لَهُمْ رَوَايَاتُ كَثِيرَةٌ، ذَكَرَهُ ابْنُ الْعِمَادِ الْحَنْبَلِيُّ فِي «شَذَرَاتِهِ» فَقَالَ: كَانَ عَالِمًا
فَاضِلًا مَشْهُورًا، تَوَفِيَ سَنَةَ (٩٥ هـ) رَحِمَهُ اللَّهُ^(٢).

* وَمَكَّثَتْ أُمُّ كُلْثُومَ بِنْتِ عَقْبَةَ عِنْدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ إِلَى أَنْ تَوَفِيَ
عَنْهَا سَنَةَ (١٨ هـ)، فَتَزَوَّجَهَا عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - فَمَاتَتْ
عِنْدَهُ^(٣).

(١) انظر: نسب قريش (ص ١٤٥)، والاستيعاب (٤/ ٤٦٦).

(٢) شذرات الذهب (١/ ٣٨٦ و ٣٨٧) طبعة دار ابن كثير المحققة.

(٣) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/ ٣٦٥ و ٣٦٦)، وتهذيب التهذيب
(١٢/ ٤٧٧)، والإصابة (٤/ ٤٦٧).

عِلْمُهَا وَرَوَايَتُهَا لِلْحَدِيثِ :

* في رحاب المدينة المنورة راحت أم كلثوم - رضي الله عنها - تنهل من العلم شيئاً كثيراً جعلها واحدة ممن وعين الفقه، وروين الحديث النبوي الشريف وحفظته، ونقلته إلى طلاب العلم وشدة الحديث النبوي الذين يأتون المدينة من كل فج عميق يطلبون العلم من أصحاب رسول الله ﷺ .

* وكانت الصحابية أم كلثوم من النسوة اللاتي كن يكتبن ويقرأن، في الوقت الذي لم يكن فيه كثير من الرجال لا يجيد الكتابة أو القراءة، وهذه مكرمة لطيفة عززت مقدرة أم كلثوم على الحفظ والتثبت لما تسمع .

* روت أم كلثوم عن النبي ﷺ عشرة أحاديث، وحديثها في الصحيحين والسُنن الثلاثة سوى ابن ماجه، وقد أخرج لها من أحاديثها في الصحيحين حديث واحد متفق عليه .

* روى عن أم كلثوم ولداها: حميد وإبراهيم ابنا عبد الرحمن بن عوف؛ وروى عنها كذلك حميد بن نافع وغيره^(١) .

* أخرج مسلم في صحيحه بسنده عن حميد بن عبد الرحمن بن عوف أن أمه أم كلثوم بنت عقبة بنت أبي معيط رضي الله عنها، - وكانت من المهاجرات الأول اللاتي بايعن النبي ﷺ - أخبرته أنها سمعت رسول الله ﷺ وهو يقول: «ليس الكذاب الذي يصلح بين الناس ويقول خيراً وينمي خيراً»^(٢) .

* وظلت أم كلثوم بنت عقبة - رضي الله عنها - ترفد الناس بالعلم والرواية إلى أن لقيت ربها في خلافة علي بن أبي طالب - رضي الله عنها - .

* تلکم هي أم كلثوم ابنة عقبة إحدى الصحابيات اللواتي شهد الله لهن بالإيمان، وكتبن في سجل الخالدات، ف رضي الله عنها وأرضاها .

* * *

(١) الاستيعاب (٤/٤٦٦) .

(٢) صحيح مسلم (٨/٢٨) .

٨

أنس بنت عبد الكريم

هَلْ نَعْرِفُ نِسَاءَ الْعُلَمَاءِ؟!

* كثيرٌ من النَّاسِ لا يعرفُ شيئاً عن حياةِ نساءِ العلماءِ، بل كثيرٌ من عشاقِ الثقافةِ لا يلتفتُ إلى هذه الناحية المهمةِ في تاريخِ النساءِ اللواتي عشنَّ في كنفِ العلماءِ، وكان لهنَّ أثرٌ طيّبٌ في حياةِ العلماءِ، وفي مسيرة حياتهم العلمية.

* فهل خطرَ في بالِ أحدٍ أنْ يُفردَ لهؤلاءِ النسوة كتاباً تحت عنوان «نساء العلماء»؟! أعتقدُ أنَّ بعضَ محبي العِلْمِ قد تناول بعضَ حياةِ نساءِ العلماءِ، ولكنْ لم يتحدثْ إلا عن الشَّهيراتِ منهنَّ، بل تناول بعضهم الحديثَ عن أمهاتِ العلماءِ من خلالِ قَصَصٍ قصيرةٍ يتحدثُ من خلالها عن حياةِ العالمِ الذي يترجم له، كأثرِ حياةِ أمِّ الشَّافعي، أو أمِّ أبي حنيفة، أو أمِّ أحدِ العلماءِ المشهورين في تاريخنا الوضيء الميمون.

* إنَّ كثيراً من نساءِ العلماءِ تركنَ آثاراً حسناً في التاريخِ التَّسوي، بل والتَّاريخِ العلمي والأدبي والحضاري؛ ومن هؤلاءِ النسوة مثلاً: زوجُ الإمامِ أحمد بن حنبل، وزوجُ الإمامِ أبي الفرج ابن الجوزي، وغيرهما من عمالقةِ علماءِ الدِّنيا في مختلفِ الأزمنةِ والأعصارِ.

* ففي رحلةِ الحياةِ مع نساءِ التاريخِ الإسلامي، ومع نساءِ العلماءِ أحببتُ ترجمةَ حياةِ هذه المرأةِ التي نأَسُسُ بسيرتها اليوم، وعلى هذه الصِّفحاتِ، ليزدانَ كتابنا بها وبأمثالها ممن كُنَّ قدوةً رائعةً للنساءِ بعدهنَّ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، وفي كلِّ عَصْرٍ وأَوَانٍ.

* وهذه المرأةُ زوجةُ كريمةٍ من كرائمِ زوجاتِ العلماءِ، وهي امرأةٌ نبيلةٌ من نساءِ القرنِ التَّاسعِ الهجري، تلكِ المرأةُ التي كانت سيدةَ بيتٍ حَفَظَ عَصْرُهُ، وأميرُ المؤمنين في الحديثِ، مَنْ وصفه العلامةُ بُرْهان الدِّين بن خضِرٍ بقوله: حافظُ العَصْرِ على الإطلاقِ، وخاتمةُ علماءِ السُّنَّةِ إلى يومِ التَّلَاقِ.

* وعَلِمُ الأعلامِ هذا نعتُهُ الشُّيُوطي بقوله: شيخُ الإسلامِ، وإمامُ الحَفَظِ

في زمانه، وحافظ الديار المصرية، بل حافظ الدنيا مطلقاً.

* وقال عنه شمس الدين القايبي: المحاسن التي تفرقت في الناس، اجتمعت في ابن حجر.

* إذاً فصاحب هذه المحاسن، هو الحافظ ابن حجر العسقلاني^(١)، صاحب التصانيف المشهورة، والكتب النافعة المنتورة؛ التي طبقت شهرتها وشهرته المعمورة.

* وأما المرأة التي ستكون ضيفة هذه الموسوعة فهي واحدة من نساء العلماء اللواتي لم تسطع سيرهن في التاريخ، بل لم تلمع أسماؤهن في سماء الشهرة، ناهيك بأن التاريخ النسوي لم يلق لها بالاً، ولكن تاريخ نساء العلماء لم يهمل محاسن أعمالها، ولم ينس ذكر أخبارها، وإن كانت أخبارها أقرب إلى التدرية من الشهرة.

* ولما رحت أدرس أثر النساء في حياة العلماء، وحياة الحفاظ، استوقفتني سيرة الحافظ ابن حجر العسقلاني. ومن منا لا يعرف ابن حجر؟!

* وتابعت البحث والدرس في حياة امرأة إمام العلماء، فإذا بي أمام واحدة يجب أن نعرف صفحات من حياتها، ويجب أن نتعرف سيرتها وأخبارها وحياتها في بيت هذا العالم المفنن الفذ.

* إن هذه المرأة لم تكن من شهيرات النساء في عالم الشهرة، ودنيا المشاهير، وإنما عاشت في رحاب أشهر علماء الدنيا في عصره ومصره.

* وأعتقد أن هذه المرأة لم يسمع بها كثير من الناس وأهل الاطلاع، في حين أن سيرة زوجها تمتع الأسماع، وتملأ الآذان، ولا تخفى على كثير من الناس وخاصة: أهل العلم، وأهل الحديث، وأهل المعرفة.

(١) انظر ترجمته في: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي (٣٦/٢ - ٤٠)، ترجمة رقم (١٠٤)، وطبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٥٤٧ و ٥٤٨) ترجمة رقم (١١٩٢)، وكثير من الكتب التي لا تحصى.

والآن يمكنني أن أقدم بطاقة هذه المرأة، لنقرأ هويتها ونعرف اسمها؛ إنها أنس بنت عبد الكريم بن أحمد بن عبد العزيز ناظر الجيش، المصرية القاهرية^(١).

* تدلُّ الأخبارُ التي وصلتنا عن أنس أنها وُلدت في بحر القرن الثامن الهجري، وحدد أهل العلم والأخبار مولدها فقالوا إنها وُلدت في سنة (٧٨٠ هـ)^(٢) في أرض الكنانة: مصر.

* نشأت أنس بنت عبد الكريم في أسرة تحفها غرر الشرف من كلِّ جانب، إذ إنَّ أسرتها من كبريات الأسر التي ورثت المكارم كابراً عن كابر؛ فقد كانت أسرتها من الأسر المعروفة بالرئاسة في القرن الثامن الهجري، كما أنَّ أفراد أسرتها معروفون بأنهم من العلماء، ومن أعلام الفقه والأدب، يُضاف إلى ذلك كله أنهم كانوا أصحاب حشمة وخيرات وإحسان إلى الناس.

* فأبوها مشهورٌ في عالم مشاهير عصره، حيث يُعرف بابن عبد العزيز اللخمي التستراوي الأصل، القاهري.

* وأمها سارة بنت ناصر الدين محمد بن أنس، إحدى كرائم نساء عصرها أدباً وديناً وصيانةً ومكانةً؛ كانت جليلة القدر، مبدلةً، أثني عليها غير واحدٍ من أكابر العلماء، وعلماء الأكابر، توفيت سنة (٨٢١ هـ)^(٣).

* في هذه البيئة الكريمة المِعطاء المِعطار كانت نشأة ضيفتنا أنس بنت عبد الكريم، حيث رُبِّيت على مدارج العلم والأدب والشرف، فعدت واحدة من فواضل نساء مصرها في أعمال الخير والمبرات، بالإضافة إلى أنها كانت رئيسة في قومها يُرجع إليها في كثيرٍ من شؤون الحياة، وفي كثيرٍ من

(١) انظر: الضوء اللامع للسخاوي (١٢/١٠ و ١١)، وأعلام النساء (٩٧/١).

(٢) الضوء اللامع (١١/١٢).

(٣) الضوء اللامع (١٢/٥٢) بتصرف.

المشاورات، فقد حبّاهما الله من العقل الوافر، وحُسنِ النظرِ في الأمور، ما فاقَتْ به نساء القوم عصر ذاك.

* ولما شَبَّتْ أنس عن الطَّوقِ، وبلغتْ مبلغَ النساءِ، تزوَّجها الحافظُ ابنُ حجر العسقلاني، وذلك بإشارةِ محمّد بن عليّ القَطّانِ المصريّ الشّافعي^(١)، وكان وصيّاً على ابن حجر، وكان ابنُ القَطّانِ يَعْرِفُ أسرةَ أنس بنت عبد الكريم ومكانتها في المجتمع عصر إذ، كما كان يسمعُ عن أنس هذه كثيراً من الفضائل، ممّا جعله يختارها لربيّه وتلميذه ابن حجر، وكان زواجها في شهرِ شعبان سنة (٧٩٨ هـ)، وكان عمرُ ابن حجر آنذاك خمساً وعشرين سنة، بينما كانت زَوْجُهُ أنسُ في ميعة الصِّبا لا تتعدى ربيعها الثَّامن عشر.

تَلْمِيزَةُ إِمَامِ الحُفَاطِ، وتَلْمِيزَةُ العُلَمَاءِ :

* دخلتْ أنس ابنة عبد الكريم بيت الزَّوجية، فوجدتْ أمامها علماً من أعلام الدنيا، وعالماً من أفرادِ الدَّهرِ، وطوداً في المعارف والعُلوم والفقه والآداب وجلّ أنواع المعرفة، فكأنّه مكتبةٌ جامعةٌ متحركة تسعى على قدمين، فجعلت تقتبسُ من معارفه ما استطاعتْ إلى ذلك سبيلاً.

* ووجدَ الحافظُ ابنُ حجر عند زوجه حبّاً شديداً للعلم، وشغفاً للمعرفة، ورغبةً للتلقّي، فأخذَ يعتني بها، ويدلُّ لها صعبَ المسائل، ويمهّدُ لها سُبُلَ العلم، فأسمعها الحديثَ المسلسل من شيخه عبد الرحيم بن الحسين المشهور بلقبه الحافظ زين الدِّين العراقي المتوفى

(١) «ابن القَطّان»: شمسُ الدِّينِ محمّد بنُ علي بن محمد بن عمر المصري الشّافعي المعروف بابن القَطّان، كان أبوه قَطّاناً كذلك، واشتغل هذا بالعلم، ومهَّر به، وسكَنَ مصر، ودرَّسَ، وأفتى، وصنَّف. قال ابنُ حجر - رحمه الله -: قرأتُ عليه وأجاز لي، ولم يحصل له سماعٌ في الحديث على قدرِ سنّته، وكان ماهراً في القراءات، والعربية والحساب، ونابَ عن الحكم بأخرة، فتهاكَّ على ذلك إلى أن مات. توفي في أواخر شوال سنة (٨١٣ هـ) رحمه الله. (شذرات الذهب ١٥٥/٩).

سنة (٨٠٦ هـ)^(١)؛ وكذلك أسمعها الحديثَ المسلسل من شيخه محمد بن محمد بن عبد اللطيف المشهور بالشَّرف ابن الكويك الرِّبَعي الشَّافعي المتوفى سنة (٨٢١ هـ).

* ونبغت أنسُ ابنة عبد الكريم في علم الحديث ومعرفته، حتى غدت من المحدثات الفاضلات في عصرٍ افتقر إلى المحدثات العالمات.

* ولم يقف الحافظ ابن حجر عند هذا الحد من التعليم، بل استطاع أن يُحصِّل لزوجهِ العالمَةِ أنسَ جملةً من الإجازات العلميَّة باستدعاءاتٍ عددٍ من حفاظ العصر، وعددٍ من المُسنِّدين، وممن أجازَ لها: أبو الخير بن الحافظ العلائي، وأبو هريرة عبد الرحمن بن الحافظ الذهبي، وخلقٌ من مختلف العواصم الإسلاميَّة من المصريين والشَّاميين والمكيِّين واليمنيين^(٢).

قَدْ صِرَتْ شَيْخَةً:

* من المعلوم أنَّ الإسلامَ الحنيفَ قد حرصَ على تعليم المرأة حرصاً شديداً، وذلك بما تكونُ به عنصرَ صلاح وإصلاح في مجتمع إسلاميٍّ متطوِّر إلى الكمال، متقدِّم إلى القوَّة والمجدِّ، آمِنٍ مطمئنٍّ سعيدٍ، فأذنَ باشتراكها في المجامع الإسلاميَّة العامَّة الكبرى منها والصَّغرى، فرغبَ بأنَّ تحضُرَ صلاة الجماعة، وحثَّها على حضورِ مجالس العِلْم والتَّعليم والتَّعلُّم، وخاطبَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - النِّساء في القرآن الكريم بمثل ما خاطبَ به الرِّجال، حرصاً على تعليمهنَّ وتعريفهنَّ أمورَ دينهنَّ، ونظرةً إلى واقع الحياة تبدي لنا أهميَّة صلاح المرأة علماً وخلقاً وسلوكاً داخل الأسرة، ثمَّ في المجتمع الكبير، فبمقدارِ صلاح المرأة في الأسرة يكونُ غالباً صلاح الدَّرية فيها، وذلك لأنَّ المرأةَ تستطيعُ أن تكونَ ذات أثرٍ فعَّالٍ مرشِدٍ في تكوين أخلاق الأُطفال الصِّغار وطبائعهم وعاداتهم.

* ولما كان للمرأة هذا الأثرُ كلُّه في التَّربية والتَّعليم داخل أسرتها أو

(١) الضَّوء اللامع (١٢/١١).

(٢) الضَّوء اللامع (١٢/١١) بشيء من التصرُّف.

خارجها، كان لا بدَّ من العناية بتكوينها تكويناً راقياً، وجعلها قدوةً صالحةً وأسوةً حسنةً، وذلك لا يتمُّ إلا بتعليمها، وتربيتها تربيةً إسلاميةً حسنةً، لتعطي الفائدة لمن حولها.

* ومن الجدير بالذكر أنَّ النساءَ المسلمات قد كُنَّ في السَّابق متلهفاتٍ لمعرفةِ أمورِ دينهنَّ، مشغوفات لتلقي العِلْم من أهل العلم، ساعيات إلى تعلُّم الموعظة، بعيدات عن الرِّيبة وأسباب الفتنة، وكانت ضيفتنا أنس بنت عبد الكريم من هؤلاء النساء اللواتي عرفنَ طريقَ النُّور، وتعلَّقنَ بأسبابِ العلم.

* هذا؛ وقد كان إعجابُ ابن حجر - رحمه الله - بزوجه أنس بنت عبد الكريم ينمو يوماً بعدَ يوم، فقد غدتْ معارفها تنمو يوماً بعدَ يوم، وعاماً بعدَ عام حتى أضحت واحدةً من المحدثات العالمات الفاضلات في عصرها.

* ومن الجدير بالذكر أنَّ زوجها الحافظ ابن حجر كان قد تتلمذَ على مئات العلماء، وفيهم أكثرُ من خمسينَ امرأةً اشتهرنَ بمختلفِ المعارفِ والعلوم، فكان منهنَّ الفقيهاتُ، والمحدثاتُ، والقارئاتُ، والأديباتُ، والشَّواعرُ، وغير ذلك ممن ملكنَ نواصي العِلْم والبيان والمعرفة، لذلك ليس بعجيب أن تكونَ زوجة أنس بنت عبد الكريم واحدةً من عالِماتِ دهرها اللائي قَصْدُهُنَّ طَلَّابُ العِلْم من كلِّ فجٍّ عميق، ممَّا جعل زوجها يقول لها: قد صِرْتَ شيخخة يا أنس.

* وبهذا قد علا صيتُ أنس ابنة عبد الكريم في أفقِ المعرفة، وسطعَ نجمُها في سماءِ العِلْم، فقصدَها الأفاضل والأماثلُ وشداةُ العِلْم للقراءة عليها، وقد بلغتْ من التمكنِ في العِلْم والإقراء مبلغاً ميموناً، فقد حدثتْ بحضورِ زوجها الحافظ ابن حجر، وهوَ البحرُ الحبرُ العَلَم في العِلْم والعمل^(١).

(١) المصدر السابق؛ وما ظنك بامرأة تأخذ في علم الحديث بحضور جهذ العصر، ونابعة الدهر ابن حجر؟؟! إنَّ هذا ليشيرُ بحقٍّ إلى تمكنها من هذا العِلْم الشريف.

مِنْ تَلَامِذَتِهَا :

* تشير أخبار أنس بنت عبد الكريم إلى أنه قد قرأ عليها أكابر الفضلاء من أهل العلم، وتلمذ على يدها جلة من أعلیاء أهل الفضل، فكان يقرأ عليها العلامة ابن خضّر صحيح البخاري في رجب وشعبان من كل سنة، ومن بعده سبطها - يوسف بن شاهين الكركي المتوفى سنة ٨٩٩ هـ - وكانت في يوم ختم صحيح البخاري تحتفل بأنواع الحلوى والفاكهة وغيرها، وكان الكبار والصغار وأهل محلّتها يُهرعون لحضور هذا الاحتفال البهيج في يوم الختم - وهو قبيل شهر رمضان - وذلك بحضور زوجها الحافظ ابن حجر^(١).

* هذا؛ وقد كان الحافظ السخاوي المتوفى سنة (٩٠٢ هـ)؛ - وهو من أكابر العلماء، ومؤرخ حجة، وعلامة في الحديث ورجاله، والتفسير والفقه واللغة والأدب، انتهى إليه علم الجرح والتعديل، وكان يروي صحيح البخاري عن أزيد من مئة وعشرين نفساً -، كان هذا العلامة قد خرج لأنس امرأة شيخه الحافظ ابن حجر أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً، قراءة عليها بحضور زوجها ابن حجر، وهذا يدل على تبخرها في هذا الفن، كما يشير إلى تمكنها من الرواية حيث إنها تتحدث أمام أعظم علماء الحديث في دنيا الحديث في عصرها.

* هذا؛ وقد أشار السخاوي - رحمه الله - إلى تلقيه العلم عن أستاذه وزوج أستاذه أنس بنت عبد الكريم فقال: وخرّجتُ لها أربعين حديثاً عن أربعين شيخاً، قرأتها عليها بحضوره - أي: ابن حجر - أيضاً، وحملتُ عنها أشياء^(٢).

* وتدل أخبار هذه العالمة الفاضلة أنها كانت شغوفة بالعلم شغفاً كبيراً، فقد قرأ عليها الفضلاء كي يتثبتوا من حفظهم، فكانت تُسرّ من ذلك سروراً بالغاً، فكانت تحتفل بذلك، وتفيض على جماعة طلاب العلم بالعطاء،

(١) انظر الحافظ ابن حجر (ص ٤٠ و ٤٧ و ٤٨) بشيء من التصرف.

(٢) الضوء اللامع (١١/١٢).

وتكرمهم في أغلب الأحيان، وهذا نوعٌ من أنواع التَّغْيِبِ في العِلْمِ واقتناص دُرِّهِ من بحارِ العُلَماء والفُقهاء .

زَهْرٌ مِنْ رِيَاضِ أَخْبَارِهَا :

* من أعظم إعمار البيوت وجودُ الأولاد، ولعلَّ استمرارَ المودات بين الأزواج وجود الدَّريَّة التي تزيِّنُ الحياة الدُّنيا، وهذه الزَّينة كانت موجودةً في حياة أنس بنت عبد الكريم التي كانت ودوداً ولوداً .

* وتروي أخبارُ ضيفتنا أنَّها أنجبتُ للحافظ ابن حجر^(١) خَمْسَ بنات خلال (١٥ سنة)، كانت أولاهُنَّ وَلَادَةً في سنة (٨٠٢ هـ)، وأُخْرَاهُنَّ في سنة (٨١٧ هـ) .

* وأحصى الذين ترجموا حياة ابن حجر بأنَّ بناته من زوجه أنس هُنَّ خمسٌ، وأسماءُهن هي : زين خاتون، فرحة، غالية، رابعة، وفاطمة .

* وكان الحافظُ ابن حجر يكرمُ زَوْجَهُ أنساً إكراماً شديداً، لما كانت عليه أخلاقُها العظيمة، وشمائلُها الكريمة، فقد حظيت معه بِحِجَّةٍ، حيث استصحبها إلى أداءِ فريضةِ الحجِّ في سنة (٨١٥ هـ) ومن ثَمَّ عادت معه إلى مصرَ .

* وبعد مضيِّ قرابة عَقْدَيْنِ مِنَ الزَّمنِ اشتاقت أنس إلى الحجِّ، فأذن لها في سنة (٨٣٤ هـ) أن تؤدِّيَ الحجَّ، فحجَّتْ بمفردها، وجاورتُ ومعها سبطُها يُوْسُف بن شاهين، وكان صغيراً لا يتجاوزُ ست سنين .

* وتشيرُ الأخبارُ التي وصلتنا عن أنس أنَّها كانت شديدةَ الاحترام والتَّوقيرِ لزوجها، عظيمةَ الرِّغبةِ فيه، تودُّه وتكبره؛ وكان هو الآخر يبادلُها الاحترامَ نفسَه، وكان لا يصبرُ على فراقها، وفراقِ أولاده، وحفدته، ويظهرُ لنا شعوره هذا جلياً حين رحلته إلى الحجِّ، وطلبهِ العِلْمِ في بلادِ الحجاز،

(١) تزوجَ ابنُ حجر زوجات أخريات غير زوجه أنس بنت عبد الكريم، وأنجبتُ له إحداهن بنتاً سَمَّاهَا آمَنة، وولدت له أخرى ولدأ سَمَّاهُ محمداً، وكان مولده سنة (٨١٥ هـ) .

اسمع إليه يقول من قصيدة يعبر فيها عن اشتياقه لزوجهِ وأولاده وحفدته جاء في مطلعها:

مَنْ لِدِيَارٍ عَنْ مَقِيلِي شَاسِعَهُ وَأُمْسٍ كَانَتْ لِمَقَالِي سَامِعَهُ
أَدْعُو فَلَا يَجِئُنِي إِلَّا الصَّدَى رَجَعُ الْخِطَابِ لَا يُفِيدُ سَامِعَهُ
* ثم يذكر منزله وأولاده وزوجَه فيقول:

وَمَنْزِلًا كَانَ لِطَرْفِي مَنْزَهَا بِهِ فُلِيدَاتُ حَشَايَ هَالِعَهُ
مَحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ ابْنُ أَخْتِهِ وَأُمُّهُ وَأَخْتُهَا وَرَابِعَهُ
أَرْبَعَةٌ أَصْلٌ وَفَرْعٌ خَامِسٌ أَفْدِيَهُ بِزَهْرَةٍ تُزَفُّ يَانِعَهُ
وَأُمُّهُمْ جَامِعَةُ الشَّمْلِ لَهُمْ كَأَنَّ رُوحِي بَعْدَهُمْ فِي جَامِعَهُ
يَرْتَاحُ قَلْبِي عِنْدَ ذِكْرَاهُمْ تَهْتَرُّ خَضْرَاءُ لُغُوثِ هَامِعَهُ

* لقد حُقَّ لهذه المرأةِ العالمةِ الفاضلة أن تنالَ من زوجها كلَّ الاحترام والإجلال والتقدير، فقد ضربت أعلى الأمثلة في الاضطبار على المصائب، والرضا بقضاء الله والتسليم لأمره، فلم يضبط لها هفوة، ولا سقطه، ولا زلة على الرغم من أنها فقدت بناتها كلهن يتساقطن بين يديها الواحدة تلو الأخرى، ويذوين كما يذوي القضيبي من الرند، وهنَّ في ميعه الصبا، فتصبرن واحتسبت ذلك عند العليم الخبير. فقد ماتت كبرى بناتها زين خاتون بالطاعون وهي حامل في سنة (٨٣٣ هـ)، وقبل ذلك بأعوام عديدة فقدت ابنتها غالية ورابعة بالطاعون أيضاً، وذلك في ربيع الأول سنة (٨١٩ هـ). أمّا ابنتها فرحة وفاطمة فقد توعكت كل واحدة منهما وماتت؛ وما ظنك بامرأة تفقد كل أولادها، وفلذات كبدها، ولا تزدادُ بذلك إلا إيماناً وتسليماً؟!!

* لقد أعطت أنس بنت عبد الكريم - في عصرها وبعده - نموذجاً رائعاً لكل بنات حواء في الصبر والتسليم، والإيمان بالله الذي بيده مقاليد السموات والأرض.

* ومما يُضافُ إلى رصيد أنس الإيمانِي أنها قد وقفت أملاكها وأموالها على سبطها وعلى ذريته، ووهبت جزءاً من مالها لأعمال الخير، وتصدقت

ببعض مالِها على أصحاب الحاجات، وعلى النسوة العجائز اللاتي كنَّ يدخلنَ عليها، وعلى أهلها الأقربين .

* ومن جواهر أخبارها: أنَّها كانت صافية النَّفس، موصولة القلب بالله على أساس صحيح، وكانت ذات دعوةٍ مستجابة، وقد ورد أنَّها رأت ليلة القدر، فزاد ذلك من قدرها .

* وفي شهر جمادى من سنة (٨٥٢ هـ) لازمَ المرضُ زوجها الحافظَ ابنَ حجر، وثقلَ عليه، وتغيَّر مزاجه، وأصبحَ ضعيفَ الحركة، فكانت أنس لا تبخلُ في تريضه، إلى أنْ وافته الأجلُ ليلة السبت في الثامن والعشرين من ذي الحجة سنة (٨٥٢ هـ)، فكان وقعُ المصيبة عظيمًا بوفاته، إذ فقدت الركنَ الأساسي في حياتها بعد أن فقدت أولادها .

* ولم يكن وقعُ المصيبة أليماً على زوجها أنس وحدها، وإنما على مصرَ كلها، بل الدنيا؛ فقد شيعته القاهرة باكيةً حزينةً في موكبٍ مهيب، ولما وصلت جنازته المصلّى، أمطرت السماءُ على نعشه - ولم يكن زمانَ مطر - كما أورد السيوطي ذلك حيث قال: حدثني الشهاب المنصوري - شاعرُ العصر - أنَّه قد حضرَ جنازته، فأمرت السماءُ على نعشه، وقد قربَ إلى المصلّى، ولم يكن زمانَ مطرٍ، قال: فأنشدتُ في ذلك الوقت:

قَد بَكَتِ الشُّحْبُ عَلَى قَاضِي الْقُضَاةِ بِالمَطَرِ
وَانْهَدَمَ الرُّكْنُ الَّذِي كَانَ مَشِيداً مِنْ حَجَرٍ^(١)

أنس في ذَاكِرةِ الزَّمنِ:

* ظَلَّتِ السَّيِّدَةُ أنس بنت عبد الكريم وفيّة لزوجها وشيخها ابن حجر، ولم تتزوَّج غيره؛ وعاشت بعده قرابة (١٥ سنة) قضتها في العلم، والعبادة، والصَّلاح، وعَمَلِ الخيرات .

* وامتدت الحياةُ بضيعةٍ حلقتنا حتى اقتربت من التسعين، وهي لا تفتُرُ

(١) انظر: طبقات الحفاظ للسيوطي (ص ٥٤٨) طبعة مصر بتحقيق: علي محمد عمر .

عن ذِكرِ الله، وعن العِلْم، والإِقراء، والمدارس، والعطفِ على أهلِ العِلْم ورعايتهم.

* وفي شهر ربيع الأول من سنة (٨٦٧ هـ)، حان اللقاءُ مع الخالق، فوافاهما الأجلُ في مصرَ، وعمرها (٨٧ سنة)، وقد شيعَ جنازتها عددٌ من العلماء وشُدّة المعرفة وطلاب الحديث، وذلك وفاءً لها، وتقديراً لعلمها وفضلها وبرّها، ولمكانة زوجها ابن حجر العسقلاني، وقد صُلّيَ عليها بجامع المارداني، ودُفِنَتْ بتربة^(١) سلفها بالقرب من الجامع عند أولادها.

* تلکم هي أنسُ ابنة عبد الكريم زوج أمير العلماء ابن حجر، فما أجمل بنا ونحن نودّع سيرتها أن نذكر ما أثنى به عليها الحافظ السخاوي حيث أثنى وأنصف وأجاد بكلمة جامعة قال فيها: كانت رئيسةً، دينةً، كريمةً، راغبةً في الخير، مجابة الدعاء^(٢).

* رحم الله أنس بنت عبد الكريم، وأوسعَ لها في الجنان منزلاً، فقد كانت بحقّ مثالَ الزوجةِ القدوةِ الوفيّةِ، والعالمَةِ العاملةِ الفاضلةِ، والمرأةِ الكريمةِ المطوّاعِ لزوجها، المعينةِ له في علمه وعمله، فهل تقتدي بها النساءُ؟ وهل تخلفها بشيءٍ مما آتاها الله من فضائلِ المكارم، ومكارمِ الفضائلِ؟!

* * *

-
- (١) إنّ أهلَ القاهرة كانوا يعنون بالتربة والمقابر عنايةً فائقةً تلفتُ الأنظار، وقد عبّر الرّحالة المغربي ابنُ بطوطة عندما عبّر القاهرة وتحدّث عن تربّتهم فقال: وهم - يعني أهل القاهرة - يبنون بالقرافة - التربة - القباب الحسنة، ويجعلون عليها الحيطان، فتكون كالدُّور، ويبنون بها البيوت، ويرتّبون القراء، يقرؤون ليلاً ونهاراً بالأصوات الحسان، ومنهم من يبني الزاوية والمدرسة إلى جانب التربة، ويخرجون في كلّ ليلة جمعة إلى المبيت بها بأولادهم ونسائهم، ويطوفون على الأسواقِ بصنوف المأكّل. (رحلة ابن بطوطة ص ٣٩).
- (٢) الضوء اللامع (١٢/١١).

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

٩

بجارة الهلاية

مَنْ هَذِهِ الْخَطِيبَةُ الْبَلِیْغَةُ؟

* هذه واحدةٌ مِنَ الْوَافِدَاتِ عَلَى معاويةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ - رضي الله عنهما -، حفظَ لها التَّأْرِيخَ بِلاَغَتِهَا، وعَرَفَ مقدارها في عالمِ الْخُطَابَةِ والوفادة.

* ولا شكَّ في أَنَّ الْوَافِدِينَ عَلَى الْمُلُوكِ وَالْأَمْرَاءِ همُ أَمْرَاءُ الْكَلَامِ ومُلُوكُهُ، فقد كان يَنْتَجُجُ عن تلك الْوَفُودِ مشاهدُ حَفَلٍ ومقاماتُ فَضْلٍ، إِذْ يُتَخَيَّرُ لها الْكَلَامُ اختِياراً من بناتِ الْأَفْكَارِ، وتُسْتَجْزَلُ المعاني من ديوانِ الْأَلْفَاظِ لتكون ذا وقعٍ مؤثِّرٍ في النَّفُوسِ.

* وكان لا بدَّ للوَافِدِ - أو الْوَافِدَةِ - عن قومه أَنْ يَكُونَ عَمِيدَهُم الَّذِي عن رأيه يصدرُونَ، فهو واحدٌ يَعدِلُ قَبِيلَةَ، ولسانُ يُعَرِّبُ عن ألسنة، وما ظَنُّكَ بَوَافِدٍ - أو وَافِدَةٍ - يَتَكَلَّمُ بين يدي خَلِيفَةِ الْعَصْرِ والأَوَّانِ معاويةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ عَلَيْهِ سَحَابُ الرِّضْوَانِ؟ فهو يَتَحَفَّظُ مَنْ أَمَامَهُ مَرَّةً، ويوطدُ لِقَوْمِهِ مَرَّةً أُخْرَى، أتراهُ مدخراً نَتِيجَةً مِنْ نَتَائِجِ الْحِكْمَةِ، أو مُسْتَبْقِياً شَيْئاً مِنْ غَرَائِبِ الْفُطْنَةِ؟! أَمْ تَظُنُّ أَنَّ قَوْمَهُ قَدَّمُوهُ لِفَضْلِ هَذِهِ الْخُطَّةِ إِلَّا وَهُوَ عِنْدَهُمْ فِي غَايَةِ الْحَذَلَةِ وَاللَّسَنِ، ومَجْمَعِ الشَّعْرِ وَالْخُطَابَةِ؟! وما أَجْمَلُ قَوْلَ الْقَائِلِ:

وَمَا الشَّعْرُ إِلَّا حِكْمَةٌ مِنْ مُؤَلِّفٍ بِمَنْطِقٍ حَقٌّ أَوْ بِمَنْطِقٍ بَاطِلٍ

* وفي هَذِهِ الصَّفَحَاتِ نَتَعَرَّفُ بِلاَغَةَ امْرَأَةٍ مِنْ بَيْنِ نِسَاءِ صَدْرِ الْإِسْلَامِ الْخَالِدَاتِ، اللّوَاتِي نَظَرْتُ لِسَمَاعِ أَخْبَارِهِنَّ، وَنَشَمْتُ عِبِيرَ أَحَادِيثِهِنَّ الْعِذَابِ فِي مُخْتَلَفِ الْمَعَارِفِ، وَلَعَلَّهَا مِنْ أَحْلَى الصَّفَحَاتِ الَّتِي تَجْمَعُ الْعِظَةَ إِلَى جَانِبِ الْمَعْرِفَةِ، وَالْحِكْمَةَ إِلَى جَانِبِ الشَّعْرِ، وَتَجْمَعُ الْفَضِيلَةَ إِلَى جَانِبِ الْعِلْمِ وَالْحِلْمِ وَالصَّبْرِ وَكُلِّ الْفَضَائِلِ.

* وامرأة هَذِهِ الصَّفَحَاتِ - وَهِيَ إِحْدَى الْوَافِدَاتِ ^(١) عَلَى معاوية - تَمَثَّلُ

(١) الْوَافِدَاتُ عَلَى معاوية - رضي الله عنه - نِسْوَةٌ مُعْدُودَاتٌ، ذَكَرْتَهُنَّ بَعْضُ الْمَصَادِرِ الْقَدِيمَةِ مِنْ مِثْلِ: بِلاغاتُ النِّسَاءِ، والعقدُ الْفَرِيدُ، وتَارِيخُ مَدِينَةِ دِمَشْقَ لِابْنِ عَسَاكِرَ وَغَيْرِهَا كَثِيرٍ. وَمِنْ مَشَاهِيرِ هَؤُلَاءِ الْوَافِدَاتِ: سُودَةُ بِنْتُ عِمَارَةَ بْنِ الْأَشْثَرِ =

حياة العظمة الوداعة، والتفـس الأبتة، والسـريرة التقية، والعلم والفصاحة والبيان.

* وثبَ بها حبُّها لعلـي بن أبي طالب - رضوان الله عليه - وثبة جعلتها من الخالدات في دنيا الخلود، وكان أثرها كريماً في عالمِ بلاغةِ الخطاب وخطابِ البلاغة، وفي دنيا الشعر الحماسي، وفي روضِ الفصاحة واللسن.

* ومن الجميل في سيرة هذه المرأة، أنَّ المصادرَ لم تحفلْ بنسبها كاملاً، وإنَّما وعَتَ اسمها فقط، واسم قبيلتها، وأجملت ذلك قولها؛ ودعَتها: بكارة الهلالية^(١).

* ويمكن لنا أن نستخلصَ من أخبار بكارة بأنَّها من نساء العرب الموصوفات بالشجاعة والجرأة والإقدام، والفصاحة في الشعر والتثـر، والقوة والجزالة في الخطابة، كانت في يوم صِفِّين من نصراء علي بن أبي طالب - رضي الله عنه وأرضاه -.

* ولما استعرت الحربُ بينَ الفريقين، واشتجرتِ الأسنة، وتشابكتِ الأبطال، ونفذتِ السيوفُ إلى الصُّدور، كانت بكارةُ الهلالية تهتفُ تحت ظلال السيوف، وتخطبُ خطباً تثير الحماسة في النفوس، وترتجلُ مقالات ملتهبة، تحضُّ فيها القوم على أن يخوضوا غمارَ الحرب، يَشْروا ويبيعوا دون خوفٍ أو وجلٍ، في حينَ ملكَ الرُّوعُ القلوبَ، وعقدَ الهولُ الألسنة، وحارتِ النواظرُ في المحاجر، وبلغتِ القلوبُ الحناجر، لكنَّ بكارةَ الهلالية

= الهمدانية، والزرقاء بنت عدي بن غالب الهمدانية، وأم سنان بنت خيثمة بن خرشة المذحجية، وعكرشة بنت الأطرش بن رواحة، ودارمية الحجوينة، وأم الخير بنت حريش بن سراقه البارقية، وأروى بنت الحارث بن عبد المطلب القرشية، وضيعة حلقتنا، وكان له معهن لقاءات تُعتبر من عيون الآداب الإسلامية العربية.

(١) بلاغاتُ النساء (ص ٣٩ و ٤٠)، والعقدُ الفريد (٢/ ١٠٤ و ١٠٥)، والدر المنثور (ص ٩٩ و ١٠٠)، وشاعرات العرب (ص ٣٥ و ٣٦)، وأعلام النساء (١/ ١٣٧ - ١٣٩)، ولطائف الأخبار للتنوخى (ص ٤٧ و ٤٨)، طبعة دار عالم الكتب بالرياض بالسعودية.

- على الرغم من هذا كله - تخطب وتنشد الشعر الحماسي ، وتشيد بمعالي المكارم ، فأى امرأة كانت بكاره هذه؟ وأي نفس كانت بين جوانحها؟ كل هذه الشجاعة ، وكل هذا الإقدام مبعثه حبّ علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - .

* كان لعلي بن أبي طالب ، وزوجه فاطمة الزهراء وأولاده - رضي الله عنهم - مكانة عظيمة في نفوس أصحابه ومعاصريه ، أمّا أسباب محبته ، فلأنه من أهل البيت المبارك الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً .

* وكانت بكاره الهلالية - ونصراء علي من النساء - ممن ناصرن علياً حياً وميتاً ، وناصرن أهل البيت وذلك لما جابهن من فضائل لا توجد في غيرهم ، وكان لسان حالهم ينشد مفصلاً عن أحوالهم :

فَلَا تَعْدِلْ بِأَهْلِ الْبَيْتِ خَلْقاً
فَأَهْلُ الْبَيْتِ هُمْ أَهْلُ السِّيَادَةِ
فَبُغِضَهُمْ مِنَ الْإِنْسَانِ كَفَرٌ
حَقِيقِيَّ وَحُبُّهُمْ عِبَادَةٌ

مَكَانَةُ أَهْلِ الْبَيْتِ وَصِفَاتُهُمْ :

* لا بُدَّ لنا ونحن نترجم لبكاره الهلالية أن نتحدث عن مكارم وصفات أهل البيت النبوي الطاهر ، ولعلّه من الفائدة الكبرى هنا أن نقتطف من زهر رياض العلوم والآداب بعض التفاسير التي وشحت الكتب التراثية على مرّ الأزمان .

* فقد وصف أحد أبناء علي بن أبي طالب أهل البيت النبوي الطاهر فقال في معرض حديثه عنهم : أهل الفضل والإحسان ، وتلاوة القرآن ، ونبعة الإيمان ، وصوام شهر رمضان ، ولهم كلام يُعرض في حلّي ، وينقش في فصّ الزمان ، ويحفظ على وجه الدهر ، ويفضّح قلائد الدر ، ويخجل نور الشمس والبدر ، ولم لا يطؤون ذيول البلاغة ، ويجزون فضول البراعة ، وأبوهم الرسول وأمهم البتول ، وكلهم غذي بدر الحكم ، وربّي في حجر العلم؟! !

* وأهل البيت كما قال مسلم بن بلال العبد في وصفهم : أولئك قومٌ

بنور الخلافة يشرقون، وبلسان النبوة ينطقون، وفيهم يقول القائل :
لو كَانَ يُوجَدُ عَرَفَ مَجْدِ قَبْلَهُمْ لَوَجَدْتَهُ مِنْهُمْ عَلَى أُمِّيَالٍ^(١)
إِنْ جُتَّتْهُمْ أَبْصَرْتَ بَيْنَ بِيوتِهِمْ كَرَمًا يَقِينُكَ مَوَاقِفَ التَّسَالِ
نُورُ النَّبُوَّةِ وَالْمَكَارِمِ فِيهِمْ مُتَوَقِّدٌ فِي الشَّيْبِ وَالْأَطْفَالِ^(٢)

* وتوارث النَّاسُ حُبَّ أَهْلِ الْبَيْتِ وامتداحهم على مر العصور والأزمان،
وتسابق الشعراء والمحبِّون في امتداحهم ومديحهم، ومن لطائف ما قيل في
حُبِّهم ومدحهم ووصفهم قول ابن الوردي :

وَمَالِي إِلَّا حُبَّ آلِ مُحَمَّدٍ فَكَمْ جَمَعُوا فَضْلًا وَكَمْ فَضَّلُوا جَمْعًا
مَحَبَّتُهُمْ تَرِيقُ زَلَاتِي الَّتِي تَخِيلُ لِي مَنْ سَحَرَهَا أَنَّهَا تَسْعَى
* وقال آخر يصف محاسنهم، ويدعو إلى حُبِّهم :

هُمُ الْقَوْمُ مَنْ أَصْفَاهُمُ الْوَدَّ مُخْلِصًا
تَمَسَّكَ فِي أَخْرَاهُ بِالسَّبَبِ الْأَفْوَى
هُمُ الْقَوْمُ فَاقُوا الْعَالَمِينَ مَنَاقِبًا
مَحَاسِنُهُمْ تُحَكِّي وَيَاثُهُمْ تُرَوِّى
مُؤَالَاثُهُمْ فَرَضٌ وَحُبُّهُمْ هُدًى
وَطَاعَتُهُمْ وَدٌّ وَوَدَّهُمْ تَقْوَى

* ولقد بالغ بعضهم في هذا الحب، وركب في شعره مركب الغلو
والإغراق، فقال :

مَحَبَّتُكُمْ يَا آلَ بَيْتِ مُحَمَّدٍ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ مِنْ جَمِيعِ الْوَرَى فَرَضُ
وَلَوْلَا الَّذِي أَنْتُمْ بَنُونَ لَبْنْتِهِ لَمَّا أَمْطَرْتُ سَحْبٌ وَلَا أَنْبَتَتْ أَرْضُ

* ومثل هذا كثير في مصادرنا، ولكنني أحببت الإشارة لذلك للمتعة
والفائدة، وإدخال السرور على النفوس.

(١) «الْعَرَفُ»: بفتح العين وسكون الراء: الريح، ومنه قول الشاعر:
لَوْ لَا اشْتَعَالَ النَّارُ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبَ عَرَفِ الْعُودِ
(٢) «الشَّيْبُ»: جمع أشيب، والمقصود به هنا الكبير في السن الذي اشتعل رأسه شيئاً.

كَلِمَاتُ بَكَارَةِ أَمَامَ مُعَاوِيَةَ:

* بعد أن صارَ الأمرُ لمعاويةَ بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - أتته الوفودُ من كلِّ حَدْبٍ وصوبٍ تجرُّ أذيالَ البلاغةِ وتعرضها في مجلسه؛ وكان من جملة الوافدين عليه امرأةٌ من بني هلال، قد قَوَّستِ الأيامُ ظهرها، وأثَّرت فيها عواملُ الدهر، فاشتعلَ رأسُها شيباً، وبلغت من الكِبَرِ مبلغاً جعلَها قليلةَ الحيلة ضعيفةَ البصر، تتوكأ على عصا لها، هذه المرأةُ المُسنَّة هي بكارةُ الهلالية التي كانت من نُصرَاء علي - رضي الله عنه - يومَ صفين .

* ففي إحدى زياراتِ معاوية - رضي الله عنه - للمدينة المنورة بعد أن قضى مناسكَ حجِّه، طلبت بكارةُ الدُّخولِ عليه، فماذا كانت النتيجة؟! وقد صنعتُ ما صنعتُ مِن قَبْل؟!!

* الإمامُ عامرُ الشَّعبي^(١) - رحمه الله - يحدثنا من ذاكِرتِه وحفظِه عَمَّا حدثَ في ذلك المجلسِ الأنيقِ اللطيفِ فيقول: استأذنت بكارةُ الهلاليةَ على معاويةَ بن أبي سفيان - رضي الله عنهما -، فأذنَ لها بالدُّخولِ عليه - وهو يومئذ بالمدينة -.

* ودخلت عليه بكارةٌ وهو في مجلسه، وكانت امرأةٌ قد أسنَّت، ورقَّ جلدُها، ودَقَّ^(٢) عَظْمُها، واشتعلَ رأسُها شيباً، واشتغلَ لسانُها بالذِّكر؛

(١) «الشَّعبي»: عامرُ بن عبد الله بن شراحيل، أبو عمرو، وُلِدَ لستَ سنين من خلافة عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -؛ سمعَ من علي بن أبي طالب والحسن والحسين وجماعة من الصَّحابة - رضوان الله عليهم -، وهو كوفي، وبه يُضربُ المثل في الحفظ، فيقال: أحفظُ من الشَّعبي.

قال الزَّهري - رحمه الله -: العُلَماءُ أربعةٌ: سعيدُ بنُ المسيبِ بالمدينة؛ وعمارُ الشَّعبي بالكوفة، والحسنُ البصري بالبصرة، ومكحول بالشَّام.

وكان الشَّعبي فقيهاً، عالماً، حافظاً، أديباً، راوياً للشَّعر، أثنى عليه العُلَماء، مات في سنة (١٠٤ هـ) وعمره (٨٢ سنة) رحمه الله. (شرح مقامات الحريري للشَّريشي ١٨٠/٢ - ١٨٢).

(٢) «دق»: نحف.

وَأَثَرْتُ فِي مَنَاكِبِهَا الْأَيَّامُ، فَضَعَفَ بَصَرُهَا، فَلَا تَكَادُ تَبْصُرُ مَا حَوْلَهَا، وَتَلَاشَتْ قَوَاهَا، وَكَانَ مَعَهَا خَادِمَانِ لَهَا وَهِيَ تَرْتَعِشُ بَيْنَهُمَا، وَقَدْ أَمْسَكَتْ بِيَدِهَا عَكَازًا تَسْتَنْدُ إِلَيْهِ أَيْضًا؛ وَلَمَّا دَنَتْ مِنْ مَعَاوِيَةَ قَالَتْ: السَّلَامُ عَلَيْكَ - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ - وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.

وَرَدَّ عَلَيْهَا مَعَاوِيَةُ قَائِلًا: وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ يَا أُخْتَ الْكِرَامِ الْأَخْيَارِ. ثُمَّ إِنَّهُ أَمَرَهَا بِالْجُلُوسِ كَيْ تَلْتَقِطَ أَنْفَاسَهَا الْمُتَلَاخِقَةَ، وَتَسْتَرِيحَ مِنَ الْمَسِيرِ، وَبَعْدَ إِذْ سَأَلَهَا فِي أَثْنَةِ وَهْدُو: كَيْفَ أَنْتِ يَا خَالَةَ؟! وَكَيْفَ كَانَ مَسِيرُكَ، وَمَا أَخْبَارُكَ؟!

قَالَتْ بَكَارَةً: بِخَيْرٍ وَفُضِّلَ مِنَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟! فَقَدْ أَنْعَمَ عَلَيْنَا وَأَكْرَمَنَا.

فَقَالَ مَعَاوِيَةُ - وَقَدْ أَحَبَّ أَنْ يَسْمَعَ فَصَاحَتَهَا -: لَقَدْ غَيَّرَكَ الدَّهْرُ يَا خَالَةَ، وَنَالَتْ مِنْكَ الْأَيَّامُ وَالْأَعْوَامُ.

فَأَجَابَتْ بِكَارَةٍ بَلْفِظٍ وَجِيزٍ، وَمَعْنَى حُلُو لَطِيفٍ، يَنْمُ عَنْ بَلَاغَتِهَا، وَيَهْدِي إِلَى بَيَانِهَا وَفَصَاحَتِهَا؛ وَيَدُلُّ عَلَى عَقْلِهَا فَقَالَتْ: هُوَ ذُو غَيْرٍ، مَنْ عَاشَ كَبُرَ، وَمَنْ مَاتَ قُبِرَ.

* وَأَعْجَبَ مَعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - بِكَلِمَاتِ بَكَارَةِ الْهَلَالِيَّةِ الَّتِي تَنَمُّ عَنْ حِكْمَةٍ لَطِيفَةٍ وَأَدَبٍ جَمٍّ؛ فَصَمَتَ قَلِيلًا، ثُمَّ رَاحَ يَجِيلُ الطَّرْفَ فِي وَجْهِ الْحَاضِرِينَ، وَكَانَ فِي مَجْلِسِهِ ثَلَاثَةٌ مِنْ سَادَاتِ الْعَرَبِ وَوُجُوهُهُمْ، وَأَعْلَامُ الْمُسْلِمِينَ، وَقَوَادِ الْفُتُوحَاتِ، مِنْهُمْ: عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ، وَمُرْوَانُ بْنُ الْحَكَمِ، وَبَعْضُ وَجْهِ بَنِي أُمَيَّةَ وَسَادَاتُ قُرَيْشٍ.

أَنَا قَائِلَةٌ مَا قَالُوا:

* كَانَ مَجْلِسُ مَعَاوِيَةَ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يَحْفُ بِأَعْلَامِ الْفَصَحَاءِ، وَفَصَحَاءِ الْأَعْلَامِ، وَفِرْسَانِ الْكَلَامِ، وَكُلُّهُمْ قَدْ أَعْجَبَ بِهَذِهِ الْعَجُوزِ الَّتِي تَنَمُّ كَلِمَاتُهَا عَنْ لَطِيفِ الْفَصَاحَةِ، وَفَصِيحِ الْبَيَانِ، وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ، وَأَحَبَّ بَعْضُ مَنْ كَانَ فِي ذَاكَ الْمَجْلِسِ أَنْ يَلْفِتَ نَظْرَ مَعَاوِيَةَ إِلَى شَاعِرِيَّتِهَا وَإِلَى حِمَاسِهَا يَوْمَ أَنْ

كانت تحرّضُ النَّاسَ على القِتالِ، وتدعوهم إلى الصَّبْرِ والجلاد في يوم صفين، فابتدر عمرو بنُ العاص - رضي الله عنه - الحديثَ مع معاوية وقال له: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، ألا تعرفُ هذه المرأةَ الماثلةَ أمامك، بل ألا تذكرها وتذكر شِعْرَهَا وكلامَهَا؟!

قال معاوية: وماذا قالت؟

قال عمرو: يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ هي التي كانت تعينُ علينا يوم صفين، وتخطبُ في الجنود، وتوَجِّعُ فيها نيرانَ الحماسَةِ، وهي - والله - القائلة يومذاك تحرّضُ أحدَ الفُرسان، ولعلَّه أخوها زيد، وتخاطبه بهذا الشَّعر:

يا زَيْدُ دُونَكَ فَاسْتَيْزِرْ مِنْ دَارِنَا
سَيْفًا حُسَامًا فِي الثُّرَابِ دَفِينَا
قَدْ كُنْتُ أَذْخَرُهُ لِيَوْمِ كَرِيهَةٍ
فَالْيَوْمِ أَبْرَزُهُ الزَّمَانَ مَصُونَا

* كانت بكارُهُ تسمعُ ما كان عمرو يعيده من نظمِها وشعرِها، وقد ارتسمتُ على وجهها أماراتُ الرِّضا والسَّروَر، ولما انتهى عمرو من إنشاده، قامَ مروان بنُ الحكم، وقال: وهي - والله - القائلة يومَ صفين تعرّضُ بك، وبغيرك من أصحابك، فمن قولها يومها:

أَتَرَى ابْنَ هِنْدٍ^(١) لِلْخِلَافَةِ مَالِكًا
هِيَ هَاتِ ذَاكَ وَمَا أَرَادَ بَعِيدُ
مَتَّكَ نَفْسُكَ فِي الْخِلَاءِ ضَلَالَةً
أَغْرَاكَ عَمْرُؤُ لِلشَّقَا وَسَعِيدُ
فَارْجِعْ بِأَنْكَدِ طَائِرٍ بِنَحْوِ سَهَا
لَا قَتَ عَلَيَّا أَسْعَدُ وَسُعُودُ

* ولما انتهى مروانُ من إنشاده، ظلت أمارات الرضا مرتسمة على وجه

(١) «ابن هند»: معاوية، وأمه هند بنتُ عتبة أسلمت وبايعت فهي من عداد الصَّحابيات - رضي الله عنهن جميعاً -.

بكاره، بل توضع علامات الاطمئنان في نفسها، لأن كلماتها وأشعارها ما زالت محفورة في أذهان كبار القوم.

* وساد المجلسُ بعضَ الهدوء، فقام أحدُ الجلوس^(١) ليذكر ما أنشدته بكاره من شعرٍ يوم صفين، فاتّجه نحو معاوية وقال بصوتٍ عال: يا أمير المؤمنين، وهي القائلة أيضاً يوم صفين:

قد كنتُ آمُلُ أن أموتَ ولا أرى

فوقَ المنابر من أمةٍ خاطبا
فاللهُ أخّر مدّتي فتناولتُ
حتّى رأيتُ من الزّمان عجائباً
في كلّ يومٍ لا يزالُ خطيبُهُم

بينَ الجميع لآلِ أحمدَ عائباً^(٢)

* وبعد أن فرغَ الرّجلُ من إنشاده، سادَ صمتٌ خيمَ على المجلس، فسكتَ القومُ أجمعون، ونظرَ بعضهم في وجوه بعض، بينما مرّق ذلك السّكون والسّكوت صوت بكاره الهلالية التي وقفتُ وهي ترتعشُ بين خادميها وقالت بصوتٍ مسموع: لقد تناولني أصحابك من كلّ جانب يا أمير المؤمنين، وإنّ ما قالوا قد أعشى بصري، وقصّر حجّتي، وأنا واللهِ قائلة ما قالوا، لا أدفعُ ذلك بتكذيب، فامضِ لشأنك، فلا خيرَ في العيش بعد أمير

(١) تشير بعضُ المصادر إلى أن سعيدَ بنَ العاص هو الذي قامَ وأنشد، وهذا لا يتوافق ولا يتفق مع سيرته، لأنّ سعيدَ بنَ العاص ممن اعتزلَ الفتنة ولم يشهد لها. والحقيقة، ففي النفس شيءٌ من هذه القصة وأشباهها، إذ نفثوا فيها رائحة الصّنع والتكلف. ومما يقوّي الشك في النفس، أنّ أحداث القصة ووقائع التّاريخ لا تنسجم معها، فسعيد لم يدخل في الفتنة، ومعاوية لا يحتاج لمن يذكره ويؤلمه على امرأة عجوز قد أكلت منها السنون - إن كان وجودها حقيقة - وهناك أشياء أخرى يكشفها القارئ الفطن ولا حاجة لذكرها.

(٢) وهذه الأبيات تشيع في أرجائها رائحة الوضع والتكلف والصنع المموجة، ناهيك بأن الذي وضعها تشيع فيه رائحة الكراهية لبني أمية.

المؤمنين علي - رضي الله عنه - وما خفيَ عليك مني أكثر .
فقال معاوية وهو يضحك: يا خالة ليس يمنعنا ذلك من برك، وإنه
لا يضعك شيء، فاذكري حاجتك كيما تُقضى. قالت بكارة: جزاك الله خيراً
يا أمير المؤمنين، ثم إنها ذكرت حوائجها وأمورها. فقضى معاوية ما طلبته،
وأمر بردها إلى بلادها رداً جميلاً على أحسن حال، وأنعم بال .
* ويسكت التاريخ بعد هذا الموقف، فلم يذكر لنا أخبار هذه المرأة
الهلالية البليغة الجريئة، ومنذ أن خرجت من ذلك المجلس أرخى الدهر
ستاره على هذه المرأة التي عطرت الأسماع بحسن نثرها وشعرها^(١).
* تلکم هي بكارة الهلالية التي نظمها المصادر في نساء التاريخ،
وجعلتها من بليغات النساء .

* * *

(١) عن العقد الفريد (٢/ ١٠٤ و ١٠٥)، وأعلام النساء (١/ ١٣٧ - ١٣٩) مع الجمع
والتصرف .

وانظر: الدر المنثور (ص ٩٩ و ١٠٠)، وبلاغات النساء (ص ٣٩ و ٤٠)، وشاعرات
العرب (ص ٣٥ و ٣٦) وغيرها كثير من المصادر المتنوعة .

رَفَعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

١٠

الخَيْرَانِ بِنْتِ عَطَاءٍ

مِنَ الرَّقِّ إِلَى عَالَمِ الشَّهِيرَاتِ :

* ارتقتْ مِنَ الرَّقِّ إِلَى الْمُلْكِ، وحظيتْ بالمكانةِ العليا في قُصور خلفاء بني العباس في القرن الهجري الثاني.

* اشتراها الخليفةُ المهدي بن المنصور العباسي بمئة ألف درهم، فحظيتْ عنده حظوةً كاملةً، إذ حظيتْ بالعتق في سنة (١٥٩ هـ)، ومن ثمَّ تزوّجها، وكانت ذات جمالٍ وبهاءٍ، وكمالٍ وأدبٍ وشعرٍ.

* وهذه المرأةُ المحظوظةُ ذاتُ مَنْبَتٍ عربي أصيل، يعودُ جذرها وأصلُها إلى بلادِ اليمن، فهي يمانيةُ الأصلِ جُرَشِيَّةٌ^(١)، ثمَّ أضحَتْ من جواري المهدي العباسي.

* ذكر الأخباريون أنَّها كانت من حازماتِ النساء، وكانت من النَّاهياتِ الفطناتِ العَالماتِ، فقد أخذتِ الفقهَ عن الإمام الأوزاعي - رحمه الله -، فغدَتْ من فقيهاتِ نسوةِ عصرها، ومن شهيراتِ النساء في دنيا مشاهير النساء.

* وهذه المرأةُ اقتعدت ذِروةَ الشُّهرة حيناً من الدَّهرِ، فهي مولاةُ الخليفة المهدي، ثمَّ هي زوجةُ، وأمُّ ولديه الهادي والرَّشيد، فهي زوج خليفة وأمِّ خليفتين من أشهرِ خلفاء بني العباس؛ تُرى مَنْ تكونُ هذه المرأةُ؟

* إنَّها الخيزرانُ بنتُ عطاء^(٢) التي تركت في التَّاريخ النسوي دويلاً إلى أنْ

(١) «جُرَش» : مدينة باليمن، وهي غيرُ «جَرَش» من أرضِ البلقاء - الأردن اليوم - والتي من فتوح شُرحبيل بنُ حسنة - رضي الله عنه - . انظر (معجم البلدان ١٢٦/٢ و١٢٧). ومن الجدير بالذكر أنَّ هذه المدينة قد خربت الآن، ولا تزالُ أطلالها قائمةً في أعلى وادي بيشة.

(٢) تاريخ بغداد (٤٣٠/١٤ - ٤٣٢)، وتاريخ الطبري (انظر الفهارس ٩٣/٦)، والبداية والنهاية (١٦٣/١٠)، وتاريخ القضاعي (ص ٤١١ و ٤١٢ و ٤١٤)، والكمال في التاريخ (٤٠/٦ و ٨٨ و ٩٩ و ١٠٢ و ١٠٦ و ١٠٨ و ١١٩)، وشذرات الذهب (٣٣٠/٢)، وشفاء الغرام للفاسي (٣٢٢/١ و ٣٦٢ و ٤٣١ و ٤٣٢ و ٤٤٠ و ٤٤٦)، وأعلام النساء (٣٩٥/١ و ٤٠١)، والقاموس المحيط (ص ٤٩١) طبعة مؤسسة =

ماتت، وشغلتِ الناسَ حيناً من الدهرِ في أعمالِها وآثارِها وأخبارِها.

* وسنشهدُ في الصّفحاتِ التّالياتِ شذراتٍ من أخبارِها وآثارِها في تواريخِ نساءِ الإسلام، وفي تواريخِ نساءِ الخلفاء، وأمّهاتِ الخلفاء.
أمُ خَلِيفَتَيْنِ :

* استحظى المهدي بالخيزران، وقدمها على جميع نسائه، لما حبّأها الله من الأدب واللفظ والظرف، وقد أخذت من قلبه مساحةً كبرى، ووقعت من نفسه منزلةً عظمى.

* وفي قصر أمير المؤمنين المهدي حظيت الخيزرانُ بنتُ عطاء بالشّهرة التي رفعتها إلى مقام الخالدات؛ فقد ولدت للمهدي خليفَتَيْنِ وليا الخلافة، ومقاليد أمورِ الناس في مرحلة فتوة الدولة العباسية وشبابها.

* قال ابنُ كثير في «تاريخه»، وابنُ العماد في «شذراته»: لم تلد امرأةٌ خليفَتَيْنِ غير ثلاث نسوةٍ وهُنَّ:

* ولادةُ بنتِ العباس العباسية؛ تزوّجها عبدُ الملك بن مروان، فولدت له الوليد وسليمان، وكلاهما وليَ الخلافة بعد أبيه.

* والثّانية: شافهرُ بنتُ فيروز بن يزدجرد، تزوّجها الوليد بن عبد الملك فولدت له ولدين، وكلاهما وليَ الخلافة.

* والثّالثة: الخيزرانُ، اشتراها المهدي، ثمّ أعتقها، فولدت له الهادي والرّشيد، ووليا الخلافة^(١).

= الرسالة، وغير ذلك من مصادر.

قال الفيروز أبادي: «الخيزران»: بضم الزّاي: شجر هندي وهو عروقٌ ممتدة في الأرض، والقصب، وكلّ عود لدن، والرماح.

(١) انظر: البداية والنهاية (١٠/١٦٣)، وشذرات الذهب (٢/٣٣٠)، وذكر ابنُ العماد - رحمه الله - أنّه يلحق بهؤلاء النسوة امرأة أخرى، وهي: خاتون جارية ملكشاه، فإنّه ولدت محمداً وسنجراً، وكلاهما ولي السّلطنة. (شذرات الذهب ٢/٣٣٠).

* وفي ولادة الخيزران موسى وهارون^(١) يقول الشاعر :

لَيْسَ فِي النَّاسِ مِثْلُ مُوسَى وَهَارُونَ هَجَانَانِ أَنْجَبَا لِهَجَانِ
مَا اسْتَشَرْنَا عِرْقَ الْخِلَافَةِ حَتَّى أَوْرَقَ الْعُودُ فِي بَنِي الْخَيْزُرَانِ
الْخَيْزُرَانُ وَعَيْنُ السَّعَادَةِ :

* قال الشاعر :

وَإِذَا السَّعَادَةُ لَاحَظَتْكَ عُيُونُهَا

نَمَّ فَاَلْمَخَاوِفُ كُلُّهُنَّ أَمَانُ

* إذا كانت السَّعَادَةُ قد ذُلَّتْ قُطُوفُهَا لَامْرَأَةٍ مِنْ نِسَاءِ الْخُلَفَاءِ، فَإِنَّ الْخَيْزُرَانَ بِنْتَ عَطَاءٍ مِمَّنْ ذُلَّتْ لَهَا قُطُوفُ السَّعَادَةِ تَذَلُّلاً، فَقَدْ رَزَقَتْ مِنْ سَعَادَةِ الدُّنْيَا مَا لَا يُوصَفُ، وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يُحْصَرَ ذَلِكَ فِي سَطُورٍ، أَوْ تَحْتَوِيهِ خَزَائِنُ الصَّدُورِ.

* وَلَمَّا عُرِضَتِ الْخَيْزُرَانُ عَلَى الْمَهْدِيِّ لِيَشْتَرِيهَا أَعْجَبَتْهُ، فَاسْتَنْطَقَهَا فَوَجَدَهَا

(١) مِنَ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّ الْخَيْزُرَانَ قَدْ أَنْجَبَتْ ابْنَهَا مُوسَى سَنَةَ (١٤٤ هـ)، وَتَوَلَّى الْعَهْدَ وَعَمَرَهُ (١٦ سَنَةً)، وَأَنْجَبَتْ ابْنَهَا هَارُونَ لثَلَاثَ بَقِيْنَ مِنْ شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ (١٤٥ هـ).

وَيَذْكُرُ الْمُوَرِّخُونَ وَأَهْلُ الْأَخْبَارِ أَنَّ الْخَيْزُرَانَ كَانَتْ تَرْبِطُهَا بِنِسَاءِ الْأُمَرَاءِ وَالْوُزَرَاءِ رَوَابِطَ مَتِينَةٍ قَوِيَّةٍ، وَمِنْ أَقْوَى هَذِهِ الرِّوَابِطِ تِلْكَ الرِّابِطَةُ الَّتِي كَانَتْ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأُسْرَةِ الْبِرْمَكِيَّةِ، أُسْرَةُ يَحْيَى بْنِ خَالِدِ الْبِرْمَكِيِّ، حَيْثُ إِنَّ نِسَاءَ يَحْيَى الْبِرْمَكِيِّ قَدْ تَمَكَّنَّ مِنَ التَّسَلُّلِ إِلَى قَلْبِ الْخَيْزُرَانَ، وَحِيَازَةِ رِضَاهَا، وَمَجَالَسَتِهَا وَمَسَامَرَتِهَا، وَبِالتَّالِيِ نِلْنَ ثَقَّتِهَا، لِذَلِكَ دَفَعَتْ الْخَيْزُرَانَ ابْنَهَا هَارُونَ إِلَى فَاطِمَةَ بِنْتِ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ بْنِ قُحْطَبَةَ أُمِّ جَعْفَرِ الْبِرْمَكِيِّ، - اقْرَأْ سِيرَةَ أُمِّ جَعْفَرِ الْبِرْمَكِيِّ فِي هَذَا الْكِتَابِ -.

وَبِهَذِهِ الرِّضَاعَةِ صَارَ يَحْيَى بْنُ خَالِدِ الْبِرْمَكِيِّ أَبًا لِلرَّشِيدِ فِي الرِّضَاعَةِ، وَصَارَتْ نِسَاؤُهُ لَهُ أُمَّهَاتٍ، وَيَبْدُو أَنَّ الصَّلَةَ قَدْ زَادَتْ كَثِيرًا، وَالصَّحْبَةُ قَدْ قَوِيَتْ وَاشْتَدَّ عَوْدُهَا بَيْنَ الْخَيْزُرَانَ وَبَيْنَ الْعَائِلَةِ الْبِرْمَكِيَّةِ، وَهَذِهِ الصَّحْبَةُ وَالصَّلَةُ قَدْ دَفَعَتْ بِهِمْ إِلَى أَعَالِي الْمَجْدِ مَدَّةً طَوِيلَةً مِنَ الزَّمَنِ، حَيْثُ طَارَ صَبِيَّتُهُمْ وَكَثُرَتْ أَخْبَارُهُمْ، إِلَى أَنْ تَمَكَّنَ هَارُونُ الرَّشِيدِ مِنْهُمْ، فَأَوْقَعَ بِهِمْ وَبَعَثَهُمْ وَنَكَبَهُمْ.

من فصيحات النساء، ومن خصَّهنَّ الله - عزَّ وجلَّ - بسرعة البديهة، وفُضِّل الخطاب، وحوَّت أيضاً كمال الأخلاق، وحسن التَّهذيب، وسمو الأدب. لذلك استحسن المهديُّ إجابتها لما سألها^(١)، فحظيت عنده جدًّا، وكانت لها المكانة الأولى بين نساء قصره^(٢)، حتى إنَّ المهدي لم يكن يصبرُ على فراقها.

* وأدرك كثيرون منزلة الخيزران عند زوجها المهدي، فكانوا يقصدونها لتتوسَّط لهم لدى المهدي لقضاء حوائجهم، وكان المهدي يستجيبُ لطلبها، لما لها من منزلة عنده، وأصبح قصرها قبلة الأنظار، ومقصد النَّاس ذوي الحاجات.

* تحدَّث محمد بنُ جرير الطَّبري - رحمه الله - عن منزلة الخيزران عند المهدي فقال: وكانت الخيزران في أوَّل خلافة موسى - الهادي - تفتاتُ عليه في أموره، وتسلك به مسلك أبيه من قبله في الاستبداد بالأمر والنَّهي^(٣).
مِنْ طَرَائِفِ أَخْبَارِهَا:

* بلغت الخيزرانُ ذروة الشَّهرة في عصرها، وكانت شخصيتها قد تركت بصماتها في أغوار المهدي الذي أغرم بها غراماً شديداً، فإذا ما غابت راسلها وبثَّها أشواقه، وترجم لها عواطفه أحياناً في نظمٍ رقيقٍ.

* ومن طرائف ذلك ما وَرَدَ أَنَّ الخيزران قد حجَّت مرَّةً في حياة المهدي،

(١) يُذكر أنَّه لما عُرضت الخيزران على الخليفة المهدي ليشترها، أعجبته، إلَّا دقَّة في ساقها، فقال لها: يا جارية، إنَّك لعلی غاية المنی والجمال لولا دقَّة ساقك وخوشهما - خدوش وآثار جروح - فقالت: يا أمير المؤمنين؛ إنَّك أحوج ما تكون إليهما، لا تراهما. فاستحسن جوابها فاشتراها. (البدایة والنهاية ١٠/١٥٨).

(٢) حظيت الخيزران بمنزلة عليا عند المهدي، مما لفت إليها أنظار نساء قصر المهدي، مما جعل زوجة المهدي الأولى «ريطة بنت أبي العباس السَّفَّاح» تتقرَّب إليها وتهديها بعض جوارياها كيما تحظى بعطف المهدي لما تجده من ميل نحوها. هذا وقد كانت الخيزران جارية، فأعتقها المهدي وتزوَّجها، وولدت له موسى الهادي، وهارون الرشيد، وابنة اسمها البانوقة.

(٣) انظر: تاريخ الطبري (٦/٤٢١) طبعة مصر.

فكتبَ إليها وهي بمكة المكرمة - يستوحشُ لها، ويتشوقُ إليها - بهذا الشعر :
نحنُ في غايةِ السُّرورِ ولكنَّ ليسَ إلَّا بكم يتمُّ السُّرورُ
عَيْبُ ما نحنُ فيه يا أهلَ ودِّي أنكم غَيْبٌ ونحنُ حضورُ
فأجدُّوا في السَّيرِ بَلْ إنَّ قدرتُم أن تطيروا معَ الرِّياحِ فطيروا
* فلما وصلتِ الخيزرانُ الأبياتَ قرائتها، فأجابته، أو أمرتُ مَنْ أجابه
على نفسِ الرّوي والوزن، فكتبَ للمهدي :

قَدْ أَتَانَا الَّذِي وَصَفْتَ مِنَ الشَّوِّ قِ فِكِدْنَا وما قَدَرْنَا نَطِيرُ
ليتَ أنَّ الرِّياحَ كُنَّ يُؤدِينَ إلَيْكُم ما قَدْ يَكُنُّ الضَّمِيرُ
لم أزلُ صَبَّةً فَإِنْ كُنْتَ بَعْدِي في سرورٍ فدامَ ذاكَ السُّرورُ
* وقد ذَكَرَ ابنُ كثيرٍ - رحمه الله - في «البداية والنهاية»^(١)، أنَّ الخيزرانَ
قد روتِ الحديثَ النَّبَوِيَّ الشَّرِيفَ عن طريقِ مولاها المهدي عن أبيه عن جدِّه
عن ابنِ عَبَّاسٍ عن النَّبِيِّ ﷺ قال : «مَنْ اتَّقَى اللهَ وقاهُ اللهُ كُلَّ شَيْءٍ»^(٢).

* وللخيزرانَ بعضُ الأخبارِ الطَّرِيفة مع زوجها المهدي، فقد حَدَّثَ
الواقدي قال : دخلتُ على المهدي يوماً، فحدَّثتهُ بأحاديث، فكتبها عتي، ثمَّ
قامَ فدخلَ بيوتَ نساءه، ثم خرج وهو ممتلئٌ غَيْظاً، فقلتُ : ما لك يا أمير
المؤمنين؟

فقال المهدي : دخلتُ على الخيزران، فقامتُ إليَّ، ومزَّقتُ ثوبي،
وقالت : ما رأيتُ منك خيراً، وإنِّي واللهِ يا واقدي، إنَّما اشتريتها من نخاس،
وقد نالتُ عندي ما نالت، وقد بايعتُ لولديها بامرأة المؤمنين من بعدي !
فقلتُ : يا أمير المؤمنين، إنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال : «إنَّهنَّ يغلبنَ الكرامَ
ويغلبهنَّ اللثام».

وقال ﷺ : «خيرُكم خيرُكم لأهلِهِ، وأنا خيرُكم لأهلي، وقد خُلِقَتِ
المرأةُ من ضِلَعٍ أعوجَ إنَّ قومته كَسَرَتِهِ». وحدثتهُ في هذا الباب بكلامٍ

(١) البداية والنهاية (١٠/١٦٣).

(٢) انظر : تاريخ بغداد (١٤/٤٣١).

حَضَرَنِي، فَأَمَرَ لِي بِالْفَيِّ دِينَارَ، فَلَمَّا وَافَيْتُ الْمَنْزَلَ، إِذَا رَسُولُ الْخَيْرُزَانَ قَدْ لَحَقَنِي بِأَلْفِي دِينَارٍ إِلَّا عَشْرَةَ دَنَانِيرَ، وَإِذَا مَعَهُ أَثْوَابُ أُخَرَ، وَبَعَثْتُ تَشْكُرَنِي وَتَشَنِّي عَلَيَّ مَعْرُوفًا^(١).

* وَمِنَ الْأَخْبَارِ الْمُسْتَطَرَفَةِ الَّتِي حَدَّثْتُ لِلْمَهْدِيِّ مَعَ الْخَيْرُزَانَ مَا جَاءَ عِنْدَ ابْنِ خُلِكَانَ قَالَ: قَالَ الْمَهْدِيُّ لِلْخَيْرُزَانَ: أُرِيدُ أَنْ أَتَزَوَّجَ، وَكَانَتْ بَكْتَابُ، فَقَالَتْ لَهُ: لَا يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَتَزَوَّجَ عَلَيَّ.

قال: بلى.

قالت له: بيني وبينك مَنْ شِئْتَ.

قال: أترضين سفيان الثوري؟

قالت: نعم، فوجّهه إلى سفيان فقال: إِنَّ أُمَّ الرَّشِيدِ تَزْعُمُ أَنَّهُ لَا يَحِلُّ لِي أَنْ أَتَزَوَّجَ عَلَيْهَا وَقَدْ قَالَ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ -: ﴿فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبْعَ﴾ ثُمَّ سَكَتَ، فَقَالَ لَهُ سَفِيَانُ: أَتَمَّ الْآيَةَ؛ يَرِيدُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُعَدِّلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣]، وَأَنْتَ لَا تَعْدِلُ، فَأَمَرَ لَهُ الْمَهْدِيُّ بِعَشْرَةِ آلَافِ دِرْهَمٍ، فَأَبَى أَنْ يَقْبَلَهَا.

الْخَيْرُزَانُ فِي خِلَافَةِ الْهَادِي:

* لَمَّا تَوَفَّى الْمَهْدِيُّ فِي شَهْرِ مُحَرَّمٍ مِنْ أَوَّلِ سَنَةِ (١٦٩ هـ)، كَانَ ابْنُهُ مُوسَى الْهَادِي قَدْ وَلِيَ الْعَهْدَ مِنْ بَعْدِهِ، وَكَانَ الْمَهْدِيُّ قَدْ عَزَمَ قَبْلَ مَوْتِهِ عَلَى تَقْدِيمِ أَخِيهِ هَارُونَ الرَّشِيدِ عَلَيْهِ فِي وِلَايَةِ الْعَهْدِ، وَلَكِنْ ذَلِكَ لَمْ يَتَّفَقْ، فَمَاتَ الْمَهْدِيُّ وَوَلِيَ الْهَادِي الْخِلَافَةَ.

* وَيَبْدُو أَنَّ الْخَيْرُزَانَ كَانَتْ تَمِيلُ هِيَ الْأُخْرَى إِلَى ابْنِهَا هَارُونَ، لِذَلِكَ لَمَّا وَلِيَ الْهَادِي الْخِلَافَةَ، عَزَمَ عَلَى خَلْعِ أَخِيهِ هَارُونَ مِنَ الْخِلَافَةِ وَوِلَايَةِ الْعَهْدِ لِابْنِهِ جَعْفَرِ بْنِ الْهَادِي، فَلَمْ يَظْهَرْهَا هَارُونَ مَنَازَعَةً، بَلْ أَجَابَ، وَلَكِنْ

(١) تاريخ بغداد (٤٣١/١٤)، والبداية والنهاية (١٥٣/١٠).

أَمَّهُمَا الْخِيزُرَانُ قَدْ أَبَتْ ذَلِكَ، لِأَنَّهَا كَانَتْ تَمِيلُ إِلَى ابْنِهَا هَارُونَ أَكْثَرَ مِنْ مُوسَى الْهَادِي^(١).

* هذا؛ وقد كان موسى الهادي قد منعَ أُمَّهُ الْخِيزُرَانُ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْخِلَافَةِ وَشُؤُونِ النَّاسِ، بَعْدَ أَنْ كَانَتْ قَدْ اسْتَحْوَذَتْ عَلَيْهِ فِي أَوَّلِ وَلَايَتِهِ، وَانْقَلَبَتِ الدُّوَلُ إِلَى بَابِهَا، وَالْأُمَرَاءُ وَالْقَوَادِ إِلَى جَنَابِهَا، وَعِنْدَ ذَلِكَ أَقْسَمَ مُوسَى الْهَادِي بِأَعْلَظِ الْإِيمَانِ، لَنْ عَادَ أَمِيرٌ إِلَى بَابِهَا لِيُضْرِبَنَّ عَنْقَهُ، وَلَا يَقْبَلَ مِنْهُ شِفَاعَةٌ، فَامْتَنَعَتْ مِنَ الْكَلَامِ فِي ذَلِكَ، وَحَلَفَتْ لَا تَكَلِّمُهُ أَبَدًا؛ وَانْتَقَلَتْ عَنْهُ إِلَى مَنْزِلٍ آخَرَ.

* أوردَ أَبُو جَعْفَرٍ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرِ الطَّبْرِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - طَرَفًا مِنْ أَخْبَارِ الْخِيزُرَانِ وَتَسَلُّطِهَا فَقَالَ: ذَكَرَ يَحْيَى بْنُ الْحَسَنِ أَنَّ الْهَادِي نَابَذَ أُمَّهُ وَنَافَرَهَا، لَمَّا صَارَتْ إِلَيْهِ الْخِلَافَةُ، فَصَارَتْ خَالِصَةً^(٢) إِلَيْهِ يَوْمًا، فَقَالَتْ: إِنَّ أُمَّكَ تَسْتَكْسِيكَ. فَأَمَرَ لَهَا بِخَزَانَةٍ مَمْلُوءَةٍ كَسُوءَةٍ.

قال: وَوُجِدَ لِلْخِيزُرَانِ فِي مَنْزِلِهَا مِنْ قَرَارِ الْوَشِيِّ ثَمَانِيَةِ عَشَرَ أَلْفَ قَرَقَرٍ.

قال: وَكَانَتِ الْخِيزُرَانُ فِي أَوَّلِ خِلَافَةِ مُوسَى تَفَتَّتْ عَلَيْهِ فِي أُمُورِهِ، وَتَسَلَّكَ بِهِ مَسَلَّكَ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ فِي الْإِسْتِبْدَادِ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهَا أَلَا تَخْرُجِي مِنْ خَفَرِ الْكُفَايَةِ إِلَى بَذَاذَةِ التَّبَدُّلِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ مِنْ قَدَرِ النِّسَاءِ الْإِعْتِرَاضُ فِي أَمْرِ الْمُلْكِ، وَعَلَيْكَ بِصَلَاتِكَ وَتَسْبِيحِكَ وَتَبَثُّلِكَ؛ وَلَكِ بَعْدَ هَذَا طَاعَةٌ مِثْلَكَ فِيمَا يَجِبُ لَكَ^(٣).

* وَمَنْ الْجَدِيرُ بِالذِّكْرِ أَنَّهُ كَانَتْ لِلْخِيزُرَانِ صَوْلَاتٌ وَجَوْلَاتٌ، بَلْ وَنَفُوذٌ

(١) وَصَفَ الزَّوَاةَ وَالْمُؤَرَّخُونَ الْهَادِي فَقَالُوا: كَانَ طَوِيلًا، جَسِيمًا، أَفْوَهَ، شَجَاعًا، بَطْلًا، فَكَانَ يَثْبُ عَلَى الدَّابَّةِ وَعَلَيْهِ دِرْعَانٌ، أَدْبِيًا، جَوَادًا، صَعَبَ الْمَرَامِ، غَيُورًا، وَمِنْ أَجْلِ غَيْرَتِهِ مَنَعَ أُمَّهُ الْخِيزُرَانُ مِنَ التَّدْخُلِ فِي شُؤُونِ الْحُكْمِ وَأَقْصَاهَا. انْظُرْ: (تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ ٢١٤/٨)، وَ(الْبَدَايَةُ وَالنِّهَايَةُ ١٥٩/١٠)، وَ(تَارِيخُ الْقَضَاعِيِّ ص ٤١٢ وَ٤١٣) وَغَيْرَهَا.

(٢) اسْمُ جَارِيَةٍ مِنْ جَوَارِي الْخِيزُرَانِ.

(٣) انْظُرْ: تَارِيخُ الطَّبْرِيِّ (٦٠٤/٤) طَبْعَةُ دَارِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ (١٤٠٨ هـ).

سلطان في مستهلّ خلافة ولدها موسى الهادي، وقد استبدت بادىء الأمر بالأمور كلها، حتى لقد شاركتها في شؤون الدولة، وفي إدارتها أحياناً.

* وكان الهادي في بداية الأمر كثير الطاعة لأمّه، شديد الولاء لها، مجيئاً لها فيما تطلب من حوائج الناس، فكانت المواقب لا تخلو من بابها، وأصحاب الحاجات يقصدون بيتها زرافاتٍ ووحداناً، وكلُّ تُقضى حوائجهم وحاجاتهم، وفي هذا الشأن يقول أبو المعافى يمتدح الخيزران:

يَا خَيْرَانَ هَنَّاكَ ثُمَّ هَنَّاكَ إِنَّ الْعِبَادَ يَسُوسُهُمْ ابْنَاكَ^(١)

* وظلّت جماعاتُ الناس وأصحابُ الحاجات يقصدونها حتى انقضت أربعة أشهر من خلافة ولدها الهادي الذي ضاق صدره، وعيل صبره، لما رأى من طمع الناس فيها، ووقوفهم على بابها صباح مساءً، ولكن لكلّ أجل كتاب، ولكل بداية نهاية.

* وذات يوم سألت الخيزران ابنها الهادي أن يولي خاله الغطريف اليمن، فوعدها الهادي بذلك، وماطلها، وبعد أيام كتبت له رقعةً تنتجز فيها وعده، وهنا بلغ السيلُ الزبي^(٢)، والأمر المنتهى، وضاق الهادي ذرعاً بهذه المطالب المتعددة، فوجه إليها برسولها يقول لها: خيريه بين ولاية اليمن، وبين طلاق ابنته أو مقامي عليها، ولا أوليه اليمن، فأيتهما اختار أفعله.

* ورجع الرسول إلى الخيزران، ولم يكن فيهم ما قال له الهادي، فأخبرها بغيره، ثم خرج الرسول إلى الهادي وقال له: تقول لك أمك: ولاية اليمن. فغضب، وطلق ابنته، ثم ولاه اليمن.

* ودخل الرسول، فأعلمه بذلك، فارتفع الصياح من داره، فقال الهادي مستغرباً: ما هذا الصياح الذي أسمع؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين، إنه من دار ابنة خالك الغطريف.

(١) انظر: تاريخ الطبري (٤/٦١٤).

(٢) هذا مثل مشهور يُضرب لما جاوز الحد. انظر (مجمع الأمثال ١/١٣٢)، وفصل المقال للبكري (ص ٤٧٢) وفيه: قد بلغ الماء الزبي.

* قال الهادي: أَوَلَمْ تَخْتَرْ هِيَ ذَلِكَ؟

قالوا: لا، ولكنَّ الرسولَ لم يفهم ما قلتَ له، وأدَّى عنكَ غير ذلك، وقد عجلتَ بطلاقها.

* فندمَ الهادي على ذلك ندماً شديداً، ودعا صالحاً صاحبَ المصلَى وقال له: أقمْ على رأس كلِّ رجلٍ بحضرتي من التُّدْماء رجلاً بسيفٍ، فمن لم يُطلق امرأته منهم، فلتضربْ عنقه. ففعلَ ذلك، ولم يبقَ في حضرته أحدٌ إلا وقد طلقَ امرأته^(١).

* لم تتعلم الخيزرانُ من هذا الدرس القاسي الذي حدثَ مع ابنها الهادي، وإنَّما ضمنتُ حاجةً لرجلٍ ووعدته بقضائها وإنجازها. فقد كانت تستبدُّ بالأمور دونَ ابنها الهادي، وتسلكُ به مسلكَ زوجها المهدي الذي لم يكن يردُّ لها طلباً.

أَمَّا لَكَ مَغْزَلٌ يَشْغَلُكَ؟

* ذكر ابنُ الأثير - رحمه الله - في «الكامل»: أنَّ الخيزرانَ قد كلَّمتُ يوماً ابنها الهادي في أمرٍ لم يجدْ إلى إجابتها سبيلاً، فاحتجَّ عليها بحجَّة، فقالت له: لا بدَّ من إجابتي إليه؛ قال: لا أفعل.

فقالت الخيزران: فإنَّني قد ضمنتُ هذه الحاجة لعبد الله بن مالك، ووعدتهُ بقضائها.

* هنالك غضبَ الهادي غضباً شديداً، وقال: ويلٌ لابنِ مالك، قد علمتُ أنَّه صاحبها، والله لا قضيتها لك.

فقالت الخيزران وقد استبدَّ بها الغضبُ هي الأخرى: إذاً والله لا أسألك حاجةً أبداً.

(١) عن تاريخ الطبري (٤/٦١٣)، وأعلام النساء (١/٣٦٩) مع الجمع والتصرف اليسير.

* وهنا عثر الهادي على ضالته التي ينشدها منذ زمنٍ فقال : لا أبالي إذا والله يا أمّاه .

* واستولى الغضبُ على الخيزران، فقامت وهي مغضبةٌ، فقال لها في حزم : مكانك فاسمعي كلامي واستوعبيه : والله - وإلا أنا نفي من قرابتي من رسول الله ﷺ - لئن بلغني أنّه وقفَ باباك أحدٌ من قوادي، وخاصّتي، لأضربنّ عنقه، ولأقبضنّ ماله، فمن شاء ذلك فليلزم ما أقول .

ثمّ قال لها : ما هذه المواقبُ التي تغدو وتروحُ إلى بابك في كلّ يوم؟! أمّا لك مغزلٌ يشغلك؟ أو مصحفٌ يذكرك؟! أو بيتٌ يصونك؟! إياك! وإياك، ثمّ إياك! لا تفتحي بابك لمسلم ولا ذمي .

فانصرفت الخيزران وهي لا تعقلُ، فلم تنطقْ عنده بعدها بشيءٍ، ولم يُسمعْ أنّها تدخلتْ في أمرٍ، بل لم تنطقْ عنده بحلوةٍ ولا مرّةٍ بعدها^(١) .

* ثم إنّ الهادي جمعَ أصحابه وقواده وأمرأه وخاصّته وقال لهم : أيّما خير، أنا أم أنتم؟

قالوا : بل أنت يا أمير المؤمنين خيرنا!

قال : فأيّما خيرٌ، أمّي أم أمّهاتكم؟

قالوا : بل أمك خيرٌ يا أمير المؤمنين!

قال : فأيّكم يحبُّ أن يتحدّثَ الرّجالُ بخبر أمّه، فيقال : فعلت أم فلان،

وصنعت أم فلان، وقالت أم فلان كذا وكذا؟!!!!

قالوا : لا نحبُّ ذلك، ولا أحدٌ منا يوافقُ على ذلك .

قال : فما بالكم تأتون أمّي فتتحدّثون بحديثها؟!

فلما سمعوا ذلك انقطعوا عنها البتة، فشقَّ ذلك عليها، فاعتزلته،

وحلفت ألا تكلمه، فما دخلتْ عليه حتى حضرته الوفاة^(٢) .

(١) انظر تاريخ الطبري (٦٠٤/٤) بتصرف يسير .

(٢) انظر : الكامل (١٠٠/٦) بشيء من التصرف ؛ وانظر : تاريخ الطبري (٦٠٥/٤) ، =

* وتحكي بعض الروايات: أنَّ موسى الهادي أحبَّ أن يتخلصَ من أمِّه الخيزُران، فبعثَ لها بأرزٍ قيل إنَّه مسمومٌ وقال: قد استطبتُها، فكلِّي منها. فأوجسَ بعضُ مَنْ حولها خيفةً وقال لها: أمسِكِي حتى تنظري؛ فجاؤوا بكلبٍ فأطعموه، فسقطَ لحمه لتوِّه؛ فأرسلَ إليها: كيف رأيتِ الأرز؟ قالت: وجدته طيباً.

قال: ما أكلتِ منها، ولو أكلتِ منها لاسترحْتُ منك، متى أفلح خليفَةُ له أم؟^(١).

الخيزُرانُ ومَوْتُ ابْنِهَا الهادي:

* على الرَّغمِ ممَّا حدثَ بين الهادي وأمِّه الخيزُران من أحداثٍ، واختلافٍ في وجهات النَّظر، ظلَّ الهادي باراً بها، يتنسَّم أخبارها، ويتفقَّد أحوالها. فبعد أن حسمَ أموره، عادت حياته السَّياسية إلى الهدوء، إذ كان ينظرُ في أمورِ النَّاسِ بنفسه.

* أوردَ ابنُ الأثير في «كامله» هذا الأمر فقال: خرجَ الهادي يوماً إلى عيادةِ أمِّه، وكانت مريضةً، فقال له عمر بنُ الربيع: يا أمير المؤمنين! ألا أدلِّكَ على ما هو أنفعُ لك من هذا؟! قال الهادي: بلى، فما هو يا عمر؟

فقال: تنظرُ في المظالمِ وأمورِ النَّاسِ، فإنَّك لم تنظرَ فيها منذ ثلاث.

قال الهادي له: أحسنتَ واللهِ يا ابنَ الرَّبيع.

* ثم إنَّ الهادي رجعَ إلى دارِ المظالم، وأذنَ للنَّاسِ، ونظرَ في شؤونهم، وقضى حوائجهم؛ ثم إنَّه أرسلَ رسولاً إلى أمِّه الخيزُران يتعرَّف أخبارها، ويسألُ عن مرضها وما يصلحُها، ويعتذرُ إليها من تخلفِه^(٢).

= مروج الذهب (١٨٦/٤)، والبصائر والذخائر (٤٨/٦ و ٤٩).

(١) انظر: تاريخ الطبري (٦٠٥/٤) بتصرف يسير جداً، ويبدو لي أن هذه الرواية غير معقولة فكأنها مصنوعة.

(٢) عن الكامل لابن الأثير (١٠٢/٦)، وتاريخ الطبري (٦١٠/٤) مع الجمع=

* ولكنَّ الهادي لم تَطُلْ حياته ولا خلافته، ومرضَ مرضاً شديداً، فقالت خالصة^(١) جارية الخيزران لها: قومي إلى ابنك أيتها الحرّة، فليسَ هذا وقتُ تعثُّب ولا تغضب.

* ويبدو أنَّ الخيزران قد لَانَ قلبُها، وامتلئت لِقولِ خالصة فقامت وزارتُ ابنها الهادي، ثُمَّ إِنَّ الهادي ماتَ سنة (١٧٠ هـ)، فلما ماتَ قالتِ الخيزران: قد كُنّا نتحدّثُ أَنَّهُ يَمُوتُ في هذه الليلة خليفة، ويملُك خليفة، ويُولد خليفة، فماتَ الهادي، وولِيَ الرَّشيد، وولِدَ المأمون. وكانتِ الخيزران قد أخذتِ العِلْمَ عن الأوزاعي، وكان يُقال: إِنَّها سمعتُ ذلك من الأوزاعي قبل ذلك بمُدّة، وقد سرَّها ذلك جدّاً.

* ويُقال: إِنَّ الخيزران سَمَّتْ ولدها الهادي خوفاً منه على ابنها الرَّشيد، ولأنَّه كان قد أبعدَها وأقصَّاهَا^(٢).

* وقيل: لما ماتَ الهادي جاء يحيى بنُ خالد البرمكي إلى الرَّشيد، وهو نائمٌ في فراشه، فقال له: قُمْ يا أمير المؤمنين. فقال: كم تروعني إعجاباً منك بخلافتي، فكيف يكونُ حالي مع الهادي إن بلغه هذا؟!

* فأعلمه بموته، وأعطاهُ خاتمه؛ فبينما هو يكلمه إذ أتاه رسولٌ آخر يبشِّره بمولود، فسَمَّاه عبد الله وهو المأمون، ولبس ثيابه وخرج، فصلَّى

= والتصرف اليسير.

(١) «خالصة»: جاريةُ الخيزران، وكان لها صِلَةٌ بالمنصور والمهدي والهادي. ولخالصةُ آثارٌ عظيمة في المدينتين الكريمتين: مكة والمدينة، وفي الطريق إليهما؛ فكانت أولَ مَنْ أحدثَ سقايات في المسجد النبوي كما ذكر السَّهْوَدي (وفاء الوفا ٦٨٧/١٠)؛ وقد ملكَتْ دُوراً مجاورةً له (وفاء الوفا ٦٢٧/١).

ولخالصة سقايةٌ بين عرفة ومزدلفة، وقد نثلت بئراً كانت في الجاهلية تقعُ على المسيل الذي يفرغ بين مازمي عرفة ونمرة، ويفيضُ على مسجد إبراهيم في شعب السَّقِيَا على يمين المقبل من عرفة إلى مزدلفة (تاريخ مكة للأزرقي ٢٢٩/٢)، وكان لها دار مجاورة للمولد النبوي بمكة (تاريخ مكة ١٨٨/٢).

(٢) عن الكامل (٩٩/٦)، والبداية والنهاية (١٥٨/١٠ و ١٥٩) مع الجمع بينهما.

على الهادي بعيساباذ من الجانب الشرقي من بغداد^(١).

* هذا؛ وقد ولي هارون الرشيد الخلافة، واستوز يحيى بن خالد وقال له: قد قلدتك أمر الرعية، وخلعت ذلك من عنقي، وجعلته في عنقك، قول من رأيت، واعزل من رأيت، واستعمل من رأيت.

* وفي ذلك قال إبراهيم الموصلي^(٢) مادحاً ومنوهاً إلى ذلك: أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ كَانَتْ سَقِيمَةً فَلَمَّا وَلِيَ هَارُونَ أَشْرَقَ نُورُهَا يُمْنِ أَمِينِ اللَّهِ هَارُونَ ذِي التَّدْيِ فَهَارُونُ وَالْيَا وَيْحِي وَزِيرُهَا^(٣) * ثُمَّ إِنَّ هَارُونَ الرَّشِيدَ، أَمَرَ وَزِيرَهُ يَحْيَى بْنَ خَالِدٍ أَلَّا يَقْطَعَ أَمْرًا إِلَّا بِمَشَاوِرَةِ وَالِدَتِهِ الْخَيْرِزَانِ، فَكَانَتْ هِيَ الْمَشَاوِرَةُ فِي الْأُمُورِ كُلِّهَا، فَتَبَرَّمُ فِي حَزْمٍ، وَتَحُلُّ فِي لِينٍ، وَتَمْضِي فِي حِكْمَةٍ، وَتَحْكُمُ فِي أُنَاةٍ وَرُوبَةٍ، وَكَانَ الْوَزِيرُ يَحْيَى يُصَدِّرُ عَنْ رَأْيِهَا فِي كُلِّ مَا تَقُومُ بِهِ، وَلَا يَحِيدُ قَيْدَ أُنْمَلَةٍ، عَمَلًا بِأَمْرِ وَلَدِهَا الرَّشِيدِ، وَحِرْصًا عَلَى كَسْبِ رِضَاهَا، وَحِفْظًا لِمَكَانَتِهَا^(٤)، وَكَانَتْ تَحِبُّ عَمَلَ الْمَعْرُوفِ، وَقِضَاءَ الْحَوَائِجِ، وَعَمَلَ الْمَبْرَاتِ^(٥).

(١) الكامل (١٠٧/٦)، والبداية والنهاية (١٦٠/١٠)، و«عيساباذ»: ضاحية من ضواحي بغداد.

(٢) انظر ترجمته في وفيات الأعيان (٤٢/١ و ٤٣).

(٣) مروج الذهب (٣٢٧/٣).

(٤) عن البداية والنهاية (١٦٠/١٠ و ١٦١) بشيء من التصرف، هذا وكان الناس على اختلاف طبقاتهم وألوانهم وأعمالهم يعرفون مقدار توقير الرشيد لأمه الخيرزان. فقد روي أنه قد رأى في بعض رحلاته رجلاً يحمل حزمة من أعواد الخيرزان، فسأل أحد مرافقيه: ماذا يحمل هذا الرجل؟ فأجاب على الفور: إنه يحمل أعواد الرماح يا أمير المؤمنين. فسّر الرشيد من جوابه وسرعة بديهته، إذ تفادى أن يذكر اسم والدته في هذا الموقف.

(٥) كانت الخيرزان تكثر من عمل الخيرات، وعمل المعروف مع الناس، ولها أعمال ميمونة في هذا المجال - كما سيمر معنا إن شاء الله -، وكانت سخيّة كريمة، وكانى بالشاعر قد عناها وأمثالها من الأجواد الأسخياء بقوله: له في ذوي المعروف نغمى كأنها مواقع ماء المزن في البلد القفر =

أَدَبُ الْخَيْرُزَانَ وَظَرْفُهَا :

* كانتِ الْخَيْرُزَانُ ابنة عطاء - بالإضافةِ إلى نفوذها السِّيَاسِي، وإلى مكانتها في خلافةِ زوجها المهدي، وولديها الهادي والرَّشِيد - ذاتُ أدبٍ وعِلْمٍ وظَرْفٍ وفكاهة.

* فقد تَلَقَّتِ الْعِلْمَ والفقهَ عن الإمام عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعيِّ الْعَالِمِ الْفَاضِلِ الْمَشْهُورِ الْمَتَوَفَّى سنة (١٥٧ هـ)، والذي سَادَ أَهْلَ زَمَانِهِ فِي الْفَقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالْمَغَازِي، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ عُلُومِ الْإِسْلَامِ، بِالإضافةِ إلى فصاحتِهِ وحلاوةِ عبارته وأدبه ومعارفه المتنوّعة.

* ومما يدلُّ على أدبِ الْخَيْرُزَانِ أَنَّ زَوْجَهَا المهدي عَزَمَ مَرَّةً عَلَى شَرْبِ دَوَاءٍ فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ جَامَ بِلْمُورٍ فِيهِ شَرَابٌ قَدْ اخْتَارَتْهُ لَهُ، وَأَرْسَلَتْ كَذَلِكَ جَارِيَةً بِكُرْأً، بَارِعَةً الْجَمَالِ، ثُمَّ كَتَبَتْ إِلَى الْمَهْدِيِّ تَقُولُ :

إِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ مِنَ الدَّوَاءِ وَأَعْقَبَ بِالسَّلَامَةِ وَالشِّفَاءِ
وَأَصْلَحَ حَالَهُ مِنْ بَعْدِ شُرْبِ بِهَذَا الْجَامِ مِنْ هَذَا الطَّلَاءِ
فَيَنْعَمُ لِلَّتِي قَدْ أَنْفَذْتَهُ إِلَيْهِ بِزُورَةٍ بَعْدَ الْعِشَاءِ

* فَسَرَّ الْمَهْدِيُّ بِذَلِكَ، وَوَقَعَتِ الْجَارِيَةُ مِنْهُ أَعْظَمَ مَوْقِعٍ، وَزَارَ الْخَيْرُزَانَ، وَأَقَامَ عِنْدَهَا يَوْمِينَ.

* ومما يَشِيرُ إِلَى بِلَاغَتِهَا وَفَصَاحَتِهَا وَفُطْنَتِهَا أَنَّ زَوْجَهَا الْمَهْدِي شَكَا لَهَا يَوْمًا ابْنَهَا مُوسَى الْهَادِي فَقَالَ : إِنَّ ابْنَكَ يَتِيهُ أَنْ يَسْأَلَنِي حَوَائِجَهُ.

قَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ ! أَلَمْ تَكُنْ أَنْتَ فِي حَيَاةِ أَبِيكَ الْمَنْصُورِ لَا تَبْتَدِيهِ بِحَوَائِجِكَ وَتَحِبُّ أَنْ يَبْتَذَلَكَ هُوَ ؟!

قال : بلى .

قَالَتْ : كَذَلِكَ مُوسَى الْهَادِي ابْنُكَ يَحِبُّ مِنْكَ ذَلِكَ .

= إذا مَا أَتَاهُ السَّائِلُونَ تَوَقَّدَتْ عَلَيْهِ مَصَابِيحُ الطَّلَاقَةِ وَالْبُشْرِ

قال المهدي : لا ولكنَّ التَّيه يمنعه أن يسأل حوائجه .

فقالت الخيزرانُ : يا أمير المؤمنين ! فمن أي ناحية أتاه التَّيه ، أم من قبلي أم من قبلك ؟ !

من أخبارها مع أبي دلامة :

* كان الشَّاعِرُ الْفَكِيهُ «أبو دلامة» واسمه : زند بنُ الجون أحد الشعراء الطُّرفاءِ ، وأحد ظرفاء الشعراء ، وكان أصله من الكوفة ، وأقام ببغداد ، وحظيَ عند المنصور ثمَّ المهدي ، ومن ثمَّ الخيزران .

* فقد كان أبو دلامة خفيفَ الظَّل ، له بعضُ المواقفِ اللطيفة مع الخيزران ومع المهدي . من ذلك ما روي أنَّه دخلَ على المهدي فقال : يا أمير المؤمنين ، ماتت أمُّ دلامة ، وبقيت ليس أحد يعاطيني . فقال المهدي : أعطوه ألفَ درهم يشتري بها أمةً تعاطيه .

وفي رواية : أنَّ أبا دلامة دسَّ أمَّ دلامة على الخيزران لتخبرها بوفاته ، ودخلَ هو على المهدي يبكي ، فقال له المهدي : مالك ؟

قال : ماتت أم دلامة ، ثم طفقَ ينشدُ ويقول :

وَكُنَّا كَزَوْجٍ مِنْ قَطَا فِي مَفَازَةٍ

لَدَيْ خَفْضٍ عَيْشٍ نَاعِمٍ مَوْئِقِ رَغْدٍ

فَأَفْرَدَنِي رَبُّ الزَّمَانِ بِصِرْفِهِ

وَلَمْ أَرْ شَيْئاً قَطَّ أَوْحَشَ مِنْ فَرْدٍ

* فأمرَ له المهدي بثيابٍ وطيبٍ ودنانير ، فأخذها وخرج ؛ ودخلت

أمُّ دلامة على الخيزران ، وأعلمتها أنَّ أبا دلامة قد مات ، فأعطتها مثل ذلك ، وخرجت .

* ودخل المهدي على الخيزران وهو حزينٌ ، فقالت له : ما بال أمير

المؤمنين مهموماً .

قال : ماتت أم دلامة .

فقال الخيزران: إن أمّ دلامة قالت لي آنفاً: مات أبو دلامة.

فقال المهدي: قاتل الله أبا دلامة وأمّ دلامة، قد خدعانا والله. وضحك المهدي والخيزران من فعلتهما، وعجباً من حيلتهما^(١).

* ومن الأخبار الطريفة الطريفة التي حدثت للخيزران مع أبي دلامة، ما ذكره أبو الفرج الأصبهاني في كتابه «الأغاني» قال: حجّت الخيزران، فلما خرجت واستقبلت طريق الحج، صاح بها أبو دلامة.

فقالت: سلّوه ما أمره؟

فقالوا له: ما أمرك؟

فقال: أدنوني من محملها.

قالت: أدنوه، فأدني.

فقال: أيتها السيّدة، إني شيخ كبير، وأجرك فيّ عظيم، وجزيل.

قالت: فمّة - أي: ما تريد -!

قال: تهبّين لي جارية من جواريك تؤنّسيني، وترفق بي، وتريحني من عجزٍ عندي، قد أكلت رِفدي، وأطالت كدّي، وقد عافَ جلدي جلدها، وتمنيتُ بعُدها، وتشوّقتُ فقُدها.

فضحكت الخيزران وقالت: سوف أمرُّ لك بما سألت - إن شاء الله -.

* وحجّت الخيزران، فلما رجعت تلقّاها وذكّرها، وخرجَ معها إلى بغداد، فأقام مده، ثم دخلَ على أمّ عُبيدة حاضنة موسى الهادي وهارون الرشيد، فدفع إليها رقعةً قد كتبها إلى الخيزران، فيها هذه القصيدة اللطيفة:

أبلغني سيّدتني با	الله يــــا أمّ عــــبيدــــه
أنّها أرشدّها الد	ه وإنّ كانــــت رشيدــــه
وعدتني قبّل أن تخ	رجّ للحجّ وليــــه

(١) الأغاني (٣٠٥/١٠) بتصرف؛ وانظر: وفيات الأعيان (٣٢٦/٢).

فَتَأْنِيْتُ وَأَرْسَلْتُ ثَ بَعْشَرِينَ قَصِيدَهُ
كَلَّمَا أَخْلَقْنَا نَ أَخْلَفَ ثَ لَهَا أُخْرَى جَدِيدَهُ
لَيْسَ فِي بَيْتِي لَتْمَهِي د فَرَاشٍ مِنْ قَعِيدَهُ
غَيْرَ عَجْفَاءَ عَجُوزَ سَاقُهَا مِثْلُ الْقَدِيدَهُ
وَجْهَهَا أَقْبَحُ مِنْ حُو تِ طَرِيٍّ فِي عَصِيدَهُ
مَا حَيَاةٌ مَعَ أَنْثَى مِثْلَ عَرْسٍ بِسَعِيدَهُ

* فلما قُرئت عليها الأبيات، ضحكت واستعادت منها لقوله: حوت طري في عصيدة. وجعلت تضحك، ثم دعت بجارية لها من جواريتها فائقة وقالت لها: خُذي كلَّ مالك في قصري، ففعلت، ثم دعت بأحد الخدم وقالت له: سلّمها إلى أبي دلامة، وقل له أن يحسن صحبتها^(١).

مِنْ أَخْبَارِ إِحْسَانِهَا وَمُرُوءَتِهَا:

* مِنَ الْأَخْبَارِ الْعُطْرَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي تُضَافُ إِلَى ضَيْفَتِنَا الْخَيْرَانِ بِنْتِ عَطَاءَ، مَا وَرَدَ عَنْ مَرْوَتِهَا وَأَرْيَحِيَّتِهَا وَإِكْرَامِهَا لِمَنْ ذَلَّ، وَإِقَالَتِهَا لِمَنْ عَثَرَ، كَمَا تُبَيِّنُ مَا كَانَ مِنْ مَنْزِلَةِ سَامِقَةٍ بَاسِقَةٍ عِنْدَ زَوْجِهَا الْمَهْدِيِّ، وَاسْتِجَابَتِهِ لِمَطَالِبِهَا وَرَجَائِهَا، وَهَذِهِ الرِّوَايَةُ - الَّتِي سَنَعْرِفُهَا - تَعْطِينَا صُورَةَ لِحْيَةِ النِّسَاءِ فِي قَصْرِ الْمَهْدِيِّ، وَفِي قُصُورِ الْخُلَفَاءِ، فَقَدْ رَوَتْ الْمَصَادِرُ الْوَثِيقَةُ خَبْرًا رَفَعُهَا إِلَى سُدَّةِ الْفَضْلِ، وَيَضَعُهَا فِي ذِرْوَةِ الْمَكَارِمِ.

* تَقُولُ الْمَصَادِرُ^(٢): دَخَلْتُ مُرِّيَّةً^(٣) امْرَأَةً مَرْوَانَ بْنَ مُحَمَّدٍ الْأُمَوِيَّ عَلَى الْخَيْرَانِ بِنْتِ عَطَاءَ فِي دَارِهَا الْمَعْرُوفَةِ بِدَارِ الْخَيْرَانِ، وَعِنْدَهَا أُمَّهَاتُ أَوْلَادِ الْخُلَفَاءِ، وَغَيْرُهُنَّ مِنْ بَنَاتِ هَاشِمٍ، وَهِيَ عَلَى بَسَاطَةِ أَرْمَنِ، وَهِنَّ عَلَى

(١) الأغاني (١٠/٣١٠)، وشرح مقامات الحريري للشريشي (١٧٧/٢ و ١٧٨).

(٢) انظر مثلاً: مروج الذهب (٣/٣٢٣ و ٣٢٤)، وكتاب المكافأة لأحمد بن يوسف الكاتب (ص ٩٥ و ٩٦)، وانظر: تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر، وثمرات الأوراق لابن حجة الحموي على هامش المستطرف، مع الجمع والتصرف بينها.

(٣) «مُرِّيَّة»: يقال: اسمها «مزينة»، أو «مزنة».

نمارق أرمنيّة، وزينب بنتُ علي الهاشميّة أعلاهنّ مرتبةً.

* فبينما هي على تلك الحال، إذ دخلَ خادمٌ لها فقال: بالباب امرأةٌ ذات حُسنٍ وجمال، في أثوابٍ رثّة، تأبى أنْ تخبرَ باسمها، وشأنها غيرُكُنّ، وترومُ الدُخولَ عليكن.

* وكان المهدّي قد تقدّم إلى زوجهِ الخيزران بأنْ تلزمَ زينب بنت سليمان الهاشميّة وقال لها: اقتبسي من آدابها، وخذي من أخلاقها، فإنّها عجوزٌ قد أدركتْ أوائلنا.

* فقالت الخيزران للخادم: ائذن لها؛ فدخلتِ امرأةٌ ذات بهاءٍ وجمال في أثوابٍ رثّة. فتكلّمتْ فأوضحتْ من فصاحةٍ وبيان، فقلن لها: مَنْ أنتِ؟ قالت: أنا مُريّةُ امرأةٍ مروان بن محمد، وقد أصابني الدهرُ إلى ما تريّني، ووالله ما الأثوابُ الرثّة التي عليّ إلا عارية، وإنّكم لما غلبتمونا على هذا الأمر، وصار لكم دوننا، لم نأمنُ مخالطةَ العامّة على ما نحنُ فيه من الضّررِ على بادرة إلينا، تزيلُ موضعَ الشرف، فقصدناكم لنكونَ في حجابكم على أية حالةٍ كانت تأتي دعوةً مَنْ له الدّعوة.

* فاغرورقتْ عينا الخيزران، وخافت زينب بنتُ سليمان بن علي الهاشميّة أنْ تأخذَ الخيزران رقةً ورأفةً بالمرأة، فقطعتْ على مريّة الكلام وقالت: يا أمّ أمير المؤمنين، اتقي الله أنْ يدخلك رقةٌ لهذه الملعونة. ثمّ التفتت إلى مريّة وقالت لها: لا خففَ اللهُ عنك يا مريّة، أتذكرينَ يومَ دخلتُ عليكِ في حرّان^(١) وأنتِ على هذا البِساطِ بعينه، وأنا أسألكُ وأتضرّعُ إليك في استيهابِ جثّة إبراهيم الإمام من مروان، فانتهرتيني، ثمّ أمرتِ بإخراجي من دارك بغلظةٍ، فلجأتُ إلى مروان فوجدته أكثرَ رحمةً منك، وأرعى للحقّ، وخيّرني بين أنْ يدفنه، أو يسلمني جثته، فاخترتُ تسليمه إليّ، وأمر لي بجهازٍ فقبلته منه.

(١) «حرّان»: بلدة على طريق الموصل والشّام، كانت مقرّ مروان بن محمّد آخر خلفاء بني أمية.

* فالتفتت مريّة إلى زينب ابنة سليمان وقالت لها: كأنك يا بنت سليمان حمّدت لي عاقبة أمري في قطيعة رحمي، فأردت أن تزيني قطيعة الرحم لأمّ أمير المؤمنين. ثمّ إنها التفتت إلى الخيزران وقالت لها: يا أمّ أمير المؤمنين، لقد صدقت زينب فيما ذكرت عني، وذلك الفعل منّي أحلني هذا المحلّ، والسعيد من اتّعظ بغيره، ثمّ ولت باكية.

* وعندئذ تساقطت الرحمة على قلب الخيزران، وغشيتها الرّافة، ولم ترض عمّا دار بين مريّة وزينب بنت سليمان، فغمزت بعض جواربها، فعدلت بمريّة إلى بعض المقاصير، وأمرت بتغيير حالها، والإحسان إليها، فلمّا دخل المهدي عليها، وقد انصرفت زينب بنت سليمان الهاشمية، وكان من شأنه الاجتماع مع خواص حرمه في كلّ عشية، قصّت الخيزران عليه قصتها، وما أمرت به من تغيير حالها، فدعا بالجارية التي ردّتها، فقال لها: لما ردّتها إلى المقصورة ما الذي سمعتها تقول؟!!

قالت الجارية: لحقتها وهي تبكي في خروجها مؤتسية وهي تقرأ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

* ثمّ إنّ المهدي قال للخيزران وهو مسرور بصنيعها الذي يدلّ على السّماحة والمروءة والتّدي والنّجدة والشّهامة:

والله، والله، لو لم تفعل بي بها ما فعلت، ما كلمتك أبداً.

* وبعد إذ بكى المهديّ بكاءً شديداً، وتوجّه إلى السّماء ورفع يديه، ودعا ربّه فقال: اللهمّ إنّي أعود بك من زوال النّعمة.

* وأنكر المهديّ ما فعلته زينب بنت سليمان الهاشمية، وقال: لولا أنّها أكبر نساءنا لحلفت ألا أكلّمها أبداً.

* ثمّ بعث المهديّ إلى مريّة - في غرفتها التي خصّصت لها - بعض الجوّاري، وقال للجارية: اقريي عليها السّلام، وقولي لها: يا بنت عم! إنّ

أخواتك قد اجتمعنَ عندي، ولولا أنني ابنُ عمِّك لجنناك.

* فلمّا سمعتُ مريّة رسالة المهدي، علمتُ مراده، وقد حضرتُ زينبُ بنتُ سليمان بن عليّ، ثم تفاوضوا أخبارَ أسلافهم وأيام النَّاس، والدَّولة وتنقلها، فما تركتُ مريّةً لأحدٍ في المجلسِ كلاماً.

فقال لها المهدي: يا بنت عمّ، والله لولا أنني لا أحبُّ أن أجعلَ لقوم أنتِ منهم في أمرنا شيئاً لتزوجتُك، ولكن لا شيء أصون لك من حجابي، وكونك مع أخواتك في قصري لك مالهنّ، وعليكِ ما عليهنّ، إلى أن يأتيك أمرٌ من له الأمر، فيما حكّم به على الخلق.

* ثم إنَّ المهديّ أقطعها مثل ما لهنّ من الأقطاع، وأخدمها وأجاز لها. فأقامتُ في قصره حتى أيام الرشيد، وتوفيتُ في خلافته، لا يفرّقُ بينها وبين نساء بني هاشم، فلما ماتتُ جزعَ عليها الرشيد والخدمُ جزعاً شديداً.

* وبهذا التصرف الكريم الوضيء أبانت الخيزران عن طيبِ عنصرها، وكرم أخلاقها، وكمال مروءتها^(١).

الخيزرانُ ونائبُ البصرة:

* كان محمّد بنُ سليمان بن عليّ من رجالات قريش وشجعانهم، وقد جمعَ له المنصور بين البصرة والكوفة، وزوّجه المهدي ابنته العباسية، وكان له من الأموال شيءٌ كثير، كان دخله في كلّ يوم مئة ألف، وكان له خاتمٌ من ياقوت أحمر لم يُر مثله، وقد وفدَ على هارون الرشيد، فهناه بالخلافة، فأكرمه وعظّمه، وزاده في عمله شيئاً كثيراً.

* وكان محمّد بنُ سليمان هذا يعرف مكانة الخيزران في نفس الرشيد، وكان يدركُ مكانتها في جسم الدولة العباسية، لذلك كان يتحفها بالهدايا.

(١) انظر: المستجد من فعلات الأجواد للتتوخي (ص ٢١ - ٢٥) بتصرف. أقول: إنَّ هذه الرواية تصوّر عطفَ الخيزران على أعدائها، وتصفُ كرم أخلاقها ونبلاً عواطفها، كما تثبتُ ما كان عليه المهدي من تسامح وشعور إنساني، فقد أبدى عطفاً وحباً على هذه المرأة التي تنتسبُ إلى أعدائه من بني أمية!

* ومن طريف ما أورده الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» أنَّ محمَّد بن سُلَيْمان قد أهدى الخيزران مئة وصيفة مع كلِّ واحدة جام من فضة مملوءاً مسكاً.

* فكتبتُ إليه الخيزران: إنَّ كان ما بعثته ثمناً عن ظنِّنا فيك، فظنُّنا فيك أكثر مما بعثت، وقد بخستنا في الثمن، وإنَّ كنتَ تريدُ زيادةَ المودَّة، فقد اتَّهمتني في المودَّة. وردَّت ذلك عليه^(١).

مِنْ آثَارِهَا فِي مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ:

* عشنا مع الخيزران في نواحٍ متعدِّدة، وقد لمسنا أدبها وظرفها، وإحسانها ومروءتها، وجدها وهزلها، وما شابه ذلك. وسنعيشُ الآن مع جانب مهمٍّ من جوانبِ مكانة هذه المرأة التي عطَّرت تاريخ النِّساء بأعمالها ومبراتها.

* فقد كانت الخيزران صاحبةً جُود وخيرات، ولها أعمالٌ كريمةٌ وضيئةٌ مباركة، ولها باعٌ رُحبةٌ في المبرَّات والمعروف والإصلاح والاستصلاح.

* ذكرَ أهلُ الأخبار أنَّ الخيزران كانت ذات أموالٍ طائلة، وكان غلُّ ضياعها في كلِّ سنة مليوناً وستين ألفاً، ولذلك اشترت الدَّار المشهورة بها في مكة، والمعروفة بدار الخيزران فزادتها في المسجد الحرام^(٢).

* وقد ذكرَ الفَاسِي - رحمه الله - في كتابه «شِفَاء الغرام» المواضع التي بمكة والتي قيل: إنَّ الدُّعاء فيها مستجابٌ فقال: يُستجابُ الدُّعاءُ في دارِ الخيزران عند المجتبي بين العشَّانين^(٣)؛ وهذه الدَّار المشهورة بالخيزران

(١) البداية والنهاية (١٠/١٦٣ و ١٦٤).

(٢) انظر: البداية والنهاية (١٠/١٦٤).

(٣) انظر: شفاء الغرام (١/٣٢٢)، وقال أهل الأخبار: عندما بُويع هارون الرشيد بالخلافة، سار إلى الحج، وأخذ معه أمه الخيزران، فتصدَّقت بالحرمين، واشترت دوراً بالصفَّا، وألحقته بالحرَم الشريف، ويعرف الآن بدار الخيزران. انظر كتاب (الروضة الفيحاء في تواريخ النِّساء ص ٢٥٦).

بمكة عند جبل الصفا، والصفا هو مبدأ السعي.

* وتعرض الفاسي أيضاً إلى ذكر الدور المباركة بمكة المشرفة فقال: ومنها دار الأرقم المخزومي^(١)، وهي الدار المعروفة بدار الخيزران^(٢) عند الصفا، والمقصود بالزيادة منها هو المسجد الذي فيها، وهو مشهور، وذكر أن النبي ﷺ كان مختبئاً فيه، وفيه أسلم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

* ولعل هذا الموضع أفضل الأماكن بمكة بعد دار خديجة بنت خويلد، لكثرة مكث النبي ﷺ فيه يدعو الناس للإسلام مستخفياً، وإقامته ﷺ بهذا الموضع دون إقامته بدار خديجة، ولذلك كانت أفضل من هذا الموضع.

* وطول هذا المسجد ثمانية أذرع إلا قيراطين، وعرضه سبعة أذرع وثلاث، وفيه مكتوب:

﴿ فِي يَوْمٍ أذنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ [النور: ٣٦]؛ هذا مختبأ رسول الله ﷺ دار الخيزران، وفيه مبتدأ الإسلام^(٣).

* وللخيزران - رحمها الله - آثار كريمة أيضاً في المدينة المنورة، ما تزال إلى يومنا هذا، وخصوصاً في المسجد النبوي الشريف.

* ذكر أبو إسحاق الحربي - رحمه الله - المتوفى في ذي الحجة سنة (٢٨٥ هـ) في كتابه «المناسك» هذه المفخرة المباركة للخيزران، حيث أخرج بسنده عن محمد بن إسماعيل قال: ولم يكن المسجد النبوي

(١) اقرأ سيرة الصحابي الجليل الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي في كتابنا «فرسان حول الرسول ﷺ» الجزء الأول.

(٢) للخيزران آثار ميمونة في مكة المكرمة، فقد عمرت دار الأرقم بن أبي الأرقم - رضي الله عنه - تلك الدار المشهورة التي كان يجتمع فيها المسلمون مع الحبيب المصطفى ﷺ، وذلك في بدء الدعوة الإسلامية، وفيها أسلم عمر - رضي الله عنه - وأصبحت الدار تعرف بدار الخيزران، ولا تزال الدار معروفة، وقد جعلت إلى عهد قريب مدرسة للحديث.

(٣) انظر: شفاء الغرام (١/ ٤٤٠) بتصرف يسير.

الشريف - يُسْتَرَزَّ زمانُ بني أمية؛ قال: ثم قدمت الخيزران أم موسى وهارون في سنة سبعين ومئة - من الهجرة - فأمرت بمسجد النبي ﷺ فخلق^(١)، وولي ذلك من تخليقه جارية يقال لها: مؤنسة، فقام إليها إبراهيم بن الفضل بن عبد الله بن سليمان، مولى هشام بن إسماعيل المخزومي، فقال لها: هل لكم أن تسبقوا من بعدكم بما لم يفعله من قبلكم؟

قالت: وما ذلك؟

قال: تخلقون القبر كله.

ففعلت، وإنما كان يُخلق منه ثلثاه أو أقل، والأسطوان التي هي علم عند مصلى النبي ﷺ، فخلقوهما إلى حد ما هما عليه اليوم^(٢).

* هذا وللخيزران أعمالاً أخرى كريمة في بغداد وغيرها، تكفل أهل الأخبار بإيرادها.

خَالِدَةُ فِي ذَاكِرَةِ الزَّمان:

* عاشت الخيزران في كنف ثلاثة من أكابر خلفاء بني العباس في عاصمتهم بغداد، وكان لها من الآثار الحسان ما يجعلها في مقدمة فضليات نساء الخلفاء، وأمهات الخلفاء.

* وظلت الخيزران تندي التاريخ بعاطر أعمالها، إلى أن كانت خلافة ابنها الرشيد، حيث أصابها مرض عضال لم يمهلها طويلاً، وكانت أشرفت على الخمسين، وإذ ذاك وافاها الأجل ببغداد ليلة الجمعة لثلاث بقين من جمادى الآخرة من سنة (١٧٣ هـ).

* وخرج ابنها هارون الرشيد في جنازتها، وعليه جبة وطيلسان أزرق، قد شدَّ وسطه بحزام، وهو حامل سريرها حافياً، يمشي في الطين، حتى أتى مقابر قریش، فدعا بماء، فغسل رجله، ولبس خفّاً، وصلى عليها، ونزل

(١) لعل معناها التقطيع والتقسيم؛ أو من الخلق: التطيب.

(٢) انظر: كتاب المناسك للحربي (ص ٣٧٢).

قبرها، وتصدق بمالٍ كثيرٍ لم يُسبق أن تصدقَ أحدٌ بمثله .
 * ولما خرجَ الرشيدُ من قَبْرِ أُمِّهِ الخيزُران^(١) أتى بسريرٍ فجلسَ عليه،
 واستدعى الفضل بن الربيع، فولاه الخاتم والتنفقات، وقال له: إني كنتُ
 أهمُّ أن أوليك فتمنعني أُمِّي فأطيعها^(٢).

* وأنشد الرشيد قول متمم بن نُويرة حين دفنَ أُمِّهِ الخيزُران:
 وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَذِيمَةَ بُرْهَةٍ مِنَ الدَّهْرِ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَّصِدَعَا
 فَلَمَّا تَفَرَّقْنَا كَأَنِّي وَمَالِكَا لَطُولِ اجْتِمَاعٍ لَمْ نَبْتَ لَيْلَةً مَعَا^(٣)
 * وبهذا طُويت صفحةٌ واحدةٌ من نساءِ وأُمّهاتِ الخلفاء، ومن نساءِ
 التاريخ الإسلامي، ولكنَّ طيبَ نَشْرِها له أريجٌ في تاريخِ المرأةِ العربيةِ على
 مرِّ العصور.



(١) «قَبْرُ الخيزُران»: موضعٌ بالجانب الشرقي من بغداد، وتسمى مقبرة الخيزُران، لأنها
 مدفونةٌ بها، وهذه المقبرة من أقدم المقابر التي بالجانب الشرقي، وقد دُفِنَ في هذه
 المقبرة عددٌ كبيرٌ من ساداتِ العلماء في مختلفِ العصور، أذكرُ منهم: محمد بن
 إسحاق بن يسار صاحب السِّير والمغازي، وغيره من أهل العلم والفضل.

(٢) تاريخ الطبري (٦٢٣/٤) بتصرف يسير.

(٣) هذان البيتان لمتمم بن نُويرة اليربوعي، وهما من قصيدة مشهورة جداً مطلعها:
 لَعَمْرِي وَمَا دَهْرِي بِتَأْبِينِ هَالِكٍ وَلَا جَزَعٍ مِمَّا أَصَابَ فَأَوْجَعَا
 وهي قصيدةٌ طويلةٌ بلغت (٥١ بيتاً) وآخر بيت فيها قوله:
 فَلَا يَهْنِئُ الْوَاشِينَ مَقْتُلُ مَالِكٍ فَقَدْ أَبَ شَانِيهِ إِيَاباً فَوَدَعَا
 وناظمُ القصيدة هو متمم بن نُويرة بن جمرَةَ اليربوعي، وهو صحابي، وله في أخيه
 مالك قصائد يرثيه فيها، وهي من غُرر الشعر، ومما رثى به أخاه مالكا قوله:

أَرَقْتُ وَنَامَ الْأَخْلِيَاءُ وَهَاجَنِي مَعَ اللَّيْلِ هَمٌّ فِي الْفَوَادِ وَجِيعُ
 وَهَيْجٌ لِي حَزْناً تَذْكُرُ مَالِكٍ فَمَا نَمْتُ إِلَّا وَالْفَوَادُ مَرُوعُ
 هذا؛ وقد تمثلَ بأبيات متمم الأولى عددٌ من العظماء في مواقف متعددة. وللمزيد
 من أواخر متمم راجع المفضليات (ص ٤٨ - ٥٤ و ٦٣٢ - ٢٧٣).

١١

رابعة العدوية

في رَحَابِ الزَّاهِدِينَ والنُّسَاكِ:

* رابعة بنت إسماعيل العدوية^(١) امرأة ملاً صيتها الدنيا، وشغل الناس في عصرها وما بعده، فقد نسجت حولها وحول سيرتها أقاصيص وأحداث غريبة وعجيبة، ومعظم تلك الأقاصيص تدور حول كراماتها وتصفوها وزهدها وعبادتها.

* وعندما طُفِّقُ أطلعُ سيرة رابعة العدوية، والعصر الذي عاشت فيه - وهو القرن الثاني الهجري -، أحببت أن أتحدث عن الزُّهد والزُّهاد والنُّسَاكِ في ذلك العصر، كيما تتوضَّح معالم شخصية هذه المرأة التي دونت بدائع السُّطور في صفحات الزُّهد، ورسمت حُلُوَ الصِّفات في النُّسك على سجلِّ التَّاريخ النَّسوي في عصرها.

* ويبدو أن أكثر الزُّهَّاد قد عاشوا في البصرة وبغداد، وقد تداعى النُّسَاكِ والزُّهاد وبعض الشُّعراء إلى الحياة البسيطة، وإلى الزُّهد في الدنيا الفانية؛ وسنضرب على ذلك مثلاً من شعر أبي العتاهية الذي ينضج ديوانه بألوان شتى من أدب الزُّهد، والعمل على الكفاف والاستعداد ليوم المعاد، وفي دعوة إلى الزُّهد يقول:

رَغِيفُ خُبْزٍ يَابِسٍ	تَأْكُلْهُ فِي زَاوِيهِ
وَكُوْزُ مَاءٍ بَارِدٍ	تَشْرِبُهُ مِنْ صَافِيهِ
وَعُورْفَةٌ ضِيْقَةٌ	نَفْسُكَ فِيهَا خَالِيهِ
أَوْ مَسْجِدٌ بِمَعَزَلٍ	عَنْ الْوَرَى فِي نَاحِيهِ
تَدْرُسُ فِيهِ دَفْتَرًا	مُسْتَنَدًا بِسَارِيهِ

(١) صفة الصفوة (٤/ ٢٧ - ٣١)، ووفيات الأعيان (٢/ ٢٨٥ - ٢٨٨)، والبداية والنهاية (١٨٦/ ١٠)، وسير أعلام النبلاء (٨/ ٢١٥ - ٢١٧)، ومرآة الجنان (٢٨١ - ٢٨٣)، وطبقات الأولياء (ص ٣٥ و ٤٠٨)، ومصارع العشاق (١/ ٢٠٧ و ٢٧٥)، وشرح مقامات الحريري للشريشي (٢/ ١٧٠ و ١٧١)، وجامع كرامات الأولياء (٢/ ٧١)، والدر المنثور (ص ٢٠٢ و ٢٠٣)، والطبقات الكبرى للمناوي المحفوظ منه نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية (ص ٣ - ٦) وغيرها كثير جداً.

* وَيُعْتَقَدُ أَنَّ طَبِيعَةَ الْعَصْرِ الَّذِي عَاشَتْ فِيهِ رَابِعَةُ الْعَدَوِيَّةِ، قَدْ دَفَعَتْ كَثِيرًا مِنَ الْمُسْتُورِينَ وَالْمُسْتَوْرَاتِ إِلَى الْإِبْتِعَادِ عَنْ مَخَالَطَةِ النَّاسِ نَوْعًا مَا، وَرَكَبُوا فِي ذَلِكَ مَرْكَبًا خَشَنًا، فَاسْتَوْحَشُوا مِنَ الدُّنْيَا، وَانْقَطَعُوا عَنِ النَّاسِ، وَتَجَافَتْ جَنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ، وَتَنَاءَتْ قُلُوبُهُمْ عَنِ الْمَطَامِعِ.

* وَاخْتَطَّ هَؤُلَاءِ النَّسَّاكُ لِأَنْفُسِهِمْ طَرِيقًا، فَلَبَسُوا الْخَشْنَ الشَّائِكَ، وَأَكَلُوا الْيَابِسَ، وَأَنَسُوا بِالظُّلْمَةِ الْحَالِكَةِ، وَاسْتَسْهَلُوا الصَّلْبَ الْعَسِيرَ، وَاقْتَحَمُوا الصَّعَابَ إِلَى مَدَاهَا.

* وَكَانَتِ الزَّاهِدَاتُ مِنَ النِّسَاءِ أَشَدَّ انْدِفَاعًا فِي الزُّهْدِ، وَانْقِطَاعًا إِلَى الْعِبَادَةِ، وَامْتِنَاعًا عَنْ طَيِّبَاتِ الْحَيَاةِ مِنْ زَهَادِ الرِّجَالِ، فَلَا تَرَاهُنَّ إِلَّا صَائِمَاتٍ قَائِمَاتٍ، بَاكِيَاتٍ وَالِهَاتٍ، وَخَلِيقٌ بَانْدِفَاعِ الْمَتَبَرِّجَاتِ الْمَتَبَذَلَاتِ أَنْ يَقَابِلَهُ انْدِفَاعُ الْمَتَنَسَكَاتِ الْمَتَبَثَّلَاتِ.

* وَكَانَتِ بَعْضُ الْعَوَاصِمِ الْإِسْلَامِيَّةِ كَالشَّامِ تَحْفَلُ بِالزُّهَادِ وَالنَّسَّاكِ، وَلَكِنَّ الْعِرَاقَ وَنَوَاحِيهَا كَانَتْ أَحْفَلُ بِلَادِ اللَّهِ بِالْخَيْرَاتِ الصَّالِحَاتِ اللَّوَاتِي نَهَجْنَ طَرِيقَ الزُّهْدِ عَنْ فُرْطِ عِلْمٍ، وَرَسُوخِ عَقِيدَةٍ، لَا عَنْ حِمَاقَةٍ وَجَهَالَةٍ، كَمَا تَجَدُّ فِي كَثِيرٍ مِمَّنْ عُرِفْنَ بِالنُّسْكِ وَالزُّهْدِ وَالتَّصَوُّفِ^(١) مِنَ الْبِلَادِ الْآخَرَى.

* وَيَأْتِي فِي رَأْسِ هَؤُلَاءِ النَّاسِكَاتِ، ضَيْفَةُ تَرْجَمَتْنَا رَابِعَةُ بِنْتُ إِسْمَاعِيلَ الْعَدَوِيَّةِ الْبَصْرِيَّةِ، الَّتِي كَانَتْ مُضْرِبَ الْمَثَلِ فِي تَدْلِيهِ الْقَلْبِ، وَاحْتِرَاقِ الْكَبِدِ حُبًّا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -، وَإِثَارًا لِمَرْضَاتِهِ، وَسُنْعِيشُ فِي الصَّفَحَاتِ التَّالِيَةِ مَعَ

(١) نَشَأَ فِي نَهَايَةِ الْقَرْنِ الْهَجْرِيِّ الْأَوَّلِ، وَبَدَايَةِ الْقَرْنِ الثَّانِي رِجَالٌ رَبَانِيُونَ أَنْقِيَاءٌ، عَزَفَتْ نَفُوسُهُمْ عَنْ زَخْرِفِ الدُّنْيَا، فَانْصَرَفُوا إِلَى الْعِبَادَةِ وَالزُّهْدِ لِمَزَاجٍ خَاصٍّ بِهِمْ، أَوْ حِيلَةٍ دَفَعَتْهُمْ فِتْمَاشُوا مَعَهَا، أَوْ لِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَعْرِضُ لِلْبَشَرِ مِنْ إِحْقَاقٍ فِي طَلَبِ مُجِدٍّ أَوْ مَالٍ أَوْ مَا شَابَهَ ذَلِكَ.

وَمِنْهُمْ مَنْ فُتِنَ بِهِ النَّاسُ فَاتَّبَعُوهُ لَمَّا رَأَوْا مِنْ جَمِيلِ تَمَسُّكِهِ، وَحُسْنِ سَمَتِهِ، وَبَعْدَهُ عَنْ سَفْسَافِ أُمُورِ هَذَا الْعَالَمِ، وَكَانَ هَذَا الرِّعِيلُ مِنْ أَوَائِلِ الْمُتَصَوِّفَةِ فِي الْإِسْلَامِ.

صَوْرَ مِنْ زَهْدِهَا وِعِبَادَتِهَا، وَنَفَثَاتِهَا فِي أَلْوَانِ الْمَعَارِفِ، فَقَدْ حَفِظَ لَهَا التَّارِيخُ تِلْكَمُ الشُّهْرَةِ الطَّوِيلَةِ الْعَرِيضَةِ الَّتِي مَلَأَتْ الْأَسْمَاعَ، وَأَطْرَبَتْ أَصْحَابَ الطَّرُقِ الصَّوْفِيَّةِ، فَلَعَلَّهَا مِنْ أَوَائِلِ الْمُتَصَوِّفِينَ وَالْمُتَصَوِّفَاتِ مِمَّنْ تَرَكَوا بِصِمَاتٍ وَاضِحَةً فِي عَالَمِ التَّصَوُّفِ وَالْمُتَصَوِّفِينَ.

نَشَأَتُهَا وَبِدَايَةُ حَيَاتِهَا:

* تشيرُ المصادرُ التي حدَّثتنا عن رابعةِ العدويةِ أنَّها وُلِدَتْ وَنَشَأَتْ فِي الْبَصْرَةِ، وَيُنْتَسَبُ أَبُوْهَا بِالْوَلَاءِ إِلَى آلِ عَتِيكَ، وَآلِ عَتِيكَ بَطْنٌ مِنْ بَطُونِ قَيْسٍ، وَمِنْ آلِ عَتِيكَ هَؤُلَاءِ: بَنُو عَدُوَّةَ، وَهِيَ لِهَذَا تَدْعَى رَابِعَةَ الْعَدُوِّيَّةِ؛ وَقَدْ سَمَّاها أَبُو عَثْمَانَ الْجَاحِظُ: رَابِعَةَ الْقَيْسِيَّةِ، وَنَسَبَهَا إِلَى قَيْسٍ.

* أَمَّا كُنْيَةُ رَابِعَةَ الْعَدُوِّيَّةِ فَهِيَ أُمُّ الْخَيْرِ^(١)، وَتَكْنَى أَيْضاً أُمَّ عَمْرٍو^(٢)، وَقَدْ وُلِدَتْ وَنَشَأَتْ فِي أُسْرَةٍ فَقِيرَةٍ لَمْ تَلِدْ ذَكَوراً، وَسُمِّيَتْ رَابِعَةَ لَكُونِهَا وُلِدَتْ بَعْدَ ثَلَاثِ بَنَاتٍ لِأَبِيهَا فَهِيَ رَابِعَتُهُمْ.

* وَيَعْتَقَدُ أَنَّ مَوْلِدَ رَابِعَةَ كَانَ فِي مَطْلَعِ الْقَرْنِ الْهَجْرِيِّ الثَّانِي، وَعِنْدَمَا نَقَرَأُ فِي بَعْضِ الْمَصَادِرِ عَنْ مَوْلِدِهَا نَجِدُ أَنَّ رَابِعَةَ قَدْ أُحِيطَتْ بِهَالَةٍ مِنَ الْإِعْجَابِ وَالتَّقْدِيرِ مِنْذُ أَنَّ وَجَدَتْ رِيحَ الْحَيَاةِ، بَلْ نُسِجَتْ حَوْلَ وَلادَتِهَا حِكَايَاتٌ جَعَلَتْ حَيَاتَهَا مَقْرُونَةً بِالْمَكْرَمَاتِ وَالْخَوَارِقِ مِنْ سَاعَةِ وَلادَتِهَا، فَقَدْ ذَكَرَ فَرِيدُ الدِّينِ الْعِطَّارُ - وَهُوَ شَاعِرٌ مِنْ شُعْرَاءِ الْفُرْسِ الْمُتَصَوِّفِينَ - فِي كِتَابِهِ «تَذَكُّرَةُ الْأَوْلِيَاءِ» أَنَّ رَابِعَةَ قَدْ وُلِدَتْ فِي بَيْتٍ فَقِيرٍ، لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا يَسُدُّ الرَّمَقَ، بَلْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ نُقْطَةٌ مِنَ السَّمَنِ، وَلَا قِطْعَةٌ قِمَاشٍ لَتُلَفَّ بِهَا رَابِعَةُ، وَقَدْ انْتَحَبَتْ أُمُّهَا سَاعَةً وَلادَتِهَا طَوِيلًا، وَأَلَحَّتْ عَلَى الْأَبِّ كَيْ يَخْرُجَ طَلَبًا لِلْمُسَاعَدَةِ، فَرَضَخَ لِلْأَمْرِ الْوَاقِعِ، وَرَاحَ يَدُقُّ أَبْوَابَ جِيرَانِهِ، لَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْتَحُوا لَهُ، فَعَادَ إِلَى بَيْتِهِ مَهْمُومًا بَاكِيًا، وَانْكَبَّ عَلَى الصَّلَاةِ يُفَرِّجُ بِهَا كَرْبَهُ وَمَا نَزَلَ بِهِ مِنْ هَمٍّ وَغَمٍّ، وَظَلَّ فِي صَلَاتِهِ حَتَّى أَخَذَهُ النَّعَاسُ، فَنَامَ.

(١) وفيات الأعيان (٢/ ٢٨٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٨/ ٢٤١).

* وفي تلك اللحظات من إغفائه رأى في منامه النبي الكريم ﷺ يقول له: لا تحزن يا هذا، إنَّ وليدتك سيِّدةُ جليلةٍ القَدْرِ، وإنَّ سبعين ألفاً من أمتي ليرجون شفاعتها!!

* ثمَّ أمره أن يذهبَ في الصَّباحِ إلى عيسى زاذان أميرِ البصرة لكي يخبره بزيارة النبي ﷺ له في المنام، ويذكر له على رقعةٍ يقدِّمها إليه عن لسانه ﷺ، وفيها يقول له: إنَّكَ كنتَ تصلي كلَّ ليلةٍ مئةَ ركعة، وفي ليلةِ الجمعة أربعمئة، لكنَّكَ في الجمعة الأخيرة نسيتَ، ألا فلتدفعْ إلى صاحب هذه الرقعة أربعمئة دينار كفَّارة عن هذا النسيان.

* وفي الصَّباح ذهب والدُ رابعة إلى الأمير، وأعطى أحدَ حرسِ القصر الرقعة ليقدمها إلى الأمير، فلمَّا قرأها أمر على الفور بإعطائه أربعمئة دينار، وطلبَ أن يأتوه به ليراهُ، ثم إنَّه راجعَ نفسه في الحالِ وقال: لا بل أنا أذهبُ إليه بنفسِي، وأتمسَّحُ بلحيتي على أعتابه، وأسعى لأحصلَ على كلِّ ما تشتهيه هذه البنت الجليلة!!.

* إنَّ روايةَ فريد الدين العطار هذه، والتي يعتمدُ عليها محبو الحكاياتِ والخوارق للدلالة على كرامة رابعة منذ ولادتها، هي تصوِّراتٌ وأوهامٌ، بل صُنِعتْ في مصانع الاختراع والتزوير حولَ شخصيَّة رابعة العدوية، ناهيك بأنَّها بعيدة عن الحقيقة، وهي متناقضةٌ مع بعضها، ولا يخفى على القارئ الفطن ذلك.

* والحقيقة، أننا لا نعلم عِلْمَ اليقين عن بداية نشأة رابعة، إذ الأقوالُ متضاربةٌ متناقضةٌ في هذا المجال، ولا يمكن للباحث أن ينظمها في سلكٍ واحد.

* ولعلَّ من أبرز تلك الأقوال ما وردَ عنها بأنَّها كانت تعيشُ في بدايتها حياةً عابثةً، وأنَّها كانت فاسدة الخُلُق في شبابها، ومُطلقة العنان لشهواتها، ثمَّ إنَّها تابَّتْ وأنابت إلى الله - عزَّ وجلَّ -، وعادتْ عودةً جارفةً ملكتْ أحاسيسها، وسيطرتْ على عقلها ووجدانها، فلم يَعدْ يشغلها من أمورِ الدنيا شيءٌ، ولم يعد يلفت نظرها زخرف الدنيا أو نعيمها الفاني، وإنَّما أضْحَى

هَمُّهَا أَنْ تَتَقَرَّبَ إِلَى بَارئِهَا بِقِيَامِ اللَّيْلِ، وَوَضَلِ طَاعَةِ النَّهَارِ بِاللَّيْلِ، وَالْعَزُوفِ
عَنْ مَلَاذِ الدُّنْيَا وَعَنْ نَعِيمِهَا، حَتَّى أَفْضَى بِهَا ذَلِكَ إِلَى التَّصَوُّفِ، أَوْ الْإِغْرَاقِ
فِي التَّصَوُّفِ.

* وَيَبْدُو أَنَّ رَابِعَةً قَدْ سَلَكَتْ فِي الزُّهْدِ وَالْعِبَادَةِ مَسْلَكاً لَفَتْ إِلَيْهَا أَنْظَارَ
الزُّهَّادِ وَالْعَارِفِينَ فِي عَصْرِهَا^(١)، وَكَذَلِكَ الْعُلَمَاءُ وَالْمَتَعَبِّدِينَ وَالرَّبَّانِيِّينَ^(٢)
مِنْ أَمْثَالِ: الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ، وَسَفْيَانَ الثَّوْرِيِّ، وَرِيَاحَ بْنَ عَمْرٍو الْقَيْسِيِّ
الصُّوفِيِّ.

* كَمَا أَنَّ كَثِيراً مِنَ النِّسْوَةِ اللُّوَاتِي عَاصِرْنَهَا سَلَكْنَ طَرِيقَتَهَا فِي الْعِبَادَةِ
وَالصَّلَاحِ وَالصَّلَاةِ وَالتَّهَجُّدِ، حَتَّى ارْتَقَيْنَ سُدَّةَ التُّسْكِ، وَأَصْبَحْنَ مِنْ رَبَّاتِ
الصَّلَاحِ^(٣).

(١) تَلَكُمُ هِيَ رَابِعَةُ الْعَدْوِيَّةِ الَّتِي أَجْلَّهَا الرِّجَالُ الزُّهَّادُ، وَقَدَّرُوهَا حِينَ رَأَوْهَا فِي
أَنْدَادِهِمْ، بَلْ وَجَدُوهَا فِي الزُّهْدِ وَالتَّصَوُّفِ أَفْضَلَ مِنْهُمْ، وَمَا كَانَ لِرَجُلٍ أَنْ يَجْلُ
امْرَأَةً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَسْتَيْقِنَ مِنْ فَضْلِهَا وَرَجَاحَتِهَا، وَهَذِهِ سُنَّةُ الرِّجَالِ فِي كُلِّ عَصْرِ
وَمَصْرٍ. وَيُمْكِنُنَا أَنْ نَقُولَ الْآنَ: إِنَّ رَابِعَةً كَانَتْ قُدُوةَ الْعَارِفِينَ، وَرَائِدَةَ الْمُتَصَوِّفِينَ
فِي عَصْرِهَا، بَلْ ظَلَّتْ قُدُوةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَقْتَدِيَ بِهَا فَيَمُنَّ بِهَا بَعْدَهَا. وَلَقَدْ قَلَّدَهَا
نِسَاءٌ عَاصِرْنَهَا، وَنِسَاءٌ جُنَّ بَعْدَهَا، وَسِرْنَ عَلَى نَهْجِهَا، وَتَمَرَسْنَ بِالصُّوفِيَّةِ، وَعَشْنَ
مَتَشَفَّاتٍ زَاهِدَاتٍ، وَكَانَتْ لِهِنَّ أَحَادِيثُ وَأَشْعَارٌ وَحِكَمٌ فِي الْعِبَادَةِ وَالْمَوْعِظَةِ
وَالزُّهَادَةِ.

(٢) «الرَّبَّانِيُّونَ»: يُقَالُ: رَجُلٌ رَبِّي، وَرَبَّانِي، مِتَّأَلَهُ، أَي: مُتَعَبِّدٌ. قَالَ السُّهَيْلِيُّ فِي
«الرَّوْضِ الْأَنْفِ»: إِنَّ الرَّبَّانِيِّينَ الَّذِينَ يَرْبُونَ النَّاسَ بِصِغَارِ الْعِلْمِ قَبْلَ كِبَارِهِ. وَقِيلَ:
نَسَبُوا إِلَى عِلْمِ الرَّبِّ وَالْفَقْهِ فِيمَا أَنْزَلَهُ، وَزِيدَتْ الْأَلْفُ وَالتَّوْنُ لَتَفْخِيمِ الْأَسْمِ.

(٣) إِنَّ النِّسْوَةَ اللَّاتِي سَلَكْنَ طَرِيقَ رَابِعَةٍ لَمْ يَكُنَّ قَلِيلَاتٍ، لَكِنَّهُنَّ لَمْ يَحْتَمِلْنَ صَبْرَهَا،
وَلَا أُوتِينَ مِثْلَ بَصِيرَتِهَا، وَمَا تَعَمَّقْنَ بِالْعِبَادَةِ، وَغَلَوْنَ فِي الْمَجَاهِدَةِ، كَمَا فَعَلَتْ
رَابِعَةٌ، بَلْ مَا وَسَعَتْ عَقُولُهُنَّ سَبِيلَ الْإِتِّصَالِ بِاللَّهِ وَالِاسْتِغْرَاقِ فِي أَسْرَارِ الْحَقِّ. أَمَّا
رَابِعَةٌ فَقَدْ كَانَتْ حَاجَةً النَّسَاءِ فِيمَا آتَى اللَّهُ بَعْضَهُنَّ مِثْلَمَا يُؤْتَى الرِّجَالُ مِنْ عِلْمٍ
وَرَجَاحَةٍ وَإِيمَانٍ وَتَقْوَى، فَقَدْ كَانَتْ رَابِعَةٌ أَحَدُوهُنَّ لِلنَّاسِ فِي الْمَوْعِظَةِ الْبَالِغَةِ،
وَالْمَجَاهِدَةِ الْخَالِصَةِ، وَالْمَعْرِفَةِ الثَّاقِبَةِ، وَالْبَصِيرَةِ النَّافِذَةِ، وَالصَّفَاءِ الرُّوحِيِّ،
وَالصَّدَقِ فِي الدِّينِ.

* ومند أن شَبَّتْ رابعة عن الطُّوق، طار صيَّتها في البلدان، بل حدثَ خطبٌ كبير في حياتها - وهو الرُّهد والعِشْقُ الإلهي!! - هذا الخطبُ هَزَّ النفوسَ، وحَيَّرَ العقولَ، وأزَقَ الباحثينَ، فقد شَمَّرَ المتصوِّفونَ عن أكمامهم ليخطُّوا أحوالَ هذه المرأة التي رآها بعضهم من عالمِ الملائكةِ الأبرار، بينما رآها غيرهم من عالمِ الشَّياطينِ الأشرار، في حين وجَدَها آخرونَ جامعةً بين الضَّدين، ومؤلفَةً بين التَّقِيضينَ؛ كما زعم بعضهم أنَّها نبراسُ المتصوِّفين والمتصوِّفات، وأنَّها منارٌ سبيلِ أهلِ الصِّفاءِ والنِّقاءِ.

* وَيَحْسُنُ بنا في هذا المقام أن نشيرَ إلى كلمة الصُّوفي التي تنازعَ النَّاسَ فيها، وكلُّ يدَّعي ما يدَّعي فيها من أصلٍ ومصدر، فقد ذهبَ بعضهم إلى أنَّها من الصِّفاءِ، ونقاءِ السَّريرة وإخلاصِ الأمرِ كُلِّهِ لله تعالى، وفي تحقيقِ هذا المعنى يقولُ أبو الفتح البُستي^(١) - رحمه الله -:

تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ وَاخْتَلَفُوا فِيهِ فَظَنُّوهُ مُشْتَقًّا مِنَ الصُّوفِ وَلَسْتُ أَنْحِلُ هَذَا الْأَسْمَ غَيْرَ فَتَى صَافِي فَصُوفِي حَتَّى لُقِّبَ الصُّوفِي

* ونقل القشيري عن أحدهم رأيَه في التَّصوِّف، وأنَّه اتباع ما جاء في القرآن والسُّنة فقال:

لَيْسَ التَّصَوُّفُ لِبَسِ الصُّوفِ تَرْقَعُهُ وَلَا بَكَاؤُكَ إِنْ غَنَى الْمَغْنُونَا وَلَا صِيَاحُ وَلَا رَقْصُ وَلَا طَرْبُ وَلَا اضْطِرَابُ كَأَنَّ قَدْ صِرْتَ مَجْنُونَا بَلِ التَّصَوُّفُ أَنْ تَصْفُو بِلا كَدَرٍ وَتَتَّبِعَ الْحَقَّ وَالْقُرْآنَ وَالِدَيْنَا

(١) «أبو الفتح البُستي»: علي بنُ محمَّد الكاتب البُستي الشاعر المشهور، صاحب الطريقةِ الأنيقةِ في التجنيسِ الأنيسِ البديعِ التأسيسِ؛ فمن ألفاظه البديعةِ قوله: مَنْ أَصْلَحَ فَاسَدَهُ أَرْغَمَ حَاسَدَهُ؛ مَنْ أَطَاعَ غَضِبَهُ أَضَاعَ أَدَبَهُ؛ عَادَاتِ السَّادَاتِ سَادَاتُ الْعَادَاتِ؛ مَنْ سَعَادَةُ جَدِّكَ وَقُوفُكَ عِنْدَ حَدِّكَ، الرِّشْوَةُ رِشَاءُ الْحَاجَاتِ، أَجْهَلُ النَّاسِ مَنْ كَانَ لِلْإِخْوَانِ مَذَلًّا، وَعَلَى السُّلْطَانِ مُدَلًّا؛ الْفَهْمُ شِعَاعُ الْعَقْلِ؛ الْمَنِيَّةُ تَضْحَكُ مِنَ الْأَمْنِيَّةِ؛ حَدُّ الْعَافِ الرِّضَا بِالْكَفَافِ، مَا لَخَرَقَ الرَّقِيعَ تَرْقِيعَ، وَلَهُ شَعْرٌ نَادِرٌ جَمِيلٌ فِي التَّجْنِيسِ وَغَيْرِهِ، تُوُفِيَ سَنَةَ (٤٠٠ هـ) - رحمه الله تعالى - . (وفيات الأعيان ٣/ ٣٧٦ - ٣٧٨).

وَأَنْ تُرَى خَاشِعاً لِلَّهِ مَكْتَباً عَلَى ذُنُوبِكَ طَوْلَ الدَّهْرِ مُحْزُوناً
* وَعَرَفَ الْجُنَيْدَ - وَهُوَ أَحَدُ أَقْطَابِ الصُّوفِيَّةِ - مَا هِيَ التَّصَوُّفُ عِنْدَمَا سَأَلَهُ
أَحَدُهُمْ عَنْهَا فَقَالَ: التَّصَوُّفُ أَنْ تَكُونَ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى بِلَا عِلَاقَةٍ.

* وَقَالَ عَنِ الْمُتَصَوِّفِينَ: هُمْ أَهْلُ بَيْتٍ وَاحِدٍ لَا يَدْخُلُ فِيهِ غَيْرُهُمْ؛
وَالصُّوفِيُّ كَالْأَرْضِ يُطْرَحُ فِيهَا كُلُّ قَبِيحٍ، وَلَا تَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا كُلُّ مَلِيحٍ.

* وَقَالَ الْجُنَيْدُ عَنِ التَّصَوُّفِ أَيْضاً: التَّصَوُّفُ ذِكْرٌ مَعَ اجْتِمَاعٍ، وَوُجُدٌ مَعَ
اسْتِمَاعٍ، وَعَمَلٌ مَعَ اتِّبَاعٍ.

* وَقَالَ سَهْلُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الشُّشْتَرِيِّ عَنِ الصُّوفِيِّ: إِنَّ الصُّوفِيَّ مَنْ صَفَا مِنْ
الْكُدرِ، وَامْتَلَأَ مِنَ الْفِكْرِ، وَانْقَطَعَ إِلَى اللَّهِ عَنِ الْبَشَرِ، وَاسْتَوَى عِنْدَهُ الذَّهَبُ
وَالْمَدَرُ.

* وَهَنَّاكَ آرَاءُ وَأَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ فِي هَذَا الْمَجَالِ، مَلَأْتُ كِتَابَ التَّصَوُّفِ
وَلَا مَجَالَ لَذِكْرِهَا فِي هَذَا الْمَقَامِ.

طَرِيقَتُهَا فِي الْعِبَادَةِ وَالْمُنَاجَاةِ:

* فِي مَجَالِ الزَّهْدِ وَالتَّوَكُّلِ وَالْعِبَادَةِ ضَرَبْتُ رَابِعَةً مِثْلًا شُرُوداً بِذَلِكَ، فَقَدْ
ذَكَرْتُ أَنَّهَا قَدْ اتَّخَذَتْ لِنَفْسِهَا صَوْمِعَةً اعْتَكَفَتْ فِيهَا، تَعْبُدُ اللَّهَ بِالْقِيَامِ وَالصَّيَامِ.

* وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ تَوَاصُلِ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا، وَتَتَابَعِ زَفَرَاتِهَا، وَتَدْفِقِ
عِبْرَاتِهَا، كَانَتْ تَسْتَقِلُّ ذَلِكَ كُلَّهُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَتَشْعُرُ بِالتَّقْصِيرِ، فَكَانَتْ إِذَا
مَا اللَّيْلُ عَسَعَسَ تَقْوَمُ وَتَنَاجِي مَوْلَاهَا وَخَالِقَهَا إِلَى أَنْ يَتَنَفَّسَ الصُّبْحُ، وَيَتَبَسَّمُ
الْفَجْرُ، وَلِسَانُهَا لَا يَفْتَرُ عَنِ الدَّعَاءِ وَالِابْتِهَالِ، حَتَّى بَلَغَتْ مِنَ النَّسْكِ
وَالْفَضْلِ وَالزَّهْدِ مَنْزِلَةً شَرِيفَةً، وَكَانَتْ مَنْوَرَةً الْبَصِيرَةِ، مَطْهَرَةً السَّرِيرَةِ.

* وَكَانَتْ رَابِعَةً تَرْقُبُ كُلَّ شَيْءٍ بِعَيْنِ الْيَقَظَةِ، وَكَانَتْ وَرَعَةً أَشَدَّ الْوَرَعِ فِي
كُلِّ شَيْءٍ، قَالَتْ لِأَبِيهَا يَوْمًا: يَا أَبِي، لَسْتُ أَجْعَلُكَ فِي حَلٍّ مِنْ حَرَامٍ
تَطْعَمْنِيهِ؛ فَقَالَ لَهَا أَبُوهَا: يَا رَابِعَةُ! أَرَأَيْتِ إِنْ لَمْ أَجِدْ إِلَّا حَرَامًا؟!

فَقَالَتْ رَابِعَةُ بِلِسَانِ الْوَرَعِ وَالْخَوْفِ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: يَا أَبِي، نَصَبْتُ فِي

الدُّنْيَا عَلَى الْجُوعِ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ نَصْبِرَ فِي الْآخِرَةِ عَلَى النَّارِ^(١).

* أَمَّا عِبَادَتُهَا، فَقَدْ كَانَتْ شَيْئاً آخَرَ فِي حُسْنِ الصَّلَاةِ وَالِاتِّصَالِ بِاللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ -؛ فَمِنْ خِلَالِ حَدِيثِ خَادِمَتِهَا عَبْدِةَ بِنْتِ أَبِي شُوَالٍ، نَسْتَشْفُطُ طَرِيقَةَ نَسْكِهَا وَعِبَادَتِهَا، تَقُولُ عَبْدِةٌ - وَكَانَتْ أَشْبَهَ النَّاسِ بِهَا فِي صَلَاحِهَا وَكَانَتْ مِنْ خَيْرِ إِمَاءِ اللَّهِ - : كَانَتْ رَابِعَةً تَصَلِّيَ اللَّيْلَ كُلَّهُ^(٢)، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ، هَجَعَتْ فِي مَصَلَّاهَا هَجْعَةً خَفِيفَةً، حَتَّى يَسْفِرَ الْفَجْرُ، فَكُنْتُ أَسْمَعُهَا تَقُولُ إِذَا وَثَبَتْ مِنْ مَرَقْدِهَا ذَلِكَ وَهِيَ فَرْعَةٌ : يَا نَفْسُ كَمْ تَنَامِينَ، وَإِلَى كَمْ تَقُومِينَ؟! يَوْشَكَ أَنْ تَنَامِي نَوْمَةً لَا تَقُومِينَ مِنْهَا إِلَّا لَصَرْخَةِ يَوْمِ التُّشُورِ^(٣).

قَالَتْ عَبْدِةٌ : فَكَانَ هَذَا دَأْبُهَا أَمَدَ دَهْرِهَا حَتَّى مَاتَتْ.

* وَكَانَتْ مَنَاجِئُهَا مَعَ بَارِئِهَا فِي كُلِّ لَيْلَةٍ، إِذْ تَنَاجَى رَبَّهَا طَلِباً لِلتَّقَرُّبِ مِنْهُ، وَطَلِباً لِمَرْضَاتِهِ، فَكَانَتْ إِذْ جَنَّ عَلَيْهَا اللَّيْلُ صَعِدَتْ سَطْحَ مَنَزْلِهَا ثُمَّ نَادَتْ رَبَّهَا قَائِلَةً : إِلَهِي، هَدَأْتَ الْأَصْوَاتَ، وَسَكَنْتِ الْحَرَكَاتُ، وَخَلَا كُلُّ حَبِيبٍ بِحَبِيبِهِ، وَقَدْ خَلَوْتُ بِكَ أَيُّهَا الْمَحْبُوبُ، فَاجْعَلْ خَلَوْتِي مِنْكَ فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ عَتَقِي مِنَ النَّارِ^(٤).

* أَمَّا الشَّيْخُ شُعَيْبُ الْحُرَيْفِي شَاحِبُ كِتَابِ «الرُّؤُوسِ الْفَائِقِ فِي الْمَوَاعِظِ وَالزَّكَاةِ» فَقَدْ طَابَ لَهُ أَنْ يَوْشِيَ كِتَابَهُ بِصُورٍ نَثْرِيَّةٍ عَنْ عِبَادَةِ وَمَنَاجَاةِ رَابِعَةِ الْعُدُويَةِ فَيَقُولُ : حُكِّي عَنْ رَابِعَةِ الْعُدُويَةِ - رَحِمَهَا اللَّهُ - أَنَّهَا كَانَتْ إِذَا صَلَّتِ الْعِشَاءَ، قَامَتْ عَلَى سَطْحِ لَهَا، وَشَدَّتْ عَلَيْهَا دَرْعَهَا وَخِمَارَهَا ثُمَّ قَالَتْ : إِلَهِي، أَنْارَتِ النُّجُومُ، وَنَامَتِ الْعُيُونُ، وَغَلَّقَتِ الْمُلُوكُ أَبْوَابَهَا،

(١) وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ (٢/٢٨٥) بِتَصْرِفٍ يَسِيرٍ.

(٢) ذَكَرَتْ بَعْضُ الْكُتُبِ عَنْ رَابِعَةٍ أَنَّهَا كَانَتْ تَصَلِّيُ فِي اللَّيْلَةِ الْوَاحِدَةِ أَلْفَ رَكْعَةٍ. وَلَا شَكَّ أَنَّ فِي هَذَا مَبَالِغَةً ظَاهِرَةً!!

(٣) وَكَأَنِّي بِبَعْضِ شِعْرَاءِ الزَّهْدِ قَدْ اسْتَهْوَتْهُ هَذِهِ الْقِصَّةُ فَنَظَمَ هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ فَقَالَ :
طُوبَى لِمَنْ سَهَرَتْ بِاللَّيْلِ عَيْنَاهُ وَبَاتَ فِي قَلْبِي مَنْ حُبِّ مَوْلَاهُ
وَقَامَ يَرَعَى نَجُومَ اللَّيْلِ مُنْفَرِداً شَوْقاً إِلَيْهِ وَعَيْنُ اللَّهِ تَرَعَاهُ

(٤) وَفَيَاتِ الْأَعْيَانِ (٢/٢٨٥ وَ ٢٨٦).

وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك .

* ثم تقبل على صلاتها، فإذا كان وقت السَّحَر، وطلع الفجرُ قالت : إنَّ هذا الليل قد أدبرَ، وهذا النهار قد أسفرَ، فوعزَّتكَ هذا دأبي ما أحيتني وأعنتني، وعزَّتكَ لو طردتني من بابك، ما برحتُ عنه لما وقع في قلبي من محبتك :

يا سُروري ومُنِيَّي وعمَّادي وأنيسي وعدَّتِي ومُرادي^(١)
* وكانت رابعةٌ إذا دخلتُ في صلاتها اتَّصلت برُبِّها، ونسيتِ الوجودَ مِن حولها، ولم تُعدْ تخفُلُ بمخلوق .

* روي أنَّ سُفيانَ الثَّوري - رحمه الله - قد دخلَ عليها وهي قائمَةٌ تصلي، فلمْ تعرجْ عليه، ودخل جعفر، وكان يخدمُها، فقال لسُفيانَ : أي شيء دارَ بينك وبينها؟

قال : ما كلَّمَتني .

فقال لها : يا سبحان الله الشَّيخُ جاءَ إليك فما كلمتِه؟ !

فقالت : إنَّ العبدَ إذا كان مُقبلاً على الله - عزَّ وجلَّ - كان الله مُقبلاً عليه، وقد كنتُ مُقبلةً على الله، ولستُ أشكُّ في إقباله عليَّ، أو أُقبِلُ على هذا؛ ثمَّ قالت : الله أكبر، ودخلتُ في صلاتها^(٢)!!

* وقال أبو سُلَيْمان الدَّاراني^(٣) - رحمه الله - : بثَّ ليلةً عند رابعة

(١) الرُّوض الفائق، وانظر : شهيدة العشق الإلهي (ص ٢٣).

(٢) شرح مقامات الحريري للشريشي (١٧١/٢).

(٣) «أبو سُلَيْمان الدَّاراني» : عبدُ الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي، الدَّاراني الرَّاهِد المشهور، أحدُ رجالِ الطَّريقة، كان من جَلَّة السَّادات، وأرباب الجِدِّ في المجاهدات. ومن كلامه : من أحسنَ في نهاره كُفِّي في ليله، ومن أحسنَ في ليله كُفِّي في نهاره، ومن صدق في تركِ الشَّهوة ذهبَ اللهُ سبحانه وتعالى بها من قلبه، والله تعالى أكرمُ من أنْ يعذبَ قلباً بشهوةٍ تُركت له.

ومن كلامه : أفضلُ الأعمالِ خلافُ هوى النفس . وله كلامٌ مليحٌ جميل أورده =

العدويّة، فقامت إلى محرابٍ لها، وقمتُ إلى ناحيةٍ من البيت، فلم تزل قائمةً إلى السّحر.

فقلتُ: ما جزاءُ مَنْ قوَّانا على قيامِ هذه الليلة؟

قالت: جزاؤه أن تصومَ له غداً^(١)!!

* والحديث عن العبادة والعُباد ممتعٌ وشائقٌ، يَصْقِلُ التّفوسَ، ويؤنّسُ القُلُوبَ، ويغذّي الأرواحَ برحيقِ الإيمان، فالعبادةُ عند رابعةٍ جزءٌ من كيائها، وجزءٌ مِنْ صَلَاتها الوثيقة بالله - عزَّ وجلَّ - فلا يمكن أن تترك المناجاة والعبادة مهما تكن الطُّروف، إلا لحادثٍ طارىءٍ خارجٍ عن إرادتها.

* يروي السّراج القاريء صاحب كتاب «مصارع العشاق» - هذا الخبر عن عبادة رابعةٍ في حلمٍ رأيته في أحدِ الأيام - بسندٍ له عن مسمّع بن عاصم قال: قالت رابعةُ العدويّة:

اعتلّتُ علّةً قطعَني عن التّهجّد، وقيام الليل، فمكثتُ أياماً أقرأُ جزئي إذا ارتفع النّهار، لما يُذكر فيه أنّه يُعَدَّلُ بقيام الليل؛ ثمّ رزقني الله - عزَّ وجلَّ - العافية، فاعتادتني فترةٌ في عقبِ العلّة، وكنتُ قد سكنتُ إلى قراءةٍ جزئي بالنّهار؛ فانقطع عني قيام الليل.

فبينما أنا ذات ليلةٍ راقدةٌ أُرِيْتُ في منامي كأنّي رُفِعْتُ إلى روضةٍ خضراءٍ، ذاتِ قصورٍ ونبتٍ حَسَنٍ، فبينما أنا أجولُ فيها أتعجّبُ من حسنِها، إذا أنا بطائرٍ أخضرٍ، وجاريةٍ تطارده، كأنّها تريدُ أخذه، فشغّلني حسنُها عن حسنِها، فقلتُ: ما تريدُين منه؟ دعيه، فوالله ما رأيْتُ طائراً قط أحسنَ منه!

قالت: بلى؛ ثمّ أخذتُ بيدي، فأدارتُ بي في تلك الرّوضة، حتى انتهت

= ابن الجوزي في «صفة الصفوة» وابنُ شاکر الکتبي في «فوات الوفيات» توفي سنة (٢٠٥ هـ) - رحمه الله -.

(وفيات الأعيان ٣/١٣١) و(صفة الصفوة ٤/١٩٧ وما بعدها) مع الجمع والتصرف.

(١) شرح مقامات الحريري للشريشي (٢/١٧١ و١٧٢).

بي إلى باب قصر فيها، فاستفتح، ففتح لها، ثم قالت: افتحوا لي بيت
لَمَقَّة؛ ففتح لها باب شاع منه شعاع استنار من ضوء نوره ما بين يدي
وما خلفي، وقالت لي: ادخلي، فدخلت إلى بيت يحار فيه البصير تالؤاً
وحسناً، ما أعرف له في الدنيا شبيهاً أشبه به.

فبينما نحن نجول فيه إذ رُفِعَ لنا باب يُنفذُ منه إلى بستان، فأهوت نحوه
وأنا معها، فتلقنا فيه وُصفاء كأنَّ وجوههم اللؤلؤ، بأيديهم المجامر، فقالت
لهم: أين تريدون؟

قالوا: نريدُ فلاناً، قُتِلَ في البحر شهيداً.

قالت: أفلا تجمرون^(١) هذه المرأة؟

قالوا: قد كان لها حظٌ فتركته.

قالت: فأرسلت يدها من يدي، ثم أقبلت عليّ فقالت:

صَلَاتُكَ نُورٌ وَالْعِبَادُ رُقُودٌ

وَنَوْمُكَ ضِدٌّ لِلصَّلَاةِ عَنِيدٌ

وَعُمْرُكَ غُنْمٌ إِنْ عَقَلْتَ وَمَهْلَةٌ

يَسِيرُ وَيَفْنَى دَائِماً وَيَبِيدُ

ثم غابت من بين عيني، واستيقظت حين تبدى الفجر، فوالله ما ذكرتها
فتوهمتها إلا طاش عقلي، وأنكرت نفسي، قال: ثم سقطت رابعةً مغشياً
عليها^(٢).

* وعادت رابعةً إلى ما عودت^(٣) عليه نفسها من صلاةٍ وقيام، وعبادةٍ

(١) «تجمرون»: تبخرون بالطيب.

(٢) مصارع العشاق (١/٢٠٧ و ٢٠٨).

(٣) يحضرنني قول جرير في هذا المقام:

تَعَوَّدَ صَالِحُ الْأَعْمَالِ إِنْسِي رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَلْزِمُ مَا اسْتَعَادَا

وقول المتنبي:

لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَاتُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي الْعَدَا

ومناجاة. وأخبارُ رابعة في هذا المجال كثيرة لا يتسعُ المقامُ لإيرادها.

رَابِعَةُ وَزُهَادُ عَصْرِهَا وَقَصَصِهِمْ:

* لرابعة العدوية أخبارٌ وضيئةٌ مضيئةٌ مع أعلامِ الزُّهد في عصرها، ولها قَصَصٌ رائعةٌ مع سُفيان الثوري، ورياحِ القيسي، وشيبان الراعي، وخادمتها عبدة، وغيرهم.

* وكان لرابعة لقاءاتٌ لطيفةٌ، وأحوالٌ طريفة، وأخبارٌ خفيفة، مع سُفيان الثوري. قال الشريشي: كان سُفيانُ يذهبُ إليها ويسألُها عن مسائلٍ دينيةٍ ويعتمدُ عليها!!^(١)

* ومن طرائفِ الأخبارِ الزُّهدية ما ورد أنَّ سُفيانَ الثوري قال عندها ذات يوم: واحزننا! فصَحَّحت رابعةً مفهومه ونبهته إلى ما يلفظُ بدقّة، وأشارت إليه أن: لا تكذب، بل قل: واقلة حزننا؛ لو كنتَ محزوناً لم يتهياً لك أن تتنفس^(٢).

* وذات يوم قالت رابعة لسُفيان وهي تعظه وتذكره بالآخرة: يا سُفيان، إنّما أنت أيامٌ معدودة، فإذا ذهبَ يومٌ، ذهبَ بعضُك، ويوشك إذا ذهبَ البعض أن يذهبَ الكلُّ، وأنت تعلمُ فاعمل^(٣).

(١) شرح مقامات الحريري للشريشي (١٧٠/٢).

(٢) انظر: وفيات الأعيان (٢/٢٨٦)، ولنا تعليقات مهمة على مثل هذه القصص والأخبار في الصفحات المقبلة إن شاء الله.

(٣) أعتقدُ أنَّ مثل هذه الأخبار وأشباهاها من صُنْعِ القُصاصِ والمذكّرين وهواة الأخبار، إذ لا تصحُّ مع رجل جليل القدر من مثل سُفيان الثوري. فسُفيان بن سعيد الثوري الكوفي من الأئمة الأعلام، كان إماماً في عِلْمِ الحديث وغيره من العلوم، وأجمع الناس على دينه وورعه وزهده وثقته، وهو أحدُ الأئمة المجتهدين، قال يونس بن عُبيد: ما رأيتُ كوفياً أفضل من سُفيان، وقال بشر بن الحارث: كان سُفيان الثوري كأنَّ العلم بين عينيه، يأخذ منه ما يريد، ويدع ما يريد، وأخباره تملأُ المجلدات الكثيرة، ولد سنة (٩٥ هـ)، وتوفي سنة (١٦١ هـ) - رحمه الله -.

(حلية الأولياء ٣٥٦/٦ وما بعدها) و(وفيات الأعيان ٢/٣٨٦ - ٣٩١) مع الجمع والتصرف، وغيرها كثير جداً.

* وكان سفيان الثوري يشاركها في العبادة، وقد أطلق على رابعة لقب «المؤدّبة»؛ فقال يوماً لأصحابه: هلمّوا بنا نلثمُ بصاحبتنا، فإنّي لا أستريحُ إذا فاتني حديثُها. ولما دخلوا عليها مجلسها رفعَ سفيانُ يده داعياً: اللهم إنّي أسألك السّلامة.

فابتدّرت رابعة بالبكاء، فسألها: ما يبكيك يا رابعة؟

فأجابته وهي تعرّضُ به: أنت السّببُ، لقد عرضتني للبكاء، أمّا علمت أنّ السّلامة تتركُ ما في الدّنيا، وأنت منغمسٌ فيها، متلنّخٌ بها^(١).

* ويبدو أنّ سفيان الثّوري قد أعجب بدرجة العبادة التي بلغتها رابعة، فهو يحكي إحدى وقفات العبادة التي وقفَها فيقول: كنتُ عند رابعة ذات ليلة، فصلينا معاً حتّى مطلع الفجر، وفي الصّباح قالت: علينا أن نصومَ اليومَ شكراً لله على هذه الصّلوات الطّوال التي أقمناها الليلة^(٢).

* وسمعت رابعة سفيان يقول: اللهم إنّي أسألك رضاك، فقالت: تسألُ رضا مَنْ لستَ عنه براص^(٣).

* ولسفيان الثّوري جولاتٌ نُسكٍ وعبادة مع رابعة العدوية، لم تغفلها

(١) انظر: شرح مقامات الحريري للشّريشي (١٧١/٢) بشيء من التصرف.

(٢) كانت رابعة تفيضُ علماً، وقد اعترفَ بعلو كعبها في هذا المجال أحد الرّهاد، حيث روى أنّه مضى مع رابعة في ذكر الله والتّسبيح له، ثمّ أخذوا يجولان فيما آتاها الله من معرفة وفهم لأمر الدين، فأطالا الحديث والمدارسة والتعمّق في أسرار الوجود حتّى نسي الزّاهد المتصوِّف أنّه رجلٌ، وأنّها امرأة، فلمّا انتهيا من الكلام، واستجلاء المرام، أحسّ هو أنّه لم يكن إلا فقيراً، وأنّها كانت غنية بالمعرفة والإخلاص.

أقول: إنّ هذه القصص وأشباهها لا تصحّ ولا يقبلها أدنى مَنْ كانت له معرفة بأحوال العلماء، ولكنّي أذكرها هنا لكي نعرف الغثّ من السّمين، بل ولنعرف مدى بساطة وسداجة أولئك الذين يقتنعون بمثل هذه القصص التي تخالف جوهر الشريعة، ولكن لله في خلقه شؤون!!

(٣) شذرات الذهب (١٥٧/٢) طبعة دار ابن كثير المحققة.

ذاكرةُ المؤلفين؛ وإنّما وعَتْها بين سطورها، وبين طيّات الأخبار التي وصلّتنا عن طريقِ المصادر المتنوّعة في المشارب والمذاهب.

* أوردَ ابنُ خَلْكان أنَّ سفيانَ الثّوري قد لقيَ رابعةَ العدوية - وكانت زرية الحال -، فقال لها: أرى لكِ حالاً رثّةً، فلو أتيتِ جارك فلاناً، لغيرَ بعضٍ ما أرى، وكانت حالُك أحسن!

فقالت رابعةٌ لسفيانَ بكلامٍ يفيضُ حلاوةً وطلاوةً: يا سفيان، وما ترى من سوءِ حالي!! أَلستُ على الإسلام، فهو العُرّ الذي لا ذُلَّ معه، والغنى الذي لا فقرَ معه، والأنس الذي لا وحشةَ معه!!
قال سفيان: بلى يا رابعة.

فقالت رابعةٌ: يا سفيان؛ والله إنّي لأستحيي أن أسألَ الدُّنيا مَنْ يملكها، فكيف أسألها مَنْ لا يملكها!!

فقام سفيان الثّوري متعجباً وهو يقول: والله ما سمعتُ مثلَ هذا الكلام^(١).

* هذا؛ ولقاءاتُ الرُّهْدِ كثيرةٌ بين رابعةَ وسفيانَ، ومن أحلاها ما أوردهُ الذّهبي في «السِّير» قال: استأذنَ ناسٌ على رابعةَ، ومعهم سفيان الثّوري، فتذكروا عندها السّاعةَ، وذكروا شيئاً من الدُّنيا، فلمّا قاموا قالت لخادمتها: إذا جاءَ هذا الشيخ وأصحابه، فلا تأذني لهم، فإنّي رأيْتُهم يحبُّون الدُّنيا.

* ومن أخبار رابعةَ الرّائعةِ ما كان مع رياح بن عمرو القيسي^(٢) العابدِ الزّاهد، وكان بينهما أحوالٌ - وأوْحالٌ - ذكرتها بعضُ المصادر.

* ذكر صاحبُ «المصارع» قصّةً وحواراً بين رابعةَ ورياح القيسي فقال:

(١) عن وفيات الأعيان (٢/٢٨٦) بتصرف يسير جداً.

(٢) قال عنه الإمام الذّهبي - رحمه الله -: رياحُ العابدِ أبو المُهاصر، بصريٌّ زاهد متألّه، كبيرُ القدر، كان خاشعاً بكاءً. قال رياح عن نفسه: لي نيفٌ وأربعون ذنباً، قد استغفرتُ الله لكلّ ذنبٍ مئة ألف مرة.

وذكر الذّهبي أنَّ رياح بن عمرو كان يُسمعُ منه الموعظة ويُغشَى عليه.

نظرتُ رابعةً إلى رِيّاحِ القيسي وهو يقبّلُ صبيّاً من أهلِهِ، ويضمُّهُ إليه،
 فقالت: أتحبُّهُ يا رِيّاح؟ فنظرَ إليها رِيّاح متعجباً وقال: نعم والله، إني أحبُّهُ!
 فقالت رابعةٌ لريّاح وهي تصحّحُ له مفهوم الحبّ الحقيقي: واللهِ
 يا رِيّاح، ما كنتُ أحسبُ أنّ في قلبك موضعاً فارغاً لمحبةٍ غير الله تعالى.
 فصاحَ رِيّاحُ صيحةً عظيمةً، وسقطَ مغشياً عليه، ثمّ أفاقَ وهو يمسحُ
 العرقَ عن وجهه، وهو يقول: رحمة منه تعالى ذكّره ألقاها في قلوب العبادِ
 للأطفال^(١).

* وأوردَ ابنُ الجوزي أخباراً لطيفة وقعت لريّاح القيسي مع رابعة العدوية
 منها: أنّه دخلَ مع جماعةٍ من الرُّهاد على رابعة، فذاكروا الدنيا، فأقبلوا
 يذمّونها، فقالت رابعة: إني لأرى الدنيا بجهاتِ الأربع، وكلُّ ما فيها في
 قلوبكم.

قالوا: ومن أين توهمتِ علينا؟

قالت: إنكم نظرتُم إلى أقربِ الأشياءِ من قلوبكم فتكلّمتُم فيه^(٢).

* ومن أخبارِ رابعة اللطيفة، أنّه قال لها رجلٌ: يا رابعة، إني أحبك في الله!

فقالت: إذا فلا تُعصِ الله الذي أحببتني له. ثمّ أشدتْ:

أَيُضْمَنُ لي فَتَى تَرَكَ المَعاصِي

وأرهنهُ الكَفَالَةَ بالخَلاصِ

(١) مصارع العشاق (١/٢٧٥ و ٢٧٦) بشيء من التصرف؛ وانظر: حلية الأولياء (٦/١٩٤) وسير أعلام النبلاء (٨/١٧٤). وهذا الخبر يخالف السّنة.

(٢) انظر: صفة الصّفة (٤/٢٨ و ٢٩)، ومن الجدير بالذكر أنّ رباحاً هذا كان صديق رابعة في المذهب والرأي والعبادة، وكان دائم البكاء كأنّه في مأتم، فلا يرى إلا والهاً حزينا، فإذا سُئل عما يبكيه قال: يحقُّ لأهل المصائب والخطايا أن يبكوا. وكثيراً ما شوهد هذا التقي التقي واضعاً في رقبتِه قيداً من حديد يشده، وهو يضرع ويتضرع ويدعو الله أن يتقبل توبته وعبادته، حتى يشتدّ عليه الألم بإحساس التدم، ويهجع في مصلاه ليعاود التوسل والابتهاال، بعد أن يصحو من غفوة أو إغماء.

أَطَاعَ اللَّهَ قَوْمٌ فَاسْتَرَأَوْا
ولم يتجرَّعُوا غَصَصَ الْمَعَاصِي^(١)

رَابِعَةٌ وَقَصَصٌ لَا تُثْقَلُ:

* أوردَ أهلُ الأخبارِ قَصَصاً كثيرةً حدثتْ لرابعةٍ مع الرُّهَّادِ والعبَادِ والمتصوفة وغيرهم، غيرَ أَنَّهُ تُوجدُ في بعضِ هذه القَصَصِ مبالغاتٌ وكراماتٌ لا يقبلها العقلُ، ولا يتصورها إنسانٌ، بل ألصقوا بها كراماتٍ لم تحدثْ لِنَبِيِّ!

* ومن تلکم القَصَصِ والأخبارِ ما أورده الشَّيْخُ يُوسُفُ النَّبْهَانِي فِي «جامع كرامات الأولياء» قال: قال المناوي: من كراماتها؛ أَنَّ لَصّاً دخلَ حجرَتها وهي نائمةٌ، فحمل الثَّيابَ، وطلبَ البابَ، فلم يجدْهُ، فوضعها فوجده، فحملها فخفيَ عليه، فأعادَ ذلك مراراً كثيرةً، فهتَفَ به هاتفٌ: دَعِ الثَّيابَ فَإِنَّا نحفظُها، ولا ندعها لك وإن كانت نائمة^(٢)!!!!

* ومنها أَنها زرعتْ زرعاً فوقَ عليها الجرادُ، فقالت: إِنَّ رزقي تكفلتَ به، فَإِنْ شئتَ فأطعمه أعداءك أو أولياءك، فطار الجرادُ كأنَّه لم يكن^(٣)!!

* ومن القَصَصِ الغريبةِ قصَّةُ حجِّ رابعةٍ، حيثُ أُضيفتْ إليها «البهارات والمقَبَّلات» كيما تكونَ أشهى، - وإياك أن تعترضَ فتنطرد - !!.

* لقد جعلَ محبُّو رابعةٍ حجَّها مليئاً بخوارقِ الخَوَارِقِ، وهذا ليس بغريبٍ أو جديدٍ على حياتها، فحياتها منذ ولادتها تصاحبها الكرامة والخوارق - كما رأينا في قصَّة ولادتها من قبل -، وما نُسبَ إليها في قصَّة حجَّتها وزيارتها بيتَ اللَّهِ الحرام لا يقلُّ كرامةً عن ولادتها، وإن شئتَ فقل: لا يقلُّ اختراعاً عن قَصَصِ كراماتها الخيالية.

(١) انظر: شرح مقامات الحريري للشريشي (١٧١/٢).

(٢) جامع كرامات الأولياء (٧١/٢).

(٣) المصدر السابق، وهنا جعلتها القصَّة صاحبة زرع علماً بأنَّها كانت زاهدة فقيرة فتأمل!!

* فأولُ خارقةٍ تخرقُ الأسماعُ ما ذكره النَّبْهاني قال: مرَّتْ رابعةٌ يوماً بشيْبانٍ الرَّاعي^(١)، فقالت له: إِنِّي أريدُ الحَجَّ؛ فأخرجَ لها من جيبِهِ ذهباً لتنفِقَهُ، فمدَّتْ يدها إلى الهواء فامتلاَّتْ ذهباً وقالت له: أنت تأخذُ من الجيبِ، وأنا آخذُ من الغيبِ، فمضى معها على التَّوكلِ !!!...!!!

* ونتابعُ رحلتنا مع حَجَّةِ رابعة، حيثُ يشاركُ فريد الدِّين العطار بإيرادِ الخوارق فيقول: ارتحلتُ رابعةً ذاتَ مرَّةٍ إلى الكعبة، ومعها حِمَارٌ يحمل متاعها، ولكنَّ ذلكَ الحمارَ نفقَ في الطَّرِيق فتقدَّمَ رفاقها في القافلة يريدون حَمَلَ متاعها، إلا أنَّها قد رفضتُ ذلكَ بشدَّة، وقالت لهم: ما كان اتِّكالي عليكم لما أنُ رحلتُ، بل ثِقَتِي باللهِ تعالى.

* ومضتِ القافلةُ في طريقها، وبقيت رابعةٌ وحدها، فنظرتُ إلى السَّماء تدعو اللهَ وتقول: إلهي، أكذا يفعلُ الملوكُ بعبيدهم الضُّعفاء؟! لقد دعوتني إلى زيارة بيتك، وها أنت تدعُ حماري ينفقُ في الطَّرِيق، وتدعني في الفيافي وحيدة؟

* وما أتمت رابعةٌ كلامها حتَّى عادتِ الحياةُ إلى حمارها^(٢)، وانتصبَ أَحسَنَ مما كان، فوضعتُ عليه أمتعتها، وتابعتُ سَفَرها وحيدةً في الطَّرِيق إلى مكة المكرمة حيثُ الكعبةُ الشَّريفةُ.

* وبينما كانت رابعة تُغدُّ السَّيرَ شَعَرَتْ بالوحشةِ، فصاحتُ من أعماقها:

(١) انظر ترجمته في صفة الصفوة لابن الجوزي (٤/٢٦٣ و ٢٦٤) طبعة مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت ط (١٩٩١م).

(٢) جعل الشيخ يوسف النبهاني مكانَ الحمارِ جَمَلاً، ولكن في طريق عودتها من حَجَّها فقال: حَجَّتْ رابعة على بعيرٍ فمات قبل بلوغها لمنزلها، فسألتِ اللهَ أَنْ يحييه فأحياه، فركبته حتَّى وصلَ إلى باب دارها، وخرَّ ميتاً. (جامع كرامات الأولياء ٧١/٢)، ولن أعلِّقَ على هذه القِصَّة، وسأترك ذلكَ للقارئ الكريم لكي يميز الخبيث من الطيب، ويدرك مدى الاستخفاف بالعقول؛ والله المستعان على ما يصفون.

إلهي، إِنَّ قَلْبِي يَضْطَرُّ فِي هَذِهِ الْوَحْشَةِ، أَنَا لَبَنَةٌ وَالْكَعْبَةُ حَجَرٌ، وَمَا أُرِيدُهُ
هُوَ أَنْ أَشَاهِدَ وَجْهَكَ الْكَرِيمَ!!

* وَعَلَى الْفُورِ نَادَاهَا صَوْتُ مِنَ السَّمَاءِ يَقُولُ: يَا رَابِعَةَ، أَتَطْلُبِينَ وَحْدَكَ
مَا يَقْتَضِي الدُّنْيَا بِأَسْرَهَا؟ إِنَّ مُوسَى حِينَ رَأَى أَنْ يَشَاهِدَ وَجْهَنَا لَمْ نُلْقِ إِلَّا ذَرَّةً
مِنْ نُورِنَا عَلَى جَبَلٍ فَخَزَّ صَبْعًا^(١).

* وَيَتَابَعُ الْعَطَّارُ تَعْطِيرَ الْمَجَالِسِ بِهَذِهِ الْخَوَارِقِ، فَيُرْوَى عَنْهَا بِأَنَّهَا وَهِيَ
فِي طَرِيقِهَا إِلَى الْحَجِّ، رَأَتْ الْكَعْبَةَ قَادِمَةً نَحْوَهَا عَبْرَ الصَّحَرَاءِ!!!! فَقَالَتْ:
لَا أُرِيدُ الْكَعْبَةَ، بَلْ رَبَّ الْكَعْبَةِ، أَمَّا الْكَعْبَةُ فَمَاذَا أَفْعَلُ بِهَا؟! وَلَمْ تَشَأْ رَابِعَةَ
أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْهَا.

* وَيَمْضِي الْعَطَّارُ لِإِظْهَارِ مَا لِرَابِعَةَ مِنْ كِرَامَةِ فَيُرْوَى أَنَّ إِبْرَاهِيمَ بْنَ أَدْهَمَ
أَمْضَى أَرْبَعِينَ سَنَةً فِي حَجَّةٍ وَاحِدَةٍ لِيَبْلُغَ الْكَعْبَةَ، لِأَنَّهُ كَانَ يَصَلِّي فِي كُلِّ
خَطْوَةٍ رَكَعَتَيْنِ، وَكَانَ يَقُولُ أَثْنَاءَ ذَلِكَ: غَيْرِي يَسْلُكُ هَذَا الطَّرِيقَ عَلَى قَدَمِيهِ،
أَمَّا أَنَا فَأَسْلُكُهُ عَلَى رَأْسِي!.

* وَالْآنَ - عَزِيزِي الْقَارِئُ - انْتَبِهْ جَيِّدًا، فَقَدْ تَفَوْتُكَ الْفَائِدَةُ. وَاسْتَمِعْ
بَقِيَّةَ هَذِهِ الرِّوَايَةِ الَّتِي تَسْجُجُ مَكْرَمَاتِ عِدَّةٍ لِرَابِعَةَ:

* وَلَمَّا بَلَغَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ الْكَعْبَةَ - بَعْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً - لَمْ يَجِدْهَا فِي
مَكَانِهَا!!، فَقَالَ يَشْكُو: وَأَسْفَاهُ! أَأَظْلَمَ بَصْرِي حَتَّى لَمْ أَعُدْ أَرَى الْكَعْبَةَ؟

* لَكِنَّ حَيْرَةَ ابْنِ أَدْهَمَ لَمْ تَطُلْ، بَلْ يَسْمَعُ صَوْتًا يَنَادِيهِ وَيَقُولُ لَهُ بِلِسَانِ

(١) أَعْتَقْدُ أَنَّ هَذَا اسْتَهْتَارَ بِعُقُولِ النَّاسِ، فِرَاقَةُ لَا تَكَادُ تَنَاجِي رَبَّهَا وَتَطْلُبُ مِنْهُ أَنْ يَحْيِيَ

حِمَارَهَا حَتَّى يَتَحَقَّقَ رَجَاؤُهَا، وَتَقَعُ الْمَعْجِزَةُ، دَرَجَةُ الْإِحْيَاءِ، إِحْيَاءُ «الْحِمَارِ».

لَقَدْ زَادَ الدَّلَالُ عَلَى الْحَدِّ، فَهَلْ كَانَ لِرَابِعَةَ دَرَجَةُ أَسْمَى وَأَعْلَى مِنْ دَرَجَاتِ النَّبِيِّينَ
وَالْمُرْسَلِينَ؟ فَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ - عَلَيْهِمَا السَّلَامُ - لَمْ يَمْنَحْهُ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - الْقُدْرَةَ
عَلَى إِعَادَةِ الْحَيَاةِ لِأَحَدٍ مُطْلَقًا، وَإِحْيَاءِ الْمَوْتَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى
بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠]. فَهَلْ أَتَانَتْ رَابِعَةَ عَلَى مَرَاتِبِ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؟!

نَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَنَسْأَلُهُ السَّلَامَةَ وَصَحَّةَ الْيَقِينِ.

عربي مُبين: يا إبراهيم، لست أعمى ولكنَّ الكعبةَ ذهبتَ للقاءِ رابعة!!

* ويتأثر إبراهيمُ بنُ أدهم أشدَّ التأثر لما يسمع، لكنَّه لم يلبث أن يرى الكعبةَ وقد عادتْ إلى مكانها كما كانت، وفي الوقتِ ذاته يرى رابعة تتقدَّم وهي تتوكأ على عصاها، فيقول لها: أي رابعة، يا جلالِ أعمالك! ثمَّ وما تلك الضَّجة التي تحدثُنها في الدُّنيا، فالكلُّ يقولون: ذهبتِ الكعبةُ للقاءِ رابعة. وتجيئه رابعة: يا إبراهيم، وما تلك الضَّجة التي تثيرها أنتَ في الدُّنيا بقضائك أربعينَ عاماً حتى تبلغَ هذا المكان، فالكلُّ يقولون: إنَّ إبراهيمَ يتوقَّفُ في كلِّ خطوة ليصلي ركعتين؟! فقال إبراهيم: نعم أمضيتُ أربعينَ عاماً أجتازُ هذه الصَّحراء. فقالت رابعة: يا إبراهيم لقد جئتَ أنتَ بالصَّلاة، أما أنا فقد جئتُ بالفقر^(١)!!!

* هذا؛ والأخبارُ والقَصَصُ من هذا النوع لا تُحصى، وتغنصُ بها كثيرٌ من كُتُب الأخبار والمُسامرات، ولكنِّي أوردتُ بضعة نماذج حتى تتوضَّح الصُّورة والهالة التي أحيطتُ بها رابعة العدوية، والتي لا يمكنُ لنا أن نقبلَ بها ما دامتُ تخالفُ كلَّ منطقٍ وكلَّ عقلٍ، بل تخالفُ حقيقةَ الدِّين وجوهره.

إِعْرَاضُهَا عَنِ الزَّوْاجِ:

* يذكر الذين ترجموا لرابعة أنَّها كانت ترفضُ كلَّ مَنْ تقدَّم إليها مَنْ

(١) إنَّ هذه الخوارق وغيرها التي يرويها العطار وغيره، إنَّ هي إلا خيالاتٌ وأوهامٌ لا تدلُّ على عقليةٍ ناضجةٍ، بل إنَّ الحوار الذي دار بين رابعة وإبراهيم بن أدهم حوارٌ سخيْفٌ مختلفٌ، لا يوجد بينه أي ترابط.

والقارئ الكريم يدرك مدى الهزال في الحوار، ويدرك مدى السَّخف والسَّخريَّة من عتابِ كلا الشَّخصين لبعضهما؛ فإبراهيم يمشي أربعينَ سنة للحج، أما هي فقد خفَّتِ الكعبةُ لاستقبالها. يا الله ما أشدَّ هذا السَّخف؟ بل قُلْ: ما أمرُ هذه الحماقة. إنَّ الغريبَ في الأمر أنَّ كثيراً من المتنورين وكثيراً من حاملي بعض الشَّهادات يصدِّقون مثل هذه الأمور وأعظمَ منها؛ ونحن على أعتابِ قرنٍ جديدٍ قد بلغ فيه العلم الذروة! تُرى متى نستطيع فهم الحقائق؟!

الْحُطَّابُ، وَكَانَ مِنْهُمْ عَدَدٌ مِنْ أَعْيَانِ الْعَصْرِ.

* ذَكَرُوا أَنَّ مُحَمَّدَ بْنَ سُلَيْمَانَ بْنِ عَلِيٍّ الْهَاشِمِيَّ أَمِيرَ الْبَصْرَةِ الْمَتَوَفَى سَنَةَ (١٧٣ هـ) قَدْ خَطَبَهَا، فَبَعَثَتْ إِلَيْهِ رِسَالَةً تُعَلِّمُهُ مِنْ خِلَالِهَا أَصُولَ الزَّهْدِ، وَتُخْبِرُهُ أَنَّهَا مُعْرِضَةٌ عَنِ الزَّوْاجِ.

* وَلِنَسْتَمَعَ إِلَى مَا أوردَهُ ابْنُ خَلَّكَانَ عَنْ قِصَّةِ تِلْكَ الْخُطْبَةِ فَقَالَ: كَانَ أَبُو سُلَيْمَانَ الْهَاشِمِيُّ لَهُ بِالْبَصْرَةِ كُلِّ يَوْمٍ غَلَّةٌ ثَمَانِينَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، فَبَعَثَ إِلَى عُلَمَاءِ الْبَصْرَةِ يَسْتَشِيرُهُمْ فِي امْرَأَةٍ يَتَزَوَّجُهَا، فَأَجْمَعُوا عَلَى رَابِعَةِ الْعَدْوِيَّةِ وَأَرْشَدُوهُ إِلَيْهَا.

* فَكَتَبَ أَبُو سُلَيْمَانَ إِلَيْهَا: السَّلَامُ عَلَيْكَ... أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ مَلَكِي مِنْ غَلَّةِ الدُّنْيَا فِي كُلِّ يَوْمٍ ثَمَانُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ، وَلَيْسَ يَمْضِي إِلَّا قَلِيلٌ حَتَّى أَتَمَّهَا مِثْلُ أَلْفِ دِرْهَمٍ، وَأَنَا مُصَيِّرٌ إِلَيْكَ مِنْ بَعْدِ أَمْثَالِهَا، فَأَجِيبِيَنِ إِلَى الزَّوْاجِ.

* فَكَتَبَتْ إِلَيْهِ رَابِعَةٌ تَقُولُ: السَّلَامُ عَلَيْكَ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الزُّهْدَ فِي الدُّنْيَا رَاحَةُ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ، وَالرَّغْبَةَ فِيهَا تُورِثُ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ، فَإِنْ أَتَاكَ كِتَابِي هَذَا فَهِيَءٌ زَادَكَ، وَقَدِّمَ لِمَعَادِكَ، وَكُنْ وَصِيَّ نَفْسِكَ، وَلَا تَجْعَلْ وَصِيَّتَكَ إِلَى غَيْرِكَ، وَصُمْ دَهْرَكَ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ فِطْرَكَ، فَمَا يَسِّرَنِي أَنَّ اللَّهَ خَوْلَنِي أَوْ ضَعَفَ مَا خَوْلَكَ، فَيُشْغِلَنِي بِكَ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَالسَّلَامُ^(١).

* وَتُرْوَى الْمَصَادِرُ حِكَايَاتٍ كَثِيرَةً عَنْ إِعْرَاضِ رَابِعَةٍ عَنِ الزَّوْاجِ، وَمِنْ مُخْتَلَفِ تِلْكَ الْحِكَايَاتِ وَالرَّوَايَاتِ يَتَبَيَّنُ لَنَا أَنَّهَا لَمْ تَتَزَوَّجْ، وَإِنْ كَانَتْ خُطِبَتْ بَضْعَ مَرَّاتٍ، فَكَانَتْ تَرْفُضُ كُلَّ مَنْ تَقَدَّمَ لَذَلِكَ.

* وَقَدْ رَفَضَتْ رَابِعَةٌ عَبْدَ الْوَاحِدِ بْنِ زَيْدِ الْبَصْرِيِّ الْمَتَوَفَى سَنَةَ (١٧٧ هـ)، وَكَانَ زَاهِدًا عَالِمًا مُتَصَوِّفًا عَالِي الشَّانِ، فَهَجَرَتْهُ، وَحُجِبَتْ عَنْهَا أَيَّامًا، وَلَمْ تَسْتَقْبَلْهُ إِلَّا بَعْدَ أَنْ شَفَعَ لَهُ إِخْوَانُ عِنْدَهَا، وَلَمْ تَكُنْ تَشَاءُ أَنْ تَرَاهُ لِأَنَّهَا مُسْتَفْظَعَةٌ لِأَقْدَامِهِ عَلَى خُطْبَتِهَا، وَإِزْمَاعِهِ عَلَى زَوَاجِهَا، وَأَرْسَلَتْ إِلَيْهِ تَوْنِبَهُ وَتَلُومَهُ، لِأَنَّهُ يَرِيدُ أَنْ يَصْرِفَهَا عَمَّا أَخَذَتْ بِهِ نَفْسُهَا مِنَ الْعِبَادَةِ وَالتَّقَرُّغِ

(١) وَفِيَاتِ الْأَعْيَانِ (٢٨٦/٢) بِتَصْرِفٍ يَسِيرٍ.

إلى الصَّلَاة والتَّسْك، وكان ممَّا قالت له: يا شهواني، اطلب شهوانية
مثلك؛ أي شيء رأيتَ فيَّ من آلة الشهوة^(١)؟!

* لقد كان انصرافُ رابعة عن الدُّنيا وعن الزَّواج ظاهرةً واضحةً وُغرةً
لامعةً في حياتها، حيث انتظمت رابعةً في سلكِ العُرَّاب الرُّهَّاد، وحكمتُ
على نفسها بالوحدة، بل اعتبرت ذلك من بابِ الأُنس بالله؛ ولذلك فإنَّها
كانت من أشدَّ الرُّهَّاد انصرافاً عن متاع الدُّنيا، وزهدت في كلِّ شيءٍ، وهي
المرأة التي يمكن أن تغريها المفاتنُ، وتستهوئها زينةُ الحياة الدُّنيا، فلم
تحفلُ بشبابِ العمر، ولا بمطالِبِهِ، وإنَّما وهبتُ عمرها إلى العبادة والتَّسْك،
واستمتعتُ بلباسِ التَّقوى والإيمان ومداومة الذِّكر والشُّكر.

* وكانت رابعةً تعرضُ عن الزَّواج، بل عن فكرته أيضاً، وتجيَّبُ من
يسألها بأنَّها لا تقدِّرُ على أن تقومَ بأعباءِ الزَّوجية، فقد سُئِلت: لماذا
لا تتزوجين؟

فقالت: هناك ثلاثة أشياء سببَ الهمَّ عندي، فإذا وُجِدَ مَنْ يخلِّصني منها
تزوَّجتُ!

ف قيل لها: وما هي هذه الأشياء؟

ف قالت: الأوَّل: هل إذا مُتُّ أستطيعُ أن أتقدمَ بإيماني طاهراً؟

والثَّاني: إذا كنتُ سأعطى كتابي بيمينِي يومَ القيامة.

والثَّالثُ: إذا جاء يومُ البعثِ، وأُخِذَ أصحابُ الميمنةِ إلى الجنةِ، وأصحابُ
المشأمةِ إلى السَّعيرِ، فمن أي الفريقين سأكون؟!

ف قيل لها: لا نعرف شيئاً عمَّا سألتَهُ، إنَّما علِّمهُ عند الله.

(١) انظر: شرح مقامات الحريري للشَّريشي (١٧٠ / ٢) بشيءٍ من التَّصرف. هذا وقيل:

إنَّ رابعة قد أنشدت أبياتاً حينما عُرضَ عليها أن تتزوج، ومطلعها:

راحتي يا إخوتي في خلوتي وحببي دائماً في حضرتي

(انظر ذلك في فقرة: شاعرة الرَّاهدات).

هنالك قالت رابعة: إذا كان الأمر كذلك وأنا في قلقٍ من هذه الأشياء،
كيف أحتاجُ إلى الزوجِ وأتفرَّغُ له؟!!

* وهكذا امتنعتُ رابعةً عن الزَّواج الذي هو أمنيَّةُ المرأة، - بل كلَّ
امرأة - وبغيَّتها في الحياة، وأملُها التي تنتظره؛ نعم أبَّت رابعة الزَّواج لترضي
نزعةَ نفسها بالانقطاع إلى الله، والارتفاع بالروح عن غريزةِ الجسد، بحيث
اعتبرتُ أنَّ الزَّواجَ انشغالاً عن ذكر الله والتماس مرضاته^(١).
شاعرةُ الزَّاهدات:

* ليس غريباً أن تنطقَ رابعةٌ بالشعر، إذ فاضَ قلبُها بالأحاسيس، فجاء
ذلك ترجمةً على لسانها شعراً جميلاً يداعِبُ الوجدان؛ ويدغدغُ الإحساس.
* وإنَّ القصائدَ والمقطَّعات التي وصلَّتنا عنها، ونُسبتُ إليها، لتشيرُ إلى
شاعريتها العذبة في مجال التصوف والزهد، كما تشيرُ إلى الكلمات التي
ترشحُ بعبيرِ الحبِّ للذاتِ الإلهية، أو العشقِ الإلهي^(٢)، أو ما شابه ذلك،
وإنَّ رأيَنا في بعضها الشُّطط عن طريق الزَّهد، من ذلك قولها:
إِنِّي جَعَلْتُكَ فِي الْفَوَادِ مُحَدَّثِي
وَأَبْحَثُ جِسْمِي مَنْ أَرَادَ جُلُوسِي

(١) هذا رأيٌ يُمثِّل رأيَ رابعة العدوية وحدها، ورأي مَنْ شاكلها من الزَّهاد والمتصوفة
والمُتفلسفة، إنَّما السُّنَّة المتواترة أن يتزوَّج الإنسان، ويقتدي بسيدِّ الأنام محمد ﷺ
الذي علم هذا الهدي أصحابه ليكونوا على سُنَّته، ونعى على الذين أرادوا العزوفَ
عن هذه السُّنَّة الكونية التي تعمُرُ الدنيا، وتجعل فيها الحركة، ولا يُلْتَمِثُ لهذه
الآراء المنعزلة التي تدعو إلى البعد عن الزَّواج.

(٢) «العشقُ الإلهي»: «العشق»: قال الفيروز أبادي: العشق والمعشق، كمقعد: عُجِبَ
المحبُّ بمحبوبه: أو إفراط الحبِّ، ويكون في عفافٍ أو دعاة، أو عمى الحسِّ عن
إدراك عيوبه، أو مرض وسواسي يجلبه إلى نفسه بتسليط فكره على استحسان بعض
الصُّور، عشقه عشقاً، فهو عاشق، وهي عاشق وعاشقة. (القاموس المحيط
ص ١١٧٤) مادة (عشق). ومن الجدير بالذكر عزيزي القارئ أن لفظ «عشق» لم
يرد في القرآن الكريم، حتى هذه الحروف (عشق) لم تردْ مطلقاً.

فالجِسْمُ مِنِّي للجلِيسِ مُؤَانِسٌ
وَحَيْبُ قَلْبِي فِي الْفُؤَادِ أُنَيْسِي
* وسأترك هذين البيتين للقارئ الكريم كيما يفهمهما كيف شاء، وإن
كَانَ بَعْضُ مَنْ تَحَدَّثَ عَنْهَا أَشَارَ إِلَى أَنَّ قَوْلَهَا هَذَا فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَتْ ذَاتُهُ .

* إِلَّا أَنَّ ظَاهَرَ الْبَيْتَيْنِ يَدْلَانِ عَلَى التَّنَاقُضِ بَيْنَ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ، إِذْ تَزْعُمُ
رَابِعَةٌ أَنَّهَا مَنَحَتْ قَلْبَهَا لِلَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَأَبَاحَتْ جِسْمَهَا لِلْجَلِيسِ، وَمِثْلُ هَذَا
الْقَوْلِ لَا يَصْدُرُ عَنْ امْرَأَةٍ صَالِحَةٍ تَدْعِي الْفَضْلَ وَالطَّهَرَ، بَلْ وَلَا يَصْدُرُ عَنْ
غَيْرِ صَالِحَةٍ، لِأَنَّهُ تَصْرِيحٌ صَرِيحٌ بِإِبَاحَةِ الْجِسْمِ لِلْجَلِاسِ .

* وَلَكِنِّي أوردُ لَهَا هَذَيْنِ الْبَيْتَيْنِ، فَهُمَا أَقْرَبُ إِلَى النَّفْسِ مِنْ حَيْثُ
الْمَعْنَى، فَقَدْ قَالَتْ فِي الذَّاتِ الْإِلَهِيَّةِ :

حَيْبٌ لَيْسَ يَعْدِلُهُ حَيْبٌ وَمَا لِسَوَاهِ فِي قَلْبِي نَصِيبٌ
حَيْبٌ غَابَ عَنْ بَصْرِي وَشَخْصِي وَلَكِنْ عَنْ فُؤَادِي مَا يَغِيبُ
* وَمِمَّا نُسِبَ إِلَى رَابِعَةٍ فِي التَّبَتُّلِ ^(١)، وَحَبَّ اللَّهُ - عَزَّ وَجَلَّ - وَالْبَعْدَ عَنْ
الذَّاتِ، وَاللَّجُوءَ إِلَى الْعِزْلَةِ وَالْوَحْدَةِ، لَكِي تَسْعَدَ بِمَنَاجَاةِ خَالِقِهَا؛ هَذِهِ
الْأَبْيَاتُ الطَّرِيفَةُ اللَّطِيفَةُ الْحَفِيفَةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى ذِكْرِ الْوَصْلِ وَمَا أَشْبَهَهُ :

رَاحَتِي يَا إِخْوَتِي فِي خَلُوتِي وَحَبِيبِي دَائِمًا فِي حَضْرَتِي
لَمْ أَجِدْ لِي عَنْ هَوَاهِ عِوَضًا وَهَوَاهُ فِي الْبَرَايَا مَحْتَتِي
حَيْثُمَا كُنْتُ أَشَاهِدُ حُسْنَهُ فَهُوَ مُحَرَّابِي إِلَيْهِ قِبْلَتِي
إِنْ أُمْتُ وَجَدًا وَمَا تَمَّ رِضًا وَاعْنَائِي فِي الْوَرَى وَاشْقَوَتِي
يَا طَيِّبَ الْقَلْبِ يَا كُلَّ الْمُنَى جُدْ بَوْصِلٍ مِنْكَ يَشْفِي مَهْجَتِي
يَا سُرُورِي وَحَيَاتِي دَائِمًا نَشَأْتِي مِنْكَ وَأَيْضًا نَشَوْتِي
قَدْ هَجَرْتُ الْخُلُقَ جَمْعًا أُرْتَجِي مِنْكَ وَصَلًا فَهُوَ أَقْصَى مَنِيَّتِي
* وَلَعَلَّهُ مِنَ الْفَائِدَةِ أَنْ أَشِيرَ - هُنَا - إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْقَصِيدَةَ قَدْ أُغْرِمَ بِهَا أَهْلُ

(١) ظهر في القرن الثاني الهجري شواعر متزهديات متبتلات مثل رابعة ضيفة حلقتنا،
وريحانة، وحيونة، وميمونة الزاهدة، وهذه الأخيرة من المتزهديات المتنسكات .

التَّصَوِّفَ، بَلْ أُغْرِمَ بِهَا كَثِيرٌ مِنَ الْمَشْتَغَلِينَ بِالْأَدَبِ وَالشُّعْرِ وَفَنِّ الْكَلِمَةِ،
فَمِنْهُمْ مَنْ شَطَّرَهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ خَمَّسَهَا، وَمِنْهُمْ مَنْ ضَمَّنَ بَعْضاً مِنْهَا فِي
أَشْعَارِهِ، وَمَنْ أَجْمَلَ مَا قَرَأْتُ هَذَا التَّخْمِيسَ اللَّطِيفَ الَّذِي خَمَّسَهُ الْأَدِيبُ
الْمِفْهُ: أَبُو الْعَزْمِ السَّمَّانُ الْحَمَوِيُّ الْحُسَيْنِيُّ حَيْثُ قَالَ:

لِي حَيْبٌ فِيهِ عِزَّةٌ نَشَأْتُ
وَتَسَامَتْ فِي هَوَاهُ شُهُرَتِي
مَعَ سِوَاهُ مَا صَفَتْ لِي رَاحَتِي
رَاحَتِي يَا إِخْوَتِي فِي خُلُوتِي وَحَبِيبِي دَائِماً فِي حَضْرَتِي
فَبِذَا حُكْمُ حَبِيبِي لِي قَضَى
وَأَنَالَ الصَّابَ فَوْزاً وَرَضَا
نَوْرُهُ فِي مَهْجَتِي لَمَّا أَضَا
لَمْ أَجِدْ لِي عَنْ هَوَاهُ عِوَضَا وَهَوَاهُ فِي الْبَرَايَا مِخْنَتِي
وَامْتِحَانِي فِي حَيَاتِي إِنَّهُ
بَغْرَامِي لِي حَبِيبِي سَنَّهُ
وَهِيَامِي زَائِدٌ لَكُنْهُ
حَيْثُمَا كُنْتُ أَشَاهِدُ حُسْنَهُ فَهُوَ مُحَرَابِي إِلَيْهِ قِبْلَتِي
لَمْ أَكُنْ مَا عَشْتُ عَنْهُ مُعْرِضَا
لَا وَلَا أَخْتَارُ عَنْهُ عِوَضَا
صَاحَ قَلْبِي وَبِهِ نَارُ الْعَضَا
إِنْ أُمْتُ وَجِداً وَمَا تَمَّ رِضَا وَاعْنَائِي فِي الْوَرَى وَاشِقُوتِي
يَا جَمِيلاً حُسْنُهُ هَيَّئْنَا
وَبَنِيرَانِ الْهَوَى أَحْرِقْنَا
يَا حَبِيباً لَيْسَ لِي عَنْهُ غِنَى
يَا طَيْبَ الْقَلْبِ يَا كُلَّ الْمُنَى جُدْ بَوْصِلٍ مِنْكَ يَشْفِي مَهْجَتِي
لَسْتُ فِي غَيْرِكَ رُوحِي هَائِماً
وَبِأَعْتَابِكَ دُمْتُ الْقَائِماً
لَمْ أَطْعُ وَاشٍ تَبَدَّى لَائِماً

يا سُروري يا حَيَّاتي دائِماً نَشأتِي مِنْكَ وأيضاً نَشوتِي
 وأنا مِنْ غَيْرِكُمْ لا أرتجِي
 نفحةً تفتحُ بابَ الفَرَجِ
 ها أنا جئتُ إليكم ألتجِي
 قد هجرتُ الخلقَ جمعا أرتجِي مِنْكَ وصلاً فهو أَقصى مَنيتِي

* ولعل من أشهر ما يُنسَبُ لسيِّدة المتصوِّفات، وخنساء المتزهِّدات رابعة العدوية، تلك القصيدة الكافية الشهيرة التي ظهرت فيها العواطفُ الصَّوفِيَّةُ المتموِّجةُ، والتي جعلتُ كثيراً من الشعراء الصَّوفِيِّين - فيما بعد - ينسجون على منوالها، بينما أُغْرِمَ بعضهم بها غراماً شديداً، وأخذَ في تخميسها وتشطيرها وتضمينها في أشعاره، لما تحمله من معانٍ متعدِّدة في طرق التَّصوف والزَّهد، وربما ردها بعضهم في مجالس الذِّكْرِ والإنشاد، والأبيات هي:

أحُبُّكَ حُبَّيْنِ حَبَّ الهوى	وَحُبَّاً لَأَنْتَ أَهْلٌ لَذَاكَ
فأَمَّا الَّذِي هو حُبُّ الهوى	فَشُغِّلِي بِذِكْرِكَ عَمَّن سِوَاكَ
وأَمَّا الَّذِي أَنْتَ أَهْلٌ لَهُ	فَكَشِفْكَ لِلْحُجُبِ حَتَّى أَرَاكَ
فلا الحمدُ في ذا ولا ذاكَ لي	ولكنْ لَكَ الحمدُ في ذا وَذَاكَ ^(١)

(١) شاعراتُ العرب (ص ١٢٦)، وشرح المقامات الحريري (٢/ ١٧١)، وقد نَسَبَ هذه الأبيات الأصبهاني إلى آدم بن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وهو من مخضرمي الدولة الأموية والعباسية، وهو قَبْلُ رابعة أيضاً، وقد أوردَها الأصبهاني على هذا النحو الآتي في الأغاني (١٥/ ٢٨٩)؛ حيث يقولها في الغزل الصوفي بعد أن تاب وتَنَسَّكَ:

أحُبُّكَ حُبَّيْنِ لِي وَاحِدٌ	وَآخِرُ أَنْتَ أَهْلٌ لَذَاكَ
فأَمَّا الَّذِي هو حُبُّ الطَّبَّاعِ	فَشَيْءٌ خُصِصَتْ بِهِ عَنْ سِوَاكَ
وأَمَّا الَّذِي هو حُبُّ الجمالِ	فَلَسْتُ أَرَى ذَاكَ حَتَّى أَرَاكَ
ولسْتُ أَمِنُ بِهَذَا عَلَيْكَ	لَكَ الْمُنُّ فِي ذَا وَهَذَا وَذَاكَ

وانظر ترجمة آدم بن عبد العزيز في الأغاني (١٥/ ٢٨٦ - ٢٩٧).

هذا وقد ذَكَرَ جماعةٌ منهم: أبو طالب المكي، والإمامُ الغزالي، والسَّيد المرتضى =

* ويبدو أنَّ هذه الأبيات قد أضحَتْ قِبَلَةَ قَصَادِ التَّصَوُّفِ ^(١) لجماعة المتصوّفين، بل والمتصوّفات مِنَ النِّسَاءِ فيما بعد، وأخذن ينسجَنَ على منوالها ما يروقُ لهنَّ أَنْ ينسجوه، كيما يلحقنَ برابعةً في هذا المجال الذي بلغت فيه الجوزاء - كما زعموا -.

* ويؤيِّدُ ما قلناه، ما ذكرته بعضُ الرّوايات عن ذي الثُّون الصّوّفي ^(٢)

= الرّبيدي، أنَّ لرابعة أربعة أبيات هي: أَحَبَّكَ حَبَّيْنِ حَبَّ الهوى . . الخ. ويبدو أنَّ رابعة اقتبستها منه.

(١) كان الخطُّبُ في التّلبس بالدِّين، والتّشدد في العبادة، والتّناغي بالآخرة، واطراح الدنيا، من السَّهل على المجتمع الإسلامي لو انحصر في أفرادٍ بعينهم، ولكنّه تعدّى إلى العوام، والعوام في كلّ عَصَرٍ ومصرٍ لا يقيمون للحقائق وزناً، ولا يهشّون إلا لما تزيّنه لهم ظواهرُ المحسوسات، وهم أقربُ الطّبقات إلى غلطِ الحِسِّ، والمغالطة في النّافع والضّار، ولقد أطلقَ على مَنْ أخذوا أنفسهم بهذه الطّريقة: لقب الصّوفية والمتصوّفة، وأطلقوا على عِلْمِهِم اسم: التّصوّف، وذلك نسبةً إلى الصّوف الذي كانوا يلبسونه، أو إلى «سوف» اليونانية، ومعناها: الحكمة؛ أو إلى رجلٍ يُقال له: صوفة، كان في الجاهلية هو وأصحابه ممن انقطعوا إلى الله، ولزموا الكعبة، فقالوا لمن تشبّه بهم: الصّوفي.

هذا؛ وقد مرّ معنا قول أبي الفتح البستي - رحمه الله -:

تنازع النَّاسُ في الصّوفي واختلفوا فيه وظنّوه مشتقاً من الصّوف
ولسْتُ أنحلُّ هذا الاسم غير فتى صافى فصّوفي حتى لُقّب الصّوفي
وقال أبو العلاء المعري:

صُوفية ما ارتضوا للصّوفِ نسبتهُم حتى ادعوا أنّهم من طاعة صُوفوا
(٢) «ذو النون»: أبو الفيض، ثوبان بن إبراهيم، وُلِدَ بإخميم على شاطئ التّيل بالصعيد، وهو أحد رجال الطّريقة، وواحدُ وقته، ومن كلامه: علامةُ محبِّ الله متابعةُ الرّسول ﷺ في كلّ ما أمر به. ومن بدائع أقواله: بصحبة الصّالحين تطيبُ الحياة، والخير مجموع في القرين الصّالح؛ إن نسيّت ذكرك، وإن ذكرت أعانك. ومن أقواله أيضاً: ما خلق الله - عز وجل - على عبدٍ من عبّيده خِلعةً أحسنَ من العقل، ولا قلده قلادة أجملَ من العِلْم، ولا زينةً بزينة أفضلَ من الحلم، وكمال ذلك كله التّقوى. وله نظم منه:

الزاهد المشهور أنه قال: بينما أنا أسيرُ على ساحلِ البحر، إذ بصرتُ بجاريةٍ عليها أطمار شعر، وإذا هي ناحلةٌ ذابلةٌ، فدنوتُ منها لأسمعَ ما تقول، فرأيتها متصلةً الأحزانِ بالأشجان، ثم قالت: سيدي! بكَ تقربَ المتقربون في الخلوات، ولعظمتك سبَّحتِ النِّنانُ^(١) في البحارِ الزَّاحرات، ولجلالِ قدسك تصافقتِ الأمواجُ المتلاطِمتات؛ أنتَ الذي سجدَ لك سوادُ الليل، وبياضُ النَّهار، والفلَكُ الدَّوار، والبحرُ الرَّخَّار، والقمرُ النَّوَّار، والنجم الزَّهار، وكل شيء عندك بمقدار، لأنك الله العليُّ القهار:

يا مُؤنِّسَ الأبرارِ في خلَّواتِهِم يا خَيْرَ مَنْ حَطَّتْ بِهِ الثُّرَّالُ
مَنْ ذاقَ حَبَّكَ لا يَزَالُ مَتِيماً مَرِحَ الفُؤادُ يَعودُهُ بِلْبَالُ
مَنْ ذاقَ حَبَّكَ لا يُرى متبسِّماً مِنْ طُولِ حَزَنِ في الحشا أشْعَالُ
فقلتُ لها: مَنْ تريدِين؟

فقلت: إليك عني، ثم رفعتُ طرفها نحو السَّماء، فقالت:
أحْبُكَ حُبِّينِ حُبِّ الهوى... .. الأبيات الأربعة...
ثم شهقتُ شهقةً، فإذا هي قد فارقتِ الحياة، فبقيتُ أتعجَّبُ ممَّا رأيتُ منها، فإذا أنا بنسوةٍ قد أقبلن، وعليهن مدارعُ الشَّعر، فاحتملنَّها، فغَيَّبَنَّها عني، فغسلنَّها، ثمَّ أقبلنَ بها في أكفانها، فقلن لي: تقدِّم فَصِّلْ عليها. فتقدَّمتُ، فصليتُ عليها وهنَّ خلفي، ثمَّ احتملنَّها ومضين^(٢).

= صَغِيرُ هَوَاكَ عَذْبَنِي فكِيفَ بِهِ إِذَا احْتَنَكَا
وَأَنْتَ جَمَعْتَ مِنْ قَلْبِي هَوًى قَدْ كَانَ مُشْتَرَكَا
قال عنه السيوطي في «حُسن المحاضرة»: كان أوحده وقته علماً، وورعاً، وحالاً، وأدباً، مات في ذي القعدة سنة (٢٤٥ هـ) وقد قارب التسعين، وأخباره كثيرة مجموعة في كتب التراجم وقد توسع ابن الجوزي في «صفة الصفوة» بترجمته وأخباره. (شذرات الذهب ٣/ ٢٠٦ و ٢٠٧) و(صفة الصفوة ٤/ ٢٢٢ - ٢٢٧).

(١) «النِّنان»: الحيتان، مفردهما: نون وجمعها: نينان وأنوان. وذو النون: لقب نبي الله يونس عليه السلام.

(٢) عن مصارع العشاق (١/ ٢٧٤ و ٢٧٥) بتصرف يسير جداً، ونلاحظ من القصَّة كيف =

* ومن روائع شعر رابعة - الذي ينسب إليها - في العمل ليوم المعاد،
ورجائها رحمة الله قولها:

وَزَادِي قَلِيلٌ مَا أَرَاهُ مُبْلَغِي
أَلَلْزَادِ أَبْكِي أَمْ لَطُولِ مَسَافَتِي
أَتَحْرِقُنِي بِالنَّارِ يَا غَايَةَ الْمُنَى
فَأَيْنَ رَجَائِي فِيكَ أَيْنَ مَحَبَّتِي ^(١)

* إِنَّ الْمَتَبَّعَ لشعر رابعة يجد فيه طابعَ التَّكَلُّفِ، بل إِنَّ الْمَتَمَرِّسَ بالشَّعْرَ يجدُ أَنَّهُ منسوبٌ لرابعة، أو منحولٌ، أو مصنوعٌ، وربما قيل كيما يُنشد في حلقات الذكر، والتَّنَافُسِ في مجالس الزَّهَادِ، وأعتقدُ أَنَّ أَكْثَرَ مَا نُسِبَ إِلَيْهَا من شِعْرِ كَانَ لتزيين سيرتها في أندية الوعَاظِ، وأهل التَّصَوُّفِ ممن يطربون لمثل هذه الأشعار والأناشيد التي تموجُ بالمناجاة والابتهالِ، وتفيضُ بالعاطفة الشَّفافَةِ في الحُبِّ الإلهي - كما يزعمون -، وأحياناً في الغزل والتورية في ذكرِ المحبوب، ومن التماذج على مصداق ما قلناه هذه الأبيات التي تدلُّ على الوَلَهِ والحُبِّ والتَّيَمِّمِ حيث تقول:

كأسي وخمري والتَّديمُ ثلاثة	وأنا المشوقةُ في المحبَّةِ رابعه
كأسُ المسرَّةِ والتَّعيمُ يديرُها	ساقِي المُدَامِ على المديِّ مُتَّابِعِه
فإذا نظرتُ فلا أرى إلاَّ له	وإذا حَضَرْتُ فلا أرى إلاَّ معه
يا عاذلي إنِّي أحبُّ جماله	تالله ما أذني لعدلك سامعه
كم بثُّ من حُرقي وفرطِ تعلُّقي	أجري عُيُوناً مِنْ عُيُونِي الدَّامِعِه
لا عَبَّرْتِي تَرْقاً ولا وَصَلِي له	يَيْقَى ولا عَيْنِي القريحة هاجعه

* ولعلَّ من أشهر ما يُنسب إليها في العشق الإلهي هذه الأبيات الشهيرة المشهورة:

فَلَيْتَكَ تَحَلُّوْا وَالْحَيَاةُ مَرِيرَةٌ وَلَيْتَكَ تَرْضَى وَالْأَنَامُ غَضَابُ

= قُلِّدَتْ هذه المرأة رابعة العدوية. ولكنني أميلُ إلى أَنَّ هذه الْقَصَصَ وأشباهها مصنوعة للتسلي والتحلِّي في المجالس، والله أعلم!

(١) صفة الصفوة (٤/٣٠٢).

وَلَيْتَ الَّذِي بَيْنِي وَبَيْنَكَ عَامِرٌ وَبَيْنِي وَبَيْنَ الْعَالَمِينَ خَرَابٌ
إِذَا صَحَّ مِنْكَ الْوُدُّ فَالْكُلُّ هَيِّنٌ وَكُلُّ الَّذِي فَوْقَ الثُّرَابِ تَرَابٌ^(١)

* هذا؛ ويمكننا أن نقول: هناك أشعارٌ تصحُّ نسبتُها إلى رابعة، منها قصيدتها الدَّالية التي نهجت فيها نهجَ أهل الزُّهد، وأصحاب الورع في القرن الهجري الثاني الذي غصَّ بالزَّاهدين والزَّاهدات^(٢)، والأبيات هي:

يا سُروري ومُنيتي وعمادي	وأنيسي وعدتي ومُرادي
أنتَ روحُ الفؤادِ أنتَ رجائي	أنتَ لي مُؤنسي وشوقُ زادي
أنتَ لولاكَ يا حياتي وأنسي	ما تشئتَ في فسيحِ البلادِ
كم بدتَ مِنَّةً وكم لكَ عندي	منُ عطاءٍ ونعمةٍ وأيادِ
حبُّكَ الآنَ بغيتي ونعيمي	وجلاءٌ لعينِ قلبي الصَّادي
ليس لي عنكَ ما حييتُ براح	أنتَ مِنِّي مُمكنٌ في الفؤادِ
إن تكنَ راضياً عني فإنِّي	يا مُنى القَلْبِ قد بدا إسعادي ^(٣)

* ومن الواضح أنَّ تلكم الأبيات تشتملُ على ذِكرِ محبةِ الله - عزَّ وجلَّ - والسرورِ بأنسه، والاعتمادِ عليه، كما تظهرُ في الأبياتِ اعترافات رابعة بمِنَّةِ الله ونعمه عليها، وأنَّ حبه جلاءٌ لصداً قلبها، ورضاءه ضرورةُ سعادتها، وهذه المعاني مألوفة في عالم الزَّاهدين وعالم الورعين في عصر رابعة.

(١) هذه الأبيات المنسوبة لرابعة العدوية، هي من قصيدة طويلة مشهورة لأبي فراس الحمداني الشَّاعر الفارس المشهور، وهي في ديوانه، ولكنَّ معانيها الرائقة سولت لبعض محبي رابعة أن ينسبها إليها، والله في خلقه شؤن، وللناس من بعض الناس حظوظ!!

(٢) إننا نجد في هذا القرن أيضاً عدداً كبيراً من النساء الزَّاهدات القانتات اللاتي تجردن لله، وعكفن على العبادة والتَّهجد، نجدُ منهنَّ غير رابعة: ريحانة، وحيونة، ورابعة الشَّامية، وسلمونة، وميمونة، وأخواتُ بشر الحافي وهن: مضغة ومخة وزبدة، وغيرهن كثيرات ذكر عدداً منهن أبو الفرج ابن الجوزي في كتابه «صفة الصفوة» فليراجع.

(٣) انظر: الروض الفائق (ص ١١٧) طبعة القاهرة سنة (١٣٠٤ هـ).

* هذا؛ والمجال هنا لا يتسعُ أنْ نوردَ الأشعارَ التي نُسِبتْ إلى رابعةِ العدوية، ولكن فيما أوردناه غلّةٌ للصّديان، وزاداً لمن أرادَ المسيرَ إلى أطلالِ المتصوّفات ومُترَبِّعِ الرّاهدات، كي يرتعَ في نعيمِ تصوفهن، ويقتعد سدةً زهدهن، ويسمر مع تَبَتِّلِهِنَّ ومناجاتهن مع مولا هُنَّ.

قَلَّيْدُ مَنْ جُمَانَ حِكْمِهَا:

* تركت رابعةُ العدوية - رحمها الله - أقوالاً نفيسةً في دنيا الحكمة، هي أَفْتَنُ للأسماع، من مُطْرِبِ السَّماع، وألذّ في الألباب، من مُنْجَاةِ الأحاب. * إنَّ جُلَّ أقوالِها تشير إلى تمسكها بالمنهج الذي اختطته لطريق حياتها، ألا وهو الرُّهد الممزوجُ بشيءٍ من التّصوّف والتّسك والحبّ والمناجاة.

* وتوضّحُ حكمتها أكثر عندما نسمعُ إليها وهي تعظُ مَنْ يسألها، أو تهديه بعضَ الملاحظات التي تصحح المفاهيم، وذلك حسب معرفتها للرّهد، وحبّ الله - عزّ وجلّ -.

* قال رجلٌ ذات مرّةٍ لرابعة: يا أمّ الخير، إنّي أحبّك في الله، وهنا أجابته رابعة إجابةً الحكمة إذ وجهته فيها للطاعة الحقيقية فقالت: إذا؛ فلا تَعْصِ الذي أحببتني له.

* وقالت امرأةٌ لرابعة: إنّي أحبّك في الله؛ فقالت رابعة: أطيعي مَنْ أحببتني له.

* وسُئِلت: متى يكونُ العبدُ راضياً؟

فقالت: إذا سرّته المصيبة، كما سرّته النّعمة^(١).

* ومن فرائدِ حكمها الجليلة قولها في وصفِ الدّنيا: لو كانت الدّنيا لرجل ما كان بها غنياً.

قيل: كيف؟!

(١) الطّبقات الكبرى للمناوي (ص ٤) مخطوط.

قالت : لأنها تفنى^(١) .

* ومن نفائس أقوالها في الاستعانة على كتمان الحسنات ، هذه الحكمة اللطيفة الخفيفة : اکتُموا حسناتکم كما تکتُمونَ سيئاتکم .

* إِنَّ الإِعْرَاضَ عَنِ الدُّنْيَا نِجَاةٌ وَرَاحَةٌ ، أَمَّا حُبُّهَا فَهُوَ رَأْسُ كُلِّ نَصَبٍ وَتَعَبٍ ، وَفِي تَحْقِيقِ هَذَا الْمَعْنَى تَقُولُ : الزُّهْدُ فِي الدُّنْيَا رَاحَةُ الْقَلْبِ وَالبَدَنِ ، وَالرَّغْبَةُ فِيهَا تَوْرَثُ الْهَمَّ وَالْحُزْنَ .

* ولها في الحث على صفاء النفس والصّدق في السّرّ والعلانية قولها : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ مِنْ قَلَّةِ صَدَقِي فِي قَوْلِي : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ .

* وسمعتُ رابعةً يوماً صالِحاً المُرِّيَّ - وكان من الزّهاد - يذكُر الدّنيا في قَصَصِهِ وَوَعْظِهِ ، فنادته وَنَبَّهَتْهُ إِلَى الْوَعْظِ الْحَقِيقِيِّ وَقَالَتْ : يَا صَالِحُ ، مَنْ أَحَبَّ شَيْئاً أَكْثَرَ مِنْ ذِكْرِهِ^(٢) .

* ويلاحظ أَنَّ عِيُونَ الْحِكْمَةِ تَتَفَجَّرُ مِنْ هَذِهِ الْعِبَارَةِ تَفْجِيراً ، كما يلاحظ أَنَّ رَابِعَةً كَانَتْ فُطْنَةً وَذَكِيَّةً ، وَتَعْرِفُ كَيْفَ تَلْقَى بِالْحِكْمَةِ فِي الْمَوَاقِفِ الْمُنَاسِبَةِ .

* ومن روائع بدائع كلماتها في المحبة الحقيقية ، ما حُفِظَ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ : مُحِبُّ اللَّهِ لَا يَسْكُنُ أُنَيْنَهُ وَحَنِينَهُ حَتَّى يَسْكُنَ مَعَ مَحْبُوبِهِ .

* وَكَانَتْ الْحِكْمَةُ عِنْدَ رَابِعَةٍ تَنَالُ عَلَى لِسَانِهَا ، فَكَأَنَّهَا تَنْتَقِي الْكَلِمَاتِ وَالْأَلْفَافِ كَمَا تَشَاءُ ، لِتَصَوِّغَ مِنْهَا جُمَلًا تَنْضَحُ بِالْحِكْمَةِ ، وَتَفْصَحُ عَنِ الْبَلَاغَةِ .

* قَالَ لَهَا رَجُلٌ مَرَّةً : يَا أُمَّ الْخَيْرِ ، ادْعِي اللَّهَ لِي . فَرَجَعَتْ رَابِعَةً وَالتَّصَقَّتْ بِالْحَائِطِ ، وَقَالَتْ لِلرَّجُلِ فِي تَوَاضُعٍ : مَنْ أَنَا يَرْحَمُكَ اللَّهُ ؟ ! ثُمَّ إِنَّهَا أَلْقَتْ إِلَيْهِ

(١) الطّبقات الكبرى للمناوي (ص ٤) مخطوط .

(٢) انظر : سير أعلام النبلاء (٨ / ٢٤١) .

عبارةً ترشده من خلالها إلى الدّعاء الخالصِ فقالت: يا هذا أطع ربَّك، وادعُه، فإنَّه يجيبُ المضطرين^(١).

* ويبدو أنَّ رابعة كانت لا تبخلُ بفيضِ حكمتها في جميع المواقف، وفي كلِّ الحالات، فقد أوردَ صاحبُ كتاب «نزهة الناظرين» قصَّة حدثت لرابعة مع لصٍّ من لصوصِ البصرة، ويظهر في حوارها مع اللصِّ جمال حكمتها، فقال:

* حُكي أنَّ رابعة العدوية كانت تصلي ذات ليلة، فدخل عليها لصٌّ، فنظرَ في البيتِ يميناً وشمالاً، فلم يرَ شيئاً غيرَ إبريق كانت تتوضأُ به.

فقالت له رابعة: يا هذا إن كنتَ من الشُّطَّار فلا تخرجْ إلا بشيء!

فقال اللصُّ: يا هذه، إنِّي لم أجِدْ شيئاً غيرَ هذا الإبريق القديم.

فقالت له بلسانِ العطف والوعظ: يا مسكين، قُمْ فتوضأ من هذا الإبريق، وادخل إلى هذه الغرفة وصلِّ ركعتين لله، فإنَّك لا تخرجُ إلا بشيء.

* فدخلَ الرَّجلُ الغرفةَ، وفعلَ ما أمرته به رابعة، فلما قام يصلي، رفعت رابعة طرفها إلى السَّمَاء وقالت: سيدي ومولاي، هذا قد أتى إليَّ، فلم يجدْ عندي شيئاً، وقد أوقفته على بابك فلا تحرمه جزيلاً ثوابك.

* أمَّا اللصُّ، فقد لذتْ له العبادة داخلَ الغرفة، فلم يزلْ يصلي إلى آخر الليل، فدخلت رابعة الغرفة عند السَّحر، فوجدته ساجداً يتذلُّ بين يدي الله؛ وهو يقولُ في سجوده مُعاتباً نفسه، ومستغفراً ربَّه، ونادماً عمَّا بدر منه في الأيام الخوالي وفي جنح الليالي:

إِذَا مَا قَالَ لِي رَبِّي	أَمَّا اسْتَحْيَيْتَ تَعَصِيَنِي
وَتَخْفِي الذَّنْبَ مِنْ خَلْفِي	وَبِالْعَصِيَانِ تَأْتِينِي
فَمَا قَوْلِي لَهُ إِذَا مَا	يُعَاثِبُنِي وَيَقْصِينِي

(١) صفة الصفوة (٤/٢٨)، والطبقات الكبرى للمناوي مخطوط (ص ٥) مع الجمع والتصرف اليسير.

فقال له : السَّلامُ عليكم، كيف كانت ليلتُكَ يا هذا؟!

قال : بخيرٍ، وقفتُ بين يدي مولاي بذلي وفقري، فجبَرَ كَسْري، وقبل عُذْري.

* ثمَّ إِنَّ ذلكَ الرَّجُلَ تركَ البيتَ، وخرجَ هائماً على وجهه لا يلوي على شيءٍ، وإذ ذاكَ رفعتُ رابعةُ رأسها إلى السَّمَاءِ وقالت تناجي مولاهَا: مولاي، هذا عبدٌ وقَفَ ببابك ساعةً واحدةً قبلته، وأنا منذُ عرفتك بين يديكَ، أَفَتَرَكَ قبلتني أم لا؟ فتُوديت رابعةً في سِرِّها: يا رابعة مِنْ أَجلك قَرَّبَنَاهُ، وبدعائِكَ قبلناه^(١).

* إِنَّ حكمةَ رابعةٍ - على ما يبدو - مخصصة لأولئك السَّارقين الذين يقتحمون وحدتها، فإذا بهم ينصتون لحكمتها كأنَّ على رؤوسهم الطير، فيخرجون وهم من أكابر الرُّهاد^(٢)!! هكذا أحبَّ مخرجو هذه القصص أن

(١) انظر كتاب: نزهة الناظرين في الأخبار والآثار المروية عن الأنبياء والصَّالحين (ص ٢٤٣ و ٢٤٤) بتصرف يسير. وإني أترك للقارئ الكريم هذه القصة أو الأقصوصة كي يدرك وضع هذه الكرامات المُختَرعة والمصنوعة التي ألصقت برابعة وغيرها، ولا ندري هل رفع ذلك مِنْ شأنها، أم غَضَّ شأن المرأة في العُصور الأولى المشرقة، فكيف تقضي رابعة الليل في عبادةٍ مع رجل ليس عادياً - وإنما هو لصٌّ عيَّار شاطر - وبسرعة البرق الخاطف تحوّل من شريرٍ مارق إلى عابد زاهد حينما شاهدها وهي تتعبّد؟!

ومما قاله القصاص والوضاعون ومحبو الأخبار المُتَخَيِّلة: أنَّها كانت تقضي ليالي ذوات عدد في العبادة مع سفيان الثوري - كما مرَّ معنا - وليس هذا من خُلُقهِ، ولا من خُلُقِ المرأة المسلمة الطاهرة العابدة الزاهدة، أليس الحبيب المصطفى ﷺ قد قال: «ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما»؟ فكيف غاب عن بال رابعة والثوري هذا؟! إن هذا الشيء عجيب!! وسبحان الله عما يصفون.

(٢) يبدو أنَّ قصص السَّارقين قد غطّى قسماً لا بأسَ به مِنْ حياة رابعة العدوية، وقد ذكر المناوي قصة أحدهم - كما مرَّ معنا - وقبلة بزمانٍ طويل ذكر قصة مشابهة بأسلوب قريب: الفخر الرازي، وذلك في تفسيره الكبير، فقد أورد قصة حلوة عن سارق دخل بيت رابعة، ولكنّه بعد أن حمل المتاع لم يجد الباب فقال: باتت رابعة ليلة =

يجعلوا من قَصَصِ اللصوص مع رابعةَ مَسْرَحاً للحكمة والتَّوبة، ومن الملفتِ للنَّظر والغريب بآن واحد أنَّ هؤلاء اللصوص بُلغَاءُ فُصَحَاءُ يجيدون الشعر والنثر النَّاصع!!

* إِنَّه كما نُسب لرابعة كثير من الشعر، نُسبَ لها كذلك كثيرٌ من النثر، وكثيرٌ من الأقوال التي يعجزُ فحول البلغاء عن قولها في لحظاتِ المفاجأة أو في موقفٍ سلبي، إلا أنَّ أغلبَ الظَّنِّ قد وُضِعَتْ تلكم الحِكْمُ وصُنِعَتْ ثمَّ عُجِنَتْ وخُبِزَتْ، ونُسِبَتْ لرابعة، ومن ذلك قولها في الإغراق بمحبة الله تعالى: إلهي، اجعلِ الجنَّةَ لأحبَّابك، والنارَ لأعدائك، أمَّا أنا فحسبي أنت!!.. وقولها أيضاً: إلهي، أغرِّقني في حبِّك حتى لا يشغلني شيءٌ عنك.

* وتَبَرَّرُ محبتها في المناجاة فتقول في سكونِ الليل هذه الكلمات التي تناجي فيها ربَّ العالمين خالق كلِّ شيء: إلهي، أنارتِ النُّجومُ، ونامتِ العيونُ، وغلقتِ الملوكُ أبوابها، وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك.

إلهي، هذا الليل قد أدبرَ، وهذا النَّهار قد أسفَرَ، فليت شعري أقبلتَ مِنِّي ليلتي فأهتأ، أم رددتها عليَّ فأعرَّي؟ فوعزَّتْك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني، وعزَّتْك لو طردتني عن بابك ما برحتُ عنه لما وقع في قلبي من محبتك.

* ومما يشغل ألسنة النَّاسِ، ويداعبُ خيالهم ما نُسب إليها قولها المشهور: ما عبدته خوفاً من ناره، ولا حباً في جنَّته، فأكونُ كالأجير السَّوء، بل عبدته حباً له وشوقاً إليه^(١).

= في التهجد والصلاة، فلما انفجر الصبح نامت، فدخل السَّارق دارها، وأخذ ثيابها، وقصد الباب، فلم يهتد إلى الباب، فوضعها فوجد الباب، ففعل ذلك ثلاث مرات، فنودي من زاوية: ضع القماش واخرج، فإن نام الحبيب فالسلطان يقظان.

(التفسير الكبير - مفاتيح الغيب - للرازي ١/ ١٤٠).

(١) في الحقيقة لو تأملنا هذا الكلام الذي يُنسب لرابعة - أو الذي قالته - نجد أنه كلامٌ =

* وسمعتُ قارئاً يتلو قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ ﴾ [يس : ٥٥] ، فقالت : مساكين أهل الجنة في شغل هم وأزواجهم ^(١) .

* ومن أمثلة المبالغات والغلو والإغراق ، ما ذكره أبو حيان التوحيدي في «بصائره وذخائره» قال : قيل لرابعة - وكانت ناسكة مفوّهة ، وشأنها شهير ، وأمرها خطير - : كيف حبُّك لرسول الله ﷺ ؟

قالت : إني لأحبه ، ولكنني شغلني حبُّ الخالق عن المخلوق ^(٢) .

وعلق التوحيدي على هذه المقولة تعليقاً نفيساً فقال : هذا الكلام عويصُ التأويل ، خرطُ القتادِ دونه ، ولَقَطُ الرَّمْلِ أسهلُّ منه ، وهي موكولةٌ فيه إلى الله تعالى ، وقد رويته كما رأيته ^(٣) .

* إِنَّ الأقوالَ والحكمَ كثيرة ، وهي منسوبةٌ إلى رابعة ، وقد راق للواضعين ، ومن راق لهم الحديثُ عن رابعة أن يضعوها على لسانها ، أو ينسبوا أقوالاً رقيقةً لها وإلى غيرها ، فابتعدوا عن الحقيقة ، بل إنَّ في بعضِ هذه الأقوالِ إساءة لمن نُسبت إليه ^(٤) .

رابعةٌ في ميزانِ أقوالِ العلماء :

* عندما تحدّث الإمامُ الذهبيُّ عن رابعة العدويّة قال عنها : رابعةُ العدويّةُ البصريّةُ ، الزّاهدة ، العابدة ، الخاشعة ، أم عمرو ، رابعة بنت إسماعيل .

= خطيرٌ مخيفٌ ، لا ينسجم مع الدين الإسلامي ، بل فيه جرأةٌ عجيبة ، ومخالفات لا تُحصر ، فتأمل .

(١) انظر التعليق السابق .

(٢) انظر : البصائر والذخائر (١/ ١٥٠) .

(٣) المصدر السابق نفسه .

(٤) يُنسب لرابعة هذا القول ، وفيه بعض الاعتدال ؛ قيل لرابعة وقد انصرفت من الجبابة

في يوم فطر : كيف رأيت الناس في هذا اليوم ؟

قالت : رأيتم خرجتم لإحياء سنة وإماتة بدعة ، غير أنكم أظهرتم نعمة أدخلتم بها

على الفقراء مذلة . (البصائر والذخائر ٣/ ٢١) .

* وذكرها الذهبي أيضاً في تاريخه فقال: رابعة العدوية العابدة البصرية المشهورة بالتأله والزهد^(١).

* وأما ابن خلّكان، فقد طاب له أن يفتح ترجمتها بقوله: أم الخير، رابعة ابنة إسماعيل العدوية البصرية، مولاة آل عتيك، الصالحة المشهورة، كانت من أعيان عصرها، وأخبارها في الصّلاح والعبادة مشهورة.

* وفي تاريخه «البداية والنهاية» ذكرها ابن كثير فقال: رابعة العدوية البصرية العابدة المشهورة، أثنى عليها أكثر الناس، وقد ذكروا لها أحوالاً وأعمالاً صالحة، وصيام نهار، وقيام ليل، ورؤيت لها منامات صالحة.

* وقال الشريشي^(٢) عنها: بلغت من التّسك والزّهد منزلة شريفة، وكانت منورة البصيرة، مطهرة السريرة، حظيت بالمكاشفات الربّانية.

* وذكر ابن العماد الحنبلي ترجمتها في شذراته فقال في بدايتها: رابعة البصريّة العدوية، شهيرة الفضل.

* وقال المناوي في «طبقاته»: رابعة العدوية القيسية ثمّ البصرية، رأس العابدات، ورئيسة التّاسكات القانتات، وهي إحدى النّساء اللاتي تقدمن ومهرن في الفضل والصّلاح، كأم أيوب الأنصاري، وأم الدرداء، ومعاذة العدوية، وهي من بينهن مشهورة بعظم التّسك، ومزيد العبادة، وكمال النّزاهة والزّهادة^(٣).

(١) سير أعلام النبلاء (٨/٢٤١).

(٢) «الشريشي»: جمال الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن محمد البكري الوائلي الأندلسي، الفقيه المالكي، الأصولي المفسر، ولد سنة (٦٠١ هـ)، وسمع من العلماء ببغداد ودمشق وغيرها، وكان بارعاً في مذهب مالك، محققاً للعربية، عارفاً بالكلام والنظر، قيماً بكتاب الله وتفسيره، جيد المشاركة في العلوم، ذا زهد وتعبّد وجلالة، شرح مقامات الحريري شرحاً ممتعاً، وتوفي في الرابع والعشرين من رجب سنة (٦٨٥ هـ) وعمره (٨٤ عاماً) - رحمه الله -.

(شذرات الذهب ٧/٦٨٥).

(٣) انظر: الطبقات الكبرى للمناوي (ص ٣) بتصرف يسير. وتوجد من هذا... =

* وأما أبو عثمان الجاحظ، فقد طاب له أن يشير إلى التَّسَاك والرُّهَاد من أهل البيان، فذكر طائفة من أعلام الرُّهَاد من الرِّجال، ثمَّ تعرضَ إلى ذكرِ النِّساء الرُّاهِدات، ومنهن رابعة، بعد أن أثنى عليهن فقال: ومنَ النِّساء النَّاسِكَات والرُّاهِدات: رابعةُ القيسيَّة، ومعاذة العدويَّة^(١) امرأةُ صِلَة بن أشيم، وأمَّ الدَّرْداء^(٢).

* ومن نساء الخوارج: البلجاء، وغزالة^(٣)، وقطام، وحمادة، وكحيلَة.

= الكتاب نسخة مخطوطة بدار الكتب المصرية.

(١) معاذة بنت عبد الله العدويَّة البصريَّة تكنى «أم الصَّهباء» زوجُ صِلَة بن أشيم العدوي النَّاسِك، روت عن عائشة وعلي - رضي الله عنهما -؛ وروى عنها قتادة، والحسنُ البصري، وأيوب السَّخْتِيَّاني، وعاصم الأحول وغيرهم، وكان يُقال: إنَّها لم تتوسد فراشاً بعد أبي الصَّهباء حتى ماتت؛ وكان أبو الصَّهباء قد قُتِلَ شهيداً في غزاة، في أوَّل إمرة الحجاج على العراق سنة (٧٥ هـ)، واجتمعتِ النِّساء عند معاذة للتعزية، فقالت لهن ونفحات الإيمان والتَّسليم والاستسلام تسيلُ من كلماتها: مرحباً، إن كنتنَّ جئتُنَّ لتهنئتنني فمرحباً بكن، وإن كنتنَّ جئتُنَّ لغير ذلك فارجعن. وكانت تقول: عجبت لعين لا تنام، وقد عرفت طول الرقاد في ظلم القبور. (تهذيب التهذيب ١٢/٤٥٢)، و(صفة الصفوة ٣/١٣٩) مع الجمع والتصرف بينهما. وانظر سيرتها في كتابنا «نساء من عصر التابعين» (٢/٣٩-٤٩).

(٢) أمَّ الدرداء، زوج الصَّحابي الجليل أبي الدرداء - رضي الله عنه - وهما ثنتان: أمَّ الدرداء الكبرى، واسمها: خيرة بنت أبي حدر. وأمَّ الدرداء الصُّغرى، واسمها: هُجيمة بنت حُبي الأوصابية، وأعتقد أنَّ الجاحظ قد قصدَ بذكره من النَّاسِكَات: أمَّ الدرداء الصُّغرى، إذ تنتشر أخبارها، وهي بذلك مشهورة. هذا وقد توسَّعنا بترجمتها في كتابنا: «نساء من عصر التابعين» (٢/١٠٥-١٢٥).

(٣) غزالة الشَّيبانية: زوج شبيب بن يزيد الخارجي الشَّيباني، كانت من الشَّجاعة والفروسية بالموضع العظيم، وكان الحجاج في بعض حروبه قد هرب منها، فعيَّره أسامة بن سفيان البجلي بقوله:

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامَةٌ فتخاء تنفرُ منْ صفير الصَّافِر
هلاً برزت إلى غزالة في الضَّحى بل كان قلبك في جناحي طائر

* ومن نساء الغالية: ليلي الناعظية^(١)، والصدوف، وهند^(٢).

* وقد أثنى على رابعة عددٌ من علماء وأدباء العصر الحديث، وخصوصها بأقوالهم ودراساتهم وهي كثيرة، فمنها ما قاله الشيخ يوسف النبهاني: رابعة العدوية القيسية البصرية، أشهر النساء العارفات بالله تعالى^(٣).

* وقال عمر رضا كحالة في مطلع ترجمتها: رابعة بنت إسماعيل العدوية^(٤) صوفية كبيرة، وعابدة شهيرة، تمكّنت من معرفة دقائق التصوف مكاناً علياً، واستفتاها في دقائق التصوف كبار المتصوفة في عصرها.

* وقال عبد الرحمن بدوي: إنّ رابعة تنتسب إلى الجيل الأوّل من الصوفية المسلمين الحقيقيين الذين أشاعوا في التصوف روحاً جديدة كلّ الجدة على التطور العام للحياة الروحية في الإسلام.

* وأقوال المؤلفين والمصنّفين والعلماء كثيرة مشهورة في رابعة العدوية، وكلّها تشير إلى صلاحها وإلى عبادتها وصلاتها، وتصف ما كانت عليه من الزهد والتسك، كما تذكر أبرز صفاتها وأحوالها، وهذا بلا شك يدلّ على مكانة رابعة في تاريخ النساء المتصوّفات، بل تكاد تكون أشهر النساء في هذا المضمار.

رابعة والرحلة الأخيرة:

* عشنا في الصفحات الماضية ساعات لطيفة مع سيّدة زاهدات عصرها، وصفية ناسكات دهرها رابعة العدوية.

* وقبل أن نشهد رحلة الخلود لهذه العابدة الناسكة، لا بد أن نشهد

(١) ليلي الناعظية، إحدى نساء الغالية، منسوبة إلى بني ناعظ، وهي بطن من العرب.

(٢) انظر: البيان والتبيين للجاحظ (١/٣٦٤ و ٣٦٥) و (٣/١٩٥)، بتحقيق: عبد السلام هارون.

(٣) جامع كرامات الأولياء (٢/٧١).

(٤) شهيدة العشق الإلهي (ص ١٠).

الأيام الأواخر من رحلة حياتها المعطاء في عالم التَّصَوُّف والعبادة.

* قال عبدُ الله بنُ عيسى - وكان من زهاد عصرها - : دخلتُ على رابعة العدوية بيتها، فرأيتُ على وجهها الثَّور، وكانت كثيرة البكاء، فَقَرَأَ رجلٌ عندها آيةً من القرآن الكريم، فيها ذِكْرُ النار، فصاحت ثمَّ سقطتُ.

* ودخلتُ عليها وهي جالسةٌ على قطعةٍ حصيرٍ قديمٍ خَلَقَ، فتكلَّم رجلٌ عندها بشيء، فجعلتُ أسمعُ وَقَعَ دموعها على الحصير، ثمَّ اضطربتُ وصاحتُ باكيةً، فقمنا وخرجنا.

* ومن الجدير بالذكر أنَّ رابعة العدوية كانت من النِّساء المعمرات اللواتي بلغن من الكِبَر عتياً، واشتعلَ رأسهنَّ شيباً، ووهنَ العظمُ منهن، إلا أنَّ زهدهن لم يُصَبِّ بالوهن، أو الضَّعف، بل زادَ قوةً مع تقادُّم الأيَّام والأعوام.

* ذكر محمد بنُ عمرو هذا فقال: دخلتُ على رابعة العدوية في بيتها، وكانت عجوزاً كبيرة بنت ثمانين سنة، فرأيتُ في بيتها قطعةً حصيرٍ بالية، وكان سترُ البيت من جلدٍ، وربَّما كان من الحصير، ورأيتُ جرَّةً كبيرةً، وجلداً هو فراشها وهو مصلاها، وكان لها مشجَبٌ^(١) من قَصَبٍ عليه أكفانُها، وكانت إذا ذكرتِ الموتَ انتفضتُ، وأصابَتْها رَعْدَةٌ، وإذا مرَّتْ يقومُ عرفوا فيها العبادة، لما يظهر عليها من الأحوال ومن الصَّلاح^(٢).

* وكانت رابعة في أيَّامها الأخيرة كثيرة الرُّكُوع والسُّجود، تَصِلُ النَّهارَ بالليل في الطَّاعات والبكاء؛ وصورة هذه العبادة يجلوها سَجَفُ بن منظور فيقول: دخلتُ على رابعة وهي ساجدةٌ، فلما أَحَسَّتْ بمكاني، رفعتُ رأسها، فإذا موضعُ سجودها كهيئةِ الماءِ المستنقع من دُموعها، فسَلَّمْتُ، فأقبلتُ عليَّ فقالت: يا بني أَلَك حاجة؟!

فقلتُ: جئتُ لأسَلِّمَ عليك.

(١) «المشجب»: ما تعلَّق عليه الثياب، ويكون من خشب ونحوه.

(٢) عن صفة الصفوة (٤/٢٧ و ٢٨) بتصرف يسير.

قال : فبكت، وقالت : سَتْرُكَ اللَّهُمَّ سَتْرُكَ .

ودعتُ بدعواتٍ ، ثم قامتُ إلى الصَّلَاةِ ، وانصرفتُ^(١) .

* أمّا عن وفاةٍ رابعة ، فتحدثنا عن ذلك عبدةُ بنتُ أبي شوال ، وقد شهدت اللحظاتِ الأخيرةَ من حياة سيّدتها رابعة^(٢) ، تقول عبدة : لما حضرتُ رابعةُ بنتُ إسماعيل العدوية الوفاة ، دعّنتني إليها وقالت لي : يا عبدةُ لا تؤذني^(٣) بموتي أحداً من الخلق ، وهذه جبّتي أمامك كفنّيني فيها - وكانت جبّةً من شعرٍ تقومُ فيها إذا هدأتِ العُيون - .

قالت عبدة : فلمّا ماتتُ رابعةُ كفنّاها في تلك الجبّة ، وفي خمار صوف كانت تلبسه في أوقاتِ العبادة أيضاً . ثمّ إنّي رأيْتُها بعد ذلك بسنةٍ أو نحوها في منامي ، وعليها حلةٌ إستبرق خضراء ، وخمارٌ من سُندس أخضر ، لم أرَ شيئاً قطّ أحسن منه ، فقلتُ لها : يا رابعة ما فعلتِ بالجبّة التي كفنّاك فيها والخمار الصّوف ؟

فقلت : إنّه ، والله نزعَ عني ، وأُبدِلْتُ به ما تريه عليّ ، وطُويتُ أكفاني ، وخُتِمَ عليها ، ورُفعتُ في علّين ليكمل لي بها ثوابها يومَ القيامة .

فقلت لها : لهذا كنتِ تعملين أيامَ الدُّنيا ؟!

فقلت : وما هذا عندما رأيْتُ من كرامةِ الله - عزّ وجلّ - لأوليائه ؟

قلتُ : فما فعلتُ عبّيدة بنتُ أبي كلاب - وكانت عابدة زاهدة - ؟

فقلت : هيهات هيهات ، سبقتنا والله إلى الدَّرَجَاتِ العُلا .

(١) صفة الصفوة (٢٨/٤) .

(٢) لم تتخذ رابعة خادماً لها ، فقد قيل لها : لو كلّمت رجال عشيرتك ، فاشترؤا لك خادماً تكفيك مهنة بيتك . قالت : والله ، إنني لأستحي أن أسأل الدنيا من يملك الدنيا ، فكيف أسألها من لا يملكها ؟! (البيان والتبيين ١٢٧/٣) .

وهناك بعض المصادر تقول : إن عبدة هذه كانت تخدم رابعة !!

(٣) «لا تؤذني» : لا تخبري ، ولا تعلمي .

فقلت : وبِمَ وقد كنتِ عند الناس أكبر منها وأكثر عبادة؟
 قالت : إنها لم تكن تبالي على أي حال أصبحت من الدنيا وأمست .
 قلتُ : فما فعل أبو مالك ، - أعني : ضيغماً - ^(١) .
 قالت : يزورُ اللهَ متى شاءَ .
 قلت : فما فعل بشرُّ بنُ منصور ^(٢) ؟
 قالت : بنحٍ بنحٍ أعطانيَ واللهِ فوق ما كان يأمل ويؤمل !
 قلت : فمريني بأمرٍ أتقرب به إلى الله - عزَّ وجلَّ - .
 قالت : يا عبدة ، عليك بكثرة ذِكْرِهِ ، يوشِكُ أنْ تغتبطي بذلك في قَبْرِكَ ^(٣) .
 * بقي أنْ نعرفَ أنَّ رابعةَ العدوية توفيتُ على أصحِّ الأقوالِ في سَنَةِ (١٨٥ هـ) ^(٤) بعد أن عمّرت ثمانين سنة .

(١) ضيغم بن مالك ، الزاهد القدوة الرّباني ، أبو بكر الرّاسبي البصري ، كان أحد الصّلحاء الفضلاء ، وكان وردّه في اليوم واللييلة أربعمئة ركعة ، وصلى حتى انحنى ، وكان من الخائفين البكائين ، توفي سنة (١٨٠ هـ) ، - رحمه الله - . (سير أعلام النبلاء ٤٢١ / ٨) .

(٢) بشرُّ بنُ منصور ، أبو محمّد الأزدي البصريّ الزّاهد ، الإمام المحدث الرّباني القدوة ، كان آية في الورع والرقّة ؛ وكان يصلي كل يوم خمسمئة ركعة ، وكان وردّه ثلث القرآن ، وكان ضيغم بن مالك صديقاً له ، وأخباره كثيرة في الزّهد والعلم ، توفي هو وضيغم في يوم واحد سنة (١٨٠ هـ) ، - رحمه الله - . (سير أعلام النبلاء ٣٥٩ - ٣٦٢) .

(٣) عن صفة الصفوة (٣٠ / ٤) بتصرف ؛ وانظر : مرآة الجنان (١ / ٢٨٢ و ٢٨٣) .
 (٤) هنالك أقوالٌ في المصادر تقول : إنّ رابعة قد توفيت سنة (١٣٥ هـ) ، ومنها مرآة الجنان للياضي ، فقد قال ما نصّه : وفيها (أي سنة ١٣٥ هـ) توفي : السيّدة الولية ذات المقامات العلية ، والأحوال السّنية ، رابعة ابنة إسماعيل العدوية ، الشّهيرة الفضل البصرية (مرآة الجنان ١ / ٢٨١) . وفي اعتقادنا أنّ وفاتها كانت سنة (١٨٥ هـ) وذلك لمعاصرتها رياح بن عمرو القيسي المتوفى في سنة (١٨٠ هـ) ، =

* ووردَ في بعض المصادر أنَّها توفيتُ في بيتِ المقدس . قال ابنُ خَلْكَانَ : وقبرها يُزار ، وهو بظاهر القُدس من شرقه ، على رأسِ جَبَل يُسمَّى الطُّور^(١) .

* وبعد ؛ فتلكم صوَرُ حَسَانٍ لطيفات متموجات عن رابعة العدوية ، أشهر متصوِّفة في تاريخِ النِّساء ، أرجو أن أكونَ قد وفَّقتُ في رسمِ ملامح صورتها ، وأن أكونَ قد وفَّقتُ في الحديث عنها ، وإبرازها في ثوبٍ جديد لتطلَّ منه على نافذةِ التَّاريخ ، ولكي تبقى إحدى نوادر نساء التَّاريخ في حضارتنا الإسلاميَّة ، وفي تاريخ وتواريخ نساتنا العربيات .

* في الختام : أرجو الله - عزَّ وجلَّ - أن يلهمنا الصَّواب في أقوالنا وأفعالنا ، وأرجو القارئ الكريم أن يخصَّني بدعوةٍ صالحةٍ منه بظهر الغيب ، وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربَّ العالمين .

* * *

= وصداقتها سفيان الثوري الذي قدم البصرة بعد سنة (١٥٥ هـ) ، وكذلك خطبة محمد بن سليمان الهاشمي لها الذي كان والياً للعباسيين عليها ، وقد مات سنة (١٧٢ هـ) . وهناك أدلة أخرى يمكن للقارئ الفطن أن يستنبطها من خلال سيرتها .

(١) انظر : مرآة الجنان (١/٢٨٢) ، وقال اليافعي : سمعتُ من بعض أهل بيت المقدس يذكر أنَّ المدفونة في الجبل المذكور رابعة أخرى غير رابعة العدوية ، والله أعلم .

١٢

زبيدة بنت جعفر

في رَحَابِ الْعِظَائِمِ:

* إذا أردنا أن نُدرِكَ في أيِّ بيتٍ عاشت هذه المرأة الفاضلة، ومن أيِّ دوحَةٍ بَسَقَتْ، ومن يَحْسُنُ فيها قولُ الشَّاعِرِ والتَّائِرِ، فلنَقْتَطِفْ ما كَتَبَهُ عنها الإمامُ الذَّهَبِيُّ - رحمه الله - حيثُ قال: السَّتُّ الْمُحَجَّجَةُ، كانت عَظِيمَةً الجَاهِ، والمَالِ، لها آثارٌ حميدةٌ في طريقِ الحجِّ، وكان في قَصْرِها مِنَ الجَوَارِي نحو من مئةٍ جارية كلُّهن يحفظنَ القرآنَ^(١).

* وهذه المرأة قالَ فيها الشَّاعر:

بَلَغَتْ مِنَ الْمَفَاخِرِ كُلِّ فَخْرٍ وَجَاوَزَتْ الْكَلَامَ فَلَا كَلَامًا
إِذَا نَزَلْتُ مَنَازِلَهَا قُرَيْشٌ نَزَلَتْ الْأَنْفَ مِنْهَا وَالسَّنَامَا
تُقَى وَسَمَاحَةٌ وَخُلُوصٌ مَجْدٍ إِذَا الْأَنْسَابُ أَخْلَصَتْ الْكِرَامَا

* وأمَّا ما جادت به أقلامُ أَعْلِيَاءِ الْعُلَمَاءِ، وَأَصْفِيَاءِ الْمُنْصِفِينَ عن زوجها؛ فهي كثيرةٌ لا تُحْصَى، يَكْفِينَا منها قولُ أميرِ الْمُنْصِفِينَ الإمامِ الذَّهَبِيِّ - رحمه الله - إذ وَصَفَهُ بما كان فيه حقًّا فقال: أَنْبَلُ الْخُلَفَاءِ، وَأَحْشَمُ الْمُلُوكِ، كان ذا حجٍّ وجهادٍ، وَغَزَوُ وشجاعةٍ ورأيٍ، كان يصلي في خلافتِهِ في كلِّ يومٍ مئةَ رُكْعَةٍ إلى أن مات؛ ويتصدَّقُ بِأَلْفٍ، وكان يحبُّ الْعُلَمَاءَ، ويعظُمُ حُرُمَاتِ الدِّينِ، ويبغضُ الجِدَالَ في الْكَلَامِ^(٢).

* ومحاسنُه كثيرةٌ، وحجٌّ غيرُ مرَّةٍ، وَلَهُ فُتُوحَاتٌ ومواقِفٌ مشهورةٌ، ومنها: فَتَحَ مَدِينَةَ هِرْقَلَةَ، غَزَاهَا بِنَفْسِهِ^(٣).

* وحجٌّ في خلافتِهِ ثمانِي حِجَجٍ - وقيل: تسع -، وغزا ثمانِي غَزَوَاتٍ، حتى قال فيه أَبُو السَّعْلَى:

فَمَنْ يَطْلُبُ لِقَاءَكَ أَوْ يُرِدُهُ فَبِالْحَرَمِينَ أَوْ أَقْصَى الثُّغُورِ
فَفِي أَرْضِ الْعَدُوِّ عَلَى طِمَرٍ وَفِي أَرْضِ التَّرْقُفِ فَوْقَ كُورِ

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/٢٤١).

(٢) سير أعلام النبلاء (٩/٢٨٧).

(٣) الأخبار الطوال للدينوري (ص ٣٩).

وما حَارَزَ الثُّغُورَ سِوَاكَ خَلَقَ مَنْ المتخَلِّفِينَ عَلَى الْأُمُورِ^(١)

* وكان قد اتَّخَذَ قَلَنْسُوَةً مَكْتُوباً عَلَيْهَا: «غَازٍ، حَاجٌّ» فَكَانَ يَلْبُسُهَا^(٢).

* وَكَانَ شَهْماً شُجَاعاً حَازِماً جَوَاداً مَمْدُوحاً، فِيهِ دِينٌ وَسُنَّةٌ وَتَخَشُّعٌ، وَكَانَ يَخْضَعُ لِلْكَبَارِ وَيَتَأَدَّبُ مَعَهُمْ، وَلَهُ مِشَارَكَةٌ قَوِيَّةٌ فِي الْفَقْهِ وَبَعْضِ الْعُلُومِ وَالْأَدَبِ.

* وَصَاحِبُ هَذِهِ الْمَحَاسِنِ هُوَ أَبُو جَعْفَرٍ هَارُونَ الرَّشِيدُ الْخَلِيفَةُ الشَّهِيرُ فِي عَالَمٍ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، أَمَّا زَوْجُهُ الَّتِي دَرَجَتْ فِي رَحَابِ الْعِظَائِمِ فَهِيَ زُبَيْدَةُ^(٣) بِنْتُ جَعْفَرِ بْنِ الْمَنْصُورِ أَبِي جَعْفَرٍ، الْعَبَّاسِيَّةُ الْهَاشِمِيَّةُ الْقُرَشِيَّةُ، وَتُكْنَى أُمُّ جَعْفَرٍ، أَمَّا اسْمُهَا: فَهُوَ أُمُّ الْعَزِيزِ بِنْتُ جَعْفَرٍ^(٤)، وَقِيلَ اسْمُهَا: أُمُّ الْوَاحِدِ، وَلَقِبَهَا زُبَيْدَةُ^(٥).

(١) تاريخ الطبري (٣٢١/٨)، ورملة الجنان (٤٤٤/١)، وما أجمل قول مروان بن أبي حفصة فيه:

وَسُدَّتْ بِهَارُونَ الثُّغُورَ فَأَحْكَمَتْ بِهِ مِنْ أُمُورِ الْمُسْلِمِينَ الْمَرَائِرُ
(نهاية الأرب ١٦٣/٢٢).

(٢) البداية والنهاية (٢١٤/١٠).

(٣) عُدْتُ إِلَى أَكْثَرِ مَنْ (٣٠٠ مصدر) عِنْدَمَا كَتَبْتُ عَنْ زُبَيْدَةَ، وَلَسْتُ أَبَالِغُ فِي هَذَا، فَهُوَ حَقِيقَةٌ، وَسِيدْرُ الْقَارِيءِ الْكَرِيمِ الْفَطْنُ ذَلِكَ مِنْ خِلَالِ هَذِهِ الدَّرَاسَةِ الْقِيَمَةِ عَنْ هَذِهِ السَّيِّدَةِ الْكَرِيمَةِ؛ وَسَيَجِدُ مَعْلُومَاتٍ جَدِيدَةً لِلْمَرَّةِ الْأُولَى وَمِنْ هَذِهِ الْمَصَادِرِ: تاريخ بغداد (٤٣٣/١٤ و ٤٣٤)، وشرح مقامات الحريري للشريشي (١٦٦/٢)، ووفيات الأعيان (٣١٤/٢ - ٣١٧)، والبداية والنهاية (٢٨٣/١٠)، والنجوم الزاهرة (٢١٣/٢ و ٢١٤)، والكمال في التاريخ (انظر الفهارس ١٣/١٣٥)، وسير أعلام النبلاء (٢٤١/١٠)، والمعارف (ص ٣٧٩ و ٣٨٣)، والمحبر (ص ٣٩ و ٤٠٥)، والموشع (ص ٣٩٣ و ٤١٥)، والدر المنثور (ص ٢١٥ - ٢١٨)، وشاعرات العرب (ص ٢١٢ و ٢١٣)، والمناسك للحرابي (انظر الفهارس)، والعقد الفريد (انظر الفهارس ٨/٤٣) والأغاني (انظر الفهارس) وغيرها كثير جداً.

(٤) انظر: تاريخ بغداد (٤٣٣/١٤).

(٥) انظر: تاريخ القضاء (ص ٤٢٤) طبعة جامعة أم القرى بمكة المكرمة (١٤١٥ هـ).

* ويبدو أنَّ مولدَ زُبَيْدة^(١) كان قُبَيْلَ منتصفِ القرنِ الثَّاني الهِجْري، فقد وُلِدَتْ في سنة (١٤٥ هـ)^(٢) بقصر حَرْبٍ^(٣) بالمَوْصِلِ، وَفَتَحَتْ عَيْنَهَا وهي ترفلُ في أَحْضَانِ النِّعمِ والخيراتِ، وَقَدْ حَبَّاهَا اللهُ جَمالاً وبِياضاً، وألقى مَحَبَّتَهَا في قَلْبِ جَدِّهَا أَبِي جَعْفَرِ المَنْصُورِ الذي كان يَحِبُّهَا حُبّاً شديداً، وهو الذي أَطْلَقَ عليها لقبَ زُبَيْدة الذي عُرِفَتْ به؛ بل واشتهرت به في عَالَمِ النِّساءِ.

* قال ابنُ كثير - رحمه الله -: كان أبو جعفر المنصور يلاعبها، ويرقصها وهي صغيرة، ويقول: إِنَّمَا أَنْتِ زُبَيْدة؛ لِبِياضِها ونَضارَتِها، فغلبَ عليها ذلك، فلا تُعَرِّفُ إلا به^(٤)، أمَّا والدَةُ زُبَيْدة فتُدعى: «سلسبيل» وهي أُمُّ وَلَدٍ^(٥).

(١) قال ابنُ منظور - رحمه الله -: زُبَيْدة: لقب امرأة، قيل لها: زُبَيْدة، لِنِعمَةٍ كانت في بَدَنِها، وهي أُمُّ الأَمِينِ مُحَمَّدِ بنِ هَارُونَ الرِّشِيدِ (لسان العرب ٣/ ١٩٣ و ١٩٤) دار صادر.

وقال الزمخشري - رحمه الله -: أَزْبَدَ الشَّيْءُ: اشتدَّ بياضه، وأبيض مُزْبَدٌ نحو يَقَقُّ. (أساس البلاغة ص ٢٦٦).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (١٠/ ٣٣٩).

(٣) «قصر حرب»: هو قصرُ بَناءِ حَرْبِ بنِ عبدِ الله، وهو من أكابر قُوادِ الخليفة العباسي أَبِي جَعْفَرِ المَنْصُورِ، وكان المَنْصُورُ قد وَجَّهَ حَرْبَ بنِ عبدِ الله مع وَلَدِهِ جَعْفَرِ أَبِي زُبَيْدة ليكون نائباً عن مالك بن الهيثم في ولاية الموصل، وهذا القصر بأسفل الموصل.

قال ابنُ الأثير - رحمه الله - في «كامله»: وُلِدَتْ زُبَيْدة بقصر حرب، وعنده يومنا هذا قرية كانت مُلكاً لنا، فَبَنَيْنَا فيها رباطاً للصُّوفية، ووقفنا القرية عليه، وقد جَمَعَتْ كثيراً من هذا الكتاب - أي: الكامل في التاريخ - في هذه القرية في دار لَنَا بها، وهي من أنزه المواضع، وأحسنها، وأثر القصر باقٍ إلى الآن، فسبحان مَنْ لا يزول، ولا تغيَّرُ الدهور. (الكامل في التاريخ ٥/ ٥٧٢).

(٤) انظر: البداية والنهاية (١٠/ ٢٨٣)، و امرأة الجنان (٢/ ٦٣).

(٥) المعارف لابن قتيبة (ص ٣٧٩).

مَقَامُهَا وَمَكَانَتُهَا وَتَفَرُّدُهَا فِي الْفَضْلِ :

* ما أكرمَ مقامَ زُبَيْدة! وأيَّ مُنْصِفٍ لا تأخذه روعةُ الْفَضْلِ وهو يشدو بمقامِ أُمِّ جَعْفَرٍ وَفَضْلِهَا؟! فهي سَيِّدَةٌ بَطَلَعَتْهَا الْفَخَامَةُ وَالشَّرَفُ يَتَجَلَّيانِ، وَالْجَمَالُ وَالْإِفْضَالُ يَتَأَلَّقَانِ :

وَمَزَايَا كَالزُّهْرِ نَفْحاً وَطَيْباً وَكَزْهَرِ السَّمَاءِ بِهِاءٍ وَنُوراً مِنْ شَرَفِ حَسَبٍ إِلَى كَرَمِ مَحْتَدٍ، إِلَى سُودَدٍ، إِلَى فَضْلِ حِجَى، إِلَى عِزِّ عَشِيرَةٍ .

* وهذه المزايا ليست بالبدع من الأشياء، ولا نَبْؤُهَا بغريب من الأنباء، بل هي معهودَةٌ في كثيرٍ مِنَ النِّسْوةِ، وَمَعَ ذَلِكَ لم يكنْ لَأَسْمَائِهِنَّ نصيبٌ في عَالَمِ الشَّهِيرَاتِ، فَقَدْ طُوِيَتْ أَعْلَامُهُنَّ، وَلَمْ يُنْشَرْ ذِكْرُهُنَّ، وَلَمْ يَسْمُ فِي التَّارِيخِ مَقَامُهُنَّ، فَكَيْفَ تَسَامَى اسْمُ زُبَيْدَةٍ، وَعَلَتْ مَنَزَلَتُهَا، وَحَلَقَ مَقَامُهَا؟!

* إِنَّمَا كَانَ لَزُبَيْدَةٍ ذَلِكَ الْمَقَامَ النَّفِيسَ بِشَيْءٍ آخَرَ غَيْرِ مَزَايَا الْحِسَانِ، ذَلِكَ الشَّيْءُ هُوَ ارْتِقَاءُ مَدَارِكِهَا فَوْقَ مَدَارِكِ النِّسَاءِ فِي عَصْرِهَا، وَسَلَامَةُ ذَوْقِهَا، وَطَلِبُهَا لِمَعَالِي الْأُمُورِ، وَمِيلُهَا إِلَى الْفَضَائِلِ وَمَزَايَا الْكَمَالِ، وَشَغْفُهَا بِالْعِلْمِ وَأَهْلِ الْعِلْمِ؛ فَقَدْ أَدْلَى الْخَطِيبُ الْبَغْدَادِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - بِهَذِهِ الشَّهَادَةِ النَّاصِعَةَ لَهَا فَقَالَ: كَانَتْ مَعْرُوفَةً بِالْخَيْرِ وَالْإِفْضَالِ عَلَى أَهْلِ الْعِلْمِ، وَالْبِرِّ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ^(١) .

* فَالْحِجَارَةُ الْكَرِيمَةُ عِنْدَ مَنْ لَا يَعْرِفُ مَزِيَّتَهَا لَيْسَ لَهَا مِنْ قِيَمَةٍ، وَهِيَ عِنْدَ عَارِفِيهَا فَوْقَ الْقِيَمِ، وَزُبَيْدَةُ ابْنَةِ جَعْفَرٍ تَسْتَحِقُّ الرَّفْعَةَ، حَيْثُ نَالَتْ مَقَاماً كَرِيماً فِي نِسَاءِ الْخُلَفَاءِ، بَلْ نِسَاءِ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ، لِمَا لَهَا مِنْ آثَارٍ مُشْكُورَةٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ فِي عَهْدِهَا وَمَا بَعْدَهُ، وَمَا تَرَكْتَهُ مِنْ آثَارٍ لَا يُمْكِنُ لِحَوَادِثِ الْأَيَّامِ أَنْ تَمْحُوهُ مِنْ ذَاكِرَةِ التَّارِيخِ، بَلْ سَتَبْقَى الْأَجْيَالُ تَهْمِسُ لِأَخْفَادِهَا، وَتَشْدُو بِمَغَانِي زُبَيْدَةٍ، وَمَعَانِي فَضَائِلِهَا فِي الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ، وَخُصُوصاً فِي أُمِّ الْقُرَى وَمَا حَوْلَهَا .

(١) تاريخ بغداد (٤٣٣/١٤) .

* ولما رُحْتُ أَقْلَبُ صَفَحَاتِ الْمَصَادِرِ، وَأَقْلَبَ النَّظَرُ فِي أَخْبَارِ
 أُمِّ جَعْفَرٍ، أَلْفَيْتَنِي أَقْفُ أَمَامَ صَرْحٍ مِنَ الْفَضَائِلِ قَدْ شَيْدَتْهُ بَزَوَاهِرِ إِنْسَانِيَّتِهَا
 الْفُضْلَى، وَبَنُورِ هَذِهِ الزَّوَاهِرِ ضَرَبْتُ فِي الْقَدَحِ الْمُعْلَى، وَلَمَعَتْ فَضَائِلُهَا فِي
 الْمَكَانِ الْأَعْلَى. لَذَلِكَ مَا عُدْتُ بِمَبْتَدَعَاتِ التَّصَوُّرِ، وَلَا لُذْتُ بِغَرَائِبِ
 الْحَوَادِثِ، وَشَوَاذِ الْمُصَادَفَاتِ، وَخَوَارِقِ الْعَادَاتِ، وَلَمْ أُمْتَ إِلَى أَفْتِدَةِ
 الْقُرَاءِ إِلَّا بِمَأْلُوفٍ لَا تَضِيقُ بِتَصْدِيقِهِ الْأَفْكَارَ، وَهِيَ أَوْضَحُ مِنَ الشَّمْسِ فِي
 وَسْطِ النَّهَارِ.

* إِنَّا بِنْدُكُنَا مَنْ سَادُوا، وَشَادُوا، وَبِنْدُكُنَا مَنْ صَلَحُوا، وَأَصْلَحُوا،
 نَتَذَكَّرُ تَارِيخَ زَبِيدَةٍ، وَتَرْتَاخَ نَفُوسِنَا بِاسْتِجْلَاءِ أَحْسَنِ صُورِهَا، وَلَمْ لَا نَبْرُزْ
 صُورَتَهَا، وَقَدْ تَرَكْتُ كُنُوزًا مِنَ الْمَحَامِدِ لَا تَنْفَدُ مَهْمَا دَارَتْ الْأَيَّامُ وَتَقَلَّبَتْ
 الْأَعْوَامُ؟!!

وَمَنْ يَكُنْ رَاعِيَهُ السَّعْدُ فَقُلْ مَا شِئْتُ فِي تَيْسِيرِ مَا يَرْجُوهُ
 * نَعَمْ، فَقَدْ لَاحَظْتُهَا عَيُونُ السَّعَادَةِ مِنْذُ أَنْ تَنْفَسَ صَبْحُ الْيَوْمِ الْأَوَّلِ
 لَوْلَادَتِهَا إِلَى أَنْ لَقِيتُ رَبَّهَا، فَقَدْ تَفَرَّدَتْ فِي مَزَايَا بَاهِرَةٍ لَمْ تَحْظَ بِهَا امْرَأَةٌ
 سِوَاهَا، فَهِيَ امْرَأَةٌ تَعُدُّ تِسْعَةَ مِنَ الْخُلَفَاءِ، كُلُّهُمْ لَهَا مُحَرَّمٌ:

- فزَوْجُهَا: أَبُو جَعْفَرٍ هَارُونَ الرَّشِيدُ أَشْهُرُ خُلَفَاءِ دُنْيَا بَنِي الْعَبَّاسِ.
- وَابْنُهَا: مُحَمَّدُ الْأَمِينُ خَلِيفَةٌ.
- وَابْنُ زَوْجِهَا: الْمَأْمُونُ خَلِيفَةٌ.
- وَابْنُ زَوْجِهَا الْآخَرُ: الْمُعْتَصِمُ خَلِيفَةٌ أَيْضًا.
- وَابْنَا ابْنِ زَوْجِهَا: الْوَاتِقُ وَالْمُتَوَكِّلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا خَلِيفَةٌ.
- وَعَمُّهَا: الْمَهْدِي خَلِيفَةٌ.
- وَجَدُّهَا: الْمَنْصُورُ خَلِيفَةٌ.
- وَعَمُّ أَبِيهَا: أَبُو الْعَبَّاسِ السَّفَّاحُ خَلِيفَةٌ^(١).

(١) انظر: المحبّر لابن حبيب (ص ٤٠٥) بتصرف يسير. هذا وتعدّ كلّ واحدةٍ من بنات

هارون الرشيد عشرة خلفاء، كلهم لها محرم:

هارون: أبوها؛ والهادي: عمّها؛ والمهدي: جدّها؛ والمنصور: جدّ أبيها، =

- كما كان ابنُ عمِّها الهادي خليفةً أيضاً.

* ومن الفضائل التي تكتنفُ زُبيدةً أيضاً: أنه ليسَ في بناتِ هاشمِ عَبَّاسِيَّةٌ وَلَدَتْ خليفةً إلا هي^(١)، وما وليَ الخلافةَ هاشميُّ ابنُ هاشميَّةِ سوى عليِّ بنِ أبي طالب - عليه سحائب الرضوان - ومحمَّد الأمين ابن زبيدة^(٢).

* وزبيدةٌ واحدةٌ من ثلاثِ نسوةٍ عربيات، أَنْجَبْنَ ثلاثةَ خلفاء من بني العَبَّاس، ومنَ الجدير بالذكرُ أنَّ الخلفاءَ العَبَّاسِيِّين كانوا سبعةً وثلاثينَ خليفةً، ولم يكنْ فيهمُ عربيٌّ إلَّا ثلاثاً خلفاءَ فَحَسِبَ:

- فأولُّهم: أبو العَبَّاس السَّفَّاح عبد الله بن محمَّد الخليفة العَبَّاسي الهاشمي أولُ خلفاءِ بني العباس، وأُمُّه: ريطة بنتُ عبد المَدَّان الحارثية^(٣).

- وثانيهم: المهدي أبو عبد الله بنُ أبي جعفر المنصور، أَحَدُ كرماء بني العَبَّاس وخلفائهم؛ وأُمُّه: أُمُّ موسى بنت موسى بن عبد الله الحِميريَّة.

- وثالثهم: محمَّد الأمين بنُ هارون الرشيد، وأُمُّه زُبيدة بنتُ جعفر بن المنصور الهاشميَّة، وهي رأسُهُنَّ في الفضل والحَسَبِ والنَّسَبِ.

= والسَّفَّاح عم جدِّها، والأمين والمأمون والمعتصم: إخوتها، والوائق والمتوكل: ابنا أخيها.

(١) تاريخُ بغداد (٤٣٣/١٤)، وسير أعلام النبلاء (٢٤١/١٠).

(٢) انظر: سير أعلام الثُّبلاء (٣٣٥/٩)، وانظر: العقد الفريد (١١٨/٥)، والكمال في

التَّاريخ (٨٩/٦)، ونهاية الأرب للنويري (١٨٧/٢٢) وغيرها.

قال الإمامُ الفاسي: لم تلد هاشميَّةٌ خليفةً هاشمياً سوى فاطمة بنتُ أسدٍ - رضي الله عنها - ولدت عليَّ بنَ أبي طالب - رضي الله عنه -، وفاطمة بنتُ سيِّدنا رسول الله ﷺ ولدتُ الحسن بن علي بن أبي طالب، وزُبيدة بنت جعفر ولدت محمَّد الأمين. (العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين - تراجم النِّساء).

(٣) منَ الجدير أنَّ المنصور أكبرُ من أخيه أبي العباس السَّفَّاح، ولكنَّ السَّبب الذي جَعَلَ أبا العباس يتقدَّم عليه في الخلافة، هو أنَّ أُمَّ أبي العباس عربية أصيلة، بينما كانت أُمُّ المنصور بربرية اسمها سلامة.

اَقْتِرَانُ زُبَيْدَةَ بِالرَّشِيدِ :

* يبدو أنَّ هارون الرَّشيد كان يتطلَّعُ إلى المعالي في جميع أُمُوره، ولما أَرَادَ أَنْ يَتَزَوَّجَ أَلْفَى أَنَّ زُبَيْدَةَ قَرِيبَتَهُ هِيَ الْمَرْأَةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي تَحَقِّقُ أَمَالَهُ الْعِظَامَ، وَتَجْعَلُهُ قَوِيًّا مَرْفُوعَ الْهَامِ، فَلَقَدْ كَانَتْ زُبَيْدَةُ إِحْدَى فَرَائِدِ بَنَاتِ بَنِي الْعَبَّاسِ فِي الْفَضْلِ وَالْعِلْمِ، وَالتَّحَلِّيِ بِالْعِفَافِ؛ وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهَا قَدْ بَلَّغَتْ مَبْلَغًا عَظِيمًا فِي اسْتِلَامِ سَنَامِ الثَّقَافَاتِ الْمُتَنَوِّعَةِ فِي عَصْرِهَا، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا عُلُومِ الْقُرْآنِ، وَالسُّنَّةِ الْمُطَهَّرَةِ، وَمِنْ ثَمَّ الْمَعَارِفِ وَالْآدَابِ، وَفِي مُقَدِّمَتِهَا نَظْمُ الشُّعْرِ، وَرِصْفُ رِقَائِقِ الْكَلَامِ، وَرَائِقِ الْمَعَانِي - كَمَا سَيَمُرُّ مَعَنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ - .

* لِذَلِكَ عَجَمَ الرَّشِيدُ عِيْدَانَهُ، فَأَلْفَى أَنَّ زُبَيْدَةَ أَكْرَمَ تَلَكُمِ الْعِيدَانِ أَصْلًا وَمُحْتَدًّا، وَذِرْوَتَهَا أَدْبًا وَفَضْلًا، فَسَارَعَ إِلَى خُطْبَتِهَا، وَعَقَدَ عَلَيْهَا فِي سَنَةِ (١٦٥ هـ)، وَصَنَعَ وَلِيمَةً قِيلَ بِأَنَّهُ أَنْفَقَ عَلَيْهَا (٥٥ مليون درهمًا)^(١).

* وَأَعْرَسَ هَارُونُ بِزُبَيْدَةَ فِي شَهْرِ ذِي الْحِجَّةِ مِنْ سَنَةِ (١٦٥ هـ) فِي قَصْرِهِ الْمَعْرُوفِ بِالْخُلْدِ^(٢) فِي بَغْدَادَ، وَحَشَّدَ النَّاسَ مِنَ الْآفَاقِ، وَفَرَّقَ فِيهِمِ الْأَمْوَالَ، وَلَمْ يَرَّ فِي الْإِسْلَامِ مِثْلُهُ^(٣).

(١) تاريخ الإسلام لحسن إبراهيم حسن (٢/٤٢٤) بتصرف يسير .

(٢) «قَصْرُ الْخُلْدِ»: هُوَ ذَلِكَ الْقَصْرُ الشَّهِيرُ فِي بَغْدَادَ، وَالَّذِي بَنَاهُ الْخَلِيفَةُ الْعَبَّاسِي الشَّهِيرُ أَبُو جَعْفَرِ الْمَنْصُورِ بَعْدَ الْفِرَاقِ مِنْ بِنَاءِ مَدِينَةِ بَغْدَادَ، وَهُوَ مِنَ الْقُصُورِ ذَاتِ الْمَكَانَةِ عِنْدَ خُلَفَاءِ بَنِي الْعَبَّاسِ .

(٣) انظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٣١٤ و٣١٥) .

وَقَدْ أوردَ أَبُو الْحَسَنِ الشَّابِثِيُّ صُورَةَ عَرَسِ الرَّشِيدِ فَقَالَ: وَقَدْ جَرَى الْعُرْسُ فِي قَصْرِ الْخُلْدِ، وَحَشَرَ النَّاسُ مِنَ الْآفَاقِ، وَفَرَّقَ فِيهِمْ مِنَ الْأَمْوَالِ شَيْئًا عَظِيمًا، فَكَانَتِ الدَّنَانِيرُ تُجْعَلُ فِي جِمَامٍ - كَوْسٍ - مِنْ الْفُضَّةِ، وَالدَّرَاهِمُ فِي جِمَامٍ مِنْ ذَهَبٍ، وَنَوَافِجُ الْمِسْكِ، وَجِمَاجِمُ - أَقْدَاحٍ مِنْ خَشَبٍ - الْعَنْبَرِ، وَالْغَالِيَةُ فِي بَوَاطِ مِنْ زَجَاجٍ، وَيُفَرَّقُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ، وَيُخْلَعُ عَلَيْهِمْ خَلْعُ الْوُشِيِّ الْمَنْسُوجَةِ، وَأَوْقَدَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ بَيْنَ يَدَيِ الْعُرُوسَيْنِ شَمْعُ الْعَنْبَرِ مِنْ أَتَوَارٍ - أُنْيَةٍ - الذَّهَبِ، وَأُحْضِرَ نِسَاءَ بَنِي هَاشِمٍ، وَكَانَ يُدْفَعُ إِلَى كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ كَيْسٌ فِيهِ دَنَانِيرٌ، وَكَيْسٌ فِيهِ =

* هذا وقد عَزَا المؤرِّخُونَ، وكُتِّبَ الأدبَ أشياءَ كثيرةَ لُزُبَيْدَةَ، فقد قيلَ إِنَّ السَّيِّدَةَ زُبَيْدَةَ كَانَتْ تَصْنَعُ أَعْمَالاً تَفُوقُ مَقْدَرَةَ الْمُلُوكِ كَمَثَلِ اصْطِنَاعِهَا بِسَاطِطاً مِنَ الدِّيْبَاجِ جَمَعَ صُورَةَ كُلِّ حَيَوَانٍ مِنْ جَمِيعِ الْأَجْنَاسِ، وَصُورَةَ كُلِّ طَائِرٍ مِنَ الذَّهَبِ، وَأَعْيُنُهَا مِنْ يَوَاقِيتٍ وَجَوَاهِرٍ، يُقَالُ: إِنَّهَا أَنْفَقَتْ عَلَيْهِ نَحْواً مِنْ أَلْفِ أَلْفِ دِينَارٍ^(١).

مَرْوَةٌ تَهَا وَنُبْلُهَا:

* مَا أَوْفَدَ النَّاسُ مِنْ نَارٍ لِمَكْرَمَةٍ، إِلَّا كَانَتْ زُبَيْدَةَ مِمَّنْ يَصْطَلِي وَيُوقِدُ تِلْكَ النَّارَ، وَمَا سَارَعَ النَّاسُ إِلَى مَكْرَمَةٍ إِلَّا كَانَتْ زُبَيْدَةَ مِنَ السَّوَابِقِ إِلَى تَسْلُقِ ذُرَاهَا، فَقَدْ كَانَتْ ذَاتَ نَبْلِ وَمَرْوَةٍ قَلَّ أَنْ تُوجَدَ فِي الرِّجَالِ، فَكَيْفَ فِي النِّسَاءِ؟

* يَبْدُو لِي مِنْ خِلَالِ أَخْبَارِهَا بِأَنَّهَا كَانَتْ تَحِبُّ أَنْ تَكُونَ أَيَادِيهَا وَأَعْمَالُهَا عِنْدَ ذِي الرُّتْبَةِ الْقَدِيمِ، وَعِنْدَ ذِي الْخَلَّةِ الْكَرِيمِ، وَالْمُعْسِرِ الْعَدِيمِ، وَالْمُسْتَضْعَفِ الْحَلِيمِ، وَأَنْ تَكُونَ صَنَائِعُهَا لِلْمَعْرُوفِ خَالِصَةً لَوَجْهِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ.

= دراهم، وصينية كبيرة من فضة فيها، ويخلع عليها خلعة وشيء مثقل.

(الدِّيَارَات ص ١٥٦ و ١٥٧).

(١) انظر كتاب: حضارة الإسلام في دار السلام (ص ٩٥).

وزعم آخرون بأنَّ السَّيِّدَةَ زُبَيْدَةَ هِيَ ذَاتُ الْأَثَرِ الْوَاضِحِ فِي تَطَوُّرِ الْمَلَابِسِ فِي عَصْرِهَا، وَلِنَقْرَأِ الْفَقْرَةَ التَّالِيَةَ الَّتِي تَحْدِثُ عَنْ ذَلِكَ:

كَانَ لِلْسَّيِّدَةِ زُبَيْدَةَ أَثَرٌ كَبِيرٌ فِي تَطَوُّرِ الرِّبِّيِّ، وَإِدْخَالِ تَغْيِيرَاتٍ عَلَى مَلَابِسِ السَّيِّدَاتِ فِي عَصْرِهَا، فَيُعْزَى إِلَيْهَا اتِّخَاذُ الْمَنَاطِقِ وَالتَّلْعَالِ الْمَرْصُوعَةِ بِالْجَوَاهِرِ، وَكَانَ فَوْقَ ذَلِكَ تَسَرُّفٌ فِي شِرَاءِ مَلَابِسِهَا وَتَزْيِينِهَا، حَتَّى إِنَّهَا اتَّخَذَتْ ثَوْباً مِنَ الْوَشْيِ الرَّفِيعِ، يَزِيدُ ثَمَنَهُ عَلَى خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ (تَارِيخُ الْإِسْلَامِ لِحَسَنِ إِبْرَاهِيمَ حَسَن ٢/ ٤٣٠).

وَلَا حَظَّ - عَزِيزِي الْقَارِئُ - هَذِهِ الْأَخْبَارُ وَأَشْبَاهُهَا، وَأَمْعِنِ النَّظَرَ فِي قَوْلِهِمْ: يُقَالُ، يُعْزَى، إلخ... وَقَارِنْ فِيمَا قَالَهُ عَنْهَا ابْنُ تَغْرِي بَرْدِي وَغَيْرِهِ مِنَ الْمُنْصَفِينَ: هِيَ مِنْ أَعْظَمِ نِسَاءِ عَصْرِهَا دِيناً وَأَصْلاً وَصِبَانَةً وَمَعْرُوفاً، أَحْصَى مَا أَنْفَقَتْهُ فِي حُجَّةٍ وَاحِدَةٍ فَكَانَ أَلْفِي أَلْفِ دِينَارٍ. (النَّجُومُ الزَّاهِرَةُ ٢/ ٢١٤).

* فقد كان لزبيدة مع ما آتاها الله من الجمال وفضائل النفس، حظٌ من الثراء أيضاً، وثراؤها في حياة أبيها وجدها ثم زوجها، لذلك كانت شغوفةً بصنائع المعروف وإغاثة الملهوف.

* وَلَعَمْرُ الحقِّ، لقد أدركتُ زبيدةً أنَّ الخيرَ كلَّ الخيرِ في إحياء المروءات بما أعطاه الله من مالٍ سَخَّرَته لهذه الغايات، وخصوصاً إقالة العثرات.

* تروي المصادرُ قصصاً كثيرةً عن أنباء مروءتها، وتشيدُ بمعالي مكارمها، وبعراقة أصلها ونبلها، نختارُ منها القصةَ التاليةَ التي حكاها التتوخي ومفادها: كان داود كاتب أم جعفر زبيدة بنت جعفر العباسية، قد وُضِعَ في الحبسِ وكيلًا لزبيدة، وقد وَجَبَ لها على هذا الوكيل في حسابه مئتا ألف درهم.

* ومكثَ الوكيلُ في الحبسِ بضعة أيام، أجالَ فكره فيمن يكتبُ لهم من أصحابه كيما يخرجونه من غياباتِ السَّجَن، وهداهُ تفكيره إلى صديقين له وهما: عيسى بنُ فلان، وسَهْل بنُ الصَّباح، فكتبَ لهما ويرجوها أن يذهبا إلى وكيلِ زبيدة داود ليتكلما في أمرِ دَيْنِه وحسابه.

* وركبَ الرَّجلان إلى داود، وبينما هما في طريقهما إليه، لقيَهُما الفيضُ بنُ أبي صالح - وكان وزير المهدي - فسألَهُما الفيضُ وقال: ما خطبكما؟

قالا: نحنُ ذاهبان إلى داود كاتب زبيدة من أجلِ وكيلها.

فقال لهما الفيض: أتحبان أن أكونَ معكما وفي صحبتكما.

قالا: حُبًّا وكرامة.

* وانطلقَ ثلاثتهم إلى داود، وكَلَّمُوهُ في إطلاقِ الرَّجل، فقال داود: ليس الأمرُ بيدي، وإنما أكتبُ إلى أم جعفر أستشيرها. وكتبَ إليها يعلمها خبرَ القوم، وسببَ حضورهم، ومسألَتهُم في إطلاقِ الوكيل.

* وقرأتُ أم جعفر الرقعة، فوَقَّعتُ فيها بأنَّ يعرفهم داود بما وَجَبَ على

وكيلها من المال، ويعلمهم أيضاً أنه لا سبيلَ إلى إطلاقه دون أن يؤدي ما عليه من المال.

* وقرأ ثلاثتهم ما وقَّعته زبيدة على الرقعة، وهنا قال صديقا الوكيل عيسى وسَهْل: لقد قضينا حقَّ الرَّجُل، ووفينا بما وعدناه من ذهاب إلى داود، وقد رفضت أمُّ جعفر أن تطلقَ صاحبنا إلا بالمال، فقوموا نُنْصِرِف.

* وساءَ هذا الكلامُ الفيضَ بنَ أبي صالح فقال لهما: يا هذان، كأنَّا أتينا إلى هنا لكي نؤكِّدَ حبسَ الرَّجُل، أليسَ كذلك؟ فقالا له: وماذا نصنعُ إذا؟! فأجابهم الفيض والمروءة تفيض من عباراته: نؤدِّي عنه المال، ونخرجه من الحبس، ونكشفُ عنه ضائقته.

* ثم إنَّ الفيض أخذَ الدَّواة، وأمسَكَ بالقلم، وكتبَ إلى وكيله في حملِ المال عن الرَّجُل، ودفع بالكتاب إلى داود كاتب أم جعفر، وقال: قد أرحنا علَّتكَ في المال، فادفع إلينا صاحبنا.

* وأسقطَ في يدِ داود ما رأى، وقال للفيض: عذراً سيدي، فلا سبيلَ إلى ما طلبت حتى أعرفَ أمَّ جعفرِ الخبرِ.

* وكتبَ داودُ إلى زبيدة بالخبر، فوقعَت في أسفلِ رقعة: أنا أولى بهذه المكرُمة من الفيض بن أبي صالح، فاردُّ عليه كتابه بالمال، وادفعْ إليه بالرَّجُل، وقُلْ له لا يعاودُ مثلاً ما كان عليه^(١). من آثارها في الحج:

* في سنة (١٨٦ هـ) أزمعتُ زُبيدة على أداءِ فريضة الحجِّ إلى بيتِ الله الحرام، وكان زوجها هارون الرشيد قد عقَدَ العزمَ أيضاً على أداءِ الحجِّ أيضاً، ولما مشى هارونُ إلى مكة، ومشت معه زوجته زُبيدة، كان معه جماعة تبسطُ الدَّرانك^(٢) أمامهم، ثم تُطوى خلفهم، فلما أعيا دَعَا بخادم له، فألقى

(١) انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخي (٢/ ١٢٠ و ١٢١) بشيء من التصرف.

(٢) «الدَّرانك»: جَمْع، ومفردها: الدَّرَنوك والدَّرَنيك: ضَرْبٌ من الثياب أو البُسْطِ، له خمل قصير كَحَمَلِ المناديل، وبه يشبه فروة البعير والأسد، وقد يقال في جمع =

ذراعَه عليه وتأوّه وقال: والله لركوب حمارٍ شמושٍ خيرٌ من المشي على الدّرانك^(١).

* ووصلت زُبَيْدة الحرمَ، وقَضَتْ مناسكَ الحجِّ، ورأت ما يقاسيه أهلُ مكةَ، وضيوفُ الرّحمن من مصاعبَ ومتاعبَ في حُصولهم على ماءِ الشُّرب، فتأثّرت جدّاً لذلك، وحرّز في نَفْسِها ما يعاني أحباب الله من أجلِ شربة ماء، فقد بلغت شربة الماءِ ديناراً في ذلك العَصْر.

* هنالك تحرّكت بواعثُ الخيرِ في نفسها الكبيرة، وشمّرت عن همّةٍ عالية لتسقي أهل مكة والحجاج الماء؛ نَعَم:

وَإِذَا كَانَتِ الثُّفُوسُ كِبَاراً تَعَبَتْ فِي مُرَادِهَا الْأَجْسَامُ
* وفكّرت زُبَيْدة - رحمها الله - في وسيلةٍ لجلبِ المياهِ إلى الحرم حتى اهتدت إلى ذلك، فدَعَت خازنَها، وأوحت إليه أن يأتي أهلَ الصَّنَاعَةِ، وأن ينفذَ مشروعَ شقِّ قَنَاةٍ في وسطِ الجبالِ، وبين الصُّخور حتى يصلَ بالمياهِ إلى وسطِ مكة إلى الحرم.

* وسارع خازنُها فأحضر الخبراءَ والعَمَالَ، ومَن له دراية بهذا العملِ الكبير، وبدأ هؤلاء في تنفيذِ عملهم حيثُ اعتمدوا على عَيْنٍ تُسمّى «عين حنين» وعلى المياهِ الجوفيةِ مِنْ حولها.

* ولم يكنِ العملُ بسيطاً، وعلينا أن نتصوّرَ مدى صعوبةِ هذا العملِ عَصْرَ ذاك. يقولُ المؤرّخون: إنّ زُبَيْدةَ أَسَالَتْ المياهَ عشرةَ أميالٍ بخطِ الجبالِ، ونحت الصُّخور حتى غَلغَلَتْهُ مِنَ الحِلِّ إلى الحرم.

* ولم يكنِ لزُبَيْدة هذا العملِ الضَّخمِ فحسب، وإنّما لها آثارٌ كثيرةٌ في طريقِ مكةَ مِنْ مصانعَ حفرتها، وبركِ أَعَدَّتْها، وكذلك بمكةَ والمدينة^(٢).

* قالَ صاحبُ «التَّجُومِ الزَّاهِرَةِ» عن أعمالِها هذه: ولعلَّها عَمَّرَتْ في هذه

= «درنوك»: دَرَانَك. والدَرَنُوك: الطنفسة والبساط. (لسان العرب مادة درنك).

(١) العقد الفريد (٢٢٨/٦).

(٢) انظر: تاريخ بغداد (٤٣٣/١٤).

الحجّة المصانع التي بطريق الحجاز أو بعضها^(١).

* وأبرز الشّريشي صورةً من صُور أعمالها فقال: حَفَرَتِ العَيْنَ المعروفة بعين المشّاش بالحجاز، فإنّها حفرتها، ومهدتِ الطّريقَ لها في كلّ رَفَعٍ وَخَفُضٍ حتى أَجَرَتْها من مسافةٍ اثني عشر ميلاً. ولها في طريق مكة من العراقِ آثارٌ كثيرةٌ في مصانع حفرتها، وبركٍ أحدثتها، تنزلُ وفودُ الحجّيجِ عليها، فلا تجدُ ماءً إلا فيها فيشربون ويسقون إبلهم، ويتزوّدون، وهم في الكثرة أعدادٌ لا يحصيهم إلا خالقهم، والكلُّ داعون لزبيدة إلى زماننا هذا^(٢).

* وقال ابنُ الجوزي يثني على زبيدة وَيَحْمَدُ عَمَلَهَا: إِنَّهَا سَقَتْ أَهْلَ مكة بعد أن كانتِ الرَّأوِيَّةُ عندهم بدينار.

* وفي «الأعلام» قال الزّركلي - رحمه الله - : وإليها تُنسَبُ «عين زبيدة»^(٣)

(١) النجوم الزاهرة (٢/٢١٤).

(٢) شرح مقامات الحريري للشّريشي (٢/١٦٦).

(٣) «عين زبيدة»: هي عينٌ عذبةُ الماء، غزيرةٌ، مباركةٌ، وهي من أجلِّ الأعمال، وأعظمها، وأكثرها بركةً ونفعاً، وهي تنبعُ من وادي نعمان، وقد أَجَرَتْ لها الطّريق، ومهدتها لها، حيثُ تبدأ انطلاقتها من نعمان - وهو وادٍ من أكبر الأودية بمكة المكرمة - ثم تمرُّ بعرفات، فتقطعُ وادي عُرنةَ إلى الحَظْم، ثم تنحدرُ إلى منى، ثم إلى مكة.

وقد كان الحجّيجُ يعانون من قلةِ الماء، وارتفاعِ ثمنه قبل وجودِ هذه العين، فجاءت هذه العينُ ماءً بارداً على الظّما، وسُقيا طيّبةً تروي غلةَ الحجّاج، وأصبحَ مُعوَّلٌ الحجّاج عليها بعد الله - عزَّ وجلَّ -، واستمرَّ ماؤها المتدفّق مئآت السنين، ولا يزالُ إلى اليوم، إلا أنَّ مجرى العين القديم قد هُجِرَ، وحُوِّلَ إلى أنابيب ضخمةٍ متطورة، ولها اليوم في مكة إدارةٌ خاصّةٌ بها تُسمى: إدارة عين زبيدة.

ولقد مهّدت زبيدة - رحمه الله - طريقاً للحجّ من بغداد إلى مكة، يُسمّى «درب زبيدة»؛ أو: «طريق الجادة»، وجعلت في هذا الطّريق منافعَ ومرافقَ على جنباته، وحفرت الآبار والعيون، وصرفت على هذا الطّريق مبالغ عظيمة، قيل: إنّها بلغت حوالي أربعة وخمسين مليون درهماً.

ومن الجدير بالذكر أنَّ جامعة الملك سعود في مدينة «الرياض» عاصمة المملكة =

في مكة، جَلَبْتُ إليها الماءَ من أقصى وادي نعمان، وأقامتُ له الأُقنية حتى أبلَّغته مكة .

* وتمَّ العملُ المبارك الذي بلغتْ تكلفته ما يقترب من مليوني دينار^(١)، وقرَّتْ زبيدةٌ عَيْنًا وهي تجري «عين زبيدة» في مكة، وذلك في سبيلِ الله، لتوفِّر الماءَ لأهل مكة، وللذين يأتون ﴿رَجَاءًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَةٍ ﴿[الحج: ٢٧ - ٢٨].

* لقد كان الشُّرور يداعِبُ نَفْسَ زبيدة بهذا العمل الميمون، وكيف لا يداعبها الشُّرور، وتحاورُها المسرَّات، وقد رأت أمارات الشُّرور وعلامات الرُّضا ترتسمُ على وجوه ضيوف الرحمن^(٢)؟! .

= العربية السعودية قد قامت بعمل بحوث وحفريات لطريق الجادة؛ لتستكشف الآثار والآبار والمرافق المنظمة فيه، فوجدوا من ذلك العجب العجيب من الآبار والآثار التي كانت محيطة بهذا الطريق، وكلُّها من آثار زبيدة - رحمها الله -، فما أكرمها من امرأة!! آتاه الله مالاً، فتاجرت به مع الله - عزَّ وجلَّ - فربحت تجارتها بإذن الله: ولو أَنَّهُ حُسْنٌ وَحِيدٌ عَذْرَتُهُ وَلَكِنَّهُ حُسْنٌ وَثَانٍ وَثَالُثٌ ولزبيدة أعمال خيرية أخرى في أنحاء مختلفة من الدولة الإسلامية، ومن ذلك أنها أقدمت على بناء خانات وبیمارستانات وقصور وقلاع لضمّان راحة المسافرين في المناطق النائية خاصّة على طول امتداد النُّعور الإسلامية في بلاد الشَّام، ومن أجل الحفاظ وتحسين هذه المنشآت أوقفت زبيدة ضياعاً غلتها السنوية مئة ألف دينار . فهل تفتني نساؤنا اليوم إثر ومآثر زبيدة؟ وهل ينهجن نهجها في مضمائر الخيرات وأعمال البرِّ والإحسان؟! لا شك أنَّ هنالك نساء يحببن عمل الخيرات، وفي عصرنا الحاضر تُوجد بعض النسوة ممن لهن أياد بيض في مجال البر والفضائل والمكارم والعلم وكفالة الأيتام وعمل المبرات .

(١) قال ابن تغري بردي: أَحْصِي ما أنفقته زبيدة في حجة واحدة، فكان ألفي ألف دينار . - يعني: مليونين - (التَّجْوَم الزاهرة ٢/ ٢١٤) .

(٢) إِنَّ كُلَّ مَنْ يكرمه الله - عز وجل - بالحج إلى بيته الحرام يدرك أثر ذلك في نفسه هذا، ويقومُ العاملون الآن على شؤون المسجد الحرام بمتابعة هذا الطريق الكريم، =

* نعم لقد كانت زبيدة شديدة الشُّرور بهذا العملِ المبارك الذي لم يعرَّجْ على خاطرٍ أحدٍ منذ عهد نبيِّ الله إسماعيل بن إبراهيم - عليهما صلوات الله - وحتى عهد زبيدة، إلى أن ألَّهمها الله ذلك، بل لقد عزَّزَتْ رأيها، وصمَّمتْ على تنفيذِ هذا العمل عندما جاء خازنُها ووكيلُها ليقول لها متهيِّباً خُطورة العمل: يا أمَّ جعفر يلزمك في هذا العمل نفقة كثيرة؛ هنالك سَطَعَتْ زواهرُ نجومها، وقالت كلمتها الخالدة المشهورة: اعملْ ولو كَلَفَتْ ضربةُ الفأسِ ديناراً^(١).

تلكم هي عينُ زبيدة التي احتملتْ ماءَ الحياةِ هنيئةً إلى مكة، وحَكَّتْ تلك العينُ آثارَ زبيدة لمن شربَ منها، وظَلَّتْ تلكم العينُ غرَّةً واضحةً وضيئةً في جبينِ الدَّهرِ، ولعلَّ اللهَ قد أكرمَ زبيدة بحُسنِ صنيعها.

* روى الخطيبُ البغداديُّ - رحمه الله - بسنده عن عبدِ الله بن المبارك أنَّه قال: رأيتُ زبيدةً في المنام، فقلتُ: ما فعلَ اللهُ بك؟ قالت: غَفَرَ اللهُ لي بأوَّلِ مغولٍ ضُربَ في طريقِ مكة، رحمها الله تعالى^(٢).

* نعم إنَّ الجزاءَ من جنسِ العمل، فقد رغبتْ زبيدة أن يكونَ عملُها خالصاً لوجهِ الكريم، وما دون ذلك فلا وَزْنَ له بميزانها.

* تروي المصادرُ مصداق ذلك فتقول: إنَّ وكيلاً حضرَ إليها في بعضِ الأيام وقال لها: يا أمَّ جعفر، قد صُرفَ إلى الآن نحو أربعمئة ألف درهم!

فقالَتْ له بحزمٍ وقوة: يا هذا ما أردتَ بهذا القول إلا أن تعنَّفني وتغرَّسَ

= حيث يوفِّرون لملايين الحجاج الماءَ ووسائل الراحة، فعزى اللهُ خيراً كلَّ مَنْ عملَ خيراً إلى يومِ الدِّين.

(١) انظر: مرآة الجنان للبيهقي (٦٣/٢).

(٢) تاريخ بغداد (٤٣٤/١٤)؛ وانظر: وفيات الأعيان لابن خلكان (٣١٧/٢)، وذكر الرَّحالة ابن جُبَيْر أنَّ لها بعضَ الآثار في مزدلفة فقال: ومزدلفة بسيطٌ من الأرض فسيح بين جبَلَيْن، وحوله مصانع وصهاريج كانت للماء في زمانِ زبيدة. (رحلة ابن جبير ص ١٥٠).

النَّدَم في نَفْسِي، أو تمنعني من الخير، اذهب، واصرف، وتمم العمل، ولو كان أضعاف ذلك. ثم إنها اقترحت عليه أشياء أخرى يعملها، لما يعود بالخير والفائدة على المسلمين وقُصَادِ بيت الله الحرام.

* ولما انتهى العمل، جاء الوكيل إلى زُبَيْدَة، وأحضر العُمَال إلى بين يديها لكي يكتبوا الحِسَاب قُدَّامَهَا، وما كَلَّفَتْه تلَكم الأعمال الجِسام، وهناك قالت لهم قولتها النَّاصعة التي تتحلَّى بها الأسماع، ويتحلَّى بها جِند الدَّهْر: خَلُّوا الحِسَاب إلى يوم الحِسَاب. ثم أمرت بغسل الدَّفَاتر والأوراق رحمها الله تعالى^(١).

* وامتدت يدُ إحسان زُبَيْدَة إلى إصلاح الطُّرُق، وإيجاد المرافق والمنافع للعباد في طُرُق أسفارهم، فمن آثارها الكريمة، ما ذكره الرَّحَالَةُ ابنُ جبير - وهو ممن مات في أوائل القرن السَّابع في سنة ٦١٥ هـ - حيث روى ما شاهده في الطُّريق من بغداد إلى مكة، وما رآه من بركٍ ومصانع وآبارٍ من آثار زُبَيْدَة حيث قال: وهذه المصانع والبرك والآثار التي من بغداد إلى مكة، هي آثارُ زُبَيْدَة ابنة جعفر بن أبي جعفر المنصور زوج هارون الرَّشيد، وابنة عمِّه، انتدبت لذلك مدَّة حياتها، فأبْقَتْ في هذا الطُّريق مرافق ومنافع تعمُّ وَفَدَ الله تعالى كلَّ سنة من لدن وفاتها إلى الآن، ولولا آثارها الكريمة في ذلك لما سُلِكَتْ هذا الطُّريق، والله كَفِيلٌ بمجازاتها والرضا عنها^(٢).

* لقد كانت زُبَيْدَة - رحمها الله - ذاتَ معروفٍ كثيرٍ، وفِعْلٍ خيرٍ شهيرٍ، خَلَدَ التَّارِيخُ لها أعمالها النَّفيسة، وخاصَّة عين زُبَيْدَة بمكة، فلا يكادُ مؤرِّخٌ أو عالمٌ أو أديبٌ يذكرُ شيئاً من أخبارِ البلدِ الحرام، إلا يعرِّجُ على ما يشفي الغرامَ من ذِكرِ عين زُبَيْدَة، ومن الأمثلة الواضحة عن ذلك ما أورده الإمام أبو محمَّد عبد الله بنُ أسعد اليافعي اليميني المكي المتوفى سنة (٧٦٨ هـ) الذي ذَكَرَ عينَ زُبَيْدَة ووصفها في «مِرَاتِهِ» فقال: وهذه العينُ المذكورةُ التي

(١) العقد الثمين للفاسي المكي (٢٣٦/٨) بتصرف يسير جداً.

(٢) رحلة ابن جبير (ص ١٥٠).

أَجْرَتُهَا، آثَارُهَا بَاقِيَةٌ مُشْتَمِلَةٌ عَلَى عِمَارَةٍ عَظِيمَةٍ عَجِيبَةٍ، مِمَّا يُتَنَزَّهُ بِرُؤْيَيْهَا عَلَى يَمِينِ الذَّاهِبِ إِلَى مَنَى مِنْ مَكَّةَ، ذَاتَ بَنِيَّانٍ مُحْكَمٍ فِي الْجِبَالِ، تَقْصُرُ الْعِبَارَةُ عَنْ وَصْفِ حُسْنِهِ، وَيَنْزِلُ الْمَاءُ مِنْهُ إِلَى مَوْضِعٍ تَحْتَ الْأَرْضِ عَمِيقٍ، ذَاتِ دَرَجٍ كَثِيرَةٍ جَدًّا لَا يُوصَلُ إِلَى قَرَارِهِ إِلَّا بِهَبْوٍ كَالْبِيرِ يُسَمُّونَهُ لَظْلَمَتِهِ، يَفْزَعُ بَعْضُ النَّاسِ إِذَا تُرِكَ فِيهِ وَحْدَهُ نَهَاراً فَضْلاً عَنِ اللَّيْلِ^(١).

أُولَئِكَ قَوْمٌ إِنْ بُنُوا أَحْسَنُوا الْبَنَاءَ

وَإِنْ وَاعَدُوا أَوْفُوا وَإِنْ عَقَدُوا شَدُّوا

* وَأَمَّا أَبُو الْوَلِيدِ الْأَزْرَقِيُّ الْمَتَوَفَى سَنَةَ (٢٤٤ هـ) - وَهُوَ قَبْلَ الْيَافِعِيِّ بِأَكْثَرِ مِنْ خَمْسَةِ قُرُونٍ - فَإِنَّهُ عَقَدَ فَضْلاً نَفِيساً عَنِ الْعِيُونِ الَّتِي أُجْرِيَتْ فِي الْحَرَمِ وَذَلِكَ فِي كِتَابِهِ النَّفِيسِ «تَارِيخُ مَكَّةَ» فَقَالَ بَعْدَ أَنْ تَحَدَّثَ عَنْ انْقِطَاعِ الْعِيُونِ وَقِلَّةِ الْمَاءِ فِي مَكَّةَ: ثُمَّ كَانَ النَّاسُ فِي شِدَّةٍ مِنَ الْمَاءِ، وَكَانَ أَهْلُ مَكَّةَ وَالْحَاجُّ يَلْقَوْنَ مِنْ ذَلِكَ الْمَشَقَّةَ، حَتَّى إِنَّ الرَّاوِيَةَ لَتَبْلُغُ فِي الْمَوْسَمِ عَشْرَةَ دَرَاهِمٍ وَأَكْثَرَ وَأَقَلَّ، فَبَلَغَ ذَلِكَ أُمُّ جَعْفَرِ بِنْتِ أَبِي الْفَضْلِ جَعْفَرِ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَنْصُورِ، فَأَمَرَتْ فِي سَنَةِ أَرْبَعٍ وَتَسْعِينَ وَمِئَةٍ بِعَمَلِ بَرَكَتِهَا الَّتِي بِمَكَّةَ، فَأَجْرَتْ لَهَا عَيْناً مِنَ الْحَرَمِ، فَجَرَتْ بِمَاءٍ قَلِيلٍ، فَلَمْ يَكْفِ فِيهِ رِيٌّ لِأَهْلِ مَكَّةَ، وَقَدْ غَرِمَتْ فِي ذَلِكَ غَرَمًا عَظِيمًا، فَبَلَغَهَا ذَلِكَ، فَأَمَرَتْ الْمُهَنْدِسِينَ أَنْ يُجَرُّوا إِلَيْهَا عَيُونًا مِنَ الْحِلِّ، وَكَانَ النَّاسُ يَقُولُونَ: إِنَّ مَاءَ الْحِلِّ لَا يَدْخُلُ الْحَرَمَ، لِأَنَّهُ يَمُرُّ عَلَى عِقَابِ وَجِبَالٍ، فَأَرْسَلَتْ بِأَمْوَالٍ عِظَامٍ، ثُمَّ أَمَرَتْ مَنْ يَزِنُ عَيْنَهَا الْأُولَى، فَوَجَدَ فِيهَا فَسَادًا، فَأَنْشَأَتْ عَيْنًا أُخْرَى إِلَى جَنْبِهَا وَأَبْطَلَتْ تِلْكَ الْعَيْنَ، فَعَمَلَتْ عَيْنَهَا هَذِهِ بِأَحْكَمِ مَا يَكُونُ مِنَ الْعَمَلِ، وَعَظُمَتْ فِي ذَلِكَ رَغْبَتُهَا، وَحَسُنَتْ نِيَّتُهَا، فَلَمْ تَزَلْ تَعْمَلُ فِيهَا، حَتَّى بَلَغَتْ ثَنِيَّةَ رَحْلِ، فَإِذَا الْمَاءُ لَا يَظْهَرُ فِي هَذَا الْجَبَلِ إِلَّا بِعَمَلٍ شَدِيدٍ، فَأَمَرَتْ بِالْجَبَلِ فَضْرَبَ فِيهِ، وَأَنْفَقَتْ فِي ذَلِكَ مِنَ الْأَمْوَالِ مَا لَمْ يَكُنْ تَطِيبُ بِهِ نَفْسُ أَحَدٍ، حَتَّى أَجْرَاهَا اللَّهُ لَهَا، وَأَجْرَتْ فِيهَا عَيُونًا مِنَ الْحِلِّ، مِنْهَا عَيْنُ الْمَشَاشِ، وَاتَّخَذَتْ لَهَا بَرَكَةً تَكُونُ السُّيُولُ - إِذَا جَاءَتْ - تَجْتَمِعُ فِيهَا، ثُمَّ أَجْرَتْ لَهَا

(١) انظر: مرآة الجنان وعبرة اليقظان لليافعي (٢/٦٣).

عيوناً من حُنين، واشترت حائط حُنين، فصرفت عينه إلى البركة، وجعلت حائطه سُدّاً يجتمع فيه السَّيْل، فصارت لها مكرمة لم تكن لأحدٍ من قبلها، وطابت نفسها بالتَّفَقُّة فيها، بما لم تكن تطيبُ نفس أحدٍ غيرها، فأهل مكة والحاجُّ، إنّما يعيشون بها بَعْدَ الله عزَّ وجلَّ^(١).

* هذا ولا يستطيعُ الباحثُ أنْ يحصرَ - هنا - مآثر وآثارَ زبيدة - رحمها الله - ولو رُحِتْ أسجَلُ لك ما وردَ في ذلك لاحتجنا إلى مجلدٍ كبير، هذا وقد تكفّلتُ كُتُبُ التَّراجم والتَّاريخ والأدب والآثار بإحصاء أعمالها التي قامت بها في حياتها^(٢).

* وإني - بدوري الآن - قد أحصيتُ المنازل التي نزلتها أمُّ جعفر زبيدة من طريق بغداد، فالكوفة، إلى مكة ثم المدينة، وما قيل فيها من شِعْر، وفي الصَّفحات الآتية توضيحٌ لذلك.

المَوَاضِعُ وَالْمَنَازِلُ الَّتِي نَزَلَتْهَا زُبَيْدَةُ فِي حَجَّهَا:

* بلغتِ المنازل - المَوَاضِعُ - التي نزلتها زبيدة - وهي في طريقها إلى الحج - أكثرَ من خمسين منزلاً، ولها في كلِّ موضع أثرٌ طيّبٌ، وبعضُ هذه الآثار لا يزالُ يشهدُ بفضلها إلى وقتنا الحاضر، وبعضُها قد دُرسَ مع الأيام،

(١) انظر: تاريخ مكة للأزرقى (٦٢٧/٢) طبعة المكتبة التجارية بمكة المكرمة عام (١٤١٦ هـ).

(٢) تُنسَبُ إلى زبيدة - رحمها الله - مآثرٌ عمرانية كثيرة، وأعمالٌ خيريةٌ عديدةٌ في مختلف البلدان، ولا يفوتنا أن نشيرَ هنا إلى أنّها هي التي بنَت المسجد المنسوب إليها في بغداد، وكان هذا المسجد قريباً من مسجد العالم المشهور والرائد الكبير «معروف الكرخي»، وكان هذا المسجد واسعاً قوي الأركان، رصين البناء، وقد اندرست معالم هذا المسجد في نهاية القرن الثَّاني عشر الهجري في سنة (١١٩٥ هـ)، ولم يبقَ منه سوى قبر زبيدة، وعليه قبة مخروطية الشكل، تُعَبَّرُ إحدى نوادر الفنِّ المعماري؛ ويُنسَبُ إليها أيضاً من أعمال الخير «الرُّبَيْدِيَّة» وهي بركة بين المغشية والعُذيب، وبها قصر ومسجد عمّرتها زبيدة، يضاف إلى ذلك أعمال خيرية توزعت هنا وهناك تشهد لزبيدة بالخير والفضل والصَّلاح والإصلاح.

إِلَّا أَنَّهُ لَمْ يُدْرَسْ مِنْ ذَاكِرَةِ الْأَيَّامِ، وَمِنْ وَجْدَانِ الْمُنْصَفِينَ، وَمِنْ نَفُوسِ
الْمُحِبِّينَ لِلْخَيْرَاتِ.

* أَمَّا الْمَوَاضِعُ الَّتِي نَزَلَتْهَا زُبَيْدَةُ، فَمِنْهَا مَا هُوَ مَشْهُورٌ وَبَاقٍ إِلَى الْآنِ،
وَمِنْهَا مَا هُوَ غَيْرُ مَشْهُورٍ، وَهَذِهِ الْمَوَاضِعُ هِيَ عَلَى التَّرْتِيبِ كَمَا نَزَلَتْهَا حَتَّى
وَصَلَتْ الْمَنَاسِكَ:

الْفَرَاتُ - سُورَا - نَهْرُ آبَا - أَسْفَلُ الْفُرَاتِ - الْكُوفَةُ - الْقَادِسِيَّةُ - الْمُغِيثَةُ -
الْقَرَعَاءُ - وَاقِصَّةُ - الْعَقَبَةُ - الْقَاعُ - الرِّبَالَةُ - الشُّقُوقُ - الْبَطَّانُ - الثَّغْلِيَّةُ -
الْحُزَيْمِيَّةُ - الْأَجْفَرُ - فَيْدُ - تُوزُ - سَمِيرَا - الْحَاجِرُ - الثَّقِرَةُ - مُغِيثَةُ الْمَاوَانِ -
الرَّبْذَةُ - السَّلِيلَةُ - الْعُمُقُ - الْمَعْدِنُ - أَفَيْعِيَّةُ - الْمَسْلُحُ - الْغَمْرَةُ - ذَاتُ عِرْقٍ -
الْبِسْتَانُ - الْمُشَاشُ - مَكَّةُ - مَنَى - عَرَفَاتُ - الْمُزْدَلِفَةُ - الْمِشْعَرُ - بَطْنُ مَرٍّ -
عُسْفَانَ - قُدَيْدُ - الْجُحْفَةُ - الْأَبْوَاءُ - الشُّقْيَا - الرُّوحَاءُ - السَّيَالَةُ - مَلَلُ - الْمَدِينَةُ
- الطَّرْفُ - بَطْنُ نَخْلٍ - الْعَسِيلَةُ - الْمَحْدَثُ^(١).

* هَذَا وَقَدْ ارْتَجَزَ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو فِي قَصِيدَةٍ طَوِيلَةٍ وَجَمِيلَةٍ أَسْمَاءُ
الْمَوَاضِعِ وَالْمَنَازِلِ الَّتِي نَزَلَتْهَا زُبَيْدَةُ أُمُّ جَعْفَرٍ فِي حَجَّهَا، وَقَدْ أَشَارَ فِي كَثِيرٍ
مِنْ أَرْجُوزَتِهِ^(٢) إِلَى فَضْلِ زُبَيْدَةَ وَهَمَّتِهَا الْقُعْسَاءُ، وَعَزِيْمَتِهَا الْمَاضِيَّةُ، وَحَبَّهَا
لِلْخَيْرَاتِ، وَإِلَى مَآثِرِهَا وَأَثَارِهَا وَأَثَرِهَا فِي كُلِّ مَوْضِعٍ تَنْزَلُ فِيهِ.

* وَنَحْنُ مَرْسِلُو الْقَوْلِ - بِإِذْنِ اللَّهِ - فِي ذِكْرِ بَعْضِ الْمَنَازِلِ الَّتِي نَزَلَتْهَا،

(١) يُمْكِنُ الرَّجُوعُ إِلَى كِتَابِ: مَعْجَمِ الْبُلْدَانِ، وَكِتَابِ: الْمَنَاسِكَ لِلْحَرَبِيِّ، وَغَيْرِهَا مِنْ
الْكَتَبِ الْجُغْرَافِيَّةِ، وَكِتَابِ الْبُلْدَانِ، وَكِتَابِ السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ وَالتَّوَارِيخِ الْمُتَعَدَّةِ
كَالطَّبْرِيِّ وَالْكَامِلِ وَالْبَدَايَةِ وَالنِّهَايَةِ وَغَيْرِهَا، وَذَلِكَ لِمَعْرِفَةِ هَذِهِ الْأَمَاكِنِ وَمَوَاضِعِهَا
فِي وَقْتِنَا الْحَالِي، وَلَوْلَا الْإِطَالَةُ لَذَكَرْنَا ذَلِكَ.

(٢) أَشَارَ الرَّاجِزُ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو إِلَى كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ أَرْجُوزَتِهِ بِخَمْسَةِ أَبْيَاتٍ كُلُّ قَافِيَةٍ
تَخْتَلَفُ عَنْ الْأُخْرَى حَسَبِ الْمُنَاسِبَةِ أَوْ اسْمِ الْمَوْضِعِ؛ وَقَدْ بَلَغَتْ أَرْجُوزَتُهُ قَرَابَةَ
(٢٧٥ بَيْتًا) وَقَدْ اخْتَرْتُ بَعْضَهَا هُنَا لِتَتَوَضَّحَ صُورَةُ زُبَيْدَةَ - رَحِمَهَا اللَّهُ -، وَهَذِهِ
الْأَرْجُوزَةُ ذَاتُ قِيَمَةٍ كَبِيرَةٍ جَدًّا فِي تَحْدِيدِ الْأَمْكَنِ، فَضْلًا عَنْ قِيَمَتِهَا الْأَدَبِيَّةِ
وَاللُّغَوِيَّةِ.

ونشِيرُ إلى ذِكْرِ زُبَيْدَةٍ لَتَكُونَ سِيرَتُهَا إِمْتَاعَ الْأَسْمَاعِ، وَإِنْسَانَ الْعُيُونِ، وَأَنْسَ الْمُجَالِسِ، وَإِنْسَانَ الْمَجَالِسِ، وَلَتَكُونَ أَخْبَارُهَا عُيُونَ الْأَخْبَارِ، وَرَبِيعَ الْأَبْرَارِ، وَنِسْمَاتِ الْأَشْحَارِ، وَزَهْرَ الرِّيَاضِ، وَذِرْوَةَ كُلِّ جَمَالٍ.

* أَنْشَأَ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو^(١) يَذْكُرُ الْمَوَاضِعَ الَّتِي نَزَلَتْهَا زُبَيْدَةُ، بَعْدَ أَنْ قَطَعَتْ الْفِرَاتَ، فَوَصَلَتْ إِلَى «سُورَا» حَيْثُ قَالَ:

ثُمَّ عَطَفْنَاهَا بِنَهْرٍ سُورَا	نَتَّبَعُ قَصْرًا فَارِقَ الْقُصُورَا
حَرَّاقَةً تَخْتَرِقُ الْبُحُورَا	تَحْمِلُ فِي الْأَبْيَاتِ مِنْهَا نُورَا
سَيِّدَةً تَسْرِي بِنَا شُهُورَا	نَوْمٌ حَجًّا زَاكِيًا مَبْرُورَا
تَعْدُ أَبَاءَ لَهَا بُدُورَا	جَعْفَرًا الْأَكْبَرَ وَالْمَنْصُورَا
أَدَامَ ذُو الْعَرْشِ لَهَا الشُّرُورَا	وَصَيَّرَ الْحَجَّ لَهَا مَبْرُورَا

* ثُمَّ قَطَعَ الرِّكْبُ نَهْرَ آبَا، وَأَسْفَلَ الْفِرَاتَ، وَالْكُوفَةَ، وَوَصَلَ «الْقَادِسِيَّةَ»، وَتَحَدَّثَ الرَّاجِزُ عَنْ زُبَيْدَةٍ وَفَضْلِهَا عَلَى مَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْحَجِيجِ، وَأَشَارَ إِلَى إِخْلَاصِهَا فِي ذَلِكَ، فَقَالَ:

ثُمَّ رَحَلْنَاهَا لِقَادِسِيَّةً	أَجْمَالَ صَدَقٍ جَلَّةٍ سَرِيَّةً
نَقَطُورَهَا مَطِيَّةً مَطِيَّةً	وَهِيَ مِنْ جَمَامِهَا وَحْشِيَّةً
وَنَحْنُ حَوْلَ عَبْلَةٍ نَجِيَّةً	تَحْمِلُ شَمْسًا فَوْقَهَا مُضِيَّةً
مِيمُونَةً غَرَاءَ هَاشِمِيَّةً	تُفْضِلُ بِالْخَيْرِ عَلَى الْبَرِيَّةِ
قَدْ أَخْلَصَتْ لِلَّهِ صَدَقَ النَّيَّةِ	حَتَّى تُوَافِيَ الْكَعْبَةَ الْمُبْنِيَّةَ

* وَقَطَعَ الرِّكْبُ بَعْدَ الْقَادِسِيَّةِ الْمُغِيثَةِ، ثُمَّ الْفَرَاعَاءَ، ثُمَّ وَاقَصَةَ حَتَّى وَصَلُوا «الْعُقْبَةَ»؛ وَفِي الْعُقْبَةِ تَهَبُّ زُبَيْدَةُ الْمَالَ لِلْغَادِي وَالرَّائِحِ، وَتَأْمُرُ بِخَفْرِ بَعْضِ الْأَثَارِ، وَإِجْرَاءِ بَعْضِ الْعُيُونِ، لَتَكُونَ سُقْيَا لِلشَّارِبِينَ مِمَّنْ يَقْصِدُونَ بَيْتَ اللَّهِ الْحَرَامَ وَهِيَ تَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - وَفِي ذَلِكَ الْمَنْزِلِ يَقُولُ أَحْمَدُ بْنُ عَمْرٍو:

(١) مِنَ الْجَدِيدِ بِالذِّكْرِ أَنَّ هَذِهِ الْأَجُوزَةَ الْجَمِيلَةَ قَدْ جَاءَ فِيهَا بَعْضُ النَّقْصِ، وَسَقَطَ مِنْهَا بَعْضُ الْأَبْيَاتِ، وَاضْطَرَبَتْ فِيهَا بَعْضُ الْأَوْزَانِ، فَحَاولَتْ أَنْ أَكْمَلَ مَا نَقَصَ فِيمَا أَوْرَدْتَهُ فَقَطْ، لِيَكُونَ النَّصُّ أَقْرَبَ إِلَى الصَّحَةِ وَالصَّوَابِ، وَاللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْقَصْدِ.

ثُمَّ أَتَيْنَا مَنْزِلًا بِالْعَقَبَةِ يَخْوِي صُخُورًا فِي ذُرَا مُنْتَصِبَةٍ
وَهَبْطَةً فِي سَفْحِ أَرْضٍ مُخَصَّبَةٍ تَسْمَعُ لِلنَّاسِ لَدَيْهَا جَلْبَةً
تَرَى بِهَا لِلْأَكْبَرَيْنِ الْغَلْبَةَ وَفِي الْقِبَابِ حُرَّةٌ مُحَجَّبَةٌ
سَيِّدَةٌ تَمْنَعُ قَبْلَ الطَّلَبَةِ وَلَا تَرِيدُ الْمَالَ إِلَّا لِلْهَبَةِ
أَجْرَتْ عُيُونًا فِي فَلَا مُعْتَذَبَةٍ أَمَسَتْ عَلَى النَّاسِ بِهَا مُحْتَسِبَةٌ

* ولما رحلَ الرِّكْبُ الرُّبَيْدِي - أي: زُبَيْدَة وَمَنْ مَعَهَا - مَرَّ بِالْقَاعِ ثُمَّ
الزَّبَالَةِ، إِلَى أَنْ وَصَلَ مَنْطِقَةَ «الشَّقُوقِ»، فَوَجَدَتْ زُبَيْدَةً قَلَّةَ مَائِهِ، فَأَمَرَتْ
بِحَفْرِ الْآبَارِ أَيْضًا، كَمَا أَمَرَتْ بِالْبَحْثِ عَنِ الْآبَارِ الْمَهْجُورَةِ، وَإِصْلَاحِهَا،
وَالْبَحْثِ عَنِ عِيُونِ الْمَاءِ لِيَرْتَوِيَ الْحَجَّاجُ، وَقَدْ وَصَفَ الرَّاجِزُ هَذَا الْأَثَرُ
الطَّيِّبَ الْمَعْطَاءَ الْمَعْطَارَ فَقَالَ:

ثُمَّ تَرَحَّلْنَا إِلَى الشَّقُوقِ مُنِيزِلٌ فِي مَائِهِ ذِي ضِيْقٍ
قَدْ كَادَ أَنْ يَقْطَعَ بِالْفَرِيقِ لَوْلَا فِعَالُ الْبَرَّةِ الصَّدُوقِ
وَمَا نُعَانِيهِ مِنَ الطَّرِيقِ لَمْ يَكُ لِلْحَجَّاجِ بَلُّ الرِّيقِ
لَكِنَّهَا أَجْرَتْ بِكُلِّ نَيْقٍ مَاءَ عِيُونٍ شَبَّهَ الْبُشُوقِ
أَوْ نَقَبٍ بئِرٍ نَاتِقٍ عَمِيقٍ يَرُوي ذَوِي الْحَجِّ وَأَهْلَ الشُّوقِ

* وَانْطَلَقَ رَكْبُ الْحَجِّ، وَفِيهِ زُبَيْدَة، وَقَطَعَ الْبَطَانَ، وَالثَّلَعِيَّةَ،
وَالْخَزِيمِيَّةَ، حَتَّى وَصَلَ مَكَانًا يُقَالُ لَهُ «الْأَجْفَرُ»، وَكَانَ مُوعِرًا لَا مَاءَ فِيهِ،
فَسَعَتْ فِي تَسْوِيَةِ طَرِيقِهِ، وَأَمَرَتْ بِحَفْرِ الْآبَارِ فِيهِ، فَجَاءَتْ آبَارُهُ عَذْبَةٌ
الطَّعْمِ، وَهَنَّاكَ جَادَتْ عَلَى الْحَجَّاجِ مِنْ مَالِهَا وَعَطَائِهَا، قَالَ الرَّاجِزُ يَشْنِي عَلَى
سَاقِيَةِ الْحَجَّاجِ:

ثُمَّ نَزَلْنَا مَنْزِلًا بِالْأَجْفَرِ بَعْدَ طَرِيقِ خَشْنِ مُوَعَّرِ
سَهَّلَهُ اللَّهُ بِأَمٍّ جَعْفَرِ فَصَارَ مَوْزُودًا حَمِيدَ الْمُضْدِرِ
رُؤْمِي بِعَذْبِ الطَّعْمِ مِثْلَ الشُّكْرِ وَرَاجِلَ أَشْعَثِ شَعْرِ أَغْبَرِ
جَادَتْ لَهُ بِفَضَّةٍ وَجَوْهَرِ سَاقِيَةُ الْحَجَّاجِ ذَاتُ الْمَفْخَرِ
طُوبَى لَهَا يَوْمَ الْجَزَاءِ الْأَوْفَرِ زُبَيْدَة طُوبَى لَأَمٍّ جَعْفَرِ

* وَبَعْدَ الْأَجْفَرِ مَبَاشِرَةً نَزَلَتْ «فَيْدُ»، هَنَّاكَ قَالَ الرَّاجِزُ يَشْنِي عَلَى جُودِ

وكرم زبيدة، ويذكر عطفها على الفقراء :

ثُمَّ بِإِذْنِ اللَّهِ جُنْنَا فَيَدَا	قُبِيلَ وَجْهِ الصُّبْحِ أَوْ بُعِيدَا
وَرَجَّعَ الْحَادُونَ هَيْدًا هَيْدَا	فَظَلَّتِ الْعَيْسُ تَمِيدُ مَيْدَا
تَخْطُو عَلَى هَيْبَتِهَا رُويدَا	تَحْمِلُ غَرَاءَ تَفِيدُ فَيَدَا
تَفُكُّ مَنْ فَقِرَ الْفَقِيرُ الْقَيْدَا	تَدْفَعُ مَنْ خَطَبِ الدُّهُورِ الْكِيدَا
تَرَى وَجُوهَ الْبَرِّ طُرًّا صَيْدَا	طُوبَى وَطُوبَى لِكَ يَا رُبَيْدَا

* أمّا في منطقة «سميرا» فقد عملت حوضاً كبيراً لشرب الحجيج، وأضحى الماء - بإذن الله - غزيراً نَمِيراً سائغاً لضيوف الرحمن، وحكى الراجز ما أنفقته زبيدة فقال :

ثُمَّ وَرَدْنَا بَعْدَهُ سَمِيرَا	نَقَدُّمُ الْأَثْقَالِ عِيراً عِيراً
وَقَدْ أَلْفَنَّا اللَّيْلَ وَالْمَسِيرَا	وَنَحْنُ نَقْفُو قَمَرًا مُنِيرَا
سَيِّدَةً قَدْ أَغْنَتْ الْفَقِيرَا	وَأَنْفَقَتْ مِنْ مَالِهَا كَثِيرَا
عَلَى الْحَجِيجِ سَهَّلَتْ عَسِيرَا	وَأَنْبَطَتْ عَيْنًا لَهُم وَبِيرَا
وَكُلَّ حَوْضٍ يَشْبُهُ الْغَدِيرَا	فَأَصْبَحَ الْمَاءُ لَهُم غَزِيرَا

* وانطلق الركب إلى «الحاجر»، وعنده قال الراجز :

ثُمَّ قَصَدْنَا بِالتُّزُولِ الْحَاجِرِ	مُنِيرًا ضَاقَ عَنِ الْمَتَاجِرِ
وَعَنْ قُرَى بَادِيَةٍ وَحَاضِرِ	وَقَدْ رَحَلْنَا بَرَكَ الْأَبَاعِرِ
وَهُنَّ يَضْغِينَ لَزْجَرِ الزَّاجِرِ	وَبَيْنَنَا بَنَتْ ذَوِي الْمَآثِرِ
وَمُنْتَهَى الْفَخْرِ لَذِي الْمَفَاخِرِ	فِي قُبَّةٍ تَرُوقُ عَيْنَ النَّاطِرِ
ذَاتِ الْأَيْادِي وَالْعَطَاءِ الْوَافِرِ	وَمَنْ بِهَا يَحْسُنُ قَوْلُ الشَّاعِرِ

* ثم ارتحلت إلى «التقرة» حيث كان لها منزلٌ ميمون، إذ كانت المنطقة مهجورة، فأصبحت معمورة ذات آبارٍ وعيون، كلُّ هذا بفضلِ الله - عزَّ وجلَّ - ثم بسببِ السَّيِّدَةِ الْمُحِبَّةِ زبيدة - رحمها الله - فلله درّ الراجز إذ قال :

ثُمَّ نَزَلْنَا بَعْدَهُ بِالتَّقْرِه	بِمَنْزِلٍ بَيْنَ صَخُورٍ وَعَرَه
لَيْسَ بِهِ مَنْ نَبَتْ أَرْضُ خَضِرِه	ظَلَّتْ إِلَيْهِ عَيْشُنَا مُشْمِرِه
حَتَّى أُنِيخَتْ ذُلًّا مُنْبَهَرِه	وَفِي الْقَبَابِ حَرَّةٌ مُفْتَحِرِه

على الملوك بالندي مُقْتَدِرَه لكلِّ خَيْرٍ لم تَزَلْ مُدْخِرَه
لها عيونٌ في الفلا مفتخره أضحت على الناس بها مؤتجره

* وسارت زبيدة من النَّقْرة إلى مغيثة الماوان، ثم الرَّبْذة، ثم وصلت
«السَّليلة»؛ وفيها صنعت زبيدة كما صنعت بغيرها، حيث كانت مياهها نادرةً
وقليلة، فبذلت أموالاً كثيرة، فاستخرجت الماء على الرغم من صعوبة
ذلك، إلا أنَّ تلك المصاعب لم تقف أمام همتها القَعْساء، بل ذللت لها
الصَّعاب تذليلاً، وكأنَّ الله - عزَّ وجلَّ - قد جعل الفضل على يد بنت
أبي الفضل زبيدة، وهكذا رسم الراجز أحمد بن عمرو زبيدة وهي تُجري
الماء في السَّليلة فقال:

ثُمَّ تَرَحَّلْنَا إِلَى السَّليلة مَرَحَلَةً مِياهُها قَلِيلَة
تَعْجِزُ عَنْ رَفْعِها التَّزِيلَة فَأَنْجَدَتْ ذَاتَ الْيَدِ الْجَمِيلَة
يَبْذُلُ أَمْوَالٍ لَهَا جَزِيلَة فَاسْتُخْرِجَ الْمَاءُ بِكُلِّ حِيلَة
فَضْلاً عَلَى الْحِجَاجِ وَالْقَبِيلَة لَقَدْ حَبَا ذُو الْقُدْرَةِ الْجَلِيلَة
بُنْتُ أَبِي الْفَضْلِ يَدَا الْفَضِيلَة لَهَا سَمَاءٌ أَبَدًا مَخِيلَة

* وانطلقت زبيدة بمن معها من السَّليلة إلى «العُمق» مباشرة، وفعلت
كما فعلت بالسَّليلة، إذ أجرت الماء للحجاج، قال الراجز:

ثُمَّ تَوَجَّهْنَا نُرِيدُ الْعُمَقَا مَنْزَلَ صَدَقٍ لَمْ يَزَلْ مُرْتَفَقَا
بِبُئْرِ مَاءٍ طَابَ مِنْهَا الْمُسْتَقَى وَالْعَيْسُ تَسْرِي فِي الظَّلَامِ حَزَقَا
وَرَاكِبُوهَا يَصِلُونَ الْأَرْقَا وَالتُّورُ فِي الْقُبَّةِ يَجْلُو الْأَفْقَا
مِنْ حُرَّةٍ تَرَى الْعَطَايَا خُلُقَا أَحْيَتْ لِمَنْ لَبَّى وَحِجَّ الطُّرُقَا
أَجَرَتْ لَهُمْ مَاءً رَوَاءَ غَدَقَا فَاللهُ يَجْزِيهَا بِذَخِرٍ وَبَقَا

* ومن العُمق انطلقت زبيدة إلى منطقة «المعدن»، حيث تفقدت الفقراء
والمساكين، ثمَّ أجرت الماء في تلك المنطقة، وانهال عليها الشَّاء من كلِّ
لسان، وصار ذكرها العَطِر على كلِّ لسان، قال الراجز:

ثُمَّ نَزَلْنَا بَعْدَهُ بِالْمَعْدِنِ مَنْ بَعْدَ سَيْرٍ فِي الظَّلَامِ مَدْمِنِ
عَلَى طَوِيَّاتٍ وَبُزْلِ بُدْنِ يَحْمِلْنَ كُلُّ ذِي ابْتِهَالٍ مُؤْمِنِ

يَدْعُو لَأَمْ جَعْفِرٍ فِي الْمَوْطِنِ إِذْ فَرَجَتْ عَنِ الْفَقِيرِ وَالْغَنِيِّ
فَالْمَاءُ فِي كُلِّ طَرِيقٍ أَخْشَنَ فَلَيْسَ عَنْهُ رَاحِلٌ بِمُثْنِي
جَادَتْ بِهِ لِلْمُؤْمِنِ الْمُهِيمِنِ وَاللَّهُ قَدْ يَجْزِي بِفَضْلِ الْمُحْسِنِ

* وسار الركب الزبيدي فقطع أفيعة حتى وصل «المسلح»، فجددت زبيدة تجارتها مع الله - عز وجل - وسعت في حفر بئر هنالك، وعين ماء تجري فوق الأرض لينهل منها الرائح والغادي، وهي ترجو بذلك وجه الكريم المتعال، وفي منزل المسلح يقول الراجز:

ثُمَّ أَتَيْنَا مَنْزِلًا بِالْمَسْلَحِ جُزْنَا عَلَيْهِ كُلَّ خَرْقٍ أَفِيحٍ
عَلَى حَدِيدَاتِ الْعُيُونِ الطَّمَحِ خُزْرٌ مَتَى تُخَدُّ تُرْحُ وَتَفْرَحُ
بُنْتُ أَبِي الْفَضْلِ تَجَزَّتْ فَارْبِحِي وَبَعْتَ أَمْوَالًا بِحَظِّ الْمَفْلَحِ
فِي حَفْرِ بَيْرٍ لَوْ جَرَتْ لَمْ تَنْزَحِ وَعَيْنِ مَاءٍ أُجْرِيَتْ فِي صَخْصَخِ
حَتَّى انْتَهَى إِلَى حِيَاضِ الْأَبْطَحِ يَرُوي لَدِي حَجٍّ وَمَنْ لَمْ يَبْرَحِ

* واتجهت زبيدة من المسلح إلى «الغمرة» لتعمل على تفجير المياه فيها أيضاً، وأجرها بذلك على العليّ القدير، قال الراجز:

ثُمَّ نَزَلْنَا مَنْزِلًا بِالْغُمْرَةِ مِنْهُ يَلْبِي مَنْ أَرَادَ الْعُمْرَةَ
وَالْحَجَّ لِلرَّحْمَنِ لَا لِلشُّهُرَةِ وَافْتَهُ مَنَا رُمْرَةً فَزُمُرَةَ
تَغْدُ سَيْراً مَالَهُ مِنْ فَتْرَةِ نَتَّبِعُ غَرَاءَ لَخِيرِ عَثْرَةِ
لَمْ تَخُلْ مِنْ خِلَافَةٍ وَإِمْرَةِ أَحَيْتُ ذَوِي الْحَجِّ وَأَهْلَ الْعُسْرَةِ
فَفَجَّرْتُ عَيْنًا لَهُمْ مِنْ صَخْرَةِ وَاللَّهُ يُعْطِي جَازِيًا بِقُدْرَةِ

* وفي «ذات عرق» - وهو مكان شهير في كتب السيرة - عملت زبيدة ما استطاعت من الخيرات، فأخذ الناس يلهجون لها بالدعاء بأن يبقياها الله ذخرًا لهم، قال الراجز:

ثُمَّ تَوَافَيْنَا بِذَاتِ عِرْقٍ بِمَنْزِلٍ يَجْمَعُ أَهْلَ الطُّرُقِ
مَنْ كُلِّ فَجٍّ عَادِلٍ وَأَفْقٍ وَلَيْسَ فِي إِحْرَامِهِمْ مَنْ فَرِقِ
وَلَا يَحْلَوْنَ بِدُونِ الْحَلْقِ شُعْتُ يَدِينُونَ بِدَيْنِ الْحَقِّ
لَبُّوا وَقَالُوا يَا عَزِيزُ أَبْقِ بُنْتُ أَبِي الْفَضْلِ لِهَذَا الْخَلْقِ

وكلُّهم يَروي بها وَيَسقي واللهُ يَجْزي كلَّ مُسْتَحِقٍّ
 * ومن ذاتِ عِزِّي، انطلقَ الرِّكْبُ الزَّيْدي الميمونُ إلى «البُستانِ»
 مباشرةً، هنالك حطَّت زبيدة رَحالها لتضمَّ فخراً آخر إلى مفاخرها الحِسانِ،
 فعملت على حَفْرِ بئرٍ، بل أمرت بإكثار الماء في البُستان لينهلَ منه الحجاج
 من أي مكانٍ وفدوا، وكانت تعملُ هذا كله من أجلِ مرضاةِ الله - عزَّ وجلَّ -
 فهل هناك غاية أرفعُ من هذه؟! قال الرَّاجزُ:

حتَّى إذا ما رُفِعَ البُستانُ	ومُنْزِلُ تَكْنُفِهِ حِيطَانُ
فيه صُنُوفُ النَّخْلِ والرَّيحَانُ	خَفَّ إليه الرُّجُلُ والرُّكبانُ
ذُكْراً لأوطانٍ هي الأوطانُ	وكلُّهم يَسِيرُهُ جَذْلانُ
ما فيهمُ إذ ورَدُوا عَطْشانُ	عمَّتْهمُ بالرِّي حيثُ كانوا
مَنْ هَمُّها المعروفُ والإحسانُ	مَنْ بها عليهمُ الرَّحْمَنُ

* ووصل الرِّكْبُ إلى المشاشِ ثمَّ مكةَ، ثم «منى» وفعلت زبيدة هنالك
 ما فعلت من توفيرِ المياه للعباد الذين أتوا من كلِّ فجٍ عميقٍ، وهم يلبُّون،
 فإذا بهم يَرونَ الماءَ نَميراً عذباً، بعد أن كان نادراً، وثمنه مرتفعٌ جداً، إلا أنَّ
 زبيدة أجرتِ المياه، لينتفعَ به العبادُ، قال الرَّاجزُ:

ثُمَّ خَرَجْنَا رُماً إلى منى	مُسْتَبْشِرِينَ إذ بِهَا نَلْنَا المُنَى
نَرْجُو الثَّوَابَ والغنى من ذي الغنى	برحمةٍ واسعةٍ تَمَّتْ لَنَا
هُنَاكَ يا أَشْرَفَ خَلْقٍ بَيْنَنَا	تَجَنَّبَ مِنْ غَرَسِكَ طِيبَ الْمُجْتَنَى
يدعو لكِ النَّاسُ وقد حَقُّوا بنا	من بعدِ شُكْرِكَ لِكِ مِنْهُمْ وَثْنَا
إذْ بكِ في الماءِ لَقُوا طُولَ العَنَا	واللهُ يَجْزي نِعْماً مَنْ أَحْسَنَا

* وفعلت زبيدة أعمالها المباركة في كلِّ الأماكن المباركة، في الديار
 المقدَّسة، إذ كَفَّتِ النَّاسَ الماءَ في «مزدلفة»، فإذا بالحجاج يتضرَّعون إلى
 الله أن يكرِّمها ويجزيها خيرَ الجزاء، ويقرَّ عينها بما تصنع من إحسان، وفي
 صَنِيعها بالمزدلفة قال الرَّاجزُ:

ثُمَّ ابْتَدَرْنَا دَفْعَةَ المُزْدَلْفَةِ	عند غروبِ الشَّمْسِ يو عَرَفَةَ
فازدَحَمْتُ رفاقنا مُنْصَرِفَةً	بِهَجْمَةٍ في السَّيْرِ مِنْهُمْ عَفَّةٌ

نحو صَلَاةٍ جُعِلَتْ مُؤْتَلَفَةٌ لوقتٍ أُخْرَى سُنَّةٌ مُنْسَلَفَةٌ
وَجَدَّ النَّاسُ الدُّعَاَ بِالْمَعْرِفَةِ لِحُرَّةِ آبَارِهَا فَوْقَ الصَّفَةِ
كَفَّتْهُمْ مَاءَ الطَّهْوَرِ وَالشَّفَةِ فَكُلُّ وَقْتٍ عَيْرُهُمْ مُخْتَلَفَةٌ

* وسارت زبيدة من المزدلفة إلى المشعر الحرام، ثم بطن مر، ثم عُسْفَان، حتى وصلت «قديد»، قال الراجز:

ثُمَّ تَرَحَّلْنَا إِلَى قَدِيدٍ فِي جُدَدٍ تَفْضِي إِلَى جُدِيدٍ
تَمِيدُ فِيهِ الْعَيْسُ أَي مِيدٍ وَمَالَهَا عَنْ سَمْتِهِ مِنْ حَيْدٍ
بِعُسْكَرٍ مَجْتَمِعٍ زُبَيْدِي رَائِدُهُ يَظْفَرُ عِنْدَ الرَّيْدِ
بِالْخَضْبِ وَالْمَاءِ وَلَحْمِ الصَّيْدِ وَكُلَّ خَيْرٍ يُرْتَجَى وَفَيْدٍ
مِنْ ابْنَةِ الْمَنْصُورِ ذَاتِ الْأَيْدِي ضَامِنَةِ الدَّيْنِ وَفَكِّ الْقَيْدِ

* وتركت زبيدة قديداً، ووصلت الجحفة، ثم كانت قد أدت مناسك حجتها، وتابعت مسيرها نحو المدينة المنورة.

* وفي طريقها إلى المدينة صنعت صنائع المعروف، فلها في «الأبواء» آثار طيبة، فقد نزلت بها، وأمرت بأن يكون الماء وفيراً بها، وأن يكون هناك غديرٌ ينتفع به الناس، قال الراجز:

ثُمَّ نَزَلْنَا مِنْزِلَ الْأُبْوَاءِ فِي نَفْنَفٍ نَاءٍ عَنِ الْأَحْوَاءِ
نَجْنَبُ كُلَّ بَغْلَةٍ سَفْوَاءِ زِيَاةٍ وَنَاقَةٍ رَهْوَاءِ
تَحْمِلُ فِي قَبْئِهَا الْعُلْوَاءِ سَيِّدَةٌ تُعْرِفُ بِالْوَفَاءِ
سَمَاؤُهَا صَادِقَةُ الْأَنْوَاءِ أَبْقَتْ بِأَرْضٍ جَدْبَةٍ قَوَاءِ
غَدِيرَ مَاءٍ وَاسِعٍ رَوَاءِ فَلَا رَأَتْ شَيْئاً مِنَ الْأُسْوَاءِ

* وانتقلت زبيدة وركب الحجيج معها من الأبواء إلى السُّقْيَا لتنفق

هناك، وتطعم، وتكسو، وتعمّر الطُّرُقَاتِ بِمَنَابِعِ الْمِيَاهِ، وبذلك قال الراجز:

ثُمَّ رَكَبْنَا فَأَتَيْنَا السُّقْيَا تَحْدِي بِنَا الْعَيْسُ إِلَيْهَا حَدْيَا
فِي سَبَسٍ يَقْضِمُنَ فِيهِ الْحَلْيَا وَيَبْنِي أَشْرَفُ أَهْلِ الدُّنْيَا
بُنْتُ الْمُلُوكِ أَوْرَثُوهَا هَذْيَا لَيْسَ عَلَى الْمَالِ لَهَا مِنْ بُقْيَا
تُنْفِقُهُ فِي طَعْمٍ كَذَا وَسُقْيَا وَفِي كِسَا مِنْ يَكُونُ يَشْكُو الْعُرْيَا

فَالطَّرْقُ بَعْدَ اللَّهِ مِنْهَا تَحْيَا وَاللَّهُ يَجْزِي بِالْأَيَادِي الْعُلْيَا

* وبعد السُّقْيَا، انطلقت زُبَيْدَةُ إِلَى الرُّوحَاءِ، وَإِلَى السَّيَالَةِ، وَفِي كُلِّ مَوْضِعٍ وَفَرَّتِ الْمَاءَ، ثُمَّ وَصَلَتْ مَلَلًا، وَكَانَتْ قَلِيلَةَ الْمِيَاهِ، فَأَرْوَتْ الْحِجَاجَ بِمَا صَنَعَتْ مِنْ بَرَكَ وَأَثَارٍ، ثُمَّ زَارَتْ الْمَدِينَةَ الْمُنَوَّرَةَ، وَانصرفت بعدها إِلَى الطَّرَفِ ثُمَّ إِلَى بَطْنِ نَخْلٍ، حَيْثُ أَكْرَمَتْ جَمِيعَ مَنْ وَفَدَ إِلَيْهَا مِنَ الْأَرَامِلِ وَالضَّعَافِ وَالْأَيْتَامِ وَغَيْرِهِمْ، ثُمَّ أَتَتْ «الْعُسَيْلَةَ»، وَكَانَتْ هَذِهِ الْمُنَاطِقَةُ مِنَ الْمَنَاطِقِ الَّتِي يَنْدَرُ فِيهَا الْمَاءُ، فَعَمَلَتْ جَهْدَهَا عَلَى إِسَالَةِ الْمَاءِ وَصَنَعَ الْبَرَكِ، حَتَّى أَصْبَحَ سَهْلُ الْمَنَالِ لِكُلِّ قَاصِدٍ، قَالَ الرَّاجِزُ:

ثُمَّ نَزَلْنَا بَعْدَهُ الْعُسَيْلَا بِمَنْزِلٍ كَانَ حِمَاهُ غَيْلَا
تَحْرِقُهُ الرِّيَّاحُ ذَيْلًا ذَيْلَا لَا يَجِدُ الْعَطْشَانُ فِيهِ نَيْلَا
فَصَارَ فِيهِ الْمَاءُ عَذْبًا سَيْلَا مَالَتْ عَلَيْهِ بِالْبُدُورِ مَيْلَا
بُنْتُ أَبِي الْفَضْلِ تَكِيلُ كَيْلَا بِنْتُ الَّذِي سَاقَ وَسَاقَ الْخَيْلَا
فَمَا يُبَالِي مَنْ أَتَاهُ لَيْلَا أَلَا يَرَى لَيْسَ بِهِ دَخِيلَا

* أَمَّا آخِرُ مَوْضِعٍ كَانَ لَزُبَيْدَةَ، فَهُوَ «الْمَحْدَثُ» وَكَانَ مِنَ الْمَنَاطِقِ الْوَعْرَةِ غَيْرِ الْمَأْهُولَةِ، فَسَهَّلَتْ طَرَقَهُ، وَحَفَرَتْ بِهِ الْآبَارَ، فَأَصْبَحَ مَكَانًا يُمْكُثُ فِيهِ النَّاسُ يَشْرَبُونَ وَيَسْتَرِيحُونَ، وَيَدْعُونَ لَزُبَيْدَةَ الَّتِي أَحْيَتْ هَذَا الْمَوَاتَ.

* وَبَعْدَ هَذَا الْمَوْضِعِ، سَلَكَ الرُّكْبُ الزَّبِيدِي الطَّرِيقَ الْأَوَّلَ الَّذِي يَتَجَهُّ إِلَى بَغْدَادَ دَارِ السَّلَامِ؛ قَالَ الرَّاجِزُ يَصِفُ طَرِيقَ عَوْدَتِهَا وَوُصُولِهَا بِبَغْدَادَ:

ثُمَّ خَرَجْنَا فِي الطَّرِيقِ الْأَوَّلِ بِمَنْزِلٍ يَجْمَعُ طُرُقَ الْمَعْدِلِ
حَتَّى قَطَعْنَا مُنْقَلًا عَنْ مُنْقَلٍ نَحْوَ الْعِرَاقِ بِالْجَمَالِ الْبُزْلِ
يَالِكُ مِنْ فَرَحَةٍ سَفَرٍ مُقْبِلٍ بِأَجْرٍ حَجٍّ وَمَنْىً مُؤَمِّلٍ
وَالْقُرْبُ مِنْ قَبْرِ النَّبِيِّ الْمُرْسَلِ تَحَوُّطُهُمْ بِنْتُ النَّبِيِّ الْمَفْضَلِ
يَبْذُلُ مَالٍ مِثْلَهُ لَمْ يُبْذَلِ سَهَّلَهُ اللَّهُ لَهَا الْعَامَ وَلِي

* وَعِنْدَمَا وَصَلُوا مِشَارِفَ بَغْدَادَ قَالَ الرَّاجِزُ:

حَتَّى إِذَا تَمَّ ذُو الْإِكْرَامِ تَسْلِمُنَا بِأَفْضَلِ الثَّمَامِ
صِرْنَا إِلَى مَدِينَةِ السَّلَامِ فِي ظِلِّ بِنْتِ سَيِّدِ الْأَنَامِ

كريمة الآباء والأعمام والأُم ذات الدين والإسلام
غيث اليتامى وحيا الأيتام مد لها في العمر ذو الإنعام
وخصها بالحج كل عام حتى تُوافي آخر الأيام

* وهكذا تركت زبيدة - رحمها الله - في هذه الحجة أطيب الآثار الكريمة
التي جعلت ذكرها فواح النشر بطيب عَرَفِ صنائعها على مدى الأيام:

فَارْفَعْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ مَوْتِكَ ذِكْرَهَا
فَالذِّكْرُ لِلْإِنْسَانِ عُمْرٌ ثَانٍ

* إذاً، فمن يستطيع أن يفعل كما فعلت زبيدة في عصرها؟!!

أَدْبَهَا وَأَنْسَامٌ مِنْ مَعَارِفِهَا:

لا تَكُنْ لَائِمِي إِذَا اهْتَزَّ عِطْفِي مِنْ سَمَاعِي لِكُلِّ مَعْنَى نَظِيمٍ
كُلُّ مَنْ كَانَ فِي رِيَاضِ الْمَعَانِي غُصْنًا هَزَّهُ مُرُورُ النَّسِيمِ
بلغت زبيدة مبلغاً رائعاً من المعرفة، حتى تسنمت ذرا الأدب والثقافة
والمعرفة، في الوقت الذي كان فيه كثير ممّن عاصرناها يقضين حياتهنّ بين
الحلي والحلل، وما شابه ذلك من أمور النساء.

لقد كانت زبيدة تالية للقرآن العظيم، تتعاهده صباح ومساءً، ولشدة
شغفها بالقرآن العظيم وسماعه، فقد كان في قصرها مئة جارية تقرأ القرآن،
فكان يُسمع من قصرها دويّ كدوي النحل من القراءة^(١).

وتنم أخبارها بأنّها كانت تقضي أغلب أوقاتها تقرأ كتاب الله - عز وجل -
وتنسجم مع معاني آياته الكريمة، فقد ورد أنّها فقدت ذات مرة خاتماً بفص
له قيمة كبيرة جداً، وقد اتهمت فيه بعض جواريتها، وإذ ذاك أحضرت رجلاً
من أهل الصّناعة فقال: ما أخذ هذا الخاتم إلا الله تعالى! وردّد القول ولم
يرجع عنه، وبعد مُديدة عاودت زبيدة القراءة، وفتحت المصحف، فوجدت

(١) النجوم الزاهرة (٢/٢١٤)، ووفيات الأعيان (٢/٣١٤)، وسير أعلام النبلاء
(١٠/٢٤١).

الخاتم فيه ، وكانت قد جعلته علامة للوقف ، وأنسيته^(١) .

* وأما الأدب وفنونه فقد كان لها فيه اليد الطولى ، وتدلي دلوها في البيان السّاحر ، والقول الأسر ، والمعنى الهامس ، فقد كانت أميرة من أميرات البيان ، وشاعرة مثقفة ، وكثيراً ما كانت تبعث في رسائلها الفياضة أبياتاً شعرية إلى من تودّ مخاطبتهم .

* وقد ورد أنها كانت تجيد فنّ التّوقيعات المختصرة التي تشير إلى بلاغتها ، فقد وقّعت مرّة في ظهر كتاب ورّد إليها من أحد عمّالها : أن أصلح كتابك وإلا صرفناك عن عملك ، فتأمّله ذلك العامل فلم يظهر له فيه شيء ، فعرضه على بعض إخوانه ، فرأى فيه الدُّعاء لها : وأدام كرامتك ، فقال : إنّها تخيلت أنك دعوت عليها ، فإنّ كرامة النّساء دفنهن^(٢) ، فغيّر ذلك وأعاد الكتاب إليها فقبلته .

* وقد شهد لزُبيدة بالبلاغة ، أعلامُ البلاغة ممن عاصروها ، فهذا عمرو بن مسعدة^(٣) أحد بلغاء الكتاب قد قرأ توقيعات كثيرة لعدد من البلغاء ، فوجد أنّ زُبيدة أمّ جعفر قد فاقتهم ، لذا أدلى دلو بهذه الشّهادة

(١) انظر : وفيات الأعيان (٣١٧/٢) بتصرف يسير .

(٢) ومما يحضرني الآن ما قرأته منذ مدة في ديوان البحري حيث قال في موت ودفن البنات :

وَمِنْ نَعَمِ اللَّهِ لَا شَكَّ فِيهِ حَيَاةُ الْبَنِينَ وَمَوْتُ الْبَنَاتِ
لِقَوْلِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ مَوْتُ الْبَنَاتِ مِنَ الْمَكْرَمَاتِ !!
(٣) عمرو بن مسعدة ، العلامة البليغ ، أبو الفضل ابن عمّ إبراهيم بن العباس الصّولي الشّاعر ، كان موقعاً - كاتباً - بين يدي جعفر البرمكي ، وكان فصيحاً ، قوي المواد في الإنشاء ، يُقال : توفي سنة (٢١٧ هـ) ، عمل في وزارة المأمون ، وله نظم جيّد أورده ياقوت الحموي في معجم الأدباء . انظر : معجم الأدباء (٢١٧/١٦ - ١٣١) و(سير أعلام النبلاء ١٨١/١٠ و١٨٢) .

فقال: قد قرأتُ لأمّ جعفر توقيعات في حواشي الكتبِ وأسافلها، فوجدتها أجودَ اختصاراً، وأجمعَ للمعاني^(١).

وقد شهد لها المتأخرونَ بالفصاحة، فقال ابنُ ثغري بردي: وكانت مع هذا الجمالِ والحشمة، فصيحةً لبيبةً عاقلةً مدبرةً^(٢).

ويبدو أنَّ زبيدةَ كانت تحبُّ الاطلاعَ على أسرارِ اللغة العربية، وتساءل عنها كبار علماء العصر، فقد حُكي أنَّها أرسلتُ إلى الأصمعي^(٣) تسأله قائلة: إنَّ أميرَ المؤمنين - هارون - استدعاني وقال: هلمّي يا أمّ جعفر، فما معنى ذلك؟ وقد اهتممتُ لذلك كثيراً، ولم تفهمْ معناه. فأجاب: إنَّ جعفرأ في اللُغة، هو النهر الصَّغير، وأنتِ أمّ جعفر^(٤). وإنّما أرادَ أميرُ المؤمنين هارون هذا، وعند ذلك طابتْ نفسها، وسرّي عنها، وأكرمتِ الأصمعي^(٥).

ولم يكن اهتمامُ زبيدة - رحمها الله - بشواردِ اللغة ومعارفها، وأسرارِ العربية وبيانها فحسب؛ وإنّما كانت تهتمُّ بالمسائل الفقهية وأمورها، وتساءلُ العلماءَ الأكابرَ عن دقائقها، وعن تفصيلاتها.

(١) البيان والتبيين (١٠٦/١ و ١٠٧) بتحقيق عبد السلام هارون.

(٢) النجوم الزاهرة (٢١٤/٢).

(٣) الأصمعي: الإمام، العلامة، الحافظ، حجةُ الأدب، ولسانُ العرب، أبو سعيد عبد الملك بن قُريب الأصمعي، البصريُّ، اللغويُّ، الأخباري، أحدُ الأعلام. وُلِدَ سنة بضع وعشرين ومئة، وكان بحراً في اللغة، وكتب شيئاً لا يُحصى عن العرب، وكان ذا حفظ وذكاء، ولطف وعبرة، فسَادَ في عالمِ السَّيادة، وتصانيف الأصمعي ونوادره كثيرة، وأكثرُ تواليفه مختصرات، وقد فَقِدَ أكثرها.

قال الشافعي: ما عبَّرَ أحدٌ عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي.

وعن ابن معين قال: كان الأصمعي من أعلم الناس في فَنِّه.

وقال أبو داود: صدوق. وأثنى عليه الإمام أحمد في السُّنَّة. مات الأصمعي سنة

(٢١٥ هـ)، وعاش (٨٨ سنة) - رحمه الله - (تاريخ بغداد ١٠/٤١٠ - ٤٢٠) و(سير

أعلام النبلاء ١٠/١٧٥ - ١٨١).

(٤) انظر: وفيات الأعيان (٣١٥/٢)، و(١٧٧/٣) بشيء من التصرف اليسير.

(٥) المصدر السابق.

قال أبو عبد الله اليوسفي: إِنَّ أُمَّ جعفر زبيدة ابنة جعفر كتبت إلى أبي يوسف^(١) تستفتيه في مسألة، فأفتاها بما أوجبه العلمُ عنده، فوافق بذلك مرادها، فبعثت إليه بحق فضة فيه حقائق فضة مطبقات، في كل واحد لون من الطَّيب، وفي جام دراهم وسطها جام فيه دنانير، فقال له جليس له: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَهْدَيْتَ لَهُ هَدِيَّةً، فَجَلَسَاؤُهُ وَشُرَكَاءُهُ فِيهَا»^(٢).

فقال أبو يوسف: ذاك حين كانت الهدايا: اللبن والتَّمْر، وقد تأولت الخبرَ على ظاهره، والاستحسان قد منع من إمضاءه، وذلك فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ^(٣).

(١) أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه، وأول مَنْ نشر مذهبه، وُلِدَ في الكوفة سنة (١١٣ هـ)، وتفقه بالحديث والرواية، وكان فقيهاً علامة من حفاظ الحديث النبوي الشريف، لزم أبا حنيفة، وغلب عليه الرأي.

وَلِيَ أبو يوسف القضاء ببغداد أيام الخليفة المهدي، ثم الهادي، ثم الرشيد، وهو أول من دُعي قاضي القضاة؛ ويُقال له: قاضي قضاة الدنيا. وأول من وَضَعَ الكتب في أصول الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب.

ومن كُتُب أبي يوسف؛ كتاب: الخراج، والآثار وغيرها كثير. وقد أفاض الذهبي وابن خلكان، وقبلهما الخطيب البغدادي في جمع أخبار أبي يوسف، توفي أبو يوسف سنة (١٨٢ هـ) في خلافة الرشيد وعمره (٦٩ سنة) - رحمه الله -. انظر ترجمته في تاريخ بغداد الجزء (١٤).

(٢) انظر: مجمع الزوائد (٤/١٤٨).

(٣) انظر: تاريخ بغداد (١٤/٢٥٢)، وشرح مقامات الحريري للشَّريشي (٢/٢٤٨) مع الجمع والتَّصَرُّف.

ومن لطائف الطرائف، وطرائف اللطائف في هذا المجال، هذه الطرفة الطريفة الخفيفة التي رواها ابنُ خلكان في وفيات الأعيان (٢/٣١٦) في اختلاف الرشيد وزبيدة في نوعين من الحلوى، فقال:

اختلف الرشيد وأُم جعفر في اللوزينج، والفالودج، أيهما أطيب، فمالت زبيدة إلى تفضيل الفالودج، ومال الرشيد إلى تفضيل اللوزينج؛ وتخاطرا على مئة دينار، =

وكانت زبيدة تجلس خلف الستار تستمع إلى أقوال كبار فقهاء الدنيا آنذاك، وتعي مسائل الفتوى، وتحفظ ما يُقال في مجالس هارون الرشيد، وبذلك فاقت كثيراً من مثيلاتها، واقتعدت سدة الشهرة.

قال أبو الحسن الخادم: كنتُ غلاماً لزبيدة، وأُتي يوماً بالليث بن سعد، فكنتُ واقفاً على رأس زبيدة خلف الستارة، فسأله هارون الرشيد فقال: حلفتُ أن لي جنتين. فاستحلفه الليث ثلاثاً أنك تخافُ الله، فحلفَ له.

فقال له الليث: قال الله تعالى: ﴿وَلَمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ [الرحمن:

[٤٦].

قال: فأقطعه قطائع كثيرة بمصر^(١).

تذوقها للشعر وإكرامها للشعراء:

* يحكي تاريخُ زبيدة أنها كانت تتذوق ما ينظمه الشعراء من لطيف الكلام، وتذوق ما آتاهم الله من فضل في فصل الخطاب، وفي لذيذ الألفاظ التي تجذبُ بمغناطيسها القلوب الصافية إلى دائرة الفصاحة، وميدان البلاغة، وساحة المعاني.

* وكانت زبيدة - رحمها الله - فصيحة، تفهم ما يرمى إليه الكلام، لبيبة تدركُ لوامعَ الإشارات، عاقلة تدركُ الأمور بروية وحسن أناة، وكانت شاعرة

= فأحضرا أبا يوسف القاضي وقالوا له: يا يعقوب قد اختلفنا في كذا وكذا على كذا وكذا فاحكم فيه.

فقال: يا أمير المؤمنين، ما يُحكمُ على غائب - وهو مذهب أبي حنيفة - فأحضر له جامين من المذكورين، فطفق يأكل من هذا مرة، ومن هذا مرة، وتحقق إن حكم للرشيد لم يأمن غضب زبيدة، وإن حكم لها لم يأمن غضب الرشيد، فلم يزل في الأكل إلى أن نصّف الجامين، فقال له الرشيد: إيه أبا يوسف.

فقال: يا أمير المؤمنين! ما رأيتُ خصمين أجدل منهما، كلما أردت أن أسجل لأحدهما أدلى الآخر بحجته، وقد حرّط بينهما. فضحك الرشيد، وأعطاه المئة دينار، وانصرف مشكوراً.

(١) انظر: العقد الفريد (١١٨/٥).

مُثَقَّفَةٌ تَعْرِفُ مَوَاقِعَ الْعِبَارَاتِ ، وَتَدْرِكُ بَدَائِعَ التَّعْبِيرَاتِ .

* روي أَنَّ ابْنَهَا الْأَمِينَ قَدْ رُزِقَ مِنَ الْوَلَدِ مُوسَى ، مِنْ أُمِّ وَلَدٍ تُدْعَى «نَظْمٌ» ، وَحَدَّثَ أَنَّ مَاتَتْ نَظْمٌ ، فَاشْتَدَّ جُزْعُهُ عَلَيْهَا ، فَدَخَلَتْ زَبِيدَةً مَعْرِیَّةً لَهُ ، فَقَالَتْ مُنْشَدَةً :

نَفْسِي فِدَاؤُكَ لَا يَذْهَبُ بِكَ التَّلَفُ فَفِي بَقَائِكَ مَمَّنْ قَدْ مَضَى سَلَفُ
عَوَّضْتَ مُوسَى فَمَاتَتْ كُلُّ مُزْرِیَّةٍ مَا بَعْدَ مُوسَى عَلَى مَفْقُودَةٍ أَسْفُ
* وَلزَبِيدَةً مَوَاقِفُ طَرِيفَةٍ آسِرَةٍ مَعَ شُعْرَاءَ عَصْرِهَا ، فَقَدْ عَرَفَ شُعْرَاءَ
الْعَصْرِ أَنَّ ذَاكَ جُودَهَا الَّذِي يَشْبَهُ الْبَحْرَ ، إِذْ إِنَّ الْمَعْرُوفَ لَجَّتْهَا ، وَالْجُودَ
سَاحِلُهَا ، لِذَلِكَ امْتَدَحُوهَا كَيْ يَنَالُوا عَطَاءَهَا .

* تروي كَتَبُ الْأَدَبِ وَالْأَخْبَارِ ، أَنَّهُ لَمَّا حَجَّتْ أُمُّ جَعْفَرِ زَبِيدَةٍ ، لَقِيَهَا
نَصِيبُ الشَّاعِرِ مَوْلَى الْخَلِيفَةِ الْمَهْدِيِّ ، فَتَرَجَّلَ عَنْ فَرَسِهِ وَأَنْشَأَ يَقُولُ :

سَيَسْتَبْشِرُ الْبَيْتَ الْحَرَامُ وَزَمَزَمَ بِأُمِّ وَلِيِّ الْعَهْدِ زَيْنِ الْمَوَاسِمِ
وَيَعْلَمُ مَنْ وَافَى الْمَحْصَبَ^(١) أَنَّهَا سَتَحْمَلُ ثَقْلَ الْغُرْمِ عَنْ كُلِّ غَارِمِ
بُنُو هَاشِمٍ زَيْنُ الْبَرِيَّةِ كُلِّهَا وَأُمِّ وَلِيِّ الْعَهْدِ زَيْنُ لَهَا شَمِ
سَلِيلُهُ أَمْلَاكَ تَفَرَّعَتْ الدُّرَا كِرَامٍ لِأَبْنَاءِ الْمُلُوكِ الْأَكَارِمِ
فَوَاللَّهِ مَا نَدْرِي أَفْضَلُ حَدِيثِهَا عَلَيْهِمْ بِهِ تَسْمُو أُمُّ الْمُتَقَادِمِ
يَظُنُّ الَّذِي أَعْطَتْهُ مِنْهَا رَغِيَّةً يَقْصُ عَلَيْهِ النَّاسُ أَحْلَامُ نَائِمِ

فَأَمَرَتْ زَبِيدَةً بَعْشَرَةَ آلَافِ دَرَاهِمٍ وَفَرَسٍ ، فَأَعْطَى الْفَرَسَ بِلَا سَرَجٍ ، فَصَبَرَ
نُصِيبٌ حَتَّى عَادَتْ زَبِيدَةً مِنْ حَجَّجِهَا ، فَتَلَقَّاهَا وَشَكَى لَهَا مَا نَالَهُ مِنْ نَقْصٍ فِي
الْعَطَاءِ ، وَقَالَ :

لَقَدْ سَادَتْ زَبِيدَةُ كُلَّ حَيٍّ وَمَيِّتٍ مَا خَلَا الْمَلِكُ الْهُمَامَا
تَقَى وَسَمَاحَةً وَخُلُوصَ مَجْدٍ إِذِ الْأَنْسَابُ أَخْلَصَتْ الْكِرَامَا
إِذَا نَزَلَتْ مَنَازِلُهَا قَرِيشٌ نَزَلَتْ الْأَنْفَ مِنْهَا وَالسَّنَامَا
بَلَّغَتْ مِنَ الْمَفَاحِرِ كُلِّ فَخْرٍ وَجَاوَزَتْ الْكَلَامَ فَلَا كَلَامَا

(١) «المحصب»: موضع رمي الجمار بمنى .

وَأُعْطِيتُ اللَّهَى لَكِنَّ طَرْفِي يَرِيدُ السَّرْجَ مِنْكُمْ وَاللَّجَامَا
فَتَبَسَّمتُ زَبِيدَةً ضَاحِكَةً مِنْ قَوْلِهِ، وَأَمَرْتُ أَنْ يُعْطَى سَرْجاً وَلِجَاماً، فَأَخَذَ
ذَلِكَ وَانصَرَفَ يَكْرُرُ مَدِيحَهُ لَزَبِيدَةَ، وَيُثْنِي عَلَيْهَا فِي كُلِّ نَادٍ وَمَوْقِفٍ^(١).

* وَيَبْدُو كَرْمُهَا وَاضِحاً لِلشُّعْرَاءِ عِنْدَمَا عَقَدَ الرَّشِيدُ الْبَيْعَةَ لِابْنِهِ مُحَمَّدَ
الْأَمِينِ ابْنِ زَبِيدَةَ، حَيْثُ جَاءَهُ سَلَمُ الْخَاسِرِ، وَأَنْشَدَهُ قَصِيدَتَهُ الَّتِي أَوَّلَهَا،
وَمِنْهَا:

قُلْ لِلْمَنَازِلِ بِالْكَثِيبِ الْأَعْفَرِ أُسْقِيتِ غَادِيَةَ السَّحَابِ الْمُمَطَّرِ
قَدْ بَايَعَ الثَّقْلَانِ مَهْدِي الْهُدَى لِمُحَمَّدِ بْنِ زُبَيْدَةَ ابْنَةِ جَعْفَرٍ
وَلَيْتَهُ عَهْدَ الْأَنَامِ وَأَمْرِهِمْ فَدَمَغْتَ بِالْمَعْرُوفِ رَأْسَ الْمُنْكَرِ
فَحَشَتُ زُبَيْدَةَ فَاهُ دُرّاً، فَبَاعَهُ بَعْشَرِينَ أَلْفَ دِينَارٍ^(٢).

* وَيَبْدُو أَنَّ سَلَمَ الْخَاسِرِ هَذَا قَدْ أَعْطَتْهُ زُبَيْدَةُ مَالاً وَفِيراً لَوْفَرَةِ مَدَائِحِهِ لَهَا
وَلِزَوْجِهَا وَلِابْنِهَا وَلِي الْعَهْدِ، وَمَاتَ وَهُوَ أَحَدُ أَغْنِيَاءِ الشُّعْرَاءِ^(٣).

* هَذَا وَقَدْ أَكْثَرَ الشُّعْرَاءُ مَدْحَ الْأَمِينِ بِسَبَبِ هَارُونَ الرَّشِيدِ، وَسَبَبِ
أُمِّ جَعْفَرِ زَبِيدَةَ، فَهَذَا مِرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ يَقُولُ أَبْيَاتاً، وَيَرْفَعُهَا إِلَى زَبِيدَةَ
بِنْتِ جَعْفَرٍ يَمْتَدِحُ ابْنَهَا مُحَمَّدًا، وَفِيهَا قَوْلُهُ:

لِلَّهِ دُرٌّ يَا عَقِيلَةَ جَعْفَرٍ مَاذَا وَلَدْتَ مِنَ الْعُلَا وَالشُّؤْدِدِ
إِنَّ الْخِلَافَةَ قَدْ تَبَيَّنَ نُورُهَا لِلنَّاطِرِينَ عَلَى جَبِينِ مُحَمَّدٍ
إِنِّي لِأَعْلَمُ أَنَّهُ لَخَلِيفَةٌ إِنَّ بَيْعَةَ عَقِدْتَ وَإِنْ لَمْ تُعَقِّدِ

(١) الْأَغَانِي «٢٣/ ١٤ و ١٥» بِشَيْءٍ مِنَ التَّصَرُّفِ.

(٢) الْأَغَانِي (٢٧٩/ ١٩)، وَوَفَيَاتُ الْأَعْيَانِ (٣٥١/ ٢).

(٣) رُفِعَ إِلَى الرَّشِيدِ أَنَّ سَلَمَ الْخَاسِرِ قَدْ تَوَفَّى، وَخَلَّفَ مِمَّا أَخَذَهُ مِنْهُ خَاصَةً، وَمِنْ
زَوْجِهِ زَبِيدَةَ أَلْفَ أَلْفٍ وَخَمْسَمِئَةَ أَلْفٍ دِرْهَمٍ - أَي: مِلْيُونَ وَنِصْفَ دِرْهَمٍ - سِوَى
مَا خَلَفَهُ مِنْ عَقَارٍ وَغَيْرِهِ مِمَّا جَمَعَهُ قَدِيمًا، فَقَبَضَهُ الرَّشِيدُ، وَتَظَلَّمَ إِلَيْهِ مَوَالِيَهُ مِنْ آلِ
أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ - رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِ - فَقَالَ: هَذَا خَادِمِي وَنَدِيمِي، وَالَّذِي خَلَفَهُ مِنْ
مَالِي، فَأَنَا أَحَقُّ بِهِ، فَلَمْ يُعْطِهِمْ إِلَّا شَيْئًا يَسِيرًا مِنْ قَدِيمِ أَمْلَاكِهِ. (الْأَغَانِي ١٩/ ٢٨٠ و ٢٨١).

فأمر الرشيد له بثلاثة آلاف دينار، بينما أمرت زبيدة أن يحشى فوه
جوهراً^(١).

أما أشجع بن عمرو السلمي - وهو من شعراء العصر العباسي
المشهورين - فقد حظي بدراهم بلغت مئة ألف، حينما امتدح هارون وزوجه
وابنه. فقد روى أشجع نفسه هذا الخبر قال: دخلت على محمد الأمين حين
أجلس مجلس الأدب للتعليم، وهو ابن أربع سنين، وكان يجلس فيه ساعة،
ثم يقوم، فأنشدته:

مليك أبوه وأمه من نَبَعٍ منها سراج الأمة الوهاج
شربت بمكة في ربي بطحائها ماء النبوة ليس فيه مزاج
قال: فأمرت له زبيدة بمئة ألف درهم^(٢).

وكان الشعراء يترصدون المناسبات ليحظوا من زبيدة بالأعطيات،
ويأخذون ما تجود به نفسها من الجواهر والدراهم والدرر، ومن هؤلاء
الذين يتصيدون المناسبات: داود بن رزين مولى عبد القيس، فقد روي أنه
وقع بين هارون وزبيدة خصاماً وشراً، فتهاجرا، فعمل داود بن رزين شعراً،
وأمل فيه الأمل الكبير من زبيدة فقال:

زمن طيب ويوم مطير هذه روضة وهذا غدير
إنما أم جعفر جنة الخلد مد رضاها والسخط منها السعير
أنت عبد لها ومولى لهذا الـ خلق طراً وليس في ذا نكير
فاعتذر يا خليفة الله في الأر ض إليها وترك ذاك كبير
فصار هارون إليها عندما وقف على الأبيات، وسألت عن سبب مجيئه
فعرفت، وأوصلت إلى داود مئة ألف درهم في وقتها، وأضعافها بعد
ذلك^(٣).

(١) العقد الفريد (١/٣١٣ و ٣١٤)، ووفيات الأعيان (٢/٣١٥ و ٣١٦).

(٢) الأغاني (١٨/٢٢٦).

(٣) وفيات الأعيان (٢/٣١٥).

* وكان للشاعر الفكه، ثم الزاهد أبو العتاهية^(١) مواقف لطيفة مع زبيدة، فقد ناله كثير من عطاياها، فقد ورد أنها كانت تعطيه في كل سنة مئة دينار، وألف درهم، وكان أبو العتاهية يصب جزءاً من مدائحه على ابنها الأمين، فتعقد عليه وتكرمه، فقد كانت تذوق الشعر وتفهمه، وتدرج جده من رديئه، وتناقش في ذلك. قال أبو العتاهية عن نفسه لما جلس الأمين بالخلافة: أنشدت أبياتاً وهي:

يا بْنَ عَمِّ النَّبِيِّ خَيْرَ الْبَرِيَّةِ إِنَّمَا أَنْتَ رَحْمَةٌ لِلرَّعِيَّةِ
يا أَمِينَ الْهَدَى الْأَمِينَ الْمُصَفَّى بِلَبَابِ الْخِلَافَةِ الْهَاشِمِيَّةِ
لَكَ نَفْسٌ أَمَّارَةٌ لَكَ بِالْخِيَةِ رَوَّكْتُ بِالْمَكْرَمَاتِ نَدِيَّةِ
إِنَّ نَفْسًا تَحَمَّلَتْ مِنْكَ هَذَا حَمَلَتْ لِلْمُسْلِمِينَ نَفْسٌ قَوِيَّةِ

وبعد فراغي من الأبيات، ذهبت لأم جعفر، فقالت لي: أنشدني ما أنشدت أمير المؤمنين، فأنشدتها. فقالت: يا أبا العتاهية، أين هذا من مدائحك في المهدي والرَّشيد؟ فغضبت وقلت لها:

يا عَمُودَ الْإِسْلَامِ خَيْرَ عَمُودٍ وَالَّذِي صِيغَ مِنْ حَيَاءٍ وَجُودٍ
فَقُلْتُ لِي: الْآنَ يَا أبا الْعَتَاهِيَةِ وَفِيَّتِ الْمَدِيحُ حَقَّهُ، وَأَمَرْتُ لِي بِعَشْرَةِ آلَافِ دَرَاهِمٍ^(٢).

(١) أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني العنزي، وُلِدَ في «عَيْن التَّمَر» بقرب الكوفة سنة (١٣٠ هـ)، ونشأ في الكوفة، وسكن بغداد، وكان في بدء أمره يبيع الجرار، ثم اتَّصل بالخلفاء، وعلت مكانته عندهم، كان شاعراً مكثراً، سريع الخاطر، في شعره إبداع، كان ينظم المئة والمئة والخمسين بيتاً في اليوم، وشعره الذي حُفِظَ عنه معظمه في الحكمة والعظة، فقد كان يجيد القول في الزهد، وكذلك المديح، هجر الشعر مدة، ثم عاد إليه، ونظم في الزهد والأخلاق، وأخباره كثيرة جداً مبثوثة في بطون الكتب. توفي في بغداد سنة (٢١١ هـ) وعمره (٨١ سنة).

(الأغاني: ترجمة أبي العتاهية) وغير ذلك من مصادر.

(٢) انظر: الدر المنثور (ص ٢١٨).

* ومن طرائف أخبار أبي العتاهية مع زبيدة، ما رواه محمد بن الفضل قال: كان المأمون يوجه إلى أم جعفر زبيدة في كل سنة مئة ألف دينار جُددًا، وألف ألف درهم، فكانت تعطي أبا العتاهية منها مئة دينار، وألف درهم، فأغفلته سنة، فرفع أبو العتاهية رقعة إلى محمد بن الفضل، وقال له: ضَعْهَا بين يدي زبيدة، فوضَعَهَا، وكان فيها:

خَبَرُونِي أَنَّ فِي ضَرْبِ السَّنَةِ جُدَّدًا بِيضًا وَصُفْرًا حَسَنَةً
سُكَّكَأَ قَدْ أُحْدِثْتُ لَمْ أَرَهَا مثلما كنتُ أرى كلَّ سَنَةٍ
فَقَالَتْ: إِنَّا وَاللَّهِ أَغْفَلْنَاهُ، ثُمَّ وَجَّهَتْ إِلَيْهِ بَعِطَائِهِ^(١).

* وكانت زبيدة بالإضافة إلى سخائها على الشعراء تنقذ الشعر، وتوجه مَنْ أخطأ إلى الصواب. قال الجاحظ: حَدَّثَنِي أَبُو نُوَّاسٍ أَنَّ شَاعِرًا غَثَّ الشعر جاء إلى زبيدة وأنشدها مدحاً فيها وهي تسمع:

أَرْبِيْدَةُ ابْنَةِ جَعْفَرٍ طُوبَى لَزَائِرِكَ الْمُثَابِ
تُعْطِينَ مَنْ رَجَلَيْكَ مَا تُعْطِي الْأَكْفُ مِنَ الرِّغَابِ

فتبادر الخدم إليه ليقوعوا به على سوء أدبه وعبارته، فقالت: دعوه، فإنَّ مَنْ أَرَادَ خَيْرًا فَأَخْطَأَ، خَيْرٌ مِمَّنْ أَرَادَ شَرًّا فَأَصَابَ، سَمِعَ النَّاسَ يَقُولُونَ: شِمَالُكَ أُنْدَى مِنْ يَمِينِ غَيْرِكَ، فَقَدَّرَ أَنَّ هَذَا مِثْلَ ذَلِكَ، أَعْطَوْهُ مَا أَمَّلَ، وَعَرَّفُوهُ مَا جَهِلَ.

قال الجاحظ: فَقُلْتُ لَهُ: وَاللَّهِ لَوْ وَرَدَ هَذَا عَلَى الْعَبَّاسِ جَدَّهَا - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَإِنَّهُ النَّهَائِيَّةُ فِي الْعَقْلِ - مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْحِلْمِ وَالْإِحْتِمَالِ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا. وَعَقَّبَ الْجَاحِظُ قَائِلًا: كَانَتْ زَبِيدَةُ أَعْقَلَ النَّاسِ، وَأَفْصَحَ النَّاسِ^(٢).

(١) نهاية الأرب (١٨٨/٢٢ و ١٨٩) بتصرف يسير.

(٢) انظر: الموشح للمرزباني (ص ٣٩٣)، والهفوات النادرة (ص ٣٧)، ووفيات الأعيان (٣١٥/٢)، وزهر الآداب (٣٤٩/١) بتحقيق البجاوي مع الجمع والتصرف.

زَبِيدَةُ وَالْأَمِينُ وَالْمَأْمُونُ:

* قال الذهبي - رحمه الله -: خَلَفَ هَارُونَ الرَّشِيدَ عِدَّةَ أَوْلَادٍ، فَمِنْهُمْ تِسْعَةُ بَنِينَ اسْمُهُمْ مُحَمَّدٌ، أَجْلَهُمُ الْأَمِينُ، وَالْمَعْتَصِمُ^(١).

* وبعد وفاة الرَّشِيدِ، بُويعَ الْأَمِينُ ابنُ زُبَيْدَةَ بالخِلافةِ سنة (١٩٣ هـ) بَعَثَهُ مِنْ أَبِيهِ الرَّشِيدِ، فَوَلَّى الْأَمِينُ أَخَاهُ خُرَاسَانَ وَأَطْرَافَهَا، وَكَانَ الْمَأْمُونُ وَلِيَّ الْعَهْدِ مِنْ بَعْدِهِ.

* وَأَجْمَعَ الرُّوَاةُ عَلَى أَنَّ الْأَمِينَ كَانَ مَلِيحًا، وَمِنْ أَحْسَنِ الشَّبَابِ صُورَةً، بَدِيعَ الْحَسَنِ، أَبْيَضَ وَسِيمًا طَوِيلًا، ذَا قُوَّةٍ مَفْرُطَةٍ وَبَطْشٍ وَشَجَاعَةٍ وَأَدَبٍ، وَفَصَاحَةٍ وَأَدَبٍ وَفَضِيلَةٍ وَبِلَاغَةٍ، صَحِيحَ الْإِسْلَامِ وَالِدِينَ^(٢)، قَتَلَ مَرَّةً أَسَدًا

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢٩٥/٥)؛ وقد ورد أن الرشيد قال للأمين: يا محمد ما أنت صانع إن صرف الله إليك أمر هذه الأمة؟! قال: أكون مهدياً يا أمير المؤمنين. قال الرشيد: إن فعلت فأنت أهله. (أبناء نجباء الأبناء لابن ظافر الصقلي ص ١١٣).

(٢) انظر: العقد الفريد (١١٨/٥)، والكامل في التاريخ (٢٨٩/٦)، وسير أعلام النبلاء (٣٣٥/٩)، والنجوم الزاهرة (١٦٠/٢)، ونهاية الأرب (١٨٧/٢٢) مع الجمع بينها.

وَلَا شَكَّ أَنَّ الْأَمِينَ كَانَ أَدِيبًا فَصِيحًا، فَقَدْ تَعَلَّمَ ذَلِكَ عَلَى كِبَارِ عُلَمَاءِ عَصْرِهِ. وَقَدْ وَرَدَ أَنَّ أَبَاهُ الرَّشِيدَ قَدْ أَوْصَى الْأَحْمَرَ النَّحْوِي - وَهُوَ عَلِيُّ بْنُ الْحَسَنِ الْمَعْرُوفِ بِالْأَحْمَرِ - حِينَما عَهِدَ إِلَيْهِ بِتَأْدِيبِ ابْنِهِ الْأَمِينِ وَقَالَ لَهُ: يَا أَحْمَرُ إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ دَفَعَ إِلَيْكَ مَهْجَةً نَفْسِهِ، وَثَمَرَةَ قَلْبِهِ، فَصَيِّرْ يَدَكَ عَلَيْهِ مَبْسُوطَةً، وَطَاعَتَهُ لَكَ وَاجِبَةً، فَكُنْ لَهُ بِحَيْثُ وَضَعَكَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَقْرَأَهُ الْقُرْآنَ، وَعَرَفَهُ الْأَخْبَارَ، وَرَوَّهَ الْأَشْعَارَ، وَعَلَّمَهُ الشُّنْنَ، وَبَصَّرَهُ مَوَاقِعَ الْكَلَامِ وَبَدَّاهُ، وَامْتَنَعَهُ مِنَ الضَّحْكِ إِلَّا فِي أَوْقَاتِهِ، وَخُذْهُ بِتَعْظِيمِ مَشَايِخِ بَنِي هَاشِمٍ إِذَا دَخَلُوا عَلَيْهِ، وَرَفَعَ مَجَالِسَ الْقَوَادِ إِذَا حَضَرُوا مَجْلِسَهُ، وَلَا تَمَرَّنْ بِكَ سَاعَةً إِلَّا وَأَنْتَ مَغْتَنِمٌ فَائِدَةً تَفِيدُهُ إِيَّاهَا مِنْ غَيْرِ أَنَّ تَحْزَنَهُ، فَتَمِيتَ ذَهَنَهُ، وَلَا تَمَعْنُ فِي مَسَامَحَتِهِ فَيَسْتَحْلِي الْفَرَاغَ وَيَأْلُفُهُ، وَقُوَّمَهُ مَا اسْتَطَعْتَ بِالْقَرَبِ وَالْمَلَايَنَةِ، فَإِنَّ أَبَاهُمَا فَعَلِيكَ بِالشَّدَةِ وَالْغُلْظَةِ. (مروج الذهب ٤٣٠/٣).

بيديه، وما ولي الخلافة هاشمي ابن هاشمية سوى علي ومحمد الأمين.

* وعن قوة الأمين وشجاعته، حكى أنه أُخْضِرَ إليه أَسَدٌ في قَفْصِ حديد، فأمر بفتح القَفْصِ، فوثب الأسد، ففَرَّقَ الغلمانُ، وانفردَ بالأمين، فوثب الأسد عليه، فعمد إلى مِرْفَقَةٍ^(١) تلقاه بها لحمايته، ثم قبضَ على أَصْلِ أُذُنِهِ وهزَّهُ، فَسَقَطَ الأسدُ مَيِّتًا، وزاغتْ أكتافُ الأمين، فأحضر الأطباء، فأعادها إلى مكانها، وانفقتْ مرارةُ الأسدِ في جوفه^(٢).

* وبعد مضي سنتين من خلافة الأمين، أعلنَ خَلَعَ أخيه المأمون من ولاية العهد، هنالك نادى المأمون^(٣) بخلع الأمين في خراسان، وتسمّى بأمير المؤمنين، وجهّزَ وزيره طاهر بن الحسين، وجهّزَ الأمينُ وزيره علي بن عيسى بن ماهان للقاء المأمون في سنة (١٩٥ هـ).

* ولما عزم قائدُ الأمين على المسير من بغدادَ للقاء المأمون ركبَ إلى باب زبيدة أمّ الأمين ليودّعها، فقالت له هذه الكلمات التي تشيرُ إلى نُبُلِ أَصْلِهَا، وعِراقَةِ محتدِها، وطِيبِ عنصرِها: يا علي، إنّ أميرَ المؤمنين وإنْ كانَ ولدي، وإليه انتهتْ شَفَقَتِي، فإني على عبدِ الله - أي: المأمون - منعطفَةٌ مُشْفِقَةٌ، لما يحدثُ عليه من مَكْرُوهِ وأَذَى، وإِنَّمَا ابني مَلِكٌ نافسَ أخاهُ في سُلْطَانِهِ، وغارَّهُ على ما في يَدِهِ، والكريم يأكلُ لحمه، ويُمِيقه غيره، فاعرف

(١) «مرفقة»: مخدة، أو متكأ.

(٢) انظر: نهاية الأرب للنويري (١٨٧/٢٢). وقيل أيضاً: بعد مَصْرَعِ الأسد، إذا بمفصل يدِ الأمين قد زالت عن موضعها، فأتى بمجبر فجبرها، وردّها كما كانت، وجلسَ الأمين كأن ما صنع شيئاً، فشقوا جوفَ الأسد، فوجدوا مرارته قد انفقتْ في جوفه.

وقيل: بل حاد الأمين عن الأسد حتى تجاوزه، ثم قبض على ذنبه، وجذبه جذبة أقعى لها الأسد، وانقطع ظهره، فمات، وزاغت أناملُ الأمين على منابتها.

(٣) من الجدير بالذكر، أنّ زبيدة أمّ جعفر قد أهدتْ إلى زوجها الرَّشيدَ عَشْرَ جوارٍ منهم: ماردة أمّ المعتصم، ومراجل أمّ المأمون، ونادرة أمّ صالح. (الأغاني ١٦٧/١٨).

لعبدِ الله حقَّ ولادته، وأخوته، ولا تجهه بالكلام، فإنك لست له بنظير، ولا تفتسره اقتسار العبيد، ولا توهنه بقيد، ولا غلّ، ولا تمنع عنه جارية ولا خادماً، ولا تعنف عليه في السير، ولا تُساوِه في المسير، ولا تركب قبله، وخذُ بركابه، وإن شتمك فاحتمل منه. ثم دفعت إليه قيداً من فضة، وقالت: إن صار إليك فقيده بهذا القيد. فقال لها: سأفعلُ مثلما أمرت^(١).

* والتقى الجيشان، فقتل ابنُ ماهان، ثم حوَصِرَ الأمينُ ببغدادَ حصاراً طويلاً انتهى بقتله سنة (١٩٨ هـ).

* وتألّمت زبيدةُ أشدَّ الألم لهذه الحادثة الكبيرة التي صدعت جِسْمَ الدَّولةِ العباسية، وصدعت نفسَ زبيدة، فقد كان فقدُ الأمينِ أليماً عليها، فقد كان يجمعُ إلى جانب شجاعته وهمته نفساً كبيرة، وعزّة تدلُّ على كلماته التي قال لأمه عندما أحاط به أعداؤه، فدخلت عليه زبيدة باكيةً، فقال لها: إنه ليس بجزع النساء وهلعهن عُقدت التيجانُ، والخلافة سياسةٌ لا تسعُها صدورُ المراضعِ وراءك.

* وتفجّرت ينباعُ الحزنِ في قلبِ زبيدة، فانبعثت عيونُ شعريّةٍ آسرةٍ من نفحاتها ترثي فلذة كبدها ابنها الأمين، بل أبدعت في فنِّ رثائها له، وحلّقت في هذا الفنِّ الرقيق الرائع، بل تُعدُّ هذه القصيدة من روائع ما قيل في رثاء الأبناء:

أودى بِالْفَيْنِ مَنْ لَمْ يَتْرِكِ النَّاسَا فَاْمَنْحُ فَوَادَكَ عَنْ فُضُولِكَ الْيَاسَا
لَمَا رَأَيْتُ الْمَنَايَا قَدْ قَصَدَنَ لَهُ أَصْبَنَ مِنْهُ سَوَادَ الْقَلْبِ وَالرَّاسَا
فَبِتُّ مَتَكِيّاً أَرعى النَّجُومَ لَهُ أَحَالُ سُنَّتَهُ بِاللَّيْلِ قَرطَاسَا
وَالْمَوْتُ كَانَ بِهِ وَالْهَمُّ قَارَنَهُ حَتَّى سَقَاهُ الَّتِي أودى بِهَا الْكَاسَا
رُزِئْتُهُ حِينَ بَاهَيْتُ الرِّجَالَ بِهِ وَقَدْ بَنَيْتُ بِهِ لِلدَّهْرِ أَسَاسَا
فَلَيْسَ مَنْ مَاتَ مَرْدُوداً لَنَا أَبَدَا حَتَّى يُرَدَّ عَلَيْنَا قَبْلَهُ نَاسَا^(٢)

(١) الكامل في التاريخ (٦/ ٢٤٠)، والأخبار الطوال للدينوري (ص ٣٩٦).

(٢) الدر المنثور (ص ٢١٦)، وشاعرات العرب (ص ٢١٣)، وأعلام النساء (٢/ ٢٠ و ٢١).

* وظَلَّتِ السَّيِّدَةُ زُبَيْدَةُ - رحمها الله - مثالَ التَّعَقُّلِ والحكمة، والبلاغة في الكلام في الأوقات الحرجة. وقد أُثِرَتْ عنها كلماتٌ في غايةِ الرِّصانة والبلاغة والقصد واستيفاءِ المعنى في الوقت المناسب.

* ذَكَرَ أَنَّ المَأْمُونَ دخلَ عليها بعد قَتْلِ ابنِها الأمينِ يعتذِرُ إليها، ويعزيها فيه، ويسكنُ ما بها من الحزنِ والهمِّ، فقال لها: يا ستاه، لا تَنَاسِيَ عليه، فَإِنِّي عوضُه لك!

فقلت: يا أمير المؤمنين! كيف لا آسفُ على وَلَدٍ خَلَفَ أَخاً مثلك؟! ثم بكَّتْ وأبكتِ المَأْمُونَ حتى غشي عليه^(١).

* وبهذا التَّصَرُّفِ الحكيم، وبهذا اللفظ السَّليم، فرضتُ على المَأْمُونَ احترامها، فكان يبالغُ في إجلالِها، حتَّى قالت له مرَّةً: لئن فقدتُ ابناً خليفةً، لقد عَوَّضْتُ ابناً خليفةً لَمْ أَلِدْهُ، وما خَسِرَ مَنْ اعتاضَ مثلك، ولا تُكَلَّتْ أُمٌّ ملأتُ يدها منك، وأنا أسألُ الله أجراً على ما أخذَ، وإمتاعاً بما عوض^(٢).

* ويبدو أَنَّ كلمات زبيدة قد أَسَرَّتْ مجامعَ قَلْبِ المَأْمُونَ، وأُعْجِبَ بها وبصبرها الذي يعتبر مضرب الأمثال، فقد وَرَدَ أَنَّها دخلتُ عليه بعد قَتْلِ ابنِها

(١) انظر: النجوم الزاهرة (٢/٢١٤). ويُقال: إِنَّ المَأْمُونَ لما رأى رأسَ أخيه الأمين بكى، واستغفر له، وذكر له أياماً محمودة، وجميلاً أسداه إليه في حياة أبيه الرشيد. (تاريخ القضاعي ص ٤٢٧).

وهذا الجميلُ المحمود يرويه المَأْمُونَ نفسه، ويدلُّ الجميلُ على مكارمِ الأمين وأخلاقه وجودة نفسه وكرم نبلة وأصله، كما وتدُلُّ على طبيعةِ المَأْمُونَ. قال المَأْمُونَ: تذكرتُ لمحمد - مع عقوقه وقليل برّه -: أَمَرَ لي الرشيدُ يوماً بمئة ألف دينار، وأَمَرَ له بمئتي ألف، ولم يعلم بذلك؛ فبادرت فبشَّرتُ بها، فقال: يا أخي لعل في نفسك شيئاً مِنْ تفضيلي عليك، قد جعلتها لك بأسرها جزاء بشارتك لي. فصرفت الثلاثمئة ألف إليَّ. (تاريخ العمراني ص ٩٥).

(٢) تاريخ بغداد (١٤/٤٣٣ و ٤٣٤)، ووفيات الأعيان (٢/٣١٦)، وسير أعلام النبلاء (١٠/٢٤١).

وقالت : الحمد لله الذي ادّخرك لي لما أثكلني ولدي ، ما ثكلت ولداً كنت لي عوضاً منه . فلما خرجت قال المأمون لأحمد بن أبي خالد : ما ظننت أن نساء جيلن على مثل هذا الصبر^(١) .

* وحصل جفاء بينها وبين المأمون يوماً ، فبعثت إليه بأبيات تشير إلى فطنتها وذكائها وشاعريتها ، وأمرت كاتبها جعفر بن الفضل ، والأبيات هي :
ألا إنَّ ريبَ الدهرِ يُدني ويُبعدُ ويؤنسُ بالآلاف طوراً ويفقدُ
أصابْتُ لريبِ الدهرِ مَنِّي يدي يدي فسلمتُ للأقدارِ واللهُ أَحْمَدُ
وقلتُ لريبِ الدهرِ إنَّ ذَهَبْتُ يَدُ فقد بقيتُ والحمدُ لله لي يَدُ
إذا بقيَ المأمونُ لي فالرشيدَ لي ولي جعفرُ لم يهلكا ومحمدُ

* ولما سمع المأمون الأبيات حَسَنَ موقعها عنده ، فبكى ورق لها ، وقام لوقته فدخل عليهما فقبل رأسها ، وقبَلت يده ، وقال لها : يا أمّه ، ما جفوتكِ تعمداً ، ولكنني شُغِلْتُ عنه بما لا يمكن إغفاله .

فقالت : يا أمير المؤمنين ! إذا حَسَنَ رأيك لم يوحشني شيءٌ . وأتم بقية يومه عندها^(٢) .

* ولعلَّ من أجمل بوحِ فؤادِ زُبَيْدَة ، تلك القصيدة التي بعثت بها إلى

(١) انظر : العقد الفريد (٢/ ٢٧٣ و ٢٧٤) .

(٢) العقد الفريد (٣/ ٢٦١) ، ونهاية الأرب (٢٢/ ١٨٩) مع الجمع والتصرف .

هذا وقد زاد أبو الحسن محمد بن هلال الصّابي المتوفى سنة (٤٨٠ هـ) على هذه القصة فقال : إنَّ المأمون أقامَ عند زُبَيْدَة ، وتغذى عندها ، فأخرجت إليه من جوارِي الأمين من يغنيه ، وسألته أن يأخذَ منهن مَنْ يرتضيه ، فأوماً إلى واحدةٍ منهن ، فغَنَّتْ ، وضربت الباقيات عليها :

هُم قتلوه كي يكونوا مكانه كما فعلت يوماً بكسرى مرازبه
فإلا يكونوا قتاليه فإنّه سواءً علينا ممسكاه وضاربه
فوثب المأمون مغضباً ، فقالت له زُبَيْدَة : يا أمير المؤمنين ، حرمني الله أجره إن كنت علمتها ، أو دسست إليها به ، فصَدَّقها ، وعجب من ذلك .

انظر : (الهفوات النادرة للصّابي ص ١٣) .

المأمون على إثر مقتل ابنها الأمين، وإنها لتدلُّ دلالةً واضحةً على علو كعبها في الأدب والتَّظْم والبلاغة والبيان، ناهيك بفصاحتها وحُسن تصويرها للأحداث والأمر؛ فقد كتبت للمأمون ترثي بها سوء حالها، بعد فقد ولدها والأبيات هي:

لخَيْرِ إِمَامٍ قَامَ مِنْ خَيْرِ عُصْرٍ	وأفْضَلِ سَامٍ فَوْقَ أَعْوَادِ مِنْبَرٍ
لَوَارِثِ عِلْمِ الْأَوَّلِينَ وَفَهْمِهِمْ	وَلِلْمَلِكِ الْمَأْمُونِ مِنْ أُمَّ جَعْفَرٍ
كَتَبْتُ وَعَيْنِي مُسْتَهْلٌ دُمُوعَهَا	إِلَيْكَ ابْنَ عَمِّي مِنْ جُنُونِي وَمِخْجَرِي
فُجِعْنَا بِأَدْنَى النَّاسِ مِنْكَ قَرَابَةً	وَمَنْ زَلَّ عَنْ كَبْدِي فَقَلَّ تَصْبُرِي
وَقَدْ مَسَّنِي ضَرٌّْ وَذُلٌّ كَأَبَةٍ	وَأَرْقَ عَيْنِي يَا بَنَ عَمِّي تَفْكُرِي
وَهَمْتُ لِمَا لَاقَيْتُ بَعْدَ مُصَابِهِ	فَأَمْرِي عَظِيمٌ مَنكَرٌ عِنْدَ مَنكَرٍ
سَأَشْكُو الَّذِي لَاقَيْتُهُ بَعْدَ فَقْدِهِ	إِلَيْكَ شِكَاةَ الْمُسْتَهَامِ الْمُقْهَرِ
وَأَرْجُو لِمَا قَدْ مَرَّ بِي مُذْ فَقَدْتُهُ	فَأَنْتَ لِبَيْتِي خَيْرُ رَبِّ مَعْمَرٍ
أَتَى طَاهِرٌ لَا طَهَرَ اللَّهُ طَاهِرًا	فَمَا طَاهِرٌ فِيمَا أَتَى بِمَطْهَرٍ
فَأَخْرَجَنِي مَكْشُوفَةَ الْوَجْهِ حَاسِرًا	وَأَنْهَبَ أَمْوَالِي وَأَحْرَقَ أَذْوَري
يَعْرِضُ عَلَى هَارُونَ مَا قَدْ لَقِيْتُهُ	وَمَا مَرَّ بِي مِنْ نَاقِصِ الْخَلْقِ أَعْوَرِ
فَإِنْ كَانَ مَا أَبْدَى بِأَمْرِ أَمْرَتِهِ	صَبَرْتُ لِأَمْرٍ مِنْ قَدِيرٍ مَقْدَرِ
وَإِنْ كَانَ مَا قَدْ كَانَ مِنْهُ تَعْدِيًا	عَلَيَّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فَعِيرِ
تَذَكَّرُ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ قَرَابَتِي	فَدَيْتُكَ مِنْ ذِي حَرَمَةٍ مَتَذَكَّرِ

* فَلَمَّا نَظَرَ الْمَأْمُونُ إِلَى كِتَابِهَا، وَقَرَأَ شَعْرَهَا بِكَيِّ، وَاعْتَذَرَ إِلَيْهَا مِنْ قَتْلِ أَخِيهِ مُحَمَّدِ الْأَمِينِ، وَقَالَ لَهَا: لَسْتُ صَاحِبَهُ وَلَا قَاتِلَهُ، وَاللَّهِ مَا أَمَرْتُ وَلَا رَضِيتُ، اللَّهُمَّ جَلِّ قَلْبَ طَاهِرِ بْنِ الْحُسَيْنِ حُزْنَاً.

* هُنَاكَ قَالَتْ زَبِيدَةُ لِلْمَأْمُونِ مَقَالَةً تَدُلُّ عَلَى أَخْلَاقِهَا الْحَسَنِ، وَكَلِمَاتِهَا الَّتِي تَشْرُ مِنْ جُمَانٍ طَيِّبِهَا، وَهَمْسَاتٍ تَشِيرُ إِلَى نُبْلِهَا وَحَسَنِ صَلَاتِهَا بِاللَّهِ:

يا أمير المؤمنين، إنَّ لكما يوماً تجتمعان فيه، وأرجو أن يغفر الله لكما إن شاء^(١).

* هذا ولم يكن قتلُ الأمين أليماً على قلبِ زبيدة وحدها، وإنَّما كانت هناك نساءٌ أخريات قد تأثرن بهذه الحادثة المفجعة ورثينَ الأمين، من ذلك ما رثته به لبانةُ ابنة ربيعة التي بكته قائلة:

أبْكَيْكَ لَا لِلنَّعِيمِ وَالْأُنْسِ بَلْ لِلْمَعَالِي وَالرُّمَحِ وَالْفَرَسِ
مَنْ لِلْحُرُوبِ الَّتِي تَكُونُ بِهَا إِنْ أَضْرِمْتَ نَارَهَا بِلَا قَبَسِ
مَنْ لِلْيَتَامَى إِذَا هُمْ سَغَبُوا وَكُلُّ عَانٍ وَكُلُّ مُحْتَبَسِ

* وقد رثاه شعراء كثيرون، ومنهم الحسين بن الضحَّاك - وكان من ندمائه - فقال من قصيدة طويلة منها:

يَا خَيْرَ أَسْرَتِهِ وَإِنْ زَعَمُوا أَنِّي عَلَيْكَ لَمْثَبْتُ أَسْفُ
اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّ لِي كَبْداً حَرَّيْ عَلَيْكَ وَمَقْلَةً تَكِفُ
هَلَّا بَقِيتَ لِسَدِّ فَاقْتِنَا أَبْداً وَكَانَ لِغَيْرِكَ التَّلَفُ
هَيْهَاتَ بَعْدَكَ أَنْ يَدُومَ لَنَا عَزٌّ وَأَنْ يَبْقَى لَنَا شَرْفُ^(٢)

وَدَاعَاً سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْخُلَفَاءِ:

* عاشت زبيدة بعد مقتل ابنها مدةً من الدهر، تصلُّ عبادة الليل بطاعة النَّهار، وتؤدي الفرائض، وخرجت إلى الحج في عهد المأمون، ولم يتغيَّر شيءٌ من حالها.

(١) العقد الفريد (٣/ ٢٦١ و ٢٦٢)، والكمال في التاريخ (٦/ ٢٩٠ و ٢٩١)، وأعلام النساء (٢/ ٢١ - ٢٣)، وشرح مقامات الحريري للشريشي (٢/ ١٦٦ و ١٦٧) وشاعرات العرب (ص ٢١٢ و ٢١٣) مع الجمع والتصرُّف. هذا وقد وجدنا قصيدتها الرائية السابقة أشتاتاً في بطون المصادر، فجمعنا ذلك الشَّتات، وآلفنا بينها، ونسقنا بين معانيها لتفي بالغرض المطلوب؛ والله المستعان، وهو الموفق للصواب.

(٢) انظر: الكامل في التاريخ لابن الأثير (٦/ ٢٨٩ و ٢٩٠).

* وفي شهر جمادى الأولى من سنة (٢١٦ هـ) ماتت زُبَيْدة، وهي أعظم نساء عصرها ديناً وأصلاً وجمالاً وصيانة ومعروفاً^(١). ماتت زُبَيْدة في بغداد، ودُفِنَتْ فيها ووقفَ على قبرها عددٌ كبير من الشعراء ورثوها بأبدع ما جادت به قرائحهم وبنات أفكارهم.

* وقُبيل الوداع نتذكر قولَ القائل - وهو المتنبي -:

ولو كان النساءُ كَمَنْ فَقَدْنَا

لَفُضِّلَتِ النساءُ على الرجالِ

وما التَّائِبُ لاسمِ الشمسِ عيبٌ

ولا التَّذَكُّيرُ فخرٌ للهلالِ

وأفجعُ مَنْ فَقَدْنَا مَنْ وَجَدْنَا

قُبِيلَ الْفَقْدِ مَقْقُودَ الْمِثَالِ

* ماتت زُبَيْدة؛ ماتت المرأة التي أنفقت في سبيلِ الله، وفي خدمةِ حجاج

بيت الله، وفي بناءِ المساجد والقناطر، وتشيد المكارم وقصور المحامد ما لم تنفقه امرأةٌ من نساءِ الخلفاء قبلها، ولا بعدها، ولم تفكر امرأةٌ من نساءِ الخلفاء بعدها في عملٍ ما عملته زُبَيْدة، سيِّدة نساء الخلفاء فضلاً ومَعْرُوفاً.

* لقد ماتت زُبَيْدة، ولكن آثارها ومآثرها ما تزال حية تشهد لها

لا عليها، وتعطرُ الدنيا بأريجها، وتنفعُ التاريخ التَّسوي بشذاها.

* رحمَ اللهُ زُبَيْدة ابنة جعفر، وجعلها في مستقرِّ رحمته في جنَّات ونهر.

* * *

(١) الكامل في التاريخ (٢١٦/٦)، والنجوم الزاهرة (٤١٤/٢)، وسير أعلام النبلاء (٢٤١/١٠).

١٣

زَيْنَبُ نَبْتِ حُدَيْر

تَرْبِيَةُ فَرِيدَةٍ:

امتلكَت هذه المرأةُ مشاعرَ أشهرِ قاضٍ في صدرِ الإسلامِ، وظَلَّت تحتفظُ بودِّه وتحفظُه طيلةَ حياتها عنده .

عاشت هذه المرأةُ في القرنِ الهجريِ الأوَّل، وهي وإن لم تكن ممن لَمَعَتْ أسماؤُهُن في سمواتِ الشَّهرةِ، إلا أنَّ تربيَتها السَّليمةَ الفريدةَ، جعلَتها من نساءِ التَّاريخِ اللاتي نستمتعُ بسيرهن، ونسمعُ أخبارهن، وتقندي صوالحُ النِّساءِ بأخلاقهن، ليكنَّ خيرَ عونٍ ومعاونٍ لأزواجهن وأهلهن .

وهذه المرأةُ العاقلةُ عاشتُ في كَنَفِ أمِّها التي لا نعرفُ اسمها، وإنَّما نعرفُ أنَّها امرأةٌ خبيرةٌ بالحياةِ، قد خبرتِ الأمورَ، وعرفتُ ما يصلحُ لها، وما يفسدُها، وكانت حكيمةً ذاتِ نصائحٍ مفيدةٍ، قد صقلتُها التَّجاربُ، وعَلَّمَتها الأيَّامُ، وهذَّبَتها تعاليمُ الإسلامِ، فراحتُ تغذي ابنتها - ضيفةَ حلقتنا - برحيقِ هذه الفضائلِ الحِسانِ، لتكونَ معاوناً لزوجها تساعدُه على تقلباتِ الأزمانِ، فالمرأةُ الجميلةُ ربَّما تملكُ القلوبَ لزمَنِ معينٍ، أمَّا المرأةُ العاقلةُ الفاضلةُ فإنَّها تسترقُّ العقولَ والنِّفوسَ .

ولم يَخِبْ ظنُّ الأمِّ بابنتها، فكانت كما أرادتُ أمُّها، حيث كان زوجها يأنسُ بقربها، وتتبدَّدُ وحشته معها، وتزولُ غربته وهو يلازمُها، وتزولُ همومُه وأثقالُه بين راحتيها، فالإِلى جوارِها تشرقُ شمسُ التَّفَاوُلِ، ويطلعُ بدرُ المحبَّةِ والوئامِ، فقد كانت رفيقَ تقيٍّ، وصديقَ عُمَرٍ، وعوناً على الدهرِ، وفيةً له أشدَّ الوفاءِ، تؤدِّي واجباتها أحسنَ أداءٍ، لذلك انتزعتُ إعجابَ زوجها، ونطقَ بمحاسنِ فضائلها، وفضائلِ محاسنها، إذ هذَّبَتها أمُّها فبالغتُ في تهذيبها، وأحسنْتُ أدبها، ممَّا جعلَ هذا الزوجَ يرعى عَهْدَها، وينشُدُ دائماً:

وَمَا زِلْتُ أَرْعَى لَهَا عَهْدَهَا وَلَمْ أَتَّبِعْ سَاعَةَ عَارَهَا
ولا يكتفي بهذا، بل كان يُشيدُ مكارمها في كلِّ نادٍ، ويشيرُ إلى ما حبَّاهُ اللهُ من كمالٍ وجمالٍ يزينُ جمالَ أخلاقها وكمالَ أدبها، فهي تزيّنُ الحيَّ، بل هي شمسُ نساءِ عَصْرِها:

فَزَيْنَبُ شَمْسٌ وَالنِّسَاءُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ تُبْقِ مِنْهُنَّ كَوَكَبًا^(١)

* تُرى أيُّ الزَّيَانِبِ هذه الزَّيْنَبُ؟! بل أيُّ امرأةٍ جعلت زوجها شُريحَ بنَ الحارثِ القاضي الشَّهير ينشُدُ ما أنشد؟! إنَّ زَيْنَبَ هذه الصَّفحات هي زَيْنَبُ بنتُ حُدَيْرِ التَّمِيمِيَّةِ^(٢)، إحدى عاقلات ذاك العصر، وأطوعهن لأزواجهن، وزوجُها هو القاضي شُريح، فهل أذاك نَبأُ زَيْنَبِ^(٣) هذه؟ وهل أذاك حديثُها؟! زَيْنَبُ وَأُمُّهَا:

* لم تُفصحِ المصادرُ عن اسمِ أمِّ زَيْنَبِ بنتِ حُدَيْرٍ، وإنَّما حفظتْ لنا نَتَمًا منْ كلامِها، ورسمتْ بعضَ معالمِ شخصيتها، ونقلتْ لنا صُوراً من محاسنِ تربيتها لابتنتها زَيْنَبُ، كما عرَّفَتنا المصادرُ بأنَّها امرأةٌ ذاتُ وقارٍ وذكاءٍ وحزمٍ.

(١) لقد حلَّتِ النَّابِغَةُ الذَّبْيَانِي عَالِيَا، حينما امتدَحَ النِّعْمَانُ بنَ المَنْذَرِ، ثم خَلَعَ عليه هذه الصَّنْفَةَ إذْ قال:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلَكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ
فِيْكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوَكَبٌ
وهنا نجد هذا الرَّجُلَ قد وَصَفَ زوجته مادحاً إياها بأنَّها شَمْسٌ عندما تطلُعُ تتفَرَّدُ في كبدِ السَّمَاءِ، وهنالك تتلاشى الكواكب أمامها ويختفين. ونلمح بأنَّ هذا الرَّجُلَ قد أغارَ على قولِ النَّابِغَةِ، وركب البحرَ نفسَه، وأتى بروحِ معانيه في سبيلِ إبراز فضائل زوجته.

(٢) العقد الفريد (١٢٢/٦) و(٨٦/٧ - ٨٩) بتحقيق: محمد سعيد العريان، ووفيات الأعيان لابن خلكان (٤٦٢/٢)، والأغاني لأبي الفرج الأصبهاني (٣٦/١٦ - ٣٨)، والأخبار الموفقيات (٤٥ - ٤٩)، وسير أعلام النبلاء (١٠٦/٤)، وتهذيب تاريخ دمشق الكبير (٣١٥/٦ و٣١٦)، والدر المنثور (ص ٢٢٨ و٢٢٩)، وأعلام النساء (٦٤/٢)، وقصص العرب (١٣٥/٢)، وغيرها كثير من المصادر المتنوعة المشارب.

(٣) من معاني «زَيْنَب» ما جاء في اللسان لابن منظور قال: «الزَيْنَب»: شَجَرٌ حَسَنُ المنظر، طَيِّبُ الرائحة؛ وبه سَمِّيتِ المرأةُ، وواحدُ الزَيْنَبِ للشَّجَرِ: زَيْنَبَةُ. (لسان العرب ١/٤٥٣) دار صادر بيروت.

* أَمَا عَنْ حَيَاةِ زَيْنَبَ، فَلَا نَعْرِفُ إِلَّا قَلِيلًا عَنْ نَشَأَتِهَا، إِذْ تُوْفِي أَبُوْهَا وَهِيَ فِي عُمْرِ الرَّهْرِ، لَمْ تَسْتَنْشِقْ أَرِيحَ الْأَبْوَةِ، وَتَتَذَوَّقَ طَعْمَ حَنَانِهِ؛ لَكِنَّ أُمَّهَا حَاوَلَتْ أَنْ تَكْرِمَ فَتَاتِهَا الَّتِي تُضَاهِي الشَّمْسَ حُسْنًا، وَرَاحَتْ تَحْسُنُ إِلَيْهَا، وَتَزْرَعُ فِي نَفْسِهَا الصَّافِيَةَ غِرَاسَ الْفَضَائِلِ، وَتَغْرِسُ فِيهَا سِنَابِلَ الْأَخْلَاقِ، فَآتَتْ أَكْلَ هَذِهِ الْمَكَارِمِ، وَغَدَتْ وَاحِدَةً مِنْ فُضْلِيَّاتِ النِّسَاءِ فِي عَصْرِ التَّابِعِينَ، وَعَصْرِ بَنِي أُمَيَّةَ.

* وَأَخَذَتْ أُمُّ زَيْنَبَ تَحْرِصُ عَلَى أَنْ تَكُونَ ابْنَتَهَا مِنْ أَحْسَنِ نِسَاءِ بَنِي تَمِيمٍ عِلْمًا وَأَدْبًا وَتَرْبِيَّةً، لِتَكُونَ أُمًّا نَافِعَةً مَعْطَاءَ فِي بَيْتِهَا، فَالزُّوجَةُ الصَّالِحَةُ نَبْعُ السَّعَادَةِ، وَسَبَبُ الْفَلَاحِ، وَسِرُّ النِّجَاحِ، فَبِصِلَاحِهَا يَشْعُ الْبَيْتُ بِهَجَةٍ وَإِشْرَاقًا، وَيُظِلُّ الزُّوجَ لِأَخْلَاقِهَا مُشْتَاقًا، فَهِيَ كَنْزٌ ثَمِينٌ يَنْفَعُ فِي سَائِرِ الْأَحْوَالِ، وَفِي جَمِيعِ الْأَوْقَاتِ.

* وَيَبْدُو أَنَّ أُمَّ زَيْنَبَ كَانَتْ تَدْرِكُ بِإِحْسَاسِهَا وَفِرَاسَتِهَا، أَنَّ ابْنَتَهَا سَتَكُونُ ذَاتَ شَأْنٍ بَارِزٍ، فَقَدْ رَاضَتْ أَخْلَاقَهَا عَلَى النَّحْوِ الَّذِي أَرَادَتْهُ، لِتَكُونَ خَيْرَ امْرَأَةٍ، وَخَيْرِ زَوْجَةٍ فِي نِسَاءِ بَنِي تَمِيمٍ.

* وَصَدَقَ حَدْسُ أُمِّ زَيْنَبَ، فَقَدْ نَالَتْ ابْنَتَهَا شَهْرَةً طَبَّقَتْ آفَاقَ شَهْرَةِ نِسْوَةٍ قَوْمِهَا، وَحَظِيَّتْ بِمَكَانَةٍ عَظُمَى عِنْدَ زَوْجِ كَرِيمٍ هُوَ الْقَاضِي شُرَيْحٌ، فَكَانَتْ لَهُ مِنْ خَيْرَةِ الزَّوْجَاتِ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ حَدَاثَةِ سِنِّهَا، إِلَّا أَنَّ عَقْلَهَا قَدَّمَ نَضْجَهُ، وَذَلِكَ بِمَا غَدَّتْهَا أُمُّهَا مِنَ التَّجَارِبِ، وَوَشَّحَتْهَا بِكَثِيرٍ مِنْ حُلَى الْفَضَائِلِ، فَغَدَتْ مُوفِّقَةً فِي زَوَاجِهَا، إِذْ وَافَقَتْ زَوْجَهَا فِي مَزَاجِهِ وَأُمُورِهِ، فَكَانَ مُوَفِّقًا فِي عَمَلِهِ، وَمَا أُسْنَدَ إِلَيْهِ مِنْ قَضَاءٍ بَيْنَ النَّاسِ.

* إِنَّ امْرَأَةً تَسْتَطِيعُ أَنْ تَأْسَرَ مَشَاعَرَ زَوْجِ خَطِيرٍ - كَالْقَاضِي شُرَيْحٍ - امْرَأَةٌ تَسْتَحِقُّ الْخُلُودَ فِي دُنْيَا التَّأْرِخِ، كَمَا تَسْتَحِقُّ الْإِحْتِرَامَ وَالتَّوْقِيرَ، وَتُوضَعُ مَعَ قَائِمَةِ الْفُضْلِيَّاتِ.

* فَالْقَاضِي شُرَيْحُ الْكَنْدِيِّ، وَاحِدٌ مِنْ كِبَارِ وَرُؤُوسِ التَّابِعِينَ، وَوَاحِدُ الْأَذْكَيَاءِ وَالتَّابِهِينَ، أَدْرَكَ الْجَاهِلِيَّةَ، وَاسْتَقْضَاهُ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ - عَلَى الْكُوفَةِ، فَأَقَامَ قَاضِيًا ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْقَرْنِ - ٧٥ سَنَةً - لَمْ

يتعطل فيها إلا ثلاث سنين امتنع فيها من القضاء في فتنة عبد الله بن الزبير - رضي الله عنهما -، واستعفى الحجاج بن يوسف الثقفي من القضاء فأعفاه، ولم يقض بين اثنين حتى مات^(١).

* فالقاضي شريح هذا، هو زوج ضيفتنا زينب بنت حدير، فقد كان أعلم الناس بالقضاء، وكان ذا فطنة وذكاء، ومعرفة وعقل ورصانة. قال ابن عبد البر - رحمه الله -: كان شريح شاعراً مُحَسِّناً، وهو أحد السادات الطلس^(٢)، وهم أربعة: عبد الله بن الزبير، وقيس بن سعد بن عبادة، والأحنف بن قيس الذي يضرب به المثل في الحلم، والقاضي شريح.

* أمّا كيف التقى القاضي شريح زينب، فلذلك قصة شائقة طريفة، رواها شريح نفسه للشعبي التابعي الكوفي العالم المشهور؛ الذي يضرب المثل بحفظه، وقد كان الشعبي - رحمه الله - عالماً جليلاً القدر، وافر العلم، أدرك قرابة خمسمئة من الصحابة - رضوان الله عليهم -.

عَلَيْكُمْ بِنِسَاءِ بَنِي تَمِيم:

* هذه دعوة مغرية من القاضي شريح للزواج من بني تميم في عصره، فقد وجد في نفسه ذلك، ووجد في زوجة زينب الأنس والرضا، وكانت - على ما يظهر - واسعة العقل، وافرة الأدب، هيأت له أسباب الراحة، ولم تعصه يوماً واحداً، أو تنغص حياته مرةً خلال عقدين^(٣) من الزمن، قضتُهما معه، فكانت خير زوجة لزوجها.

* أمّا قصة هذا الزواج الموفق الميمون، فسنعرفه في الصفحات الآتية، كما رواه القاضي شريح للشعبي في واحدة من ليالي سمر العلماء، وما أدراك ما سمر العلماء!؟

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان (٢/٤٦٠)، وانظر ترجمة شريح في كتاب «أخبار القضاة» لوكيع.

(٢) «الطلس»: مفردها؛ أطلس، والأطلس الذي لا شعر بوجهه، ويُقال له: الكوسج والأنط.

(٣) «عقدين»: أي: عشرون سنة.

* حكى الشعبي - رحمه الله - قصة^(١) شريح وزوجه زينب بنت حدير فقال:

قال لي أبو أمية^(٢) شريح بن الحارث الكندي ذات يوم وقد طاب لنا الحديث: يا شعبي! عليك بنساء بني تميم، فإنهن النساء، وإنني رأيتُ لهنَّ عُقُولاً، ولمستُ منهنَّ آداباً، وعرفتُ منهنَّ طهارةً وعِفَّةً وصَلاحاً.

قال الشعبي لشريح: وما رأيتُ من عُقولهنَّ وأدبهنَّ يا أبا أمية؟! فقال شريح: اسمعُ أبا عمرو^(٣) ذلك؛ انصرفتُ ذاتَ يومٍ من جنازةٍ وقتَ انتصافِ الظهيرة، فقلتُ في نفسي: أعرجُ على دُورِ بني تميم، ومن ثمَّ أذهبُ من هنالك إلى بيتي. وقادتنِي قدامي، فمررتُ بدورِ بني تميم، فإذا بامرأةٍ جالسةٍ في سقيفة^(٤) على وسادةٍ يزينها وقارٌ، وإلى جانبها جاريةٌ ورْد^(٥) رؤْد^(٦)، ولها ذؤابةٌ على ظهرها كأحسنِ ما رأيتُ من الجواري، كأنها البدرُ في الليلةِ الدَّاجيةِ؛ كما قال الشاعر:

بَدَتْ قَمَراً وَمَالَتْ خَوْطَ بَانَ وَفَاحَتْ عَنَبِراً وَرَنْتْ غَزَلاً

* وكانتِ الجاريةُ تجلسُ على وسادةٍ ما رأى الرَّاؤونَ أحسنَ من وجهها:
يَزِيدُكَ وَجْهُهَا حُسْنًا إِذَا مَا زِدْتَهُ نَظْراً
إِذَا مَا اللَّيْلُ سَالَ عَلَيكَ بِالْإِظْلَامِ وَاعْتَكَرَ
وَدَجٌ فَلَمْ تَرَ قَمَراً فَأَبْرَزَهَا تَرَ قَمَراً
فقال الشعبي: وماذا فعلتَ يا أبا أمية؟!

(١) تصرفنا - عزيزي القارئ - بالقصة وأوردنا بعض الأشعار الجميلة المناسبة ليكون وقعها أجمل في النفس.

(٢) «أبو أمية»: كنية القاضي شريح.

(٣) «أبو عمرو»: كنية الشعبي.

(٤) «السَّقِيفَة»: الصُّفَّة، والموضع المظلل، ومنها: سقيفةُ بني ساعدة. (القاموس المحيط ١٠٥٩).

(٥) «وَرْد»: التي بلغت.

(٦) «رؤْدَة»: الشابة الحسنة، و«الرؤد»: في اقتبال شبابها.

قال شريحُ: فعدلتُ نحوهما، فسَلَّمْتُ واستسقيتُ؛ - واللهِ يا شعبي!
ما بي عطشٌ، وما لي حاجةٌ في الشرب - فردَّتِ المرأةُ السَّلامَ، وقالت لي:
أي الشَّراب أحبُّ إليك يا وجه الخير؛ اللبن، أم الماء؟!
فقلت: ما تيسَّرَ عندكم يابنة الأكارم.

قالت: اسقوا الرَّجل لبناً، فإنِّي أحسبه عربياً، والعربُ تحبُّ اللبن،
وإخاله غريباً عن دُورنا.

قال شريحُ: فلمَّا شربتُ، نظرتُ إلى الجارية فأعجبني، وقلتُ في
نفسي: أسألُ هذه المرأة عنها، فلعلَّ عندها خبرها.

قلتُ للمرأة: مَنْ هذه الجارية يا أختَ الكَرَمِ والكرام؟
قالت: إنَّها ابنتي وفلذة كبدي.

قلت: وإلى أي قبيلة تنسبُ يرحمك الله؟!

قالت: إلى بني تميم، ثمَّ بني حنظلة، ثمَّ بني طهية.

فقلت: ما اسم ابنتك ومن أبوها؟

قالت: زينبُ، وأبوها حُذير التَّميمي، مات منذ سنوات.

قال شريح: ولما عرفتُ ما عرفتُ عنها من أمِّها، وعرفتُ نسبها،
شجَّعتُ نفسي، وقلتُ: سأطلبها زوجةً لي.

* وبدأتُ الحديثَ مع أمِّها، وقلتُ لها: يابنة الأخيار، أودُّ أن أسألك
عن زينب.

قالت: حبًّا وكرامةً.

قلتُ: أفارغةً ابنتك، أم مشغولة؟!

قالت: بل فارغة لم تتزوَّج بعد.

قلتُ في شيء من الجرأة: أتنعمين بها زوجةً لي؟

قالت - ولم تكن عرفتني بعد -: نعم يا وجه الخير إن كنتَ لها من
الأكفَاءِ فعَلْنَا؛ ثم تابعتُ قولها: وأنا امرأة لا أقطعُ أمراً، وإنَّ لها من يقطعُ

الأمر، لها عَمُّ فاقصده، فإنه من عِلْيَةِ القوم.

قال شريح: ومضيتُ يا شعبي إلى منزلي كيما أَقِيلَ، فامتنعتُ مني القائِلَةُ^(١)، وفَرَّ النوم من عيني، و..

بِتُّ أَبْدي وَجَدًا وَأَكْتُمُ وَجداً لِحَيَالٍ قَدْ باتَ لي مِنْكَ يُهْدِي
وحاولتُ النَّومَ مراراً، ولكنَّ عبثاً، ولم أستطعُ أَنْ أغمضَ عيني لحظةً
واحدة، وأنا أفكرُ فيما حدثَ لي، وما وجدتُ في قلبي من الميلِ نحو تلك
الفتاةِ الطَّاهرة، وأحسستُ بمشاعرٍ شتى نحوها، لا أدري ما نهايتها،
فقد...

طَافَ الهوى في عِبَادِ اللَّهِ كُلِّهِمْ

حَتَّى إِذَا مَرَّ بي مِنْ بَيْنِهِمْ وَقَفَا

* وعندما مَلِلْتُ النَّومَ وملَّني هو، قمتُ، وأرسلتُ إلى إخواني القُرَّاء^(٢)
الأكابر الأشراف: عُلَمَاءُ، والأسودُ بنُ يزيد، والمسيبُ بن نجية، ومسروقُ
ابن الأجدع الهمداني، وسلمانُ بن صرد الخزاعي، وخالدُ بن عرفة
العذري، وعروةُ بن المغيرة بن شعبة، وأبو بُردة بن أبي موسى^(٣)؛ فوافيتُ
معهم صلاةَ العصر، ثمَّ إِنِّي مضيتُ بهم عقب الصَّلَاةِ إلى دُور بني تميم،
أبتغي عَمَّ زينب بنت حدير، وإذا به جالسٌ على وسادة أمامَ منزله، فلما رَأَيْتُ
وَمَنْ مَعِيَ خَفْتُ إلى لقائنا، ورَحَّبَ بنا جميعاً؛ ثمَّ أجلسنا، وأكرمنا، وقال:
يا أبا أمية ما حاجتُك؟

قلتُ: إليك جئتُ فيها، وأرجو ألا أخيب.

(١) «القائلة»: نصف النهار، قال قِيْلًا وقائلة وقيلولة ومقالاً ومقيلاً. وتَقِيلُ: نام فيه فهو قائل. (القاموس المحيط ص ١٣٥٩).

(٢) «القراء»: جمع قارئ، وهم أصحاب شريح الذين كانوا قد اشتهروا بقراءة القرآن وتلاوته.

(٣) ما أجمل هذه الصبغة!! بل ما أحلى هؤلاء وهم يرافقون شريحاً لقضاء حاجته، وبمثلهم تقضى الأمور!

قال متعجباً: ما هي يا أبا أمية؟

قلت: زينب بنت حدير، ابنة أخيك قد ذكرت لي، وأنا أودُّ أن أصل نسبي بنسبكم، وسببي بسببكم.

فقال عمُّها: يا أبا أمية، ما بزینب عنك رغبة، ولا بك عنها مقصر.

* عندئذ تكلمت يا شعبي، وحمدتُ الله - عزَّ وجلَّ - وصليتُ على النبي ﷺ، ومن ثمَّ ذكرتُ له حاجتي ورغبتِي في الزَّواج.

* وردَّ عمُّ زينب أحسنَ ردِّ، وخطبَ خطبةً بليغةً موجزةً، ثمَّ زوجني زينب أمامَ الملاء من أصحابي، ومن وجوه بني تميم، وبارك القومُ لي وهنوني، وباركوا هذا الزَّواج الميمون، ودعوا الله أن يثمرَ بالذرية والبنين^(١).

* ولما بلغتُ منزلي ساورثني الأفكارُ، وندمتُ أشدَّ ندامة، إذ أصبحتُ زينب ابنة حدير في حِبالي، وفي خيالي، وصرتُ أعثفُ نفسي وأقول: ويحك يا شريح تزوّجتَ إلى أغلظِ العرب وأجفأها، وأبعدَها عن مواطن الرِّقة، ثمَّ إنِّي تذكرتُ غلظَ قلوبهم، وجفاء طباعهم، ورجعتُ أقول لنفسي: أي شيء صنعتُ بنساءِ بني تميم؟!

* وهممتُ بطلاق زينب التَّميمية، وقويَ عزمي على ذلك، ثم ما لبثتُ

(١) قال الزَّبيدي - رحمه الله - في «التَّاج»: إذا قال له: بالرفاء والبنين، أي: بالالتمام والاتفاق، والبركة والنماء، وجمع الشمل وحسن الاجتماع. قال ابن السكيت: وإن شئت كان معناه: السكون والهدوء والطمأنينة، فيكون أصله غير الهمز (تاج العروس ٢٤٨/١).

هذا ومن الهدي التَّبوي في هذا المجال، ما رواه أبو هريرة - رضي الله عنه - أنَّ رسول الله ﷺ كان إذا رَفَأَ الإنسان، أي إذا تزوّج قال: «بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير»، أخرجه الإمام أحمد في المسند (٢/٢٨١)، وأبو داود برقم (٢١٣٠)، والترمذي برقم (١٠٩١)، وابن ماجه برقم (١٩٠٥)، والحاكم في المستدرک (٢/١٨٣)، وهو حديثٌ صحيح.

وقد نهى الحبيب الأعظم ﷺ أن يُقال: بالرفاء والبنين لأنّها تهنة جاهلية.

أَنْ قُلْتُ: لا، يا هذا، ولكنْ أضَمَّهَا إِلَى أَهْلِ بَيْتِي، فَإِنْ رَأَيْتُ مَا أَجِدُهُ وَأَحِبُّهُ فِيهَا لَزِمْتُهَا، وَإِنْ كَانَتْ الْآخَرَى كَانَ طَلَاقُهَا عَلَيَّ يَسِيرًا.
أَنْتِ سَيِّدَةُ نِسَائِهِمْ:

* كَانَ الْقَاضِي شَرِيحٌ يُحَدِّثُ جَلِيسَهُ الشَّعْبِيَّ، وَكَانَ الشَّعْبِيُّ قَدْ أَصَاحَ بِسَمْعِهِ إِلَى حَدِيثِ شَرِيحٍ الَّذِي يُدْخِلُ السُّرُورَ إِلَى النَّفْسِ، وَكَأَنِّي بِهِ يَسْتَزِيدُهُ مِنْ حَدِيثِهَا وَلِسَانِ حَالِهِ يَقُولُ:

وَحَدَّثْتَنِي يَا سَعْدُ عَنْهَا فَزِدْتَنِي
جُنُونًا فَزِدْنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدُ

* وَتَابَعَ الْقَاضِي شَرِيحٌ حَدِيثَهُ وَقَالَ: وَلَمَّا سَاوَرْنِي مَا سَاوَرْنِي مِنْ أَخْلَاقِ النِّسَاءِ التَّمِيمِيَّاتِ، أَقَمْتُ بَعْدَ ذَلِكَ بَضْعَةَ أَيَّامٍ، وَحَانَ وَقْتُ زَفَافِهَا، فَلَوْ رَأَيْتَنِي يَا شَعْبِي! وَقَدْ أَقْبَلَ نِسَاؤُهَا يَهْدِينَهَا حَتَّى أُدْخِلْتُ عَلَيَّ، وَلَمَّا أُجْلَسْتُ فِي الْبَيْتِ، أَخَذْتُ بِنَاصِيَتِهَا فَبَرَكْتُ، ثُمَّ أُخْلِيَ لِي الْبَيْتُ؛ فَقُلْتُ لَهَا: يَا هَذِهِ إِنَّ مِنَ السُّنَّةِ إِذَا دَخَلَتِ الْمَرْأَةُ عَلَى الرَّجُلِ أَنْ يَقُومَ فَيُصَلِّيَ رَكَعَتَيْنِ، وَتُصَلِّيَ هِيَ رَكَعَتَيْنِ، وَمَنْ ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى خَيْرَ لَيْلَتِهِمَا، وَيَتَعَوَّذُ بِهِ مِنْ شَرِّهَا.

* ثُمَّ إِنِّي يَا شَعْبِي تَوَضَّأْتُ، فَإِذَا بَزِينِبٌ تَتَوَضَّأُ بَوْضُوئِي، وَصَلَيْتُ فَإِذَا بِهَا تُصَلِّيَ بِصَلَاتِي، فَلَمَّا قَضَيْنَا الصَّلَاةَ، انْفَقَلْتُ، فَإِذَا هِيَ قَاعِدَةٌ عَلَى فَرَاشِهَا، وَلَمْ أَلْبَثْ إِلَّا قَلِيلًا حَتَّى أَتَتْنِي جَوَارِيهَا، فَأَخَذَن ثِيَابِي، ثُمَّ أَلْبَسَنِي مَلْحَفَةً قَدْ صُبِغَتْ فِي عَكْرِ الْعَصْفَرِ.

* وَلَمَّا خَلَا الْبَيْتُ دَنُوتُ مِنْهَا، فَمَدَدْتُ يَدِي إِلَى نَاصِيَتِهَا فَقَالَتْ لِي:
عَلَى رَسْلِكَ أَبَا أُمَيَّةَ! كَمَا أَنْتَ!. فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: وَيْحَكَ أَبَا أُمَيَّةَ، إِحْدَى الدَّوَاهِي مُنِيَتْ بِهَا. ثُمَّ إِنَّهَا اعْتَدَلَتْ فِي جِلْسَتِهَا وَقَالَتْ:

* إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ وَحْدَهُ، أَحْمَدُهُ وَأُسْتَعِينُهُ، وَأَوْمُنُ بِهِ، وَأَتَوَكَّلُ عَلَيْهِ، وَأُصَلِّيَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ، أَمَا بَعْدُ: إِنِّي امْرَأَةٌ غَرِيبَةٌ، وَلَا وَاللَّهِ مَا سِرْتُ مَسِيرًا قَطًّا - قَبْلَ الْآنَ - هُوَ أَشَقُّ عَلَيَّ مِنْ مَسِيرِي هَذَا إِلَيْكَ، وَأَنْتَ رَجُلٌ لَا عِلْمَ لِي بِأَخْلَاقِكَ، وَلَا أَعْرِفُ خِلَالَكَ، فَبَيِّنْ لِي مَا تَحِبُّ فَاتَيْنِهِ وَأَفْعَلُهُ، وَمَا تَكْرَهُ

فأزدرجُ عنه ولا آتية. . ثم إنها قالت لي مقالةً تشيرُ إلى بلاغيتها وفصاحتها ورجاحة عقلها: يا أبا أمية، إنه قد كانَ لك في قومك منكحٌ ومجالٌ للزَّواجِ، ولي في قومي مثلُ ذلك أيضاً، ولكنْ إذا قضى اللهُ تعالى أمراً كان، وقد ملكتَ زينبَ بنتَ حدير، فاصنعْ ما أمرك اللهُ به: ﴿فَأَمْسَاكُ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحُ بِإِحْسَنٍ﴾^(١) أقولُ قولِي هذا، وأستغفرُ اللهَ العظيمَ لي ولكَ، والحمدُ لله أولاً وآخراً.

* كان الشَّعْبِيُّ مشدوداً إلى جمال هذا الموقفِ الأسرِ الجميلِ، وسرعان ما سألَ القاضي شريحاً: وماذا فعلتَ يا أبا أمية؟

فقال شريح: لقد أحوجتني - والله - يا شعبي إلى الخطبة في ذلك الموضع، وذلك المقام، ثم إنِّي امتثلْتُ وقلتُ ردّاً على خطبتها: الحمدُ لله ربَّ العالمين، أحمدهُ وأستعينه، وأصلي على النبي وآله وسلم وبعد: فإنَّك - يابنة الكرام - قد قلتِ كلاماً إنَّ تثبتي عليه يكنُ ذلك حظُّك، وإنْ تدعيه يكن حجةً عليك، وإنَّك - بحمد الله - قد قدمتَ خيرَ مقدم، قدمتِ على أهل دارِ زوجك سيِّدُ رجالهم، وأنتِ سيدة نساءهم؛ ثم إنِّي بيَّنتُ لها أخلاقي وقلتُ: أحبُّ كذا وكذا، وأكرهُ كذا وكذا، ونحنُ في هذه الدارِ سواء، فلا تُفرِّقي، وإذا رأيتِ حسنةً فانشريها، وإنْ رأيتِ سيئةً فاستريها.

* قالت: ستجدني إن شاء الله من الصَّالحات فيما تحبُّ.

* ثمَّ إنها قالت بأدب واستحياء: يا أبا أمية كيف محبتك لزيارة الأهل، وأخبرني عن أختانك^(٢)، أتحبُّ أن يزورك؟ فقلتُ لها: يا زينب إنِّي رجلٌ قاضٍ، وما أحبُّ أن يملنِي أصهاري! وما أحبُّ أن تملوني^(٣).

(١) الآية [٢٢٩] من سورة البقرة.

(٢) «أختانك»: جمع ختن: الصهر، أو كل مَنْ كان من قبل المرأة، و«الخُتونة»: بالضم: المصاهرة و«خاتنه»: تزوج إليه؛ و«الخَتَنَة»: أم الزوجة؛ و«الخاتون»: للمرأة الشريفة، كلمة أعجمية.

(٣) «أن تملوني»: أي: يطيلوا الجلوس عندي.

قالت: فمن تحبُّ من جيرانك أن يدخل دارك آذن له، ومن تكرهه أكرهه
مثلك؟

قلت: يا زينب، اسمعي جيداً، بنو فلان قومٌ صالحون، فاسمحي لهم
بالزيارة، وبنو فلان قومٌ سوءٍ أشرارٌ فلا يدخلوا دارنا؛ ثمَّ إنِّي أنشدتها قائلاً:
خذي العَفْوَ مِنِّي تَسْتَدِيمِي مَوَدَّتِي
وَلَا تَنْطَقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَعْضَبُ
وَلَا تَقْرِينِي نَقْرَةَ الدُّفِّ مَرَّةً
فِيَنَّكَ لَا تَدْرِيْنَ كَيْفَ الْمُغَيَّبُ
وَلَا تَكْثِرِي الشَّكْوَى فَتَذْهَبَ بِالْقُوَى
وَيَأْبَاكَ قَلْبِي وَالْقُلُوبُ تَقْلِبُ
فِيَنِّي رَأَيْتُ الْحُبَّ فِي الْقَلْبِ وَالْأَذَى
إِذَا اجْتَمَعَا لَمْ يَلْبِثِ الْحُبُّ يَذْهَبُ^(١)

* وتابع القاضي شريح حديثه فقال: والله يا شعبي، لقد بثُّ بأنعم ليلة،
ثمَّ إنِّي أقمتُ عندها ثلاثة أيام، خرجتُ بعدها إلى مجلسِ القضاء، فكنْتُ
لا أرى يوماً يمرُّ عليَّ إلا وهو أفضلُ من اليوم الذي قبله، لما كنْتُ أجْدُ
عندها من فضْلِ أدبٍ، وكمالِ تربيةٍ، وحسنِ عشرةٍ، وكريمِ خصال.

(١) انظر هذه الأبيات في: عيون الأخبار (١١/٣)، وبهجة المجالس لابن عبد البر
(٥٦/٢)، ومحاضرات الأدباء (٢١٢/٢).

ومن الجدير بالذكر هنا، أنه يَحْسُنُ استحباب وصية الزوجة لما في ذلك من آثار
حَسَنٍ على الحياة الزوجية. قال أنسُ بنُ مالك رضي الله عنه: كان أصحابُ
رسول الله ﷺ إذا زفوا امرأة على زوجها، يأمرونها بخدمة الزَّوج ورعاية حقِّه.
ومن روائع وصايا الأزواج لزوجاتهم وصية أبي الدرداء - رضي الله عنه - لامرأته إذ
قالَ لها: إذا رأيتني غضبْتُ فَرْضْنِي، وإذا رأيتك غضبي رَضَيْتُكَ، وإلا لم
نصطحب. وباب الوصايا النافعة باب كبير في تاريخنا الوضيء، وما أحلاه
وأجمله!

إِنَّهَا أُمِّي :

بعد أن فرغ القاضي شريح من الثناء على زوجه زينب بنت حدير - وذكر ما حبّاه الله من خصائل خيّرات قلما تجتمع في امرأة غيرها - قال :

وظللتُ يا شعبي على تلك الحياة الهنية، وسعودها في إقبال، وحصائل مناقبها في ازدياد، وهي كلُّ يوم - والله - تزدُّ حُسناً على حُسني في ناظري؛
و...

زَيَّنْهَا اللهُ فِي الْفُؤَادِ كَمَا زَيَّنَ فِي عَيْنِ وَالِدٍ وَلَدٌ
وكنْتُ أخرجُ إلى مجلسِ القضاء، وأقضي بين الناس، وآخذُ من هذا، وأردُّ على ذاك، وحين عودتي إلى بيتي كنت حَالِماً حيثُ:
أرى الطَّرِيقَ قَرِيباً حِينَ أَسْلُكُهُ

إلى الحبيبِ بعيداً حِينَ أَنْصَرِفُ
ومكثتُ يا شعبي! على هذه الحالِ مدةً من الزَّمن، حتى إذا كان رأسُ الحول، ومضى على زواجنا اثنا عشر شهراً، وكانت الشُّهور سِمَاناً، قَضَتُ على السَّنوات العجافِ التي مرَّت عليّ، انصرفتُ ذاتَ يوم من مجلسِ القضاء، وجئتُ منزلي، فإذا أنا بعجوزٍ تأمرُ وتنهى في الدَّار! وأخذني من ذلك ما قَرَّب، وما بَعُد، وتعجَّبتُ، فسألتُ زينب: من هذه التي تأمرُ وتنهى؟

فقالت: لا عليك أبا أمية، إنها أمِّي فلانة، حماتك.

وعندئذٍ سرَّيَ عني ما كنتُ أجْدُ، فلما جلستُ وأخذتُ مكاني، أقبلتِ العجوزُ، فقالت: السَّلام عليك أبا أمية.

فقلتُ: وعليك السَّلام ورحمة الله وبركاته، وحيّاك الله، وأكرمك ورعاك، كيف أنتِ يرحمك الله؟

قالت: أنا بخير وفضل من الله، قَرَبَكَ اللهُ وأكرمك.

* ثمَّ إنَّها جلستُ قريباً مِنِّي وقالت: يا أبا أمية، كيف رأيتَ زوجك زينب بنتَ حدير؟

قلت: خير زوجة، وخير امرأة، أحسن الله إليك على هذه التربية يابنة الأجواد.

فقلت لي والحكمة تتناثر من فمها: يا أبا أمية، إن المرأة لا تكون في حال أسوأ خلقاً منها في حالتين: إذا ولدت غلاماً،

أو حظيت عند زوجها؛

فإن رابك منها ريبٌ فعليك إذ ذاك بالسَّوط؛ فوالله ما حازَ الرجالُ في بيوتهم شراً من المرأة المدللة الحمقاء.

فأجبتها وقد أسرني عقلها وسحرتني كلماتها: أشهد أنها ابنتك، أما والله لقد أدبت فأحسنت الأدب، ورضت فأحسنت الرياضة، فجزاك الله أفضل جزاء، وأثابك خير ثواب، ومثلك فلتكن الأمهات.

فقلت لي بعد أن صممت هنيهة: أبا أمية، أتحتب أن يزورك أختانك - أصهارك -؟!

قلت: متى شأؤوا يا أم زينب، ومتى أحببت أنت ذلك.

قال شريح: وهكذا يا شعبي كانت أم زينب، وتلك تربيتها، وتلك طريقها في الحياة، فقد كانت تأتيني في كل سنة تذكر هذا، وتذكرني بالسَّوط إذا ما رابني شيء من زينب؛ وتوصيني تلك الوصية الفريدة الرائعة، ومن ثم تنصرف راشدة راضية رضية النفس، سليمة دواعي الصدر، تغرس الفضيلة تلو الفضيلة في نفس زينب، وتُنمي عناصر الخير في أعماقها^(١).

(١) انظر المصادر التالية مع الجمع بينها، والتصرف في القصة ووضع الأشعار المناسبة مما رقّ لفظه، وراقت معانيه، وحسنت مغانيه: الأخبار الموفقيات (ص ٤٥ - ٤٨)، وأخبار القضاة لوكيع (٢/ ٢٠٥ و ٢٠٦)، وعيون الأخبار (٤/ ٩١)، ووفيات الأعيان (٢/ ٤٦٢)، والأغانى (١٧/ ٢٢٠ - ٢٢٣) طبعة دار الكتاب العربي، والعقد الفريد (٧/ ٨٦ - ٨٨) بتحقيق محمد سعيد العريان، والمستطرف (٢/ ١٩)، والدر المنثور لزينب فواز (ص ٢٢٨ و ٢٢٩)، وقصص العرب (٢/ ١٣٥ - ١٣٧)؛ =

عَشْرُونَ عَامًا مِنَ الصَّفَاءِ :

قال منصور بن إسماعيل الفقيه^(١) :

أَفْضَلُ مَا نَالَ الْفَتَى بَعْدَ الْهُدَى وَالْعَافِيَةِ
قَرِينَةَ مُسْلِمَةٍ عَفِيفَةَ مُوَاتِيَةٍ^(٢)

* ولقد كانت زينب ابنة حدير - رحمها الله - كذلك ، فقد عاشت في كنف القاضي شريح عشرين عاماً كانت حياة صفاء ونقاء وسناء ، عشرون عاماً قضّاها معها ولم يزل في صفحة الودّ الأولى وصفحة الوفاء الأولى^(٣) ؛ عشرون عاماً قضتها لم تعكز صفوة مرّة واحدة متعمّدة ، ولم توغز صدره في يوم من الأيام ، فقد عرفت مالها وما عليها ، فكانت من فضليات نساء العلماء ، ومن كرائم نساء القضاة في دنيا النساء .

* ففي رحلة حياتها مع القاضي شريح ، كانت نِعَمَ الرّوج الودود ، تزرعُ

= وغيرها كثير جداً .

(١) منصور بن إسماعيل بن عمر ، أبو الحسن التميمي المصري الفقيه الشافعي الضرير ، أصله من رأس عين بالجزيرة ، أخذ الفقه عن أصحاب الشافعي ، وله مصنفات في المذهب مليحة ، وله شعرٌ جيد شائر ، ومن غرر أقواله قوله :

عَابَ التَّقَّةَ قَوْمٌ لَا عَقُولَ لَهُمْ وَمَا عَلَيْهِ إِذَا عَابُوه مِنْ ضَرَرٍ
مَا ضَرَّ شَمْسَ الضُّحَى وَالشَّمْسُ طَالَعَةٌ أَنْ لَا يَرَى ضَوْءَهَا مَنْ لَيْسَ ذَا بَصَرٍ
وحكاياته وأخباره مشهورة ، أثنى عليه القضاة فقال : كان فقيهاً جليلاً القدر ، متصرفاً في كلّ عِلْمٍ ، شاعراً مجيداً ، لم يكن في زمانه مثله بمصر ، توفي في جمادى الأولى بمصر سنة (٣٠٦هـ) رحمه الله . (وفيات الأعيان ٥ / ٢٨٩ - ٢٩٢) ، ونكت الهميان للصفدي (ص ٢٩٧) مع الجمع والتصريف .

(٢) انظر : بهجة المجالس (٢ / ٣١ و ٣٢) .

(٣) يحضرني هنا قول الشاعر :

عَشْرُونَ عَامًا يَا كِتَابَ الْهُوَى وَلَا يَزَالُ الدَّرْبُ مَجْهُولًا
فَمَرَّةً كُنْتُ أَنَا قَاتِلًا وَأَكْثَرُ الْمَرَاتِ مَقْتُولًا
عَشْرُونَ عَامًا يَا كِتَابَ الْهُوَى وَلَمْ أَزَلْ فِي الصَّفْحَةِ الْأُولَى

في حياته الأنس والطيب، لذلك أحلّها شريح من قلبه مكاناً رحيباً، فهي أملُ دنياه، ودنيا أمله، ومهوى فؤاده، يسالمُ مَنْ سالمت، ويرعى عَهْدَها، ويكرمُ أهلها وذويها، ولشدة شغفه بها كان يُشِدُّ في امتداحها دائماً:

إذا زينبُ زارَهَا أهلُهَا حَشَدْتُ وأكرمتُ زوَارَهَا
وإنْ هيَ زارَتْهُمْ رُزْتُهَا وإنْ لم يكنْ لي هوى دارَهَا
فَسِلْمِي لِمَنْ سالمتُ زينبُ وحربي لمنْ أشعلتْ نارَهَا
وما زلتُ أرعى لها عَهْدَهَا ولم أَتْبِعْ ساعةً عارَهَا

* ويبدو أنَّ القاضي شريحاً قد أكثر التَّغْيِي بمناقب زينب، وأنشأ فيها كثيراً من الأشعار الرائقة، والمعاني الفائقة، ففي مدة مقامها عنده لم يُعَكِّرْ صفو حياتهما سوى حادثةٍ عابرةٍ لا شأنَ لها، أمّا هذه الحادثة، فيرويها القاضي شريح نفسه في حديثه الشائق العذب للشعبي فيقول:

يا شعبي! أقامت زينبُ ابنة حُدير معي عشرين سنة، ما غضبتُ عليها يوماً ولا ليلة، عشرون عاماً مضت ولم أعتبُ عليها في شيءٍ إلا مرةً واحدةً، وكنتُ لها ظالماً، وذلك أني كنتُ إمام قومي، وأخذ المؤذُن في الإقامة بعدما صليتُ ركعتي الفجر، فأبصرتُ عقرباً تدبُّ بالقرب منّا، فعجلتُ عن قَتْلِها، وعندها أخذتُ الإناء فأكفأته عليها ريثما تنتهي الصلاة، ولما كنتُ بالباب، قلتُ: يا زينب، لا تحرّكي الإناء حتى آتي من الصلاة؛ ثم خرجتُ.

ولكنَّ زينبَ عَجِلَتْ، وحَرَّكَتِ الإناءَ دون قَصْدٍ منها، فضربتُها العقربُ، فجنّتُ، فإذا بزينبَ تتلوى من شدة الألم، فقلتُ: ما لك؟ وما بك؟ وما دهاك؟

قالت: لسَعَتَنِي العقربُ - ولهذا السَّبب كان غضبي لتعجيلها رفعه - فلو رأيْتَنِي يا شعبي وأنا أمرسُ أصبعها بالماء والملح، وأقرأُ عليها فاتحة الكتاب والمعوذتين، حتى خَفَّ أَلْمُها، وكانت خلال ذلك تشعرُ أنها أخطأت في حقِّي.

وماذا بعدُ يا زَيْنَب؟

هذه هي زينبُ ابنة حدير التَّمِيمية، وذلك هو القاضي شريح الذي حدّث الشعبي وحدثنا عنها، ودعا إلى الزَّواج من نساء بني تميم.

ولكنْ ماذا بقي في جعبة القاضي شريح عن زوجه زينب؟ لا شكَّ أنَّ

مشاعره ما تزال فياضة، وآماله عراض فيها، فقد كانت توليه خيراً، وتعرف مكانه ومكانته بين الناس، وبين علماء التابعين، أما شريح فقد كان يودُّ لو كان الناس جميعهم يعيشون سعادته، وكم كان يؤلمه أولئك الذين يختلفون مع زوجاتهم، فلذلك كان يقصُّ على الشعبي قصة أحد جيرانه فيقول:

كان لي جارٌّ من كندة يُقال له: ميسرة بنُ عُرير، فكان لا يزال يقرعُ امرأته، ويضربُها، فألمني فعله كثيراً، فقلتُ في ذلك:

رَأَيْتُ رَجَالاً يَضْرِبُونَ نِسَاءَهُمْ

فَشَلَّتْ يَمِينِي يَوْمَ أَضْرَبُ زَيْنَبَا

أَأَضْرِبُهَا فِي غَيْرِ ذَنْبٍ أَتَتْ بِهِ

فَمَا الْعَدْلُ مِنِّي ضَرْبُ مَنْ لَيْسَ مُذْنِبَا

فَتَاةَ تَزِينُ الْحَيَّ إِنَّ هِيَ زُيِّنَتْ

كَأَنَّ بَفِيهَا الْمِسْكُ خَالَطَ مُحَلْبَا

فَزَيْنَبُ شَمْسٌ وَالنِّسَاءُ كَوَاكِبُ

إِذَا طَلَعَتْ لَمْ تُبْقِ مِنْهُنَّ كَوَكْبَا^(١)

فَلَوْ كُنْتَ يَا شُعْبِي صَادَفْتِ مِثْلَهَا

لَعَشْتُ زَمَاناً نَاعِمَ الْبَالِ مَخْصَبَا

يا شعبي! وددتُ - والله - أنِّي قاسمتُها عيشي، فلقد توفيتُ زينبُ،

وتركتُ أعطرَ الأثرِ في نفسي، وأجملَ الذكريات؛ نعم أجملَ الذكريات في

الأيام الخوالي، ...

وَمَا ذَكَرْتُكُمْ إِلَّا وَضَعْتُ يَدِي

عَلَى حُشَاشَةٍ قَلْبٍ قَلَمَا بَرَدَا

وَمَا تَذَكَّرْتُ أَيَّاماً بِكُمْ سَلَفْتُ

إِلَّا تَحَدَّرَ مِنْ عَيْنِي مَا بَرَدَا

(١) ورد في بعض المصادر: «لم تُبد» بدلاً من قوله: «لم تبق».

وإنني - والله - قد أبغضت العيش بعدها، ووددت لو أنها كانت حية تُرزق الآن، أو ووددت لو أنني تبعتها:

اللهُ يعلمُ أنني لفراق وجهك نازعٌ
ولكن يا شعبي! لا مفرّ من قضاء الله تعالى، فهو المتصرّف فيما يشاء،
ولا أملك إلا الصبر، وإلا التسليم، ...

لو كنت ساعةً بيننا ما بيننا
وشهدت كيف تكرر التوديعا
أيقنت أنّ من الدُموع محدثاً
وعلمت أنّ من الحديث دُموعاً

* ولعلّ القاضي شريح قد رثى زوجه زينب بكثيرٍ من رقائق قصائده،
وسكب عليها العبرات، حتى لقد سار على دربه كثيرٌ من علماء الشعراء،
ونهجوا نهجه في إبراز محاسن وفضائل زوجاتهم، فهذا بعضهم يرثي زوجته
واسمها زينب أيضاً:

عليك سلام الله ما غبت زينب
فما كان عهدي أن يطول التغيب
لقد كنت مملوء الفؤاد بأنسها
ولم أدر أنّ البين يوماً يشعب
تعجلها ريب المنون على الصبا
وليس لها ممّا قضى الله مهر
فضائلها شتى ومن كان مثلاًها
يعزّ علينا أن تموت ويضعف
سقى قبرها صوب من المزن واكف
ويرحمها الرحمن ما ضاء كوكب

وداعاً نعيم الحياة:

* في الشوط الأخير من قصة زينب بنت حدير، نستمع مع الشعبي إلى

القاضي شريح وهو يتابع حديثه عنها قائلاً: ماذا أقول لك يا شعبي عن زينب؟! لقد ذكرت لك غيضاً من فيض محاسنها، واقتطفت لك زهرة من رياض أزهرها؛ إن ذكرها ما تزال ماثلة في قلبي؛ . . .

عليكم سلام الله أما وداذكُم
فَباقٍ وأما البُعْدُ عنكم فما أَبْقَى

لكني أقول لك: عليك يا شعبي بنساء بني تميم، فهن النساء، وهن نعيم الحياة، ورحيق الوداد^(١).

* والآن، عزيزي القارئ، وصلنا إلى السَّاحِل، وهذه زينب ابنة حدير التَّميمية^(٢)، امرأة القاضي العالم شريح بن الحارث، فقد عطرت سيرتها سيرة نساء العلماء، وعاشت حميدة، وماتت زاكية الفِعال، فهل تكون زينب قدوة لنساء عصرنا؟ وهل تكن النساء الصَّوالح قدوة لغيرهن لتشمل السَّعادة الزوجية بني الإنسان؟!

* رحم الله زينب بنت حدير، فلقد كانت بحق مثال الزوجة الصَّالحة العفيفة الأليفة التي تعين على طاعة الله تعالى.

* * *

(١) انظر: الأخبار الموفقيات (ص ٤٨ و ٤٩)، والعقد الفريد (٧٩/٧) بتحقيق محمد سعيد العريان، ووفيات الأعيان (٢/٤٦٢)، وتهذيب تاريخ دمشق الكبير (٦/٣١٥ و ٣١٦) مع الجمع والتصرف.

(٢) كم هنَّ كثرات أمثال زينب ابنة حدير هذه في كلِّ زمانٍ وأوانٍ، ولكن لم يُنَحَّ لهنَّ أن يظهرنَّ على مرآة الزَّمان، ومن كان يعرف زينب هذه لولا اقترانها بالقاضي شريح؟!

١٤

ست الركب العقلانية

نشأة علمية وتربية صافية:

* هذه امرأة أثارت إعجابي بشمائلها عندما شرعتُ أقرأ سيرتها، فأحببتُ الكتابة عنها إذ حرّكتُ فيّ كوامن الإعجاب لما اختصّها الله من مكارم في عصرٍ يندرُ أن تحظى امرأة بالمكانة العلمية.

* وكنتُ أخاطبُ نفسي وأنا أقلّبُ المصادرَ العديدةَ بحثاً عن أخبارِ هذه المرأة، وأقولُ: تُرى مَنْ سمع بهذه المرأةِ العالمة وعرفَ سيرتها؟ بل مَنْ تصدى لاستخراج ملامح شخصيتها، ورسم معالم حياتها لتكون إحدى نساء التاريخ اللواتي نفخرُ بهنّ، ونطربُ من أخبارهنّ؟!

* وعندما تجمعتُ خطوطُ حياتها في مخيلتي، رأيتُ أنها امرأة تستحقُّ أن تُرسمَ أحداثُ حياتها، وتُسجَلَ فضائلُها في صفحاتِ فضلياتِ النساءِ الخالداتِ ممن حقّقن المكارم على مرّ العصور والأزمان.

* ولعلّ الأضواء لم تُسلط كثيراً على سيرتها، أو أخبارها، لذلك لم تحظَ بمساحة كبيرة بين النساء الشهيرات في عالم الشهرة، ولكنها على الرغم من هذا كله، أثرت في عالم العلماء، وأثرت دنيّا العلم، فكانت وراء نبوغ أحد أفراد الدهر علماً وأدباً ومعرفةً، وكان لها اليد البيضاء الطولى في حسن تربيته ورعايته.

* فلندخل الآن رحابَ وأجواء هذه المرأةِ العالمة، لكي نتعرّف نشأتها وتربيتها، وجوانب العلم والمعرفة في شخصيتها، فهي أختُ أحد علماء الدنيا البارزين، وأحد حفاظ عصره المرموقين، وأحد نوادر الدنيا المعدودين، فهل عرفتم مَنْ ضيفتنا اليوم؟

* لعلّ أخاها أفضل مَنْ يقدّم بطاقتها لشُدّة العلم، وطلاب المعرفة، فهي ستُّ الرّكب بنتُ علي بن محمّد العسقلانية^(١). وستُّ الرّكب هذه

(١) انظر: إنباء الغمر لابن حجر (٣/ ٣٠٢)، والجواهر والذّرر (ص ٥٨ و ٥٩) وشذرات الذهب (٨/ ٦٠٣) وأعلام النساء (٢/ ١٥٤).

واحدةً من نساء الإسلام اللاتي عِشْنَ في القرن الثامن الهجري، وحقَّقْنَ نصيباً في تاريخ النساء، ولكنَّ في أذهان العلماء ومحبي العلم.

* وسِتُّ الركب هذه سليلَةُ بَيْتِ عِلْمٍ ومآثر، ومكرمات وفضائل، نشأت في بَيْتٍ تحفُّهُ الأخلاق، ويكتنفهُ المجد من جميع جوانبه، وتفوحُ منه أزهَرُ المعرفة والأدب، فتملاً أَسْمَاعَ الدنيا، لذلك دَرَجَتْ على معرفة الكتابة والقراءة منذ نعومة أظفارها، وأحَبَّتِ العلمَ منذ أن أَيْفَعَتْ وأدركت مكانة العلم والعلماء.

* فأبوها عليُّ بنُ مُحَمَّدٍ الملقب نور الدين العسقلاني المولود سنة (٧٢٠ هـ)، أحدُ المشتغلين بالعلم في عَصْرِهِ، وخصوصاً علم العربية والأدب، ناهيك أَنَّهُ نَبَغَ في الفقه، وتتلذذَ على مُحَمَّدِ بْنِ سَيِّدِ النَّاسِ^(١)، صاحبِ التَّصَانِيفِ المشهورة، والعلومِ الماثورة.

* وتشيرُ أخبارُ والدها إلى أَنَّهُ أَجَادَ فنَّ الشَّعْرِ، وله كثيرٌ من المدائح النبوية، وكثيرٌ من النَّظْمِ في مختلفِ فنونِ الشَّعْرِ، ووقعَ في الحِكم، وأكثر

(١) مُحَمَّدُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ سَيِّدِ النَّاسِ أَبُو الْفَتْحِ الشَّافِعِي؛ الإِمَامُ الْحَافِظُ الْيَعْمَرِيُّ الْأَنْدَلُسِيُّ الْإِسْبِيلِيُّ الْمَصْرِيُّ، المعروف بابن سَيِّدِ النَّاسِ. وُلِدَ سنة (٦٧١ هـ) بالقاهرة، وتفقّه على المذهبِ الشَّافِعِيِّ، أخذ في عِلْمِ الْحَدِيثِ وَأَصُولِ الْفِقْهِ، وقرأ النَّحو، وبرع في العُلُوم، وصنَّفَ كِتَاباً نَفِيسَةً مِنْهَا «عَيُونُ الْأَثَرِ» فِي السَّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ. وذكره الذَّهَبِيُّ فِي «مَعْجَمِهِ الْمُخْتَصَرِ» وَقَالَ: أَحَدُ أَيْمَةِ هَذَا الشَّانِ، كَتَبَ بِخَطِّهِ الْمَلِيحِ كَثِيراً، وَخَرَجَ، وَصَحَّحَ وَعَلَّلَ، وَفَرَعَ وَأَصَلَ، وَقَالَ الشَّعْرُ الْبَدِيعَ، وَكَانَ حَلُو النَّادِرَةِ، حَسَنَ الْمَحَاضِرَةِ.

وَقَالَ ابْنُ كَثِيرٍ: اشْتَغَلَ بِالْعِلْمِ، فَبَرَعَ وَسَادَ أَقْرَانَهُ فِي عِلُومِ شَتَّى مِنَ الْحَدِيثِ، وَالْفِقْهِ، وَالنَّحْوِ، وَعِلْمِ السَّيَرِ، وَالتَّارِيخِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَهُ الشَّعْرُ وَالتَّرِيقُ الْفَائِقُ، وَحَسَنُ التَّصْنِيفِ، وَالتَّرْصِيفِ، وَالتَّعْبِيرِ، وَجُودَةُ الْبَدِيعَةِ، وَحَسَنُ الطَّوِيَةِ، وَالْعَقِيدَةُ السَّلْفِيَّةُ، وَالِاقْتِدَاءُ بِالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ.

وَقَالَ ابْنُ نَاصِرِ الدِّينِ: كَانَ إِمَاماً، حَافِظاً، عَجِيباً، مُصَنِّفاً، بَارِعاً، شَاعِراً، أَدِيباً. مَاتَ فِي (١١ شَعْبَانَ) مِنْ سَنَةِ (٧٣٤ هـ) بِمِصْرَ رَحِمَهُ اللَّهُ. (شَذَرَاتُ الذَّهَبِ ١٨٩/٨ و ١٩٠) بِتَصَرُّفٍ وَابْتِصَارٍ.

الحجّ والمجاورة، وله عدة دواوين منها «ديوان الحرم».

* وقد ذكره ابنُ العمادِ نقلاً عن ابنه الحافظ ابن حجر فقال: وكان موصوفاً بالفضل، والمعرفة، والديانة، والأمانة، ومكارم الأخلاق، ومن محفوظاته كتاب «الحاوي»، وله استدراكٌ على كتاب «الأذكار» للإمام النووي، وفيه مباحثٌ حسنةٌ تشيرُ إلى علمه، وهو القائلُ:

يَا رَبِّ أَغْضَاءِ السُّجُودِ عَتَقَتْهَا

مِنْ عَبْدِكَ الْجَانِي وَأَنْتَ الْوَاقِي

وَالْعِتْقُ يَسْرِي بِالْغَنَى يَا ذَا الْغَنَى

فَأَنْعَمْ عَلَى الْفَانِي بِعِتْقِ الْبَاقِي^(١)

(١) شذراتُ الذهب (٨/ ٤٣٥ و ٤٣٦) بتصرف يسير جداً، ويروى الشطر الثاني من

البيت الثاني على النحو التالي: «من فضلك الوافي وأنت الوافي».

ولعلَّ من نافلة القول أنْ نشيرَ إلى أنَّ الشعراءَ بَعْدَهُ قد أَعْرَمُوا غراماً شديداً في هذين البيتين، فراحوا ينسجونَ على منوالهما، وراحوا يستخدمون ألوانَ الصَّنعةِ البديعيةِ فيهما من تشطيرٍ وتضمينٍ وتخمينٍ وما شابه ذلك. ومن أجمل ما قرأته في هذا المجال تخمينٌ لطيفٌ على بيتي نور الدين ما قاله أحدُ الفضلاء:

يَا رَبِّ كَمْ مِنْ نِعْمَةٍ أَسَدَيْتَهَا يَا رَبِّ كَمْ مِنْ رَحْمَةٍ أَرْسَلَتْهَا
شُكْرًا لِفَضْلِكَ كَمْ ذُنُوبٌ غَفَرَتْهَا «يَا رَبِّ أَغْضَاءِ السُّجُودِ عَتَقَتْهَا

مِنْ فَضْلِكَ الْوَاقِي وَأَنْتَ الْوَاقِي»

بُشْرَاكِ أَغْضَاءِ السُّجُودِ لِكَ الْهَنَا بِالْعَفْوِ وَالْغَفْرَانِ جَاءَ شَرْعُنَا
وَلَقَدْ عَتَقْتَ الْبَعْضَ مِنْ رَبَّنَا «وَالْعِتْقُ يَسْرِي بِالْغَنَى يَا ذَا الْغَنَى

فَامْنُنْ عَلَى الْفَانِي بِعِتْقِ الْبَاقِي»

كما أنَّ الشعراءَ العلماءَ، والعلماءَ الشعراءَ، قد نسجوا على منوالِ هذه القصائد والمقطعات، من ذلك قول القاضي نور الدين علي بن محمد الشافعي المتوفى في القاهرة بشهر صفر سنة (٨٦٢ هـ):

يَا رَبِّ مَالِي غَيْرَ رَحِمْتِكَ الَّتِي أَرْجُو النَّجَاةَ بِهَا مِنَ التَّشْدِيدِ
مَوْلَايَ لَا عَلِمِي وَلَا عَمَلِي إِذَا حُوسِبْتُ مَا عِنْدِي سِوَى التَّوْحِيدِ
(شذرات الذهب ٩/ ٤٤٢).

مَوْلِدُهَا وَتَسْمِيَّتُهَا :

* ولدت ستُّ الركبِ هذه في شهر رجب سنة (٧٧٠ هـ)، وكان لتسميتها بهذا الاسم سببٌ طريفٌ يدلُّ على ذكاءِ أبيها وصفاءِ نفسه .

* ففي سنة (٧٧٠ هـ) عزمَ والدها نور الدين على الحجِّ وزيارة الدِّيار المقدَّسة، فاصطحبَ معه زوجته إلى رحلة الحج، فخرج من مصر، ويمم تلقاء أمِّ القرى في ركبٍ من حجاج الدِّيار المصريَّة، ولما كان في بعضِ الطَّرِيق - وقد دخل شهرُ رجب - ولدت امرأته بنتاً هي ستُّ الركبِ ضيفة حلقتنا في هذه الصَّفحات، وأطلقَ عليها أبوها اسم ستِّ الركب، وكنّاها أم محمد لمناسبة الحجِّ والركبِ الميمون الذي يقصد الدِّيار الحجازية لأداء فريضة الحجِّ .

* وبعد بضْع سنوات ولدت أمُّها ابناً هو الحافظ الشَّهير في دنيا المشاهير، ومشاهير الدنيا، وفي دنيا العِلْم، وعلم الدنيا، وفي دنيا الحديث والمعرفة والأدب والمعارف والمكارم، حافظ عصره، وزين مصره أحمد بن علي المشهور بابن حجر العسقلاني .

* نشأت ستُّ الركبِ العسقلانية بينَ أبوينِ كريمين، ولكنها لم تنعم بدفءِ حنانِ والدها سوى بضعة أعوام، فقد أفت المنيَّة والدها في (١٥ رجب) سنة (٧٧٧ هـ)^(١)، وكانت ستُّ الركبِ طريَّة العودِ لم تتجاوزْ سَبْعَ سنوات، أمّا شقيقها أحمد فلم يكملِ السَّنة الرَّابعة من عمره، ويؤيِّدُ هذا ما ذكره ابن حجر - رحمه الله - قال: تركني والدي لم أكملِ أربعَ سنين، وأنا الآن أعقلُه كالذي يخيل الشَّيء، ولا يتحقَّقه... وأحفظُ منه أنَّهُ قال: كنية ولدي أحمد أبو الفضل^(٢) .

القَارِئَةُ النَّفِیَّةُ وَالكَاتِبَةُ الذَّكِيَّةُ :

* قَيَّضَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - لهذهِ المرأةِ أسرة تحبُّ العِلْم، وتكبرُ العلماء،

(١) شذرات الذهب (٤٣٦/٨) طبعة دار ابن كثير المحققة .

(٢) المصدر السَّابِق نفسه باختصار .

فقد كان أبوها نور الدين - كما عرفنا بعض صفاته - يقوم على تربيتها وفق مرضاة الله تعالى، ويسعى لكي تكون ابنته ست الركب من ذوات الطهارة والفلاح، والتقى والعمل الصالح، فكان حريصاً أشد الحرص على اصطحابها معه كيما تحضر حلقات العلم، وحلق العلماء، لتأخذ العلم عن العلماء منذ صغرها^(١). وكان كذلك يصحب ابنه أحمد بن حجر إلى مجالس العلماء لينال هو الآخر قسطاً من العلوم والمعرفة بطريقة المشافهة والتلقين والتلقي.

ويظهر أنّ نور الدين والد ست الركب كان من الموسرين، إذ ترك لها ولأخيها ثروة جيّدة، تعينهما على أن يعيشا في يسر وسهولة.

وعلى الرغم من وفاة والدها وهي لم تشب عن الطوق، فقد كانت نشأتها خير نشأة وأحسنها، فقد درجت على تعلم الحفظ والتدرب عليه، والسير في طريقه، فحفظت شطراً كبيراً من القرآن الكريم ولم تتجاوز العاشرة.

ويبدو أنّ المحيط الذي نشأت به كان يحفل بأهمّات الكتب النفيسة، والتادرة، فانطلقت وشقت طريقها في تعلم القراءة، فأكثرت من مطالعة الكتب والنظر فيها، حتى أضحت من الماهرين في ذلك، إذ كان يظنّ مَنْ

(١) ذكر ابن حجر - رحمه الله - صورةً وافيةً من عناية والده نور الدين بتعليم أخته ست الركب، وكيف أجاز لها كبار العلماء في عصرها، وأورد أسماء طائفة من العلماء الذين أجازوا لها من عواصم البلاد الإسلامية. وذكر منهم: من مكة: ابن عبد المعطي. من المدينة: نور الدين الزرندي.

ومن المجاورين: الكرمانى شارح البخاري.

ومن دمشق: محمد بن أحمد بن خطيب المزة، وكذلك التقي بن رافع.

ومن حلب: محمد بن عمر بن حبيب وأخوه: الحسين بن عمر بن حبيب.

ومن تونس: شمس الدين بن مرزوق.

ومن مصر: الحافظ زين الدين العراقي؛ وأبو الفرج بن الشحنة، وصلاح الدين بن مسعود وآخرون.

يراها وهي تقرأ من الكتاب ، أنها تحفظه لجودة استخراجها^(١) .

* ولعلَّ أخاها الحافظ ابن حجر كان من المعجبين بمعرفتها الواسعة
لشتى العلوم ، بل كان يغبطها على ذكائها وحفظها وقد وصفها في قوله :
كانت قارئةً كاتبَةً ، أعجوبةً في الذكاء^(٢) .

* وأعتقد أنَّ ستَّ الركبِ هذه قد سلكت طريقَ العِلْمِ والعبادة ، حيث
كانت تحسَّ في روحها نعيماً غابراً وهي تسيِّر في ظلالِ هذا الطريقِ
الوضيِّء ، فازدادت طاقته اندفاعاً وتألقاً لتسمو فوق نساءِ عصرها ، أو ممن
عاصرها من نساءِ مصرها .

* إنَّ المتتبعَ لأحوالِ وأخبارِ هذه المرأةِ العالمية يجدُ أنَّ الله - عزَّ وجلَّ -
كان بها رحيماً ، حيثُ كشفَ عن بصيرتها العلميَّة ، وأضاءَ لها دربها ، لتقودَ
سيّد الحفّاظ في عصرها ، بل سيّد المحدثين ابنُ حجر أخاها ، ومنَّ منّا
لا يعرفُ ابن حجر؟! لا

* نعم يبدو لي أنَّ الله - عزَّ وجلَّ - قد أكرمَ ضيفتنا لتكون أماً وأختاً
ومعلمةً وقائدةً لهذا الحافظِ النَّادرة ، ولا غرابة في هذا ، فليستِ المكانةُ
العلميَّةُ مقصورةً على جماعةِ الرِّجال وحدهم دونِ النساء . بل إنَّ المصادرَ
الوثيقة ، وكتبُ التَّراجم والتَّاريخ قد حفظتْ لنا أخبارَ كثير من العالماتِ
القانتاتِ ، والمؤمناتِ الصَّالحات اللواتي تطهَّرت قلوبهنَّ ، وأذهبَ الله عنهن
غشاوةَ الجهل ، وجاهنَّ نورَ العِلْم والفهم ، فتفتَّحت بصائرهنَّ ، وتخرَّجَ في
مدارسهنَّ كبارُ علماء الدنيا .

معلِّمةُ أميرِ الحفّاظ والعلماء :

* كان الحافظُ ابنُ حجر - رحمه الله - إذا ذكرَ أخته ستَّ الركب قال : هي
أُمِّي بعد أُمِّي^(٣) .

(١) الجواهر والدرر (ص ٥٨) بتصرف يسير .

(٢) إنباء الغمر (٣/ ٣٠٢) ، وشذرات الذهب (٨/ ٦٠٣) .

(٣) شذرات الذهب (٨/ ٦٠٣) .

ويبدو أنَّ ستَّ الركبِ قد حَدَبَتْ على أخيها ابن حجر، وعطفَتْ عليه، وأذاقَتْه من دفءِ الحنان ما كاد ينسيه حنانُ أبويه اللذين ماتا وهو في سنِّ الصَّغر، لذلك أطلقَ عليها اسم: أُمِّي بعد أُمِّي؛ وناهيك بالتَّسمية هذه.

* ولم تقفْ ستَّ الركبِ عند الحنان الذي يتدفَّق من قلبها على أخيها، وإنَّما أخذتْ ترفده بمكارم الأخلاق، وتُرَكِّبُهُ مراكِبَ الصَّلاحِ والتَّقوى، حتى غدا يبحرُ في آدابها ومكارم أخلاقها، وظلَّ يحتفظُ بين جوارحه وجوانحه بكلِّ التَّقدير والإجلال الممزوج بالاحترام والتَّبجيل، وظلَّ يذكرُ محاسنها ويُشَرُّ فضائلها - على الرغم من تبحره بالفضائل - فكان يقولُ: كانت - ستَّ الركب - بي برةً، رفيقةً محسنةً، جزَّاه الله تعالى عني خيراً، فلقد انتفعتُ بها وبآدابها مع صِغَرِ سنِّها^(١).

* إنَّ امرأةً تحظى بهذا التَّقريظ من عالمٍ نحريز - وإن كان شقيقها - لشيء يجعلنا نقفُ أمامَ شخصيتها بكلِّ احترام وتوقير وإعجاب.

* ومما يحسنُ ذكره في هذا المقام أنَّ الحافظَ ابنَ حجر قد هَيَّأَ اللهُ له شيوخاً في الحديث من جماعةِ النساء، كان يُشار بالبنان إليهن، وتخضعُ الرِّقاب لقولهن، لمعرفتهن فنونَ الحديث النبوي، ولقد قرأ الحافظ ابن حجر على نيف وخمسين امرأة، نذكرُ منهن:

فاطمة بنتُ المنجى أمَّ الحسن التَّوخيَّة الدَّمشقيَّة المتوفاة سنة (٨٠٣ هـ)؛ كانت فاطمةُ هذه خاتمةَ المُسندين في دمشق، عالمة بالحديث النبوي، أخذَ عنها ابنُ حجر وجماعةٌ من أعيان علماء عصرها؛ قال عنها ابن حجر: قرأتُ عليها الكثير من الكتبِ الكبار والأجزاء.

* ومن مشايخ ابن حجر من النسوة: فاطمة بنتُ محمد بن عبد الهادي^(٢) المقدسيَّة ثم الصَّالحيَّة الحنبليَّة أمُّ يُوسُف المولودة سنة (٧١٩ هـ)، حدَّثتُ وسمعتُ منها الفضلاء، وقرأَ عليها ابن حجر كثيراً من المعارفِ والعلوم، قال

(١) إنباء الغمر (٣/ ٣٠٢).

(٢) وكذلك أختها عائشة بنت عبد الهادي.

ابن حجر: قرأت عليها الكثير من الكتب والأجزاء بالصّالحة، ونعم الشّيخة كانت.

توفيت فاطمة بنت محمد في شعبان سنة (٨٠٣ هـ) وعمرها (٨٤ سنة) ودفنت بصالحيّة دمشق.

* ومن شيخاته أيضاً: خديجة بنت إبراهيم بن إسحاق البعلبكيّة الدمشقيّة، ولدت سنة (٧٢٠ هـ)، وأجاز لها عددٌ من العلماء الشّاميين والمصريّين، وحدثت بالكثير، وسمع منها الأئمة، وتوفيت سنة (٨٠٣ هـ).

* ومنهن: خديجة بنت أبي بكر الصّالحة المحدثّة المشهورة ببنت الكوري، توفيت سنة (٨٠٣ هـ).

* سارة بنت تقي الدّين علي بن عبد الكافي السّبكي، محدّثة شهيرة وُلدت في سنة (٧٣٤ هـ)، وسمعت على أبيها مشيخته، وأجاز لها الذهبي، والبرزالي، وزينب بنت الكمال، وجماعة، وحدثت وسمع عليها الفضلاء، وتوفيت بالقاهرة في ذي الحجّة سنة (٨٠٥ هـ) وعمرها (٧١ سنة).

* كما حدّث ابن حجر - رحمه الله - عن شيخاتٍ كثيراتٍ ذكرهن في مُعجم شيوخه^(١).

من معالم سيرتها:

* لا بدّ لنا ونحن نقرأ سيرة ستّ الرّكب العسقلانية، من أن نعرف بعض

(١) ليس غريباً أن نجدَ عالماتٍ قد تصدّينَ لفنونِ العلم وشؤونِ الأدب في مختلف الأعوام والأعصار، فلقد امتازتِ المرأةُ المسلمةُ العالمُ بالصدق في العلم، والأمانة في الرواية، ولا نستغرب إن كان للحافظ ابن حجر أكثر من خمسين شيخة قد تلقى العلم عنهن.

وأما الحافظ ابن عساكر المتوفى سنة (٥٧١ هـ) أي: قبل ابن حجر بقراءة ثلاثة قرون، كان يلقب بحافظ الأمة، كان له من شيوخه وأساتذته بضعٌ وثمانون من النساء، ممن تمرسنَ العلم، وتبحرن في الفقه والرواية.

الأحداث والمعالم في حياتها؛ التي تزيد من مساحة شخصيتها في ساحة تاريخ نساء الإسلام.

* تدلُّ أخبار ستّ الركب أنها تزوّجت وهي صغيرة، وكان قد تزوجها أحد فضلاء عصرها ويدعى: شمس الدين محمد بن السّراج بن عبد العزيز الخروبي، ولدت له ولداً أسمياه محمّداً، وبذلك وافق هذا ما كناها به أبوها نور الدين عندما وُلدت وهو في طريقه لأداء فريضة الحجّ في سنة (٧٧٠ هـ)؛ ثم ولدت ستّ الركب بنتاً أسمتها فوزاً.

* ونشأ هذان الطّفلان تحت رعاية والدتها ستّ الركب، وأجاز لهما جماعة من أعيان العصر، وذلك بعناية خالهما الحافظ ابن حجر.

* أمّا ستّ الركب، فقد عاشت تتابع ركب العلم والعلماء، لكنّ مدتها كانت قصيرة، فقد وافتها المنية ولم تجاوز العِقد الثالث من عمرها، فقد ماتت وعمرها (٢٨ سنة) رحمها الله. وقد أرّخ ابن حجر موت أختها ستّ الركب فقال: وماتت شابة في جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين وسبعمئة، عوّضها الله تعالى وإيانا الجنة بمتّه وكرمه.

* وذكر ابن حجر أخته في موضع آخر، في معرض حديثه عنها فقال: وُلدت في رجب سنة سبعين وسبعمئة في طريق الحجّ، وكانت قارئة كاتبة أعجوبة في الذكاء، وهي أمي بعد أمي، أصبّت بها في جمادى الآخرة من هذه السنّة - يعني سنة ٧٩٨ هـ - رحمها الله.

رثاؤها وذكرها:

* شعر ابن حجر بمرارة فقد أخته ومعلّمتها وأستاذته ستّ الركب، وفجع بموتها، فسكّب عليها العبرات، إذ كان فقدّها أورى من الزّند، فرثاها بقصيدة طويلة ذكر فيها بعض فضائلها ومكارمها، وذكر توجّعه وألمه لما أنشبت المنية أظفارها بها، فماتت وهي شابة، فقال:

بَكَيْتُ عَلَى تِلْكَ الشَّمَائِلِ غَالِهَا

كَيْفُ الثَّرَى بَعْدَ التَّنْعُمِ وَاللَّطْفِ

بَكَيْتُ عَلَى حِلْمٍ وَعِلْمٍ وَعَقَّةٍ
يَقَارَنُ مَعَ عَزِّ الْهَدْيِ هَزَّةَ الطَّرْفِ
بَكَيْتُ عَلَى الْغُصْنِ الَّذِي اجْتَثَّ أَصْلَهُ
وَلَمْ أَجْنِ مِنْ أَزْهَارِهِ ثَمَرَ الْقَطْفِ
ومنها قوله أيضاً:

فَقَدْتُ بِكَ الْأَهْلِينَ قُرْبَى وَأُفْقَةً
فَأَقْسَمْتُ مَالِي بَعْدَ بُعْدِكَ مِنْ إِلْفٍ
* ولم يكن ابن حجر وحده الذي رثى ستّ الركب، وإنما رثاها عددٌ كبيرٌ
من أفاضلِ عصرها وأماثلِ مصرها، اعترافاً بفضلها وعلمها.
* وهكذا عرفنا صفحة امرأةٍ من نساء القرن الثامن الهجري، رفعت
أعلامَ الإعزازِ والإكرام، وتركت أثراً حميداً في دنيا العلم لا زالت معالمه
باقيةً إلى ما شاء الله؛ ويكفيها من الفخرِ أنَّ أخاها ابن حجر حافظ الدنيا كان
من تلاميذها.

* رحم الله ستّ الركب العسقلانية، وجعلها في مستقرِّ رحمته، وآخر
دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

* * *

١٥

ست الملك الفاطمية

من نساء التاريخ:

* عرف تاريخ النساء في العصور الإسلامية شخصيات نسوية كثيرات، كان لهنّ الأثر البارز في قُصُور الخلفاء أو السلاطين، أو في توجيه سياسة المملكة، ولكن من وراء ستار أحياناً، وبشكل مباشر أحياناً، وسجلن بذلك أثراً متنوعاً في مجالاتٍ مختلفة.

* وسنشهد في الصفحات الآتية شخصيةً نسويةً ظهرت بمصر بعيدَ منتصف القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري، هذه الشخصية كان لها أعظم نفوذ في توجيه سياسة مصر حيناً من الدهر.

* هذه المرأة هي سئ الملك بنت العزيز بالله الفاطمية، وأخت الحاكم بأمر الله خليفة والده العزيز بالله الفاطمي^(١).

* ففي سنة (٣٥٩ هـ) كان مولدُ سئ الملك، وذلك بعد الفتح الفاطمي لمصر بنحو عام من الزمن، حيث كان دخول الفاطميين مصر في أوائل سنة (٣٥٨ هـ)؛ أمّا أخوها الحاكم فقد وُلد بعد مولد أخته بستة عشر عاماً، وذلك في سنة (٣٧٥ هـ)^(٢).

* وصف الإمام الذهبي - رحمه الله - الحاكم بقوله: وكان شيطاناً مريداً، جباراً عنيداً، كثير التلؤن، سفاكاً للدماء، خبيث النحلة، عظيم المكر، جواداً ممدحاً، له شأنٌ عجيبٌ، ونبأٌ غريبٌ، وكان فرعونَ زمانه، يخترعُ كلَّ وقتٍ أحكاماً يلزمُ الرعية بها^(٣).

* نشأت سئ الملك في قصر أبيها، وكان أبوها يحبُّها محبةً شديدةً لما كان يرى فيها من صفات الحزم، ولما شبت عن الطوق، أضحت موضع

(١) الكامل في التاريخ (٩/ ٢٣٠ و ٣١٥ و ٣١٦ و ٣١٩)، والنجوم الزاهرة (٤/ ١٨٥)، والدر المنثور (ص ٢٤٠)، وأعلام النساء (٢/ ١٦٦ - ١٧٠) ومصادر أخرى.

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٧٣).

(٣) انظر: سير أعلام النبلاء (١٥/ ١٧٤)؛ وانظر كذلك: البداية والنهاية (١٢/ ٩)، وشذرات الذهب (٥/ ٦١).

ثقته، فكان يستشيرها في أمورٍ كثيرة، وكانت تجيبه إجابةً حزمٍ وتعقلٍ وروية.

* وتدلُّ الأخبارُ والرواياتُ التي وصلتْنا عن سِتِّ الملك، بأنَّها كانت منذُ طفولتها تميلُ إلى الهدوء، والحزم، وكانت تُعنى بالأمورِ الجليلة التي تَرُدُّ على الدَّولة، وعُرِفَ عنها بأنَّها كانت وافرةً التحقُّظ والجَدِّ، كما عُرِفَتْ بالعقل، وحسن التَّدبير، والإدارة، وجَوَدَةِ الرَّأي. افتتحت زينبُ فواز العامليَّة ترجمةً سِتِّ الملك بقولها: كانت من أحسن نساءِ زمانها، وأوفرهنَّ عقلاً؛ وأثبتهنَّ جناناً، وأعلاهنَّ رأياً، وأشدَّهنَّ حَزْماً^(١).

سِتُّ الْمُلْكِ وَأُخُوها الْحَاكِم:

* في أواخر شهرِ رمضان من سنة (٣٨٦ هـ) مات العزيزُ بالله في بلبس^(٢)، وكان عمره - إذ ذاك - ثنتين وأربعين سنة وبضعة أشهر^(٣)، وقام ابنُه الحاكمُ بأمرٍ بالله بعده.

* وفي تلك السَّنة كانت سِتُّ الملك بنت العزيز بالله في ذِروَةِ شبابها، حيث كان عُمرها ستاً وعشرين سنة؛ أمَّا الحاكمُ الخليفةُ الجديد فقد كان وقتها غلاماً يَفْعَة، لا يحسنُ إدارة المُلْك وأمورَ الحكم، فتولَّى إدارة الشُّؤون بمصرَ بَرَجَوَان^(٤) مولى أبيه العزيز بالله، ولكنَّ برجوانَ هذا لم تَطُلْ مدَّة

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور لزينب بنت يوسف فواز العاملية (ص ٢٤٠).

(٢) «بلبس»: مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام.

(٣) كانت ولادةُ العزيز بالله في شهر محرم سنة (٣٤٤ هـ) بالمهدية من أرض إفريقية، والعزيز بالله لَقِبَ له، أمَّا اسمه فهو نزارُ بن المعز وكنيته: أبو منصور، ولي العهد في شهر ربيع الآخر سنة (٣٦٥ هـ)، وكان كريماً شجاعاً حسنَ العفو عند المقدرة، اختطَّ أساسَ الجامع بالقاهرة مما يلي باب الفتوح، وكان أسمرَ أصهب الشعر، عريض المنكبين، حسنَ الخلق، قريباً من النَّاس لا يؤثر سفك الدماء، وكان أديباً له شعرٌ لطيف، مات في (٢٨ رمضان) من سنة (٣٨٦ هـ). (وفيات الأعيان ٣٧١/٥ - ٣٧٦).

(٤) «برجوان»: الأستاذ أبو الفتوح بَرَجَوَان الذي تُنسبُ إليه حارة برجوان بالقاهرة، كان=

نفوذه، إذ دَبَّرَ الحاكمُ مقتله في سنة (٣٩٠ هـ)، وبدأ الحاكمُ وهو في سنِّ الخامسة عشرة يسوسُ مصرَ بنفسه .

* وتشيرُ الأخبارُ التاريخيَّةُ إلى أنَّ مصرَ قد عاشتْ في عهدِ الحاكمِ بأمرِ الله قرابةَ رُبْعِ قرْنٍ من الزَّمنِ، شهدتْ خلالَ ذلكَ أشياءَ فظيعةَ من ألوانِ الطُّغيانِ وسفكِ الدِّماءِ، وقَتْلِ الأبرياءِ، وشهدتْ ألوانَ التَّنَاقُضِ، ممَّا جعلَ النَّاسَ في أمرٍ مريجٍ، وفي ضيقٍ ونكدٍ وهمومٍ وأحزانٍ ووجلٍ وتخوِّفٍ وعدمِ استقرارٍ .

* ولعلَّ إصدارَ الأوامرِ المتناقضةِ، والأحكامِ القاسيةِ المتموجِّة التي كان الحاكمُ بأمرِ الله يتفَنَّنُ في فرضها على الشَّعبِ، جعلتِ التَّقمةَ عليه من أقربِ النَّاسِ إليه، وكذلك مَنْ حوله، ومَنْ كان بقصره من طبقاتٍ مختلفةٍ حَسَبَ وظائفهم .

* ويقصُّ علينا التَّاريخُ بعضَ قَصَصِهِ، ويروي لنا بعضَ أموره الغريبةِ، فمنها: أنَّه كان يحَرِّمُ بعضَ الأطعمةِ ثمَّ يبيحُها، ويحظرُ خروجَ النِّساءِ مِنَ البيوتِ، وظلَّ حَكْمُهُ هذا نافذاً لمدَّةِ سبعِ سنينِ وسبعةِ أشهرٍ^(١)، ثمَّ بعد ذلكَ سمحَ لهنَّ بالخروجِ؛ وكان يَقلِّبُ الليلَ نهاراً، ويجعله مسرحَ العملِ والنَّشاطِ وطلبِ المعيشةِ، ثمَّ يَمَعْنُ في قَتْلِ وزرائه وكتَّابه واحداً بعدَ الآخرِ، ثمَّ يأمرُ بهدمِ الكنائسِ، ثمَّ يعودُ فيسمحُ ببنائها، وهكذا ظلَّ على هذه الشَّكلةِ مدَّةَ رُبْعِ قرْنٍ، كانت تَهْبُُّ خلالها على المجتمعِ المصري رِيحٌ من

= من خُدَّامِ العزيزِ صاحبِ مصر، ومدبِّري دولته، وكان نافذاً الأمرُ مُطاعاً، نظر في أيَّامِ الحاكمِ في ديارِ مصر والحجاز والشَّامِ والمغربِ وأعمالِ الحضرةِ، وكان أسودَ اللونِ .

قُتِلَ في شهرِ ربيعِ الآخرِ سنة (٣٩٠ هـ) في القصرِ بالقاهرةِ وذلكَ بأمرِ الحاكمِ، حيثُ ضَرَبَهُ أبو الفضلِ رَيْدَانُ الصَّقْلِيّ صاحبِ المظلةِ في جوفه بسكِّين، فمات من ذلكَ . ثم قتل الحاكمِ ريدان في أوائلِ سنة (٣٩٣ هـ) حيثُ أمر مسعوداً الصَّقْلِيّ صاحبَ السِّيفِ بقتله . (وفيات الأعيان ١/ ٢٧٠ و ٢٧١) .

(١) وفيات الأعيان (٥/ ٢٩٤) .

روعة الإرهاب، والتَّوجَّسِ، وتعصفُ بالمصريين الأخطارُ من كلِّ مكان، وفي كلِّ مكان.

* ولكن أين كانت الأميرة الفاطمية ست الملك خلال هذه الأحداث المذهلة، وهذه الخطوب الجسام؟!

* كانت ست الملك ترقب الأوضاع

بعينين ساهرتين، ومن ثمَّ تنهى أخاها الحاكم بادي الرأي وتقول له محذرة وناصحة: يا أخي! احذر أن يكون خراب هذا البيت على يدك^(١).

* وظلَّت ست الملك تمُدُّ أخاها بشواردِ الحِكم، وتمدّه بتجارب الأمم، ونصائح ذوي الفهم، لعلّه يرعوي؛ وكانت ترشده إلى الطريق السليم كلما شهدت موجةً من موجات عُنفه وشذوذه الأهوج، وخروجه عن جادة الصواب.

* ولكن ماذا تفيد هذه النصائح وتلك التوجيهات مع هذا الخليفة الفتى الطائش ذي المزاج المتلون المتموج؟!

* لقد أمسى الحاكم بأمر الله يتبرّم بنصائح أخته ست الملك، ويسوؤه تدخّلها في أموره وشؤون المملكة، فكان يسمّعها من غليظ الكلام ما لا يليقُ بها، ثمَّ بات يتهدّدها ويتوعّدها بالقتل والدمار، إنَّ هي أسدت إليه نصيحة، أو قدّمت له توجيهاً وإرشاداً، أو نعت عليه طريقته وطرائقه.

* ومن هنا ظهرت بوادرُ الخلاف ما بين ست الملك والحاكم بأمر الله، ثمَّ ما لبث أن استحکم ذلك بينهما، واتخذ صورةً خصومةً شديدةً غيرت بعض الملامح التاريخية في عهدهما وزمنها.

(١) انظر: التَّجُومُ الزَّاهِرَةُ (٤/١٨٥)؛ نقل ابنُ تغري بردي عن ابن الصَّابِئِ قوله: إنَّ الحاكمَ لما بدت منه هذه الأمور الشَّنيعة استوحش النَّاسُ منه، وكان له أخت يُقال لها: ست الملك، من أعقل النَّاسِ وأحزمهن، فكانت تنهيه وتقول: يا أخي احذر أن يكون خرابُ هذا البيت على يدك، فكان يسمّعها غليظَ الكلام، ويتهددها بالقتل (التَّجُومُ الزَّاهِرَةُ ٤/١٨٥).

سِتُّ الْمُلْكِ وَبَدَايَةُ نِهَايَةِ أَخِيهَا :

* أَخَذَ الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ يَسِيءُ إِلَى أُخْتِهِ سِتِّ الْمُلْكِ إِسَاءَةً شَدِيدَةً، وَيَشُوهُ سَمْعَتَهَا بِشَتَّى الْأَرَاخِيفِ، فَعَلِمَتْ أَنَّهَا سَتَهْلُكُ إِنْ ظَلَّتْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ .

* وَأَضْحَى نَفَوْذُ سِتِّ الْمُلْكِ يَتَقَلَّصُ وَيَتَلَاشَى فِي الْبِلَاطِ الْفَاطِمِيِّ، وَلَمْ تَعُدْ كَلِمَاتُهَا تَوْثُرُ فِيمَنْ حَوْلَهَا، لِذَلِكَ آثَرَتْ فِي بَدَايَةِ الْأَمْرِ حَيَاةَ الْعُزْلَةِ، وَأَقَامَتْ فِي قَصْرِ مُقَابِلٍ لِلْقَصْرِ الْفَاطِمِيِّ الَّذِي فِيهِ أُمُورُ الْحُكْمِ وَشُؤُونُ الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ .

* وَلَكِنَّ سِتَّ الْمُلْكِ لَمْ تَكُنْ تَنْقَطِعُ فِي عَزْلَتِهَا عَنِ الْاهْتِمَامِ بِأُمُورِ الدَّوْلَةِ، وَلَمْ تَكُنْ فِي عَزْلَتِهَا بِمَعزِلٍ عَنِ الْأَحْدَاثِ وَمَجْرِيَاتِ الْأُمُورِ، بَلْ كَانَتْ تَلْحَظُ مَا يَجْرِي مِنْ بَعِيدٍ، وَتَرْقُبُ فِي جَزَعٍ وَخَوْفٍ مَا يَسْلُكُهُ الْحَاكِمُ بِأَمْرِ اللَّهِ مِنْ مَسَالِكَ تَوْصِلُهُ وَغَيْرِهِ إِلَى مَزَالِقَ فَظِيْعَةٍ، فَكَانَتْ تَحَاوُلُ بِكُلِّ مَا وَسَعَتْ مِنْ حِيلَةٍ أَنْ تَعْمَلَ عَلَى إِصْلَاحِ الْأُمُورِ، وَاتِّقَاءِ الْأَزْمَاتِ وَالْعُقَبَاتِ وَتَهْدِئَةِ الْخَوَاطِرِ، وَالتَّنَظَرِ أحياناً فِي بَعْضِ الشُّؤُونِ وَإِدَارَتِهَا مِنْ بَعِيدٍ، وَعَنْ كَثَبٍ لَكِنْ بِحَذَرٍ شَدِيدٍ .

* وَلَمَّا أَغْرَقَ الْحَاكِمُ فِي الْقَتْلِ، وَأَسْرَفَ فِي إِصْدَارِ الْأَوَامِرِ وَالْقَوَانِينِ الشَّاذَّةِ، وَاسْتَأْثَرَ بِالْحُكْمِ، وَانْدَفَعَ فِي تِيَارِ الْعَنْفِ، لَمْ تَبْخُلْ سِتُّ الْمُلْكِ فِي نَصْحِهِ، بَلْ كَانَتْ أحياناً تَعْتَرِضُهُ، وَتَحَذِّرُهُ مِنْ سُوءِ الْمُنْقَلَبِ، وَمِنْ سُوءِ الْعَاقِبَةِ الْوُخِيمَةِ .

* وَلَكِنَّ الْحَاكِمَ بِأَمْرِ اللَّهِ لَمْ يَلْتَفِتْ لِلنُّصْحِ وَالْإِرْشَادِ، بَلْ كَانَ يَحْقُدُ عَلَى أُخْتِهِ سِتِّ الْمُلْكِ، وَيَأْخُذُ عَلَيْهَا تَدْخُلُهَا فِي شُؤُونِ الدَّوْلَةِ، ثُمَّ تَجَاوَزَ إِلَى مَا هُوَ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَأَخَذَ يَنْتَقِدُهَا فِي مَسْلُكِهَا الشَّخْصِيِّ، وَيَنْعَى عَلَيْهَا أَعْمَالَهَا، بَلْ بِسُوءِ سِيرَتِهَا، وَيَتَّهَمُهَا فِي أَشْيَاءَ تَحْطُّ مِنْ مَكَانَتِهَا، كَالْتَوَرُّطِ فِي حَمَاةِ الرَّذِيلَةِ وَالْفَوَاحِشِ وَمَا شَابَهُ ذَلِكَ، وَيَهْدِدُهَا بِإِرْسَالِ الْقَوَابِلِ لِاسْتِبْرَائِهَا، وَخَاضَ فِي هَذَا الْمَجَالِ كَثِيراً، وَأَكْثَرَ الْإِسَاءَةِ فِي ذَلِكَ .

* عَلَى أَنَّ تَارِيخَ سِتِّ الْمُلْكِ يَنْعَى عَلَى الْحَاكِمِ بِأَمْرِ اللَّهِ تَصَرُّفَاتِهِ، وَيَتَحَدَّثُ عَنْ شَخْصِيَّةِ سِتِّ الْمُلْكِ بِأَنَّهَا كَانَتْ حَازِمَةً عَاقِلَةً، ثُمَّ إِنَّهَا كَانَتْ قَدْ

تجاوزت الخمسين عندما بدأ يتّهمها ويرميها بأبشع وأشنع الشّائعات .

* واستمرّ الحاكم في تهوّره زهاء خمسة وعشرين عاماً، يسيء لمصر ومن حوله ومعه، حتى ملّ النّاس، وضجرت أخته ست الملك؛ ولكن ماذا فعلت ست الملك لتجعل لتلك البداية السيّمة نهاية سليمة؟!

* تشير المصادر المتعدّدة والمتنوّعة التي تحدثت عن سيرة ونهاية الحاكم بأمر الله، إلى أنّه لما كانت ليلة الإثنين لسبع وعشرين مضت من شوال في سنة (٤١١ هـ)، خرج الحاكم بأمر الله من قصره يطوف كعادته بالجبل، وكان يرصد النّجوم، وركب حماره الأشهب، وخرج معه من القاهرة راكبان فقط، ثمّ سار متوغلاً في شعب جبل المقطم، وصرف الرّكابين، ومن تلك السّاعة يتلاشى خبر الحاكم بأمر الله، ويختفي من صفحة التّاريخ إلى الأبد .

* أمّا كيف كانت النّهاية، وكان المصير، فذلك أمرٌ حيكت حوله كثير من الأقوال، وكانت لُحمتها الأساطير، وسداها الروايات المتعدّدة، وقد أورد كثير من المصنّفين تلك الروايات - وما أحاط بها من أقوال - في كتبهم، كابن الأثير في «الكامل»؛ وابن كثير في «البداية والنّهاية»، والذهبي في «تاريخه»، وابن تغري بردي في «النّجوم الزّاهرة» وغيرهم من المؤرّخين العلماء، وعلماء المؤرّخين. إلّا أنّنا نجد أنّ معظم الروايات تشير إلى أنّ وراء اختفاء الحاكم بأمر الله عملٌ مدبّر متقن، ولكن من بطل هذا العمل؟!

هل كانت ست الملك وراء اختفاء أخيها؟!

* قلنا: إنّ الحاكم بأمر الله كان شرّه مستطيراً، قد تعدّى إلى النّاس كلّهم، حتى إلى أخته ست الملك، فكان يتّهمها بالفاحشة، ويسمعها أغلظ الكلام، فتبرّمت منه، وأحسّت بدنو أجل الدّولة إن استمرّ الحاكم بأمر الله في طيشه وظلمه، فقرّرت شيئاً ما، وفكرت لكي تجعل لما يحدث حدّاً، ترى بأي شيء كانت تفكر؟!

* كانت ست الملك تنظر فيمن حول الحاكم بأمر الله لعله يساعدها على تحقيق مآربها؛ فهي امرأة لا تحسن التّدبير وحدها، بل لا يمكن أن تقوم

بعملٍ خطيرٍ في مثل هذه الظروف الصَّعبة .

* ودلّفت إلى فكرها صورة رجلٍ يمكن أن يحقق ما تصبو إليه، إنه أميرٌ من أكبر الأمراء اسمه الحسين بن دواس، فالحسينُ هذا شديدُ الحذر من الحاكم بأمر الله، ومن التّاقمين عليه وعلى سيرته في آنٍ واحد. وجَدَتْ سِتُّ الملك أن ابنَ دواس سيحقق مأربها ومأرب المصريين، إذ هو - بالرغم من حذره - معروفٌ بشدّة المراس واللبّاس؛ ولما تيقنت من سلامة فكرتها، راسلته^(١) في حذرٍ، واتّصلت به سرّاً، وشرحت له أمور أخيها، وسيادة

(١) أوردَ ابنُ تغردِي بردي - رحمه الله - في «النجوم الزّاهرة» قصّة نهاية الحاكم ودور ست الملك في ذلك فقال ما نصه :

وراسلتُ سِتُّ الملكِ أختُ الحاكم ابنَ دواس مع بعض خدَمها وخواصّها، وهي تقول له : لي إليك أمرٌ لا بدّ لي فيه من الاجتماع بك، فإما تنكرت وجئتني ليلاً، أو فعلتُ أنا ذلك . فقال : أنا عبدك والأمرُ لك، فتوجّهتُ إليه ليلاً في داره متنكّرة، ولم تصحب معها أحداً؛ فلما دخلتُ عليه، قام وقبّل الأرض بين يديها دفعاتٍ، ووقفَ في الخدمة، فأمرته بالجلوس، وأُخِلِّي المكان، فقالت : يا سيف الدولة ! قد جئتُ في أمرٍ أحرصُ به نفسي ونفسيك والمسلمين، ولك فيه الحظُّ الأوفر، وأريدُ مساعدتك فيه، فقال : أنا عبدك، فاستحلفتُه، واستوثقتُ منه، وقالت له : أنتَ تعلمُ ما يقصده أخي فيك، وأنه متى تمكّن منك لم يُبقَ عليك، وكذا أنا، ونحن على خطر عظيم، وقد انضاف إلى ذلك تظاهره بادعائه الإلهية، وهتكِه ناموسَ الشريعة، وناموس آبائه، وقد زاد جنونه، وأنا خائفة أن يثور المسلمون عليه فيقتلوه ويقتلوننا معه، وتنقضي هذه الدولة أقبح انقضاء . فقال سيف الدولة : صدقتِ يا مولاتنا، فما الرأي؟!

قالت : قتلُه ونستريح منه، فإذا تمّ لنا ذلك، أقمنا ولده موضعه، وبذلنا الأموال، وكنتِ أنت صاحبة جيشه ومدبره، وشيخ الدولة، والقائم بأمره، وأنا امرأة من وراء حجاب، وليس غرضي إلا السلامة منه، وأن أعيش بينكم آمنة من الفضيحة . ثم أقطعتُه إقطاعات كثيرة، ووعدته بالأموال والخلع والمراكب السنية، فقال لها عند ذلك : مُري بأمرِك؛ قالت : أريدُ عبيدين من عبيدك تتق بهما في سرّك، وتعتمد عليهما في مهماتك .

فأحضر عبيدَيْن، ووصفهما بالشهامة، فاستحلفتُهما، ووهبتهما ألفَ دينار، ووقعتُ =

الاضطراب وانتشار الفوضى، وما يهدّد الدولة من التمزّق إن استمرّ الحاكم في غيّه وفساده وعبثه بالناس ومصالحهم، ولم يُوضَع له حدٌّ لشنيع تصرفاته وجرائمه.

* استجاب ابنُ دُوّاس لِسِتِّ الملك، ولَبَّى دعوة القَضَاءِ على الحاكم وأجابها إلى ما تريد^(١)، وتوافق هو وهي على قتل الحاكم ودماره، وكانت ستُّ الملك قد أخذت عليه ميثاقاً بالوفاء والكتمان. ثمّ إنّها قطعتْ هي على نفسها أغلظَ الأيمان والمواثيق والعهود، ووعدته أنّه سيكون مدبّر الدولة وصاحب الكلمة الأولى في شؤونها، وقالت له: إذا تمّ لنا قتله، أقمنا ولده موضعه، وبذلنا الأموال، وكنتَ أنتَ صاحب جيشه ومدبره، وشيخ الدولة، والقائم بأمره، وأنا امرأةٌ من وراء حجاب، وليس غرضي إلا السّلامة منه، وأنّ أعيشَ بينكم أمنة من الفضيحة، وممّا يرميني به الحاكم بأمرِ الله.

فقال ابنُ دواس: مُري بأمرِك واعرضي رأيك.

قالت ستُّ الملك بعدما علمت صدقَ نية ابن دواس: أريدُ عبدَيْنِ من عبيدك تثق بهما في أسرارِك وخفاياك، وتعتمدُ عليهما في مهمّاتك وعلايتك.

= لهما بثياب وإقطاعات وخيّل وغير ذلك، وقالت لهما: أريد منكما أن تصعدا غداً إلى الجبل، فإنها نوبة الحاكم، وهو ينفرد ولا يبقى معه غير القرافي والركابي، وربما رده، ويدخل الشَّعب وينفرد بنفسه، فاخرجا عليه فاقتلاه، واقتلا القرافي والصبي إن كانا معه، وأعطتهما سكينين من عمل المغاربة تسمّى الواحدة منهما: «يافور» ولهما رأس كرأس الموضع الذي يفصد به الحجّام، ورجعت إلى القصر، وقد أحكمت الأمر، وأتقنته. (النجوم الزاهرة ٣/ ١٨٦ و١٨٧).

(١) يحضرني في هذا المجال قول الشاعر:

رأيتُ شاةً ودِئباً وهي ماسكةٌ بأذنه وهو منقادٌ لها ساري
فقلتُ أعجوبة ثمّ التفّتُ أرى ما بين ناييه مُلقى نصف دينارٍ
وقلتُ للشاة ماذا الإلفُ بينكما والدئبُ يسطو بأنياب وأظفارٍ
تبسّمتُ ثمّ قالتُ وهي ضاحكةٌ بالتبر يُكسرُ ذاك الضيغم الضاري

* وفي الوقتِ والحالِ أحضر ابنُ دواسِ عبدَيْنِ أسودينِ شَهِمينِ، فاستحلفتهما ستّ الملكِ على ما تلقّيه إليهما من سرِّ خطير، ثمَّ أعطتهما ألف دينار، فحَلَفَا ووَعَدَاها بكتمانِ السِّرِّ، وعندها دفعتُ لهما بثياب، ووقَّعتُ لهما إقطاعاتَ وخَيْلَ وغير ذلك، كي تطيبَ نفوسهما، ومن ثمَّ زوَّدتهما بسكّينَ ماضيَيْنِ، وسيفَيْنِ قاطعيْنِ، وقالتُ لهما: إذا كانتِ اللَّيلةُ الفُلانية، فكونا في جَبَلِ المَقْطَمِ، ففي تلكِ اللَّيلةِ يكونُ الحاكمُ هنالكِ في الليلِ لينظر في النّجوم، وليس معه أحدٌ إلا ركايبِي وصبي، فاقتلاه وَاقتلاهْما معه^(١).

* انفضَّ ذلكِ الاجتماعُ على القضاءِ على الحاكمِ بأمرِ الله، واتفقَ الأمرُ على ذلك، وتمَّتِ الأمورُ على ذلكِ التَّدبيرِ المُحْكَمِ، وخرج كلُّ واحدٍ منهم لشأنه ينتظر الوقتَ الذي سينفذ فيه ما أُوكِلَ إليه.

* ولما كانتِ اللَّيلةُ المَتَّقِ عليها، وهي ليلةُ مساءِ يومِ الإثنينِ (٢٧ شوال)، من سنة (٤١١ هـ)، خرجَ الحاكمُ بأمرِ الله كعادته إلى الجبلِ^(٢) راكباً حماره، فلَمَّا توغَّلَ في شِعْبِ الجبلِ منفرداً، خرجَ ذاكُ^(٣) العبدانِ مِنْ مَكْمَنهما، - وكانا يرصدانِ حركاته - فاستقبلاه، وأنزلاهُ عن مركوبه، وقتلاه، وقطعا يديه ورجليه، وقطعا قوائمِ الحِمَارِ أيضاً، ثمَّ إنَّهما حَمَلَا جُثَّةَ

(١) انظر: البداية والنهاية (١٢/١٠)، والنجوم الزاهرة (٣/١٨٦ و١٨٧).

(٢) كانت ستُّ الملكِ تراعي ما يكون من أمرِ الحاكمِ بأمرِ الله، وكان قصرها مقابل قصره، فإذا ركب علمت. (النجوم الزاهرة ٤/١٨٨).

(٣) «ذاك»: «ذان»: اسم إشارة للقريب، يستعمل للعاقل ولغيره، وهو مثني ذا. يُعرب برفع الألف في حالة الرفع، وعلى الياء في حالتي النصب والجر، نحو: «فاز ذان المؤمنان بمرضاة الله»، و«شجعت ذين الطفلين المؤدبين»، و«وقفتُ مع ذين الرجلين الحافظين كتاب الله».

و«ذان»: اسم إشارة مبني - أو مرفوع - بالألف في محل رفع فاعل لـ «خرج». ملحوظة مهمة: «ذان»: لا يشار بها إلى البعيد لذلك لا تدخلها لام البعد. ولكن قد تلحقها «ها» نحو: «هذان» بالرفع وهذين بالنصب والجر، وتلحقها كاف الخطاب نحو ذاك في حالة الرفع، وذينك في حالتي النصب والجر.

الحاكم إلى مولاها ابن دؤاس، فحمله إلى ستّ الملك، فدفنته في مجلسها^(١)، فكان كأُمس الدّابر، واتّخذت الوسائل كلّها لإخفاء الجريمة، ومن ثمّ استدعت الوزير، وأطلعتة على جلية الأمر، واستطاعت تدبير ما يجب لجلوس الخليفة الجديد ابن الحاكم، وكان بدمشق، واستطاعت تدبير بعض الأمور الخارجية بذكاء، كما فعلت بدمشق^(٢) وحلب^(٣).

* أمّا كيف أخفت جريمتها، فقد طففت تقول للنّاس وتوهمهم بأنّ الحاكم بأمر الله قال لها: إنّه يغيبُ عنكم سبعة أيام، ثمّ يعود. فانصرفوا على هدوء وطمأنينة، ولم تزل ستّ الملك في تلك الأيام ترتّب الأمور، وتنسّق الأحوال، وتفرّق الأموال، إلى أن استقدمت ابن أخيها من دمشق، وحينما

(١) النجوم الزاهرة (١٨٩/٤).

(٢) كتبت ستّ الملك إلى دمشق بحمل ولي العهد إلى مصر، فلم يلتفت إلى ذلك، واستولى على دمشق، ورخص للنّاس ما كان الحاكم يحظره عليهم، فأجبه أهل دمشق، ولكنه كان بخيلاً ظالماً، فشرع في جمع المال ومصادرة أموال النّاس، فأبغضه الجند وأهل البلد، فكتبت أخت الحاكم إلى الجند، فتتبعوه حتى مسكوه، وبعثوا به مقيداً إلى مصر، فحبس في القصر مكرماً. (النجوم الزاهرة ١٩٤/٣)، بشيء من التصرف. وهذا العمل يدلّ على ما أوتيت ستّ الملك من سعة الحيلة والذكاء.

(٣) كان على حلب عند هلاك الحاكم بأمر الله: عزيز الدولة فاتك الوحيد، وقد استفحل أمره، وعظم شأنه، وحدث نفسه بالعصيان، فلاطفته ستّ الملك، وراسلته وأنسته، وبعثت إليه بالخلع والخيول بمراكب الذهب وغيرها؛ ولم تزل تعمل على الحيل، حتى أفسدت غلاماً له يقال له بدر الذي عمل حيلة وقتل فاتك الوحيد، واستولى بدراً على القلعة وما فيها، وكتب إلى أخت الحاكم بما جرى، فأظهرت الوجد على فاتك في الظاهر، وشكرت بدرأ في الباطن على ما كان منه في حفظ الخزائن، وبعثت إليه بالخلع، ووهبت له جميع ما خلفه مولاها، وقلدته موضعه، ونظرت ستّ الملك في أمور الدولة بعد قتل الحاكم أربع سنين، أعادت الملك فيها إلى نضارته، وعمرت الخزائن بالأموال، واصطفّت الرّجال، ثمّ اعتلّت علة لحقها فيها ذرّب فماتت منه، وكانت عارفة، مدبرة، غزيرة العقل. (النجوم الزاهرة ١٩٤/٣ و ١٩٥) بتصرف واختصار.

وصلَ القاهرة، ألبسته تاج جدّ أبيه المعزّ، وحلّة عظيمة، وأجلسه على السرير، وبايعه الأمراء والرؤساء، ومن بالقصر من ذوي الشّأن، وأطلق لهم الأموال بإشارة عمته ستّ الملك، ثم إنّها لم تنس ابن دواس من الجائزة، فخلعت عليه خلعة عظيمة، وعملت بعد ذلك عزاء أخيها الحاكم بأمر الله ثلاثة أيام.

* وهكذا أتمت ستّ الملك تدبيرها في تدميرها لأخيها، وفي تنصيب ابنه الظاهر^(١) لإعزاز دين الله. ولكنّ هناك همّاً واحداً أخذ يساورها ويقض مضجعها، وينغص حياتها، ويتعبها، هذا الهم الثقيل الذي يجثم على كاهلها ابن دواس الذي يعرف سرّ فعلتها بأخيها، فماذا تصنع، وما عساها أن تفعل الآن وقد تمّ لها ما رسمته وحاكته وأحكمت لحمته وسداه!!!.

بماذا كافات ستّ الملك ابن دواس؟!

* بعد أن استوثقت ستّ الملك لابن أخيها في المملكة، وأطاعه الرّعاء والنّاس، أخذت تعدّ العدة لتكافئ الحسين بن دواس، ولكنّ المكافأة هذه المرّة من نوع آخر، لقد أخذت تدبّر للقضاء عليه، وعلى الوزير أيضاً، ومن وقف على السرّ في مقتل الحاكم لكيلا تنفلت الأمور من يدها، وتمت هذه الإجراءات في مدة بسيطة استخدمت فيها كلّ وسائل الحيلة والحذر والذكاء.

* وتحكي المصادر^(٢) نهاية ابن دواس، ودور ستّ الملك في ذلك فتقول: أرسلت ستّ الملك إلى ابن دواس طائفة من الجند، ليكونوا بين

(١) «الظاهر»: الظاهر العبيدي أبو هاشم علي، الملقب بالظاهر لإعزاز دين الله، كانت ولايته بعد فقد أبيه بمدة، وكانت مملكته الديار المصرية وإفريقية وبلاد الشام.

كانت ولادة الظاهر يوم الأربعاء عاشر رمضان سنة (٣٩٥ هـ) بالقاهرة، وتوفي آخر ليلة الأحد منتصف شعبان سنة (٤٢٧ هـ). (وفيات الأعيان ٣/ ٤٠٧ و ٤٠٨).

(٢) انظر: الكامل (٩/ ٣١٤ - ٣١٧)، والبداية والنهاية (١٢/ ١٠ و ١١) مع الجمع بينهما.

يديه بسيوفهم وقوفاً في خدمته، ثم يقولوا له في بعض الأيام: أنتَ قاتلُ مولانا، ومن ثمَّ يهَبُّونه بسيوفهم، ويجعلونه كأَمْسِ الدَّابِرِ.

* وفعلَ الجنود ما أمرتهم به، وقتلوا ابنَ دَوَّاس^(١) والعبدین، وكلَّ مَنْ أطلع على سرِّها أودت بحياته، فكان من الغابرين. فعظمت هيبتُها في الثُّفوس، وقويت حرمتها، وثبتت دولتها، وجلسَ الخليفةُ الجديد الظَّاهر لإعزاز دينِ الله مكانَ أبيه الحاكم بأمرِ الله في العاشر من ذي الحِجَّة سنة (٤١١ هـ)، وعمره لم يجاوز السَّابعة عشرة، وتولَّت ستُّ الملك تدبيرَ أمور الدولة، وهيات كلَّ شيءٍ في البلاط والدولة.

* وراحَ الظَّاهرُ لإعزازِ دينِ الله، يعملُ في إصلاحِ الدولة، بوحى عمته ستِّ الملك، التي دَبَّرَت الدولةَ أحسنَ تدبير، فألغى كثيراً من القوانين والمراسيم السَّاذة التي ابتكرها أبوه من قبل، وعاد السَّلام والأمنُ إلى مصر، بعد أن مضى عليها ربَّعُ قرنٍ من التقلبات والاضطرابات والفوضى.

(١) نقل ابنُ تغري بردي عن القضاعي كيف دَبَّرَت ستُّ الملك مقتل ابن دواس وغيره ممن اطلع على سرِّها فقال: ثمَّ أمرت ستُّ الملك بخلع عزيمة، ومالٍ كثير، ومراكب ذهبٍ وفضة للأعيان، وأمرت ابنَ دَوَّاس أن يشاهدها في الخزانة وقالت له: غداً نخلع عليك، فقبلَ ابنُ دَوَّاس الأرض، وفرح، وأصبح من الغد، فجلس عند الستر ينتظر الإذن حتى يأمر وينهى.

وكان للحاكم مئة عبد يختصُّون بركابه، ويحملون السيوف بين يديه، ويقتلون مَنْ يأمرهم بقتله، فبعثت بهم ستُّ الملك إلى ابن دَوَّاس ليكونوا في خدمته، فجاءوا في هذا اليوم، ووقفوا بين يديه. فقالت ستُّ الملك لنسيم صاحب الستر: اخرج وقف بين يدي ابن دواس، وقُلْ للعبيد: يا عبيد! مولانا تقول لكم: هذا قاتلُ مولانا الحاكم، فاقتلوه.

فخرج نسيمٌ فقال لهم ذلك؛ فمالوا على ابن دواس بالسيوف فقطعوه، وقتلوا العبدین اللذين قتلَا الحاكم، وكلَّ مَنْ أطلع على سرِّها قتلته، فقامت لها الهيبةُ في قلوبِ النَّاس. (النجوم الزَّاهرة ٤/ ١٩١ و١٩٢).

ثُرُوتُهَا وَوَفَائُهَا:

* ظلت ستُّ الملك قرابة أربعة أعوام^(١) تسوسُ المملكة من خلفِ الأستار، ولم تجلسْ على عرش المملكة، وإنما ظلت أميرة، ولكنها بذكاؤها وحزمها استطاعت أن تثبتَ نفسها في ديوان مشاهير نساء الدُّنيا، وفي دُنيا نساء التَّاريخ، في عصر يصعبُ أن ترتقيَ فيه امرأةٌ سدةَ الشُّهرة.

* ويحكى تاريخ ستِّ الملك بأنَّها كانت تملكُ الأموال التي لا تُحصى، ناهيك بالجواري والعبيد، قال صاحبُ النجوم: إنَّ ثروة ستِّ الملك أخت الحاكم اشتملتُ على ثمانمئة جارية، وثمان جرّات ملأى بالمسك، وكثير من الأحجار الكريمة، من بينها قطعة من الياقوت تزُن ثمانية مثاقيل، وكانت مخصّصات هذه الأميرة السنوية خمسين ألف دينار، وكانت مشهورةً بالكرم والحكم^(٢).

* وقال ابنُ إياس في تاريخ مصر^(٣): كان بقصر ستِّ الملك أخت الحاكم أربعة آلاف جارية بين يَبُض وسُود، ومولّدات.

* وفي أواخر سنة (٤١٤ هـ) ماتت ستُّ الملك بمرضٍ أصابها، وكان عمرها (٥٥ سنة). وبهذا يطوي التَّاريخ صفحةً هذه المرأة التي أثرت تاريخَ النِّساء بمواقف متباينة.

* * *

(١) الكامل في التاريخ (٣٢٠/٩)؛ هذا وقد امتازت ست الملك بالحزم، ورجاحة العقل، واشتهرت بالكرم والحلم، وعرفت بالتسامح الدِّيني، وكثيراً ما كانت تعطفُ على التَّصارى، وكانت في السادسة والعشرين من عمرها حين تُوفي أبوها. وكانت مع أخيها الحاكم مسلوبةً السُّلطة، فأثار ذلك حفيظتها، ولا سيما عندما انتقد مسلكها، فتآمرت على قتله بالاشتراك مع سيف الدولة ابن دواس أحد شيوخ كتامة - كما أسلفنا -.

(٢) انظر أيضاً: خطط المقرئ (٤١٥/١).

(٣) (٥٨/١).

١٦

عائشة الباعونية

رقع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

فَاضِلَةُ الزَّمَانِ وَحَلِيفَةُ الْأَدَبِ :

نادرةٌ من نوادرِ الدَّهرِ، وأديبةٌ من أدباءِ العصرِ، وواسطةٌ عقدِ الدُّرِّ، في رُصْفِ المباني، ونظمِ الشُّعرِ، لم يكنْ في زمانها من حرائرِ النِّساءِ مَنْ يعادلُّها أدباً وعِلْماً، وفصاحةً وحلماً، وفهماً لمعاني القرآن، وصَفَها الشَّيْخُ عبد الغني التابلسي بأنها فاضلةُ الزَّمانِ؛ وحليفةُ الأدبِ في كلِّ مكان^(١)، ووصفها غيره من أكابرِ العلماء والأعلام بأنها من أكابرِ الأعلام، وبأنَّها ربَّةُ الفضل والأدب، وصاحبةُ الشُّرف والنَّسبِ.

كانت شاعرةً مطبوعةً فاضلةً، أديبةً ناثرةً لبيبةً عاقلةً، حباها الله جمالَ لغةِ الأدبِ، وأسلَسَ على لسانها بلاغةَ العربِ، فكانت بغيةَ الرَّاغِبِينَ ومنيةَ العارفينَ، والذي أجمعَ عليه أهلُ العِلْمِ أنَّها في عصرها، تزيدُ عن غيرها في فهمها وعِلْمِها.

في «شذراته» عرَّفها ابنُ العماد الحنبلي بقوله: عائشةُ بنتُ يوسف بن أحمد بن ناصر بنت الباعوني المعروفة بالباعونية^(٢)؛ الشَّيْخَةُ، الصَّالِحَةُ، الأُريَّةُ، العالِمةُ، العامِلةُ، أمُّ عبد الوهاب الدمشقية، أحد أفرادِ الدَّهرِ، ونوادرِ الزَّمانِ، فضلاً، وأدباً، وعِلْماً، وشِعْراً، وديانةً، وصيانةً.

ولا نعلم بالتحديد متى كان مولدُ عائشة الباعونية هذه، إلا أنَّ الدَّلَّالَ تَشِيرُ إلى أنَّها قد وُلِدَتْ في منتصفِ القرنِ التَّاسِعِ الهجري أو بعده بقليل، وامتدتْ حياتُها حتَّى الرِّبْعِ الأوَّلِ من القرنِ العاشرِ الهجري تقريباً.

وفي أسرةٍ زاكية بحلية الفضل، نشأت عائشةُ الباعونية، حيث أبوها

(١) نفحات الأزهار على نسمات الأسحار (ص ٢).

(٢) شذرات الذهب (١٥٧/١٠ - ١٥٩)، وانظر: كشف الظنون (٣٥٧/٥ و ٣٥٨)، والكواكب السائرة للغزي (٢٨٧/١ - ٢٩٢)، والدر المنثور (ص ٢٩٣ - ٣٠٣)، وأعلام النِّساء (١٩٦/٣ و ١٩٧)، وشاعرات العرب (ص ٢٣٠ - ٢٣٢)، والأعلام (٣/ ٢٤١)، وغيرها؛ و«باعون»: إحدى قرى عجلون في شرقي الأردن، والنسبة إليها: باعوني.

القاضي يُوسُف بن أحمد بن ناصر الباعوني المقدسي ثمَّ الصَّالحي الدَّمشقي، قاضي الشَّافعية بدمشق، والمتوفى عن عمر يقترب من ثلاثة أرباع القرن، فقد وُلد سنة (٨٠٦ هـ) وتوفي بدمشق في شهر ربيع الثاني سنة (٨٨٠ هـ) وعمره (٧٤ عاماً)^(١).

* وقد لمعتْ أسماء كثيرة في سماءِ العِلْم من الأسرة الباعونية، وكلُّهم اغترفَ من بحارِ المعرفة، فاعترفَ لهم أكابر أهل الفضل بالفضل، وأقرُّوا لهم بالعِلْم والحلم^(٢).

شَغَفُهَا بِالْعِلْمِ وَحَافِظَتُهَا الْعَجِيبَةُ:

* اقتطفتْ عائشةُ الباعونيةُ أزاهيرَ العِلْم، ووَرَدَ المعرفة وهي في عُمرِ الرِّهْرِ، وقد أنعمَ اللهُ عليها بنعم شتى أعلاها حفظ القرآن الكريم.

* ومنذ نعومة أظفارها شَغِفَتْ بِالْعِلْمِ شَغْفاً عَجيباً، وداومتْ عليه، فلا وُصُولَ للمرءِ إلى صفاء شيءٍ من أسباب الدُّنيا إلا بصفاء العِلْم فيه، وخصوصاً علوم القرآن، فهي تُهَذِّبُ اللسان، وتثبتُ الجَنَانَ، وتقوي الحُجَّةَ والبرهان، وتجعل المرءَ سَبَاقاً في كُلِّ مَيْدَان.

* ويبدو لي - والله أعلم - أنَّ أباهَا قد لاحظَ نباهَتَهَا، وحبَّهَا للعلم، فأخَذَ يعتني بها، حيث تَلَقَّتْ علومَ القرآن الكريم، وأخذتْ تقرأ آياته وتحفظها، وهي ما تزالُ طِفْلةً صغيرةً، إلا أنَّها عندما كانت في ربيعها الثامن، وَعَتِ القرآن الكريم كله في صدرها، وحفظته واستظهرته، وأتقنتْ قراءته إتقاناً عجيباً ممَّا جعلها متفردة بين نساء عصرها، بل بين حُفَاطِ نساء العصر آنذاك.

* وكانت عائشةُ الباعونية - رحمها الله - تَعْتَبِرُ أنَّ حفظها للقرآن في تلك

(١) انظر: الضوء اللامع للسَّخاوي (٢٩٨/١٠)، ونظم العقيان في أعيان الأعيان للسيوطي (ص ١٧٨ و ١٧٩).

(٢) انظر في هذا على سبيل المثال: الجزء التاسع والعاشر من كتاب شذرات الذهب، وكتاب الكواكب السَّائرة في أعيان المئة العاشرة، حيث تجد عدداً من تراجم العلماء الباعونيين.

السَّنَّ مَنَّةً مِنْ مَنِّ اللَّهِ عَلَيْهَا؛ بل من لطائفِ المننِ الإلهيةِ ذلك اللطفُ الربّاني الذي صاحبَهَا منذ بداية حياتها إلى نهايتها.

* وقد تحدّثتُ عائشةٌ عن مشاعرها، وعن تلك النعمة الإلهية، والمِنَّةِ الربّانيةِ في حفظِ القرآن العظيم وهي في سِنِّ الطفوليّة، فتقول من كلام طويل نقتطفُ منه هذه الفقرات: وكان ممّا أنعمَ اللهُ به عليّ أنني بحمده لم أزلُ أتقلَّبُ في أطوارِ الإيجادِ؛ في لطائفِ رفاهيةِ البرِّ الجواد، إلى أن خرجتُ إلى هذا العالمِ المشحون بمظاهرِ تجلياته، الطّافح بعجائبِ قدرته، وبدائعِ إرادته، المشوب موارده بالأقذار والأكدار، الموضوع بكمالِ القدرة والحكمة للابتلاء والاختبار، دار ممر لا بقاء لها إلى دارِ القرار؛ فربّاني اللطيفُ الربّاني في مشهد النعمة والسّلامة، وغدّاني بلبانِ مدادِ التّوفيقِ لسلوكِ سبيلِ الاستقامة، وفي بلوغِ درجة التّمييز، وأهلّني الحقّ لقراءة كتابه العزيز، ومَنّ عليّ بحفظه على التّمام، ولي من العمر حينئذ ثمانية أعوام، ثم لم أزلُ في كنفِ ملاطفات اللطيف، حتى بلغتُ درجة التّكليف^(١).

* على هذه المائدة العظيمة الميمونة نشأت عائشةُ الباعونية، وبعدها راحت تنهلُ من المعارفِ العامّة من علماء عصرها، فهي تعلمُ بأنّ العلماء هم سُرُجُ الأزمنة والأوقات، فكلُّ عالمٍ مصباحُ زمانه، يستضيءُ به أهلُ عصره، لذلك اتخذتِ العلمَ لها حرفة على كلّ الحِرَف، فالعلمُ يزيد الشّريف بالشّرف، ولأنّ العلمَ لا ينقصُ بالبذل والتّفقة، والمالُ ينقصُ بالبذل والتّفقة، ولأنّ صاحبَ المالِ إذا مات انقطعَ ذِكْرُهُ، وغاب أثره، ونسيه أهله ومحبّوه، وصاحبُ العلمِ إذا مات يبقى ذِكْرُه بين النّاس، وتبقى معارفه مشهورة كالنّبراس، ولأنّ صاحبَ المالِ ميتٌ يُسألُ عن ماله من أين اكتسبه، وأين وضعه؟ وصاحبُ العلمِ له بكلِّ عِلْمٍ قَصْدٌ به وجهُ اللهِ درجة في الجَنّة.

(١) انظر: در الحبيب (١ق ١٠٦٢ - ١٠٦٤)، والكواكب السائرة (١/٢٨٨)، وشذرات الذهب (١٠/١٥٨).

بدأت عائشة حياتها العلمية بطلب العلم، وحضور مجالس العلماء، فقد تنسكت في بداية حياتها العلمية على شيخ سيد جليل اسمه: «إسماعيل الخوارزمي»، ثم من بعده على يد شيخ آخر اسمه: «خليفة المحيوي يحيى الأرموي»، ثم إنها حملت إلى القاهرة، فنالت من العلوم حظوظاً وافرة، وحضرت مجالس العلماء^(١)، وأبدعت هنالك أيما إبداع، فأجيزت بالإفتاء والتدريس.

هذا؛ ولم تتفوق عائشة في مجال علوم القرآن الكريم، والفقه، والحديث النبوي فحسب، ولكنها أبدعت في اجتناء ثمرات الأدب، فعرفت أبكار الكلام، وحفظت كثيراً من عيونه، وتوفرت لها شروط المعرفة^(٢)

(١) قال عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: إن الله - عز وجل - لم يخلق على وجه الأرض بقعة أكرم على الله من مجالس العلماء.

وقال أبو الليث السمرقندي - رحمه الله -: من انتهى إلى العالم وجلس معه، ولا يقدر على أن يحفظ العلم فله سبع كرامات:

أولها: ينال فضل المتعلمين.

والثاني: ما دام جالساً عنده كان محبوباً عن الذنوب والخطايا.

والثالث: إذا خرج من منزله تنزل عليه الرحمة.

والرابع: إذا جلس عنده فتزل عليهم الرحمة فتصيبه ببركته.

والخامس: ما دام مستمعاً تكتب له الحسنة.

والسادس: تحف عليهم الملائكة بأجنتها رضاً وهو فيهم.

والسابع: كل قدم يرفعه ويضعه يكون كفارة للذنوب، ورفعاً للدرجات له، وزيادة في الحسنات.

(تنبيه الغافلين ص ٤٣٩ و ٤٤٠) بتحقيق: يوسف علي بديوي.

(٢) قال الماوردي - رحمه الله -: الشروط التي يتوفر بها علم الطالب، وينتهي بها كمال الرّاغب، مع ما يلاحظ به من التوفيق، ويمرّ به من المعونة، فتسعة شروط:

أحدها: العقل الذي به تدرك حقائق الأمور.

الثاني: الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم.

الثالث: الذكاء الذي يستقرّ به ما تصوره، وفهم ما علمه.

الرابع: الشهوة التي يدوم بها الطلب، ولا يسرع إليها الممل.

بالشعر وفنونه، فغدث إحدى شاعرات النساء اللواتي سجلن أجمل الأشعار وأحلاها في ديوان الدهر، بل إنَّ عائشة هذه كانت شاعرةً البليغات، وبليغة الشاعرات، وفصيحةً النثرات، وآثارها تشهد بما آتاها الله تعالى من نباهة وفصاحة وبلاغة وجودة نظم، وخصوصاً في مجال المدائح النبوية التي بلغت فيها الشُّها، وتسمنت ذروة المعرفة والإلمام بفنون البلاغة والأدب - كما سئرى بإذن الله -.

* وتشير أخبار عائشة الباعونية إلى أنها قد أبحرت في علوم الأدب، وقرأت كثيراً من كتب الأقدمين، لذلك كانت تجد أن لذة العلم فوق كل لذة، ونشوة المعرفة فوق كل مسرة؛ قال بعض الأدباء الحكماء: مَنْ تَفَرَّدَ بالعلم لم توحشه خلوة، ومن تسلى بالكتب لم تفتنه سلوة، ومن آنسه قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الإخوان^(١).

* وهكذا كانت هذه العالمة الأديبة التي زاد من بلاغتها حفظها كتاب الله تعالى، لذلك فإنَّه لما سطع نجمها، أفلتت نجوم غيرها من نساء عصرها، بل لم نسمع عن امرأة حظيت بشهرتها في عصرها كما اشتهرت هي، فقد كانت من السوابق في الشهرة، وغيرها من المصلين، على أننا لا نبخس أولئك اللواتي ظهرن في القرن العاشر من مثل: زينب بنت محمد الغزي الشافعية^(٢)، وفاطمة بنت يوسف التادفي الحنبليّة

الخامس: الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب.

السادس: الفراغ الذي يكون معه التوفر ويحصل به الاستكثار.

السابع: عدم القواطع المذهلة من هموم، وأشغال، وأمراض.

الثامن: طول العمر واتساع المدة، لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال.

التاسع: الظفر بعالم سمح بعلمه، متأن في تعليمه.

فإذا استكمل هذه الشروط التسعة، فهو أسعد طالب وأنجح متعلم. (أدب الدنيا

والدين ص ١٠٤) طبعة دار ابن كثير المحققة.

(١) انظر: أدب الدنيا والدين (ص ١٢٣).

(٢) زينب بنت محمد الغزي الشافعية، كانت من أفاضل نساء عصرها، وكانت من أهل العلم والدين والصَّلاح، ولها شعرٌ في المواعظ، ولدت في ذي القعدة سنة =

الحلبية^(١)، وأم الخير أمة الخالق^(٢)، وخديجة بنت محمد بن حسن الباني الحلبي^(٣) وغيرهن .

دخولها القاهرة ولقاؤها الأدباء :

* قال الغزوي - رحمه الله - في «الكواكب» : دخلت عائشة الباعونية القاهرة في سنة (٩١٩ هـ)^(٤) .

* ويبدو من خلال هذا القول بأنَّ عائشة قد قصدت مصرَ، واصطحبت معها بعض منظوماتها وأشعارها، كما كان معها بعض مؤلفاتها^(٥)، وفي طريقها إلى القاهرة أصيبت بشيء من مؤلفاتها ومنظوماتها، ويبدو أنَّها فقدت أو سُرقت أو تَلِفَت .

* ولما دخلت القاهرة نُدبت لقضاء مآرب لها تتعلق بولدها؛ وكان في

(٩١٠ هـ) وتوفيت سنة (٩٨٠ هـ) وعمرها (٧٠ سنة)، ومن شعرها تمدح شيخها :

إِنَّمَا الْعَالَمُ الَّذِي	جَمَعَ الْعِلْمَ وَاكْتَمَلَ
قَامَ فِيهِ بِحَقِّهِ	يَتَّبِعُ الْعِلْمَ بِالْعَمَلِ
سَهَرَ اللَّيْلَ كُلَّهُ	بِنَشَاطٍ بَلَا كَسَلَ
فَهُوَ فِي اللَّهِ دَائِبُهُ	أَبَدَ الدَّهْرَ لَمْ يَزَلْ
حَازَ عِلْمًا بِخَشِيَّةِ	وَبِدُنْيَاهُ مَا اشْتَغَلَ

(١) فاطمة بنت يوسف التاد في الحنبلية الحلبية، كانت من الصالحات الخيرات، حجَّت مرتين، ثمَّ عادت إلى حلب، وزارَت بيت المقدس، ثم حجَّت ثالثة، وتوفيت بمكة المكرمة سنة (٩٢٥ هـ) .

(٢) أم الخير أمة الخالق، الشَّيخة الأصيلة المعمَّرة، ولدت سنة (٨١١ هـ)، وهي آخر مَنْ يروي صحيح البخاري عن أصحاب الحجاز، وتوفيت سنة (٩٠٢ هـ) . قال ابنُ

العماد: نزل أهل الحديث درجةً في رواية البخاري بموتها - رحمها الله تعالى - .

(٣) خديجة بنت محمد بن حسن الباني الحلبي، الشَّيخة الصَّالحة المتفكَّهة الحنفية، كانت دَيَّنة، صَيِّنة، متعبدة، مقبلة على التلاوة إلى أن توفيت في شهر رمضان سنة (٩٣٠ هـ) .

(٤) الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة (٢٨٨/١) .

(٥) سيأتي الحديث عن مؤلفاتها إن شاء الله .

صحبتها المقرّ أبو الثّنا محمود بن أجّا الحلبي، صاحب دواوين الإنشاء بالديار المصرية، وكان أبو الثّنا ذا هيبة وهيئة حسنة، وشيئة نيّرة، ظريفاً كيساً، يحبُّ التّواريخ، ويرغبُ في خلطة الأكاابر وأهل العِلْم، لذلك أكرم عائشة الباعونية، وأحسنَ نُزُلها ونُزَلَ ولدها، وأنزلها في حريمه، وأوصاهم بها، وعزّفهم قَدْرها ومكانتها العلميّة بين عالِماتِ الشّام، وأنّها إحدى نوادر الدّهر، وأمرهم أن يهتمّوا بشؤونها، لذلك خصّته عائشة بعددٍ من مدائحها، وقلدته أطواقاً من ذهبٍ نظّمها وقريضها، ظلّت تتغنّى بها الأجيال، وكان أوّل ما مدحته قصيدة ميمية نفيسة قالت في أولها:

رَوَى الْبَحْرُ أَخْبَارَ الْعَطَا عَنْ نَدَاكُم وَنَشَرَ الصَّبَا عَنْ مُسْتَطَابِ ثَنَّاكُمُ
وهي قصيدة طويلة، حيث أُعْجِبَ بها المقرّ أبو الثّنا، وإذ ذاك عرضها على شيخ الأدباء السيّد عبد الرّحيم العبّاسي الشّافعي القاهري^(١)، وكان من جِلّة الأدباء ومفاخر العلماء، فأعجب بقصيدتها إعجاباً شديداً، وأخذت معانيها بمجامع لُبّه، فما كان منه إلا أن جرّد نفسه، وبعثَ لها بقصيدة من بديع نظمه ذكر فيها بلاغتها، وأشار إلى علّمها، فأجابت عائشة عبد الرّحيم هذا بقصيدة رائية مطلعها:

وَأَفْتُ تَتَرَجِّمُ عَنْ حَبْرِ هُوَ الْبَحْرُ بَدِيعَةُ زَانَهَا مَعَ حُسْنِهَا الْخَفَرُ

(١) عبد الرّحيم بن أحمد العبّاسي الشّافعي القاهري من علماء العصر، كانت له يدٌ طولى، وسندٌ عالٍ في علْم الحديث، ومعرفةٌ تامّةٌ بالتّواريخ، والمحاضرات، والقصائد، والفرائد، كما كان له إنشاءٌ بليغٌ، ونظمٌ حسنٌ، وخطٌ مليحٌ، وكان من مفرداتِ العالم، صاحب خُلُقٍ عظيم، وبشاشة، ووجه بسّام، لطيف المحاوره، عجيب النادرة، متواضعاً، متخشعاً، أديباً، لبيباً، يبجل الصغير، ويوقر الكبير، سخي النفس، مباركاً، مقبولاً، ومن شعره:

إِنْ رُمْتُ أَنْ تَسْبِرَ طَبْعَ امْرِئٍ فاعْتَبِرِ الْأَقْوَالَ ثُمَّ الْفِعَالَ
فإن تجدها حسنت مخبراً من حسن الوجه فذاك الكمال

وُلد عبد الرّحيم بن أحمد العبّاسي يوم السّبت ١٤ رمضان سنة (٨٦٧ هـ) وتوفي سنة (٩٦٣ هـ) وعمره (٩٦ سنة) - رحمه الله - . (شذرات الذهب ١٠/٤٨٦ - ٤٨٨).

* ثُمَّ إِنَّ عَبْدَ الرَّحِيمِ الْعَبَّاسِي كَتَبَ إِلَى عَائِشَةَ مُلْغِزاً بِقَصِيدَةٍ بَلَّغَتْ (٢١)
بيتاً) جاء في أولها :

قُلْ لِمَنْ بِالْقَرِيضِ بَرَّ الْفُحُولَا فَاثْنَى عَنْ قُصُورِهِمْ مُسْتَطِيلَا
وَأَرَانَا عَرَائِسَ الثَّغْرِ تُجَلَّى بِمَعَانٍ أَضْحَى عُلاَهَا جَلِيلَا
رَافِيَاتٍ مِنْ زَاهِيَاتِ الْمَعَانِي فِي مُرَوِّطٍ تَجَرُّ فِيهَا الدُّيُولَا
مُسْفِرَاتٍ عَنْ حُسْنٍ مَعْنَى بَدِيع مِنْ سَنَاهُ تَبْغِي الْبُذُورِ الْأَفُولَا
وَتَوَدُّ الرِّيَاضُ أَنْ لَوْ أُغِيرَتْ مِنْ أَفَانِينَ وَشَيْهَا إِكْلِيلَا
كُلُّ طَرْفٍ إِذَا تَرَجَّعَ مِنْهَا عَادَ مِنْ حُسْنِهِ حَسِيرًا كَلِيلَا

فأجابته عائشة بقصيدة على نفس الوزن والروي قالت في أولها - بعد أن
أجابته عن حل لغزه :-

يَا حَسِيْباً قَدْ جَاَزَ مَجْدَاً أَثِيلَا وَفَخَاراً بِالْمُصْطَفَى لَنْ يَحُولَا
وَأَمَاماً فِيمَا حَوَى لَا يُجَارَى فِي عُلُومِ حَوْتٍ لَهُ التَّقْضِيلَا
جِئْنَا بِالْعُجَابِ نَظْماً تَحَلَّى مِنْ لَالِي الْبِيدِعِ عَقْداً جَمِيلَا
سَافِراً عَنْ وَجْهِهِ مُعْجِزٍ لُغْزٍ كُلُّ فِكْرٍ أَضْحَى لَدَيْهِ كَلِيلَا
قَدْ سَمِعْنَا وَمَا سَمِعْنَا لِمَعْنَى لُغْزِكَ الْفَائِقِ الْبَدِيعِ مَثِيلَا^(١)

* ولما وصلت هذه الأبيات السيّد عبد الرحيم العباسي نالت إعجابه،
فما كان منه إلا أن امتدح السيّدة عائشة الباعونية بأبيات جميلة أبان فضلها
وعلمها وجمال نثرها، ورائق شعرها فقال :

لِيَهْنِكَ مَجْدُ طَارِفٍ وَتَلِيدُ يَخْضُكَ آبَاءُ بِهِ وَجُدُودُ
وَأَصْلُ زُكَا وَالْفَرْعُ يَتَّبِعُ أَصْلَهُ وَلَيْسَ لَهُ عَمَّا انْتَحَاهُ مَحِيدُ
فِيَا رَوْضَةَ الْعِلْمِ الَّتِي بَانَ فَضْلُهَا وَلَيْسَ مِنَ الْفَيْضِ السَّرِيِّ مَدِيدُ
فَمَنْثُورٌ مَا تُبْدِيهِ قَدْ ضَاعَ نَشْرُهُ وَمَنْظُومُهُ فَوْقَ الثُّحُورِ عُقُودُ
وَوَرَقُ الْمَعَانِي فَوْقَ دَوْحِ بَيَانِهَا لَهُ بِيدِيعِ السَّجْعِ فِيهِ نَشِيدُ
إِذَا مَا تَعَنَّى مُطَرِباً عِنْدَ لَيْبِهَا تَمِيلُ قُلُوبٌ لَذَّةً وَتَمِيدُ

(١) الكواكب السائرة (١/٢٨٩ و ٢٩٠).

فأجابته قائلةً :

تَسَامَيْتَ مَرْمَى فَالْحَاقُ بَعِيدُ وَحَسْبُكَ مَا أَبَدَعْتَ فَهُوَ شَهِيدُ
حَصَلَتْ عَلَى الْغَايَاتِ مَجْدًا وَسُودَدًا وَفَضْلًا مُبِينًا لَيْسَ فِيهِ جُحُودُ
وَأَصْبَحْتَ فِي رَوْضِ الْعُلُومِ مَفْكَهًا تَجُولُ وَتَجْنِي مَا تَشَاءُ وَتَفِيدُ
وَكَمْ بُوْجِيزِ اللَّفْظِ أَصْدَرْتَ مِنْهَا يَطِيبُ بِهِ لِلطَّالِبِينَ وَرُودُ
مَوَارِدُ آدَابٍ صَفَا سَلَسِيلُهَا وَحَامَ عَلَيْهَا مَهْتِدٍ وَرَشِيدُ^(١)

* ويبدو أنَّ عائشة الباعونية - رحمها الله - قد مكثت مدة في القاهرة في ضيافة أبي الثناء محمود الحلبي، فهزتها الأشواقُ إلى دمشق وهاتيك الأطلال، وداعبتها أنسام الحنين إلى الشام، وإلى الصّالحية وإلى كل بقعة من دمشق وما حولها، هنالك انبثقت عرائسُ فكرها عن أبدع الكلام المنظوم، فمدحت أبا الثناء بقصيدة رائعة جدًا، ذكرت فيها كرمه ورفده، كما ذكرت شوقها وحنينها إلى دمشق، وإلى معالمها الجميلة، وأنهارها العذاب، ومروجها الخضر الرائعة، تقول عائشة في مطلع قصيدتها:

حَنِينِي لِسَفْحِ الصَّالِحِيَّةِ وَالْجَسْرِ

أَهَاجَ الْهُوَى بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالصَّدْرِ^(٢)

* ثم إنَّها تذكرُ في هذه القصيدة البديعة حنينها إلى دمشق وإلى أنهارها العذاب التي تروي أراضيها فتقول:

أَلَا لَيْتَ شِعْرِي وَالْأَمَانِي كَثِيرَةٌ أَبْلُغُ مَا أَرْجُوهُ قَبْلَ انْقِضَا عُمْرِي
وَهَلْ أَرِدُنْ صَافِي يَزِيدَ^(٣) وَاجْتَلِي مَحَاسِنَ ذَاكَ السَّفْحِ وَالْمَرْجِ وَالْقَصْرِ

(١) انظر: الكواكب السائرة (١/ ٢٩٠).

(٢) مطلع هذه القصيدة يذكرنا بمطلع بل بقصيدة علي بن الجهم الشاعر المشهور حينما مدح المتوكل بقصيدة مطلعها:

عيونُ المها بين الرّصافةِ والجسرِ جلبنَ الهوى من حيث أدري ولا أدري
(٣) «يزيد» المقصود به: نهر يزيد، وهو أحد أنهار دمشق السبعة وهي: يزيد، ثورا، الداراني، بانياس، قنوت، عقربا، بردى.

قال العماد الأصفهاني في وصفها:

بلى إنَّ رَبِّي قَادِرٌ وَعَطاؤُهُ
ولي أملٌ فيه جميلٌ وجودُهُ
وحَسْبِي بشيراً بالأمانِي وبالمنى
* ومنْ خلالِ حنينها تمتدِّحُ «محمود أجَا الحلبي» وتذكر شمائله
وجودَهُ، ومكانته الاجتماعية، وكرمَ وفادته، وتشيرُ إلى علمِهِ وبلاغته وأدبه
فتقول:

ولا بدَّ منْ جُودٍ يوافي وفاءه
ويبدو صباح الوصلِ أبيضَ ساطعاً
سَلِيلِ أَجَا كَهْفِ اللَّجَا وافرِ الحِجَى
إمامَ حَوَى منْ كُلِّ عِلْمٍ لُبَابُهُ
وأصْبَحَ في بَحْرِ الحَقَائِقِ غَائِصاً
تلوِّذُ به الأعيانُ فيما يهْمُهُم
كريمٌ تُجارِي السُّحُبَ راحته ولا

إلى ناسٍ باناس لي صبوّةٌ
يزيدُ اشتياقي وينمو كما
ومنْ بردى برد قلبي الشوق
لهما الوجد داعٍ وذكر مثير
يزيدُ يزيدُ وثور يثور
فهل أنا من حرّه مستجير
(منتخبات التواريخ لدمشق للحصني ص ١٠٩٦).

وفي نهر يزيد قال الراعي الدمشقي:
كذا يزيدُ أطيّبُ الأنهارِ
(منتخبات التواريخ لدمشق ص ١١٠٢).

وهذا التهر الجميل يروي عدداً من قرى غوطة دمشق، ومنها «حريستا» - وهي بلدتي
التي ولدتُ بها - فقد جعل منها هذا النهر جنةً من جنّات الدنيا، مما جعل أحد
الشعراء يذكر ذلك فيقول:

رُبَّ يومٍ بحريستا رطب
وعقودُ الكرم لما انتظمتْ
سَتَرَتْها حلّةٌ من ورقٍ
هذه اللذة مَنْ فارقها
وسَطَ روضٍ بالصَّبا مضطرب
فتدلّتْ بعقيق الرُّطْبِ
أخضر خوف عيون العرب
صار يفديها بأُمٍّ وأبٍ

يَمَنْ وَلَا مَرٌّ يَشُوبُ عَطَاءَهُ وَيَمْنَحُ مَنْ لَفْظِ سَبَى الْعَقْلِ بِالسَّحَرِ
عَرَائِسَ فِكْرٍ أَرْخَصَ الذَّرَّ لَفْظُهَا وَأَنْشَتَ مَعَانِيهَا لَنَا دَهْشَةَ الْفِكْرِ
مُفِيدٍ بِحُلِّ الْمَشْكَلَاتِ بِمَوْجِزِ حَلًّا وَعَلَا عَنْ وَهْدَةِ الْعِيِّ وَالْحَضَرِ

ثم تختتم مديحه بقولها:

هُوَ الشَّمْسُ فِي الْعَلْيَا هُوَ النَّجْمُ فِي الْهَدَى
هُوَ الْغَوْثُ فِي الْجَدْوَى هُوَ الصُّبْحُ فِي الْبُشْرِ^(١)

مُؤَلَّفَاتُهَا وَالْوَانُ مِنْ شِعْرِهَا:

المرءُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَحْدُوثةٌ يَفْنَى وَتَبْقَى مِنْهُ آثَارُهُ
وَأَحْسَنُ الْحَالَاتِ حَالُ امْرِئٍ تَطْيِبُ بَعْدَ الْمَوْتِ أَخْبَارُهُ
* وأي أحْدُوثة أجمل من أحْدُوثة ضيفتنا عائشة الباعونية؟! وأي خبر
نَشَرَهُ أَطْيَبُ مِمَّنْ وَصَلَتْ سَوَادَ لَيْلِهَا بِيَاضِ نَهَارِهَا سَعِيًّا وَرَاءَ هَدَايَةِ غَيْرِهَا
سُبُلَ الْمَعْرِفَةِ وَلُبَابِ الْآدَابِ!؟

* لقد أَشْغَلَتْ عائشة - رحمها الله - جُلَّ وَقْتِهَا بكتابةٍ وتقْيِيدٍ ما يَعُودُ نَفْعُهُ
عَلَى عَمُومِ النَّاطِقِينَ بِالضَّادِ عَلَى مَرِّ الْأَعْوَامِ، فَكُلُّ مَنْ يَقْرَأُ آثَارَهَا يَقْطِفُ ثَمَارَ
الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ وَالْأَدَبِ، وَيَغْذِي عَقْلَهُ بِمَا تَرَكْتَهُ هَذِهِ الْبَارِعَةُ الَّتِي تَعْتَبَرُ
آثَارُهَا غِذَاءَ الْأَلْبَابِ.

* وكما أَسْلَفْنَا مِنْ قَبْلُ، فَإِنَّ عَائِشَةَ قَدْ نَالَتْ مِنَ الْعُلُومِ حِظًّا وَافِرًا،
وَأَجِيزَتْ بِالْإِفْتَاءِ وَالتَّدْرِيسِ، وَتَتَلَمَذَتْ عَلَى أَكْبَارِ عِلْمَاءِ عَصْرِهَا فِي كُلِّ فَنٍّ،
وَرَزَقَهَا اللَّهُ عَقْلاً وَافِرًا، وَذِكَاءً نَادِرًا، فَلَا عَجَبَ أَنْ تَبْدَعَ فِي مَجَالِ التَّصْنِيفِ،
وَتَتْرَكَ أَبْدَعَ الْآثَارِ فِي عَالَمِ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ، وَعَالَمِي الْأَدَبِ وَالشُّعْرِ، وَغَيْرِ
ذَلِكَ كَثِيرٍ.

* لَقَدْ أَلْفَتْ عَائِشَةُ الْبَاعُونِيَّةُ عِدَّةَ مُؤَلَّفَاتٍ تَشْهَدُ بِفَضْلِهَا وَعِلْمِهَا؛ وَمِنْ
هَذِهِ الْمَوْثُفَاتِ، مُؤَلَّفُهَا الْمَشْهُورُ بِاسْمِ: «الْفَتْحُ الْحَقِيقِيُّ مِنْ مَنَحِ التَّلْقِي»،
وَهَذَا الْكِتَابُ يَشْتَمِلُ عَلَى كَلِمَاتٍ لَدْنِيَّةٍ، وَمَعَارِفَ سَنِيَّةٍ، وَإِنْشَادَاتٍ صُوفِيَّةٍ،

(١) الكواكب السائرة (١٠/٣٠٤).

اختارتها عائشة ونَحَتْ فيها منحى أهل التّصوّف، وكان لهذا الكتاب أثرٌ كبيرٌ عند المتصوّفة وغيرهم ممن يعشقون الأدب الصّوفي.

* ومن آثارها كذلك في هذا المجال كتاب بعنوان: «الملاحُ الشّريفة والآثارُ المنيفة» ويشتمل كتابها على إنشاداتٍ صوفيةٍ ومعارفٍ سنية، توافقُ ما جاء في عَصْرها من أفكارٍ، ومعتقداتٍ، وعادات.

* ومن آثارها الشّهيرة اللطيفة كتاب بعنوان: «دُرُرُ الغائص في بحر المعجزات والخصائص» وهو قصيدةٌ رائِيةٌ وبديعيةٌ؛ وقد شرحت هذه القصيدة شرحاً حسناً أظهرت فيه مقدرتها البيانية واللغوية والشعرية بآنٍ واحد.

* ولعائشة أيضاً أرجوزةٌ نفيسة في الأخلاقِ والتّصوّف، اختصرت فيها كتاب «منازل السّائرين» للهروي، وقد أطلقت على أرجوزتها هذه اسم «الإشارات الخفية في المنازلِ العلية»؛ كما أنّ لها أرجوزة أخرى لخصّت فيها كتاب: «القولُ البديعُ في الصّلاةِ على الحبيبِ الشّفيح» للسّخاوي.

* ومن نفائس كتبها كتاب بعنوان: «الموردُ الأهنى في المولدِ الأسنى» قالت: إنها فرغت من تأليف كتابها المورد الأهنى يوم الإثنين (١٢) ربيع الأوّل سنة (٩٠١ هـ)، وهذا اليوم يوافق ميلاد الحبيب المصطفى محمّد ﷺ، كما أنّها قد تركت ديوان شعر عنوانه «فيضُ الفضل»^(١).

* هذه بعضُ آثارِ عائشة الباعونية في مجالِ التّأليف، ومن الملاحظ أنّ سائر هذه المؤلفات تغلبُ عليها الشّخصية الصّوفية المُشرقة.

* أمّا شعرها فقد حوى سائرَ المعاني، وفنونَ المغاني، فلها من الموشحاتِ الجميلة ما تطربُّ له الأسماع، ولها من القصائدِ الرائعة ما يهذبُ الطّباع؛ ومن شعرها على لسانِ القوم قصيدة جميلة ساحرة قالت في أولّها:

(١) انظر: كشف الظنون لحاجي خليفة (٣٥٧/٥ و ٣٥٨)، وأعلام النساء (٣/١٩٦) وغيرهما.

حَبِيبِي أَنْتَ مِنْ قَلْبِي قَرِيبُ وَعَنْ سَرِّي جَمَالُكَ لَا يَغِيبُ
خَلَعْتَ الْحُسْنَ فِي خِلْعِ التَّجَلِّي فَشَاهَدْتَ الْجَمَالَ وَلَا رَقِيبُ
وَأَبَدْتَ الْوَصَالَ فَلَا صَدُودُ وَلَا وَهْمٌ وَلَا شَيْءٌ يُرِيبُ

ومنها:

فَلَا خَوْفٌ وَأَنْتَ أَمَانُ قَلْبِي وَلَا سَقَمٌ وَأَنْتَ لِي الطَّيِّبُ
وَلَا حُزْنٌ وَأَنْتَ سُرُورُ سَرِّي وَلَا سُؤْلٌ وَأَنْتَ لِي الْحَبِيبُ^(١)

* ولمدينة دمشق مساحة كبيرة في أشعار عائشة الباعونية، فهي جنة الدنيا، وجنة من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وفيها ما تشتهيهِ الأنفسُ، وتلذُّ الأعين، ولذلك كانت تمنح دمشق بدائع شعرها، ونفائس نشرها.

* قال محمد أديب آل تقي الدين الحصري - المولود بدمشق عام (١٢٩٢ هـ)، والمتوفى بها عام (١٣٥٨ هـ) - في كتابه «منتخبات التواريخ لدمشق»^(٢): ومما يُكتب بقلم الافتخار والاعتبار، ما قالته الفاضلة، سيّدة عصرها، وعلامة مصرها، وهي إحدى أفراد الدهور، ومن نوادر الزمان والعصور، نزين به كتابنا، ونكرر ذكر ما قالته في دمشق، قولها:

نَزَرَهُ الطَّرْفَ فِي دِمَشْقَ ففِيهَا كُلُّ مَا تَشْتَهِي وَمَا تَخْتَارُ
هِيَ فِي الْأَرْضِ جَنَّةٌ فَتَأْمَلُ كَيْفَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
كَمْ سَمًا فِي رَبْوَعِهَا كُلُّ قَصْرِ أَشْرَقَتْ مِنْ وَجْهِهَا الْأَقْمَارُ
وَتُنَاغِيكَ بَيْنَهَا صَادِحَاتُ خَرَسَتْ عِنْدَ نَطْقِهَا الْأَوْتَارُ
كُلُّهَا رَوْضَةٌ وَمَاءٌ زَلَالُ وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ وَدِيَارُ^(٣)

* ولعائشة باعٌ طويلٌ في جميع ألوان الشعر وأشكاله، فقد أجادت نظم

(١) انظر: الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة للغزي (١/٢٩١).

(٢) وهو من الكتب النفيسة الشاملة لتاريخ دمشق.

(٣) انظر: منتخبات التواريخ لدمشق للحصري (ص ١٢٠٣)، وانظر: الكواكب السائرة

للغزي (١/٢٩٢)، وشذرات الذهب (١٠/١٥٩)، وأعلام النساء (٣/١٩٧)،

وشاعرات العرب (ص ٢٣٢).

فنون الشعر كاملة، وأبدعت في ذلك أيما إبداع، وأظهرت من سحر بلاغتها ما يسحر الألباب، ومن شعرها في الغزل قولها:

كَأَنَّمَا الْخَالُ تَحْتَ الْقُرْطِ فِي عُنُقِي بَدَا لَنَا مِنْ مُحِيًّا جَلًّا مَنْ خَلَقَا
نَجْمٌ غَدَا بِعَمُودِ الصُّبْحِ مُسْتَتِرًا خَلَفَ الثُّرَيَّا قُبَيْلَ الشَّمْسِ فَاحْتَرَقَا^(١)

* ومن شعرها قولها في جسر الشريعة لما بناه الملك برقوق بيتان هدمًا كثيرًا مما شيده فحول الشعراء من البيوت وهما:

بَنَى سُلْطَانُنَا بِرُقُوقٍ جِسْرًا بِأَمْرِ وَالْأَنَامِ لَهُ مُطِيعَةٌ
مَجَازًا فِي الْحَقِيقَةِ لِلْبَرَائَا وَأَمْرًا بِالْمُرُورِ عَلَى الشَّرِيعَةِ^(٢)

* وَمَعِينُ عَائِشَةَ الْبَاعُونِيَّةِ الشَّعْرِي تَرُّ غَزِيرٌ لَا يَنْضَبُ، ومعارفها الدينية غزيرة أيضًا، فهي واسعة التبخر في المذاهب الأربعة: الحنفي، المالكي، الشافعي، والحنبلي، ومن كثرة ما لها من العلم والفهم والاطلاع وسرعة الجواب، ذلكم السؤال الذي يدل على سرعة البديهة وحضورها، فقد سألها سائلٌ نظمًا عن وطء النائمة فقال:

مَا قَوْلُكَ يَا سَتْنَا الْعَالِمِ فِي رَجُلٍ دَبَّ عَلَى نَائِمِهِ
تَفَتَّحَتْ تَحْسُبُهُ بَعْلَهَا وَهِيَ بِمَا لَدَّ لَهَا رَائِمِهِ
فَاسْتَقَظَتْ فَأَبْصَرَتْ غَيْرَهُ عَضَّتْ عَلَى إصْبُعِهَا نَادِمِهِ
فَهَلْ لَهَا مِنْ فَتْوَةٍ عِنْدَكُمْ مَأْجُورَةٌ مِنْ ذَاكَ أَمْ آثِمِهِ

(١) الدر المنثور في طبقات ربات الخدور (ص ٢٩٣).

(٢) الدر المنثور (ص ٢٩٣)، ويبدو لي أنَّ مؤلف كتاب الدر المنثور في طبقات ربات الخدور قد وهمت في نسبة هذين البيتين لعائشة الباعونية من عدة وجوه منها: أنَّ برقوق قد أمر ببناء جسر الشريعة بطريق الشام في سنة (٧٨٢ هـ)، وكان طول هذا الجسر (١٢٠) ذراعاً وانتفع به الناس، ومنها أنَّ السلطان برقوق هذا قد مات على فراشه بالقاهرة سنة (٨٠١ هـ) وفي هذا التاريخ لم تكن عائشة الباعونية قد وُلدت فضلاً عن امتداحها السلطان برقوق.

ولكن قائل هذين البيتين هو شمس الدين محمد المزين. انظر (شذرات الذهب ١٧/٩) طبعة دار ابن كثير المحققة.

فأجابته عائشة - رحمها الله - على البديهة قائلة :

قالت لكم ستكُم العالمه أنقل ما قالوا وما أخبروا
الشافعي قال لها أجرها والمالكي قال أنا فتوتي
والحنفي قال أتى رزقها والحنبلي قال أنا فتوتي
لو لم يكن لذ لها طعمه لانتهضت من تحته قائمه

وأشعار عائشة كلها تدلُّ على ما آتاها الله من فضلٍ في الخطاب، وتمكُّن من ناصية في الكلام، وفيما يلي يتبين لنا مصداق ما قلناه.

المَدَائِحُ النَّبَوِيَّةُ وَبَدَائِعُ مَدَائِحِهَا :

شهدَ القاصي والدَّاني لعائشة الباعونية في علوِّ الكعب في مضمارِ المَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ، فقد قالتِ الأديبةُ زينبُ يوسفَ فواز عنها ما نصه : ولها ديوانٌ شعرٍ بديعٍ في المَدَائِحِ النَّبَوِيَّةِ كُلِّهِ لَطَائِفُ .

وقالت أيضاً : ومن نظمها قصيدتها «البديعية» التي سارت بذكرها الرِّكبان، وفاقَتْ بمعانيها على الصَّفي^(١) وابن حجة^(٢)، وسائر أهل البديع

(١) «الصَّفي» : صفي الدين الحلِّي، واسمه عبد العزيز بن سرايا بن علي بن أبي القاسم السَّنْبِسي الطَّائِي، وُلد في الحلة سنة (٦٧٧ هـ)، ونشأ بها، وتعددت رحلاته إلى الشَّام ومصرَ وماردين، وغيرها بحكم اشتغاله في التجارة، وانقطع مدة إلى أصحابِ ماردين، فتقرَّبَ من ملوكِ الدولة الأرتقية، كما مدح السلطان الناصر بالقاهرة. وتوفي ببغداد في سنة (٧٥٠ هـ) وله ديوان شعر كبير مطبوع مراراً.

(٢) «ابن حجة» : تقي الدين أبو بكر بن علي بن حجة الحموي الأديب البارِع الحنفي شاعر الشَّام المعروف بابن حجة، ولد بحماة في سنة (٧٧٧ هـ)، ونشأ بها، وحفظ القرآن الكريم، وطلب العلم، وسافر إلى دمشق ومدح أعيانها، واتصل بخدمة نائبها الأمير شيخ المحمودي، ثم صحبه إلى القاهرة، ومدحه وأصبح شاعر العصر.

وذوي العرفان، ولها عليها شرحٌ بديعٌ سمّته «الفتح المبينُ في مدح الأمين» نظمتها على منوال بديعية^(١) تقي الدين بن حجة، مع عدم تسمية النوع تمسكاً بطلاقة الألفاظ، وانسجام الكلمات، وشرحها بشرح مختصر، أسفرت فيه عن لسان البيان، بقدر الطاقة والإمكان^(٢).

* وأجدني هنا أقفُ وقفةً مفيدةً - إن شاء الله - أستعرضُ بها تاريخ المدائح النبوية في الأدب العربي، وكيف سار كبار الشعراء على هذا المنوال - الذي بدأ به الشرف البوصيري^(٣)، صاحب البردة المشهورة - ولما ينته بعد، إذ ما يزال كثيرون ينسجون على منواله وآثاره.

* فقد تراحم الشعراء منذ القديم على البردة، وتسابقوا في معارضتها؛ وتنافسوا في النسخ على منوالها؛ وتعدّ البردة من أطول المدائح النبوية في

نظم بديعيته المشهورة، وشرحها شرحاً حافلاً عديم النظر، وجمع مجاميع أخرى مخترعة، ولما توفي الملك المؤيد حسده شعراء مصر، وتسلطوا عليه، وهجوه، ولا زالوا به حتى خرج من مصر، وسكن موطنه حماة، ومات بها في (١٥) شعبان من عام (٨٣٧ هـ) - رحمه الله -.

(١) البديعية أن تكون القصيدة في مدح الرسول ﷺ ولكن كل بيت من أبياتها يشير إلى فنٍّ من فنون البديع.

(٢) انظر: الدر المنثور (ص ٢٩٣).

(٣) «البوصيري»: صاحب البردة أبو عبد الله شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد الدلاصي المولد، المغربي الأصل، البوصيري المنشأ، نسبة إلى «بوصير» من أعمال بني سويف، لأن أمه منها، وُلد في بهتيم يوم الثلاثاء أول شوال سنة (٦٠٨ هـ) ونشأ في دلاص، وبرع في النظم، كان شاعراً ظريفاً، ومن سبر شعره عليم مزيتته، وأشهر شعره البردة، والهمزية، وعارض قصيدة «بانت سعاد»، توفي البوصيري بالإسكندرية في سنة (٦٩٦ هـ) وقيل سنة (٦٩٥ هـ)، وما أحسن قوله في افتتاح ديوانه:

كَتَبَ المشيبُ بأبيضٍ في أسود بقضاء ما بيني وبين الخرد
(الوافي بالوفيات ٣/ ١٠٥ - ١١٣)، و(شذرات الذهب ٧/ ٧٥٣ و ٧٥٤).

عالم المدائح، إذ تبلغ أبياتها (١٦٠) بيتاً، وهي أشهر ما مُدِحَ^(١) به الحبيب الأعظم محمد ﷺ من الشعر.

* ولقد نُسِجَتْ حول البردة حكايات وقصص ومنامات، وقامت على جوانبها خرافات وخرافات، وتقرَّبَ بها المنشدون، وتبارى في إنشادها أصحاب الأصوات الجميلة، واستشفَّعَ بها واستشفَى كثيرون، وتبارى في كتابتها أشهر الخطاطين في دنيا الخط في مشرق البلاد الإسلامية، وفي مغربها، وذَهَبُوهَا، وتفنَّنوا في إبراز براعتهم بكتابتها. ومن هنا كانت شهرتها، ومن هنا أقبل عليها الشعراء حفظاً ومعارضةً، وتخميساً وتشطيراً وغير ذلك من ألوان البديع وفنون القول.

* أمَّا سببُ نَظْمِ البردة وما رافقه من تأويلات، فقد تحدَّثَ البوصيري نفسه عن سببِ نظمهِ للبردة فقال: كنتُ قد نظمتُ قصائدَ في مدحِ رسول الله ﷺ، منها ما كان اقترحه عليَّ الصَّاحِبُ زين الدِّين يعقوب بن الرُّبَيْر، ثم اتَّفَقَ بعد ذلك أن أصابني فالجُ أبطلَ نصفِي، ففكَّرتُ في عَمَلِ قصيدتي هذه، فعملتها واستشفعتُ بها إلى الله تعالى في أن يعافيني، وكررتُ إنشادها،

(١) إنَّ أولَ ما مُدِحَ به النَّبِيُّ ﷺ قصيدة الأَعشى، واسمه: ميمون بن قيس من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية، أدرك الإسلامَ ولم يُسَلِّمْ، ومات سنة (٧ هـ) مدحهُ بقصيدةٍ مطلعها:

أَلَمْ تَغْتَمِضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرْمَدَا وَبَتَّ كَمَا بَاتَ السَّلِيمُ مُسْهَدَا
ثم نظم الشعراء في حياة النَّبِيِّ ﷺ كثيراً من القصائد التي جَرَتْ على ألسُن شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت - رضي الله عنه -، وحظيت لاميةُ كعب بن زهير «بانتُ سعاد» بشهرةٍ واسعةٍ لم تحظَ بها قصيدة في عصر النبوة.

وقد تتابع الشعراء في الإسلام على الثناء والمدح لأهل البيت عامة وللنبي ﷺ خاصة. فقد نظم الكميث وغيره في مدح أهل البيت، لكنَّ النظم في مدح رسول الله ﷺ والثناء عليه، وخصه بالقصائد الطوال تقريباً إلى الله، وتعبداً، وإشباعاً للجانب الروحي، إنما شاع في العصور المتأخرة، وأثمر وأينع وشاع في العصر المملوكي حين نظم فيه: صفى الدين الحلبي، والبوصيري، وغيرهما، وحيثُذ تابعهما على ذلك شعراء العربية والإسلام إلى يومنا هذا.

ودعوتُ وتوسلتُ، ونمتُ فرأيتُ النَّبِيَّ ﷺ فمسح على وجهي بيده المباركة، وألقى عليَّ بردةً، فانتبهتُ ووجدتُ فيَّ نهضةً، فقمْتُ، وخرجتُ من بيتي، ولم أكنُ أعلمتُ أحداً بذلك، فلقيني بعضُ الفقراء فقال لي: أريدُ أنْ تعطيني القصيدة التي مدحتَ بها رسولَ الله ﷺ.

فقلتُ: أيُّها؟

فقال: التي أنشدتها في مرضك، وذكر أولها؛ وقال: والله لقد سمعتها البارحة وهي تُنشدُ بين يدي رسولِ الله ﷺ، ورأيتُ رسولَ الله ﷺ يتمايلُ وأعجبتُه، وألقى عليَّ مَنْ أنشدها بردةً، فأعطيته إياها، وذكر الفقيرُ ذلك وشاعَ المنام.

* ومن هنا، حلَّقتِ البردةُ في سماءِ الشُّهرةِ في البلدانِ الإسلامية، وأضحتْ عند الأدباءِ وشدةِ المعرفةِ كالشمسِ في رابعةِ النَّهار؛ وتعدُّ البردةُ أولَ ما نُظِمَ مِنَ المدائحِ النبويةِ التي تستهدفُ ذكْرَ صفاتِ النَّبيِّ ﷺ، وشمائله، ودحضِ أقاويلِ أعدائه، وبيانِ فضله على الأنبياء والرُّسل، وسائر الخلق أجمعين.

* ولم يسبقِ البوصيري إلى هذا الفنِّ المتكامل أحدٌ، ذلك أنَّ طابع المدائح قبل البوصيري كان طابعَ المديحِ النبوي مع ذكرِ شيءٍ من صفاته ﷺ. ومن هنا كثُرت معارضات الشعراء والشاعرات للبردة، وقد تتابع الشعراء على محاكاة البردة، والنسج على منوالها حتى بلغَ مِنْ تراحمهم عليها أنْ أمسى حصرهم غير يسير^(١).

* ومن الجدير بالذكرِ هنا أنَّه تبدَّى لنا أنَّ البوصيري قد تأثرَ بميمية جميلة

(١) أحصى أحدُ الباحثين أنَّه قد وجدَ ما يزيد على مئةٍ معارضة للبردة، وقال: ما أحسبني حصرت إلا القليل.

أقول: وقد خَمَسَ هذه البردة أكثر من تسعينَ شاعراً، وبعضها مطبوع متداول بين الناس، وممن خَمَسَ هذه البردة شاعرتنا وضيفة حلقتنا عائشة الباعونية - رحمها الله - وسنقرأ بعضاً منها في ترجمتها.

سَبَقَتْ عصره بأكثر من نصف قرن من الزّمن، هذه الميمية شداً بها ابنُ الفَارَضِ^(١) قبل البُوصيري بزمانٍ طويل؛ ويبدو لي أنّ البوصيري قد سمعَ وقرأ وحفظَ ميمية ابن الفارض فتأثّر بها، وأعجبَ بمعانيها، فنحا نحوها في البحرِ والقافية، بل في كثيرٍ من الألفاظ والمعاني، ومن المُعتقد أنّ البُوصيري قد تتبّع أنفاسَ ابن الفارض، وتنسَمَ أريجَ أبياتِهِ، فإذا به يعارضُهُ في ميميته، فيبلغُ الشُّها، ويسخرُ الألباب، وينسى الناس ابنَ الفارض،

(١) «ابن الفارض»: شرفُ الدّين عمر بن علي بن مرشد الحموي الأصل المصري، يكنى بأبي حفص، ويُعرف بابن الفارض لاشتهار أبيه بإثبات فروض النّساء على الرّجال، قال المناوي المتوفى سنة (١٠٣١ هـ): ابن الفارض الملقب في جميع الآفاق بسلطان المحبين والعشاق، والمنعوت بين أهل الخلاف والوفاق، بأنّه سيّد شعراء عصره على الإطلاق. وُلد ابن الفارض في ذي القعدة سنة (٥٧٦ هـ) بالقاهرة، ونشأ تحت كنف أبيه في عفافٍ وصيانة، وعبادةٍ وديانة، بل زُهدٍ وقناعة، وورعٍ أسدلَ عليه لباسه وقناعه، ثم حُبِبَتْ إليه طرق الصّوفية، فأوغل فيها، فتزهدَ وتجرّدَ، وكان يرتاد المساجد المهجورة في خرابات المقابر، حتى أَلِفَ الوحشة وألفه الوحش، وذهب إلى مكة في غير أشهر الحج وأقام بها نحو (١٥ سنة) ثم عاد إلى مصر، فكان له الحظوة عند حكامها؛ ولابن الفارض قصائد حسنة، وقد اختلَفَ في شأنه واعتقاده. ورؤي في النوم فقيل له: لِمَ لا مدحتَ المصطفى ﷺ في ديوانك؟ فقال:

أرى كلّ مَدْحٍ في النَّبيِّ مُقْصِراً وإنّ بالغَ المثنى عليه وكثراً
إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدارُ ما يمدحُ الوري
وأراد بقوله: «أثنى بالذي هو أهله»: إشارة منه إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ويقال: إنّه لما نظم قوله:

وعلى تَفَتُّنٍ واصفيه بحسنه يفنى الزّمانُ وفيه ما لم يُوصفِ
فرحاً شديداً وقال: لم يُمدحْ ﷺ بمثله.

لابن الفارض ديوانٌ مطبوع، وتوفي في جمادى الأولى سنة (٦٣٢ هـ) بمصر، وعمره (٥٦ سنة)، ودُفِنَ بالمقطم. (وفيات الأعيان ٣/ ٤٥٤ - ٤٥٦) و(شذرات الذهب ٧/ ٢٦١ - ٢٦٨).

حيث شغلته ميمية البوصيري عنها؛ ولكي نعرف مدى تأثر البوصيري بابن
الفارض نقراً ما قال ابن الفارض في مطلع قصيدته:

هَلْ نَارٌ لَيْلَى بَدَتْ لَيْلًا بِذِي سَلَمٍ
أَمْ بَارِقٌ لَاحَ فِي الزُّورَاءِ فَالْعَلَمِ
أَرْوَحُ نَعْمَانَ هَلَّا نَسْمَةُ سَحَرًا
وَمَاءٌ وَجَرَةٌ هَلَّا نَهْلَةُ لَظَمِ

ومما يقابل معاني ابن الفارض وألفاظه في هذا المطلع لدى البوصيري
في برده حيث يقول في مطلعها:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بِذِي سَلَمٍ
مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمِ
أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تِلْقَاءِ كَاطِمَةٍ
وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلُمَاءِ مِنْ إِضْمِ

ويقول ابن الفارض:

يَا لَائِمًا لَأَمْنِي فِي حُبِّهِمْ سَفَهًا
كُفَّ الْمَلَامَ فَلَوْ أَحْبَبْتَ لَمْ تُلَمِ

نجد البوصيري يقابل هذا المعنى بقوله:

يَا لَائِمِي فِي الْهَوَى الْعَذْرَى مَعْدِرَةً
مَنِّي إِلَيْكَ وَلَوْ أَنْصَفْتَ لَمْ تُلَمِ
ونقرأ من قصيدة ابن الفارض قوله:

طَوْعًا لِقَاضٍ أَتَى فِي حُكْمِهِ عَجَبًا
أَفْتَى بِسَفْكِ دَمِي فِي الْحَلِّ وَالْحَرَمِ
أَصَمَّ لَمْ يَسْمَعْ الشُّكْوَى وَأَبْكَمَ لَمْ
يَحْزُ جَوَابًا وَعَنْ حَالِ الْمَشُوقِ عَمِي

فيتابعه البوصيري بقوله:

عَدْتُكَ حَالِي لَا سِرِّي بِمُسْتَتَرٍ
مَحْضَتْنِي التُّصَحُّ لَكِنْ لَسْتُ أَسْمَعُهُ
عَنِ الْوَشَاةِ وَلَا دَائِي بِمُنْخَسِمِ
إِنَّ الْمَحَبَّ عَنِ الْعُدَالِ فِي صَمَمِ

ولكن قصيدة البوصيري هي التي اشتهرت، حيث فيها أمشاج من
الأغراض، بداهة بالنسيب، ثم التحذير من هوى النفس، ثم مدح النبي ﷺ،
وعن مولده ومعجزاته وذكر القرآن الكريم، والإسراء والمعراج، والجهاد

والتَّوسُّلِ والمناجاة، بيد أن هدفها هو مدحُ النَّبِيِّ ﷺ.

* لذلك لم تَحْظَ قصيدةٌ في الأدب العربي بمثل ما حظيت به البردة، ولا توجد قصيدةٌ في الأدب العربي قد أُقبل عليها الخاصةُ والعامةُ، ورجالُ الأدب والدين بمثل ما أُقبل عليها؛ فقد أُقبل عليها المسلمون حفظاً ودراسةً ومعارضةً، وأولعَ بها الصُّوفيون ولعاً شديداً، وأمّا العامةُ فقد أخذوا يرددونها في كلِّ مناسبة، يتغنون بها وينشدونها ويعقدون لها المجالسَ والحلَق في المساجد، وفي الندوات الأدبية والعلمية وما شابه ذلك.

* لقد تتابع الشعراء في مختلف العصور على العناية بالبردة، تضميناً، وتشطيراً، وتخميساً، وتسبيحاً، وغير ذلك.

* ولعلَّ تشطيرَ البردة أكثرُ من أن يُحصى، ومنه تشطير الشاعر «رمضان حلاوة» حيث قال في مطلع تشطيره:

[أَمِنْ تَذْكَرِ جِرَانِ بَذِي سَلَمٍ] لِسْتُ ثَوْباً مِنَ الْأَشْوَاقِ وَالْأَلَمِ
أَمْ مِنْ عَيُونِ ظَبَاءٍ بِالْعَقِيقِ بَدَتْ [مزجتَ دمعاً جرى من مُقْلَةٍ بدم]
* وأمّا التخميسُ فقد شغل كثيراً من الشعراء، وأجادوا في هذا المضمار، وعددهم لا يكاد يُحصَرُ، ففي كلِّ عَصْرٍ نجدُ عشرات ممن تصدَّى لتخميسِ البردة. ومن الجدير بالذكر أن كثيراً من الشعراء المغمورين قد خمّسوا البردة، وأبدعوا في تخميسهم للبردة. وقد خمّسَ البردة ناصر الدين الفيومي، وأول قصيدته:

مَا بَالُ قَلْبِكَ لَا يَنْفَكُ ذَا أَلَمٍ مُذْ بَانَ أَهْلُ الْحِمَى وَالْبَانِ وَالْعَلَمِ
وَانْهَلَّ مَدْمَعُكَ الْقَانِي بِمَنْسَجَمٍ [أَمِنْ تَذْكَرِ جِرَانِ بَذِي سَلَمٍ]
مزجتَ دمعاً جرى من مُقْلَةٍ بدم]

* وأمّا ضيفتنا عائشة الباعونية، شاعرةُ البليغات، وبليغةُ الشاعرات، فقد أخذتُ بردةَ البوصيري رقعةً كبيرةً من شعرها، وراحت تُظهِرُ ما أوتيتُ من بلاغة، وما حبّأها الله من فصاحة، فأخذتُ تتفنّنُ في تخميسِ البردة بكلِّ ألوانِ البديع، وأطلقت على عملها هذا اسم: «القول الصحيح في تخميسِ بردة المسيح» وقالت في مطلعها:

كَتَمْتُ وَجْدِي فَأَضْحَى غَيْرَ مُكْتَتِمٍ بَمَدْمَعٍ عِنْدَمَيَّ اللَّوْنِ مُنْسَجِمٍ
وَقَالَ صَحْبِي وَوَجْدِي صَارَ كَالْعَلَمِ [أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بَذِي سَلَمِ
مزجت دمعاً جرى من مُقْلَةٍ بِدَمِ]

أَمْ مِنْ لَوَاعِجِ أَشْوَاقٍ مُبْلَازِمَةٍ أَمْ مِنْ شَجَوْنِ هَوَىِّ بِالْقَتْلِ حَاكِمَةٍ
أَمْ مِنْ سَيُوفِ مَلَامٍ فِيكَ كَالْمَةِ [أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاطِمَةٍ
وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ إِضْمِ]
أَزْكَى صَلَاةٍ تُنِيلُ الْقَصْدَ وَالطَّلْبَا مِنَ الْوَفَاءِ تُوْدِي بَعْضَ مَا وَجَبَا
وَتُشْهِدُ الْعَبْدَ مِنَ الْطَّافَةِ عَجَبَا [مَا رَنَحَتْ عَذَابَاتُ الْبَانِ رِيحَ الصَّبَا
وَأَطْرَبَ الْعَيْسَ حَادِي الْعَيْسِ بِالْتَّغْمِ]

وفي العصر الحديث برعَ شاعر يُسمى السَّيِّدُ عَبْدُ اللَّطِيفِ الصَّيْرَفِيِّ فِي
تَخْمِيسِ بَرْدَةِ الْبُوصَيْرِيِّ، وَقَدْ أَطْلَعْتُ عَلَى دِيْوَانِهِ الْمَطْبُوعِ فِي مِصْرَ،
وَاخْتَرْتُ مَطْلَعَ تَخْمِيسِهِ حَيْثُ قَالَ:

مَالِي أَرَاكَ أَخَا الْإِيْنَاسِ وَالسَّلَمِ أَصْبَحْتَ لِلْهَمِّ وَالْأَفْكَارِ فِي سَلَمِ
وَمَا لِمُنْسَكِبِ الْأَجْفَانِ كَالسَّلَمِ [أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بَذِي سَلَمِ
مزجت دمعاً جرى من مُقْلَةٍ بِدَمِ]

أَمْ طَارَ نَوْمُكَ مِنْ وَرْقَاءِ سَاجِجَةٍ غَنَّتْ فَهَامَتْ بِنَفْسِي مِنْكَ هَائِمَةٍ
وَلَيْسَتْ النَّفْسُ مِنْ هَمٍّ بِكَاطِمَةٍ [أَمْ هَبَّتِ الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ كَاطِمَةٍ
وَأَوْمَضَ الْبَرْقُ فِي الظُّلْمَاءِ مِنْ إِضْمِ]

وَأَمَّا تَسْبِيعُ الْبَرْدَةِ فَقَدْ تَبَارَى فِيهَا الشُّعْرَاءُ أَيْضاً، وَمِنْ سَبَّعَهَا: شِهَابُ
الدِّينِ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمَكِّيِّ، وَأَوَّلُ تَسْبِيعِهِ قَوْلُهُ:

اللَّهُ يَعْلَمُ كَمْ بِالْقَلْبِ مِنْ أَلَمٍ وَمِنْ غَرَامٍ بِأَحْشَائِي وَمِنْ سَقَمِ
عَلَى فِرَاقِ فَرِيقٍ حَلَّ فِي الْحَرَمِ فَقُلْتُ لِمَا هَمَّى دَمْعِي بِمُنْسَجِمِ
عَلَى الْعَقِيقِ عَقِيقاً غَيْرَ مُنْسَجِمِ [أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانِ بَذِي سَلَمِ
مزجت دمعاً جرى من مُقْلَةٍ بِدَمِ]

أَمَّا مَعَارِضَاتُ الْبَرْدَةِ فَلَا تَكَادُ تُحْصَرُ، وَلَعَلَّ السَّبَبَ فِي هَذَا لِمَا فِي الْبُرْدَةِ
مِنْ أَمْثَالٍ وَحَكَمٍ وَأَدْعِيَةٍ، وَسَرِدَ لكَثِيرٍ مِنْ صِفَاتِ النَّبِيِّ ﷺ وَمَا فِيهَا مِنْ

أخباره، ناهيك بمجالس الصُوفية التي جعلت من البردة نشيداً لها.

* ومن هنا تبلورت معارضات البردة في المشرق وفي المغرب، وكثرت بحيث يتعذر على الباحث أن يحصيها أو يحصرها بين دفتي كتاب.

* ولعلّ من أوائل الشعراء الذين عارضوا البردة ابنُ جابر الأندلسي^(١) الذي افتتنَ بفنّ البردة، وهامَ بها حبّاً، فشغل نفسه بمعارضتها، وابتكرَ فنّاً جديداً هو فنُّ «البديعيات» وذلك بأن تكون القصيدة في مدح رسول الله ﷺ، ولكن كل بيت من أبياتها يشير إلى فنّ من فنون البديع، وعدد أبيات بديعته (١٢٧) بيتاً، وتمتاز هذه البديعية بأن ابن جابر قد فصل بين ألوان البديع اللفظية والمعنوية، ولم يخلط بينهما، كما نحى المسائل المتعلقة باباب علم البيان عن بديعته، وأول بديعته قوله:

بِطَيْبَةِ انْزِلْ وَيَمَّمْ سَيِّدَ الْأُمَمِ وانشُرْ له المَدْحَ وانشُرْ أَطْيَبَ الْكَلِمِ
ومنها:

أَمَّا مَعَانِي الْمَعَانِي فَهِيَ قَدْ جُمِعَتْ فِي ذَاتِهِ فَبَدَتْ نَاراً عَلَى عِلْمِ
كَالْبَدْرِ فِي شَيْمٍ وَالْبَحْرِ فِي دِيمٍ وَالزَّهْرِ فِي نَعْمٍ وَالذَّهْرِ فِي نِقَمِ
* وهذه البديعية الحسنة قد شرحها صديقه أحمد بن يوسف أبو جعفر الإلبيري المتوفى سنة (٧٧٩ هـ)، وأثنى عليها بقوله: نادرة في فنّها، فريدة في حسنّها، تجني ثمرَ البلاغة من غصنّها، وتنهلُ سواكبَ الإجازة من

(١) «ابن جابر»: محمّد بن أحمد بن علي بن جابر الأندلسي أبو عبد الله الهواري المالكي النحوي الأعمى، رفيق أبي جعفر الرُّعيني، وهما المشهوران بالأعمى والبصير. وُلد ابن جابر سنة (٦٩٨ هـ) ونشأ على حبّ العلم وقرأ القرآن وتعلّم النحو، ودرس الفقه على أساتذته عصره، ورحل إلى مصر، ثم الشّام، واستوطن حلب، ثم رجع إلى الأندلس. ولابن جابر تصانيف ممتازة منها: شرح الألفية لابن مالك، وبديعية نظمها عال، كما له مصنّفات أخرى.

عمر ابن جابر حتى تجاوز الثمانين، وفي سنة (٧٨٠ هـ) توفي في البيرة وعمره (٨٢ سنة).

(الدر الكامنة ٣/ ٣٣٩ و ٣٤٠)، و(شذرات الذهب ٨/ ٤٦٢) مع الجمع والتصرف.

مُزْنَهَا، لَمْ يُنْسَجْ عَلَى مَنَوَالِهَا، وَلَا سَمَحَتْ قَرِيحَةً بِمِثَالِهَا.

* وممن عارض البردة أبو بكر تقي الدين الحموي، حيث أنشأها في (١٤٢ بيتاً)، وهي من البديعيات المشهورة، وشَرَحُهَا من أُمْتَعَ الشُّرُوح، قال في مطلعها:

لِي فِي ابْتِدَا مَدْحِكُمْ يَا عُرْبَ ذِي سَلَمٍ
بِرَاعَةٍ تَسْتَهْلُ الدَّمْعَ فِي الْعَلَمِ

ومنها:

جَمْعُ الْكَلَامِ إِذَا لَمْ تَفْنَ حِكْمَتُهُ وَجُودُهُ عِنْدَ أَهْلِ الذَّوْقِ كَالْعَدَمِ
وَاللَّهُ مَا طَالَ تَذْيِيلُ اللَّقَاءِ بِهِمْ يَا عَاذِلِي وَكَفَى بِاللَّهِ فِي الْقَسَمِ
* وعارض بردة البوصيري كذلك الشاعر الشهير صفي الدين الحلبي، ومعارضته مشهورة ومثبتة في ديوانه^(١)، وسَمَّاها: «الكافية البديعية في المدائح النبوية»، ويبدو أنَّ صفي الدين الحلبي هذا، قد راقه منامُ البوصيري، وراقت له أحداثه، فَنَسَجَ بديعته حسب رؤيا رآها - كما زعم - وخلاصة ذلك: أَنَّهُ قد عزمَ على تَأْلِيفِ كتاب في البديع يكون شاملاً، فاعترته عِلَّةٌ بَرَّحَتْ بِهِ، وأوهنت قُوَّتَهُ، فرأى في المنام رسالةً من المصطفى ﷺ يدعو فيه إلى مدحه!! فَعَدَلَ عن تَأْلِيفِ الْكِتَابِ، ونظمَ هذه البديعية التي أنشأها من (١٤٥) بيتاً، وتشتملُ على (١٥٠) نوعاً من البديع؛ وجعل كلَّ بَيْتٍ منها مثلاً شاهداً لذلك النوع، وربما اتفق في البيت الواحد نوعان أو ثلاثة بحسب انسجام القريحة في النَّظْمِ، وقد وصفَ الحلبي بديعته بقوله:

* وألْزَمْتُ نَفْسِي فِي نَظْمِهَا عَدَمَ التَّكْلُفِ، وَتَرَكَ التَّعَسُّفَ، وَالْجُرْيَ عَلَى مَا أَخَذْتُ بِهِ نَفْسِي مِنْ رَقَّةِ اللَّفْظِ وَسَهُولَتِهِ، وَقُوَّةِ الْمَعْنَى وَصَحَّتِهِ، وَبِرَاعَةِ الْمُطْلَعِ وَالْمُتَرَعِّعِ، وَحَسَنِ الْمَطْلَبِ وَالْمَقْطَعِ، وَتَمَكَّنَ قَوَافِيهَا، وَظَهَرَ الْقَوَى فِيهَا، بِحَيْثُ يَحْسِبُهَا السَّامِعُ غَفْلاً مِنَ الصَّنَائِعِ.

(١) طبعة دار صادر ببيروت عام ١٩٦٠م.

ثم إنه قال: فانظر إليها أيها الناقد الأديب، والعالم اللبيب، إلى غزارة
الجمع ضمن الرياقة في السمع، فإنها نتيجة سبعين كتاباً لم أعد منها باباً،
فاستغن بها عن حشو الكتب المطولة، ووغر الألفاظ المغلقة:
وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيْرَ صَوْتِي فَإِنِّي أَنَا الطَّائِرُ المحكي والآخِرُ الصدى
وأعوذ بالله من أن أكون ممن زكى نفسه، أو مدح نفسه وحده. ثم إن
صفي الدين بدأً بديعته بهذا المطلع فقال:
إِنْ جِئْتَ سَلْعاً فَسَلْ عَنْ جِئْرَةِ الْعَلَمِ
واقِرَ السَّلامِ على عُزْبٍ بذِي سَلَمٍ

ومنها قوله:

فقد ضمنت وجود الدمع من عدم لهم ولم أستطع مع ذاك منع دمي
أبيت والدمع هام هامل سرب والجسم في أضم لحم على وضم
* وممن تصدى لمعارضة بردة البوصيري، وبردة صفي الدين الحلبي،
ذلك الفحل الشاعر زين الدين شعبان بن محمد القرشي الأثاري الموصلية
أصلاً ومولداً، المصري داراً ومدفناً^(١)، وقد نسب للأثار النبوية الشريفة لأنه
كان خادماً لها، وإلى هذا أشار في قوله من بديعته الكبرى:
لأنني خادِمُ الآثارِ لي نَسَبُ أرْجُو به رَحْمَةُ المَخْدُومِ للخادم
وللآثاري ثلاث قصائد بديعيات: صغرى، ووسطى، وكبرى، فالصغرى
سمّاها «بديع البديع في مديح الشّفيع ﷺ»، وتقع في (١٦٠) بيتاً نظمها عام
(٨١٠ هـ)، وقال في مقدمتها الطويلة، بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى
على النبي الكريم:

أما بعد؛ فهذه قصيدة بديعية في علم البديع، مدحت بها حضرة الجناب
الرفيع، عارضت بها من عارض من أهل الحلة، وهو عبد العزيز بن سرايا،
لكن فاقته على قصيدته بما فتح الله به من مزيد العطايا، لأنه تكلم في علم

(١) ولد الآثاري سنة (٧٦٥ هـ) ومات سنة (٨٢٨ هـ) وعمره (٦٣) سنة؛ (شذرات
الذهب ٩/ ٢٦٧).

البديع بالغريب، وسكتَ عن مهمّات لو ظفّرَ بها لأتى بالعجيب، فخالَفَ في ترتيبه، ولم ينصَحْ في تركيبه، وادعى أنّها بُنِتْ سبعينَ كتاباً من كُتُبِ المعاني والبيان، مع ما فيها من الزيادة والتقصان؛ ثم مشى على منهاجه إلى وقتنا هذا عام (٨١٠ هـ) جيلٌ بعد جيل، اشتغلَ بهذا العلم، ومن ليس هو من هذا القبيل، فركبَ خطراً كبيراً، وأتعبَ بشراً كثيراً:

وَكُلُّ يَدْعُونَ وَصَالَ لَيْلَى وَلَيْلَى لَا تُقِرُّ لَهُمْ بِذَاكَ

لكنَّ الطَّمَعَ في رحمةِ بديع السَّمَوَاتِ والأَرْضِ، يعمُّ الجميعَ بمدح الشَّفيعِ في دار الدُّنْيَا ونهار العرض، فاستدركَ أيُّها الطالبُ لَغْدَ ما فَاتَكَ في أَمْسِكَ، وإن شئتَ أَنْ تحظى بنفع نفسك قبل يوم رمسك، فأمسكْ بديعةٍ مطيعةٍ سَهْلَ الوضعِ حَمَلَهَا، ونافعةٍ جامعةٍ إِنَّ حواها أَهْلُ الأَدَبِ كانوا أَحَقَّ بها وأهلها:

تُدْعَى بَدِيعُ البَدِيعِ مِنْ مَحَاسِنِهَا وَفِي مَدِيحِ الشَّفِيعِ أَبَدَتِ الْعَجَبَا
تحتوي على خلاصة ما في المصنّفات من المحاسن والمفاخر، وتغني
إِنْ شاء الله عن تصانيف الأوائل والأواخر:

تُغْنِي عَنِ الْمَصْبَاحِ فِي غَسَقِ الدُّجَى
وَبِفَتْحِهَا أَغْنَتْ عَنِ الْمِفْتَاحِ

* ثم يتحدّث الآثاري عمّا حباه الرّسول ﷺ من إشارة في منامه كانت وراء نظم بديعيته:

وَهَذَا بِحَمْدِ اللَّهِ بَعْدَ إِشَارَةٍ	ظَفِرْتُ بِهَا فِي النَّوْمِ مِنْ سَاكِنِ الْحَرَمِ
كَسَانِي يَدًا بِيضَاءَ مِنْهُ تَفْضُلًا	فَأَصْبَحْتُ مُحْشودًا عَلَى فَائِضِ النَّعَمِ
أَتَيْتُ بِنَظْمِ الدُّرِّ فِي مَدْحِ أَحْمَدِ	بِمَكَّةَ جَارًا عِنْدَ بَيْتِ وَمُلْتَزِمِ
وَيُسِّرَ لِي مَا كَانَ قَبْلُ مُعَسِّرًا	فَلَوْلَا أَيْادِيهِ لَمَا عُرِفَ الْكَرَمِ
وَالَا فَلَيْسَ الْأَمْرُ سَهْلًا لَطَالِبِ	وَدُونَكُمْ هَذَا الْمَدَادُ وَذَا الْقَلَمِ

ثم إِنَّ الآثاري يَخْتُمُ مقدمته بقوله: فَأَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ الَّذِي لَا تَنْفَعُهُ الطَّاعَةُ، وَلَا تَضُرُّهُ الْمَعْصِيَةُ وَلَا الْإِضَاعَةُ، أَنْ يَهَبَ مَسِيئَنَا لِمَحْسِنِنَا، وَأَنْ يَغْفِرَ لَنَا مَا جَنَّتْهُ حَصَائِدُ أَلْسِنَتِنَا، وَأَنْ يَرْفَعَ بَيْنَنَا، وَأَنْ يَجْمَعَ بَيْنَنَا، وَأَنْ

يجعلها وسيلة إلى شفاعة الرسول، وسبباً إلى بلوغ المأمول، وأن يشملها وناظمها وقارئها بحسن القبول^(١).

وقد افتتح الآثاري هذه القصيدة بقوله:

إِنْ جِئْتَ بَدْرًا فَطَبِّ وَأَنْزِلْ بِذِي سَلَمٍ
سَلَّمَ عَلَى مَنْ سَبَا بَدْرًا عَلَى عِلْمٍ

ومنها قوله:

فَاحْمَدُهُ وَامْدَحْهُ تَظْفَرُ بِالْأَمَانِ فَكَمْ
هَذَا نَبِيٍّ نَبِيَّهُ عَنْ شَرِيعَتِهِ
لَأَحْمَدَ الْمُصْطَفَى مِنْ حَامِدٍ بِفَمٍ
سَدَّ الرَّدَى ثُمَّ سَنَّ الشَّرْعَ لِلْأُمَمِ

وفيهما يذكر الخلفاء الراشدين الأربعة:

كَالْبَدْرِ بَيْنَ نُجُومٍ مِنْ صَحَابَتِهِ
مَحَمَّدٌ وَأَبُو بَكْرٍ وَقُلُّ عُمَرُ
عَلَى سَحَابَتِهِ قَدْ لَاحَ فِي الظُّلَمِ
عُثْمَانُ ثُمَّ عَلِيٌّ صَاحِبُ الْهَمَمِ
صِدْقٌ وَصِدِّيقُ الْفَارُوقُ ثَالِثُهُمْ
ثُمَّ الشَّهِيدُ مَعَ الْمَنْعُوتِ بِالْكَرَمِ

وختمها بقوله:

مَا قَصَرَ الْفِكْرُ فِي نَظْمِ الْبَدِيعِ بَلَى
عَلَيْهِ أَرْكَى صَلَاةٍ دَائِماً أَبَدًا
قَصَّرتُ فِي مَدْحِ خَيْرِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
وَالْأَلِ وَالصَّحْبِ فِي بَدْءٍ وَمُخْتَمٍ

أما البديعية الوسطى فقد سماها الآثاري باسم: «بديع البديع في مدح الشفيع»، وصرح باسمها ضمن أبياتها حينما قال:

هَذَا بَدِيعُ الْبَدِيعِ الْمَخْ مَحَاسِنُهُ
وَفِي مَدِيحِ الشَّفِيعِ أَذْكَرُهُ تَغْنِمْ^(٢)
وذكر بأنه نظمها ليلة النصف من شعبان في سنة (٨٠٧ هـ)، وعدد

أبياتها (٣١٠) أبيات؛ وصدر هذه البديعية بمقدمة موجزة جداً قال إنه:
يمدح النبي ﷺ مضمناً من معاني البديع ما قدر على الوصول إليه، ثم إنه بدأها بقوله:

(١) انظر: بديعيات الآثاري (ص ١٩ - ٢٢) بشيء من الاختيار والاختصار.

(٢) انظر: بديعيات الآثاري (ص ٩٤).

دَعَّ عَنْكَ سُلْعًا وَسَلَّ عَنْ سَاكِنِ الْحَرَمِ
وَحَلَّ سَلْمَى وَسَلَّ مَا فِيهِ مِنْ كَرَمِ

واختتمها بقوله :

صَلَّى وَسَلَّم رَبِّي دَائِمًا أَبَدًا عَلَيْهِ فِي مُبْتَدَأِ مَدْحِي وَمُخْتَمَمِي
* وتقعُ بديعية الآثاري الكبرى في (٤٠٠) بيت، وسمّاها «العقد البديع في مديح الشّفيع»، وتعتبر أطول بديعية عُرفت حتى تاريخ نظمها في شهر ربيع الأوّل سنة (٨٠٩ هـ)، وافتتح الآثاري بديعيته الكبرى بقوله : الحمد لله البديع الكلام، الرفيع المقام، أحمده على جليل نعمه، وأشكره على جليل كرمه ومنها : وأشهد أن سيّدنا محمّداً عبده ورسوله، المبعوث بين زمزم والحطيم، بالخلق الوسيم، والخلق العظيم، والقلب السليم، والمنطق النّظيم، واللسان القويم، والفضل العميم .

* وأشار الآثاري بعد ذلك إلى أنّه استخار الله - عزّ وجلّ - في نظم هذه البديعية فقال : فاستخرتُ الله تعالى في نظم قصيدة خامسة^(١)، تكون عُدّة لأهل المناقشة والمنافسة، وعمدة يُعتمدُ عليها في تحرير المسائل، وباذلة يقفُ على أبوابها كلُّ طالبٍ تقرير وسائل، يتصوّعُ نشرها بين الأنام، وتقومُ في مقام المسك عند الختام، تستوعبُ من أصولِ الفصاحة والبلاغة أقصاها، بجمع لا يغادرُ صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، أضمنّها مهماتِ علمِ البديع، وأضمنّها بمديح المليح الشّفيع، إذا قرأها المبتدي يهتدي، وإذا طالعها المنتهي يشتهي أنّه بها يقتدي . . . تكون كنزاً للحافظ، وحجةً في لسانِ اللاّفظ، ومرشدةً للمُقري^(٢) والخطيب، ومعونةً للمفسّر والأديب . . . جامعةً لأهل الأدب، نافعةً المعاني بتيسير ما طلب، ترتيبها لم يُسبق إليه، وتركيبها لم يقف واقف عليه :

(١) «خامسة» : ليس المقصود بها العدد خمسة، وإنما يقصد بها الآثاري بأنها غنية بألوان المعرفة - والله أعلم - .

(٢) «المقري» : المقصود بها المقريء، قارئ القرآن .

يَكَادُ يُفْهَمُ مِنْ مُبْدَأِ بَرَاعَتِهَا

حُسْنُ الْخِتَامِ لِتَقَرُّبٍ وَإِجَازِ

ويذكر الآثار ما في بديعته من أشياء تشغل من طلب بديعة صفي الدين الحلي، وابن جابر، وغيرهما، فيقول عنها بأنها: تَشْغُلُ طَلَابَ (الصَّفِي) بصفائها من الكدر، وتجبر مكاسير (ابن جابر) بطول أنواعها من ذلك القصر، وتصل مقاطيع (الموصلية) حيث عزّ الموصل عن إدراك المعاني الغالية، وتُسَفِّلُ حُجَّةَ الْقَائِمِينَ (بابن حجاج) في قصيدته وإن كانت معروفةً بالعالية؛ تعجب الناظر، وتشرح الخاطر، وتفرّج عن القلب المحزون، بدرها المكنون، وكلامها الموزون، تَسْتَحْسِنُ بديع صنعتها أرباب العقول، وتسترشد قولها لهم حيث تقول:

قُلْ لِلصَّفِيِّ وَمَنْ أَتَى مِنْ بَعْدِهِ وَمُعَاصِرِي فِي ذَا الزَّمَانِ وَمَنْ بَلَى
أَتَعَبْتَ نَفْسَكَ يَا قَطِيعَ الْقَلْبِ فِي عِلْمِ الْبَدِيعِ وَلَا وَصَلْتَ لِمَوْصِلِي

وذكر الآثار أنه لما أراد الشروع في نظم هذا العقد البديع، وجد الفكر غير قابل أن يطيع، فمكث قريب السنة، والقلب والفكر في غفلة وسنة، فوقف على باب الله تعالى خاشعاً باكياً متضرعاً داعياً، حتى رأى في المنام النبي ﷺ، وقد جعل له ساعداً أبيض غير ساعده اليمين الأول . . . فأصبح فرحاً مسروراً، وعلى جيش القوافي مؤيداً منصوراً، وفتح الله عليه بالعرض المطلوب، وجاءت في أربعمئة بيت من البديع لم يُسمع بمثلاً:

فَقُلْ لِأَهْلِ الْمَعَانِي إِنَّ يَكُنْ لَكُمْ أَوْ عِنْدَكُمْ مِثْلُ مَا فِي جَمْعِهَا هَاتُوا
ولشدة إعجاب الآثار ببديعته يقول عنها: فأعيذها بقل هو الله أحد، من شر حاسد إذا حسد، هذا ولسان التقصير قصير، عن نظم معاني البشير النذير:

وَسَمَّيْتُهَا الْعِقْدَ الْبَدِيعَ لِأَنَّهَا جَوَاهِرُ فِي مَدْحِ الشَّفِيعِ نَظْمُهَا^(١)
وقد بدأ الآثار قصيدته بقوله:

(١) انظر: بديعيات الآثار (ص ١٠٣ - ١٠٧) بشيء من الاختصار والتصرف.

حُسْنُ الْبَرَاعَةِ حَمْدُ اللَّهِ فِي الْكَلِمِ
وَمَدْحُ أَحْمَدَ خَيْرُ الْعُزْبِ وَالْعَجَمِ
وفي غضونِ البديعية يأتي الآثارُ ببدائع الكلام، ويدلي دلوهُ في فنِّ
النَّظَامِ، ويدلُّ على تمكُّنِهِ من اللغة والبيان، اقرأ قوله من وسطِ بديعيته :
تَقَسَّمَ الْمَدْحُ لِلْمَدَّاحِ فِيهِ عَلَى قَطْعٍ وَوَصْلٍ وَتَجْرِيدٍ وَمُتَعَجِّمٍ
ثم يتحدثُ في مديحه عن القَطْعِ، وهو الأحرف المقطعة غيرِ الموصولة
ببعضها، فيقول :

دَوَاءٌ دَائِي وَرُودِي دَارِ ذِي أَرْبٍ وَدَعْ زُرُوداً وَذَرْ زَوْرَاءَ ذِي أَرَمٍ
وبعدها يتحدثُ عن وصلِ كلِّ حرفين مع بعضهما :
مُؤَيِّدٌ ظَاهِرٌ لَاحِتٌ سَرِيرُهُ عَنْ كُلِّ فَنٍّ غَرِيبٍ مِنْ بَدِيعٍ فَمٍ
ثم يتحدثُ عن وصلِ كلِّ ثلاثة أحرف :
بَحْرٌ بِسَاحِلِهِ فَيْضٌ لِسَائِلِهِ

فَسَلْ تَنْلُ خَيْرَ خَمْسٍ تَمْسِ غَيْرَ ظَمِي
وبعدها يتحدثُ عن وصلِ كلِّ أربعة أحرف :
مُحَمَّدٌ مُكَمَّلٌ بِخَيْرٍ مَتَّصِفٍ مُجَمَّلٌ مُخْبِرٌ بِغَيْرٍ مُتَّهَمٍ
ومن ثم يتحدثُ عن وصلِ كلِّ خمسة أحرف :
يَعْلَمُهُ نَقْتَقِي تَيْسِيرَ مَنَهْجِهِ بِحِلْمِهِ نَكْتَقِي تَعْسِيرَ مُعْتَنَمٍ

وبعد ذلك يأتي بالأحرفِ المهملة غيرِ المنقوطة فيقول :
عَدُوُّهُ مُهْمَلٌ عَارٍ وَصَارَ لَهُ عَارٌ وَمَا لَاحَ إِلَّا وَهُوَ كَالْعَدَمِ
ويتلوه بأحرفِ معجمة منقوطة فيقول :

زَيْنٌ تَقِي نَقِي بَيْنٌ شَفِيقٌ غَيْثٌ نَبِي نَجِيبٌ فَيْضٌ ضَيْفٌ فَمٍ
وقد أتى الآثارُ في هذه البديعية بالعجبِ العُجَابِ، وأظهر براعته في
فَصْلِ الْخَطَابِ، ثم ختمها بقوله :

كُلُّ الْمَدَائِحِ وَالْمَدَّاحِ فِي قِصَرٍ وَلَوْ أَطَالُوا لَمَالُوا نَحْوَ عَجْزِهِمْ
لَا أَخْتَشِي مَقْطَعاً فَالْفُضْلُ مَتَّصِلٌ بِمَدْحِ أَحْمَدَ فِي نَثْرِ وَمُنْتَظَمٍ

صَلَّى وَسَلَّم رَبِّي دَائِمًا أَبَدًا
عليه في المُبْتَدَأِ مع حُسْنِ مَخْتَمِي

* وممن عارض بردة البوصيري
أبو عبد الله محمد بن علي الهواري المالكي المتوفى سنة (٧٨٠ هـ)، وأول
قصيدته:

بِطَيْبَةِ أَنْزِلْ وَيَمِّمْ سَيِّدَ الْأُمَمِ وَأَنْشُرْ لَهُ الْمَدْحَ وَأَنْشُرْ أَطْيَبَ الْكَلِمِ

* وكذلك عارضها علي بن الحسين بن علي أبي بكر محمد بن أبي الخير
الموصلِي المتوفى سنة (٧٨٩ هـ)، وعدد أبياتها (١٤٥ بيتاً)، ويقول في
مطلع قصيدته التي تعتبر من عيون البديعيات:

بِرَاعَةٍ تَسْتَهْلُ الدَّمْعَ فِي الْعَلَمِ عِبَارَةٌ عَنْ نِدَاءِ الْمُفْرَدِ الْعَلَمِ

* والموصلِي هو أول من التزم التورية باسم النوع البديعي في كل بيت
من بديعيته، وقد شرحها بنفسه وسمّاها: «التَّوَصَّلُ بالبديع إلى التَّوَسُّلِ
بالشَّفيع».

* ومن بدائع البديعيات، بديعية شرف الدين عيسى بن حجاج السَّعْدِي
المصري الحنبلي المتوفى سنة (٨٠٧ هـ)، فقد كان فاضلاً في النحو
واللغة، وله النَّظْمُ الرَّاتِقُ، أمّا بديعيته في مدح النبي ﷺ فهي تختلف عن
بردة البوصيري من حيثُ القافية، فقد اختار لبديعيته حرف الرّاء، ونسجَ
عليه بديعيته ومطلعها:

سَلْ مَا حَوَى الْقَلْبُ فِي سُلْمَى مِنَ الْعِبَرِ
فَكَلَّمَا خَطَرْتُ أَمْسَى عَلَى خَطَرٍ^(١)

* وممن عارض بردة البوصيري، وبردة صفي الدين الحلّي، شمس
الدين محمد بن خليل بن أبي بكر الحلبي الأصل، الغزي القدسي المتوفى

(١) انظر: الضوء اللامع (١٥١/٦)، وشذرات الذهب (١٠٩/٩).

في رجب سنة (٨٤٩ هـ)، وكان مقرئاً بارعاً، صاحب فضائل؛ قال في أوّل بديعيته:

عَجَبِي عِرَاقِي فَعُجْ بِي نَحْوَ ذِي سَلَمٍ
وَاجْنَحْ لِسَاكِنَهَا بِالسَّلَمِ وَالسَّلَمِ
ومنهم جلال الدين الشُّيُوطِي المحقِّق المدقق صاحب المؤلَّفاتِ الفائقةِ
النَّافعةِ المتوفى في (١٩) جمادى الأولى من سنة (٩١١ هـ)، وقد استهلَّ
بديعيته بقوله:

مَنْ الْعَقِيقِ وَمَنْ تَذْكَارِ ذِي سَلَمٍ
بَرَاعَةُ الْعَيْنِ فِي اسْتِهْلَالِهَا بِدَمٍ
وقد شرح الشُّيُوطِيُّ بديعيته شرحاً لطيفاً وسماها: «نظم البديع في مدح الشَّفيع».

وممن عارضَ البردةَ ضيفهُ حلقتنا عائشة الباعونية، ولنا عودة إليها في
نهاية هذا الفصل إن شاء الله لنبحر معها في بحارِ معانيها، ونستحلي ألفاظِ
مغانيها، ونستجلي عرائسَ مبانيتها.

وممن عارضَ البردةَ عبدُ الرحمن بنُ أحمدَ الحُمَيْدي المتوفى سنة
(١٠٠٥ هـ)، ومطلع برده التي أطلقَ عليها اسم: «تمليح البديع بمدح
الشَّفيع»:

رَدُّ رُبْعَ أَسْمَا وَأَسْمَى مَا يُرَامُ رَمٍ
وَحَيٍّ حَيًّا حَوَاهَا مَعْدُنُ الْكَرَمِ
ومنهم: السيّد علي خان المتوفى سنة (١٠١٨ هـ)، فقد أنشأ بديعيّةً
لطيفةً، وشرحها شرحاً جميلاً وسماها: «أنوار الرّبيع في أنواعِ البديع»،
ومطلع بديعيته:

حَسَنُ ابْتِدَائِي بِذِكْرِي جِئْرَةَ الْحَرَمِ
لَهُ بَرَاعَةُ شَوْقِي يَسْتَهْلِلُ دَمِي
وممن مدَّ باعَ اليراعِ في هذا المجال من علماء وأدباء القرن الحادي عشر

الهجري، الأديب الشيخ عبد القادر محمد مكي الشافعي المتوفى في سنة (١٠٣٢ هـ)، فقد قال في مطلع بديعته الرائعة:

حُسْنُ ابْتِدَاءٍ مَدِيحِي حَيِّ ذِي سَلَمٍ
أُبْدَى بَرَاْعَةَ الاسْتِهْلَالِ فِي الْعَلَمِ
* ولشدة شغف الشيخ عبد القادر بهذه البديعية قام بشرحها، وأودع فيها ما حباه الله من معرفة، ونوه إلى بديعية ابن حجة، وأنه تحطأه بمراحل بلاغية وسمّاها: «عليّ الحجة بتأخير أبي بكر بن حجة».

* ومنهم أحمد بن محمد المقرئ التلمساني المتوفى سنة (١٠٤١ هـ) الذي أنشأ بديعية جميلة تسحر الألباب، بمعانيها العذاب، وقال في مطلعها:
شَارَفْتُ ذُرْعاً فَذَرَعَيْنِي وَمَا وَجَدْتُ مِنْ الشُّجُونِ عَلَى حَيِّ بَذِي سَلَمٍ
* أمّا الشيخ محمد بن عبد القادر حكيم زاده، فقد طابث له معاني البردة، وتأثر بمن سبقه، فنظم بديعتين، قال في أولهما:
حُسْنُ ابْتِدَائِي بِذِكْرِ الْبَانَ وَالْعَلَمِ جَلًا لِمَطْلَعِ أَقْمَارِ بَذِي سَلَمٍ
* وأمّا البديعية الثانية؛ فقد أطلق عليها اسم «اللمعة المحمدية في مدح خير البرية» قال في مطلعها:

إِنْ رُمْتُ صَنْعاً فَصُنْ عَنْ مَدْحِ غَيْرِهِمْ
يَا قَلْبُ سِرّاً وَجَهراً جَوْهَرَ الْكَلِمِ

* ومنهم: أبو الوفا الحلبي، وأول بديعته قوله:
بَرَاْعَةٌ فِي ابْتِدَاءِ نَوْحِي بَذِي سَلَمٍ قَدْ اسْتَهَلَّتْ لِدَمْعِ قَاصِرِ كَالْعَلَمِ
* وجاء بعد ذلك العالم الأديب عبد الغني بن إسماعيل النابلسي الدمشقي المتوفى سنة (١١٤٣ هـ)، فأدلى دلوه بين دلاء أصحاب البديعيات، فاعترف من بحار اللغة، وأتى بأصداف العجائب وجواهر الألفاظ، ولؤلؤ المعارف، وصاغ بديعية حسنة، كالعقد في جيد الغيداء، قال في أولها:

يَا مَنْزَلَ الرُّكْبِ بَيْنَ الْبَانَ وَالْعَلَمِ مِنْ سَفْحِ كَاطِمَةِ حُيَّيْتِ بِالْدِّيمِ
* وقد شرح النابلسي بديعته شرحاً رائعاً وسمّاها: «نفحات الأزهار على

نسمات الأسحار في مدح النبي المختار»، وهذه البديعية مطبوعة ومتداولة بين عشاق هذا الفن، وقد أودع النابلسي فيها معارفه وعلومه، وأتى بألوان البديع ومنها؛ التأريخ لنظمه البديعية وقال: وقد انفردت بذكر هذا النوع في فن البديع، ولم يذكره أحد من أصحاب البديعيات ولا غيرهم^(١).

* وفي حلبة التسابق البديعي يأتي الشيخ قاسم بن محمد البكرة الحلبي المتوفى سنة (١١٥٦هـ) فيطلع علينا في بديعية حلوة عارض فيها بردة البوصيري، جاء في مطلعها:

مِنْ حُسْنِ مَطْلَعِ أَهْلِ الْبَانَ وَالْعَلَمِ
بَرَاعَتِي مُسْتَهْلٌ دَمْعُهَا بِدَمِي

وقد شرحها وسَمَّاها: «حلية البديع في مديح الشفيح».

* ومن المتسابقين أيضاً في هذا المضمار؛ السيد حسن بن مير رشيد الرضوي الهندي المتوفى سنة (١١٥٦هـ)، فاستهل معارضته بقوله:

حَيِّ الْحَيَا عَهْدِ أَحْبَابِ بَذِي سَلَمِ
وَمَلْعَبِ الْحَيِّ بَيْنَ الْبَانَ وَالْعَلَمِ

* وممن عارض البردة من المعاصرين الشيخ أحمد بن محمد الحملوي صاحب كتاب الصرف المشهور: «شذا العرف في فن الصرف»^(٢)؛ والحملوي ولد سنة (١٢٧٤هـ)، وتوفي سنة (١٣٥١هـ)، وتمتاز معارضته باقتباس كثير من أبياتها من آيات القرآن العظيم ومنها:

(١) انظر: نفحات الأزهار (ص ٣٣٩)، وقد وهم الشيخ عبد الغني النابلسي في هذا الزعم، فقد سبقه الآثاري إلى هذا الفن بقرون، بل إن الآثاري سبق جميع أصحاب البديعيات في هذا المجال حيث قال:

بَدِيعُ الْبَدِيعِ قَدْ سَمَا عَدَدًا فِي عَامِ يَوْمِ ضَحَى مِنْ مَفْرَدِ الْعَلَمِ
فِعْبَارَةٌ «سَمَا عَدَدًا» تَسَاوِي فِي حِسَابِ الْجُمْلِ (١٦٠)، وهذا هو عدد أبيات بديعية الآثاري.

(٢) حقق هذا الكتاب صديقنا الأستاذ: يوسف علي بديوي، وطبع في دار ابن كثير بدمشق أكثر من مرة.

يَا غَافِرَ الذَّنْبِ مِنْ جُودٍ وَمَنْ كَرَّمَ
وَمُسْبِلِ السَّيِّئِ إِحْسَاناً وَمَرْحَمَةً عَلَى الْعُصَاةِ بَفِضِ الْفَضْلِ وَالْكَرَمِ

* ومن الشعراء المعاصرين يبرز نجم الشاعر محمد بن عبد المطلب المولود سنة (١٢٨٨ هـ)، والمتوفى سنة (١٣٥٠ هـ)، كان جزل الشعر، ذا أصالة، ولذلك كان يلقب بـ «شاعر البادية»، وأحب محمد عبد المطلب أن يتفياً في ظلال البردة، فأنشأ قصيدة عارض بها البردة، وعدد أبياتها (١٢٣ بيتاً) وسماها: «ظل البردة» وأظهر فيها ما أوتي من علم وثقافة إسلامية ولغوية، ومطلع بردته قوله:

أَغْرَى بِكَ الشَّوْقُ بَعْدَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
سَارِ طَوَى الْبَيْدِ مِنْ نَجْدٍ إِلَى الْهَرَمِ
* وممن نهج في هذا الفن الشاعرة عائشة التيمورية^(١)، إذ أدلت دلوها، فقالت في مطلع بردتها:

أَعْنُ وَمَيْضِ سَرَى فِي حُنْدَسِ الظُّلَمِ
أَمْ نَسَمَةٌ هَاجَتْ الْأَشْوَاقَ مِنْ إِضْمِ

* ومنهم: محمد بن عبد الله بن بليهد المولود بنجد سنة (١٣١٠ هـ)، والمتوفى في لبنان سنة (١٣٧٧ هـ)، قال في مطلع بردته:
دَنَا الرَّحِيلُ فَوَدَّعَ حَبِيزَةَ الْهَرَمِ وَاتْرَكَ زَمَامَ دُمُوعِ الْعَيْنِ إِنْ تَهَمِ
* ومنهم: محمود سامي البارودي المولود بمصر في (٢٧ رجب) من سنة (١٢٥٥ هـ)، والمتوفى في (٦ شوال) سنة (١٣٢٢ هـ)، إذ عارض البردة ببردة رائعة قال في مطلعها:

يَا رَائِدَ الْبَرْقِ يَمُمُ دَارَةَ الْعَلَمِ وَاحْذُ الْغَمَامَ إِلَى حَيِّ بَذِي سَلَمِ
* ومنهم: أحمد محفوظ، وسمى بردته «بردة محفوظ» ومطلعها:
قَلْبٌ تَقَسَّمَ بَيْنَ الْبَثِّ وَالْأَلَمِ بَادِي الصَّبَابَةِ مِنْ شَوْقٍ وَمِنْ ضَرَمِ

(١) اقرأ سيرة عائشة التيمورية ومدائحها النبوية في هذا الكتاب، فقد ذكرنا فصلاً ضافياً عن هذا المجال خلال الحديث عنها.

* ومنهم: محمود جبر الذي يُدعى شاعر آل البيت، فله بردة عدد أبياتها (١٥٩ بيتاً) ومطلعها:

وَرَقَاءُ مَكَّةَ بَيْنَ الْبَنَانِ وَالْعَلَمِ نَاحَتْ فَأَذَكْتُ بِقَلْبِي لَاعِجَ الضَّرَمِ
ثُمَّ جَاءَ أَحْمَدُ شَوْقِي الْمَتَوَفَى سَنَةَ (١٩٣٢ م)، وعارض بردة البوصيري
بردة سمّاها: «نهج البردة»، وقد طارت في سماء الشهرة تسعى على ساق بلا
قدم، وعرفها الخاص والعام، وكُتِبَ لها القبول بين عالم الأدباء في أنحاء
الأرض، وجاء في مطلعها:

رَيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَنَانِ وَالْعَلَمِ أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ^(١)
وقد أحبّ الأدباء على مستوى العالم الإسلامي هذه القصيدة لجمالها،
وانسياب معانيها، وجمال كلماتها، لذلك تسابق الأدباء والبُلغاء إلى تحميسها،
ومن أبدع ما قيل في تحميسها هذا النظم لأحد البلغاء:

لَمَّا عَشِقْتُ حَبِيبَ الْقَلْبِ مِنْ قَدَمِ أَنْوَارِهِ قَدْ مَحَتْ عَنَّا دُجَى الظُّلَمِ
سُيُوفُ الْحَاطِظِ تَشْفِي مِنَ السَّقَمِ (رَيْمٌ عَلَى الْقَاعِ بَيْنَ الْبَنَانِ وَالْعَلَمِ
أَحَلَّ سَفْكَ دَمِي فِي الْأَشْهُرِ الْحَرَمِ)

فِي لَيْلَةِ الْأَنْسِ حَقّاً قَدْ بَدَأَ قَمَرٌ وَطَابَ فِي رَوْضَةِ الْمَحْبُوبِ لِي سَمَرٌ
وَزَالَ مَنْ فَضَّلِهِ مَنْ قَلْبِنَا كَدَرٌ (يَا لَائِمِي فِي هَوَاهُ وَالْهَوَى قَدَرٌ
لَوْ شَفَكَ الْوَجْدُ لَمْ تَعْدِلْ وَلَمْ تَلَمْ)

وإنني أستمحُ القاريءَ الكريمَ عذراً، فلعلي قد أطلتُ الحديث عن البردة
ومعارضاتها، بيد أن عذري في ذلك أن وجدتُ فوائد كثيرة في ذلك، وجمعتُ
معلومات ذات قدر وقيمة في هذا المجال لم تُجمَع من قبل - على ما أعتقد -
حيثُ فيها معارف متنوعة، وفوائد قيمة مهمة.

ونعودُ الآن إلى ضيفةِ حلقتنا عائشة الباعونية، وإلى مدائحها النبوية، وإلى
بديعيتها البديعة، التي نظمتها سنة (٩٢١ هـ)، والتي بلغت (١٢٧ بيتاً)،
فيها (١٢٩) نوعاً من أنواع البديع، وتدكُّ على علو همتها في هذا المجال

(١) انظر: الشوقيات (١/ ١٩٠).

اللطيف، وقد ابتدأت بديعيتها بمقدمة شافية جميلة تدلُّ على تمكنها من ذِوَابَةِ
 البلاغة وناصية الكلام، لتجلوه لذويه، قالت رحمها الله: بسم الله الرحمن
 الرحيم: الحمدُ لله محليَّ جِيَادِ الأفهام بعقودِ مدح الشَّفيع، ومجليَّ سلامة
 الأذواق بمكرِرِ ذكره الرِّفيع، ومرصَّعَ تيجانِ البيانِ بجواهرِ سيرته الحسناء،
 ومزِينِ سماءِ البلاغة بزواهرِ معجزه الأسنى، ومعجزِ العقولِ عن إدراكِ كنه
 صفاته، ومؤيسَ الأفكار من إحصاءِ خصائصه وآياته، وباعثِ الرُّسل مقررِين
 لعظيمِ قدره، ومنزَلِ الكتب مبينة لرفيعِ ذكره، ومعطرَ أرجاءِ الوجود بالثناء
 على خلقه العظيم، ومشرِّعَ ألوية التَّخصيص له بكرائم التَّبجيل وجلائل
 التَّكريم، ومطلقَ ألسنة الإطناب في شرفه المطلق المفرد، ومفرده بكمال
 الاصطفاء، فما لكماله مثْلٌ ولا حَدٌّ، حمداً يجمع لي بين الأمانى والأمان،
 ويقتضي المزيد من مبراتِ الشُّهود والعيان.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة شافعةً باتصالِ المدد،
 كافلةً بالخلودِ في جنَّاتِ العرفان إلى الأبد.

وأشهدُ أنَّ سيِّدَ أعيان الكونين، وعين حياة الدَّارين محمَّد عبده
 ورسوله، وحبيبَه وخليفه، صلى الله عليه وسلم صلاة تصلني وذريَّتي
 وأحبائي في كلِّ نفس بنفائسِ صلاته، وتقتضي دوامَ البسط بتوالي إمداداته،
 وتشفعُ لنا بمراحمِ القبول، وتسعفنا بكرائم الوصول، صلاة لا ينقطع لها
 مدد، ولا ينقضي لها أمدٌ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، وعلى آله
 وصحبه أجمعين، وعلى آل كلِّ، وصحب كلِّ، وسائر الصَّالحين، وسلَّم
 تسليماً، وكرمُ تكريماً. . وبعد:

فهذه قصيدةٌ صادرةٌ عن ذاتِ قناع، شاهدةٌ بسلامة الطَّبَاع، منقَّحةٌ بحسنِ
 البيان، مبنيةٌ على أساس تقوى من الله ورضوان، وسافرةٌ عن وجوه البديع،
 ساميةٌ بمدح الحبيب الشَّفيع، مطلقةٌ من قيود تسمية الأنواع، مشرقةٌ الطَّوابع
 في أفق الإبداع، موسومةٌ بين القصائد النَّبويات، بمقتضى الإلهام الذي هو
 عمدة أهلِ الإشارات: «بالمَدح المبين في مدح الأمين»، استخرتُ الله تعالى
 بعد تمام نظمها، وثبوت اسمها في شيء يروق الطالب موارده، وتعظم عند

المستفيد فوائده، وهو أن أذكر بعد كل بيت حدّ النوع الذي بنيت عليه وافرّ شاهده، فإنّ ذلك مما يفتقرُ إليه، وأنحو في ذلك سبيل الاختصار، ولا أخلُّ بواجب، وأنبّه على ما لا بدّ منه قصد التّفنّع للطالب، والمسؤول من الفتح بتأسيسها على قواعد أذن الله أن ترفع، ومن مثبت رفعها بوجاهة مدح الوجيه المشفّع، أن يصلي ويسلم عليه، ويجعلها خالصةً لوجهه الكريم... إنه جوادٌ كريم، رؤوفٌ رحيم، ومن الله أستمدُّ، وعليه أعتمدُ ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

وبدأت عائشة الباعونية بديعيتها بقولها:

فِي حُسْنِ مَطْلَعِ أَقْمَارِ بَذِي سَلَمٍ
أَصْبَحْتُ فِي زُمْرَةِ الْعُشَّاقِ كَالْعَلَمِ
أَقُولُ وَالْدَّمَعُ جَارِ جَارِحُ مُقْلِي
وَالْجَارُ جَارٍ بَعْدِلٍ فِيهِ مُتَّهِمِ

ومنها:

بَذَرُ الْكَمَالِ كَمَالُ الْبَذْرِ مُكْتَسَبٌ
مَنْ نُورِهِ وَضِيَاءُ الشَّمْسِ فَاغْتَلِمِ

ومنها:

جَمَالُ صُورَتِهِ عُنْوَانُ سِيرَتِهِ هَذَا بَدِيعٌ وَهَذِي آيَةُ الْأُمَمِ

ومنها:

قَالُوا هُوَ الْغَيْثُ قُلْتُ الْغَيْثُ آوَنُ يَهْمِي وَغَيْثُ نَدَاهُ لَا يَزَالُ هَمِي

واختتمت بديعيتها بقولها:

يَا أَكْرَمَ الرُّسُلِ سُؤْلِي فِيكَ غَيْرُ خَفٍ
وَأَنْتَ أَكْرَمُ مَدْعُوِّ إِلَى الْكَرَمِ
حَسْبِي بِحَبِّكَ أَنَّ الْمَرْءَ يُخْشَرُ مَعَ
أَحْبَابِهِ فَهَنَائِي غَيْرُ مُنْحَسِمِ

مَدَحْتُ مَجْدَكَ وَالْإِخْلَاصُ مِلْتَزَمِي

فِيهِ وَحُسْنُ امْتِدَاحِي فِيكَ مُخْتِمِي^(١)

* هذه بديعية شاعرة ناسكاتٍ عصرها عائشة الباعونية، وأعتقد أنها أولُ امرأةٍ قد نهجتُ بردة البوصيري ومن تبعه إلى وقتها، بل لم أجد - في حدود اطلاعاتي - مَنْ تصدَّى لهذا الفن غيرها من النساءِ البليغات، اللهم إلا شذرات لبعض الشّواعر بعد عصرها، لم تبلغْ واحدة منهن معشار شأوها، بل لم تستطعْ أي شاعرة أن تجاريها في هذا الميدان الرَّحْب، وفي مجالِ البديعيات، وفي مجالِ المديح النبوي، لذلك كان لبديعتها طعمٌ خاص عند بلغاء الأدباء^(٢).

* هذا؛ ولم تكنْ هذه القصيدة يتيمة عائشة الباعونية في فنِّ المدائح النبوية - وإن كانتِ القصيدةُ درّةً يتيمةً في بابها - وإنما لها قصيدةٌ مشهورةٌ في عالمِ البديعيات، أطلقتُ عليها اسم «الفتح المبين في مدح الأمين»، قالت في وصفها: أمّا بعد: فهذه قصيدةٌ فتح الحقُّ بها عليّ بعد قصيدتي الموسومة «بديع البديع في مدح الشّفيح»... ووسمتها باسم وسيم يدلُّ على شرفها بممدوحها الكريم وهو: الفتح المبين في مدح الأمين، وأسستُ كلَّ بيتٍ منها على قواعدِ الإخلاص، وجعلتهُ مشتملاً على بابٍ من أنواعِ البديع، والتزمتُ فيه بتسمية النوع التزام سامع لأوامر الإلهام الرّباني ومطيع، وعلّقتُ عليها تعليقاً جامعاً لزبد الحدود وفرائد الشّواهد، كاملاً بالمقصود لكلّ شارّد ووارد، وتوجّهتُ بخطبةٍ مسفرة عن محاسن التّأليف، تفهرس

(١) انظر: الدر المنثور (ص ٢٩٤ - ٣٠٢)؛ وقالت زينب فواز في تعقيها على هذه البديعية: إن ختام هذه القصيدة لم يأت في قصيدة غيرها من حسنِ الذّوق السّليم. (الدر المنثور ص ٣٠٢).

(٢) وقد امتدحَ بديعيةً عائشة الباعونية أحدُ بلغاءِ الأدباء، وأذكى العلماء، وأفذاذ الشعراء، فقال وأبدع، وأحسن في فنِّ الجنس:

أَتَيْتُ بِبَدِيعٍ لَوْ رَأَاهُ ابْنُ حَجَّةٍ لَأَذْعَنَ أَنَّ الْفَضْلَ حَازَتْهُ عَائِشَةُ
فَقَدْ عِشْتُ فِي رَوْضِ الْجَنَانِ عَزِيزَةً كَمَا كُنْتُ فِي رَوْضِ الْبَلَاغَةِ عَائِشَةَ

بلطائف التّورية ما اشتملت عليه من الأنواع .

* وبلغت هذه البديعة (١٤٤ بيتاً)، واحتوت (١٤٤) نوعاً بديعياً، ومطلع هذه البديعية الرائعة قولها :

عَنْ مُبْتَدَأِ خَبَرِ الْجِرْعَاءِ مِنْ إِضْمٍ
حَدَّثَ وَلَا تَنْسَ ذِكْرَ الْبَانَ وَالْعَلَمِ

ومنها وقد أظهرت براعتها في استخدام سور القرآن بفن بديعي بلاغي يُسمى «الترشيح»^(١) فقالت :

طَهَ بِيَّاسِينَ كَمْ فِي مَدْحِهِ نَبَأٌ
قَدْ رَشَّحَ الشُّعْرَا فِي نَسْجِ شِعْرِهِمْ

وقد اختتمتها بقولها :

مَدَحْتُ مَجْدَكَ وَالْإِخْلَاصُ مَفْتَحِي

وَمَخْلَصِي لَصَلَاتِي حُسْنِ مَخْتَمِي

ولعائشة قصيدة رائعة في المديح النبوي اسمها، «لوامع الفتوح في أشرف ممدوح»، وهي قصيدة رقيقة، تمتع الأسماع، وتداعب الطباع، وتؤنس البقاع، وتدلّ على طول الباع، في المعرفة والأدب ولطائف الأنواع، قالت في مطلعها :

سَعْدَ إِنْ جُنْتَ ثَنِيَّاتِ اللَّوِيِّ حَيَّ عَنِّي الْحَيَّ مِنْ آلِ لُؤْيٍ
وَاجِرْ ذِكْرِي وَإِذَا أَصْغَوْا لَهُ صِفْ لَهُمْ مَا قَدْ جَرَى مِنْ مُقْلَتِي
عَرَبٌ فِي رُبْعِ قَلْبِي نَزَلُوا وَأَقَامُوا فِي السُّوَيْدَا مِنْ حُشْيٍ
أَخَذُوا عَقْلِي وَصَبْرِي نَهَبُوا وَاسْتَبَاحُوا سَلْبَ كَوْنِي مِنْ يَدِي
لَا شِفَا إِلَّا بِتَرْيَاقِ اللَّقَا أَوْ بِرَشْفِ الشَّهْدِ مِنْ ذَاكَ اللَّمِّي^(٢)

ويبدو لي أنّ السيّدة عائشة الباعونية - رحمها الله - قد أغرمت بيائية ابن الفارض المشهورة، فنظمت مديحها تحاكيه، وتظهر براعتها في هذا

(١) «الترشيح»: هو أن يأتي المتكلم بكلمة لا تصلح لضرب من المحاسن حتى يؤتى ترشيحها، وتوهلها لذلك .

(٢) نساء من الإسلام (٦٥/١)، وشاعرات العرب (ص ٢٣١).

المضمار، فقد قال ابنُ الفارض في مَطْلَع قصيدته :
سَائِقَ الْأَظْعَانِ يَطْوِي الْبَيْدَ طَيِّئاً مَنِعاً عَرَّحَ عَلَى كُثْبَانِ طَيِّئاً
وَتَلَطَّفَ وَأَجْرَ ذِكْرِي عَنْدهم عِلْمُهُمْ أَنَّ يَنْظُرُوا عَطْفاً عَلَيَّ^(١)
ولعائشةُ الباعونيةُ آثارٌ أخرى، وأغراضٌ كثيرةٌ في المدح والغزل
والنسيب وغير ذلك، كما أنَّ لها آثاراً كبرى في المديح النبوي، وفي ذكرِ
أحداث السيرة النبوية الشريفة، مما ستعرض لجانب منه في الصِّفحات
التاليات - إن شاء الله - .

السَّيْرَةُ النَّبَوِيَّةُ فِي أدبِ عَائِشَةَ :

لئن حلَّقَتْ عائشةُ الباعونيةُ في فنِّ البديع والبديعيات، لقد بلغتِ الذَّروة
في فنِّ المديح لخاتم الأنبياء والمرسلين، وجاوزتِ الثُّريا في صياغة أحداثِ
السَّيْرَةِ النَّبَوِيَّةِ بأسلوبٍ رقيقٍ رشيقٍ أنيقٍ دقيقٍ، تفتقتُ عن أسرار معانيه بنات
أفكارها، فوعته صدور السَّطور ليحكِّي ما نسجته عبقرية أفكارها، وما خطته
بيدها من نثرها وأشعارها، حيث تدلُّ آثارها التي وصلتنا بأنَّها كانت حَسَنَةً
الخط، تجيد أنواعه وخاصَّةً: الخط الفارسي، وخطَّ النَّسخ، وبهذا تكون
ضيفتُنا عائشة قد جمعتُ إلى جمالِ النَّظم جمالِ الخطِّ، وهذه نعمةٌ كبرى
لا يدرك كنهها إلا الرَّاسخون في هذا المضمار النَّفيس الميمون .

إنَّ معظمَ آثارِ عائشة الباعونية تشيرُ إلى براعتها في فنِّ المديح النبوي،
لأنَّ عائشةَ تعتبر أنَّ المديحَ سمةُ الصَّالحين، وفي هذا تقول: إنَّ المديحَ
النَّبويَّ الشَّريفَ شعارُ أهلِ الصَّلاح، ولا سيما أهلِ الفلاح، وهو مما يتنافسُ
فيه المتنافسون، ويدأبُ فيه المخلصون، إذ هو من أعظمِ وسائل النَّجاح،
وسبب مضاعفة الأرباح .

ولعلَّ في قصيدتها الموسومة بـ: «فتوح الحقِّ في مدحِ سيِّد الخلق»
ما يؤيد ذلك حيث تقول فيها:
بَرَاعَتِي فِي ابْتِدَا حَالِي بِحَبِّهِمْ بَرَاعَةٌ تَقْتَضِي فَوْزِي بِقُرْبِهِمْ

(١) انظر القصيدة كاملة لابن الوردي في كتاب النجوم الزاهرة (٦/ ٢٨٨ - ٢٩٠) .

صَلَّى عَلَيْكَ إِلَهِي دَائِمًا أَبَدًا أَزَكَى صَلَاةٍ تُدِيمُ الْفَيْضَ بِالكَرَمِ
 مَا سَرَتْ نَسْمَةً مِنْ أَرْضٍ كَاطِمَةٍ وَهَيَّجَ الْوَجْدَ حَادِي الْوَفْدِ بِالنَّعَمِ
 ولقد أغرمت عائشة الباعونية بالسيرة النبوية غراماً شديداً، حيث نسجتها
 بأدبها الشعري والثري، ولها في هذا المجال مولدٌ اسمه: «المورد الأهنى
 في المورد الأسنى» أبدعت فيه نظماً ونثراً؛ وفي طهارة وصفاء نسب
 النبي ﷺ تقول:

ما زال نُورُ مُحَمَّدٍ مُتَنَقِّلاً فِي الطَّيِّبِينَ أُولِي الْمَفَاخِرِ وَالْعُلَا
 كَتَنَقَّلَ الْأَقْمَارُ فِي أَبْرَاجِهَا حَتَّى بَدَأَ مِنْ أُمِّهِ مُتَهَلِّلاً
 وَمِنَ السَّفَاحِ حَمَى وَصَانَ جُدُودَهُ حَتَّى بَدَأَ مُتَطَهِّراً مُتَكَمِّلاً
 وفي نسبه الشريف تقول:

نَسَبٌ تَلَاشَى فِي سُطُوعِ ضِيَائِهِ نُورُ الشُّمُوسِ وَبَهْجَةُ الْأَقْمَارِ
 وَزَكَ وَطَابَ وَلَمْ يَزَلْ مُتَنَقِّلاً أَبَدًا مِنَ الْأَطْهَارِ لِلْأَطْهَارِ

أما عن الحمل الشريف فتحدثت عائشة عن كثير من الأحداث المشهورة
 المنثورة في كتب السيرة النبوية - على الرغم من ضعف بعض أخبارها -؛
 كما تحدثت عن كثير من البشارات التي كانت خلال مدة حملها ﷺ، فإذا كل
 شيء مبتهج في الكون، مسرور بهذا الرسول الكريم، تقول عائشة من قصيدة
 طويلة منها:

اللَّهُ أَكْبَرُ كَمْ وَافَتْ بِشَارَاتُ وَكَمْ تَبَدَّتْ لَتَعْظِيمِ إِشَارَاتُ
 وَكَمْ تَجَلَّتْ بِرَاهِينُ وَمُعْجَزَةٌ وَكَمْ تَوَالَتْ كَرَامَاتُ وَآيَاتُ
 وَأَشْرَقَ الْكَوْنُ بِالْأَنْوَارِ وَاتَّصَلَتْ مِنْ الْهُوَائِفِ بِالْهَادِي بِشَارَاتُ

وفي مولده الشريف، يكون ترحيب عائشة بالحبيب المصطفى ﷺ من
 نوع خاص، فهي هي تسجل وتسطر أجمل الكلام بأجمل تعبير أفصح عنه
 بنات أفكارها، وخطته يمينها فتقول:

وُلِدَ الْحَبِيبُ فَمَرَحَباً بِوَفَائِهِ وَبِحُسْنِ طَلْعَتِهِ وَنُورِ بَهَائِهِ
 وَلَدَ الَّذِي لَوْلَا جَلَالُهُ قَدْرُهُ لَمْ تُخْشَرِ الْأَعْيَانُ تَحْتَ لَوَائِهِ
 وَلَدَ الَّذِي صَلَّى عَلَيْهِ إِلَهُهُ وَأَثَابَ مَنْ صَلَّى بِجُودِ عَطَائِهِ

وتذكر عائشة نثراً ونظماً مراحل السيرة النبوية، فتذكر الرضاع، وشق الصدر الشريف، وتذكر أيضاً معجزاته الكثيرة، ناهيك بصفاته الخلقية والخلقية، وتمتدحه بنفس الكلام من مثل قولها:

نَبِيٌّ لَهُ فِي كُلِّ فَضْلٍ تَقَدُّمٌ يُرِيكَ عُلاَهُ فَوْقَ كُلِّ مُكَمَّلٍ
فَمَنْ مِثْلُهُ وَالْحَقُّ جَلَّ جَلَالُهُ يُفَاتِحُهُ بِالْمَدْحِ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ

وحياة عائشة الباعونية مع السيرة النبوية جميلة ذات سلسيل لطيف، فهي وإن لم تزد شيئاً على معلومات السيرة، إلا أنها تُعدُّ متفردة في عالم النساء في هذا المجال، حتى إنَّ الشيخ عبد الغني التابلسي قد أتى بعد ذلك، وقصَّ آثارها بمولد نبوي بديع أظهر ما أوتيه من تبخّر في شتى العلوم والمعارف، وسمّى مولده باسم: «تحفة العرفان في مولد سيّد بني عدنان» وهذا المولد إحدى ذخائر اللغة والأدب والفقه والتصوّف، إذ ذكر فيه معظم أنواع العلوم، وذكر أسماء الأنبياء، وسور القرآن، وكُتُب الصّوفية، ثم ذكر النسب النبوي الطاهر بأسلوب بديع رائع^(١).

امِتِدَاحُ الْعُلَمَاءِ وَالْفُضَلَاءِ لِعَائِشَةَ:

يَحْسُنُ بِنَا وَنَحْنُ نَقْتَرِبُ مِنْ نِهَآيَةِ رَحِلَتِنَا مَعَ هَذِهِ الْعَالِمَةِ الْأَدِيبَةِ، أَنْ نَشِيرَ إِلَى أَوْلَئِكَ الْأَعْلَامِ الَّذِينَ قَلَدُوا حَلِيَةَ الْفَضْلِ بِمَا نَسَجَتْهُ أَقْلَامُهُمْ، وَعَبَّرَتْ عَنْهُ بَنَاتُ أَفْكَارِهِمْ، فَقَدْ عَرَفَ عِلْمَاءُ عَصْرِهَا فَضْلَهَا وَمَقْدَرَتَهَا، فَكَاتَبُوهَا وَامْتَدَحُوهَا وَأَثْنَوْا عَلَيْهَا، وَقَابَلْتَهُمْ هِيَ بِالْمِثْلِ، وَأَطْنَبَ كَذَلِكَ عِلْمَاءُ الْمُؤَرِّخِينَ بِمَدَحِهَا وَوَصَفِ شِمَائِلِهَا.

ففي «كواكب السّائرة» أبرزَ نجمُ الدّين الغزي - رحمه الله - معالم شخصية عائشة الباعونية، وأبانَ مكانتها بين كواكب العِلْمِ والعالمات، والأدبيات، فقال في مفتتح ترجمته لها: الشّيخةُ، والأديبةُ، الأريبةُ، العالمَةُ، العاملةُ، الصّوفيّةُ، أحدُ أفرادِ الدّهر، ونوادر الزّمانِ فضلاً، وعلماءَ، وأدباءَ، وشِعْراً، وديانةً، وصيانةً^(٢).

(١) انظر كتابنا: رجال من الإسلام (٢/ ٢٢ و ٢٣) حيث تجد وصفاً لهذا المولد ونماذج منه.

(٢) الكواكب السّائرة (١/ ٢٨٧ و ٢٨٨).

وقال ابنُ الحنبلي عنها: فازتُ بوافر حظٍّ من العلوم، وحازتُ كامل نصيب من روائع وبدائع المنثور والمنظوم^(١).

وأما الشيخُ عبد الغني النَّابلسي فقد خَلَعَ عليها حِلَّ الثَّناء، واعترف بعلمها وفضلها فقال: فاضلةُ الزَّمان، وحليفةُ الأدبِ في كلِّ مكان.

وقالت عنها إحدى بنات جنسها وهي زينب يوسف فواز: شاعرةٌ مطبوعةٌ، فاضلةٌ أدبيةٌ، لبيبةٌ عاقلةٌ، وكان على وجهها من الجمالِ لمحةٌ جمَّلها الأدبُ، وحلَّتْها بلاغةُ العرب وقالت أيضاً: أخذ عنها جملة من العلماء الأعلام، وانتفعَ بها خلقٌ كثيرٌ من الطَّالِبين، ولها ديوانٌ شعرٍ بديع في المدائح النبوية كَلَّه لطائف، ومن تأليفها مولدٌ جليلٌ للنبي ﷺ اشتمل على فرائد التَّظم والتَّثر.

وقالت أيضاً: إنَّ مَنْ رأى سِحرَ بلاغتها فكأنما رأى هاروت وماروت^(٢).

وذكرها عددٌ من جِلَّةِ العلماء^(٣) والأدباء والأعلام بجليل الفضل فقالوا: ربةُ الفضلِ والأدب، وصاحبةُ الشَّرف والتَّسب، وافرةُ الهيبة من العِلْم والأدب. وذكرها محمَّد كرد علي المتوفى سنة (١٩٥٣ م) بأنَّها: العالمة، الفاضلة، الشَّاعرة، النَّاثر^(٤).

إن عائشةَ الباعونية - والحقُّ يقال - تُعتبر من كبارِ الشَّعراء، ومن أعلِياءِ الأدباء في عصرها، اقتعدت ذروةَ الفضل بين الشَّاعرات العربياتِ المسلمات، فهي أوَّلُ شاعرة - على ما أعتقد - قد كتَّبتِ المولدَ النَّبوي الشريف من النَّساء؛ وجعلت من نظمِ السَّيرة النَّبوية رحيقاً طيِّب النَّشر، وقد

(١) دُرُّ الحبيب (٢/٢٠٦١).

(٢) المصدر السابق.

(٣) لما كانت عائشة الباعونية في مصر، تتلمذت على يد العلامة أحمد شهاب القسطلاني شارح صحيح البخاري، والمتوفى سنة (٩٢٣ هـ)، ويبدو أنَّه قد أطنب في مدحها، وأثنى على علمها وفضلها، والله أعلم.

(٤) خطط الشام (٤/٦٠).

اقتدى بها عددٌ من الشعراء والشاعرات^(١) على مرّ الأيام، كما أنّ عائشة الباعونية أوّل مَنْ صَنَّفَ أعداداً كبيرةً من الكتب الرائعة شعراً ونثراً بين النساء، وجابت آفاق المعرفة في عصرٍ كانت المرأة فيه - لولا رحمةُ الله - نسياً منسياً.

وَدَاعَاً فَاضِلَةً الزَّمَانِ :

* عاشت السيّدة عائشة الباعونية حياة العِلْم والمعرفة والعبادة والعمل، وتركت في دنيا النساء ذكراً حميداً يزين سيرهنَّ إلى ما شاء الله، وكانت في فنّ المديح النبوي سابقة السابقات، وكذلك في غيره من الفنون الشعرية الأخرى، ناهيك بنثرها الذي يأخذ بالألباب.

* وامتدت الحياة بعائشة الباعونية إلى سنة (٩٢٢ هـ)^(٢)، فقد زارت مدينة حلب، ثمّ عادت إلى دمشق الشام، وتوفيت فيها، ودُفنت بالصّالحية.

(١) ظهرت في العصر الحديث أعدادٌ من شاعرات العرب، وأخذن يكثرن من مدح رسول الله ﷺ، حتى غدت المدائح النبوية ونظم السيرة من المواضيع النسائية المستقلة، ويتخلل هذه المدائح استعراض لأحداث السيرة النبوية. ومن الشاعرات اللواتي أولين في هذا المجال الشاعرة المصرية عائشة التيمورية، وهنالك شاعرات أخريات من البلاد العربية أبدعن في هذا المجال، وبعضهن معاصرات، ومنهن: عاتكة الخزرجي، ولها ديوان بعنوان «أنفاس السحر» وكذلك الشاعرة السورية عفيفة الحصني الدمشقية، ومن دواوينها «فداء، وفاء، ولاء» وكذلك: صابرة محمود العزي، ولها ديوان بعنوان «نفحات الإيمان» ومن شعرها في حادثة الإسراء والمعراج قولها:

الركب يسري وليلُ الركب أضواءُ عبر المسير أزهيرُ وأنداءُ
ومنها قولها:

بشرى لأهل سماء زارهم قمرٌ نورُ النبوة من مسراه وضاءُ
محمد حفّه الروح الأمين إلى رحاب قدس إلى الآيات مضاء
(نفحات الإيمان ص ٩٧ و ٩٨).

(٢) انظر: الكواكب السائرة (١/ ٢٩٢)، وشذرات الذهب (١٥٩/ ١٠) والدرّ المنثور (ص ٣٠٣)، والأعلام (٣/ ٢٤١).

وذكر ابنُ الحنبلي: أنَّها دخلتْ حلب في هذه السَّنة، والسُّلطان الغوري بها لمصلحة لها كانت عنده، فاجتمعَ بها من وراء حجاب عند البدر السيوفي، وتلميذه الشَّمس السَّفيري^(١) وغيرهما، ثمَّ عادت إلى دمشق وتوفيت بها في هذه السَّنة^(٢).

* قال محمَّد أديب الحصني: توفيتْ بدمشق، ودُفنت بالصَّاحية، وروى عنها بعضُ حَمَلَةِ الأخبار أنَّها قالت: روي أنَّ عيسى - عليه السَّلام - خرجَ يوماً، فلقيه عدو الله إبليس، وبيده عَسَل، وفي الأخرى رماد؛ فقال له - عليه السَّلام -: ما تفعل يا عدو الله بهذا العسل؟! قال: أضعه على شفاهِ المغتابين حتى يخوضوا فيه، وأرمد وجه اليتامى حتى يبغضهم النَّاسُ^(٣).

* وفي الصَّاحية تثوي عائشةُ الباعونية، وفي الصَّاحية دُفِنَ كثيرٌ من فحولِ العُلَماءِ والأدباءِ والفقهاءِ، والمحدثين، وعديد من فقيهاةِ وعالماتِ الإسلام، والله دُرٌّ مَنْ قال في الصَّاحية:

فَالصَّالِحِيَّةُ جَنَّةٌ وَالصَّالِحُونَ بِهَا أَقَامُوا
فَعَلَى الدِّيَارِ وَأَهْلِهَا مَنِّي التَّحِيَّةُ وَالسَّلَامُ

* وقال غيره مشيراً لمن فيها من أعلام النجوم، ونجوم الأعلام:

قَدْ ظَفَرْنَا بِعَيْشَةٍ مَرْضِيَّةٍ مُذْ حَلَلْنَا فِي جَنَّةِ الصَّالِحِيَّةِ
وَرَأَيْنَا الرُّهُورَ تَبَسُّمُ لُطْفاً عَنْ ثَنَائَا مِنَ التَّنْدَى لَوْلَوِيَّةِ
حَبْذا حَبْذا مَعَانِي مَغَانٍ كَبُرُوجِ حَوْتِ نَجُوماً مُضِيَّةِ

* وبعد هذه الرِّحلة الشَّائقة مع عائشة الباعونية، نودَّعُ هذه الفاضلة، إحدى نوادرِ نساءِ التَّاريخ اللواتي زَيَّنَّ التَّاريخ بقلائدٍ من جُمانِ الفُضْلِ والعلم والأدب.

* رحمَ الله عائشةَ الباعونية، وأسكنها فسيح الجنَّات.

(١) انظر ترجمته في شذرات الذهب (٤٤٨/١٠).

(٢) الكواكب السَّائرة (٢٩٢/١)، وشذرات الذهب (١٥٩/١٠).

(٣) انظر: منتخبات التَّواريخ لدمشق للحصني (ص ٥٩٣).

١٧

عائشة لتيمورية

مِنْ أُمِيرَاتِ الْبَيَانِ:

أديبةً فاضلةً، وحكيمةً عاقلةً، اختصّها اللهُ بفصاحةِ اللسان، وحبّاهَا البلاغةَ والبيان؛ كانت مغرمةً بالافتنانِ في أفانينِ البلاغةِ والنَّظمِ المعتدلِ الأوزان، وهي نادرةُ الفلك، وواسطةُ عقدِ الدَّهرِ في نظمِ الشعرِ.

رغبتُ عن العملِ بالإبرةِ وخياطةِ الثَّياب، ورغبتُ في العِلْمِ إذ إنّه أربحُ المكاسبِ، وأرجحُ المناصبِ، وأرفعُ المراتبِ، وأنصعُ المناقبِ؛ فالعِلْمُ حرفةُ أهلِ الهممِ؛ من الأممِ، ونحلةُ أهلِ الشَّرَفِ، من الخَلَفِ.

ولم يزلْ في كلِّ عصرٍ من حَمَلَةِ العِلْمِ بدرٌ طالع، وزَهْرُ غصنِ يانع، وعَلِمُ ترنو إليه أبصار، وتشير إليه أصابع، سواء كان العلماءُ من الرِّجالِ؛ أو من النساءِ ذواتِ الخدورِ والحجالِ.

وضيفةُ اليومِ واحدةٌ من نساءِ القرنِ الماضي، رقتْ ألفاظُها، وراقتْ معاني نثرها، وبرزتْ في الجمالِ أشعارُها، وتناهتْ في الحُسنِ والبراعةِ كلماتُها، فكانتْ آخرَ البليغاتِ، وخاتمةَ الأدبياتِ، لكنّها من الأولياتِ في ميدانِ البلاغةِ، والسَّابقةِ في امتلاكِ زمامِ القِرطاسِ واليراعةِ، فكان نظمها روضُ كلِّه زَهْرٌ، وسِلْكُ كلِّه دَرٌّ.

ولا عجبَ في كلامي عما قُلْتُه في هذه المرأةِ المعطاء، فقد جاءها ثناءٌ عَطرٌ من قُطْرِ غيرِ قطرها، وقارّةٌ غيرِ قارّتها، إذ أثنتُ عليها إحدى بليغاتِ عصرها، وإحدى بناتِ جنسها، فأعربتُ عن أدبها ومعرفتها، وأنّها زَيَّنَتْ جَيِّدَ وقتها بعلمها؛ فقالت مادحةٌ مثنيةٌ:

هِيَ فَخْرُ النِّسَاءِ بَلْ وَرَدَةٌ فِي جَيْدِ ذَا الْعَصْرِ زُيِّنَتْ بِالْعُلُومِ
وعن سلسبيلِ فصاحتِها، وسيلِ بلاغتها، ومَعِينِ أدبها، وغيثِ شِعْرها، ورهام^(١) نثرها، أعربتُ معاصرتُها - أيضاً - عن إعجابها بهذه الأديبةِ،

(١) «رِهَام»: مفردُها: رِهْمَةٌ بالكسر، المطر الضعيف الدائم، وجمعها رِهَمٌ ورِهَامٌ. ويقال: أرهمت السماء؛ أثت بالرهمة؛ قال أبو زيد: ومن الديمة: الرّهمة؛ وهي أشد وقعاً من الديمة وأسرع ذهاباً؛ وأبو رُهم الأنماري، والسَّمعي، والغفاري، =

فنجست قصيدة رائعة سداها الإعجاب ولحمتها الإطراء بهذه التي فاقتها،
وفاقت نساء عصرها ومصرها، فقالت:

فصِيحَةً مُنْطِقٍ نَاغَتْ بِلَفْظٍ كَسَلَسَالٍ مِنَ الصَّهْبَاءِ عَذَبِ
أَتَتْ تَرْوِي لَنَا عَنْ لُطْفِ ذَاتِ غَدَتْ بِاللُّطْفِ تَسْبِي كُلِّ لُبِّ
فَتَاةٌ زَيَّنَتْ جِنْدَ الْمَعَالِي بِدُرٍّ مِنْ حُلَى الْآدَابِ رَطْبِ
أَدِيبَةٍ مَعَشَرَ شَرُفَتْ أُصُولًا وَسَارَتْ بَيْنَ أَقْلَامٍ وَكُتُبِ
حَوَتْ قَصَبَ السَّبَاقِ بِكُلِّ فَنٍّ وَرَاضَتْ فِي الْمَعَانِي كُلَّ صَعْبِ

ولعلَّ ظمًا المعرفة قد ألهبَ مشاعرنا كيما نعرف هذه المرأة الفاضلة التي
ملأت دنيا عصرها، وشغلت أدباء وأديبات وقتها، وما تزال معانيها تملأ
الأسماع، ومغانيها تروى في البلدان، والبقاع، وتطربُ شدة الأدب،
وتروي غلة محبي لغة العرب، هذه المرأة وصفتها الأديبة اللامعة: زينب
يوسف فواز بقولها: أديبة فاضلة، حكيمة عاقلة، بارعة باهرة، شاعرة
ناثرة، رضعت أفويق الأدب، وهي في مهّد الطفوليّة، وتحلّت بحلى لغات
العرب قبل تضلّعها باللغات التركيّة، وفاقت على أقرانها فصاحةً عند بلوغها
سنّ الرّشاد، وصارت ندرّة زمانها بين أهل الإنشاء والإنشاد^(١).

وإذا علمنا أنّ هذه الأديبة النّادرة هي عائشة عصمت بنت إسماعيل
تيمور بن محمّد كاشف التيمورية القاهرية المصرية^(٢)، فإننا نقف وقفة
احترام لما حملته هذه الفاضلة من محاسن المكارم في هذا العصر.

ويبدو أنّ زينب فواز - وهي الأديبة اللامعة والنّاثرة البارعة - قد أخذتها
هزة الطّرب، ونشوة الكلمات، فوصفت عائشة التيمورية بقولها: لم تدع
لولادة مقالاً، ولم تترك للأخيلية مجالاً، وقد أخنست الخنساء، وأنستها

= وابن قيس الأشعري، وابن مطعم الأرحبي، وأبو رهمّة، وأبو رهميّة، صحابيون.
(القاموس المحيط ولسان العرب).

(١) الدرّ المنثور في طبقات ربات الخدور لزينب يوسف فواز (ص ٣٠٣).

(٢) الدر المنثور (ص ٣٠٣ - ٣١٩)؛ وشاعرات العرب (ص ٢٢٧ و ٢٢٨)، وأعلام
النساء (٣/ ١٦٢ - ١٧٩).

صخر، وسارت في مضمار أدباء هذا العصر^(١).

نشأتها وصُور من حياتها:

كان مولد عائشة التيمورية في أواسط القرن الثالث عشر الهجري، حيث رأت النور في القاهرة سنة (١٢٥٦ هـ).

كانت عائشة ذات أصل تركي من جهة أبيها إسماعيل باشا تيمور، أما والدتها «معتوقة» فهي من أصل جركسي، من الأسر الجركسية التي قدمت مصر، واستقرت فيها منذ أمدٍ سحيق.

كانت مصر في عصر عائشة التيمورية تعيش حياة الهدوء والبساطة، وكانت المرأة تعيش هذه الحياة المتواضعة رضية النفس، راضية القلب؛ وكانت عامة البنات يعشن كما تريد لهن أمهاتهن أن يعشن، فكن يتعلمن التطريز الذي كان سائداً، ويتعلمن أشغال الإبرة وخياطة الملابس، ولم يكن ذلك الوقت يسمح للمرأة أن تقرأ، وأن تطالع، وأن تتعلم في المدارس، إلا أن بعضهن كن يتعلمن القرآن الكريم على فقيه البيت - إن كان هنالك فقيه -.

(١) الدر المنثور (ص ٣٠٣)، أقول: إن هذا الوصف من زينب فواز هو من قبيل المبالغة والإغراق، فالتسوة اللاتي ذكرتهن وهن: ولادة بنت المستكفي، وليلى الأخيلية، والخنساء، كلهن من مشاهير أعلام النساء، وخصوصاً الخنساء، وما أدراك ما الخنساء، يكفيها من الفخر أنها تنتظم في عقد الصحابيات اللواتي شرفن بالصحبة النبوية، وأي فضل أعلى من هذا الفضل؟! ناهيك بفصاحة الخنساء وشعرها الذي تحلت به كتب الأدب والتراجم في مختلف العصور، وتزيت به المجالس في مختلف الدهور. وأما ولادة وليلى الأخيلية فهما من نوابغ وشواعر نساء العرب، بل من أكثرهن فصاحة، وأبلغهن بياناً، ولا مجال للمقارنة بين عائشة التيمورية وبينهن.

وعلى الرغم من إعجابنا بعائشة، ولكن من الأحسن أن نقارن بينهن في بعض القصائد، أو نقارن بين عائشة وبين نساء عاصرنها ممن ينتسبن إلى البلاغة وفضل الخطاب، أليس كذلك!!؟

نشأت عائشة في هذا العصر، ولما انطوى بساط مهدها، وشبّت عن الطوق ففرقت بين أبيها وجدّها، أخذت والدتها تهتم بتعليمها صنعة التطريز أسوة بسائر فتيات مصر، والعالم الإسلامي حينذاك؛ وسارعت أمّها فأحضرت ما يلزمها من أدوات تُعينها على فنّ التطريز، وخياطة الملابس، وعمل الإبرة؛ إلا أنّ رغبة عائشة كانت متوجّهة إلى أبعد من ذلك، فقد كانت ميولها تتجه إلى تطريز الكلام، وصياغة المعاني في أجمل نظام، فاصطدمت رغبتها برغبة أمّها؛ ورأت الأم أنّ ميول ابنتها عائشة وحبّها للقراءة والمطالعة نكرة في ذلك العصر، وصيحة في وادٍ سحيق، وغثاء لا يغني ولا يفيد.

ويبدو أنّ أمّ عائشة كانت ترى بأنّ ابنتها قد عقت مهنة التطريز، وعصت أعمال الإبرة؛ فكانت تسأل الله أن يهديها سبيل صنعة توافق مستواها، وتليق بها، وكثيراً ما كانت تدعو الله بأنّ يُكرّم عائشة القراءة والمطالعة والعلم، وكانت أحياناً تزجرها كي تمتنع عن هذه العادة التي لم تألفها عيُنُها منذ أنّ نشأت إلى وقتها الحاضر.

ولم تستطع والدّة عائشة أن تمتلك عقل ابنتها، بل لم تقدّر أن تكبح جماح ميولها الأدبية، فقد كانت أفكار عائشة غير متّجهة إلى رغبة أمّها، وإنّما كان جُلّ مرغوبها تعلّم القراءة والكتابة، وكانت والدتها تمنعها من ذلك، وتبعدها عن الحضور مع الكتاب، وتجبرها على تعلّم التطريز؛ هنالك كانت عائشة تزداد نفوراً من طلب والدتها ومن رغباتها في تعلّم الخياطة والتطريز وما شابه ذلك.

وكان والد عائشة إسماعيل بن محمّد تيمور باشا رجلاً لمّاحاً، قد هدّبتّه الحياة، وصقلت أخلاقه، فكان يرى ما يدور بين زوجة وبين ابنته، فيعرض بادية الأمر إعراض الهادئ المفكّر، ولا يكاد يلقى لهما بالاً، ويرى أنّ التّدخل في شأنيهما لا يثمر؛ لكنّه عندما رأى الجدّ قد تناولت فروعهُ، وثبتت أصولهُ - وكاد يقضي على ميول ابنته عائشة التي تلوح عليها مخايل الذكاء -، عندها توقع أنّ يكون لابنته مستقبلاً زاهراً، وتفرّس فيها النجابة،

فوضع حَدًّا لتلك الخلافاتِ وقال لزوجهِ : دعيها فإنَّ ميلَها للقراءةِ أقربُ^(١).

ومنذُ ذلك الوقتِ، سارعَ والدها، وأحضَرَ لها اثنين من الأساتذة، أحدهما يُدعى: إبراهيم أفندي مؤنس الذي كان يَعْلَمُها القرآنَ الكريمَ وعلومه، والفقهَ الإسلامي، والخطَّ العربي الذي تزيَّنُ فيه كتابَتُها، فقد كان القدماءُ يعتبرون أنَّ الخطَّ الحسنَ الجميلَ يزيَّنُ الأفكارَ والمعاني، ويزيدُ الحقَّ وضوحاً. أمَّا الأستاذ الآخر فيُدعى: خليل أفندي رجائي، وكان يَعْلَمُها النُّحوَ وعلمَ الصَّرفِ، بالإضافةِ إلى تلقينها اللغةَ الفارسيةَ حتى برعت فيها، وصارت تكتبُ الشَّعرَ والنثرَ في هذه اللغة.

وأخذَ هذان الأستاذانِ يَعْلَمانِ عائشةَ كُلَّ ما تحتاج إليه من معارفٍ متنوعةٍ، حتى غدت نادرةً عصرها ولما يشتدَّ عودها، وظهرت ميولُها العلميَّة والمعرفية، وهي ما تزالُ في بدايةِ العقدِ الثَّاني من حياتها.

عائشةُ وهَمَسَاتُ من ذِكرياتِ والدَيْها:

عندما أيفعتُ عائشةُ راحتَ تسجِّلُ فضلَ والدها عليها في تعلُّمها وتعليمها، ولم تنسَ أن تنوِّهَ إلى نباهتِها، ويقظتِها واهتمامه بها، ومعرفته ميولَها ورغباتها رغمَ صغرِ سنِّها، كما أنَّها سجَّلتِ تلكَ الهَمَسَاتِ التي كانت تدورُ بينه وبين أمِّها، وبينها وبين أمِّها، وخصوصاً عندما كانت تراها عاكفةً على الكتابِ، وعلى دواوين الشَّعرِ، فتقولُ في أسلوبٍ ساحرٍ آسرٍ: وتعنَّفُني بالتكدير والتَّهديد، فلم أزدُ إلا نفوراً، وعن صنعةِ التَّطريزِ قصوراً، فبادرَ والدي تغمَّدَ اللهُ بالغفرانِ ثراه، وجعلَ غُرفَ الفردوسِ مأواه، وقال لها: دعي هذه الطُّفيلةَ للقرطاسِ والقلمِ، ودونك شقيقَتها^(٢) فأدبها بما شئتُ من

(١) الدر المنثور (ص ٣٠٣).

(٢) كان لعائشة التيمورية شقيقتان:

الأولى: اسمها عَفَّت ماتت في حياتها، ورثتها عائشةُ بقصيدة مؤثِّرة آسرة في ديوانها «حلية الطراز».

الثَّانية: وتُدعى مُنيرة، وكانت قد تزوجت من رجل اسمه عليّ باشا آصف. وماتت مُنيرة هذه بعد وفاةِ أختها عائشة، وهاتان الأختان لم يُؤثِّر عنهما شيءٌ من الأدبِ أو =

الحكم. ثم أخذ بيدي وخرج بي إلى محفل الكتاب، ورثب لي أستاذين: أحدهما لتعليم اللغة الفارسية؛ والثاني لتلقين العلوم العربية؛ وصار يسمع ما ألقاه من الدروس كل ليلة بنفسه^(١).

وتدفق إلى ذهن عائشة التيمورية تلك الهمسات من ذكرياتها الطفولية، وذلك الميل للأدب والشغف بالمطالعة، وفي همسة من همسات ذكرياتها مع أمها - التي كانت تحثها على تعلّم التطريز - كانت تقول لها: يا عائشة، إن هذا المنسج هو أداة النساء، وأستاذ المعارف لبنات حواء.

إلا أن عائشة كانت ذات رأي يخالف هوى أمها، وكان رأيها حب المعرفة والعلم، والتفوق من تلك المهنة البغيضة إلى نفسها، تقول عائشة: وبالرغم مما كان متصلاً في نفسي من الميل إلى تحصيل المعارف من جهة، والحصول على رضا والدتي من جهة أخرى، فإن نفسي ما برحت نافرة من المشاغل النسوية^(٢).

وتهبّ نسمات الذكريات على عائشة، فإذا بها تستحضر ذكريات والدها، فتسجل له فضلاً، لأنه راف بقلبها الصغير، واختصها بجل اهتمامه، وكف يد والدتها عنها، مع وجود احترامها.

ومن سجل ذكريات عائشة نستعرض هذه اللوحة الجميلة التي ترسم فيها صوراً حلوة عن حياتها الطفولية، وعن شغفها بالأدب، تقول عائشة: ولكن أمي - أقرها الله في رياض الفرائد - كانت تتأذى من عملي هذا^(٣)، فتقابلني عليه بالتعنيف والتهديد والإنذار والوعيد، وتجنح أحياناً إلى الودود اللطيفة، والترغيب بالحلي والحلل الطريفة؛ أما أبي - رحمه الله - فكان يخاطبها بمعنى قول الشاعر التركي: «إن القلب لا يهتدي بالقوة إلى

= الشعر أو المعرفة.

(١) نساء من الإسلام (١/٤٥).

(٢) نساء من الإسلام (١/٤٦).

(٣) أي: من حب عائشة للعلم والأدب والكتب.

الطَّرِيقَ المطلوب، فلا تجعلِ النَّفسَ معذِّبَةً في يدِ اقتدارك»، فاحذري من أنْ تكسري قَلْبَ هذه الصَّغيرة، وأنْ تثلمي بالعنفِ طهره، وما دامت ابتنا مِثَالَةً بطبعها إلى المحابرِ والأوراق، فلا تقفي في سبيلِ ميلها ورغبتها، وتعالِي نتقاسم بنتينا: فُخْذِي «عِفَّتْ»، وأعطيني «عِصَمَت» - أي: عائشة -، وإذا كانت لي من عصمت كاتبة وشاعرة، فسيكونُ ذلك مجلبةَ الرحمةِ لي بعد مماتي.

ثُمَّ وَجَّهَ أَبِي خطابه إِلَيَّ قائلاً: تعالي إِلَيَّ يا عصمت، ومنذْ غَدِ سَأَتِيكَ بأستاذَيْنِ يَعْلَمَانِكَ التُّرْكِيَّةَ، والفارسيَّةَ، والفقهَ، ونحو اللغة العربية، فاجتهدي في دروسك، واتَّبِعي ما أُرشدُكَ إليه، واحذري أنْ أَقْفَ مَوْقِفَ الخجلِ أمامَ أُمِّكَ؛ فوعدتُ أَبِي بامثالِ هذا، ووعدتهُ على أنِّي سأبذلُ جهدي لأكونَ موضعَ ثقته، ومحقِّقةَ أمله.

وتوقَّفتُ عائشةُ عن الحديث؛ لكنْ هل توقَّفتُ رغبتي عند تعلُّمِ القرآن الكريم، والصَّرف، واللغةِ الفارسيَّةِ؟! يبدو أنْ مداركَ عائشة كانت تطاولُ جوزاءَ المعرفة، فقد تاقَتْ نفسُها إلى مطالعةِ الكتبِ الأدبيَّةِ المتنوعة، واستهوتها الدَّواوينُ الشعريَّةُ لفحولِ الشعراء، فعكفتُ عليها تقرأها بشهيةٍ عجيبَةٍ، فترتسمُ معانيها في ذهنها، حتى تولَّدت عندها ملكةٌ جيِّدةٌ من التَّصوُّراتِ الفائقةِ لمعاني التَّشبيهِاتِ الغزليَّةِ وخلافها، وعمرها لم يعانق - إذ ذاك - الرِّبيعَ الثَّالثَ عشر، وكانت يدُ والدها الحانية، وتوجيهاته الأليفة تمهِّدُ لها الطَّرِيقَ^(١)، وكان يرشدها إلى قراءة الشعر وفنونه وأنواعه، ويشيرُ

(١) كان والدُ عائشة التيمورية من الآباء الذين يعرفون ويدركون كيف يكونوا أساتذةً وأصدقاءً لأولادهم، وقد حققت عائشة ظنَّ أبيها فيها، إذ التزمت بالعلم. وتروي عائشة جانباً من حياتها العلمية وعناية أبيها فيها فتقول: وكنتُ منكبَّةً على دروسي أجتهدُ فيها فوق ما كان ينتظرُ أبي مِنِّي، غير أنَّ أبي لم يكن يأذنُ لي بالخروج إلى مجالس الرِّجال، وتولَّى بنفسه تعليمي كُتُب البلاغة الفارسيَّة مثل: شاهنامه الفردوسي؛ والمنثوي الشريف، واختصني من ساعتين من وقته كلَّ ليلة أقرأ فيهما عليه.

إليها أن تبتعدَ عن الشعر الغزلي قائلاً: يا عائشة، إنك إذا أكثرتِ من مُطالعة الشعر الغزلي، فسيكون ذلك سببُ زوال كلِّ دروسك من ذاكرتك^(١).

بَيْنَ الْأَدَبِ وَالزَّوْاجِ:

* في سكون الليل، وفي هدوء الصّباح، وفي أويقات اعتلال النّسيم في أصائله، كانت عائشة تتخذ من القراءة رفيقاً لها، ودليلاً لعقلها، وأنيساً لفؤادها، وروحاً وريحاناً لنفسها، فغدت الكلمات تنساب عذبةً من شفّتها، وراحت الألفاظ تنثال رقيقةً على لسانها، وتمدها بنات أفكارها بأبكار المعاني، ويولد عقلها عرائس الكلام.

* وكان والدها يراقب ويرقب هذه العبقرية عن كُتب، فتحتلّ الفرحة جوانحه، ويداعب السرور جوارحه، وينبغي الإعجاب وجدانه وحنياه، فيجعله ذلك في سعادةٍ عامرة غامرة.

* ولما صارت قريحة عائشة تجود بمعانٍ مبكرة لم يسبقها عليها غيرها، رأى والدها أن يستحضر لها أستاذة عروضيين من النساء الأديبات الشّاعرات الكاتبات، ولما قوي عزمه على ذلك، صار زواجها من رجل يدعى: «محمود بك الإسلامبولي»، وكان ذلك الزّواج في سنة (١٢٧١ هـ)، وعمرها إذ ذاك (١٥ ربيعاً)، وعندها انتقلت معه إلى الآستانة عاصمة الخلافة العثمانية عصر ذاك.

* وهناك اقتصرت عائشة على المطالعة، والقراءة، وإنشاد الأشعار،

(١) انظر: نساء من الإسلام (١/٤٧)؛ ولعلّ كلّ هذا لم يروِ ظمناً عائشة في حبّها للعلم والتعلّم، فقد كانت تتوقّ وتتشوّق إلى أن تنهلّ المزيد من الثّراث، وتعبّ منه كي تروي غلّتها، وتملاً مزودها، فأخذت تطالع الكتب الأدبية، والدّواوين الشعرية، ثم تطلّعت نفسها إلى تعلّم اللغة التركية، فأجادتها بوقت غير بعيد، وبرعت فيها براعةً رائعة، وصارت تنشد الشعر بلغات ثلاث: عربيّة، فارسيّة، وتركّيّة. ويبدو أنّ أباه هو الذي بعث فيها هذا الاندفاع، وحبّب إليها العِلْم والتعلّم، وحثّها على تعلّم التركيّة قائلاً: يا عائشة! إنّ الشعر إذا لم يكن باللغات الثلاث: العربيّة، والفارسيّة، والتركيّة، لا تكون له حلاوة.

ومناغة الطيور مع نسمات الأسحار، وترديد ما يجولُ به خاطرُها من النظم والأفكار؛ والتفتت إلى تدبير المنزل، وما يلزم له، خصوصاً حينما رُزقت بالأولاد والبنات، وكانت قد رُزقت بابنة اسمها «توحيدة» فأغرمتُ بها غراماً شديداً، ورأتُ فيها أملَ دنياها، ودنيا أملها؛ وبقيتُ عائشةُ على هذا الحال حتى كبرت ابنتها توحيدة، هنالك أَلَقْتُ إليها زمام منزلها.

وكان لهذه الفتاة توحيدة مكانةٌ عظمى، ومنزلةٌ كبرى في نفس أمِّها عائشة، بل إنَّ توحيدة قد أخذت نصيباً كبيراً ومساحةً واسعةً من نثرٍ وشعرٍ أمِّها عائشة، بل واحتلت رُقعةً كبيرةً من حياتها، فهي روحُ أنسِها، وأنسُ روحِها، ونفحةُ نفسِها؛ ويبدو أنَّ توحيدةَ هذه قد استلبتُ قلبَ أمِّها، فكان فؤادُ عائشة فارغاً إلا من محبةِ توحيدة، وبهذا كان لتوحيدة من محبةِ أمِّها نصيبٌ فوق نصيب كلِّ إخوتها وأخواتها.

وعن مكانةِ توحيدة تتحدَّثُ عائشةُ فتقول: وبعد انقضاء عشر سنوات كانت الثمرةُ الأولى من ثمرات فؤادي - وهي توحيدة نفحة نفسي وروح أنسي - قد بلغت التاسعة من عمرها، فكنْتُ أمتعُ برؤيتها، تقضي يومها من الصَّباح إلى الظَّهر بين المحابر والأقلام، وتشتغلُ بقيةَ يومها إلى المساء بإبرتها فتسج بها بدائع الصَّنائع، فأدعو لها بالتوفيق شاعرة بحزني على ما فرطَ مني يوم كنتُ في سِنِّها من التَّفرقة في مثلِ هذا العمل؛ ولما بلغت ابنتي الثانية عشرة من عمرها، عمدت إلى خدمة أمِّها وأبيها، فضلاً عن مباشرتها إدارة المنزل ومَنْ فيه من الخدم والأتباع، فتسنى لي أنْ أنصرفَ إلى زوايا الرَّاحة.

ويبدو لي أنَّ ابنتها توحيدة كانت فتاةً متوقِّدة الذِّكاء، صافية الذَّهن، استطاعت أنْ تلمَّ بِفَنِّ العروض، وتكتسبَ بعضَ المعارف، مما زادَ عائشةَ ولعاً بها، لما حباها اللهُ من مواهبٍ وحسانٍ، لم توجدْ غيرها من البنات، ولذا فقد كان لتوحيدة شأنٌ وأيُّ شأنٍ في مشاعر وشعر عائشة؛ - كما سنرى إن شاء الله -.

عَوَاصِفُ فِي حَيَاةِ عَائِشَةَ :

لم تستمرّ حياةُ عائشةِ التيمورية صافيةً تهبُّ عليها أرواحُ الأنسام، وتناغيها أطيافُ الأحلام، وتبدعُ في معاني النظم والكلام، وتتحفُ الأدبُ بما جادت عليها عبقرية الإلهام؛ وإنما مرت بها بعضُ الأمور، وعصفتُ بها بعضُ الحوادث، فكان لذلك كبير الأثر في أدبها ونظمها وسلوكها، ومن كبرياتِ العواصف التي هزّتْها هزّاً عنيفاً، وأرقتْها رَمَناً طويلاً موت ابنتها توحيدة وهي عروس - كما سنرى بعد - .

ومن عواصفِ الأمور في حياتها وفاة والدها إسماعيل تيمور، ففي عام (١٢٨٩ هـ) وفاتِ المنية أباه؛ ثمّ جاءتها هزةٌ أخرى زلزلت كيانها، وذلك بعد ثلاثة أعوام من وفاة والدها، فقد تُوفي زوجها أيضاً عام (١٢٩٢ هـ)، فأثّر ذلك فيها كثيراً، وعادت إلى مصرَ، وصارت حاكمة نفسها، وعكفت على الأدبِ تعبٌ منه ما يطفىءُ من فراغها وحزنها، وأخذتُ تنشرُ مقالاتها الحلوة الهادفة في الصحف والدوريات .

وأخذتُ طموحاتُ عائشةِ التيمورية تشرّبُ بأعناقها نحو المعالي، وأحبّتُ أن تتسّم ذروة الشعر، وتتسّم معرفةَ عروضِهِ وبحوره، لتبحرَ في بحاره، وتشدو بأرقّ الكلمات؛ وهي تمخرُ عبابَ عذابِ العبارات، لذلك عَجَمَتْ عيدانَ عزيمتها، وأرهفتُ حدَّ ظُبَاتِها، كيما تحقق هذا الهدفَ المنشود، والأمل المعقود، فقصدت عالماً تدرسُ على أيديهن هذا الفنّ، ولم تلقِ عصا التسيار بعيداً، وإنما أَلَفَتْ ما ترنو إليه عند امرأتين أديبتين عالمتين هما: فاطمة الأزهرية، وستيّة الطبلاوية. وهكذا وجدت لها معلّّمت وزميلات يقرأن الأدبَ، ويعرفن فنَّ الشعر والعروض، وأحضرتهما وتلمذت عليهما، وتلقّت علومَ العربية عن امرأةٍ أزهرية هي فاطمة الأزهرية التي تخرّجت في الأزهر، وبرعت في العلم والأدب، كما أخذت النحو والعروضَ عن ستية الطبلاوية الأديبة الفاضلة التي برعت في النحو والصرف والعروض .

وعلى هاتين الأديبتين العالمتين أسست عائشةُ التيمورية معارفها في فنّ

الشعر وعمود الأدب، كما أنها اقتسبت من أخلاقهما الفاضلة، ومن معارفهما، ما جعلها بارعة في مجال الأدب والأخلاق، حتى غطت شهرتها شهرة هاتين الأستاذتين الفاضلتين.

لقد درست عائشة من الفنون خير ما كان يدرسه أبناء ذلك الجيل، وضارعت في النظم أحسن من نظموا فيه، وأتقنت بحور الشعر، وأحسنت نظمه، فصارت تنشد القصائد المطولة، والأزجال الممنوعة، والموشحات البديعة التي لم يسبقها أحد إلى معانيها، أو شذو مغانيها^(١).

هذا؛ وقد جمعت عائشة من ذلك ثلاثة دواوين شعرية، بثلاث لغات: عربية، وتركية، وفارسية؛ ولكن هذا الديوان لم يكتب له الخلود، ولم تستطع أن تطبعه لظروف مرت بها - سنعرضها فيما بعد -؛ وقد جعلتها تلك الظروف ملكة الرثاء في وقتها.

خَنَسَاءُ الْعَصْرِ وَيَتِيمَةُ الدَّهْرِ:

بينما كانت عائشة التيمورية - رحمها الله - تتألق في أجواء الشهرة، وتأخذ مكانها بين كواكب السحر في سماء العظام، وتقتعد سدة نور المعرفة في سواد الظلام، وتلمع بأفكارها وأشعارها في جنح الليالي؛ في هذه الأثناء توخى حمام الموت ابتها توحيدة، وواسطة عقد آمالها، والتي كانت أمل حياتها وحياة أملها، وأنس همساتها، وهمسات أنسها؛ ماتت ابنتها فماتت معها تطلعات عائشة، وتبعثرت دُرر أقوالها، فقد أثر فيها موت ابنتها أثراً كبيراً، لأنها ماتت في زهرة عمرها، إذ كانت في ربيعها الثامن عشر، وقد وافاها الأجل وفاجأها الموت وهي في الذورة العليا من سرورها الذي كانت تعيشه، لقد أصابها المرض وهي في ريعان شبابها، وفتك بها في رمضان سنة (١٢٩٤ هـ)، وفي شهر زفافها، ومن هنا كانت فاجعة عائشة بابنتها كبيرة جداً، فقد رأت توحيدة مخلوقاً جامداً في حضنها، مخلوقاً

(١) قال عباس محمود العقاد: وشعرها يعلو إلى أرفع طبقة من الشعر، ارتفع إليها أدباء مصر في أواسط القرن التاسع عشر.

هامداً لا حراك به ، فأخذت تبكيها أحراً بكاء ، وأضحت ترى الكون متهدماً
مظلماً ، عندما أغمضت ابنتها عينيها إلى الأبد .

يا ويح عائشة ! ويا حسرتها ! لقد فقدت ابنتها في زينة شبابها ، فلم تُمتّع
بالشباب ، ماتت ابنتها في مرض خفي لم يستطع الأطباء إنقاذها من برائنه
فضلاً عن تحديد هويته التي ما زالت مجهولة لأمتها . وكثيراً ما يكونُ الحزن
شديداً إذا لم يُعرفِ السببُ ، ومن هنا كان حزن عائشة طويلاً عريضاً لفقدائها
ابنتها ، وفقدائها أنسها وأدبها وظرفها وشاعريتها الغضة .

* ترجمت عائشة بعضَ جوانبِ أحزانها وأشجانها في ذلك فقالت : قبل
أن تنطرح - توحيدة - على فراشِ المرض ، فاجأْتُها في أحدِ الأوقات ، وهي
في رداءِ نومها ، وبين أناملها قلمٌ تكتبُ به القطعة العربية الآتية :

اسمِعْ مَقَالِي يَا أَرِيبَ	وَقَصَّيْ شَرْحُ مَرِيبَ
قَدْ كُنْتُ فِي دَوْحِ الصَّبَا	أَهْتَرُ كَالْغُصْنِ الرَطِيبِ
أَصْبَحْتُ حَالِي عِبْرَةً	يَبْكِي عَلَى مِثْلِي الْغَرِيبِ
كَلَّا وَلَا لِي مِنْهُلٌّ	أُرَوِّى بِهِ إِلَّا النَّحِيبِ
فَالدَّمَعُ مِنِّي سَاجِمٌ	وَالرَّمْسُ أَضْحَى لِي قَرِيبِ
يَا رَبِّ عَجَّلْ رَحْلَتِي	وَاعْفِرْ ذُنُوبِي بِالْحَبِيبِ

فلما رأتني مقبلةً عليها ، دسَّتْ رقعةَ الشعر تحت وسادتها بسرعة ،
ولكنني بادرتُ في الحال لاستخراجها ، فاختطفَتْها مِنِّي ، ثم خاطبتني قائلة :
لا تعبئي يا أمي المشفقة بمثل هذه الثثرة .

ثم قالت لجاريتهما : خُذي هذي الورقة فاحرقِيها . فلحقتُ بالجارية
وأخذتُ الورقةَ منها ، وألححتُ عليها بالسؤال فأجابتنِي : إنَّ سيدتي تتناولُ
الطَّعام معك إذعاناً لرأفةِ أمومتك ، ولكنَّ الطَّعام لا يبقى بعد ذلك لحظةً في
جوفها ، وهي تذهبُ كلَّ ليلةٍ إلى سرير نومها تطميناً لقلبك ، غيرَ أنها
لا يغمضُ لها جفن .

بهذه النبرات الهامسات ترسمُ كلُّ واحدةٍ من المرأتَيْن ؛ - عائشة وابنتها -

عواطفهما وقلبهما على الورق، وكلّ واحدة منهما تنظرُ للأخرى بعين الشَّفقة، وعين العطف.

ولكنَّ عينَ العطف من الأُمِّ كانت أكثر استمراراً، إذ إنَّها استمرت في الحياة قرابة ثلث قرن بعد ابنتها وهي ترسمُ مشاعرها بالكلمات المؤثرة في التّفجع والتّوجع والأنين؛ بينما كانت ابنتها - من قبل - قد عرفت أنَّها ستلاقي وجهَ الكريم المتعال، وأنَّه لا مجال لبُرائها وخلاصها من وهدة المرض، وها هي تخاطبُ أمَّها برقيق اللفظ، وحنان الشَّفقة، وتسكب في وجدانها أن لا مناصَ من الموت، ولا مفرّاً من المرض، وسيبقى وجهُ الله ذو الجلال والإكرام، فكلُّ مَنْ على الأرض فإنِ وصائرٌ إلى الزّوال، وكأنَّها لحظاتٌ وداع، وحقّاً كانت تلکم لحظاتُ الوداع، اسمعها تقول: عبثاً تدفعك الشَّفقة يا أمّاه إلى معالجةِ أمراضِي، فإنَّه قد آنَ الأوّان، ولا مناصَ من تلبية المنادي: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، وإني أضرعُ إلى الله أن يلهمَّكَ صَبْرَ أيّوب، وأن يمنحني نعمةَ رضاك، فيكون ذلك سبب الرّحمة، والتّجاوز عن سيّئاتي، وأن يصونَ شقيقي وإخوتي. ثمّ ضمّنتني إلى صدرها فاعتنقنا، وبتنا ليلتنا إلى الصّباح في بكاءٍ وانتحابٍ ونواح.

* واستولى الحزنُ على عائشة، وغلّفها الأسفُ الشّدید، حيث إنَّ ابنتها توحيدة كانت مدبرة منزلها، ولم تحوجّها لأحد، بل كانت ملهمتها في شِعْرها الذي تفرّغت له فتفرّغ لها، وسالَ على لسانها، فأسالَ إعجاب الأدباء والعلماء والکتاب، فأثنوا على أدبها، وأطروا شِعْرها بعرائسِ الكلام البديع الذي يرفعُ من مقدارها الأدبي.

* وبموتِ توحيدة، تركتْ عائشةُ الشّعْر، وأعرضت عن العروض، وزَحَفَتْ عليها العِللُ، وفَرّقت بينها وبين المعرفة ودنيا العلم. ثم إنَّ عائشة جعلتْ ديدنها الرّثاء والتّوجع مدّة سَبْع سنوات كانت عجافاً أكلت سِمَان أدبها وكثيراً من شِعْرها، ومن ثمَّ أصابها رَمَدُ العيون، وكان الحزنُ يذهبُ بضياءِ عينيها، بل كادت عيناها تبيضُ من الحزن، ويكاد يقضي عليها الأسى لولا أن كثرت لواحيتها، وكثر عواذلُها من أولادها وأقاربها وصُويحباتها،

وَنَصَحَهَا النَّاصِحُونَ وَالْأَحْبَابُ، وَأَشْفَقُوا عَلَيْهَا مِمَّا هِيَ فِيهِ لِتَقْلَعَ عَنِ الْحَزَنِ
وَالْتَوَحُّ، فَرُبَّمَا تَصْبَحُ إِذَا مَا اسْتَمَرَّتْ عَلَى ذَلِكَ رَهِينَةَ الْمُحْبِسِينَ^(١)، وَعِنْدَهَا
أَقْلَعَتْ عَنِ الْبُكَاءِ وَالتَّوَحُّ، فَشَفَاها اللهُ مِمَّا نَزَلَ بِعَيْنِهَا؛ وَبَعْدَ أَنْ شَفِيَتْ مِنْ
مَرَضٍ عَيْنِيهَا أَنْشَأَتْ تَقُولُ:

مَرَرْتُ مُشِيدَةً مَا مَسَّهَا لَغَبٌ
شَفَافٌ مَنَظَرُهَا فِي أَحْسَنِ الْخُلُقِ
وَنُورُهَا ضَاحِكٌ تَبْدُو نَوَاجِذُهُ
لَمَّا تَنَفَّسَ صُبْحُ الصَّحْوِ عَنْ شَفَقِ
قَدْ ضَمَّ بِالشَّوْقِ مَحْبُوباً يَعُوذُهُ
مَنْ الْوَشَاةِ بَرَبِّ الثُّورِ وَالْفَلَقِ^(٢)

وَرَسَمْتُ عَائِشَةً أَيْضاً قِصَّةَ شَفَائِهَا بِالْكَلِمَاتِ الثَّرِيَّةِ الْحُلُوةِ فَقَالَتْ:
أَصْبَحَ جِسْمِي الضَّعِيفُ كَأَنَّهُ فَاقَدُ الْحَيَاةِ لِكثْرَةِ أَتْعَابِي وَأَوْصَابِي، ثُمَّ أَنْعَمَ اللهُ
عَلَيَّ بِالشِّفَاءِ، وَأَشْرَقَتْ ظِلْمَاتُ كَأْتِي بِنُورٍ وَجُودِ ابْنِي مُحَمَّدٍ، فَكَانَ فَرَحَةً
بَيْتِ الْحَزَنِ.

إِنَّ شِفَاءَ عَيُونِ عَائِشَةَ لَمْ يَتَوَقَّفْ أَمَامَ عَوَاطِفِهَا، بَلْ شَدَّتْ بِأَبْدَعِ أَشْعَارِ
الرِّثَاءِ فِي ابْنَتِهَا، وَصَاغَتْ أَعْذَبَ كَلِمَاتِ الْحَزَنِ الَّتِي تُصَافِحُ الْوُجْدَانَ،
وَجَدَّدَتْ ذِكْرَى الْخِنْسَاءِ تِلْكَمُ الشَّاعِرَةِ الْبَاكِيةِ الرَّائِثَةِ، الَّتِي لَمْ يَكُنْ مِنْ

(١) «رهين المحبسین»: هو لقب لأبي العلاء المعري؛ وذلك لعمّاه ولزومه البيت،
ولذا سمي بذلك وقسنا عليه عائشة التيمورية بذلك. يقول المعري وقد اعتبر نفسه
أنه رهين لثلاثة محابس:

أُرَانِي فِي الثَّلَاثَةِ مِنْ سَجُونِي فَلَا تَسْأَلُ عَنِ الْخَبَرِ النَّبِيْثِ
لِفَقْدِي نَاطِرِي وَلِزُومِ بَيْتِي وَكُونِ النَّفْسِ فِي الْجِسْمِ الْخَبِيْثِ
(٢) انظر: حلية الطراز: شعر عائشة التيمورية (ص ١٩٠)، ولاحظ معي - أيها القارىء
الكریم - تأثر الشاعرة عائشة بالفاظ ومعاني القرآن الكريم من خلال الكلمات
التالية: مَسَّهَا لَغَبٌ، تَنَفَّسَ صُبْحٌ، الْفَلَقُ، يَعُوذُهُ، شَفَقَ؛ وشعر عائشة التيمورية
- في مجمله - قد تأثر تأثراً كبيراً في القرآن الكريم في ألفاظه ومعانيه وصوره
ونواحيه - كما سنرى في الصفحات القادمة بعون الله ومشيئته -.

الشّواعر المعروفة من بعدها إلا مقلّداً مُردّداً، حتى جاءت عائشة التّيمورية، فجوّدت الرّثاء في ابتها توحيدة، وأتت ببدايع المعاني، وحركت المشاعر بهاتيك المباني، فكانت بذلك يتيمة دهرها، وعَصْرَة أهل عصرها، وخنساء^(١) وقتها.

ومن أبدع رثاء عائشة لابنتها، تلك القصيدة الرّائية التي بلغت خمسين بيتاً، وهي من أرق شعرها وأصدقهِ عاطفةً، وأجملهِ تصويراً، وأحلاه موقعاً في النفوس، فقد قالت في مطلعها:

إِنْ سَأَلَ مِنْ غَرْبِ الْعُيُونِ بُحُورُ

فَالدَّهْرُ بَاغٍ وَالزَّمَانُ غَدُورُ

وفيهما تشيّر وتذكر ما حلّ بابنتها من مرضٍ، وكيف مضت وهي في عمر أزاهر الورد، وأزاهر الصّبا، ثم تذكر حزنها فتقول:

سُتِرَ السَّنا وَتَحَجَّبَتْ شَمْسُ الضُّحَى	وَتَنَقَّبَتْ بَعْدَ الشُّرُوقِ بُدُورُ
وَمَضَى الَّذِي أَهْوَى وَجَرَ عَنِي الْأَسَى	وَعَدَتْ بِقَلْبِي جَذْوَةً وَسَعِيرُ
لَوْ بُتُّ حُزْنِي فِي الْوَرَى لَمْ يُلْتَقَ	لِمَصَابٍ قَيْسٍ وَالْمَصَابِ كَثِيرُ
طَافَتْ بِشَهْرِ الصَّوْمِ كَاسَاتِ الرَّدَى	سَحَرًا وَأَكْوَابُ الدُّمُوعِ تَدُورُ
فَتَنَاوَلْتُ مِنْهَا أَبْتَنِي فَتَغَيَّرَتْ	جَنَاتُ خَدِّ شَانَهَا التَّغْيِيرُ
فَذَوْتُ أَزَاهِيرِ الْحَيَاةِ بِرُوضِهَا	وَالْقَدُّ مِنْهَا مَائِسٌ وَنَضِيرُ

ثم تتحدّث عائشة التّيمورية بهذه المحاوراة اللطيفة عن الطّبيب الذي يعالجُ ابتها، ولكنّ الأقدار هي التي مضت، وكانت إرادة الله ومشيتّه.

لقد أبدعت عائشة التيمورية في هذه القصيدة، وأتت بروائع الصّور الجميلة المؤثرة، لذلك اشتهرت تلك القصيدة، وأشاد كثير من الأدباء

(١) من الجدير بالذكر أن حمدة بنت زياد الأندلسية كانت تلقب بخنساء المغرب وشاعرة الأندلس (معجم الأدباء ٢٧٥/١٠) وقرأ ترجمتها في الوافي بالوفيات للصّفي، وفي معجم الأدباء (٢٧٤/١٠ - ٢٧٨). وكذلك اقرأ سيرتها مفصلة في كتابنا «نساء في القصور».

والثُّقَادَ والمتذوّقين شعَرَ عائشة التيمورية، وذلك لأنّها سلكت طريقة التصوير القصصي القائم على الحوار بين الفتاة المتوفاة توحيدة وأمّها عائشة، ولأنّها تُداعِبُ الأحاسيس، وتحرك حنايا القلوب أسفاً على حَبَاتِ القلوب، وحُزناً على فلذات الأكباد:

لَبَسَتْ ثِيَابَ السُّقْمِ فِي صِغَرٍ وَقَدْ ذَاقَتْ شَرَابَ الْمَوْتِ وَهُوَ مَرِيئٌ
جَاءَ الطَّبِيبُ ضَحَىَّ وَبَشَّرَ بِالشِّفَا إِنَّ الطَّبِيبَ بِطَبِّهِ مَغْرُورٌ
وَصَفَ التَّجَرُّعَ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ بِالْبُرءِ مِنْ كُلِّ السَّقَامِ يُشِيرُ
فَتَنَفَّسَتْ لِلْحُزْنِ قَائِلَةً لَهُ عَجَلُ بُرْئِي حَيْثُ أَنْتَ خَيْرُ
وَارْحَمْ شَبَابِي إِنَّ وَالِدَتِي غَدَتْ ثَكْلِي يَشِيرُ لَهَا الْجَوَى وَتُشِيرُ
وتتابع عائشة في رسم هذا المشهد المؤثر الأسر المعبر، فتصور ياس فتاتها، وتيقنّها بعجز الطبيب، ولك عزيزي القارئ أن تتصور عاطفة الأم المفجوعة وهي تترجم عواطفها وتسكبها شعراً في هذه القصيدة الرائعة، لتتنزع منك الدمع وتشاركها حزنها:

أُمَاهُ قَدْ كَلَّ الطَّبِيبُ وَفَاتِنِي مِمَّا أُوْمِّلُ فِي الْحَيَاةِ نَصِيرُ
لَوْ جَاءَ عَرَافُ الْيَمَامَةِ يَبْتَغِي بُرْئِي لَرَدَّ الطَّرْفَ وَهُوَ حَسِيرُ
أُمَاهُ قَدْ عَزَّ اللَّقَاءُ وَفِي غَدٍ سَتَرَيْنَ نَعْشِي كَالْعُرُوسِ يَطِيرُ
وَسَيَنْتَهِي الْمَسْعَى إِلَى اللَّحْدِ الَّذِي هُوَ مَنْزِلِي وَلَهُ الْجَمُوعُ تَصِيرُ
قُولِي لِرَبِّ اللَّحْدِ رَفْقاً بِابْنَتِي جَاءَتْ عَرُوساً سَاقَهَا التَّقْدِيرُ
وَتَجَلَّدِي بِإِزَاءِ لَحْدِي بُرْهَةً فَتَرَكَ رُوحُ رَاعِهَا الْمَقْدُورُ
أُمَاهُ قَدْ سَلَفَتْ لَنَا أُمْنِيَّةُ يَا حُسْنَهَا لَوْ سَاقَهَا التَّيْسِيرُ^(١)

ولا بدّ لنا من وقفة هنا عند هذه الأبيات، إذ نرى شاعرنا عائشة التيمورية قد استمدت بعض عباراتها من الماضي البعيد، كقولها: «لو جاء عراف اليمامة»^(٢)، وهذا يدلّ على مدى عمق ثقافتها ومعارفها الواسعة، ثم

(١) حلية الطراز (ص ٢١٠) وما بعدها.

(٢) «عراف اليمامة»؛ اسمه: رباح بن عجلة، قال الشاعر:

فَقُلْتُ لِعَرَافِ الْيَمَامَةِ دَاوِنِي فَإِنَّكَ إِنْ دَاوَيْتَنِي لَطِيبُ

إنَّها تبدو متأثرة أشدَّ الأثر بمعاني القرآن الكريم، من ذلك قولها: «رَدَّ
الطَّرْف وهو حَسِيرٌ»، إذ استمدَّت ذلك من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْجَعِ الْبَصَرَ كَرَيْنَ
يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [الملك: ٤].

ووقفَةٌ أخرى لا بدَّ من الإشارة إليها، وهي تصوير نعش العروس في
القصيدة، وذلك عندما شبَّهت موكبَ الجنازة بموكب العرس، وصورة
العروس تُعبِّر عن الفرح، ولا تتفق مع موكب الحزن الذي يسيطر على
القصيدة، ولكنه يبدو لنا أنَّ ذلك يتمثِّل في محاولة هروب عائشة التيمورية
من الواقع الذي فاجأها بموت ابنتها الأثيرة لديها، فهي أمٌّ، وهي ثكلى،
والأمُّ تحرَّصُ أشدَّ الحرص على اليوم الذي ترى فيه ابنتها عروساً، - وخاصة
أنَّ توحيدة ابنتها كانت في ميعة الصِّبا كزهر الرُّبى - فراحت عائشةُ تعبِّر عن
الصُّورة التي استقرت في مخيلتها لمستقبل ابنتها.

والقصيدة هذه جميلة، أسرة لمجامع القلوب، تستدرُّ دمعَ العيون، فمن
خلال الحوار والتجوى تطلبُ توحيدة من أمِّها أن تزورها في قبرها، وأنَّ
تتفقَّدها بتلاوة الذكر الحكيم والقرآن العظيم، وتخصَّصها بالدعاء لتحظى
برحمة الرحمن الرحيم؛ وما أعذبها من كلمة تقولها: أمَّاه!! بل ما أشدَّ حزن
عائشة وهي تسمع كلمة أمَّاه!

قَبْرِي لِئَلَّا يَحْزَنَ الْمُقْبُورُ	أُمَّاهُ لَا تَنْسِي بِحَقِّ بُنُوتِي
فَسِوَاكِ مَنْ لِي بِالْحَنِينِ يَزُورُ	وَرَجَاءَ عَفْوٍ أَوْ تَلَاوَةِ مُنْزَلٍ
هُوَ رَاحِمٌ بَرٌّ بِنَا وَغَفُورُ	فَلَعَلَّمَا أَحْظَى بِرَحْمَةِ خَالِقٍ
وَالدَّهْرُ مِنْ بَعْدِ الْجَوَارِ يَجُورُ	فَأَجَبْتُهَا وَالِدَمْعُ يَحِيسُ مُنْطَقِي
قَدْ زَالَ صَفُوُّ شَأْنِهِ التَّكْدِيرُ	بُنْتَاهُ يَا كَبْدِي وَلَوْعَةُ مُهْجَتِي
مَا غَرَّدَتْ فَوْقَ الْغُصُونِ طَيُورُ	وَاللَّهِ لَا أَسْلُوَا التَّلَاوَةَ وَالِدُعَا

وقبيل نهاية القصيدة، وفي الشَّوط الأخير منها، تبدعُ عائشة أتما إبداع،
وتبدو مستسلمة لقضاء العزيز الحميد، فتدعو الله أنَّ يجمعها مع ابنتها في
جنَّات النِّعيم، ومع الحورِ العِين، فهذا هو النِّعيم المقيم:
أَبْكِيكَ حَتَّى نَلْتَقِيَ فِي جَنَّةٍ بِرِيَاضٍ خُلِدَ زَيَّتُهَا الْخُورُ

إِنْ قِيلَ عَائِشَةُ أَقُولُ لَقَدْ فَنَى
وَلَهِيَ عَلَى تَوْحِيدَةِ الْحُسْنِ الَّتِي
قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللِّسَانُ وَخَالِقِي
مُتَّعَتِ بِالرَّضْوَانِ فِي خِلْدِ الرِّضَا
وَسَمِعَتِ قَوْلَ الْحَقِّ لِلْقَوْمِ ادْخُلُوا
هَذَا النَّعِيمُ بِهِ الْأَحَبَّةُ تَلْتَقِي
ثُمَّ تَخْتَمُ هَذِهِ الرَّائِعَةُ بِقَوْلِهَا:

وَلَكِ الْهَنَاءُ فَصِدْقُ تَارِيخِي بَدَا
تَوْحِيدَةُ رُفَّتْ وَمَعَهَا الْحَوْرُ^(١)
وكما لاحظنا في رائية عائشة هذه، فقد أثارت الشَّجون، وحركت
العواطف، وكانت خنساء العصر في رثاء ابنتها، وقد بلغت نبرات هذه
القصيدية أذن الجوزاء، وصافحت نجوم الليل في أنحاء السَّماء.

أَمِيرَةُ شَعْرِ الرِّثَاءِ فِي عَصْرِهَا:

إِنَّ عَائِشَةَ التَّيْمُورِيَّةَ وَاحِدَةً مِنَ النِّسَاءِ الشَّوَاعِرِ اللَّوَاتِي حَلَّقْنَ فِي فَنِّ
الرِّثَاءِ، وَأَجَدْنَ فِي هَذَا الْمَجَالِ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِبْدَاعُهَا مَنْحَصراً فِي رِثَاءِ ابْنَتِهَا
تَوْحِيدَةً، وَلَكِنَّهَا طَرَقَتْ هَذَا الْفَنَّ مِنْ قَبْلِ وَأَجَادَتْهُ، لَقَدْ مَاتَ - مِنْ قَبْلِ - عِدَدٌ
مَنْ أَهْلِهَا وَذَوِيهَا وَمِنْهُمْ: أَبُوهَا، وَأُمُّهَا، وَأَخْتُهَا وَغَيْرُهُمْ.

ففي سنة (١٢٨٩ هـ) مات والدها، ولم تمضِ وفاته دون أثر بالغ، فقد
حفر أخاديد في قلبها، وقد مرَّ معنا عنايته بها، وشده أزرها، حتى اشتدَّ
عودها في الأدب والشَّعر، وحتى نمت مواهبها وتناولت فروع معارفها
لتلامس الأسماع في سائر البقاع، فكان حقاً عليها رثاء والدها، وجاشت
الكلمات في صدرها، فإذا بها تنبعث بهذه الأبيات الجميلات الجميلة التي
ترسمه من خلالها بالبدر الذي غاب من بين نجوم السَّماء في الليلة الظلماء:

(١) انظر: حلية الطراز (ص ٢١٠) وما بعدها، والدر المنثور (ص ٣١٣ - ٣١٥) وأعلام
النساء (١٦٧/٣) وما بعدها، ونساء من الإسلام (١/ ٥٢ و ٥٣).

عَزَّ الْعَزَاءُ عَلَى بَنِي الْغُبَرَاءِ لَمَّا تَوَارَى الْبَدْرُ فِي الظُّلُمَاءِ^(١)
حَقٌّ عَلَى الْأَيَّامِ تَنْدُبُ فَقَدْ مَنْ هُوَ نَيْرُ الْإِفْصَاحِ لِلْبُلْغَاءِ

إِنَّ لَأَبِيهَا أَكْرَمَ أَثَرٍ يُحْمَدِ، وَأَعْظَمَ فَضِيلَةَ تَنْشُرَ، لَكُونَهُ عُنِيَ بِتَعْلِيمِ كَرِيمَتِهِ
عَائِشَةَ، وَنَظَمَهَا فِي عَقْدِ الشَّهِيرَاتِ، مِنْ شَوَاعِرِ الْعَصْرِ وَمَشَاهِيرِ الْأَدِيبَاتِ،
وَإِنَّ عَائِشَةَ ابْنَتَهُ لَنْ تَنْسَى فِرَاقَهُ، وَهِيَ تَذْكُرُهُ، وَتُذَكِّرُ سَامِعِيهَا بِصُعُوبَةِ
فِرَاقِهِ، فَإِلَى مَنْ تَرَكْنَ بِمَكُونِ نَفْسِهَا بَعْدَ فِرَاقِهِ؟!

أَبْتَاهُ قَدْ حَشَّ الْفِرَاقُ حَشَاشَتِي هَلْ يَرْضِي الْقَلْبَ الشَّفُوقَ جَفَائِي
يَا مَنْ يَحْسُنُ رِضَاهُ فَوْزُ بُنَوْتِي وَعَزِيزِ عَيْشَتِهِ تَمَامُ رَحَائِي
إِنْ ضَاقَ بِي ذَرْعِي إِلَى مَنْ أَشْكِي مِنْ بَعْدِ فَقْدِكَ كَافِلًا بِرَضَائِي

وَفِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ اللَّطِيفَةِ تَبَيَّنَ حَسْرَاتُهَا وَآهَاتُهَا، وَتَتَسَاءَلُ: هَلْ كَانَ
أَبُوهَا رَاضِيًا عَنْهَا؟! ثُمَّ تَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَتَغَمَّدَهُ بِالرَّحْمَةِ وَالنَّعْمَةِ فِي جَنَاتِ
النَّعِيمِ:

يَا حَسْرَةَ ابْنَتِهِ إِذَا نَظَرْتَ لَهَا بِمَمَاتِهِ عَيْنٌ مِنَ الْبِأْسَاءِ
قَالَتْ وَحَقَّ سَنَا أَبُوتِكَ الَّتِي كَانَتْ ضِيَاءَ الْأَمْنِ لِلْأَبْنَاءِ
يَا كَنْزَ آمَالِي وَذَخِرَ مَطَالِبِي وَسُعُودَ إِقْبَالِي وَعَيْنَ سَنَائِي
أَبْتَاهُ قَدْ جَرَّعَنِي كَأْسَ النَّوَى يَا حَرَّ جُرْعَتِهِ عَلَى أَحْشَائِي
يَالَيْتَ شِعْرِي حِينَما حَلَّ الْقَضَا هَلْ كُنْتُ عَنِّي رَاضِيًا أَمْ نَاءِ
لَمَّا قَضَى الْمَوْلَى بِبُعْدِكَ وَانْقَضَى أَمَلِي مِنَ الدُّنْيَا وَقَلَّ عَزَائِي
وَجَّهْتُ مُبْتَهَلًا لِرَبِّي وَجْهَتِي لِيُعَمَّ رَوْحُكَ مِنْهُ بِالنَّعْمَاءِ
فَلَكَ الْهَنَا بِالْخُلْدِ فُزْتُ بِعَذْبِهِ إِذْ أَنْتَ مَعْدُودٌ مِنَ الشُّهَدَاءِ
وَلِيَ التَّقَلُّبُ فِي سَعِيرٍ تَحْرِقُنِي مَا دُمْتُ عَائِشَةَ لِيَوْمِ فَنَائِي^(٢)

(١) مَا أَجْمَلَ هَذَا التَّعْبِيرَ! وَهَذَا الْمَطْلَعُ الَّذِي وَفَّقَتْ عَائِشَةُ التَّيْمُورِيَّةَ لاختياره،
وَيَذْكُرُنِي بِقَوْلِ أَبِي تَمَامِ الطَّائِي فِي رِثَائِهِ مُحَمَّدَ بْنَ حَمِيدِ الطُّوسِيِّ مِنْ قَصِيدَتِهِ الرَّائِيَةِ
الرَّائِعَةِ الْجَمِيلَةِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا:

كَأَنَّ بَنِي نِهَانَ يَوْمَ وَفَاتِهِ نَجُومُ سَمَاءٍ فَلَّ مِنْ بَيْنِهَا الْبَدْرُ
(٢) شَاعِرَاتُ الْعَرَبِ (ص ٢٢٥ و ٢٢٦).

وكان لوالدتها نصيبٌ موفورٌ في شِعْرها، إذ رثتها بقصيدةٍ عينيةٍ رائعة، طلبتُ من اللهِ خلالها الرَّحمةَ والمَغْفرةَ، بل كانت تدعو اللهَ أن يجعلَ نُزُلَها جَنَّةَ المأوى، فأُمُّها واحدةٌ من فضليات النساء اللاتي مضيْنَ وترُكنَ أنصَحَ آيات الطَّهارة، وأجملَ صُورِ العفافِ والثَّقَى والصَّيانة، ولعلَّ أبرزَ ما في رثائها أمُّها أنَّها هنأتِ القبرَ بها لكونها محجَّبةً لم يرها رجلٌ أجنبيٌّ في حياتها غير محارمها، وتمنَّتْ لو تفديها بنفسها، «ولكن ليتَ ليست تنفع»؛ فالتَّسليم والاستسلام إذاً للعلیم الخبير:

يا قَبْرُ فَاهَنْأُ بِالتِّي أَحْرَزْتَهَا هي دُرَّةٌ بِالدَّرَجِ لاحتَ تَسْطَعُ
يا رَبِّ فَاجْعَلْ جَنَّةَ المأوى لَهَا داراً بِطَيْبِ نَعِيمِهَا تَتَمَتَّعُ
وَاسْكُبْ عَلَى حَصَبائِها سُحْبَ الرِّضَا فَضْلاً وَإِنْ تَكُ قد سَقَتْها الأَدْمَعُ
ذَهَبَ الأَحْبَةِ واسْتَقِلَّ رِكابُهُم يالَيْتَ رُوحِي ودَّعْتَ إِذْ وُدَّعُوا
يا لَيْتَهُم طَلَبُوا الفِداءَ فَهَذِهِ رُوحِي وَلَكِنْ لَيْتَ لَيْسَتْ تَنْفَعُ

هذا؛ وفي ديوانها «حِلْيَةُ الطَّرَازِ» نجدُ مراتٍ كثيرة رثتُ بها أختها التي توفيتُ وهي في مِيعَةِ الصِّبا؛ وتتساءل عائشة بل تتعجب بالتَّشْتِ التي أَضَرَّ بها، فلا تملكُ إلا الحزنَ تنفُثُ سحبه، ولكنها تملكُ أدمعها الذَّاتِية فوق جناتها، وكذلك مداد قلمها الذي سَطَّرَ وَأَرَّخَ مَرثِيَتَها، أمَّا ما كُتِبَ على القبرِ فَلهُ شَأْنُ آخَر:

أَحَبِّبَتِي كَيْفَ الرِّضَا بِتَشْتِ قَدْ ضَرَّ بِالْإِخْوانِ والأَوْلادِ
يا مَنْ أَتى لِلقَبْرِ يَقْرَأُ طَرْسَهُ مَهْلاً فَلَيْسَ كِتَابَهُ بِمَدادِ
وَأَعِدْ لَهُ نَظْراً فَإِنَّ حُرُوفَهُ كُتِبَتْ بِذُؤَبِ العَيْنِ والأَكْبَادِ
وُجِدَتْ وَأَعْدَمَها الزَّمانُ حَيَّاتِها ما أَقْرَبَ الإِعدامَ لِلإِجْادِ

* وفي مراثي عائشة التيمورية - رحمها الله - نجدُ قصائد أُخَر، أبدعت فيها أيَّما إبداع، بل بلغت في مراثيها للشيخ «إبراهيم السَّقّا» - وهو من العلماء الأعلام الأفاضل - عنان السَّماء، وصافحت أذنَ الجوزاء والمُشتري، في بلاغتها برئاء هذا العبقري؛ وكيف لا ترثيه وهو سقاء المعالي، ودوحَةُ البستان، وكلماته رحيق المعاني الحسان، إذاً، فلتسكب عائشة عليه الدَّمع

من وراء خدرها، ومن صبيب عاطفتها، التي أبت عليها إلا أن تذكر اسمها
في آخر سطر من هذا الرثاء الموجه الذي يحرك سواكن الأشجان :

الدَّهْرُ أَبَدَلْ رَاحَتِي بِعَنَاءِ حَلَّ الْعُرَى بِضَمَائِرِ الْعُلَمَاءِ
شَجَنْ عَرَى الْإِسْلَامَ بِالظُّمَأِ الَّذِي كَانَتْ بِهِ كَالدَّوْحَةِ الْخَضْرَاءِ
أَضَحَتْ حَصِيداً أَرْضَ أَزْهَرِنَا الَّتِي قَدْ غَابَ سَقَاءُ الْعُلَا بِالْمَاءِ
تَشْكُو الْأَوَامَ وَمَا بِهَا مِنْ مُطْفِئٍ وَأَلَوْعَتِي مِنْ حَرِّهِ وَشَقَائِي
قَلْبِي عَلَيْهِ غَدَا كَجِمَرَاتِ الْغَضَا مَا دُمْتُ عَائِشَةً بِخَدْرِ فَنَائِي

أَخْلَاقُهَا وَمَعَالِمُ مِنْ سِيرَتِهَا :

عاشت السَّيِّدَةُ عائِشَةُ التَّيْمُورِيَّةُ - رحمها الله - حياةَ العِفَافِ والصِّيَانَةِ،
وكانت تدعو في أشعارها وأقوالها إلى كريم الأخلاق، وأخلاق الكرام، وفي
مقدمة دعوتها إلى ميدان الأخلاق: نداؤها العذب الفرات للتَّحَلِّيِ بِالْعِفَافِ
والحجاب، وهما ممَّا يجبُ أَنْ تَكُونَ كُلَّ امْرَأَةٍ - في كُلِّ عَصْرٍ - تتحلَّى
وتتجمل بهاتين الخصلتين الشريفتين .

ولعلَّه من المفيد - هنا - أَنْ نشيرَ إلى كثيراتٍ من شواعر^(١) عصرنا
الحالي بأنهنَّ قد تحدثن عن مكارم الأخلاق التي يجبُ أَنْ تتحلَّى بها النِّسَاءُ؛
فهذه إحداهن تُسألُ عن أدوات زينتها وتحسين جمالها، فتجيبُ من منظور
الشريعة الغراء الزَّهراء البيضاء إجابةً تنمُّ عن مدى معرفتها بالأخلاق الفاضلة
التي تشيّدُ بها النِّسَاءُ البيوتَ، وتربِّي الأجيالَ على موائد النِّقَاءِ، فقد أَبانت
أدوات تجميل الشفتين، واليد، والعين، والقوام، ثم القلب، لكن تُرى بأي
أسلوب عبّرتُ عن وسيلة الزينة؟! بل ما أدوات التجميل عندها؟! فلنقرأ
ما جادتُ به بناتُ أفكارها لبناتِ جنسها من كلماتٍ ومعاني عذابٍ في هذا
الميدان الرَّحِبِ الفسيح :

(١) في عصرنا الحالي تظهرُ بعض الأصوات النسائية في مختلف أرجاء الوطن العربي،
وتحملُ عبقات الأنوار الطيبة، وتدعو إلى الأخلاق الحميدة، كما أنَّ بعض النساء
الشاعرات يشاركن في صياغة السيرة النبوية وغير ذلك بأسلوب شعري جميل .

وَحَلَاكِ فَرْطُ تَزْيِينِ بَفَضَائِلِ
فَالْقَلْبُ بِالْإِخْلَاصِ لِلَّهِ انْتَشَى
وَالصَّدْقُ لِلشَّفَقَتَيْنِ خَيْرٌ تَجَمُّلِ
وَبَهَاءُ صَوْتِكَ فِي تِلَاوَةِ مُصْحَفِ
وَالْبِرُّ وَالْإِحْسَانُ لِلْيَدِ حَلِيَّةُ
أَمَّا الْقَوَامُ فَالْإِسْتِقَامَةُ دَرْعُهُ
وَالْعَيْنُ فِي الْإِشْفَاقِ كُحْلُ لِحَاطِهَا
وَالْخَيْرُ كُلُّ الْخَيْرِ بَعْدَ تَحُجُّبِ

فَاضَتْ عَلَيْكَ بِهَالَةِ الْأَنْوَارِ
كَمْ يَطْمَئِنُّ بِحَوْمَةِ الْأَذْكَارِ
هَذَا طِلَاءٌ ثَابِتُ الْآثَارِ
بَنَوَاشِيءِ الْأَسْحَارِ وَالْأَبْكَارِ
أَسْمَى وَأَجْدَى مِنْ نَفِيسِ سَوَارِ
بِتَرِيضٍ فِي مَسْدَلِ الْأُسْتَارِ
تَأْسَى لِمَنْ قَدْ بَاتَ فِي أَكْدَارِ
فِي تَرْكِ مَعْصِيَةٍ وَفِي اسْتِغْفَارِ^(١)

لقد حلقت هذه المرأة في رسم وتصوير أدوات التجميل التي ينبغي أن تستعملها المرأة المسلمة المحافظة وتستمر عليها، فجمال الشفتين وتجميلهما بالصدق خير من تجميلهما بالطلاء والأصباغ، وتجميل اليد بالبر والإحسان أسمى وأجمل من تزيينها بالسوار النفيس من ذهب ودرّ وجوهر، والاستقامة كما أمر الله خير جمال للقوام، والشفقة جمال العين وسر سحرها، والإخلاص لله تعالى جمال القلب، ويتحقق جمال الصوت وسحره وعذوبته وبهائه بتلاوة القرآن العظيم، وحسن ترتيله في الغدو والأصال، ثم إن جُلَّ الخير وذروة مكارم الأخلاق، ودرة المحاسن، وخلاصة كل جمال وكمال يتمثل في الحجاب والصيانة، والاستكثار من زاد الاستغفار في أحضان الأسحار^(٢).

(١) هذه الأبيات لشاعرة مصرية اسمها: سهام إسماعيل حجي، وهي تعني بأمور المرأة، وتنشر قصائدها في المجلات الأدبية، وقد حظيت هذه القصيدة بإعجاب كثيرين من شدة فن الأدب والشعر.

(٢) وما أجمل قول إحداهن وهي تصوّر تمسك الفتاة المسلمة بحجابها حين طُلبَ منها خلعه:

لَسْتُ مِمَّنْ تَأْسِرُ الْحَلِيَّ صِبَاهَا
وَحِجَابُ الْإِسْلَامِ فَوْقَ جَبِينِي
كُنْتُ تُغْوِي فَقَرِي بُوْهُمُ قُصُورِ
لَسْتُ أَبْغِي مِنَ الْحَيَاةِ قُصُوراً

فَكُنُوزِي قَلَائِدُ الْقُرْآنِ
هُوَ عِنْدِي أَبْهَى مِنَ التَّيْجَانِ
كُبْرُوجُ تَزْهُو عَلَى الْبُيَّانِ
فَقُصُورِي فِي خَالِدَاتِ الْجَنَانِ

ولذلك فإننا نجد عائشة التيمورية تفتخر وتفتخر بالحجاب، إذ هو رمزٌ للصيانة النسائية، وحسبنا أن نصغي إليها وهي تباهي بحجابها وعفافها ومعرفتها وأدبها:

بِيَدِ الْعَفَافِ أَصُونٌ عِزٌّ حِجَابِي وَبِعِصْمَتِي أَسْمُو عَلَى أَثْرَابِي
وَبِفِكْرَةٍ وَقَادَةٍ وَقَرِيحَةٍ نَقَّادَةٌ قَدْ كُمِلَتْ آدَابِي
فَجَعَلْتُ مِرَاتِي جَيْئَنَ دِفَاتِرِي وَجَعَلْتُ مِنْ نَقْشِ الْمَدَادِ خِصَابِي

وهذه القصيدة البائية الرائعة تعدُّ أربعةً وعشرين بيتاً تحكي الآداب التي يجب أن تكون عند كل امرأة، وكل فتاة تشدُّ جمال الحجاب ورواء العفاف، والتمسك بالدين الإسلامي الذي أمر به العزيز الحميد. كما وتذكر أن الله قد أمر بستر جسم المرأة صوتاً لعفتها، وسمواً لها عن كل ما من شأنه أن يחדش كرامتها؛ ويبدو أن عائشة التيمورية - رحمها الله - متأثرة في قول الله - عز وجل -: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٩]؛ لذلك دعت عائشة التيمورية إلى الحجاب الذي لن يعيق من أرادت التطلع إلى العلياء، وإلى سدة الفخر والعطاء:

مَا ضَرَّنِي أَدَبِي وَحُسْنُ تَعَلُّمِي إِلَّا بَكُونِي زَهْرَةَ الْأَلْبَابِ
مَا سَاءَنِي خِذْرِي وَعَقْدُ عَصَابَتِي وَطَرَّازُ ثُوبِي وَاعْتِرَازَ رَحَابِي
مَا عَاقَنِي حَجَلِي عَنِ الْعَلْيَا وَلَا سَدْلُ الْخِمَارِ بِلَمَّتِي وَنَقَابِي
بَلْ صَوْلَتِي فِي رَاخَتِي وَتَفَرُّسِي فِي حُسْنِ مَا أَسْعَى لِخَيْرِ مَآبِ
نَاهِيكَ مِنْ سِرٍّ مَصُونٍ كُنْهُهُ شَاعَتْ غَرَابَتُهُ لَدَى الْأَغْرَابِ
كَالْمُسْكِ مَخْتُومٌ بِدَرَجِ خَزَائِنِ وَيَضُوعٌ طَيِّبٌ طَيِّبُهُ بِمَلَابِ
أَوْ كَالْبَحَارِ حَوَتْ جَوَاهِرَ لُؤْلُؤِ عَنْ مَسْهَا شَلَّتْ يَدِ الطَّلَابِ

ثم إنَّ عائشة تختتم قصيدتها بقولها:

فَانْزَتْ مُصْبَاحَ الْبِرَاعَةِ وَهِيَ لِي مَنَحَ الْإِلَهَ مَوَاهِبُ الْوَهَّابِ^(١)

(١) انظر: حلية الطراز: ديوان عائشة التيمورية (ص ٢٦٥ و ٢٦٦)، وشاعرات العرب =

وتعتزُّ عائشة التيمورية بصيانتها وحجابها في أكثر من موضع من أشعارها وقوافيها، فهي ترى أنَّ احتجابها لم ينشأ عن عاهة أو عيب، وإنَّما من أجل الصيانة والحفظ والعفاف، وهو الجانب الأخلاقي الفاضل الذي تحبُّه وتعيشُ كيما تحقِّقه، بل وتدعو إليه في شعرها وفي نثرها لتسمع بنات جنسها في أرجاء الأرض:

صِيَانَتِي فِي كُھُوفِ الصَّبْرِ أَنْفَعُ لِي مِنْ حُصْنِ كَسْرِي وَمِنْ أَعْمَاقِ أَغْمَاتِ
وَمَا احْتِجَابِي عَنْ عَيْبٍ أَتَيْتُ بِهِ وَإِنَّمَا الصَّوْنُ مِنْ شَأْنِي وَغَايَاتِي^(١)

إنَّ الأسلوبَ هو الرَّجل؛ والشَّعرُ صورةٌ تشفُّ حقيقةَ الشَّاعر؛ أو الشَّاعرة، فمن خلال نظم عائشة التيمورية نستجلي أخلاقها، فنستحلي طريق العفة الذي تسلكه، وسبيل معالي الأخلاق الذي تدعو إليه:

مَا الْحِظُّ إِلَّا أَمْتِلَاكَ الْمَرْءَ عَقَّتَهُ وَمَا السَّعَادَةُ إِلَّا حُسْنُ أَخْلَاقٍ

ولعلَّ من أبرز صفات عائشة التيمورية، وملامح أخلاقها، بُعْدُهَا عَنِ الثَّرَثَةِ، وتتبع عورات الآخرين والأخريات، فكانت تصون لسانها عن الإسفاف وعن ساقط الكلام، إذ إنَّ حفظَ اللسان من كمال الأخلاق، وخصوصاً أخلاق المرأة العاقلة الفاضلة، بل تدعو عائشة لحفظ اللسان من ذمِّ الناس، وذكر مثالبهم، وتدعو لتترك الخلق للخالق:

أَحْفَظْ لِسَانَكَ مِنْ ذَمِّ الْأَنَامِ وَدَعْ

أَمْرَ الْجَمِيعِ لِمَنْ أَمْضَاهُ فِي الْقِدَمِ

مَعَايِبُ النَّاسِ لَا يَكْبُرْنَ عَنْ غَلْطِي

إِذَا نَمَمْتُ بِهَا فِي مَخْفَلِ الْهِمَمِ^(٢)

وتدلُّ نفعات عائشة التيمورية بأنَّها كانت امرأة ندية الكفِّ، سخيَّة النفس، تكره اللؤم والبخل، فالبخل والشُّحُّ لم يجدا إلى نفسها سيلاً،

= (ص ٢٢٧ و ٢٢٨)، والدر المنثور (ص ٣٠٩ و ٣١٠)، ونساء من الإسلام (١/ ٤٨).

(١) حلية الطراز (ص ١٩٦)، والدر المنثور (ص ٣١٧).

(٢) شاعرات العرب (ص ٢٢٨).

فأخلاقها السَّمحة، وقناعتها من الدنيا قد أرشداها إلى الرُّهد، وعلمهاها ألا تركزن إلى التَّعلُّق بالدرَاهم والجواهر والدُّرر، وإنما تتعلَّق بذكر الله، أما الذين غرقوا في حُصَر الدَّرَاهم وعدَّها، فهي ليست منهم، بل:

رَبُّ الدَّرَاهِمِ أَحْصَاهَا وَعَدَّدَهَا فِي حِصْنِ أَكْيَاسِهِ أَلْفًا عَلَى أَلْفٍ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ عَدِّي لِمُسَبِّحَتِي وَعَنْ سِوَاهَا تَرَانِي قَاصِرَ الطَّرْفِ^(١)

وكانت عائشة - رحمها الله - تَسَحَّرُ مِنَ الْبَخِيلِ الْحَرِيصِ، الذي يبخل في الأشياء التي لا تنقص ولا تغني، ولا تكلفُ ثمنًا، ولكنَّ سَجِيَّةَ الْبَخْلِ قد غلبته واحتلت جوانحه وجوانبه، وزلزلت أركانَه، ولعلَّها في تصويرها لحرصِ الحريص - وأثر حرصه في حياته العامة وتعامله مع النَّاس - تبرُّرُ جانبَ الأخلاق في حياتها، وتبين مدى كراهيتها لهذا الصَّنَف من النَّاس:

حَيَّا الْحَرِيصَ صَدِيقُهُ بِتَحِيَّةٍ فَأَجَابَهُ يَدِيهِ دُونَ لِسَانِهِ
حَذِرًا عَلَى أَنْ يَصْرِفَ الْأَنْفَاسَ فِي رَدَّ السَّلَامِ وَصَانَهَا بِبَنَانِهِ
فَأَجَبْتُهُ دَعْوَاهَا لِيَوْمِ حِسَابِهِ سَيَزِيدُهَا نَفْخًا عَلَى نِيرَانِهِ^(٢)

وتبدو عائشة التَّيمورية بعيدةً عن النَّفاق، تكره النَّفاقَ وأهله، وتنعى الذين يبطنون أشياء، ويتظاهرون بخلافها، وتكره أولئك الذين يجيدون مَعْسُولَ الْكَلَامِ، ولكنَّهم يَسْقُون الشَّرَابَ الْمَسْمُومَ بِعباراتِ الإيهام، أولئك هم دُهَاءُ الْأَنَامِ، فلا يُعَرِّبُهُمْ إِنْسَانٌ:

(١) إن قول عائشة هذا يذكرني بقول القائل:

وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمْعَ مَالٍ وَلَكِنَّ التَّقَى هُوَ السَّعِيدُ

(٢) حلية الطراز (ص ٢٦٨)، وشاعرات العرب (ص ٢٢٨)، وتذكرنا هذه الصورة السَّاخِرَةُ السَّاحِرَةُ الْجَمِيلَةُ، بصورة مماثلة عند ابن الرومي الشَّاعر العبَّاسي الشَّهير، إذ صَوَّرَ بِخَلِّ رَجُلٍ يَدْعَى عَيْسَى، فقال ساخرًا منه:

يَقْتَرُ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ بِيَاقٍ وَلَا خَالِدٍ
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لَتَقْتِيرَهُ تَنْفَسَ مَنْ مِنْ مَنْخَرٍ وَاحِدٍ

(ديوان ابن الرومي ٦٤١/٢).

إِنَّ الدُّهَاءَ وَإِنْ أَبْدُوا بِشَاسْتِهِمْ
 فَلَا تَقُلْ بِغُرُورٍ فَاتَنِي الْعَضْبُ
 وَكَمْ بِحُلُوِّ شَرَابٍ سُمِّ مَقْتَلَةٍ
 وَالْأَسَدُ تَبْسُمُ إِذْ يَبْدُو لَهَا الْعَطْبُ^(١)
 ولكنَّ خبرتها بالناس لم تقف عند هذا الحدِّ، بل تقرأ في شعرها عمقاً
 أكثر، وخاصة عندما تقول:

النَّاسُ شَتَّى فِي الصِّفَاتِ فَلَا تَكُنْ
 مَمَّنْ يَقِيسُ الدَّرَّ يَوْمًا بِالْبَرْدِ
 إِنَّ قِسْتَ فَظًّا بِالرَّقِيقِ فَلَا تَلْمِ
 مَنْ بَعْدَ نَفْسِكَ فِي الْوَرَى أَبَدًا أَحَدٌ

ومن البدهي أنَّ عائشة التيمورية قد حفظت الآداب الإسلامية، ودرست
 معاني القرآن الكريم، وبلاغة السُّنَّة النبوية، وعززت ثقافتها بجواهر الأدب،
 وتغذت بلبِّ آداب لغة العرب، ولا شكَّ في أنَّ هذا كله قد أمدَّها بلطائفِ
 الحكمة التي تمثَّلت في شعرها، فجادت به قريحتها بنظم جميل، فيه ما فيه
 من ألوان المعرفة، والتَّجارب التي مرَّت بها، وصاغتْها حِكْماً لمن أراد أن
 يسلك سبيل الحكمة.

إِنَّ مَنْ يَعِشْ مَعَ عَائِشَةٍ فِي شِعْرِهَا وَنَثَرِهَا يَجِدُ مَصْدَاقَ مَا قُلْنَاهُ، فهي في
 معظم قصائدها تجوِّدُ بِالْوَانِ النَّصَائِحِ، وفصوص الحكم، وقد لا يغيبُ عن
 البال أنَّها تستقي بعضَ حكمتها من حِكَمِ السَّابِقِينَ، وتأتي بها في ثوبٍ
 جديد، وذلك من مثل قولها في التَّحذِيرِ مِنَ الدُّنْيَا:

(١) حلية الطراز (ص ٢٦٦)، وهذان البيتان يرجعانا بالذاكرة إلى قول المتنبي:

إِذَا رَأَيْتَ نِيَوْبَ اللَّيْثِ بَارِزَةً فَلَا تَظَنَّ أَنَّ اللَّيْثَ يَبْتَسِمُ
 فَالْأَسَدُ الْمَكْشُرُ عَنْ أَنْيَابِهِ، وَالْدَاهِيَةُ الْبَشُوشُ، يَبْدُوَانِ لِمَنْ يَرَاهُمَا عَلَى خِلَافِ
 مَا يَضْمُرَانِ، فَالْأَسَدُ لَا يَبْتَسِمُ وَإِنْ بَدَتْ أَنْيَابُهُ، وَالْدَاهِيَةُ غَيْرُ رَاضٍ وَإِنْ بَدَا ضَاحِكًا
 مَسْرُورًا، بل يسقيك شراباً مسموماً، وهو ذو مذاق حلو مستساغ؛ إلا أنه قاتلٌ.

لَا تَفْرَحَنَّ بِدُنْيَا أَقْبَلْتَ وَصَفَتْ
بِكُلِّ مَا تَرْضِي وَاحْذَرْ عَوَاقِبَهَا
تَدِيئُهَا وَابْتِهَالُهَا وَتَأْثَرُهَا بِالْقُرْآنِ :

لا شك في أنَّ نشأة السيِّدة عائشة التيمورية كانت نشأة إسلامية خالصة بعيدة عن كلِّ ما يمسُّ المشاعر الإسلامية التي كانت سائدة في عصرها .

ولقد شهدَ شاهدٌ من أهلها بحسن قيامها بأمر الدين ، وحبها للعبادات ، وأدائها جميع الطاعات ، واجتنابها المحرّمات ، يجمع ذلك كله التقوى ، فقد قال أخوها وربيُّها أحمد تيمور^(١) عنها : إنَّ عائشة كانت تقيّةً ، تصلي ، وتصوم ، وتقومُ بكلِّ الفرائض الدّينية^(٢) .

واستمدّت عائشة - رحمها الله - شفافيتها من القرآن الكريم ، إذ راحت تستقي منه الرّحيق المختوم ، فترك ذلك في نفسها وشعرها أعظم الأثر ، فراحت تناجي الله - عزَّ وجلَّ - إذ المناجاة جميلةٌ أسرةٌ في سوادِ الليالي ،

(١) أحمد بن إسماعيل بن محمّد تيمور المصري ، وُلد بالقاهرة في سنة (١٢٨٨ هـ) ، توفي أبوه وعمره ثلاثة أشهر ، فنشأ في كنف أخته عائشة التي أحسنت تربيته . تلقى مبادئ العلوم في مدرسة فرنسية ، وأخذ الأدب عن علماء عصره ، وهو عالمٌ بالأدب ، وباحثٌ ، ومؤرّخٌ ، ومن أعضاء المجمع العلمي العربي ، وجمع مكتبة قيمة تُعدُّ من نوادر المكتبات في العصر الحالي . وصفه معارفه فقالوا : كان - رحمه الله - رضي النفس ، كريمها ، متواضعاً ، فيه انقباضٌ عن الناس .

توفيت زوجته وهو في سنِّ التاسعة والعشرين من العمر ، فلم يتزوَّج مخافة أن تسيء الثانية إلى أولاده ، فانقطع إلى خزانة كتبه ينقُب فيها ، ويعلق ، ويفهرس ، وألف كتباً كثيرة ومنها : أسرار العربية ، ونظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة ، والتصوير عند العرب ، وغيرها . توفي أحمد تيمور في سنة (١٣٤٨ هـ) ، وعمره (٧٠) سنة ، ودفن بالقاهرة ، ونُقلت مكتبته بعد وفاته إلى دار الكتب المصرية ، وهي نحو (١٨) ألف مجلد .

(٢) نساء من الإسلام (١/٥٤) .

وحديثُ الإلهِ يسعدها، وبذكرُ اللهِ يرتاحُ قلبها، وترى الصَّعبَ سهلاً، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

لقد كانت عائشة تفضي ما في نفسها إلى خالقها، وتقضي سباحاتٍ طويلة وهي واقفةٌ تطلبُ الرحمةَ من العليِّ الغفَّار، وتطرقُ بابَه طالبةً العفوَ والمغفرةَ، وتدعوه، فهو يجيبُ دعوةَ مَنْ دعاه:

أَتَيْتُ لِبَابِكَ الْعَالِي بِذَلِّي فَإِنْ لَمْ تَعْفُ عَنْ ذَنْبِي فَمَنْ لِي
مَقَرًّا بِالْجَنَايَةِ وَامْتِثَالِي لِأَمْرِ النَّفْسِ فِي عَقْدِي وَحَلِي
سَعَتِ نَفْسِي بِأَنْ أَمْسِي مَكْبَأً عَلَى وَجْهِي لَطَاعَتِهَا فَوَيْلِي
فَأَنْتَ لَوْحَدْتِي وَلِكُلِّ عَاصٍ لَهُ رَحْمَاكَ مَنْ بَعْدِي وَقَبْلِي
إِنَّ النَّفْسَ عِنْدَ عَائِشَةَ نَفْسٌ تَخْطِئُ وَتَصِيبُ، وَقَدْ يَضَعُفُ الْجَهْلُ مِنْ عَزِيمَتِهَا:

وَادِي الْغَضَا قَلْبِي بِمَا أَلْقَاهُ مِنْ أَمَّارَتِي بِالسُّوءِ وَالضَّرَاءِ
فَرَعِيمُ جَيْشِ الْجَهْلِ حَطَّ عَزَائِمِي وَالشَّرُّ قَوَّضَ مَرْبِعِي وَبَنَائِي^(١)
وترى عائشة أنَّ التَّوجُّهَ إلى اللهِ هو منيةُ نفسِ المؤمن، فالعبدُ يلجأُ إلى خالفه في كلِّ ظروفه، فهو الغفَّار ﴿وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]، ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢].

إِنْ كَانَ عِصْيَانِي وَسُوءَ جِنَاتِي عِظْماً وَصِرْتُ مَهْدِداً بِجَزَائِي
فَقَضَاءُ عَفْوِكَ لَا حُدُودَ لَوْسِعِهِ وَعَلَيْهِ مُعْتَمِدِي وَحُسْنُ رَجَائِي
يَا مَنْ يَرَى مَا فِي الضَّمِيرِ وَلَا يُرَى إِنِّي رَجَوْتُكَ أَنْ تَجِيبَ دُعَائِي
وفي موقفٍ آخر نجدُ أنَّ الدُّعاءَ عندها هو معُ العبادَةِ، وأنَّ التَّدَلَّلَ بين يدي الله هو ذِزْوَةُ عِزِّةِ المؤمن، وأنَّ طلبَ المغفرةِ من الله هو غايةُ كلِّ مَنْ خالطت بشاشةُ الإيمانِ نفسه، لا سيما وهو يرفعُ يمينه بالدُّعاء:

وَقَدْ بَسَطْتُ أَكْفَ الدُّلِّ ضَارِعَةً لِخَالِقِ الْخَلْقِ جَبَّارِ السَّمَوَاتِ
وَبِئْتُ أَدْعُو عَلِيمَ السَّرِّ قَائِلَةً يَا غَافِرَ الذَّنْبِ جُدْ لِي بِاسْتِجَابَاتِي

(١) حلية الطراز (ص ٢٧١)، وقولها: «أمارتي بالسوء»: كناية عن النفس.

وقد رفعتُ يمينَ الدُّلِّ داعيةً
 ربِّ إليه مَعْبُودي ومُلتجئِي
 فامُننْ عليَّ بِالطَّافِ لتُخرجني
 أنتَ الخبيرُ بحالي والبصيرُ به
 فكيفَ أشكو لمخلوقٍ وقد لجأتُ
 أنتَ الشَّهيدُ على قولِ أفوه بهِ
 إليك يا ربَّ أرجو غَفَرَ زَلَّاتِي
 إليك أرفعُ بَثِّي وابتهالاتِي
 مِنَ الضَّلَالِ إِلَى سُبُلِ الْهَدَايَاتِ
 فافتحْ لهذا الدُّعَا بَابَ الْإِجَابَاتِ
 لَكَ الْخَلَائِقُ فِي يُسْرِ وَشِدَاتِ
 مادمتُ عائِشةً بِالْحَمْدِ غَايَاتِي^(١)

ومن خلالِ مناجاتها لخالقها نلمحُ أثرَ القرآن الكريم في معانيها ومبانيها، كما قرأنا الأبيات السابقة، كما ويظهرُ ذكرها لأسماءِ الله الحسنَى أيضاً؛ واستغاثتها بها ودعاؤها بها^(٢).

وفي واحدةٍ من استغاثاتها، تظهرُ ألفاظُ القرآن الكريم في ألفاظها، حيثُ زينت به عرائسُ شعرها كقولها^(٣):

أَيْنَ الطَّرِيقُ لَأَبْوَابِ الْفُتُوحَاتِ
 أَيْنَ السُّلُوكِ الَّذِي أُسْرَارُ لَمَحَّتِهِ
 كَيْفَ الرَّحِيلُ بِلَا زَادٍ وَرَاحِلَةٍ
 إِنْ طَالَ خَوْفِي فَقَدْ أَحْيَا الرَّجَا أَمَلِي
 فَارَ الْمُخِخُونَ وَاسْتَنْتَ الثَّقَاةُ إِلَى
 أَيْنَ السَّبِيلِ إِلَى نَيْلِ الْعِنَايَاتِ
 مَصْبَاحُ نَوْرِ لِمَشْكَاةِ الْمُنَاجَاةِ
 تَحْتُ سَيْرِي لِأَرْضِ الْإِسْتِقَامَاتِ
 فِي غَافِرِ الذَّنْبِ خَلَّاقِ السَّمَاوَاتِ
 دَارِ السَّلَامِ وَفِرْدَوْسِ الْكَرَامَاتِ

ونلمح أثرَ القرآن الكريم جلياً في هذه الأبيات، ففي قولها: «مصباح نور لمشكاة المناجاة»، مقتبسٌ من قوله تعالى: ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]؛ وفي قولها: «وفي غافر الذنب خلّاق السموات»، يبدو الاقتباسُ والتأثر بقوله تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [غافر: ٣]، وأما قولهما: «دار السلام وفردوس الكرامات» فمقتبس من قوله تعالى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٤٤]، ومن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

(١) انظر حلية الطراز (ص ١٩٦)، والدر المنثور (ص ٣١٧-٣١٩) باختصار.

(٢) انظر مثلاً قولها: «جبار السموات، عليم السر، غافر الذنب، أرفع بَثِّي، أنتَ الخبير، والبصير، أنتَ الشهيد...».

(٣) انظر: الدر المنثور (ص ٣١٦).

الصَّلَاحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿ [الكهف: ١٠٧]، ومن قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥]، ومن قوله تعالى: ﴿يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ﴾ [المؤمنون: ١١].

ونقرأ تأثر عائشة الكبير في شعرها، وهي تكثر من المعاني القرآنية، وتكثر من ذكر الجنة في مناجاتها كالبيت الأخير الذي مرّ آنفاً، وكذلك في رثائها لابنتها توحيدة:

مُتَّعَ بِالرَّضْوَانِ فِي خَلْدِ الرِّضَا مَا رُيِّنْتَ لِكَ غُرْفَةٍ وَقُصُورُ
وَسَمِعْتَ قَوْلَ الْحَقِّ لِلْقَوْمِ ادْخُلُوا دَارَ السَّلَامِ فَسَعِيكُمْ مَشْكُورُ

ففي قولها: «متّعت بالرضوان» مقتبس من عدد كبير من الآيات الكريمة، كقوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١]؛ وفي قولها: «غرفة» يظهر أثر القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ [الفرقان: ٧٥] وأما قولها: «فسعيكم مشكور»: مقتبس من قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَّشْكُورًا﴾ [الإنسان: ٢٢].

الأنبياء في شعر عائشة:

من خلال سرح العيون في آثار عائشة التيمورية، ألفينا أنها قد عبرت عن اطلاعها الواسع لمعاني القرآن الكريم، حيث استقت منه كثيراً من الأحداث، ومن القصص النبيلة، وخاصة قصص الأنبياء، فقد كانت ترى أن قصصهم عبرة لأولي الأبصار والنهي، وكيف لا، وقد قرأت قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسف: ١١١]، كما قرأت قوله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾ [يوسف: ٣]، لذلك وجدتني أقف معجباً أمام ثرائها الديني الذي ورد في شعرها وآثارها؛ فقد ذكرت كثيراً من الأنبياء، وأشارت إلى قصصهم، وإلى الأحداث البارزة في حياتهم، وذلك في أسلوب لطيف محبب، ويمكننا أن نقول: لقد جاءت بنفائس الصور

الجميلة عن الأنبياء في نظمها، وذلك نتيجة لغزارة اطلاعها على كتب الدين والتفسير والأدب والسيرة والتاريخ وغير ذلك، مما أمدّها بأسلوب مؤثّر أسِرّ، ناهيك باستفادتها من صُور الأدب في ديوان العرب بمختلف العصور، فنظمت ذلك المُتَنَاطِر، وعَبَّرَتْ في براعةٍ بأسلوب الشّاعر والنّاثر، وانتزعت بعضَ الصُّور القديمة، وأدخلتها في أشعارها، فكانت حليّةً جديدةً في ثوبٍ شعريّ جميل .

وأستطيعُ أن أدلّل على ذلك من تلك الصُّور الرّائعة التي استقرّت في ضميرها، ورسمت فيه صوراً بديعة، ترجمت عنها بما عبّرته من نظم، كقصّة أيوب، ويونس، ويعقوب، ويوسف، وإبراهيم - عليهم السّلام -، ومن المعلوم أنّ هذه الصُّور وأمثالها قد وردت عند مختلف الشّعراء في مختلف العصور، واكتسبت بذلك صفة العموم، ولم تختصّ بشاعر دون آخر، اللهم إلا بعض الشّعراء الذين أكثروا منها في نظمهم من مثل: ابن جابر الأندلسي، ومحبي الدّين بن العربي، وعبد الغني النابلسي ويوسف النّبّهاني^(١) - رحمهم الله - وغيرهم كثير .

ولعلّ من أبدع الأمثلة ما نظمته عائشة التيمورية - رحمها الله - ضارعةً إلى الله - عزّ وجلّ -، أن يستجيبَ دعاءها، وجعلت السّامع والقارىء لشعرها يستحضر قصصَ الأنبياء: أيوب، يونس، يعقوب، يوسف، وإبراهيم، وذلك دون أن تعمّد إلى التّرتيب الزّمني لأولئك الأنبياء، كما نلاحظ أثر القرآن الكريم، وأثر قصصه في نفسيّتها التي تظهر صافيةً موصولةً بخالقها في قولها من قصيدة طويلة زادت عن ستين بيتاً، ومنها:

يَا كَاشِفَ الضُّرِّ عَنْ أَيُّوبَ مَرَحَمَةً	حِينَ اسْتَغَاثَكَ مِنْ مَسِّ الْمَضَرَّاتِ
وَصَاحِبِ الْحَوْتِ قَدْ أَنْجَيْتَهُ كَرَمًا	لَمَّا دَعَا بِابْتِهَالٍ فِي الضَّرَاعَاتِ
أَنْقَذْتَهُ يَا إِلَهَ الْعَرْشِ مِنْ ظُلَمٍ	فَظَلَمَةِ النَّفْسِ لَاقْتَهُ بِإِعْنَاتِ
وَابْيَضَّتِ الْعَيْنُ مِنْ يَعْقُوبَ وَأَنْسَكَبَتْ	حُزْنًا عَلَى يَوْسُفَ فِي فَيْضِ الْعِبَارَاتِ

(١) اقرأ - عزيزي القارىء - إن شئت دواوين وآثار هؤلاء تجد مصداق ما قلناه .

وَمُذْ شَكَابَتُ لِلرَّحْمَنِ عَادَ لَهُ نُورُ الْعَيُونِ قَرِيناً بِالْمَسَرَّاتِ
 وَيُوسُفُ السَّيِّدُ الصَّدِيقُ حِينَ دَعَا فِي ظُلْمَةِ السَّجْنِ مِنْ بَعْدِ الْغِيَابَاتِ
 وَمُذْ عَلِمْتَ بِإِخْلَاصِ الْخَيْلِ غَدَا وَالتَّارُ مِنْ حَوْلِهِ فِي رَوْضِ جَنَّاتِ
 عَادَتْ سَلاماً وَبَرْدَاً بَعْدَ مَا اشْتَعَلَتْ وَلَمْ يَقْهْ مِنْ مُعْنَى الشَّكَايَاتِ
 وَقَدْ رَفَعْتُ يَمِينَ الدُّلَّ دَاعِيَةً إِلَيْكَ يَا رَبِّ أَرْجُو غَفَرَ زَلَاتِي^(١)

إننا نجدُ في الأبيات السابقة كيف تحدثت عائشة عن معالمِ قصص الأنبياء كما أوردتها القرآن الكريم، ووجدنا كيف استخدمت الألفاظ القرآنية كما تعبر عن معانيها، كقولها: «يا كاشف الضر عن أيوب»، «وابيضت العين من يعقوب»، و«الغيابات»، و«يوسف الصديق»... وهذا يدل على مدى تأثرها بالقرآن الكريم الذي كان ربيع قلبها، وقلب ربيعها، وأعتقد أن عائشة كانت تكثر من تلاوة كتاب الله تعالى، وهو الذي جعلها تكثر من ذكر آياته وصوره في شعرها، وكانت إذا ضاقت بها الحياة، لجأت إلى كتاب الله، لأن القرآن الكريم يُدخل الأمن والأمان إلى نفسها، وبتلاوة آياته تزداد الحسنات، وتتطلع إلى جمال الجنات من خلال حروفه التي تشع نوراً:

إِذَا ضَاقَتْ بِبَيِّ الدُّنْيَا وَشَابَ عَزِيمَتِي ضَعْفُ
 وَضَجَّتْ وَخُدَّةُ رُوحِي وَرَوَّعَ أَمْنَهَا الْخَوْفُ
 أَلْوَدُ بِجَنَّةِ الْقُرَى أَنْ فَهَوِ الْفِيءُ وَالْأَلْفُ
 تَقِيضُ حُرُوفُهُ نُوراً وَيَشْفِي عِلَّتِي حَرْفُ

عَائِشَةُ وَالْمَدِيحُ النَّبَوِيُّ:

لا أكون مبالغاً لو قلت: إن عائشة التيمورية - رحمها الله - من أبرع شاعرات العصر الحالي، ومن أكثرهن حرصاً على مدح النبي ﷺ، فلقد حلقت في هذا المجال في الآفاق، وبلغت فيه شأواً بعيداً، بل يمكنني أن أقول: إنها تفرّدت لأكثر من نصف قرن من الزمن في هذا المضمار البديع، ولعلّ مردّد ذلك يرجع إلى عدم شهرة الشاعرات في القرن الماضي، وإلى

(١) انظر: حلية الطراز (ص ١٩٨)، والدر المنثور (ص ٣١٨).

تَغْلِبُ شعراء الرجال على هذا الفن الجميل .

* وقد سلكت كثيرٌ من شاعراتِ عصرنا الحالي - خصوصاً بعد وفاة عائشة التيمورية - سبل الشعراء الذين امتدحوا الحبيب الأعظم محمداً ﷺ منذ عهدِ الأعشى الذي امتدحَ النَّبِيَّ ﷺ، ثمَّ كعب بن زهير بن أبي سلمى المتوفى سنة (٢٦ هـ) في لامِيَتِهِ المشهورة «بانت سُعاد»، ثمَّ جاء ابنُ الفارض المتوفى سنة (٦٣٢ هـ) في بردةٍ ميمية جميلة^(١)، وتعبه البوصيري المتوفى سنة (٦٩٧ هـ) في بردته المشهورة التي طغت على بردة ابن الفارض، وكذلك اشتهر في الهزمية اللطيفة ذات المطلع:

كَيْفَ تَرْقَى رَقِيكَ الْأَنْبِيَاءُ يَا سَمَاءَ مَا طَاوَلَتْهَا سَمَاءُ
وهذه الهزمية الجميلة قد بنى نور الدين الحلبي عليها سيرته النبوية المشهورة باسم «إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون»، والتي اشتهرت باسم «السيرة الحلبية»، ثمَّ جاء ابن حجة الحموي المتوفى سنة (٨٣٧ هـ)، وبرعَ في بديعته التي تُعدُّ من بدائع بدائه الشعر في فنِّ المدائح النبوية؛ وكذلك أتت فاضلة الزمان عائشة الباعونية^(٢) المتوفاة سنة (٩٢٢ هـ) لتتحف الأنام في بديعيتها المسماة: الفتح المبين في مدح الأمين .

وفي العصر الحديث أطلقت شاعراتُ العرب العنان في مدح الرسول ﷺ حتى غدت المدائحُ النبوية ذات موضوع مستقل من موضوعات أشعار النساء، ويتخلل هذه المدائح على الغالب استعراضٌ جميلٌ لأحداث السيرة النبوية، ولعلَّ الهدف من ذلك في رأي معظمهن الاقتداء بسيرة النبي ﷺ، وأنَّ يأتَمَّ النَّاسُ بِقَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ وسيرهم، وأنَّ يسلكوا سبيلهم الذي يدعو إليه، كما قالت إحداهن:

(١) قال ابن الفارض، واسمه عمر بن مرشد بن علي الحموي الملقب بشرف الدين وسلطان العاشقين في بردة جميلة مطلعها:

هل نَارُ لَيْلِي بَدَتْ لَيْلًا بِذِي سَلَمٍ أَمْ بَارِقٌ لَاحَ فِي الزُّورَاءِ فَالْعَلَمِ
أرواح نَعْمَانٍ هَلَا نَسَمَةٌ سَحَرًا وماءٌ وَجُرَّةٌ هَلَا نَهْلَةٌ لَظَمِ

(٢) اقرأ سيرتها وترجمتها في هذا الكتاب .

إِنَّ الْقُلُوبَ إِذَا مَا آمَنْتُ سَعِدَتْ وَإِنَّ بِالرُّسُلِ يَأْتُمُ الْأَلْبَاءُ^(١)

وهذه شاعرة أخرى واسمها «علية الجعار» من مصر، تدعو بنات حواء إلى التمسك بأخلاق رسول الله ﷺ حينما قالت:

يَا سَائِلًا عَنِّي أَنَا بِمُحَمَّدٍ قَدْ هُذِّبْتُ وَتَأَثَّرْتُ أَخْلَاقِيَا
الْتُّبُلُ وَالْخُلُقُ الْعَظِيمُ صِفَاتُهُ وَمِنَ الرَّسُولِ قَبَسْتُ كُلَّ صِفَاتِيَا
يَا سَائِلًا عَنِّي وَعَنْ آبَائِيَا إِنِّي أَتَيْتُهُ عَلَى الزَّمَانِ بِجَاهِيَا
فَأَنَا ابْنَةُ الْإِسْلَامِ أَكْرَمُ وَالِدٍ حَسْبِي مِنَ الدُّنْيَا نَسَبًا لِيَا

وقد علمت الشاعرات اللواتي أحبين سيرة المصطفى ﷺ أن الرسول ﷺ قد أوصى بإكرام النساء في قوله: «فاستوصوا بالنساء خيراً»^(٢)، وكذلك قوله ﷺ في حجة الوداع بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: «ألا واستوصوا بالنساء خيراً، فإنما هن عوانٌ عندكم، ليس تملكون منهن شيئاً غير ذلك إلا أن يأتين بفاحشة مبينة»^(٣).

وفاء من عائشة التيمورية لدينها، وحجابها، وحبها للهدي النبوي، فإنها حرصت على أن تجعل جزءاً من أشعارها، ومساحة من ديوانها في المدائح النبوية، ومن تلك المدائح النبوية الرائعة قولها:

أَعْنُ وَمِیْضٍ سَرَى فِي حُنْدُسِ الظُّلَمِ
أَمْ نَسَمَةٍ هَاجَتِ الْأَشْوَاقَ مِنْ إِضْمِ
فَجَدَدْتُ لِي عَهْدًا بِالْغَرَامِ مَضَى
وَشَاقِنِي نَحْوَ أَحْبَابِي بِذِي سَلَمِ
وَدَعَا فُؤَادِي مِنْ بَعْدِ السُّلُو إِلَى
مَا كُنْتُ أَعْهَدُهُ فِي قَلْبِي مِنَ الْقَدَمِ

(١) نفحات الإيمان (ص ٩٧) لشاعرة اسمها صابرة محمود العزي، واسمها الحقيقي: خديجة محمود العزي، وديوانها اسم «نفحات الإيمان».

(٢) انظر: صحيح البخاري بشرح الكرمانلي، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء (١٩/ ١٣٠ و ١٣١) من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه -.

(٣) المصدر السابق (١٩/ ١٣١) وما بعدها.

وَهَاجَنِي لَحِيْبٍ عَشْقُ مَنْظَرِهِ

يَمْحُو وَيُثَبِّتُ مَا يَهْوَاهُ مِنْ عَدَمٍ^(١)

* ويبدو أنَّ عائشة التيمورية - رحمها الله - قد اطلعت على بُردة البوصيري واستظهرتها، ووعت معانيها ومبانيها، فنقلت بعضَ صورها إلى شعرها، وضمنت ذلك في هيئة جديدة، لكنَّها سلكت الخطى في القافية والوزن، من ذلك قولها: «وشاقني نحو أحبابي بذي سلم»، منتزع من قول البوصيري في مطلع الشَّهيرة المشهورة:

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِرَانٍ بِذِي سَلَمٍ مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ

وكذلك قولها في وسط قصيدتها الميمية:

مَنْ لِي يَتْرَبِ رَحَابٍ لَوْ أَفُورُ بِهَا

كَحَلْتُ عَيْنًا أَفَاضَتْ دَمْعَهَا بِدَمٍ

هذه الصُّورة مُنتزعة من الشَّطْرِ الثَّانِي من مطلعِ ميمية البوصيري بقوله: «مَزَجَتْ دَمْعاً جَرَى مِنْ مُقَلَّةٍ بِدَمٍ».

فصورة العين، أخذتها عائشة من البوصيري لشدة إعجابها بنظمه ومعانيه الفواتن الرائعات.

* وعندما تحدثت عائشة عن النَّفْس أوردت صورة جماعها، فقالت:

وَكَيْفَ لِي بِاتِّعَاطِ النَّفْسِ أَمْرَتِي

بِالسُّوءِ نَاهِيَّتِي عَنْ مَوْرِدِ النَّعْمِ^(٢)

فصورتها هذه مستوحاة من قول البوصيري:

مَنْ لِي بِرَدِّ جِمَاحٍ فِي غَوَايَتِهَا كَمَا تُرْدُ جِمَاحُ الْخَيْلِ بِاللَّجْمِ

فَلَا تَرْمُ بِالْمَعَاصِي كَسَرَ شَهْوَتِهَا إِنَّ الطَّعَامَ يَقْوِي شَهْوَةَ النَّهْمِ

(١) حلية الطراز (ص ٢٦٩).

(٢) حلية الطراز (ص ٢٧٠).

وتظهر ذروة محبتها للرسول ﷺ عندما أخذت تمدحه في بردتها هذه، وعندما أدلت دلوها في المديح، فهي تترنم بمدحه ﷺ، وبذكر أسمائه من مثل: المصطفى، وطه، وكذلك اختصاصه بالشفاعة؛ ويظهر هذا جلياً في قولها:

وَلَذْتُ بِالمصطفى ربَّ الشَّفَاعَةِ إِذْ

يدعو المُنَادِي فَتَحَيَّا النَّاسُ مِنْ رَقَمِ
طه الذي قَدْ كَسَا إِشْرَاقُ بَعْثِهِ

وَجَهَ الوجودِ سَنَاءَ الرُّشْدِ وَالكَرَمِ
طه الذي كَلَلَتْ أَنْوَارُ سُنَّتِهِ

تيجَانِ أُمَّتِهِ فَضْلاً عَلَى الْأُمَمِ
ثم يأخذها الوجد فتذكر بعض معجزاته ﷺ، كنعيم الماء من بين يديه الشريفتين، وحنين الجذع له، وغير ذلك من معجزات لا تُحصى ولا تُحصَر:

كَمْ مَنبَعٍ زَلَلِ قَدْ فَاضَ مِنْ يَدِهِ
أَرَوَى الْأَوَامَ وَأَسْقَى مِنْهُ كُلَّ ظَمِي
وَالجذعِ أَنَّ لَهُ مِنْ بُعْدِهِ جَزَعاً

لَمَّا نَأَى عَنْهُ مولى العُزْبِ والعَجَمِ
لَانتَ لَهُ الصَّخْرَةُ الصَّمَاءُ طَائِعَةً

مُذْ مَسَّهَا سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ بِالْقَدَمِ
فِيآلِهَا مُعْجَزَاتُ مَالِهَا عَدَدٌ

أَقْلَهَا مَا بَدَا نَارٌ عَلَى عَلمِ
وتعترف عائشة بأنها لن تفي مدح النبي الكريم ﷺ، ولو كانت كل جارحة فيها تنطق بلسان الحكمة، ولكن قصدت من امتداحه: أن تحظى بأقباس وضيئات تهديها سواء السبيل:

وَلَا يُحِيطُ بِهِ مَدْحِي وَلَوْ جُعِلَتْ
جَوَارِحِي ألسُنًا يَنْطِقْنَ بِالْحِكَمِ

وإنما أرتجي من مَدْحِهِ قَبَسًا
يَهْدِي الصِّرَاطَ وَيُشْفِي الرُّوحَ مِنْ أَلَمٍ
* وترجو عائشةُ شفاعَةَ المصطفى ﷺ فهي مؤمنةٌ مسلمةٌ من عداد الأُمَّةِ
المحمديةِ :

وَمَا سِوَى فَوْزٍ كَوْنِي بَعْضَ أُمَّتِهِ
ذُخْرًا أَفُوزُ بِهِ مِنْ زَلَّةِ الْوَصَمِ
إِلَّا التَّمَاسِي عَفْوًا بِالشَّفَاعَةِ لِي
مِنْ خَاتَمِ الرُّسُلِ خَيْرِ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
مَحَمَّدُ الْمُصْطَفَى مُشْكَاةُ رَحْمَتِنَا
مُصْبَاحُ حُجَّتِنَا فِي بَعْثَةِ الْأُمَمِ
* وتختُمُ عائشةُ بردتها في مخاطبةِ الرَّسُولِ ﷺ ، وهي ترجو شفاعته ،
وقد استخدمتِ المبالغةَ فقالت :

يَا خَيْرَ مَنْ أَرْتَجِي إِنْ لَمْ تَكُنْ مَدَدِي
وَأَزَلَّتِي يَوْمَ وَضَعِ الْقِسْطِ وَأَنْدَمِي
فَاشْفَعْ بِحُبِّ الَّذِي أَنْتَ الْحَبِيبُ لَهُ
لَوْلَاكَ مَا أَبْرَزَ الدُّنْيَا مِنَ الْعَدَمِ
عَلَيْكَ أَزْكَى صَلَاةِ اللَّهِ مَا افْتَتَحَتْ
أَدْوَارُ دَهْرٍ وَمَا دَلَّتْ بِمُخْتَتَمِ

* ونلاحظُ هنا أَنَّ عائشةَ التَّيْمُورِيَّةَ قد غَطَّى حُبَّهَا لِلرَّسُولِ ﷺ مساحَةً
كَبِيرَةً مِنْ نَظْمِهَا، إِذْ تَصَوَّرُ مَنْزِلَتَهُ ﷺ ، وهي ترجو شفاعته يوم الزَّحَامِ ،
ولجأتُ إِلَى الْمَبَالِغَةِ الشَّدِيدَةِ فِي ذَلِكَ ، حَيْثُ زَعَمْتُ أَنَّ الدُّنْيَا كُلَّهَا قد خَلَقَهَا
اللَّهُ مِنَ الْعَدَمِ مِنْ أَجْلِهِ ﷺ ، وَلَوْلَاهُ لَمَا خَلَقَهَا ، فِي حِينِ أَنَّهُ بُعِثَ ﷺ مِنْ أَجْلِ
هُدَايَةِ الْعَالَمِ ، وَإِخْرَاجِ النَّاسِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ
الْحَمِيدِ ، وَلَكِنْ مَعَ هَذَا وَذَلِكَ نَشْهَدُ لِعَائِشَةَ بِصَدَقِ عَاطِفَتِهَا ، وَحُبِّهَا
لِلرَّسُولِ ﷺ ، وَإِبْرَازِ مَكَارِمِ أَخْلَاقِهِ ، وَالدَّعْوَةِ إِلَى الْإِقْتِدَاءِ بِهِ ﷺ .

ثَقَافَتُهَا وَمَعَارِفُهَا :

* تدلُّ آثارُ عائشة التيمورية - رحمها الله - على اطلاعها وثقافتها التي استقتُّها من مواردٍ متعددة، وفي مقدمتها القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، والسيرة النبوية، ونلمح كذلك - فيما سيأتي - حرص هذه السيدة على أن تأخذَ من كلِّ علمٍ بطرف، وخصوصاً أخبار الشّواعر فيما مضى من سالفِ العصر، وقراءة الشعر القديم، حتى وعَتْ كثيراً من أشعارِ نساء العرب وأخبارهنّ ومعارفهنّ وآثارهنّ، ناهيك بأشعار ومعارف العرب أنفسهم في بواديهم وحواسرهم .

* وكان لهذا الاطلاع على الأخبار القديمة أثره الواضح في آثار وأشعار عائشة التيمورية، وقد ساعدها ذلك على تنمية أصالتها التراثية، وتوسيع ثقافتها، وشحذ موهبتها، وإلمامها بكثير من الصُّور الفاتنة، والمعاني الفاتكة المعبرة عن المعاني عن إرادتها .

* ونلمحُ جانبَ الثّقافة والمعرفة بِسِيرِ مَنْ مَضَى من شاعرات العرب اللاتي اتخذتهنَّ عائشة التيمورية قدوة لها، وأكثرت من قراءة أخبارهنّ ونتاجهنّ الأدبي والشعري .

* ويبدو لي أنَّ عائشة قد قضتْ وقتاً طويلاً في دراسة أخبار شاعرات العرب، وحفظت كثيراً من رائق أشعارهن حتى غدتْ صورٌ كثيرات منهن واضحةً في ذهنها، فراحت تعبّر عن ثقافتها ومعرفتها بأخبار مَنْ مضى من جماعة النِّساء، وتنظّم كلَّ ذلك في قصائد جميلةٍ تحملُ المعاني اللطيفة الموحية، كاللواتي ذكرتهن في قصيدتها البائية المشهورة حيثُ قالت :

وَلَقَدْ نَظَّمْتُ الشَّعْرَ شَيْمَةَ مَعْشَرٍ قَبْلِي ذَوَاتِ الْخَدْرِ وَالْأَحْسَابِ
فَبَيَّئُهُ الْمَهْدِي وَلِيْلَى قُدَوْتِي وَبِفُطْنِي أُعْطِيتُ فَضْلَ خَطَابِي^(١)

(١) «بنية المهدي»: هي عُلَيَّة بنتُ المهدي الخليفة العبّاسي المشهور .

ومن الجدير بالذكر أنَّه كان للمهدي ثلاث بنات قد اشتهرن في دنيا النِّساء وهنّ :
عُلَيَّة، العبّاسة، البانوقة .

للهِ دُرٌّ كَوَاعِبِ مُنْوَالِهَا نَسِجُ الْعُلَا لِعَوَانِسٍ وَكَعَابِ
وُخْصِصْتُ بِالذُّرِّ الثَّمِينِ وَهَامَتِ الْخَنَدُ سَاءَ فِي صَخْرٍ وَجَوْبِ صَعَابِ
فَجَعَلْتُ مِرَاتِي جَبِينَنَ دَفَاتِرِي وَجَعَلْتُ مِنْ نَقْشِ الْمَدَادِ خُضَابِي

* ثُمَّ إِنَّهَا تَذَكِّرُ مَقْدَرَتَهَا الشَّعْرِيَّةَ وَفَنَهَا الْأَدْبِيَّ فَيَقُولُ :

كَمْ زَخَرَفْتُ وَجَنَاتِ طَرْسِي أَنْمُلِي بَعَذَارٍ خَطٌّ أَوْ إِهَابٍ شَبَابِي
وَلَكُمْ أَضًا شَمْعُ الذِّكَا وَتَضَوَّعَتْ بَعْبِيرِ قَوْلِي رَوْضَةُ الْأَحْبَابِ
مَنْطَقْتُ رَبَّاتِ الْبَهَا بِمَنَاطِقِي يَغْبِطُنَهَا فِي حَضْرَتِي وَغِيَابِي
وَحَلَلْتُ فِي نَادِي الشُّعُورِ ذَوَائِبًا عَرَفْتُ شَعَائِرَهَا ذَوُ الْأَحْسَابِ
عَوِذْتُ مِنْ فِكْرِي فُنُونٌ بِلَاغَتِي بِتَمِيمَةٍ غَرًّا وَحَزْرٍ حِجَابِ

ثُمَّ تَخْتِمُ عَائِشَةُ قَصِيدَتَهَا بِقَوْلِهَا :

فَأَنْزَلْتُ مِصْبَاحَ الْبَرَاعَةِ وَهِيَ لِي مَنِحُ الْإِلَهِ مَوَاهِبُ الْوَهَّابِ^(١)

* وَقَدْ تَرَدَّدَتْ فِي أَشْعَارِ عَائِشَةَ أَنْفَاسُ الْقُدَامَى ، وَخَاصَّةً شِعْرَاءُ الْقُرُونِ

= وقد كانت عليّة نموذجاً للمرأة في العصر العباسي ، وهي سيّدةٌ جليّةٌ ولدت سنة (١٦٠ هـ) وكانت من أظرف نساء عصرها ، وأعقلهن ، ذات صيانة وعفة ، وأدبٍ بارع ، تقول الشعر الجيد ، وكانت حسنة الدين ، تقرأ القرآن ، وتقرأ الكتب ، وكانت تعدلُ بكثير من أفاضل الرجال في فضل العقل ، وحسن المقال ، وكانت مجالسها من أبهى مجالس بغداد ، توفيت سنة (٢١٠ هـ) .

وأما العباسية ، فكانت كبيرة القدر ، ذات صون وعفاف وشرف وسلطان ، وكانت من ربات الفضل والأدب والحسن والجمال ، توفيت بالرقّة سنة (١٨٢ هـ) .

أما البانوقة ، فقد ماتت في حياة أبيها المهدي ، وحزن عليها حزناً شديداً . هذا وقد زاد القضاعي - رحمه الله - في تاريخه بأنّ للمهدي ابنةً أخرى اسمها سليمة (تاريخ القضاعي ص ٤٠٨) .

وأرادت عائشة التيمورية بقولها : ليلي : ليلي الأخيلىة ، وهي إحدى نابغات شواعر النساء ، ولها ترجمة طويلة في تاريخ دمشق لابن عساكر ، وقرأ سير هؤلاء النساء في كتابنا : «نساء في القصور» .

(١) انظر : حلية الطراز (ص ٢٦٥ و ٢٦٦) .

منَ العاشرِ إلى الثالثِ عشر الهجري، حيث سلكتُ طريقة الشعراء الذين كانوا يسلكون طريقة التأريخ الشعري^(١) فيجعلون آخرَ أبيات القصيدة تأريخاً للحدث الذي يعبرون عنه، وخاصةً أشعار المراثي، أو أشعار التهئة بمولود، أو ما شابه ذلك، ولعلَّ عائشة قد راقها هذا الأسلوب، ورقَّ في منظارها الشعري، فأدلت دلوها في هذا المضمار، لتشير إلى تمكّنها من ناصية اللغة، وتدلُّ على ثقافتها الأصيلة الواسعة؛ ففي ختام مرثيتها لابنتها توحيدة التي ماتت عام (١٢٩٤ هـ) أرخت وفاتها وفق حساب الجُمَّل فقالت:

هَذَا النَّعِيمُ بِهِ الْأَحِبَّةُ تَلْتَقِي

لَا عِشْ إِلَّا عِيشَةَ الْمَبْرُورِ

(١) «التأريخ الشعري»: هو أن يأتي الشاعر أو الناظم بكلمة أو كلمات إذا حُسبت حروفها بحساب الجُمَّل بلغت عدد أعوام السنة التي يريد بها المتكلم من تاريخ هجرة النبي ﷺ.

وينبغي حساب الحروف المنطوق بها، لا المرسومة، ويشتَرط في التأريخ أن يتقدّم على ألفاظه لفظ: أرخ، أو أرخوا، أو واحدة مما يُشتقُّ من التأريخ من غير فصل بينه وبين كلمات التأريخ، بل مقارنة لها، وألاً تكون كلماته معقّدة، أو غير ظاهرة المعنى، وأحسنه ما اشتمل على اسم المؤرخ، أو لقبه، أو شيء من متعلقاته، وكان منسجم الألفاظ، مؤلف المعنى، خالياً من التكلف والتعسف. انظر (نفحات الأزهار لعبد الغني النابلسي ص ٣٣٦) بتصرف.

وحساب الجُمَّل الذي يُحسبُ به التأريخ الشعري، وهو إعطاء قيمة رقمية لكل حرف من الحروف الأبجدية: «أَبْجَدُ هَوَز، حُطِي، كَلْمُنْ، سَعْفَص، قَرَشَتْ، ثَخَذْ، ضَطْعْ» وذلك على النحو التالي:

أ	ب	ج	د	هـ	و	ز	ح	ط
١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩
ي	ك	ل	م	ن	س	ع	ف	ص
١٠	٢٠	٣٠	٤٠	٥٠	٦٠	٧٠	٨٠	٩٠
ق	ر	ش	ت	ث	خ	ذ	ض	ظ
١٠٠	٢٠٠	٣٠٠	٤٠٠	٥٠٠	٦٠٠	٧٠٠	٨٠٠	٩٠٠
								١٠٠٠

ولك الهناءُ فِصْدُقُ تَارِيخِي: بِذَا
(٧)

تَوْحِيدُهُ زُفْتُ وَمَعَهَا الْحُور
(٤٣٣) (٤٨٧) (١٢٢) (٢٤٥)

* إِنَّا إِذَا مَا جَمَعْنَا مَا يَقَابِلُ حُرُوفَهَا مِنْ أَرْقَامِ [٧ + ٤٣٣ + ٤٨٧ + ١٢٢ + ٢٤٥] لِأَلْفِينَا أَنَّ النَّاتِجَ هُوَ الرَّقْمُ [١٢٩٤] وَهُوَ سَنَةُ تَارِيخِ وَفَاةِ ابْنَتِهَا.

* وَلَمْ تَوَرِّخْ عَائِشَةُ وَفَاةَ ابْنَتِهَا فَحَسَبَ، وَإِنَّمَا كَانَتْ تَهْنِئُ الْخَدِيوِي فِي تَوَلِيَةِ الْمَنْصَبِ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهَا تَهْنِئُ الْخَدِيوِي تَوْفِيقَ بَتَوَلِيَّتِهِ سَنَةَ (١٢٩٦ هـ)، وَحَرَصَتْ عَلَى ذِكْرِ اسْمِهِ فِي نَهَايَةِ قَصِيدَتِهَا لِتَدُلَّ عَلَى مَقْدَرَتِهَا مِنْ نَاصِيَةِ الْكَلَامِ فَقَالَتْ:

هَذَا الْخَدِيوِي الَّذِي قَرَّتْ بِمَوَكِبِهِ عَيْنُ الزَّمَانِ وَقَالَتْ لِلْهَدَى ابْتَهَجِ
يَسُوسُ بِالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ أُمَّتَهُ وَيَبْذُلُ الْفَضْلَ وَالْجَدْوَى لِكُلِّ رَجٍ
وَالْدَهْرُ رَنَمٌ بِالْبُشْرَى يُوَرِّخُهُ: يَا مِصْرَ قَدْ زَانَكَ التَّوْفِيقُ بِالْبَلَجِ
(٣٤١) (١٠٤) (٧٨) (٦٢٧) (١٤٦)

* وَتَحَلَّقَتْ عَائِشَةُ عَالِيًا فِي مِضْمَارِ التَّارِيخِ بِالْحُرُوفِ، وَتَظْهَرُ بَرَاعَتُهَا فِي تَهْنِئَةِ الْخَدِيوِي السَّابِقِ، إِذْ تَفْتَتِحُ تَهْنِئَتَهَا بِالتَّارِيخِ نَفْسَهُ الَّذِي تَخْتَتِمُ بِهِ تَهْنِئَتَهَا، وَفِي هَذَا تَقُولُ:

كَلَّلْتَ تَاجَ الْبَدْرِ قُرْبًا بِالشَّرَفِ مُدَّ حَلٍّ فِي مِصْرٍ رَكَابُكَ وَأَنْعَطَفَ
وَبِكَ الْأَمَانِي قَدْ تَبَسَّمَ ثَغْرُهَا وَالصَّفْوُ مَالٌ بِقَدِّهِ حُسْنُ الْهَيْفِ
وَتَرَاقَصَتْ مُهَجُ الثُّفُوسِ لِبُشْرِهَا كَبَلَابِلُ غَرْدَنَ فِي رَوْضِ أَنْفِ
أَضْحَى يَقُولُ بِسَعْدِ بَابِكَ نِيْلَهَا أَقْبَلْ عَلَى بَحْرِ الْوَفَاءِ وَلَا تَخَفْ
وَاللَّهُ يَا مُصْبِحَ مَشْكَاةِ الْعُلَا بِكَ سَرَّتِ الدُّنْيَا وَمَنْ فِيهَا شُغْفُ
رَقَمْتَ جَمَالَ بَهَا قُدُومَكَ عِصْمَةً بِمَدَادِ تَحْرِيرِ سَنَاهُ شَفَى وَشَفَّ
وَبِمُعْجَمٍ فِي مَعْرَبٍ قَدْ أَرَّخْتَ كَلَّلْتَ تَاجَ الْبَدْرِ قُرْبًا بِالشَّرَفِ^(١)

(١) الدر المنثور (ص ٣١٣) هذا وقد تركنا القارئ الكريم أن يحسب بنفسه جمل الشطر =

* وهذا الفنُ منشورٌ منتشرٌ في شعراء القرون الثلاثة الماضية، وعلى الرغم من التكلف الواضح فيه، إلا أنه يدلُّ على تبحُّر في اللغة، وذكاء في إبراز المعاني التي يريدها الشاعر.

* ومن الجدير بالذكر أنَّ التأريخ يكون بالسَّنة الهجرية؛ ولعلَّه من المفيد والممتع أن نشيرَ إلى أنَّ الأدباءَ - في القرن العاشر فما بعده - قد أُعْزِمُوا غراماً شديداً بفنِّ التأريخ الهجري في قصائدهم؛ فهذا محمَّد بن أحمد بن عبد الله المعروف باسم «مامية الرُّومي» المتوفى سنة (٩٨٧ هـ)، قد جمع لنفسه ديواناً، وجعل تاريخَ جَمْعِهِ قول الله - عزَّ وجلَّ -: ﴿وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا﴾ [البقرة: ١٨٩]، وذلك يوافق سنة (٩٧١ هـ). وله من التواريخ التي لا نظير لها، كقوله في تاريخ عرس:

هُنَّتْكُمْ بِعَرسِكُمْ وَالسَّعْدُ قَدْ خَوْلَكُمْ
وَقَدْ أَتَى تَأْرِخَهُ ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ﴾^(١)

* وتبدو عائشة التيمورية - رحمها الله - ثابتة الأصول في منابت الثقافة الإسلامية والعربية، متطاولَة الفروع في الثقافة الأدبية التي تجسَّمت في شعرها الذي يشهد لها لا عليها، فقد سلكَتْ طريق الشعر الموزون المقفى في جميع أشعارها؛ وهذا طبيعي لاطلاعها على الثقافة العربية الأصيلة؛ وإقبالها على دراسة علم العروض - كما رأينا -، فلقد هضمت بحور الشعر، وعرفت مصطلحاته العروضية حتى غدت تلكم المصطلحات تمشي في أشعارها سجية وصنعة، بل إنها كانت تستخدم المصطلحات العروضية بما يخدم غرضها الذي تريده، وهذا لعمري يشيرُ إلى تسنُّمها ذروة المقدرة على الكلام والتنظم، ولعلَّ من أجمل الأمثلة على ذلك قولها في تصوير ما أصابها من ضر:

= الأخير كيما يعرف سنة وتاريخ هذه التهئة.

(١) اقتباسٌ جميلٌ من قوله تعالى: ﴿نِسَاؤُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنِّي شِئْتُ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، فقد أحسن الاقتباس وحساب الجمل. وهذا الفن كثير جداً، ومن أراد الاستزادة فليراجع مثلاً كتاب: «سلك الدرر» للمرادي، يجد فيه ما يبتغيه.

إِنْ بَانَ خَنِينِي بَلْقِيَاكُمْ فَلِي زَمَنٌ
تَبَّتْ يَدَاهُ فَكُم بِالْكَفِّ أَغْصَيْنِي
أَوْ زَادَ جَسْمِي اعْتِلَالًا بِالْخَفِيفِ فَلِي
مَجْمُوعٌ أَوْ تَادَ قَلْبِي فِي الْهَوَى افْتَرَقْتُ
عَاقِبْتُمُونِي وَمَا رَاقِبْتُمُو ذِمَّمَا
يَطْوِي خَيَالَ الْأَسَى فِي رَاحَةِ الْأَسْفِ
عَنِ اللَّقَا وَانْتَنَى لِلزَّخْفِ فِي تَلْفِي
رُوحٌ لَدَيْهِمْ وَشَكْلٌ حَاضِرٌ وَخَفِي
وَمَا لَذَلِكَ أَسْبَابٌ سِوَى الصَّلَفِ
وَكَمْ قَطَعْتُمْ وَلَمْ تَرْتُوا إِلَى شَغَفٍ^(١)

* وكما ربطت عائشة شعرها بأوتاد العروض، كذلك حلقت في الفضاء
لتستخدم المجموعة الشمسية في غرضها، لذلك حرصت على جعل مظاهر
الطبيعة تشاركها في آلامها وآمالها، وإحساسها ومشاعرها بما تمليه عليها
ظروف الحياة، وقد انتزعت من مظاهر الطبيعة الصامته ومشاهدها صوراً
لطيفة عبرت من خلالها عما يجيش بداخلها من أحاسيس ومشاعر.

* فلقد حلقت عائشة - رحمها الله - عالياً، حينما جعلت الثريا،
والمشتري، والمريخ، ثم الرعد، فالبرق، هذه الأشياء تشاركها آلامها،
وتتفاعل مع أحاسيسها فتحزن إذا حزنت، وتبكي إذا بكيت، وتداعب عائشة
الطبيعة بنبرات هامسة حزينة، حينما أصابها مرض الرمد في عينيها،
فاغرورت بالدمع، ونفرتا من ضوء النيرين، - وذلك عقيب وفاة ابنتها - فمن
ذلك قولها من قصيدة رائية:

عَيْنُ الثَّرِيَا بَكْتَنِي وَهِيَ ضَاحِكَةٌ
كَمْ لَامَهَا الْمُشْتَرِي عَيْنًا وَحِينَ رَأَى
وَمُذْ رَأَى لَوْعَتِي الْمَرِيخُ ذَابَ أَسَى
وُخْبَرَ الْبَرْقُ فَاشْتَدَّتْ لَوَامِعُهُ
فَيَا لِدَمْعٍ عَظِيمٍ الْوَبْلُ مُنْهَمِرٍ
حَالِي تَوَارَى يَزِيلُ الشُّحْبَ مِنْ بَصْرِي
وَعَابَ فِي الْحَالِ تَحْتَ الْحُجْبِ وَالسُّتْرِ
وَأَرْسَلَ الرَّعْدُ يُنْعَانِي عَلَى الْأَثَرِ^(٢)

* وفي مجال التهنئة تستخدم عائشة التيمورية الكواكب أيضاً في شعرها،

(١) حلية الطراز (ص ٢٣٩)، ومن الملاحظ أنَّ عائشة التيمورية تظهر براعتها خلال
استخدامها مصطلحات علم العروض: كالخبن، والطي، والكف، والعصب،
والزحاف، والعلّة، والأوتاد، والأسباب، وتستمر على هذه الشاكلة إلى نهاية
قصيدتها، وذلك في فن يظهر مقدرتها على استخدام الكلام في أي موضوع.

(٢) حلية الطراز (ص ٢٠٤ و ٢٠٥).

وتسحر الألفاظ لتكون مطوعة لها فيما تريد، من بدائع نظمها في هذا المجال، ما قالته في التهنئة بمولود حيث تلاعبت في استخدام المجموعة الشمسية برائع الكلام:

تَجَلَّى الثُّورُ فِي أَفْقِ الْمَعَالِي وَحَلَّ الْبَدْرُ فِي أَوْجِ الْكَمَالِ
وَأَزْهَرَتِ الْكَوَاكِبُ مُسْفِرَاتٌ عَنِ الْبُشْرِ كإِشْرَاقِ اللَّيَالِي
وَأَبْدَى الدَّهْرُ مَوْلُوداً زَكِيّاً تَلُوحُ عَلَيْهِ آيَاتُ الْجَلَالِ
عُطَارِدُهُ بِإِلَاحَةِ التَّهَانِي أَتَى الْأَعْتَابَ وَالْإِقْبَالَ عَالِ

* ولقد أبانت عائشة بأشعارها هذه عن حُسن تفهيم أسرار الطبيعة، وتأويل معانيها، فوصفت حركات حدثت للزهر وللماء وللغصن الذي اهتز من مداعبة الأنسام إياه، فبدأ كأنه يهتز عجباً وتيهاً، وتستغل عائشة هذا المنظر البديع الأنيق، فإذا بها تعبر بها عما في مكنونها من وجدٍ وشوقٍ وهيام:

إِنْ كَانَ ذَلِكَ حَالُ الزَّهْرِ مِنْ عَجَبٍ فَكَيْفَ حَالُ أَخِي وَجَدٍ وَأَشْوَاقِ؟

* وحتى في مظاهر غزلها اللطيف، تستخدم مظاهر الطبيعة العلوية من سماء؛ ونجوم؛ وشمس؛ وقمر؛ بل وأسماء القمر، وظلام وضياء، فتأتي أشعارها تتهادى في ثوبٍ قشيب؛ وتختال كالغصن الرطيب؛ عند اعتلال التسيم وقت المغيب:

مَلَكَ الْفُؤَادَ وَقَدْ هَجَرَ بَدْرُ الْمَحَاسِنِ مُذْ ظَهَرَ
أَشْكُو الْغَرَامَ وَيَشْتَكِي جَفْنٌ تَعَذَّبَ بِالسَّهَرِ
وَأَتَيْتُهُ مُتَبَسِّمًا كَالْبَدْرِ لَمَّا أَنْ سَفَرَ
يَا بَدْرُ حَكَمَكَ الْهَوَى فَاحْكُمْ وَنَقِّذْ مَا أَمَرَ
وَدَعَ الظَّلَامَ عَلَى الضِّيَا وَاسْتُرْ بِطَرَّتِكَ الْغُرَى
فَالشَّمْسُ تَخْجَلُ عِنْدَمَا تَبْدُو وَيَسْتَحْيِي الْقَمَرُ

تَفَنُّنُهَا فِي نَظْمِ الشُّعْرِ:

* يحفل ديوان عائشة التيمورية بكل جميل وطريف، فهو كالروض المعطار فيه من كل زهر لون، ومن كل أريج عطر، حيث تجتذب كلماتها

قلوب محبي الثقافة، وتأسر معانيها قصّاد المعرفة، وتنشر أشعارها رحيق الأدب فتفوح بأريج ثقافتها، وتنمُّ عن سعة اطلاعها وتبحرها في فنّ النظم، ورصف الكلمات على شفاه الأيّام، فتظلّ كلماتها تتردد على سمع الزّمان كلّما ذكرت عائشة التيمورية.

* لقد أجادت عائشة فنون الشعر كلّها، ومن هذه الفنون البديعية فن التّخميس الذي بلغت فيه شأواً بعيداً، والذي تكاد تنفردُ به عائشة بين شاعرات عصرها من مثل: أمينة نجيب^(١)؛ وباحثة البادية^(٢) وغيرها، فقد أجادت النّظم في هذا الفنّ البديع ذي التّدوّق والدّوق الرّفع، فمن رائع تخميسها، وروائع فنّها بذلك هذين البيتين:

خَلِيلِي إِنِّي لِلثَّرِيَا لِحَاسِدُ وَإِنِّي عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ لَوَاجِدُ
أَيَجْمَعُ فِيهَا شَمْلُهَا وَهِيَ سِتَّةُ وَيَأْخُذُ مِنِّي مُنِيَّتِي وَهُوَ وَاحِدُ

فقد قالت في تخميسها:

دَعُونِي فَرِيداً فِي الْغَرَامِ أَكَابِدُ وَأَشْقَى بِمَا أَلْقَى فَدَهْرِي مُعَانِدُ
فَإِنْ دَرَّ مَزْنُ الْوَصْلِ فَالْمَزْنُ رَاكِدُ (خَلِيلِي إِنِّي لِلثَّرِيَا لِحَاسِدُ

وَإِنِّي عَلَى رَيْبِ الزَّمَانِ لَوَاجِدُ)

وَلِي فِي زَوَايَا الصَّبْرِ مَكْتُ وَعِزْلَةٌ دَهْتَنِي لَهَا رَغْماً لَعْمَرِي بَدْعَةٌ
وَقَامَتْ بِتَصْدِيقِي لَدَى الْقَوْلِ حَجَّةٌ (أَيَجْمَعُ فِيهَا شَمْلُهَا وَهِيَ سِتَّةُ
وَيَأْخُذُ مِنِّي مُنِيَّتِي وَهُوَ وَاحِدُ)

(١) أمينة بنت محمد نجيب القاهرية المولودة سنة (١٨٨٧ م)، والمتوفاة في ميعة الصّبا سنة (١٩١٧ م) وعمرها (٣٠ سنة)، وهي شاعرة مطبوعة وأديبة مجيدة.

(٢) باحثة البادية اسمها ملك حفني ناصف القاهرية المولودة سنة (١٨٨٦ م)، والمتوفاة أيضاً في ميعة الصبا سنة (١٩١٨ م)، وعمرها (٣٢ سنة)، وهي الأديبة الشاعرة النائرة التي غلب عليها لقب «باحثة البادية».

ومن الجدير بالذكر أنّ هناك أديبة لقبها «باحثة الحاضرة» وهي مغربية اسمها: ملكية الفاسي وتهتم بالكتابة عن شؤون المرأة.

* وتظهر براعتها في مضمار التغزل^(١)، واستخدام الألفاظ الأليفة اللطيفة، عندما عمدت إلى هذه الأبيات:

عُيُونٌ عَنِ السَّحْرِ الْمَبِينِ تَبِينُ يُسَالِمُهَا الْمُشْتَاقُ وَهِيَ تَحُونُ
مِرَاضٌ صِحَاحٌ نَاعِسَاتٌ يَوَاقِظُ لَهَا عِنْدَ تَحْرِيكِ الْجُفُونِ سُكُونُ
إِذَا أَبْصَرْتُ قَلْبًا خَلِيًّا مِنَ الْهَوَى وَأَوَمْتُ بِلُطْفٍ حَلٍّ فِيهِ فُتُونُ
وَمَا جَرَّدْتُ مِنْ مُرْهَفَاتٍ وَإِنَّمَا تَقُولُ لَهُ كُنْ مُغْرَمًا فَيَكُونُ

* فلقد تفاعلت عائشة مع هذه الأبيات، وأظهرت مقدرتها على الإتيان بالكلمات الوافيات، التي تنسجم مع قافية النون ومع المعاني الغزلية اللطيفة، لذا فقد جاء تخميسها يحمل همسات أليفة خفيفة كما ستقرأ معي:

وَعُذْرِي الْهَوَى الْعُذْرِيَّ وَهُوَ يَمِينُ بِهِ مَقَسَمُ التَّبْرِيحِ لَيْسَ يَمِينُ
لَأُفْتِكَ مِنْ ضَرْبِ الصَّفَاحِ تَبِينُ (عُيُونٌ عَنِ السَّحْرِ الْمَبِينِ تَبِينُ
يُسَالِمُهَا الْمُشْتَاقُ وَهِيَ تَحُونُ)

عَجِبْتُ لَهَا تَنْسَى وَقَلْبِي حَافِظُ وَإِنْسَانُهَا يَنْسَى التُّهَى وَهُوَ وَاغِظُ
وَأَعْجَبُ مِنْ ذَا الْفَتَكِ وَهِيَ لَوَاحِظُ (مِرَاضٌ صِحَاحٌ نَاعِسَاتٌ يَوَاقِظُ
لَهَا عِنْدَ تَحْرِيكِ الْجُفُونِ سُكُونُ)

فَأَهَالَهَا مَرْضِي عَلَى شِدَّةِ الْقَوَى وَهَارَوْتُ عَنْ أَجْفَانِهَا السَّحَرَ قَدْ رَوَى
وَلَا ذَنْبَ لِلْوَلْهَانِ فِي لَوْعَةِ الْجَوَى (إِذَا أَبْصَرْتُ قَلْبًا خَلِيًّا مِنَ الْهَوَى
وَأَوَمْتُ بِلُطْفٍ حَلٍّ فِيهِ فُتُونُ)

(١) مما تجدر الإشارة إليه أَنَّ عائشة، قد شَدَّتْ بكثير من شعرها الغزلي، وقالت كثيراً في التغزل تقليداً ومحاكاةً لأكابر شعراء الأعصر الخاليات، ومجاراة لكبار العلماء والفقهاء الذين تركوا أثراً لطيفة في هذا المجال الجميل؛ وَمَنْ أَرَادَ التَّوَسُّعَ فِي هَذَا الْمَجَالِ فَلْيَقْرَأْ كِتَابَ: «غَزَلُ الْفُقَهَاء».

وقد سلكت عائشة هذا المسلك - فيما أعتقد - لتثبت جدارتها وشاعريتها، وتدلي دلوها في فنون الشعر، ولقد عبرت عائشة نفسها، واعترفت بذلك لما صَدَّرَتْ بعض مقطوعاتها ومنظوماتها الغزلية بهذه العبارة: «وقالت متغزلة في غير إنسان، والقصد تمرين اللسان» (حلية الطراز ص ٢٣٢).

يُقَادُ لَهَا طَوْعاً أَسِيراً وطالما أضاعت بوادي التَّيهِ صَبّاً ومُغَرِّماً
وكم فَوَقَّتْ سَهْماً وكم سفَكَتْ دَمًا (وما جَزَدَتْ مِنْ مرهفاتٍ وإنَّما
تقولُ له كُنْ مُغَرِّماً فيكونُ)

* ونلاحظُ من خلال هذا التخميس بُعْدَ ثقافتها المتنوعة، وخصوصاً
القرآنية في ذكرها سِحْرَ هاروت، وكذلك نلمح شيئاً من ثقافتها الأدبية
والشعرية حينما تستعيرُ كلمات من صلب التراث من مثل: الصَّفاح،
السَّهام، وادي التَّيه، وغير ذلك مما يجعلها أميرة شاعرات وقتها.

* ومما يزيد الإعجاب بثقافة أميرة البيان السيِّدة عائشة التيمورية حُسْنُ
استخدامها لأكثر من فنٍّ شعري وبديعي للبيت الواحد، فقد خَمَسَتْ
وشطَّرَتْ، وبذلك برهنتُ على أنَّها قد سبرت أغوار اللغة العربية، فانقادت
لها المعاني تجرُّ أذيالها، لتضعها في المكان الذي يفى بالغرض، ويؤدِّي
كمال المعنى، وجمال المبنى، فلقد خَمَسَتْ، وشطَّرَتْ هذين البيتين:

وَلَيْلَى مَا كَفَّاهَا الْهَجْرُ حَتَّى أَبَاحَتْ فِي الْهَوَى عِرْضِي وَدِينِي
فَقُلْتُ لَهَا ارْحَمِي الْأُمِّيَّ قَالَتْ وَهَلْ فِي الْحُبِّ يَا أُمِّي اِرْحَمِينِي

* وعلى الرغم من بساطة معاني ذَيْنِكَ البيتين، إلا أنَّ عائشة قد أبدعت،
وداعبت الكلمات حتى نظمتها في عقدِ التخميس، والتشطير، فجاء حلية
ذات طرازٍ جميل، زاهر بفوح الآداب، فوَّاح بآداب الأزهير التي تملأُ
النفوس نغماً شادياً ساحراً، وألَّحِبَّ شعراً مطرباً معجباً أسراً، لأنها تقولُ
الشعر طيِّعاً سهلاً، نابعاً من صبيب عاطفتها، دالاً على كبير رسوخها
وتطوافها بين أزاهر الكلام، ووَرَدِ الأكمَام، ولا أدلَّ على ما نقول إلا سماع
تخميسها:

إِلَيْكَ مَعْنَفِي يَكْفِيكَ إِفْتَا جَهَلْتَ صَبَابَتِي أَمْ هَلْ عَرَفْتَا
فَلَا أَقْوَى عَلَيْكَ وَأَنْتَ أَنْتَا (وَلَيْلَى مَا كَفَّاهَا الْهَجْرُ حَتَّى

أَبَاحَتْ فِي الْهَوَى عِرْضِي وَدِينِي)

بِرَوْضِ جَمَالِهَا أُمَسَتْ وَقَالَتْ وَإِنْ عَثَرَ الْمَتَيْمُ مَا أَقَالَتْ

وَكَمْ صَدَّتْ وَفِي هَجْرِي أَطَالَتْ (فَقُلْتُ لَهَا اِرْحَمِي الْأُمِّيَّ قَالَتْ
وَهَلْ فِي الْحُبِّ يَا أُمِّي اِرْحَمِينِي)^(١)

* وذانك البيتان نفسيهما تعمدُ عائشة إلى فنِّ التَّربيع - التَّشطير - بعد أن
خمستهما، وتجدُ في تشطيرهما أيضاً، بساطة الكلمة، وسهولة معناها،
وجمال معناها، وليونة مبناها، ثم تجدُ شاعريتها التي تترافقُ أمامك لتعبرَ
إلى الوجدان، وتداعب أوتارَ القلوب، وهاك تشطيرها في البيتين السَّابِقين
ثلاث مرات، في كلِّ مرّة تعطيك سحراً يختلف عن سابقه :

(وَلَيْلَى مَا كَفَاهَا الْهَجْرُ حَتَّى) أَرْتَنِي جُرْحَ قَلْبِي بِالْعُيُونِ
وَمَا قِنَعَتْ بِسَفْكِ دَمِي وَلَكِنْ (أَبَاحَتْ فِي الْهَوَى عِرْضِي وَدِينِي)
(فَقُلْتُ لَهَا اِرْحَمِي الْأُمِّيَّ قَالَتْ) يَا أُمِّي قَدْ بُلِيتُ فَمَنْ مُعِينِي
أَتَرْحِمُ فِي الْغَرَامِ وَأَنْتِ صَبْتُ؟ (وَهَلْ فِي الْحُبِّ يَا أُمِّي اِرْحَمِينِي)
* وقالت في تشطيرهما أيضاً :

(وَلَيْلَى مَا كَفَاهَا الْهَجْرُ حَتَّى) أَذَاعَتْ بَعْدَ كَتْمَانٍ شُجُونِي
وَحِينَ تَبَيَّنَتْ آيَاتُ وَجْدِي (أَبَاحَتْ فِي الْهَوَى عِرْضِي وَدِينِي)
(فَقُلْتُ لَهَا اِرْحَمِي الْأُمِّيَّ قَالَتْ) وَهَنِيي كُنْتُ أُمُّكَ كَيْفَ أَحْنُو
جُنُنْتُ وَفِي الْهَوَى بَعْضُ الْجُنُونِ (وَهَلْ فِي الْحُبِّ يَا أُمِّي اِرْحَمِينِي)
* وفي مرة ثالثة تقول :

(وَلَيْلَى مَا كَفَاهَا الْهَجْرُ حَتَّى) أَطَالَتْ فِي دُجَى لَيْلِي أَنْيْنِي
وَكُلُّ تَجَلُّدِي بِالصَّبْرِ لَمَّا (أَبَاحَتْ فِي الْهَوَى عِرْضِي وَدِينِي)
(فَقُلْتُ لَهَا اِرْحَمِي الْأُمِّيَّ قَالَتْ) كَذَا خَطَّ الْيَرَاغُ عَلَى الْجَبِينِ
فَدَعَّ قَلَقَ الصَّغَارِ وَكُنْ صَبُوراً (وَهَلْ فِي الْحُبِّ يَا أُمِّي اِرْحَمِينِي)

* وأجدني - عزيزي القارئ - مرخياً لقلمي العنان في هذه الوقفة،
وذلك تعليقاً على التَّشطير الأخير حيث وَرَدَ قولها: «كذا خطَّ اليراعُ على
الجبين»، إذ يبدو هذا المعنى متكرراً في شِعْرِ عائشة، وفي التَّشطير في أبيات

(١) الدر المنثور (ص ٣٦٣).

آخر؛ ولعل ذلك المعنى يردد فكرة شائعة في الشعر العربي القديم، بل وفي الأمثال القديمة، وعائشة - رحمها الله - تجيد صياغة هذه الفكرة في نظم جميل، «والحبُّ خطُّ الجباهِ قديم»، هكذا قالت عائشة مرة أخرى، واستوحته من بنات أفكارها، لترسمه كلمات، وأي كلمات:

لَمَّا نَأَى عَنِّي وَبَانَ صَدُودُهُ وَالْحَبُّ خَطُّ الْجَبَاهِ قَدِيمُ
يَا لَيْلُ هَا أَنَا فَيْكَ سَاهٍ سَاهِرٌ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِي مِنْ دُجَاكَ رَحِيمُ
يَا لَيْلُ إِنَّكَ فِي الْفِعَالِ مُنَافِقٌ ضَاعَفْتَ شُكُوَاهُ وَأَنْتَ بِهِيْمُ

* وفي تشطير هذه الأبيات تبدع وتؤكد فكرة الرسم على الجباه، رسم الكلمات...

لَمَّا نَأَى عَنِّي وَبَانَ صَدُودُهُ وَالْقَلْبُ أَصْبَحَ لَا يَفِيقُ عَمِيدُهُ
مَلَكَ الْهَوَى رَقِيَّ وَحَقٌّ وَعِينُهُ (وَالْحَبُّ خَطُّ الْجَبَاهِ قَدِيمُ)
(يَا لَيْلُ هَا أَنَا فَيْكَ سَاهٍ سَاهِرٌ) وَلَعَزَّةَ الْمَحْبُوبِ شَاكِ شَاكِرُ
يَا لَيْلُ قَدْ أَيقَنْتُ أَنَّكَ كَافِرٌ (إِذَا لَمْ يَكُنْ لِي مِنْ دُجَاكَ رَحِيمُ)
(يَا لَيْلُ إِنَّكَ فِي الْفِعَالِ مُنَافِقٌ) هَذَا تُسَهِّدُهُ وَذَاكَ تَوَافِقُ
وَإِذَا لِضَيْمٍ أَنْ^(١) فَيْكَ الْعَاشِقُ (ضَاعَفْتَ شُكُوَاهُ وَأَنْتَ بِهِيْمُ)

* وفي غزل عائشة - رحمها الله - نوعٌ من تقليد فحول الشعراء في العصر الخالية، خصوصاً في وصف الجمال الذي يفعل الأفاعيل في العشاق، ولكن ما رأي عائشة في ذلك؟!

إِنْ كَانَ مَوْتُكَ مِنْ قِسِيَّ حَوَاجِبِ كَالثُّونِ أَوْ مِنْ سِخْرِ جَفْنِ ذَابِلِ
فَهِيَ الَّتِي فَعَلْتُ وَلَمْ أَشْعُرْ بِمَا فَعَلْتُ فَكَيْفَ تَلُومُنِي يَا سَائِلِي
أَنَا مَا قَتَلْتُ وَإِنَّمَا أَنَا آلَةٌ فِي الْقَتْلِ فَاطْلُبْ إِنْ تُرِدْ مِنْ قَاتِلِ
وَمَتَى أُرِيدُ قَصَاصَ سَيْفٍ أَوْقِنَا هَلْ مِنْ سَمِيعٍ مِثْلِ ذَا أَوْ قَائِلِ
وَاللَّهُ قَدْ خَلَقَ الْجَمِيلَ وَلَمْ يَقُلْ هَيْمُوا بَلِيِّنَ قَدِّهِ الْمُتَمَائِلِ
مَا قَالَ رَبُّكَ قَطُّ يَا عَبْدِي أَطْلُ نَظَرَ الْمِلَاحِ وَيَا جَمِيلَةَ وَاصِلِي^(٢)

(١) «أَنْ»: من الأنين والتوجع.

(٢) حلية الطراز (ص ٢٣٨).

* إِنَّ هَذِهِ الْمَرْأَةَ الْجَمِيلَةَ الَّتِي خَصَّهَا اللَّهُ بِالْجَمَالِ الْفَائِقِ، وَسَرَبَلَهَا بِسَحْرِ الْعُيُونِ الْمَائِلِ، لَا ذَنْبَ لَهَا فِي ذَلِكَ، وَلَا لَوْمَ عَلَيْهَا مِمَّا يَرَاهُ النَّاسُ بِسَبَبِ هَذَا الْجَمَالِ الْبَاهِرِ الْآسِرِ الْقَاتِلِ الْقِتَالَ، فَمُظَاهِرِ الْجَمَالِ فِيهَا هِيَ الَّتِي فَعَلْتُ مَا فَعَلْتُ، لَكِنَّ اللَّوْمَ وَالذَّنْبَ يَقَعَانِ عَلَى مَنْ يَطِيلُ النَّظْرَ، وَهَنَا تَظْهَرُ رُوحُ التَّوْبَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي تَلَقَّتْهَا عَائِشَةُ فِي صَغَرِهَا مِنْ حَيْثُ غَضَّ الْبَصَرَ مِنْ قَبْلِ الرَّجُلِ، وَحَفِظَ الْمَرْأَةَ عَفَّتْهَا وَطَهَّرَتْهَا.

* إِنَّ الَّذِي يَكْرُرُ قِرَاءَةَ الْبَيْتَيْنِ الْأَخِيرَيْنِ يَظْهَرُ لَهُ مَصْدَاقُ مَا قُلْنَاهُ، وَمَا ذَهَبْنَا إِلَيْهِ مِنْ أَثَرِ التَّوْبَةِ الْقَوِيْمَةِ فِي حَيَاةِ عَائِشَةَ التَّيْمُورِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ رَاحَتْ عَائِشَةُ تَجَسَّدُ تَرْبِيَّتَهَا فِي نَظْمِهَا الْخَالِدِ عَلَى مَرِّ الْأَيَّامِ وَالْأَعْوَامِ.

شَذَرَاتٌ وَطَرَائِفٌ مِنْ أَخْبَارِهَا:

* إِنَّ مَعْرِفَةَ أَخْبَارِ الْمَرْأَةِ - كَعَائِشَةَ - قَرِيبَةُ الْعَهْدِ مَنَّا، يَزِيدُ مِنْ رَصِيدِهَا فِي دِيْوَانِ الْمَعْرِفَةِ، وَفِي دِيْوَانِ الْأَخْلَاقِ، وَمِمَّا يَزِيدُ الْإِعْجَابَ بِأَخْبَارِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْعَفِيفَةِ، وَقُوفُهَا بِحُزْمٍ فِي وَجْهِ تَيَّارِ الدَّعْوَةِ إِلَى حُرِيَّةِ الْمَرْأَةِ.

* فَقَدْ كَانَتْ الدَّعْوَةُ إِلَى السَّفُورِ - فِي عَهْدِهَا - لَا تَزَالُ فِي طُورِهَا الْجَنِينِي، لَمْ يَجُئْهَا الْمَخَاضُ، وَبَعْضُهَا قَدْ وُئِدَ فِي الْأَحْشَاءِ، وَبَعْضُهَا الْآخِرُ لَمْ يَكْتَبْ لَهَا الْبَقَاءَ، وَبَعْضُ تَلْكَمِ الدَّعَوَاتِ ظَلَّتْ هَمْسَاتٍ حَاطَّةٍ تَدُورُ عَلَى الشَّفَاهِ، بَيْنَمَا تَجَاوَزَتْ دَعَوَاتٍ أُخْرِيَّاتِ هَذَا الْحَدِّ، وَوَصَلَتْ إِلَى الْأَسْمَاعِ.

* وَمِمَّا لَا رَيْبَ فِيهِ أَنَّ هَذِهِ الدَّعَوَاتِ كَانَتْ جَدِيدَةً عَلَى الْمَجْتَمَعِ الْعَرَبِيِّ الْمَحَافِظِ، فَقُوبِلَتْ بِأَدْيَاءِ الْأَمْرِ بِالْإِنْكَارِ، وَمِنْ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّ عَائِشَةَ قَدْ حَرَصَتْ عَلَى إِظْهَارِ جَانِبِ الْعِفَّةِ فِي شَعْرِهَا، وَدَعَتْ النِّسَاءَ إِلَى الْحِجَابِ، وَاصْطَفَاءِ عِفَافِ النَّفُوسِ:

وَلَكِنِّي اصْطَفَيْتُ عِفَافَ نَفْسِي
تَقَرُّ بِصَفْوِهِ عَيْنُ الْأَرِيْبِ

* وَأَكَّدَتْ مِرَاراً عَلَى الْحِجَابِ مَعَ الْعِفَافِ:
يَبِيدُ الْعِفَافُ أَصْوَنُ عِزِّ حِجَابِي وَبِعِصْمَتِي أَسْمُو عَلَى أَتْرَابِي

مَا عَاقَنِي حِجْلِي عَنِ الْعَلْيَا وَلَا سَدَلِ الْخِمَارِ بِلَمَّتِي وَنَقَابِي

* إِنَّ خَيْرَ سَبِيلٍ لِحَيَاةٍ صَافِيَةٍ لِكُلِّ امْرَأَةٍ، وَكُلِّ إِنْسَانٍ، سُلُوكُ طَرِيقِ الْعِفَّةِ، وَوُلُوجُ بَابِ الْأَخْلَاقِ، إِذْ إِنَّ الْأَخْلَاقَ بَابُ النَّجَاةِ، وَالنَّجَاحُ سُلُوكُ الْعِفَّةِ وَالِاسْتِقَامَةِ وَالصَّلَاحِ، وَعِنْدَهَا يَكُونُ الْإِصْلَاحُ:

مَا الْحِطُّ إِلَّا امْتِلَاكُ الْمَرْءِ عِفَّتَهُ وَمَا السَّعَادَةُ إِلَّا حُسْنُ أَخْلَاقِ

* وَعَلَى الرَّغْمِ مِنْ وَجُودِ بَعْضِ الدَّعَوَاتِ إِلَى السَّفُورِ^(١)، إِلَّا أَنَّ عَائِشَةَ لَمْ تَتَأَثَّرْ بِمِثْلِ تِلْكَ الدَّعَوَاتِ وَأَشْبَاهِهَا، وَلَمْ تَبْهَرْهَا تِلْكَ الْكَلِمَاتُ الَّتِي تَخَالَفُ نَشَاتُهَا، بَلْ كَانَ رَأْيُهَا يَخَالِفُ ذَلِكَ تَمَامًا، وَلَكِي تُوَكِّدُ لِبَنَاتِ حَوَاءَ قِيَمَةَ الْحِجَابِ، وَقِيَمَةَ صِيَانَةِ نَفْسِ الْمَرْأَةِ بِإِسْدَالِ الْخِمَارِ تَقُولُ عَنْ نَفْسِهَا:

وَمَا احْتِجَابِي عَنْ عَيْبٍ أَتَيْتُ بِهِ وَإِنَّمَا الصَّوْنُ مِنْ شَأْنِي وَغَايَاتِي

* وَلِعَائِشَةَ - رَحِمَهَا اللَّهُ - طَرَائِفُ وَأَخْبَارٌ جَمِيلَةٌ مَعَ أَوْلَادِهَا، وَفِي أَشْعَارِهَا تَرْسُمُ أَخْبَارَهَا، وَتَحْكِي أَحْوَالَهَا، بِمَا أَوْحَى فِكْرُهَا لَهَا؛ فَفِي خَبَرٍ لَطِيفٍ مَعَ ابْنَتِهَا تَوْحِيدَةً، نَسْتَشْفُؤُ مَدَى مَحَبَّتِهَا لَهَا، كَمَا نَلْمَحُ سُرْعَةَ

(١) مِنَ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّهُ كَانَتْ هُنَاكَ دَعَوَاتٌ وَأَصْوَاتٌ وَأَشْعَارٌ وَمَقَالَاتٌ تَدْعُو إِلَى السَّفُورِ، وَنَزَعَ الْحِجَابِ، وَإِلَى حُرِيَةِ الْمَرْأَةِ، وَكَانَ مِنْ أَبْرَزِ الدَّاعِينَ إِلَى ذَلِكَ مِمَّنْ عَاصِرُ عَائِشَةَ: قَاسِمُ أَمِينٍ، وَالشَّاعِرُ جَمِيلُ صَدْقِي الزَّهَاوِي، وَمَعْرُوفُ الرَّصَافِي، وَآخَرُونَ جَاءُوا بَعْدَهَا قَلِيلًا.

وَقَدْ كَانَ الزَّهَاوِي يَدْعُو بِصِرَاحَةٍ إِلَى نَزْعِ الْحِجَابِ - الْوَحِيمِ - بِزَعْمِهِ -، فَفِي قَصِيدَتِهِ: «أَسْفَرِي» يَخَاطِبُ الْمَرْأَةَ الْعَرَبِيَّةَ قَائِلًا:

أَسْفَرِي فَالْحِجَابُ يَابِئَةٌ فَهَرِ هُوَ دَاءٌ فِي الْاجْتِمَاعِ وَخِيمِ
كُلُّ شَيْءٍ إِلَى التَّجَدُّدِ مَاضٍ فَلَمَّاذَا يُقَرَّرُ هَذَا الْقَدِيمُ؟!
أَسْفَرِي فَالسَّفُورُ فِيهِ صَلاَحٌ لِلْفَرِيقَيْنِ ثُمَّ نَفْعٌ عَظِيمٌ
وَيَخَاطَبُ الزَّهَاوِي الَّذِينَ يَخَافُونَ عَلَى الْمَرْأَةِ التَّرْدِي إِنَّ هِيَ أَسْفَرَتْ، وَيَزْعُمُ بَأْنَ
الْحِجَابِ لَيْسَ هُوَ الَّذِي يَبْقَى عِفَّةَ الْفَتَاةِ، وَلَكِنَّ التَّعْلِيمَ وَالثَّقَافَةَ مِنْ وَسَائِلِ الْوَقَايَةِ،
وَفِي هَذَا يَقُولُ:

زَعَمُوا أَنَّ فِي السَّفُورِ انْتِلَامًا كَذَبُوا فَالسَّفُورُ طَهْرٌ سَلِيمٌ
لَا يَبْقَى عِفَّةَ الْفَتَاةِ حِجَابٌ بَلْ يَقِيْهَا تَثْقِيْفُهَا وَالْعُلُومُ

بديرتها، ولطف دفاعها عن ابنتها التي كان بلسانها لثغة لطيفة خفيفة، وإليك ذاك الخبر الطريف ومفاده:

* جاءت يوماً بعض السيدات منزل عائشة التيمورية كي يرينَ توحيدة، ويخطبنها، فأسرعت توحيدة ترحبُ بهن، وأخذت تؤانسهن ريثما تأتي والدتها، وراحت تلاطف أولئك النسوة بالحديث الحلو، وكان مما قالت لهنّ بلثغة خفيفة لطيفة: «أوحستونا»، تقصد «أوحستونا»؛ وفي هذه الأثناء دخلت أمها عائشة، وسمعت لثغة ابنتها التي أبدلت الشينَ سيناً، فظهر ذلك في لفظها، ولكن عائشة بطابع الأمومة، وعاطفة الحنان راحت تشرح للسيدات ما جرى بسرعة بديهة، وانبرت تقول:

قَالَ الْعَوَازِلُ مُذْ قَالَتْ مُؤَانِسَةً
«أَوْحَسْتَنَا» أَنَّهَا تَجْفُو وَذَاكَ غَلَطٌ
لَمْ يُبْدِلِ الشَّيْنُ سَيْنًا لَفْظَهَا غَلَطًا

بَلْ لَمْ يَسَعْ ثَغْرُهَا الزَّاهِي ثَلَاثَ نَقْطٍ

* وهكذا حُسِنَ التَّخْلُصُ وسرعة البديهة، فثَغُرُ توحيدة الصَّغِيرِ الجميل اللطيف لا يتسع أن يلفظ كلمة فيها ثلاث نقط! وهذا غاية في حُسْنِ التصرف، وتطويع الموقف لصالح ابنتها وصرف الحاضرات عن لثغتها^(١).

* ومن لطيف أخبارها وظريف أشعارها أنه وُلِدَ في سنة (١٢٨٨ هـ) شقيقها أحمد، وكان اسمه مركباً: أحمد توفيق، ففرحت بمولده، ورَحَّبَتْ بهذا القادم الذي أشرقت البيوتُ به:

(١) ورد أنَّ أبا نُوَاسَ الشَّاعِرِ العباسي المشهور كان ألثغ بالراء، وأنَّ أبا تمامَ الشَّاعِرِ العباسي المشهور كان ألثغ أيضاً، قال ابن خلكان: كان أبو تمام فصيحاً حلو الكلام فيه متممة سيرة. وقال أيضاً: وكان لأبي تمام حَبْسَةٌ إذا تكلم، وقال فيه أحدهم: يَا نَبِيَّ اللَّهِ فِي الشَّعْرِ — رَوِيَا عَيْسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ مِنْ أَشْعَرِ خَلْقِ الدُّنْيَا — هَـ مَا لَمْ تَتَكَلَّمْ (وفيات الأعيان ٢/ ٢٥) باختصار وتصرف.

غنى فؤاد الأمّ أهلاً بالذي

مُذْ جاءَ أشرقَتِ المنازلُ بالهنا

* ولما أخذَ أخوها أحمدَ توفيق - هذا - يجيدُ القراءةَ منْ على لوحِ
التَّعليمِ، رأتَ مخايلَ الذِّكاءِ، وملاحَ العلمِ باديةً على محياه، وهو يتجاوب
مع فقيه البيت ومقرئه، فأنشأت تقول:

لَا حَ السُّعُودُ وَأَسْفَرَ التَّوْفِيقُ وَتَلَا لَنَا سُورَ الْعِلَا تَوْفِيقُ
رَقَمَ الْفَقِيهُ لَهُ عَلَى لَوْحِ الْهُدَى أَقْبَلَ فَإِنَّكَ لِلنَّجَاحِ رَفِيقُ

* ولعائشة أخبارٌ رائعةٌ مع ابنها الذي غدَّتهُ بلباب الآداب منذ أن فتحَ عينيه
على دُنْيا الأدبِ والعِلْمِ، حيث كانت تعمل وتحرص على تعليمه بطريقة
تشهد بعلو مقدارها في المعرفة، فإذا ما أرادت مَصْدَراً من المصادرِ القيِّمةِ
كتبَتْ له شعراً ليحضر الكتاب المطلوب، فتكون بذلك قد أطلعتَه على
الكتابِ وعلى نظمها؛ ففي إحدى نفحاتها العلمية والتَّعليمية، تكتبُ إليه
وتطلب منه أن يحضرَ لها كتاب: «دُرَّةُ المختار»^(١):

طُروسُ حُرَّرَتْ فَوْرًا فَحَاكَتْ نَسْمَةَ الْأَسْحَارِ
سَأَوِدُعُهَا تَحِيَّاتٍ بِهَا عُرِفُ الصَّبَا قَدْ سَارَ
إِلَى عَالِي الْمَكَانَةِ مَنْ سَمَا فِي الْمَجْدِ وَالْمِقْدَارِ
لَهُ هِمَمٌ إِذَا ظَهَرَتْ تَوَارَتْ دُونَهَا الْأَقْمَارِ
وَأَرْجُو مِنْ مَعَالِيكُمْ سَرِيعًا «دُرَّةَ الْمُخْتَارِ»

* وقصصُ وأخبارُ عائشة مع ابنها شائقةٌ جميلة، تمثلُ عاطفةَ الأمِّ
الرَّؤُومِ، فإذا ابتعدَ عنها ابنها، هتَفَ قلبها: أينَ الحبيبُ الذي تربَّى في
جوارِي، بل تبقى في بعده عنها دونَ قلب؛ نعم تبقى عائشة دونَ قلب،
ويصبحُ فؤادها فارغاً:

قَلْبِي لِبُعْدِكَ لَمْ يَحْمَدْ مُجَاوَرَتِي وَفَرَّ نَحْوَ حَبِيبٍ فِي حِشَاءِ رَبِّي
فَقُلْ بَطَّلَعَتِكَ الْغَرًّا وَعَرَّتْهَا وَاحْكُمْ بِمَا تَرْتَضِي مُنَّعَتَ بِالْأَدَبِ

(١) من كتب الفقه الحنفي المعروفة المشهورة.

مِنْ غَيْرِ قَلْبٍ أَتَبَقَى رُوحُ عَائِشَةَ لَا وَالَّذِي زَانَ هَذَا الْمَجْدَ بِالْأَدَبِ

* ولعائشة وقفاتٌ جميلة مع نفسها، وتحدثنا عن واحدة من تلك الوقفات بطريقةٍ ساحرةٍ ساخرة، وذلك لما أَنَّ غزا الشَّيبَ مفرقتها، ولاحَ مشتعلًا في رأسِها، عندها تصابُّ بالهلع، وتعدُّ ذلك مقدمةً ونذيراً للرَّحيل إلى الدَّارِ الآخرة، وطبيعة المرأة تكره الشَّيبَ أكثر من كُرهِ الرَّجل له^(١)، وتنفر النساء في الغالب من الرَّجل إذا ابيضَّ شعره، أو لاح الشَّيبُ في عارضيه^(٢)؛ أمَّا عائشة فقد علا الشَّيبَ مفرقتها على حين غفلة منها، هكذا زَعَمَتْ:

لَا تُنْكِرُوا شَيْئاً أَلَمْ يَلْمَّيْ فَهُوَ النَّذِيرُ لِحَزْمِ رَاحِلَةِ السَّفَرِ
فَفِرَاقُ فَاِنِي الْعَيْشِ حَانَ وَلَمْ أَكُنْ مُسْتَيْقِظاً فَعَلَا بِفِرْقِي وَاسْتَقَرَّ^(٣)

* حقاً إِنَّ عائشة لتُحَلِّي نظمها من جواهر اللفظ، وبديع المعاني ما يزيد حسناً على بهيِّ الجواهر في أجياد الكواعب الأتراب الحسان، خصوصاً حينما ترسُم صورةً رائعةً لما بعد الشَّيب، فالمرءُ مقبورٌ لا محالة، ومفقودٌ لا شكَّ، وسيُهيئُ عليه الترابُ الأخُ والقريبُ والخليلُ والصديقُ، ويرجعُ جميعهم كأنَّهم ما عرفوا الميِّتَ ولا دفنوه، ولكنَّهم عرفوا مالَه فاقتسموه بعد

(١) وفي ذلك أذكرُ قولَ بعضهم يمتدح خصلة من الشَّيبَ ظهرت برأسه فأنشد:

قد يشيبُ الفتى وليس عجيباً أن يُرى التَّوَرُّ من الغصنِ الرطيبِ

(٢) وهذا ما أكَّده منذ مئات السنين الشاعر الجاهلي علقمة بن عبدة وكان من أعلمِ

النَّاسِ بالنِّساء، ثم أكد ذلك كثير من شعراء وأدباء العصور الخالية والحاضرة،

ولكن علقمة قال:

فإن تسألوني عن النَّساء فإنني خيرٌ بأدواءِ النَّساء طيبُ

إذا شابَ رأسُ المرءِ أو قلَّ مالُه فليسَ له في ودَّهنِ نصيبُ

يُردُّ ثراءَ المالِ حيثُ علمته وشرخُ الشَّبابِ عندهن عجيبُ

وهذه الأبيات من قصيدة مشهورة مطلعها:

طحا بك قلبٌ في الحسان طروب بُعيد الشبابِ عصر حان مشيبِ

(ديوان علقمة ص ١١).

(٣) حلية الطراز (ص ٢٤).

أَنْ لَقِيَ الْعَنْتَ وَالْعَنَاءَ وَالشَّقَاءَ فِي جَمْعِهِ :

أَرَاكَ بِلَمَّتِي يَا شَيْبُ عِظْنِي وَقَدْ حَانَ الرَّحِيلُ غَدًا لَعَلِّي
فَأَوَّلُ مَا نَرَى حَدَثًا مَهُولًا تَهِيلُ ثَرَاهُ كَفَّ أَخٌ وَخِلٌ
وَقَدْ رَجَعُوا كَأَنْ لَمْ يَعْرِفُونِي وَهُمْ نَسَبِي وَأَبْنَائِي وَأَهْلِي
وَتَشْتَغِلُ الْبَنُونَ بِقَسَمِ مَالٍ أَنَا مَنْ حَشَدِهِ فِي عَظَمِ شُغْلٍ

* ولمرضِ العيون الذي أصابَ عائشة نصيبٌ كبيرٌ في شِعْرها وأخبارها،

فعندما كانت مصابةً برمدٍ عينيها قالت :

فَوَا أَسْفِي عَلَى إِنْسَانٍ عَيْنِي غَدًا فِي سَجْنِ سُقْمٍ وَاعْتِقَالٍ
حُجِبْتُ بِسَجْنِهِ عَنْ كُلِّ خِلٍّ وَصُرْتُ مُحَاطِبًا صُورَ الْخِيَالِ

* ولك - عزيزي القارىء - أن تعيدَ وتكرر قراءة الشطر الأخير، وفيه

تظهر تشكو الألام والحرمان في مخاطبتها الخيال ! .

* وتحدثُ عائشة عما تقاسي من ألوانِ العذاب في الظلام، وما تلاقيه

من الأرق الذي سبَّبه لها المرض الذي سبب لها تشويشَ الصُّور، حتى في
شِعْرِها، إذ جعلت الخفَّاشَ ينعم بنور عينيه!! - والخفَّاش كما نعلم
لا يبصر - :

فَكَمْ أُمْسِي بِمَا أَلْقَى حَزِينًا وَبَيْنَ النَّوْمِ مُعْتَرِكٌ وَبَيْنِي
أَبَيْتُ وَمُؤْنَسِي الْخَفَّاشُ لَيْلًا وَحَالِي مَعَهُ شَرُّ الْحَالَتَيْنِ
فَذَاكَ بِنُورِ عَيْنَيْهِ مُهَنَّى وَلِي أَسْفٌ بِحُجْبِ الْمُقْلَتَيْنِ
وَأَبْسُطُ لِلظَّلَامِ أَكْفَ بَثِّي وَأَشْقَى لَوَعَةٍ بِالظُّلُمَتَيْنِ
تَرَانِي مُعْرِضًا عَنْ كُلِّ ضَوْءٍ فَهَلْ خَاصَمْتُ نُورَ النَّيِّرَيْنِ
يُنَافِرُنِي السَّنَا فَاغْفِرْ مِنْهُ كَأَنَّ الضَّوْءَ يَطْلُبُنِي بِدَيْنِ
وَأَجْنَحُ لِلظَّلَامِ جَنُوحَ صَبٍّ دَنَا لِحَبِيبِهِ بِالرَّفَقَتَيْنِ

* وفي مرضها المضني، كانت تودُّ لو تشفى كي تنظم دُررًا من أشعارها

تتحلَّى به صدورُ الصَّفحات، وجيدَ الأوراق :

فَيَا إِنْسَانَ عَيْنِي غَابَ عَنْهَا وَبَدَّلَنِي بِهِ طَوْلَ الْمَلَالِ
عَسَى أَلْفَاكَ مُبْتَهَجًا مُعَافَى وَأُصْبِحُ مُشِيدًا أَمْلِي صَفَا لِي

لِتَهْنَأَ مُقْلَتِي بِسَنَا حَبِيبٍ بَدِيعِ الْحُسْنِ مَحْمُودِ الْخِصَالِ
وَأَنْظِمُ أَحْرُفِي كَالدَّرِّ عَقْدًا بِهِ جَيْدُ الصَّحَائِفِ كَانَ حَالِي
* ويطول رمدٌ عائشة، فيطول شوقها للكتابة والقراءة، ولكن ما الحيلة
في ذلك وقد حرمت السَّحر الحلال من بطون الكتب وأثناء المصادر؟! إذاً
لعلَّ لمسَ الكتب، ومسَّ المخطوطات، ومداعبة بدائع المصادر وروائعها
يخففُ لوعتها:

أَمْسُ الْكُتُبِ مِنْ شَغْفِي عَلَيْهَا وَأَبْلَى حَسْرَةٍ مِنْ سُوءِ حَالِي
وَأُنْدُبُ مَهْجَتِي حُبًّا لَأَنِّي حُرِمْتُ بَدَائِعِ السَّخْرِ الْحَلَالِ
* وتشرك عائشة أدوات الكتابة في علَّتِها التي أصابتها، وتضفي عليها
روحَ الإحساس، فالدَّواة - المحبرة - تبكي، والأقلام قد انشقت لأنها لم
تلامس أصابعها منذ حين؛ . . .

نَعَانِي أَيْبُضُ الْقِرْطَاسِ لَمَّا جَفَانِي الْيَوْمَ نُورُ الْأَسْوَدَيْنِ
وَقَدْ جَفَّتْ دَوَاتِي وَهِيَ تَبْكِي لِمَا قَدْ رَاعَهَا مِنْ طَوْلِ أَثْنِي
وَأَقْلَامِي قَدْ انشَقَّتْ لَأَنِّي حُرِمْتُ مَسَاسَهَا بِالْإِصْبَعَيْنِ
مَوْقِفُهَا وَسُخْرِيَّتُهَا مِنَ الْأَطْبَاءِ:

* للأطباء وأهل هذه الصَّنعة مساحةٌ واسعةٌ في شِعْرِ عائشة، لا في
نفسها، ولعلَّه من أطرف ما نستشفُّه من أخبارِها المِغْنَج، تلكم الآراء ذات
الظِّلِّ الخفيف في الطَّبِّ والأطباء، فقد عاشت تجربةً مريرةً أليمةً في رمدِ
عينِها، ومن قبلُ رأت ما حلَّ بابنتها توحيدة، وكم من طبيبٍ دَخَلَ ووصفَ
العلاج، ولكن ما حيلةُ الطَّبيب؟! فربَّما خانتَه العقاقير، إلا أنَّ عائشة
- رحمها الله - قد أخذَ على خاطرها من عصبيةِ الأطباء من خُلَفَاءِ جالينوس
وأبقراط، ولكن ما ذَنْبُ الطَّبيب إذا كانت المقاديرُ قد جَرَتْ على ما قَدَّرَ الله
لها؟! ومع كلِّ هذا، فعائشة تهزأ وتسخر من طبيبٍ قَادَهُ حَظُّهُ العاثر إلى
بيتها:

يَا مَنْ أَتَى لِلْجِسْمِ يَبْرَىءُ سُقْمَهُ وَيَظُنُّ جَالِيئُوسَ بَعْضَ عَيْدِهِ
أَفْنَيْتَ بِالطَّبِّ الَّذِي تَهْدِي بِهِ أُمَمًا وَقَرَّبْتَ التَّدَى بِبِعِيدِهِ

وَزَعَمْتَ أَنَّكَ أَنْتَ قَدْ جَدَّدْتَهُ وَلَقَدْ أَضَعْتَ قَدِيمَهُ بِجَدِيدِهِ

* وفي أسلوبها السَّاحِر السَّاخِر تصوّر هذا المشهد اللطيف الذي جعلها تكره الأطباء، وتلجأ إلى ربِّ السَّماء، فهو المرجى والمرتجى لكلِّ نائبة؛ أمّا الأطباء فلا يملكون إلّا الوعود النَّاحلة الهزيلة الطويلة، والتعلُّل بالآمالِ

و...

تَخَالَفَتِ الْأَسَاءَةُ^(١) بطولٍ وَعَدٍ يُعَلِّلُنِي وَيَأْسُ فِيهِ حِينِي وَمَنْ فَظٌّ يَهْدِدُنِي جَهَاراً وَقد عفّت الْأَسَاءَةُ وَعُدْتُ أَرْجُو طَيِّبَ الْكَوْنِ رَبَّ الْمَشْرِقَيْنِ بِمَبْضَعِهِ الْمُصَوَّبِ فِي الْيَدَيْنِ

* وتنعى عائشة على الأطباء طريقتهم، فهم لا يستطيعون دفع الرّدى عن أحد، حتى عن الملوك، وأقوى الأقوياء؛ مرة أخرى نقول: ما ذنبُ الطَّبيب لدى فتك المنيات؟! ولكنه رأي عائشة التي آلمها المرضُ والرّمْد، وفتك الرّدى بابتنها:

أَيْنَ الْمُلُوكُ الْأَلَى كَانَتْ أَوَامِرُهُمْ مَخْدُودَةٌ كَسُيُوفٍ مُشْرِفَاتٍ قَدْ أَحْكَمَ الدَّهْرُ مَرَمَاهُمْ فَمَا لَبِثُوا حَتَّى انْطَوَوْا فِي الثَّرَى طَيَّ السَّجَلَاتِ فَكَمْ مَضَى عَزْمُهُمْ فِي عَزِّ سَطَوَاتِهِمْ قَوْلًا وَفِعْلًا بِتَسْدِيدِ الرِّيَاسَاتِ يُوُوبُ بِالْعَجْزِ أَقْوَاهُمْ إِذَا أَلَمَ بِهِ أَلَمٌ وَيَبْدِي شَرَّ حَسَرَاتِ يَلُودُ ضَعْفًا بِأَذْيَالِ الطَّيِّبِ وَمَا يَغْنِي الطَّيِّبُ لَدَى فَتْكِ الْمَنِيَّاتِ^(٢)

(١) «الأساءة»: الأطباء.

(٢) انظر: الدر المنثور (ص ٣١٨)، وقال الرّبيع بن خثيم - رحمه الله -: ذكرتُ عاداً وثمود وأصحاب الرّس وقروناً بين ذلك كثيراً، كانت فيهم الأدوية، وكانت فيهم الأطباء، فلا الطَّبيبُ بقي ولا المداوى! وقيل للرّبيع في علته: ألا ندعو لك طبيباً؟ فقال: الطَّبيبُ أمرضني.

وما أجمل قول أبي العتاهية في هذا المجال:

إِنَّ الطَّيِّبَ بِطَبِّهِ وَدَوَائِهِ لَا يَسْتَطِيعُ دِفَاعَ مَكْرُوهِ أَتَى مَا لِلطَّيِّبِ يَمُوتُ بِالْذَّاءِ الَّذِي قَدْ كَانَ يَبْرِئُ مِثْلَهُ فِيمَا مَضَى وَقَالَ آخِرُ:

كَمْ مِنْ عَلِيلٍ قَدْ تَخَطَّاهُ الرّدى فَجَاءَ وَمَاتَ طَبِيبُهُ وَالْعُودُ=

ولما رثت عائشة والدها إسماعيل باشا بهزيتها الرائعة، أبانت أيضاً عَجَزَ
الطَّبِّ والأطباء، فقد أظهرت فَشَلَ وخيبة الطَّيِّب الذي خرجَ يَجْرُ أذْيالَ
اليأس، وكان الدواء الذي أحضره من نصيب التراب :

رَجَعَ الطَّيِّبُ بِيَاسِهِ مُتَسْرِباً وَأَرَاقَ جُرْعَتِهِ عَلَى الْحَصْبَاءِ
نَادَاهُ لَا تَيَاسُنْ وَعَالَجْ عَلَّتِي فَعَسَى يَكُونُ عَلَى يَدَيْكَ شِفَائِي
وَكَشِفْ عَلَى قَلْبِي فَإِنْ بَشَّرْتَنِي بِالْبُرِّ خُذْ مُلْكِي وَذَاكَ فِدَائِي^(١)

* وتبلغُ عائشةُ ذِروَةَ سَخَطِهَا^(٢) على أهل الطَّبِّ وهاتيك الصَّنَاعَةُ في مرثاةٍ
توحيدية، وخصوصاً عندما أدركت ابتئها يأسَ الطَّيِّب وعجزه، هنالك
انفجرت عائشة بهذه المقطوعة التي تُعدُّ قطعةً من فلذاتِ أكبادِ أشعارِها، على
فلذةٍ كبدها؛ ابتئها توحيدية:

جَاءَ الطَّيِّبُ ضَحَىً وَبَشَرَ بِالشِّفَا إِنَّ الطَّيِّبَ بِطَبِّهِ مَغْرُورُ
وَصَفَ التَّجَرُّعَ وَهُوَ يَزْعُمُ أَنَّهُ بِالْبُرِّ مَنْ كُلُّ السَّقَامِ يَشِيرُ
فَتَنَفَّسْتُ لِلْحَزَنِ قَائِلَةً لَهُ عَجَلَ بُرِّي حَيْثُ أَنْتَ خَبِيرُ
وَارْحَمْ شَبَابِي إِنَّ وَالِدَتِي غَدَتْ تُكَلِّي يَشِيرُ لَهَا الْجَوَى وَتَشِيرُ
لَمَا رَأَتْ يَأْسَ الطَّيِّبِ وَعَجَزِهِ قَالَتْ وَدَمْعُ الْمُقْلَتَيْنِ غَزِيرُ
أُمَاهُ قَدْ كَلَّ الطَّيِّبُ وَفَاتَنِي مَّا أَوْمَلُ فِي الْحَيَاةِ نَصِيرُ

* ولم تكتفِ عائشة بهذا التَّعْيِ على الطَّيِّب الذي عالجَ ابتئها، وإنَّما شمل
نعيمها واتَّصلت سخريتها بعَرَافِ اليمامة :

لَوْ جَاءَ عَرَافُ الْيَمَامَةِ يَتَغَيُّ بُرِّي لَرَدَّ الطَّرْفَ وَهُوَ حَسِيرُ
* وتلجُ عائشةُ بابَ تاريخِ الأطباء، وتعودُ إلى ذكرِ عمالقةِ الطَّبِّ في سالفِ
العصرِ والأوان، ولكنْ هذه المرَّةُ بأسلوبٍ أَلَيْنَ من قبل، ففي هذه المرَّةِ غاب

= هذا؛ ومثل هذه الأقوال والحكم منشورة في أدبنا، وقد أوردنا منها ما رأيناه مناسباً.

(١) شاعرات العرب (ص ٢٢٥).

(٢) ويحضرني هنا قول المتنبي عن حبِّ وكراهية المرأة:

وإنَّ حَقْدَتَ لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهَا رِضًا وَإِنْ رَضِيَتْ لَمْ يَبْقَ فِي قَلْبِهَا حَقْدُ

عنها أحدُ أحبائها، فإذا أحشاؤها في تحرقٍ إلى لقائه، وأجفائها تَطُرُ بالدَّمْعِ،
وها هنا لا ينفعُ الطَّبُّ ولا مداواةُ الطَّيِّبِ:

لَوْ شَخَّصَ الدَّاءَ جَالِينُوسٌ أَعْجَزَهُ وَقَالَ لِقَمَانٍ تَكْلِيْفِي بِهِ بَاطِلُ
كَيْفَ الشِّفَاءُ وَمَنْ أَهْوَاهُ فَارْقَنِي هِيَهَاتَ إِنَّ الْهَوَى بَحْرٌ بِلَا سَاحِلِ
جَاءَ الطَّيِّبُ يُدَاوِينِي فَقُلْتُ لَهُ دَعْ عَنْكَ طِبِّي وَلَا تَتَّعِبْ بِلَا طَائِلِ
تَعَذَّرَ الطَّبُّ وَالْبُرْءُ انْزَوَى وَنَأَى عَنِّي وَلَوْ نِي مِنْ فِعْلِ الْهَوَى حَائِلِ
مَا يَنْفَعُ الطَّبُّ وَالْأَحْشَاءُ فِي حَرَقٍ وَالْجَفْنُ مِنْ فَرْطٍ وَجَدِي دَمْعُهُ هَاطِلٌ^(١)

* وفي نهاية السُّوطِ معَ الأطباءِ، الذين شعروا بالإعياءِ، والحصَرِ والعِيِ
معَ عائِشةَ، تلجأُ إلى العَليمِ الخَبيرِ البصيرِ بحالِها:

أَنْتَ الْخَبِيرُ بِحَالِي وَالْبَصِيرُ بِهِ فَافْتَحْ لِهَذَا الدُّعَا بَابَ الْإِجَابَاتِ
فَكَيْفَ أَشْكُو لِمَخْلُوقٍ وَقَدْ لَجَأْتُ لَكَ الْخَلَائِقُ فِي يُسْرِ وَشِدَاتِ
فِيَالَهَا مِنْ جَرَّاحٍ كُلَّمَا اتَّسَعَتْ أَعْيَتْ طَبِيبِي رَغْمًا مِنْ مُدَاوَاتِي
أَنْتَ الشَّهِيدُ عَلَى مَا أَفْوَهُ بِهِ مَا دَمْتُ عَائِشَةُ فَالْحَمْدُ غَايَاتِي

عَائِشَةُ وَجَمِيلُ الصَّبْرِ:

* كان لعائِشة - رحمها الله - رواياتٌ وأحداثٌ معَ الصَّبْرِ، ومع الصُّعَابِ،
فقد وقفت وقفة الصَّابراتِ ذواتِ العِزمِ والثَّبَاتِ، واتَّخَذَتِ الصَّبْرَ دليلاً لها في
حياتها:

مَرَارَةُ الصَّبْرِ خُصَّتْ بِالْحَلَاوَاتِ وَجَدْتُ فِي مُرَّهَا حَلَوَى السَّلَامَاتِ
صِيَانَتِي فِي كُهُوفِ الصَّبْرِ أَنْفَعُ لِي مِنْ حَصْنِ كِسْرَى وَمِنْ أَعْمَاقِ أَغْمَاتِ^(٢)
* ولم تتوقف عائِشة عند هذا فحسب، وإنما اتَّخَذَتِ جَمِيلَ الصَّبْرِ لِلتَّغَلُّبِ

(١) وقريب من هذا قولها:

أَرِنَا زَمَانَ الْأَنْسِ يَا وَجْهَ الْحَبِيبِ واحذِرْ حَمَاكَ اللَّهُ أَنْ يَدْرِي الرَّقِيبُ
دَعْنِي لِأَنِّي بِاللِّقَا قَلْبِي يَطِيبُ ودَعْ الْعِلَاجَ وَمَا يَقُولُ بِهِ الطَّيِّبُ

(٢) «أغمات»: ناحية من بلاد البربر من أرض المغرب قُرب مراكش وبينهما ثلاثة فراسخ
(معجم البلدان).

على ما يؤلمها وما يعترضها من شدائد:

كَمْ قَابَلْتَنِي لَيَالٍ رِيحُهَا سَعُرٌ بطيئة السَّير ترمي بالشرارات
لَا قِيَّتُهَا بِجَمِيلِ الصَّبْرِ مِنْ جَلَدِي وبثُّ أسقي الثرى من غيثِ عراقي
كَمْ أَفْعَدْتَنِي أَيَّامٌ بِصَدْمَتِهَا وقمتُ بالعزم مشهور العنايات^(١)

* ولعلَّ للصَّبْر حكاياتٌ وقصصٌ جميلة مع عائشة، فها هي تتخذُ منه خليلاً يسامرُها وتسامرُها، فهي تخبره بعدم عتبِها على الزَّمن، بينما يحدثُها الصَّبْرُ عن تقلُّباتِ الأيام، وينبِّهها إلى أشياء كثيرة حتى لا تركزَ إليها، وينفحها معاني السَّعادة، ثمَّ بعدم الاغترارِ بالدَّهر، فالدَّهرُ ذو غير، ولا يبقى على حاله:

أَقُولُ لِلصَّبْرِ لَا عَتَبٌ عَلَى زَمَنِ أَعْطَى لِأَبْنَائِهِ أَسْمَى الْعَطِيَّاتِ
فَقَالَ مَهْلًا لَا تَغْرُزْكَ شَوْكُهُمْ فَالصَّحْوُ يَعْقُبُهُ سُودُ الْغَمَامَاتِ
فَلَيْسَ كُلُّ مَلُومٍ دَامَ مَكْتَبًا وَمَا السَّعِيدُ سَعِيدٌ لِلْمُلَاقَاةِ
فَدَهْرُهُمْ غَرَّهُمْ جَهْلًا وَمَا عَلِمُوا أَنَّ الزَّمَانَ قَرِيبُ الْإِلْتِقَاتِ

* إِنَّ أَخْبَارَ عَائِشَةَ وَطَرَائِفَهَا كَثِيرَةٌ تَمَلُّ الْأَسْمَاعَ، وَلَعَلِّي قَدْ أَفْضْتُ الْحَدِيثَ عَنْ ذَلِكَ، وَيَعُودُ السَّبَبُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَتْنِي - فِي حُدُودِ إِطْلَاعِي - لَمْ أَجِدْ مَنْ تَوَسَّعَ فِي الْكِتَابَةِ عَنْ حَيَاتِهَا بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصِيلِ، وَتَبَيَّنَ مَقْدَرَتِهَا الشَّعْرِيَّةَ، وَاتِّجَاهَاتِهَا الْأَدَبِيَّةَ؛ وَثَمَّةُ سَبَبٍ آخَرَ دَعَانِي لِذَلِكَ هُوَ أَنَّ الَّذِينَ كَتَبُوا عَنْهَا لَمْ يَعْطَوْهَا حَقَّهَا، وَحَكَمَ بَعْضُهُمْ وَبَعْضُهُنَّ عَلَيْهَا بِأَحْكَامٍ فِيهَا بَعْضُ الْجَوْرِ وَالْإِجْحَافِ.

نَشْرُهَا وَمَكَانَتُهُ فِي عَالِمِ الْبَدَائِعِ:

فِي الصَّفَحَاتِ السَّابِقَاتِ رُحْنَا نَمُخِرُ عِبَابَ أَشْعَارِ عَائِشَةَ التِّيمُورِيَّةِ، وَمِنْ ثَمَّ حَلَقْنَا فِي أَجْوَاءِ فَنُونِهَا الشَّعْرِيَّةِ فِي مَجَالَاتٍ شَتَّى، وَلِئِنْ حَلَقْتُ هَذِهِ السَّيِّدَةَ الْكَرِيمَةَ فِي أَرْجَاءِ الشَّعْرِ، لَقَدْ أَبْدَعْتُ فِي أَنْحَاءِ النَّثْرِ وَمِيَادِينِ الْقَوْلِ، فَكَانَ لَهَا قَصَبُ السَّبْقِ بَيْنَ شَوَاعِرِ عَصْرِهَا، وَنَاسِرَاتِ دَهْرِهَا، وَلَا نَبَالِغُ لَوْ قُلْنَا: إِنَّهَا

(١) الدر المنثور (ص ٣١٧).

كانت أميرة شاعرات العصر، إذ سَحَرَتِ الأدباء ببيانها الزّائع، وأسلوبها المستقى من روائع البدائع، ومن صبيب بدائع البدائِه.

* لقد خرجَ ديوانُ عائشة إلى الوجود باسم «حلية الطّراز»^(١)، فكان له وقعٌ عظيم في النفوس، وقبولٌ زائدٌ عندَ أهلِ الأدب، وبعد ذلك رأت نفسها أنّها قادرة على التّأليف، فصنّفت كتاباً أسمته «نتائج الأحوال»، فطُبِعَ ونُشِرَ أيضاً، ولها ديوانٌ باللغة التركية اسمه «شكوفة».

* ولما انتشرت مؤلّفاتُها المذكورة، سارت في حديثها الركبان، وطار صيتها في الآفاق، ووردت التّقاريظُ من كلِّ جهيدٍ أديب، ولودعي أريب^(٢).

* ومن بدائع التّقاريظ ما جاءها من إحدى أدبيات لبنان تقرّظاً على ديوانها «حلية الطّراز»، حيث وشّته بالنّثر، وحلّته بالشّعر، وبالغت في تقرّظها لعائشة فقالت: تشرفتُ باطلاعي على حلية طرازكم، التي تحلّى بها جيدُ العصر، وأخجلتُ بسببك معانيها خنساء صخر^(٣)، ألا وهي الدّرة اليتيمة التي لم تأتِ فحولُ الشّعراء بأحسنَ منها، وقصر نظم الدّر عنها، وشنتف بحسن ألفاظها مسامعنا، حتى غدا يحسدها السّمع والبصر، وسارت في آفاقنا مسيرَ الشّمس والقمر.

وقد تطفّلتُ مع اعترافي بالعجز والتّقصير، بتقرّظٍ لها وجيزٍ حقير، فكنتُ كمن يشهدُ للشّمس بالضياء، أو بالسّم للقبّة الزّرقاء، راجية من لديكم قَبُولَه بالإغضاء:

حَبَّذا حليةُ الطّرازِ أَتَتْ مِنْ مِصْرَ تَزْهُو بِاللُّؤْلُؤِ الْمُنْظُومِ

(١) على الرغم من أنّ عائشة التيمورية قد فرّثت من تعليم التّطريز وهي صغيرة، وفرّثت من الإبرة، فرارها من القسورة، لكنّها وقعت في شرك التّطريز الفني وهي كبيرة، إذ دعّت ديوانها باسم «حلية الطّراز» حيث نظّمت شعرها الذي يبدو منضداً جميلاً متقناً كالتّطريز.

(٢) انظر: الدر المنثور (ص ٣٠٤).

(٣) وهذا من المبالغات التي شبت عن طوق الحقيقة، فالخنساء صحابية وشاعرة وذروة في الأدب والشعر.

حَلِيَّةٌ لِلْعُقُولِ لَا حَلِيَّةَ الْوُشْدِ سِي وَكَنْزِ الْمَنْطُوقِ وَالْمَفْهُومِ
 قَدْ أَعَادَ الزَّمَانُ عَائِشَةً فِيهَا فَعَاشَتْ آثَارَ عِلْمٍ قَدِيمِ
 هِيَ فَخْرُ النِّسَاءِ بَلْ وَرْدَةٌ فِي جِيدِ ذَا الْعَصْرِ زُيِّنَتْ بِالْعُلُومِ^(١)
 * وَكَانَتْ عَائِشَةُ قَدْ نَفَحَتْ هَذِهِ الْأَدَبِيَّةُ الْمَعْجَبَةُ^(٢) بِهَا رِسَالَةً تَشْكُرُهَا عَلَى تَقْرِيطِهَا^(٣) ، فَرَدَّتْ عَلَيْهَا الْأَدَبِيَّةُ اللَّبْنَانِيَّةُ بِبُضْعَةِ أَيْبَاتٍ مِنْهَا :

يَا نَسْمَةً مِنْ أَرْضِ وَادِي التَّيْلِ وَرَدَّتْ فَأَطَغَتْ بِالسَّلَامِ غَلِيلِي
 نَفَحْتُ بَلْبَانًا فَفَاحَ أَرْجُوحُهَا سَخِرًا بِأَشْهَى مِنْ نَسِيمِ أَصِيلِ
 أَنْتِ الْفَرِيدَةُ فِي النِّسَاءِ فَكَيْفَ لَا أَهْوَى حَبِيبًا بَاتَ دُونَ مَثِيلِ
 * وَلَا تَنْسَى هَذِهِ الْأَدَبِيَّةُ أَنْ تَشْكُرَ عَائِشَةَ عَلَى مَا جَاءَ فِي رِسَالَتِهَا مِنْ إِطْرَاءٍ مَنْظُومٍ ، وَشَعْرِ مَرْقُومٍ فَقَالَتْ :

وَلَقَدْ أَفْضَتْ عَلَيَّ مِنْهُ لَآئًا حَسَدَتْ بِهَا جِنْدِي كِرَائِمُ جِنْلِي
 مِنْ كُلِّ قَافِيَةٍ كَأَبْكَارِ الدُّمَى تَرْنُو إِلَيَّ بِنَاطِرٍ مَكْحُولِ
 * وَلَمْ يَتَوَقَّفْ إِطْرَاءُ الْأَدَبِيَّةِ اللَّبْنَانِيَّةِ لِعَائِشَةَ التَّيْمُورِيَّةِ عَلَى دِيْوَانِ «حَلِيَّةِ الطَّرَازِ» ، وَإِنَّمَا شَمِلَ التَّقْرِيطُ أَيْضًا كِتَابَ «نَتَائِجِ الْأَحْوَالِ» شِعْرًا وَنَثْرًا ، وَهِيَ نَحْنُ أَوْلَاءُ نَقْتَطِفُ بَعْضَ الْفَقَرَاتِ مِنْهُ حَيْثُ قَالَتْ :

هَذَا الْكِتَابُ الَّذِي هَامَ الْفُؤَادُ بِهِ يَالَيْتَنِي قَلَمٌ فِي كَفِّ كَاتِبِهِ
 لَعَمْرِي ، إِنَّهُ كِتَابٌ حَوَى بَدَائِعَ الْمُنْثُورِ وَالْمَنْظُومِ ، وَتَحَلَّى مِنْ دَرِ الْفَصَاحَةِ فَأَخْجَلَتْ لَدَيْهِ دَرَارِي النُّجُومِ :

أَنْتَ فَشَفْتَ بَطِيبَ الْوَصْلِ قَلْبِي فَتَاءٌ تَيَّمَتْ قَلْبَ الْمُحِبِّ
 فَصِيحَةٌ مَنْطُوقٍ نَاعَتْ بِلَفْظٍ كَسَلَسَالٍ مِنَ الصَّهْبَاءِ عَذْبِ
 أَهْيَمُ بِهَا عَلَى بُعْدٍ وَمَاذَا عَلَى الْأَقْدَارِ إِنْ سَمَحَتْ بِقُرْبِ

(١) انظر : الدر المنثور (ص ٣٠٤) باختصار يسير .

(٢) اسم هذه الأدبية وردة اليازجي ، وهي إحدى أدبيات لبنان ، ولدت ببلبنان في سنة (١٨٣٨ م) وماتت سنة (١٩٢٤ م) .

(٣) انظر - إن شئت - الرسالة في الدر المنثور (ص ٣٠٨ و ٣٠٩) .

ألا يا مَنْ سَمَتْ في كُلِّ فَضْلٍ ونالَتْ كُلَّ خَلْقٍ مُسْتَحَبٍّ
ورُبَّ مُؤَلَّفٍ كالرَّوضِ أَجْرَتْ عليه سَما البلاغةِ أي سَحَبِ
تهادَتْ فيه أَبْكارُ المَعانِي تجرُّ من الفصاحةِ ذيلَ عَجَبِ
رأيتُ نَتائِجَ الأَحْوالِ فيه ممثلةً تلُوحُ بغيرِ نَقَبِ
لِتِمْـوَرِيَّةِ العَصْرِ المُحَلَّى بما نَسَجَتْ يداها كُلَّ حَقَبِ^(١)

* أمّا أجمل ما أنشأته عائشة التيمورية من نثر فهو مقالةً عنوانها: «لا تَصْلُحِ العائلاتُ إلا بِتربيةِ البنات» حيث نشرتها في جريدةِ الآداب يوم السبت (٩) جمادى الثانية من سنة (١٣٠٦هـ). ومقالتها هذه مقالة طويلة نفيسة تدلّ على مدى تمكّنها من ناصية الكلام، ومدى اهتمامها بالموضوعات الاجتماعية، وقد افتتحت مقالتها بهذه المقدمة الجميلة:

إنّي وإن كنتُ لستُ أهلاً لمجالِ المقال، في هذا المضمار ومعترفة بقصرِ اليد عن زمامِ المنال، لا اعتكافي بخيمةِ الإزار، لكنّي أرى من خلال أطرافه أنّ مناهجَ التّربية ظرفِ الكنوز، وبحدودِ مسالكِ التّأديب مفاتيحُ كلِّ جوهر مكنوز، فالواجبُ على كلِّ ذي نفسٍ كريمة، أن يميلَ كلَّ الميلِ إلى تلك السُّبل الفخيمة، ويحث كل عزيزٍ له أن يرتعَ في مراتعها القويمية، ليحظى بتلك الجواهر اليتيمة.

* ثم إنّ عائشة تتعجّب وتلوّم المرأة التي تسرفُ في الزّينة دون انتباه منها إلى واجباتها، وترى أنّ اللّواتي يسرفن في التّطرية وينسينَ العلمَ، ما هُنَّ في الحقيقةِ إلا مسرفات في الجهل، والجهل يطمسُ كلَّ فَضْلٍ أمجد؛ تقولُ عائشة: والعجبُ ثمّ العجب من مدنيّة تشغفُ بتزيين فتياتها بحلي مستعار، وتستعين على إظهار جمالهن بزخرفِ المعادن والأحجار، وتتخيل أنّها زادتْهنَّ بسطةً في الحُسن والدلال، والحال أنّها ألقت تلك الأحداث في أخذودِ الوبال، لأنّه لم يُعَدَّ عليهن من تلك المستعارات إلا العُجْبُ والغرور، المؤدّي بهن إلى ساحةِ

(١) انظر: الدر المنثور (ص ٣٠٥ و ٣٠٦) باختصار.

المباهاة والفجور، وذلك لكف بصيرتهن عن الإدراك، وعدم علمهن بنتائج الأحوال، وعواقب الأمور:

قد زُيِّنَتْ بالدَّرْ غِرَّةُ جَبْهَةٍ وتوشَّحَتْ بخمار جَهْلٍ أسودٍ
وتطَوَّقَتْ بالعقدِ تبهجُ جيدها والجهلُ يطمسُ كلَّ فضلٍ أُمجدٍ^(١)

* وتدعو عائشة الرجال إلى الاهتمام البالغ في تربية البنات، فكان مما قالته: فلو اجتهدتِ الهيئة الرجالية، في حسن سلوكهن بالتربية، لتتَوَجَّحت تلك الغايات من تلقائها بواقيتِ المعلوماتية، وتقلدت بلآلئ التَّفَقُّه:

إِنَّ الْعُلُومَ لأَصْلِ الْفَخْرِ جَوْهَرُهُ يَسْمُو بها قَدْرُ الْوَضِيعِ ويشرفُ
فوجودُها في دَرْجِ مُهَجَّةٍ فَاضِلٍ مَنْ حازَها بَيْنَ الْأَنَامِ مُشْرِفٌ^(٢)

* وكثيراً ما خصت عائشة الرجال بكلماتها حيث وجهت عباراتها لهم ليحسنوا تربية البنات، فقالت: فيا رجال أوطاننا لم تركتموهن سدى، وهن بين أيديكم أطوع من قلم؟!

* هذا ونثر عائشة التيمورية كثير، وهو وإن كان يعتمد على السَّجْع^(٣) والمحسنات البديعية، إلا أنه يشهد لها بالسبق في ميدان الفصاحة.

وأخيراً لا بد من الوداع:

* هذه وتلكم عائشة التيمورية التي أبَت تعلم التطريز، ولكنها علمت

(١) الدر المنثور (ص ٣٠٦).

(٢) الدر المنثور (ص ٣٠٧) باختصار يسير.

(٣) من أمثلة ذلك ما تحدثت به عائشة عن نفسها: لما أن تهيأ العقل للتَّرْقِي، وبلغ الفهم درجة التَّرْقِي، تقدَّمت إلي ربَّةُ الحنانِ والعفافِ، وذخيرةُ المعرفة والإتحاف، والدتي تغمدُها اللهُ بالرحمة والغفران بأدوات النَّسج والتطريز، وصارت تجدُّ في تعليمي، وتجتهدُ في تفهيمي وتفتيني، وأنا لا أستطيعُ التَّلْقِي، ولا أقبلُ في حِرْفِ النَّسَاءِ التَّرْقِي، وكنتُ أفرَّ منها فرار الصَّيْدِ مِنَ الشُّبَّاكِ، وأتأففت على حضورِ محافلِ الكُتَّابِ بدون ارتباك، فأجدُّ لصريرِ القلمِ في القرطاسِ أشهى نعمة، وأنخيلُ أن اللِّحاقَ بهذه الطائفة أوفى نعمة، وكنتُ أَلْتَمِسُ من شوقي قطعَ القرطاسِ وصغار الأَقْلَامِ، وأعتكفُ منفردة عن الأَنَامِ، وأقلدُ الكتاب في التحرير، لأبتهجَ بسماع هذا الصرير.

بناتِ حواء أنَّ الإصغاءَ إلى دروسِ العلمِ هو عنوانُ السَّعادةِ، وأنَّ الحياةَ الحقيقيةَ هي حياةُ العلمِ والأدبِ.

* وقد استطاعت عائشةُ أنْ تحقِّقَ شهرةً عاليةً في عَصْرِ التَّهَضُّةِ الحديثةِ، وأنْ تسجِّلَ اسمها بين نساءِ التَّاريخِ، ليكونَ علماً بارزاً بين أعلامِ النِّساءِ اللواتي تركنَ دويّاً محموداً في دُنْيا المعرفةِ والأدبِ.

ولعلَّ عَصْرَ السَّيِّدَةِ عائِشَةَ التِّيمُورِيَّةِ كان فيه بعض الصَّعوبةِ لتحقيقِ الذاتِ النِّسائيةِ، فلم يسطعْ نجمُ النِّساءِ في سَماءِ الأدبِ، اللهم إلا قِليلاتِ يمكن حصرهن.

* وقد أصابَ عبَّاسُ العقاد حينما تحدَّثَ عن هذا المجالِ، وعن نوعيةِ المتعلِّماتِ في عَصْرِ عائِشَةَ التِّيمُورِيَّةِ، وعن سرِّ نبوغها فقال ما ملخصُه: ولم يكن التَّعليمُ في خدورِ العِليَّةِ، ولا الطَّبَقاتِ الأخرى من التَّدرةِ بحيثُ يتبادرُ إلى ظُنِّنا لأوَّلِ وهلةٍ، فقد وجدتْ عائِشَةُ لها معلِّماتٍ وزميلاتٍ يقرأنَ الأدبَ، ويعرفنَ الشُّعرَ والعروضَ، ولكنَّ المسألةَ في نبوغها ليست مسألةَ تعليمِ المرأةِ، وما وصلَ إليه من الذِّيوعِ والاستحسانِ، فإنَّ هذا التَّعليمَ قد شاعَ في عَصْرنا حتَّى أصبحَ عندنا ألوفاً من البناتِ يقرأنَ كما كانت تقرأُ السَّيِّدَةُ عائِشَةُ تيمور، ويطلِّعنَ أكثرَ ممَّا اطلعتْ عليه. فلو كانتِ المسألةُ في هذا الصَّدَدِ مسألةَ تعليمِ البنتِ لوجبَ أنْ يكونَ لدينا عشرونَ أو ثلاثونَ شاعرةً في طبقةِ التِّيمُورِيَّةِ، أو في أعلى من طبقتها، وهو غيرُ الواقعِ فيما نراه ويراهُ غيرنا، بل الواقعُ أنَّا لم نقرأَ لمن نشأتْ بعد السَّيِّدَةِ عائِشَةَ نظماً يضارعُ نظمها، ولا شاعريَّةً تقاربُ شاعريَّتها، وإنْ كانَ التَّعليمُ في عَصْرنا أوفى، وموادُّ العلومِ والثَّقافةِ النسويةِ أكثرَ وأغنى، وكان تعليمُ المرأةِ عامةً أقربَ إلى بيئَةِ الزَّمنِ وسنةِ أهلِه، إنَّما المسألةُ هنا أنَّ الاستعدادَ للشُّعرِ نادرٌ، وأنَّه بين النِّساءِ أندرُ، فالمرأةُ قد تحسُنَ كتابةَ القِصصِ،... ولكنها لا تحسُنُ الشُّعرَ، ولما يشتملُ تاريخُ الدُّنيا كله بعد على شاعرةٍ عظيمةٍ، لأنَّ الأنوثةَ من حيثُ هي أنوثةٌ ليست معبّرةً عن عواطفها، ولأنَّ الأنثى تُسلِّمُ وجودها لمن يستولي عليها من

زوج أو حبيب، فالذي يبقى من عظمة الشاعرية قليل^(١).

* وتبقى عائشة التيمورية دُرّة في حليّة طرازِ الشاعرات، متفرّدة بين بنات جيلها بعبقريتها الشاعرية، وبلاغتها في النثر، ويكفيها قول العقاد: شعر السيّدة عائشة يعلو إلى أرفع درجة من الشعر ارتفع إليها أدباء مصر في أواسط القرن التاسع عشر إلى عهدٍ أعرابية.

* والآن، فقد حان الوداع، لنلتقي امرأةً أخرى من نساء التاريخ، نعم أن الوداع مع أميرة شاعرات العصر الحديث عائشة التيمورية - رحمها الله -.

* ففي أحد أيام سنة (١٣٢٠ هـ) ومنذ قرْنٍ من الزّمن، انقطعَ صوتُ عائشة التيمورية عن الإنشاد، ولحقتُ برّبّها، ونادى منادٍ في مدينة القاهرة: أن تُوفيت عائشة عصمت تيمور، توفيت أميرة الشاعرات، توفيت أميرة الشعر؛ وهبَّ آل تيمور وجمْعٌ غفيرٌ من سادّة الأدباء والأعلام ورجال الفكر والعلم والمعرفة وشيّعوها إلى مثواها الأخير - رحمها الله تعالى -.

* عاشت السيّدة عائشة (٦٤ عاماً) قضتْها بين المحابر والأقلام، ومع كُتبِ الأدباء والعلماء الأعلام، وتركت في الدُّنيا ذِكْراً حميداً لا تمحوه الأيّام، نعم لا تمحوه الأيّام:

المرءُ بعدَ الموتِ أحْدوثُهُ يفنى وتبقى منه آثارُهُ
وأحسنُ الحالاتِ حالُ امرئٍ تطيبُ بعدَ الموتِ أخبارُهُ

* وأجديني في نهاية هذه الترجمة أسوقُ بضْعَ أبيات رثي بها صديقنا الأستاذ سليمان محمّد غزال^(٢) إحدى فواضل النّساء وهذا الرّثاء ينطبق بأوصافه وشماله على السيّدة عائشة التيمورية، فاسمعُ إليه حيث يقول:

رَحيلُ المحسناتِ الفاضلاتِ بحقُّ لهُوَ إحدى الفاجعاتِ
وخُسرانٌ عظيمٌ لو فقدنا من الدُّنيا حنانَ الأمّهاتِ

(١) عن شعراء مصر لعباس العقاد بتصرف واختصار.

(٢) شاعر من غزة من مواليد (١٩٣٨م) يهتمُ بقضايا الأمة العربية والإسلامية، وشعره يمتاز بجمال الرونق، وجمال الديباجة، وبراعة المطالع.

فَهِنَّ الْمُؤْنِسَاتُ إِذَا خَلُونَا
وَهِنَّ الرَّاجِيَاتُ عَمِيمَ خَيْرٍ
فَقَدْ كَانَتْ مُمَيَّزَةَ السَّجَايَا
فَقَضَتْ فِي الْبِرِّ أَعْوَاماً وَسَارَتْ
فَقُرْآنَ وَأَذْكَارٌ وَتَقْوَى
وَقُوَّةُ حُجَّةٍ وَصَفَاءُ نَفْسٍ
وَجُودٌ فِي عَطَاءٍ أَوْ وَدَادٍ
وَنَصْحٌ صَادِقٌ وَجِهَالٌ ذَوِيقٍ
لَعَمْرِي تِلْكَ آيَاتُ الْمَعَالِي

وَهِنَّ يُذَقُّنَا طَعْمَ الْحَيَاةِ
لَنَا بَدْعَائِهِنَّ أَوْ الصَّلَاةِ
وَكَانَتْ مِنْ نَبِيلَاتِ الصِّفَاتِ
عَلَى أَخْلَاقِ أَهْلِ الْمَكْرُمَاتِ
وَطَاعَةُ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ
وَخَشْيَةُ مُخْبِتَاتٍ طَائِعَاتٍ
وَشَعْرٌ فِيهِ أَحْلَى الذِّكْرِيَّاتِ
وظَرْفٌ فِي الْحَدِيثِ وَفِي الْعِظَاتِ
وَأَخْلَاقُ النِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ

رحم الله عائشة ، وجعلها في مستقر رحمته .

* * *

١٨

عبلة بنت مالك

رَفَعُ
جَدُّ الرَّحْمَنِ النَّجْدِي
أُسْكُنْهُ اللَّهُ الْفَرْدُوسِ
www.moswarat.com

من شهيرات نساء الفرسان :

* من هذه التي فجرت عُيونَ الفصاحةِ وينابيعَ البيانِ في نفسِ فارسِ
فرسانِ الجاهليةِ، وجعلتهُ يخلطُ الثُّغورَ ببريقِ السُّيوفِ، ويذكرها في مآزقِ
الهيحاءِ عندما تلمعُ السُّيوفُ، وتشتجرُ الرِّماحُ؟! يقول في ذلك :
ولقد ذكركَ والرِّماحُ نواهلُ مَنِي وبيضُ الهندِ تقطُّ من دمي^(١)
فوددتُ نقيلَ السُّيوفِ لأنها لمعت كبارقِ ثغركِ المتبسِّمِ
* لا شكَّ بأنها امرأةٌ حافظتُ على إباءِها، وجعلتُ من مُحِبِّها فارسَ
الشُّجعانِ، فقد كان يُشَدُّ رضاها، ويسعدُ بابتسامِها منها تطفئُ وجدَّ هيامِها،
ويصعدُ درجاتِ العُلا والمجدِ راغباً إيناسِها، فهو مع العدوِّ رتباًلٌ عنيفٌ، فقد
كانت هذه المرأةُ عروسَ شِعْره، ومصدرَ إلهامِها، وواحةَ قلبه، ومفتاحَ لسانه،
فقد ذكرها في معظمِ قصائده، وجُلَّ أشعاره.

* إنَّ مَنْ يتتبعُ أخبارَ وديوانِ هذا الشاعرِ الفارسِ، يجدُ أنَّ هذه المرأةَ قد
احتلتِ الصِّدْرةَ من حيثُ أغراضه، وهذا دليلٌ على مكانتها في نفسه، ودليلٌ
على رَقَّتِه في أشعاره التي استلهمها من شَخْصِها الذي يراه كلَّ يومٍ، ومن
طيفها الذي يُراوده في منامه وأحلامه.

* ولعلنا في شوقٍ لمعرفةِ هذه المرأةِ؛ إنَّها عبلةُ بنتُ مالكِ العبَّسيَّة^(٢) ابنة
عمِّ عنترة بنِ شدادِ العبَّسيِّ الشاعرِ الفارسِ المشهورِ في عالمِ الأدبِ والعِشقِ

(١) قلبُ المحبِّ دائماً في سَفَرٍ نحو محبوبه، ومن بدائعِ المحبةِ أن تظهرَ عند الشَّدائدِ
والأهوالِ، فإنَّ القلبَ في هذه المواطنِ لا يذكرُ إلا أحبَّ الأشياءِ إليه، ولهذا كانوا
يفخرون بذكرهم مَنْ يحبُّونهم عند الحربِ واللقاء، وهو كثيرٌ في أشعارِ العربِ،
لا يمكنُ حُصره، ومن أمثلة ذلك قول أبي عطاء السُّنْدي :
ذَكَرْتُكَ وَالْخَطِيئُ يَخْطُرُ بَيْنَنَا وَقَدْ نَهَلْتُ مَنِي الْمُثَقَّفَةِ الشُّمْرِ
انظر (روضة المحبين ص ٢٢١)، و(مدارج السالكين ٢/ ٤٢٧)، و(تزيين الأسواق
ص ٤٦٢).

(٢) انظر: ديوانِ عنترة (الفهارس) بتحقيق محمد سعيد مولوي؛ والأغاني ترجمة عنترة،
وغيرها كثير من كتب الأدب والتاريخ والأسمار التي لا تُحصَرُ في هذا المقام.

والْحُبِّ والأسطورة والحربِ والشَّجاعةِ، وأحد غرايب^(١) العربِ وشُجعانهم.

* وعندما رَحْتُ أبحثُ عن امرأةٍ عَبَرِ التَّارِيخِ القديمِ، لأنْظِمَهَا في عِقْدِ كتابنا هذا، استوقفتني هذه المرأةُ التي طَعَتْ شهرتها على كُلِّ نساءِ الفُرسانِ في دنيا الفُروسيَّةِ، بل قلَّما تَجِدُ مجموعةً مِنَ النَّاسِ - على اختلافِ ثقافتها ومشاربها العلميَّةِ - إلا تَخْزَنُ قِسْطاً لا بأسَ به من حياةٍ عنتره الذي كافَحَ من أجلِ غَرامِهِ بعبلة^(٢) ابنة عمِّه، وقاسى ما قاسى من الأهوالِ في سبيلِ رضاها.

* ومنَ الطَّرِيفِ والممتعِ أنَّ سيرةَ عنتره تَبْلُغُ بضعَ مجلِّداتٍ، وقد طُبِعَتْ عشراتِ المراتِ، وتجدُ سَوْقاً رائجَةً بين طبقاتِ النَّاسِ إلى وقتنا الحالى، على الرَّغْمِ مما فيها من خُرافاتٍ^(٣) وأَسْمارٍ، ومُبَالَغاتٍ ومُخَالَفاتٍ للحقائقِ

(١) أغربةُ العربِ ثلاثة: عنتره بنُ شدَّاد، وخُصَّافُ بنِ نَدْبَة، والسُّلَيْكُ بنُ السُّلْكة، وأمُّ الثلاثةِ سُود، وكان عنتره أشجعُ أهلِ زمانه وأجودهم بما ملكَتْ يده، وكان قد شَهِدَ حربَ داحسٍ والغبراءِ، ومُجِدتُ مشاهدته فيها.

(٢) «عبلة»: الْعَبْلُ: الضَّخْمُ من كُلِّ شَيْءٍ، وفي صِفَةِ سَعْدِ بنِ مُعَاذٍ - رضي الله عنه -: كان عَبْلاً مِنَ الرِّجَالِ؛ أي: ضَخْماً. وكان أبو سعيد الخُدْري - رضي الله عنه - عَبْلاً، وفي ذلك يقول: عُرِضْتُ يَوْمَ أُحُدٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا ابْنُ ثَلَاثِ عَشْرَةٍ، فَجَعَلَ أَبِي يَأْخُذُ بِيَدِي، وَيَقُولُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّهُ عَبْلٌ الْعِظَامِ، وَجَعَلَ نَبِيُّ اللَّهِ يُصَعِّدُ فِي النَّظَرِ وَيُصَوِّبُهُ، ثُمَّ قَالَ: «رُدَّه»، فَرَدَّنِي. (رجال مبشرون بالجنة ٢/ ٢٥).

والأنثى: عِبْلَةٌ، وجمعها عِبَالٌ، وجاريةُ عبلة، والجمع: عِبَلَاتٌ، وامرأةُ عبلة: أي: تامةُ الخَلْقِ، والعبلاء: الصَّخْرَةُ، أو البِيضَاءُ منها. (لسان العرب ١١/ ٤٢٠) دار صادر؛ و(القاموس المحيط ص ١٣٣٠).

(٣) مِنَ الطَّرِيفِ أَنَّ ابنَ النَّدِيمِ قد أَحْصَى الْكُتُبَ الَّتِي أُلْفَتْ فِي الْأَسْمَارِ الْخُرَافِيَّةِ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، فَبَلَغَتْ زِهَاءَ ثَمَانِينَ، وَضَعَفَ ذَلِكَ أَوْ يَزِيدُ قَدْ تُرْجِمَ عَنِ الْفَارَسِيَّةِ وَالْهِنْدِيَّةِ وَالْيُونَانِيَّةِ وَمَا رُويَ عَنْ مَلُوكِ بَابِلَ، وَذَلِكَ حَتَّى سَنَةِ (٣٧٧ هـ). انظر (الفهرست لابن النديم ص ٤٧٥ - ٤٧٨).

وقال ابنُ النَّدِيمِ أيضاً ما ملخصه: قال مُحَمَّدُ بنُ إِسْحَاقَ: أَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ الْخُرَافَاتِ، وَجَعَلَ لَهَا كُتُباً: الْفُرسُ الْأَوَّلُ؛ ثُمَّ زَادَ ذَلِكَ فِي أَيَّامِ مَلُوكِ السَّاسَانِيَّةِ، وَنَقَّلَتْهُ الْعَرَبُ إِلَى اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ، وَتَنَاوَلَهُ الْفَصَحَاءُ وَالْبُلْغَاءُ، فَهَذَّبُوهُ وَنَمَّقُوهُ، وَصَنَّفُوا فِي مَعْنَاهُ =

التاريخية والمنطقية والجغرافية والأدبية، وغيرها من المعارف المتنوعة.

إِنْقَاذُ عَبْلَةٍ مِنَ الْأَسْرِ:

* كَانَ عَنْتَرَةُ فِي بَدَايَةِ حَيَاتِهِ عَبْدًا مِنْ أُمِّ حَبْشِيَّةٍ، وَكَانَتْ أُمَّةً تُدْعَى زَبِيَّةَ^(١)، وَكَانَ النَّظَامُ الْقَبْلِيُّ عِنْدَ الْعَرَبِ آنَ ذَاكَ يَقْضِي فِي الْهَجِينِ^(٢) أَنْ يُوَلَدَ عَلَى الْعَبودية.

* قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: وَكَانَتْ الْعَرَبُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا كَانَ لِلرَّجُلِ مِنْهُمْ وَلَدٌ مِنْ أُمَةٍ اسْتَعْبَدَهُ^(٣).

* وَقَدْ ظَلَّتْ عِبوديةُ عَنْتَرَةَ هَذِهِ حِينًا مِنَ الدَّهْرِ، لِأَنَّ أَبَاهُ ادَّعَاهُ بَعْدَ الْكِبَرِ^(٤). وَكَانَ عَنْتَرَةُ يُعَيِّرُ بِهِذِهِ النَّاحِيَةَ حَتَّى اسْتَرَدَّ حَرِيَّتَهُ بِقُوَّةٍ سَاعَدَهُ، وَثَبَاتِ جَنَانِهِ وَمَخَاطَرَتِهِ.

* وَلِحَرِيَّةِ عَنْتَرَةَ قِصَّةٌ شَائِقَةٌ مِنْ أَسْبَابِهَا: خِلَاصُ عَبْلَةٍ مِنَ الْأَسْرِ، وَنَحْنُ

= مَا كَانَ يَشْبَهُهُ. وَأَوَّلُ كِتَابٍ عُمِلَ فِي هَذَا الْمَعْنَى كِتَابُ: «هَزَارُ أَوْسَانٍ» وَمَعْنَاهُ: أَلْفُ خُرَافَةٍ. وَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ سَمَرَ بِاللَّيْلِ الْإِسْكَندَرُ، كَانَ لَهُ قَوْمٌ يُضْحِكُونَهُ وَيَخْرَفُونَهُ، لَا يُرِيدُ بِذَلِكَ اللَّذَّةَ، وَإِنَّمَا كَانَ يُرِيدُ الْخَفْظَ وَالْحَرَسَ. (الْفَهْرَسْتُ ص ٤٧٥) طَبْعَةُ دَارِ الْكُتُبِ الْعِلْمِيَّةِ الْأُولَى (١٤١٦ هـ).

هَذَا؛ وَقَدْ غُنِيَ بِقِصَّةِ عَنْتَرَةَ وَسِيرَتِهِ عَدَدٌ كَبِيرٌ مِنَ الْمَعَاصِرِينَ فِي مُخْتَلَفِ الْبُلْدَانِ الْعَرَبِيَّةِ، حَتَّى إِنَّ أَحْمَدَ شَوْقِي قَدْ صَاغَ مَسْرُوحِيَّةً شَعْرِيَّةً عَنْوَانَهَا: «عَنْتَرَةُ»، أَشَادَ فِيهَا بِمُنَاقِبِ فَارَسِ بَنِي عَبَسَ، وَصَوَّرَ غَرَامَهُ بِعَبْلَةٍ، أَضَفَ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ أَنَّ السَّيْنَمَا قَدْ غُنِيَتْ كَذَلِكَ بِسِيرَةِ عَنْتَرَةَ، وَكَذَلِكَ مَا يَقْدَمُهُ الرَّائِي (التَّلْفِزْيُون) مِنْ مَسْلَسَلَاتٍ عَنْ حَيَاةِ وَحُبِّ عَنْتَرَةَ لِعَبْلَةٍ.

(١) عَقَدَ مُحَمَّدُ بْنُ حَبِيبٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي كِتَابِهِ التَّنْفِيسِ «الْمَحْبَرِّ» فَصْلًا عَنْوَانُهُ: أَبْنَاءُ الْحَبْشِيَّاتِ. انْظُرْ: (الْمَحْبَرُ ص ٣٠٧).

(٢) «الْهَجِينُ»: الْعَرَبِيُّ وَوُلَدُ مِنْ أُمَةٍ، أَوْ مَنْ أَبُوهُ خَيْرٌ مِنْ أُمِّهِ وَجَمْعُهَا: هُجْنٌ، وَهُجْنَاءٌ، وَهُجْنَانٌ، وَمَهَاجِينٌ، وَمَهَاجِنَةٌ (الْقَامُوسُ الْمَحِيطُ ص ١٥٩٩) طَبْعَةُ مَوْسَسَةِ الرِّسَالَةِ الثَّانِيَةِ ١٤٠٧ هـ.

(٣) الشُّعْرُ وَالشُّعْرَاءُ (١/ ٢٠٤)، وَانْظُرْ: الْأَغَانِي (٧/ ١٤٢)، وَخَزَانَةُ الْأَدَبِ (١/ ٦٢).

(٤) الْمَصَادِرُ السَّابِقَةُ نَفْسُهَا.

مرسلو القول فيها؛ كما أوردَها الشُّيُوطي - رحمه الله - على الرِّغم ممَّا جاء فيها من مبالغاتٍ وخوارق. تزعمُ القصَّة: أنَّ عنترَةَ جاءَ ذاتَ يومٍ إلى الماءِ، فلم يجدْ أحداً من الحي، فبُهِتَ وتحيرَ، حتى هَتَفَ به هاتفٌ: أدركِ الحيَّ في موضعِ كذا.

فعمدَ إلى سلاحه فأخرجَه، وإلى مُهره فأسرجَه، واتبَعَ القومَ الذين سبوا أهلَه، فكَّرَ عليهم، ففرَّقَ جَمعَهم، وقتلَ منهم ثمانيةَ نفرٍ؛ فقالوا له: ما تريدُ؟

فقال: أريدُ العجوزَ السَّوداءَ والشَّيخَ الذي معها - يعني: أمُّه وأباه -، فردَّوهُما عليه.

فقال له عمُّه: يا بني كُزِّ.

فقال: العبدُ لا يكُزُّ، لكنَّ يحلبُ ويصرُّ.

فأعادَ عليه القولَ ثلاثاً، وهو يجيبه كذلك.

قال له: إِنَّكَ ابنُ أخي، وقد زوجتُك ابنتي عبلة.

فكَّرَ عليهم فصَرَ عنهم عشرة^(١)، فقالوا له: ما تريدُ؟

قال: الشَّيخُ والجارِيَةُ - يعني: عمُّه وابنة عمِّه -، فردَّوهُما عليه.

ثمَّ قال: إِنَّه لَقبيحٌ أنْ أرجعَ عنكم، وجيراني بينَ أيديكم، فأبوا، فكَّرَ عليهم حتَّى صَرَ منهم أربعينَ رجلاً قتلى وجرحى، فردَّوا عليه جيرانه^(٢).

(١) كَأَنِّي بعنترَةَ قد كَزَّ على القوم وهو يرتجزُ يقولُ كما جاءَ في ديوانه:

اليومُ تَبْلُو كُلُّ أَثْنَى بَعْلَهَا فاليومُ يَحْمِيها وَيَحْمِي رَحْلَهَا
وَإِنَّمَا تَلْقَى النُّفُوسُ سُبُلَهَا إِنَّ الْمَنَايَا مُدْرَكَاتُ أَهْلِهَا
وَخَيْرُ أَجَالِ النُّفُوسِ قَتْلُهَا

ومن هنا يتبيَّن لنا أنَّ المرأةَ العربيَّةَ في الجاهلية، كانت تتمتعُ بمكانةٍ اجتماعيةٍ مرموقةٍ، ولها مكانتها السامية عند زوجها وذويها، ومن أجلِ الحفاظِ على شرفها كانت تقفُ الحروبُ، ومن أجلِ الحفاظِ على كرامتها كانت تُجرُّ الغلاصمُ والرِّقاب.

(٢) انظر: شرح شواهد المغني (ص ١٦٥) طبعة القاهرة (١٣٢٢ هـ)، وانظر الخبر بشكل =

* ويبدو أنَّ عنترَةَ قد هزَّتْه نشوَةُ الانتصارِ أمامَ محبوبتهِ عبلَةَ، فإذا بهِ يناديها
 كيما ترى ما حلَّ بالقومِ، وأخذَ يرتجزُ ويقولُ:
 عَبلَةُ قُومِي تَرَكَ العُيُونُ فيَشْتَفِي مِمَّا بِهِ الحَزِينُ
 دَارَتْ عَلَى القومِ رَحَى المَنُونِ^(١)
 * ولعلَّه أَنشدَ أيضاً:

وَأنا المنيَّةُ في المَواطِنِ كُلِّها والطَّعْنُ مِنِّي سَابِقُ الأَجالِ
 * وهكذا، ومن أَجلِ عبلَةَ نالَ عنترَةُ حَريَّتَه بقاءِهم سِيفِه الذي ارتضاءُ
 صَاحِباً وخَليلاً، والذي جَعَلَه أَحَدَ الأبطالِ الذين تحسَّبُ لَهُم الفُرسانُ أَلْفَ
 حساب.

* ولعلَّ فارسَ الأبطالِ، وبطلَ الفُرسانِ عمرو بن معد كرب يُعطينا صورةً
 واضحةً لفروسيةِ عنترَةَ فيقولُ: لا أَبالي مَن لقيتُ من فرسانِ العربِ، ما لم
 يَلْقَني حُرَّاهَا وهَجيناها؛ فَأَما الحُرَّانُ: فَعامِرُ بنُ الطُّفَيلِ، وعُتَيْبَةُ بنُ الحارثِ،
 وأَما العَبْدانُ: فَأَسودُ بنِ عَبْسٍ - يعني: عنترَةَ -، والسُّليكَ بنُ السِّلَكَةِ^(٢).
 انتِشارُ صِيتِ عَبلَةَ وشُهرتها:

* بعد أن خَلَصَ عنترَةَ^(٣) عَبلَةَ مِنَ الأسْرِ، وعادَ إلى مضاربِ قومهِ، فاحتَ

= موجز في ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (١١٠/١)، وانظر ديوان عنترَةَ
 (ص ٣٩).

- (١) ديوان عنترَةَ بتحقيق محمد سعيد مولوي.
- (٢) انظر كتابنا «المبشرون بالنار» (٩٧/٢) ترجمة عامر بن الطُّفَيلِ.
- (٣) قال الفيروز آبادي - رحمه الله -: «العَنْتَرُ: الدُّباب، و«العنترَةُ»: صوتُه، والسُّلوكُ في
 الشَّدائد، والشَّجاعةُ في الحرب. وعنترَةُ بنُ معاوية - أي عنترَةُ بن شَداد - عَبيسيٌّ.
 «وعَنْتَرُهُ بالرمح»: طعنه. (القاموس المحيط ص ٥٧٢ و ٥٧٣).
 أقولُ: وكانتِ العربُ في العصورِ الخوالي تسمي الاسمَ وتقصد به شرفَ المعنى،
 فعنترَةُ يُقصد به: الشَّجاعةُ في الحرب. والعربُ هم سادةُ الفصحاءِ، وفصحاءُ
 السَّادةِ، ولا تخفى عليهم معاني الكلمات، وكثيراً ما كانوا يسمّون عبيدهم بأسماء
 ذات معانٍ شريفة.

أخبارُ فروسيته، وشهدَ له الأقرانُ بالتفردِ في حومةِ الميدان، وغدا يحتلُّ مكانَ الصَّدارةِ بين السَّاداتِ والأعيان، بعدما ألحقه أبوهُ بنسبه، وأنقذه من حياة العبوديةِ والدُّلِّ والهوان.

وأخذتِ الألسنةُ تطري أفعالَ عنتره؛ وما قامَ به من خلاصِ ابنةِ عمِّه عبلة وذويها من الأسر، وأخذَ ساداتُ عبسٍ يعقدونَ لعنترَةَ الولايم، ويتوجَّجونَهَا بالأسمارِ، ونفائسِ الأخبارِ، ونسماتِ الأشعار، فكانَ عنترَةُ يندِّي المجالسَ برائقِ شعره، ورقائقِ نفحاته.

ولكنَّ بعضَ الحاسدين لم يرقَّ لهم هذا النَّصر الذي حقَّقَهُ عنتره، وتلك الشُّهرة التي كسبها بقائمِ سيفه، وكانَ عنترَةُ إذ ذاك لا يقولُ إلا المقطعاتِ من الشعر، وإلا البيتينِ والثلاثة، فشتمهُ رجلٌ من بني عَبْس ذاتِ مرَّة، وذكرَه سواده، وسوادَ أمِّه وإخوته، وعيَّره بذلك، وبأنَّه لا يقولُ الشعر.

فقال له عنتره: والله! إنَّ النَّاسَ ليترافدونَ بالطُّعْمَةِ، فما حَضَرَتَ مرفدَ النَّاسِ أنتَ ولا أبوك، ولا جدُّك قط، وإنَّ النَّاسَ ليُدْعَوْنَ في الغاراتِ فيُعْرِفُونَ بتسويمهم^(١)، فما رأيُناكَ في خَيْلٍ مغيرةٍ في أوائلِ النَّاسِ قط، وإنَّ اللَّبْسَ ليكونَ بيننا فما حَضَرَتَ أنتَ ولا أبوك ولا جدُّك خَطَّةَ فَيْصَل، وإنَّما أنتَ فَقَعُ نَبَتٍ بقرقر^(٢)، وإنِّي لأحتضرُ البأسَ، وأُوفي المغنمَ، وأعفُ عن المسألة، وأجودُ بما ملكتُ يدي، وأفصلُ الخَطَّةَ الصَّمْعَاء^(٣)، وأمَّا الشعرُ

(١) «التَّسْوِيم»: من التَّسْوَم، هو أن يتخذَ المرءُ سِمَةً أو علامةً يُعرفُ بها عندَ الحرب، وكانَ عددٌ من فرسانِ الصَّحابة يضعونَ علاماتٍ يُعرفون بها عندَ الحرب والطَّعان، فقد كان حمزةُ بن عبد المطلب - رضي الله عنه - يضع ريشةً على صدره؛ وأبو دجانة الأنصاري - رضي الله عنه - يضعُ عصاة حمراء، وللمزيد من هذه الأخبار الرائعة اقرأ كتابنا «فرسان حول الرسول ﷺ» في جزأيه.

(٢) «الفقع»: نوع من أردأ أنواع الكمأة، وهي البيضاء الرخوة منها، و«فَقَعُ نَبَتٍ بقرقر»: مثل يُضرب ليدل على المذلة. ويقال للذليل: هو «أذل من فقع بقرقرة» (القاموس المحيط ص ٩٦٦).

(٣) «الصَّمْعَاء»: الماضية النَّافذة؛ يقال: انصمِع في غضبه: مضى.

فستعلم؛ فكان أول ما قال قصيدة: هل غادر الشعراء من متردم^(١).

* ولم يكن هذا الرجل العنسي هو الوحيد الذي حسد^(٢) عنتره، وشرقا بانتصاراته، وإنما يبدو أن والد عبلة وأخاها عمرو بن مالك قد شرقا بهذا العز الذي صار إليه عنتره، بل إن عبلة أخذت تتحدث إلى ابن عمها عنتره، وتشيد بقوة ساعده، ونفاذ سنانه، وإرهاق حسامه، وكان عنتره يشعر بنشوة السعادة عندما تحدثه عبلة التي أخذت تستلب لبه شيئا فشيئا، وراحت نظراتها تغرس معاني الحب والهيام في قلبه الخالي الذي صادف هواها، فاحتله وتمكن من أصوله وحنياه.

* وبمرور الأيام أخذ عنتره يهمس إلى عبلة برفائق أقواله فيها، وما جادت قريحته في غرامها، فكانت عبلة تبادله همساته بنبرات الآسرة، وضحكاتها الساحرة الفاتكة، وتنظر إليه بعينها الباسمتين عندما يذكرها بعدد من الأسماء المغنجان في شعره، فمرة يقول لها: عبلة، وتارة عبيلة، وأخرى عبلى، ورابعة يابنة مالك، وهكذا...

* ومما زاد في هيام عنتره لعبلة أنها كانت تطلب منه قائلة: يا عنتره، أعد ما قلته من شعر في، فإنه ينزل على سمعي كما يقع الندى على أوراق الشجر.

* ويأخذ عنتره بإنشاد عذاب أشعاره، ويصفى محبته لها، ويذكر لها شجاعته وحروبه وفروسيته وتطير الشجعان من بين يديه خوفاً على أنفسهم من العطب.

* وتضحك عبلة ضحكة مرحة تبعث الرضا في قلب عنتره، وتشيع السرور في نفسه الشفافة، وإذ ذاك يفصح لها عن حبه وهيامه وتهيامه، وينشدها مزيداً من أشعاره، ويسمعها كثيراً من المقطعات فيها.

(١) انظر: الشعر والشعراء (ص ١٤٩ و ١٥٠) طبعة دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) والله در من قال:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه	فالكل أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها	حسداً وبغضاً إنه لديم

* وفشأ خبرُ هذا الحُبِّ في أحياءِ بني عَبَسَ، وأخذَ النَّاسُ يتحدَّثونَ عن حُبِّ عنترةَ لابنةِ عمِّه عبلَةَ، حيثُ لم يَبْقَ حُبُّ عنترةَ رهنَ صَدْرِهِ، أو في ثنايا قلبه، وحنايا أضالِعِهِ، وإنَّما سرى نبأُ هذا الحُبِّ ليصافحَ آذانَ النَّاسِ في جميعِ أحياءِ العربِ، وفي مضاربهم ومجالسهم، فما اجتمعَ قومٌ في نادٍ إلا ذكروه وذكروها، وأنشدوا ما قالَ من شعرٍ وغزلٍ فيها.

* كانت أشعارُ عنترةَ وأقواله في عبلَةَ تصلُ إلى أسماعِ أبيها وأخيها اللذين يُضْمِرانَ له الشرَّ، ولكنَّ لیسَ لهما من حيلةٍ بعد أن قطعَا العهودَ عليهما بأن تكونَ عبلَةُ زوجةً لابنِ عمِّها عنترة^(١).

* أمَّا عنترةُ فلم تكن تُخيفُهُ نظراتِ عمِّه مالكٍ وابنه عمرو، بل وقومه من بني عَبَسَ، ولم يكن يهَمُّه سوى حُبِّ عبلَةَ التي جعلتهُ يُصافحُ أذنَ الجوزاءِ بحبِّها له، وحبَّه لها، والله درّ مَنْ قال :

(١) من بعضِ عاداتِ الزَّواجِ في العَصْرِ الجاهلي، أنَّ ابنَ عمِّ الفتاة، هو مِنْ أَحَقِّ النَّاسِ بالزَّواجِ من ابنةِ عمِّه، فالشَّابُّ إذا رَغِبَ الزَّواجَ من ابنةِ عمِّه طلبَهَا من أبيها، وإذا ذاكَ لَن يَجْروُ أحدٌ على خطبتها بعده، وإلا تعرَّضَ والدُ الفتاةِ لِلخَطَرِ، وكذلك الذي يتقدَّم لخطبتها تناله الأسواءُ، وتُدعى البنتُ في تلكِ الحالة : «المحيِّرة»، أمَّا إذا حدثَ أن أقدمَ رجلٌ على زواجِ ابنته المحيِّرة، فإنَّ زوجها يَخْتفي بها عن أنظارِ ابنِ عمِّها خيفةً منه.

ولكنَّ هذا الزَّواجَ لم يكن سائداً عند كلِّ العربِ، بل إنَّ بعضَ العربِ كانوا يَحْبِذونَ تغريبَ النِّكاحِ، وذلك لاعتقادهم أنَّ ذلك أقوى للِنَسْلِ، وهذا الزَّواجُ أقرُّه الإسلامُ، لقول الحبيبِ المصطفى ﷺ : «غَرِّبُوا النِّكاحَ». وقد عبَّرَ عن ذلك الشَّاعرُ القديمُ بأنَّ أولادَ الأقاربِ ضعافٌ وضعفاءُ فقال :

فَتَى لَمْ تَلِدْهُ بِنْتُ عَمِّ قَرِيْبَةٍ فيضوى وقد يَضُوى وَليدُ الأَقَارِبِ
وقال آخرُ أيضاً في ابتعاده عن ابنةِ عمِّه مع حُبِّه لها مخافةً ضَعْفِ الدَّرَةِ :
تَجَاوَزْتُ بِنْتَ العَمِّ وَهِيَ حَبِيْبَةٌ خِافَةَ أَنْ يَضُوى عَلَيَّ سَلِيلِي
وقال غيره :

تركتُ بَنَاتِ العَمِّ واقتَادَنِي الهَوَى إلى ابنةِ عَالِي الذِّكْرِ مِنْ آلِ فَارِسِ

نَفْسُ الْمُحِبِّ عَلَى الْآلَامِ صَابِرَةٌ

لَعَلَّ مُسْقَمَهَا يَوْمًا يُدَاوِيهَا

* وصارَ عنترَةُ يكثرُ منْ أشعارِهِ فيها، ولمْ يَعدْ يملكُ قلبه كي يصرفه عنها، وإنَّما كان إذا رآها أضاءتْ أمامه الآفاق، وإذا حدَّثتهُ أحسنَ ديبِ السَّعادةِ يتمشَّى في مفاصلِهِ، وإذا سمعَ همساتها شعرَ كأنَّ أغاريدَ الطَّيرِ تصدحُ في الأسحارِ والإبكارِ، وإذا ما غابتْ عنه تفجَّرتْ ينابيعُ أشعاره^(١) تفَضُّحُ هواه، وأخذَ يَناشدُ الأنسامَ لتبلِّغَ عبلةَ هواه :

(١) كثيراتُ هُنَّ اللواتي فجرنَ الشَّعرَ في نفوسِ الشُّعراءِ في ذلك العَصْرِ وفي غيره، وغدا أولئك الشُّعراءُ منْ كبارِ العُشَّاقِ. ومن أشهرِ عُشَّاقِ الشُّعراءِ وشُعراءِ العُشَّاقِ :
عنترَةُ عشقَ عبلةَ ؛

والمختلُّ السَّعدي عَشِقَ «الميلاء» ؛

وحاتم الطَّائي عَشِقَ «ماوية» ؛

والنمر بن تولب عَشِقَ «عمزة» ؛

وسحيمُ بن الحُصَّاحِ عَشِقَ «عميرة» .

وفي العَصْرِ الجاهلي لمعتْ أسماءُ نساءٍ كثيرات، كان لهنَّ كَبيرُ الأثرِ في نفوسِ الشُّعراءِ على اختلافِ طبقاتهم ومكانتهم في عالمِ الشعرِ، ومن هؤلاء النِّسوةُ :

«هُريرة» صاحبةُ الأعشى ؛

«وأُميمة» صاحبةُ التَّابِغةِ ؛

«وَأُمّ أوفى» صاحبةُ زهير ؛

«وأسماء» صاحبةُ الحارث بن حِلْزة،

«وخولة» صاحبةُ طرفة بن العبد، وكذلك «هر» .

«وفاطمة»، وأم جندب» صاحبتا امرئ القيس وغيرهن كثيرات من النِّساء .

ومن الجدير بالذكر أنَّ الغزلَ قد احتلَّ مكاناً ظاهراً في الشَّعرِ الجاهلي، وقال فيه جميعُ الشُّعراءِ، من اشتهر منهم ومنْ لم يشتهر، واتفقَ جميعُهُم فيه على جَعْلِهِ بدءاً لقصائدهم، وسار كلُّ واحدٍ منهم فيه حسبَ ما يحلو له منْ وصفِ الحبيبة، وأثر حبِّها وفراقها في نفسه، وما يعانیه من عشقِها، وهيامه بها، وكان الجاهليون الغزلون يصوِّرون محبوباتهم في أجملِ خَلْقٍ، وأحسنِ مظهرٍ، وإن اختلفوا في الإجمال والتفصيل، أو في التصريح والتلميح .

جُفُونُ الْعَذَارَى مِنْ خِلَالِ الْبَرَاقِعِ
أَحَدٌ مِنَ الْبَيْضِ الرَّقَاقِ الْقَوَاطِعِ
إِذَا جُرِّدَتْ ذَلَّ الشَّجَاعُ وَأَصْبَحَتْ
مَحَاجِرُهُ قَرَحَى بِفَيْضِ الْمَدَامِعِ
فَيَا نَسَمَاتِ الْبَانِ بِاللَّهِ خَبْرِي
عُبَيْلَةٌ عَنْ رَحْلِي بِأَيِّ الْمَوَاضِعِ
وَيَا بَرْقُ بَلِّغْهَا الْغَدَاةَ تَحِيَّتِي
وَحْيٍ دِيَارِي فِي الْحُمَى وَمَضَاجِعِي

* وبهذا الغزل الرقيق الأنيق طارَ صيْتُ عبلة في الآفاقِ، وجرى ذكرها على كلِّ لسانٍ، وامتزجَ اسمُها باسمِ عنترَة، بل تعانقَ الاسمان، على مدى مرورِ الأيام والأزمان.

هَلْ تَزَوَّجَ عَنْتَرَةُ عَبْلَةً؟

* لا شكَّ بأنَّ عبلةَ كانت من أجملِ نساءِ قومها، وأبعدهم صيتاً في اكتمالِ العقل، ونضارةِ الصِّبَا، وشرفِ المحتد.

* ولقد ذاقَ عنترَة من غرامِها أعنفه، لكنْ كانَ يضايقُ غرامه هذا كبرياءُ أبيها مالك، وصَلَفُ أخيها عمرو بن مالك، وكانا يحترقا عنترَة كلِّما سَمِعَا نبأَ هذا الغرام، ويعيِّرانه بلونه وأصله من جهةِ أمِّه، على الرغم من لصوقِ نسبه بهما، وذلك لاعتقادهما أنَّ الطُّرُوفَ قد خَدَمَتْهُ، وأنَّ عيونَ السَّعادة قد لاحظَتْهُ.

ولكن هل تزوَّجَ عنترَة عبلة؟!

* من العجيب حقّاً أن يقفَ الباحثُ أمامَ المصادرِ وبينها فلا يكادُ يقفُ على خَبَرِ يروي الغلَّة، أو يشيرُ إلى زواجِ هذا المُتَيْم من هذه المرأة التي أُسرتْ جوارحه بجمالها.

* ومما يطيلُ الطَّرِيقَ أمامَ الباحثِ أولئك الذين ترجحوا لعنترَة وساقوا

أخباره من جهابذة المتقدمين من مثل: المفضل الضبي، والأصمعي، وابن قتيبة، وابن حبيب، وابن الكلبي، وأبي عبيدة، ثم الأصبهاني؛ وغيرهم، حيث إنهم لم يتطرقوا لذكر زواج عنتره.

* بيد أن أمامنا بعض المصادر التي تفصح عن زواجه، ومنها ما نجده عند أبي هلال العسكري عندما تعرّض لذكر حرية عنتره فقال: فاستلحقه أبوه يومئذ، وزوجه عمه عبلة ابنته^(١).

* وعند الميداني في «مجمع الأمثال»، نجد إشارة قوية إلى زواج عنتره من عبلة، وذلك عندما أورد الميداني قول والد عنتره وهو: كُرَّ وقد زوجتك عبلة، فكرر وأبلى، ووفى له أبوه بذلك، فزوجه عبلة^(٢).

* ولعل ما يجعلنا نرجح بأن عنتره قد تزوج عبلة؛ أضواءً نسلطها على معالم من حياته، فتكشف لنا مصداق ما قلناه، ومنها: أنه تربطه بعبلة رابطة القرابة، وكانت العرب في الجاهلية أكثر ميلاً إلى زواج ابن العم، وكانوا يقولون: بنات العم أصبر، والغرائب أنجب^(٣).

* وثمة ضوء يمكن أن يكشف لنا زواجه، هو كمال فروسيته وخلاصه لعبلة ولأهلها من الأسر، ناهيك بأنه من أشهر فرسان القبيلة، بل تحطت فروسيته القبيلة لتعم جزيرة العرب وما حولها.

* ويمكنني أن أقول: لعل في شعر عنتره نفسه ما يدل، أو يشير إلى زواجه من عبلة، فلا تكاد تخلو قصيدة من التغزل بعبلة، والتغني بمحاسنها وشمائلها، حتى في أخرج المواقف، وأصعب المواطن - كما جاء في بداية البحث -.

* لقد كانت عبلة أمل دنيا عنتره، ودنيا أمله، يُغنيها لحن غزله، وغزل

(١) ديوان المعاني (١/ ١١٠).

(٢) مجمع الأمثال (٢/ ٢٤٤).

(٣) العقد الفريد (٦/ ١٠٣).

لِحَنِّهِ، ويشدو لها بغرامِهِ، فهي أعزَّ شيءٍ في حياته، وهي حليته التي أُشربَ حبَّها، ونِعِمَ بقربها.

* وكانت عبلةٌ تدركُ بثاقبِ فكرها مالها من مكانةٍ ومنزلةٍ عند حامِيَّيها عنتره، فهي قريرةُ العين بمنزلتها، ومكانتها من قلبه، فهو طوعُ أناملها إذا ما دعتُ لعظائمِ الأمور، وهو حصنها الحصينُ إذا ما مسَّها سوءٌ، وفوق هذا كله أنَّه يبتعدُ عما يسوؤها، ويحرصُ على كرامتها، ويحافظُ على مشاعرها، وها هو عنتره يدعو مَنْ شاء كي يسألَ عبلةَ عن هاتيكُم الخصال فيقول:

وَلَئِنْ سَأَلْتُ بِذَاكَ عَبْلَةً خَبَّرْتُ

أَلَا أُرِيدُ مِنَ النِّسَاءِ سِوَاهَا
وَأُجِيبُهَا إِمَّا دَعَتْ لِعَظِيمَةٍ
وَأُغِيثُهَا وَأَكْفُ عَمَّا سَاهَا^(١)

* وقد كان عنتره يكرمُ المرأةَ لأجلِ عبلة، ويعرفُ لها منزلتها، فلا يهدُرُ كرامتها، بل هو ذو حِفَازٍ لِعَرْضِ غيره، وهو يَصِلُ نساءَ قومه بهباته ما دامَ رجالهم معهم، فإذا ما خرجَ الرجالُ إلى الغزو والقتال لا يزورهنَّ محافظةً عليهنَّ، وصيانةً لِعَرْضِه وعرضهنَّ، فهو يحفظُ الجوارَ، ويحافظُ على الحُرَمَاتِ، ويغضُّ بصره عن جاراته حتى يدخلنَ المنازلَ، ولا يتبعُ نفسه هواها:

أَغْشَى فَتَاةَ الْحَيِّ عِنْدَ حَلِيلِهَا

وَإِذَا غَزَا فِي الْجَيْشِ لَا أَعْشَاهَا
وَأَغْضُ طَرْفِي إِنْ بَدَتْ لِي جَارَتِي
حَتَّى يُوَارِيَ جَارَتِي مَأْوَاهَا
إِنِّي أَمْرُوٌّ سَمَحُ الْخَلِيقَةِ مَاجِدٌ
لَا أَتَّبِعُ النَّفْسَ اللَّجُوجَ هَوَاهَا^(٢)

(١) «سأها»: معناها: ساءها، خفف الهمزة، ثم حذفها للضرورة.

(٢) وفي شعر عنتره أيضاً مواطن تشير إلى عفته، وابتعاده عن الفواحش كقوله:

لئن أكَ أسود فالمسكُ لوني ومالسواد جلدي من دواء
ولكن تبعدُ الفحشاء عني كبعد الأرض عن جو السماء

* إِنَّ الْعَفَّةَ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى اقْتِحَامِ الشَّرِّ وَالْآثَامِ غَايَةُ الْخُلُقِ الْكَرِيمِ،
وعنترَةُ الَّذِي أَخْلَصَ فِي حُبِّهِ لِعَبْلَةٍ، يَحْفَظُ النِّسَاءَ^(١) مِنْ أَجْلِهَا كَيْلًا يَلْقَيْنَ
سُوءًا:

وَنَحْفَظُ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَنَتَّقِي عَلَيْهِنَّ أَنْ يَلْقَيْنَ يَوْمًا مَخَازِيَا
جَمَالَ عِبْلَةٍ فِي شَعْرِ عَنْتَرَةٍ:

* كَلِمَا وَرَدَ فِي الذِّهْنِ اسْمُ عَنْتَرَةٍ، وَكَلِمَا قَرَأْنَا شَعْرَ عَنْتَرَةٍ، خَطَرَ اسْمُ عِبْلَةٍ
وَاقْتَرَنَ بِهِ، وَكَأَنَّ عَنْتَرَةَ مَا ارْتَأَى كَمَالَهُ إِلَّا فِي عِبْلَةٍ، وَلَعَلَّهُ تَرَكَ لِنَفْسِهِ عَنَانَهَا
حَتَّى وَقَعَ أُسِيرَ حُبِّهَا وَغَرَامِهَا، وَطَفِقَ يَنْشُدُ أَجْمَلَ وَأَرْقَ الْأَشْعَارَ فِيهَا، وَمِنْ
بَدَائِعِ أَشْعَارِهِ فِيهَا قَوْلُهُ:

(١) مِنَ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ، أَنَّ الْعَرَبَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانُوا يَحْفَظُونَ عَلَى جَارَاتِهِنَّ، وَيُظْهِرُونَ مِنَ
الْمَرْوَةِ مَا يَرْضَعُ جَبِينُ الدَّهْرِ بِذَلِكَ، وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ حَاتِمِ الطَّائِي:
وَلَا نَطْرُقُ الْجَارَاتِ مِنْ بَعْدِ هَجْعَةٍ مِنْ اللَّيْلِ إِلَّا بِالْهَدِيَّةِ تَحْمِلُ
وَقَالَ أَيْضًا:

فَأَقْسَمْتُ لَا أَمْشِي إِلَى سِرِّ جَارَتِي يَدُ الدَّهْرِ مَا دَامَ الْحَمَامُ يَغْرُدُ
وَهَذِهِ الْخَنَسَاءُ تَصِفُ أَخَاهَا - بَعْدَ مَوْتِهِ - بِأَنَّهُ كَامِلُ الْمَرْوَةِ، يَحْفَظُ عَلَى جَارَاتِهِ فَتَقُولُ:
لَمْ تَرَهُ جَارَةً يَمْشِي بِسَاحَتِهَا لَرَبِيبَةٍ حِينَ يَخْلِي بَيْتَهُ الْجَارُ
وَقَدْ كَانَ لِلْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فِضَائِلُ خُلُقِيَّةٍ، مِنْهَا سِتْرُ الْجَارَةِ، وَالْمَحَافَظَةُ عَلَيْهَا بِكُلِّ
الصُّورِ وَالْأَشْكَالِ، يَقُولُ الشَّاعِرُ فِي ذَلِكَ مَادِحًا مِنْ هَذِهِ صِفَاتِهِ وَأَخْلَاقِهِ:
لَا يَهْتِكُ السِّرَّ عَنْ أَنْثَى يَطَالِعُهَا وَلَا يَشْدُ إِلَى جَارَاتِهِ النَّظَرَ
وَقَدْ وَرَثَ الْعَرَبُ أَوْلَادَهُمْ وَأَحْفَادَهُمْ هَذِهِ الْخُلُقَ الْكَرِيمَةَ الَّتِي تَرْفَعُهُمْ إِلَى ذُرَا
الشَّرَفِ وَعُلْيَاءِ الْمَكَارِمِ، مِنْ ذَلِكَ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ شَعْرِ مُسْكِينِ الدَّارِمِيِّ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ
الْحُلُوةُ الْمَشْهُورَةُ:

لَا يَزْهَبُ الْجِيرَانُ غَدَرْتَنَا حَتَّى يُوَارِي ذِكْرَنَا الْقَبْرُ
نَارِي وَنَارُ الْجَارِ وَاحِدَةٌ وَإِلَيْهِ قَبْلِي تَنْزِلُ الْقَدْرُ
مَاضِرٌّ جَارِي إِذَا أَجَاوَرُهُ أَلَا يَكُونُ لَبِيتِهِ سِتْرُ
أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي الْخَدْرُ

خَلِيلِي أُمْسَى حُبُّ عَبْلَةٍ قَاتِلِي
 وَبِأَسْي شَدِيدٌ وَالْحَسَامُ مُهَنَّدُ
 حَرَامٌ عَلَى النَّوْمِ يَابَنَةُ مَالِكِ
 وَمَنْ فَرَشُهُ جَمْرُ الْغَضَا كَيْفَ يَرْقُدُ
 سَأَنْدُبُ حَتَّى يَعْلَمَ الطَّيْرُ أَنَّني
 حَزِينٌ وَيَرِثُنِي لِي الْحَمَامُ الْمَغْرَدُ
 وَالْثُمَّ أَرْضَا أَنْتِ فِيهَا مُقِيمَةٌ
 لَعَلَّ لَهْيِي مِنْ ثَرَى الْأَرْضِ يَبْرُدُ
 رَحَلْتُ وَقَلْبِي يَابَنَةُ الْعَمِّ تَائِهَةٌ
 عَلَى أَثَرِ الْأَظْعَانِ لِلرَّكَبِ يَنْشُدُ
 * وَفِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى يَجْعَلُ كُلَّ الْمَحَاسِنِ وَأَلْوَانِ الْجَمَالِ فِي عِبْلَةٍ، وَقَدْ
 سَرَقَ الْقَمْرُ بَعْضَ مُحَاسِنِهَا، أَمَّا الطَّبَّاءُ فَقَدْ سَرَقْنَ سِحْرَ أَجْفَانِهَا:

سَرَقَ الْبَدْرُ حُسْنَهَا وَاسْتَعَارَتْ
 سِحْرَ أَجْفَانِهَا ظَبَاءُ الصَّرِيمِ
 * وَلَمْ يَكْتَفِ عَنْتَرَةً بِهَذَا أَوْ ذَاكَ، وَإِنَّمَا هُوَ شَدِيدُ الشَّغْفِ بِذِكْرِ مُحَاسِنِ
 عِبْلَةٍ، وَذَكَرَ عَيْنِهَا:

وَكَأَنَّمَا نَظَرْتُ بَعَيْنِي شَادِنِ
 رَشَاءٌ مِنَ الْغُزْلَانِ لَيْسَ بِتَوَامِ

* وَفِي لَوْحَةٍ شَعْرَةٍ أُخْرَى يَرَسُمُ عِبْلَةَ صُورَةً سَاحِرَةً رَائِعَةً، فَهِيَ ذَاتُ شَعْرِ
 أَسْوَدٍ فَاحِمٍ طَوِيلٍ إِذَا أَرْسَلْتَهُ، وَوَجْهٌ أَبْيَضٌ نَقِيٌّ يَمِيلُ إِلَى الصُّفْرِ الْحَسَنَةِ،
 فَهُوَ يَضِيءُ كَالشَّمْسِ فِي رَابِعَةِ النَّهَارِ، أَوْ يَشْعُ كَالْبَدْرِ لَيْلَةَ اكْتِمَالِهِ فِي اللَّيْلِ
 الصَّافِيَةِ، أَمَّا عَيْنَاهَا فَهِيَ سَوْدَاوَانِ، وَأَسْنَانُهَا بَيْضٌ كَاللُّؤْلُؤِ الْمُنْثُورِ:

وَرَنْتُ فَقُلْتُ غَزَالَةً مَذْعُورَةً قَدْ رَاعَهَا وَسَطَ الْفَلَاةِ بَلَاءُ
 وَبَدَتْ فَقُلْتُ الْبَدْرُ لَيْلَةَ رَتْمِهِ قَدْ قَلَّدَتْهُ نُجُومُهَا الْجُوزَاءُ
 بَسَمْتُ فَلَاحَ ضِيَاءِ لَوْلُؤِ ثَغْرِهَا فِيهِ لِدَاءِ الْعَاشِقِينَ شِفَاءُ

* وفي موضع آخر يَصَوِّرُ الشَّمْسُ وهي تخاطبُ عبلة كي تحلّ مكانها، بل
 إِنَّ الْقَمَرَ يَقُولُ لَعَبْلَةٍ: أَنْتِ مِثْلِي فِي كُلِّ شَيْءٍ:
 أَشَارَتْ إِلَيْهَا الشَّمْسُ عِنْدَ غُرُوبِهَا
 تَقُولُ إِذَا اسْوَدَّ الدُّجَى فَاطْلَعِي بَعْدِي
 وَقَالَ لَهَا الْبَدْرُ الْمُنِيرُ أَلَا اسْفِرِي

فإِنَّكَ مِثْلِي فِي الْكَمَالِ وَفِي السَّعْدِ
 * ولكنَّ هذا الغزلَ والتَّغْزِلَ كُلَّهُ لم يجعلْ عنترَةَ بمَعْزِلٍ عن ذِكْرِ فُروسيته،
 ووجدَ مِنَ الضَّرُورة أَنْ يُنَبِّهَ عبلةَ إلى مكانته في عالمِ الفُرسانِ ودنيا الشُّجعانِ،
 وأنَّ يحملها على أن تنظرَ إليه بأنَّه رجلٌ جديرٌ بالحبِّ، جديرٌ بأنَّ يكونَ بَعْلًا،
 وليس هنالك منْ مجالٍ سوى الصِّفَاتِ الحميدةِ، فالجمالُ للرجلِ ليس مقياساً،
 وإنما هناك جمالُ الفِعالِ، وجمالُ النَّفسِ، ووجدَ عنترَةَ ميدانَ الشَّعرِ يعرضُ فيه
 أخلاقه السَّمحة، وأفعاله المجيدة، ويؤكد حُبَّه، كما يؤكد حقيقةَ مهمَّةٍ في عالمِ
 الجمالِ فيقول:

عُبَيْلَةُ أَيَّامُ الْجَمَالِ قَلِيلَةٌ
 لَهَا دَوْلَةٌ مَعْلُومَةٌ ثُمَّ تَذْهَبُ
 * هذا؛ وقد عَرَفَتْ عبلةُ فضائلَ فارسها عنترَةَ؛ وذات يومٍ قالت له: لله
 دُرُكٌ مِنْ شَجَاعٍ، ويالك منْ فارسٍ تذلُّ أمامه الأسود، لقد بلغتَ عنانَ السَّمَاءِ
 في الفُروسيَّة، واقتعدتَ سُدَّةَ المجدِّ يا زين الفُرسانِ.

* وطار فؤادُ عنترَةَ فرحاً بهذه الكلمات العذاب اللواتي أنعشنَ فؤاده، فإذا
 به ينطقُ بمعاني عبلةِ هذه المعاني الجميلة فيقول:

لَقَدْ قَالَتْ عُبَيْلَةُ إِذْ رَأَتْني وَمَفْرِقٌ لِمَتِي مِثْلُ الشُّعَاعِ
 أَلَا لِلَّهِ دُرُكٌ مِنْ شَجَاعِ تَذَلُّ لِهَوْلِهِ أَسَدُ الْبِقَاعِ
 سَمَوْتَ إِلَى عَنَانِ الْمَجْدِ حَتَّى عُلَوْتَ عَلَى الشُّهَى فِي الْارْتِفَاعِ

* وتوضَّحْ صورةَ عبلةٍ في شعرِ عنترَةَ، حيث يرسمها بأجملِ الألوانِ؛
 وأحلى الكلمات، وكيف لا يفعل ذلك وهو العاشقُ الصَّبُّ الولهُ المبحرُ في
 عُبابِ دلالِ عبلة واسمها وشخصها، وفوق أمواجِ جمالها الآسر؟!!

* فهو يَصِفُ أخلاقها بقوله: غَضِيضٌ طرفها، عَفِيفٌ لسانها، ويرسم خَلْقَها بوصفه إياها أنها جميلةُ الفم، جميلةُ العينين، معتدلةُ القوام، تستعيرُ منها الشَّمسُ البهاءَ والسَّناءَ، والقمرُ النُّورَ والضِّيَاءَ.

* وهنا يتبادرُ إلى الذَّهن سؤالٌ يقول: كيف استطاعَ عنترَةُ أن يجعلَ من عبلة لَيْلَاهُ^(١)؟!

* الحقيقةُ إِنَّ عنترَةَ بارِعٌ في إبرازِ هذه المرأةِ الجميلةِ التي لم يحملَ لنا التَّاريخُ طاقةً من أقوالها، أو باقةً من حكمتها، إلا أَنَّهُ حَمَلَ لنا صورةَ جمالِها المرسومِ في شِعْرِ عنترَةَ.

* وثمةَ ناحيةٍ أخرى لشهرتها، كثرةُ تكرارِ عنترَةَ لاسمها، إذ استطاعَ أن يغرَسَ شهرتها في التُّفوسِ، وأن يجعلَها تعتقدُ أَنَّ عبلةً هي حواءُ خاصَّةً بعنترَةَ، وهي حواءُ من نوعٍ فريدٍ، وأيِّ حواءٍ هي؟!!

* نعم لقد ظهرتْ عبلةُ أماناً في خُلُقِها وصفاتها، ويبدو أَنَّ عنترَةَ قد تَغَنَّى بها على طريقةِ الغزلِ العُذري، فتغَنَّى بجمالِ خلقها، وأبدَعَ في إظهارِ المعاني الخُلُقِيَّةِ التي حباها اللهُ هذه المرأةُ التي أخذتْ لَبَّهَ، والتي أحاطها بسياجٍ أنيقٍ من الحشمةِ مع الإعجابِ بها.

* إِنَّ عبلةَ بنتَ مالكٍ امرأةٌ متفرِّدةٌ بينَ النِّسوةِ العَبَسِيَّاتِ، فقد استطاعتُ أن تؤثرَ في نفسِ عنترَةَ أثراً لطيفاً، حيثُ طُبِعَتْ في نفسِهِ وقلْبِهِ صورتها الأليفةُ المحبِّبةُ، لذلك أضْحَى حُبُّهُ لها عُذْرياً، هذا الحُبُّ يقضي الارتباطَ بها وحُدها ليس غير، والإخلاصُ لها، وإعلامُها بتمكُّنِها من نفسِهِ، وإخبارُها بالاستيلاءِ على لَبَّهَ وقلْبِهِ ومشاعِرِهِ، لذلك بادَلَهَا عنترَةُ هذه المشاعرَ الرَّاقِصةَ، وها هو يبلغُها بعذبِ الكلامِ أَنَّها احتلَّتْ نفسَهُ، وسيطرَتْ على مشاعِرِهِ، ونزلتْ منزلةَ المُحَبِّ المُكْرَمِ:

وَلَقَدْ نَزَلْتُ فَلَا تَظُنِّي غَيْرَهُ

مَنِّي بِمَنْزِلَةِ الْمُحَبِّ الْمُكْرَمِ

(١) «ليلاه»: المقصود هنا «ليلى» التي اشتهرت على لسان مجنون ليلى.

* ويؤكدُ عنترةُ أَنَّ عِبلَةَ هي قِدْحُه المَعْلَى، وأمله الحقيقي الذي لا تخالطُه
لوامعُ السَّرَابِ، وبوارقُ الحَيَالِ، وعندها غَدَتْ عِبلَةُ تنطقُ بمنطقِ عنترة
نفسه:

وَلَيْنَ سَأَلْتَ بِذَاكَ عِبلَةَ خَبَّرَتْ
أَنْ لَا أُرِيدُ مِنَ النِّسَاءِ سَوَاهَا

* لقد سَدَّتْ عِبلَةُ المنافذَ أمامَ عيني عنترة، فلم يَعُدْ يرى إلا هذه المرأة
المتفرّدة بالمحاسنِ بين نساءِ بني عبس، ولم يَعُدْ يَكَلِّمُ إلا عِبلَةَ ودار
عِبلَةَ^(١)، فقد عَمِيَ عن غيرها، وَصُمَّ عن سماعِ أخبارِ غيرها، بل أَعْرَضَ عن
غيرها، وَإِنْ كُنَّ أَجْمَلُ منها، فعِبلَةُ مَنَى رُوحَهُ، وَضِيَاءَ مشاعره؛ وكانت عِبلَةُ
تَحَاوَلُ - أحياناً - أَنْ تَعْبَثَ بتلكم المشاعرِ أحياناً، فيردّها عنترةُ إلى جادّةِ
الصَّوَابِ مُنَوِّهاً بمكانِهِ ومكانَتِهِ في مَيْدَانِ الفُرْسَانِ:

عَجَبْتُ عُيْلَةَ مِنْ فَتَى مُتَبَذِّلٍ

عَارِي الْأَشَاجِعِ شَاحِبٍ كَالْمُنْصُلِ^(٢)

قَدْ طَالَ مَا لِبَسَ الْحَدِيدَ فَإِنَّمَا

صَدَأُ الْحَدِيدِ بِجِلْدِهِ لَمْ يَغْسَلِ

* وعندما رَأَتْهُ عِبلَةُ متغيّرِ الحالِ، عَجِبَتْ وتضاحكت، ولم تُبَالِ بقولها

(١) إِنَّ هَذَا مَا يُوَكِّدُهُ فِي كَثِيرٍ مِنْ شِعْرِهِ فِي بَدَايَةِ مَعْلَقَتِهِ إِذْ يَقُولُ:

يَا دَارُ عِبلَةَ بِالْجَوَاءِ تَكَلِّمِي وَعَمِّي صَبَاحاً دَارَ عِبلَةَ وَاسْلَمِي
ذُكِرَ أَنَّ أَبَا عَمْرٍو بْنَ الْعَلَاءِ قَدْ سُئِلَ عَنْ قَوْلِ عنترة: (وَعَمِّي صَبَاحاً دَارَ عِبلَةَ
وَاسْلَمِي)، فَقَالَ: هُوَ مِنْ نَعَمِ الْمَطَرِ إِذَا كَثُرَ، وَنَعَمِ الْبَحْرِ إِذَا كَثُرَ زَيْدُهُ، كَأَنَّهُ يَدْعُو
لَهَا بِالسَّقْيَا وَكَثْرَةِ الْخَيْرِ. (بلوغ الأرب ١٩٣/٢).

(٢) «عُيْلَةَ»: تَصْغِيرُ عِبلَةَ، وَقَدْ صَغَرَهَا هُنَا عَلَى جِهَةِ الْإِلْطَافِ، لَا عَلَى جِهَةِ التَّحْقِيرِ.

«الْمُتَبَذِّلُ»: الْمَقْصُودُ هُنَا: الْمَتَصَرِّفُ فِي الْحُرُوفِ وَالْأَسْفَارِ.

«عَارِي»: قَلِيلُ اللَّحْمِ.

«الْأَشَاجِعُ»: أَصُولُ الْأَصَابِعِ الَّتِي تَنْصُلُ بِعَصَبِ ظَاهِرِ الْكَفِّ.

«الْمُنْصُلُ»: السِّيفُ.

وضحكها، ويتعجب عنترة كيف ازدرت مع أنه كريم، حسن الخلال، طويل
النجاد؛ رفيع القدر بين أشداء الفرسان:

فَتَضَاكَتْ عَجَباً وَقَالَتْ يَا فَتَى

لَا خَيْرَ فِيكَ كَأَنَّهَا لَمْ تَحْفَلِ

فَعَجِبْتُ مِنْهَا حِينَ زَلَّتْ عَيْنُهَا

عَنْ مَاجِدٍ طَلَّقَ الْيَدَيْنِ شَمَرْدَل^(١)

* وبعد هذا يُذَكِّرُ عنترة عبلة بأنه أهلٌ لوَدَّها، وموضعُ لحبِّها، ولا يحقُّ
لها أنْ تُصَرِّفَ النَّظَرَ عنه، فلقد سَبَقَها نساءٌ كثيرات عَرَفْنَ مكانته وهُنَّ أَجْمَلُ
منها، وأحلى في عين النَّاظِرِ، إلا أنَّ عنترة يخبرها بأنه يريدُها هي، ولا يريد
سواها:

فَلَرُبَّ أُمْلَحَ مِنْكَ دَلًّا فَاغْلَمِي

وَأَقْرَ فِي الدُّنْيَا لِعَيْنِ الْمُجْتَلِي

وَصَلْتُ حَبَالِي بِالَّذِي أَنَا أَهْلُهُ

مِنْ وُدِّهَا وَأَنَا رَخِي الْمَطْوَل^(٢)

* إِنَّا نشعرُ بأنغام عنترة التي تأسرُ أسمعنا وهو يشدو بنبرة عذبة شجية،
ويرسم صاحبته عبلة بالكلمات. ويناجيها بأحلى همسات الكلام التي تخالطُ
النَّفسَ، وتمتزجُ بِشَغَافِ الْقَلْبِ، وكيف لا؟ وقد عَزَّ عنترة بعد العبودية،
وتحرَّرَ بعد الرِّقِّ، فَصَفَتْ نَفْسُهُ، وَرَقَّتْ عَوَاطِفُهُ، وَلَطَفَ مَزَاجُهُ، كُلُّ هَذَا
الْإِلْهَامُ وهذه المشاعر مصدرها عبلة بنتُ مالك الزَّوْجَةِ والحبيبة والمرأة
الرَّقيقة.

* وفي شعرِ عنترة تظهرُ صورة عبلة بأبهى الحُلل، ولا يتوقَّف خيالُ

(١) «شمردل»: حسن الخلق.

(٢) «المطوّل»: الرّسن، و«الطّوّل»: حَبْلٌ يُشَدُّ به قائمة الدابة، أو تُشَدُّ وتُمسِك طرفه،
وترسلها ترعى، قال طرفه بن العبد في معلقته:

لعمرك إنّ الموتَ مَا أخطأ الفتى لكالطّوّل المُرْخَى وثنياء باليد
متى ما يشأ يوماً قَدُهُ لحتفه ومن يكُ في حَبْلِ المنيّة يُنْقَدُ

عنترة عند حدٍّ معيّن، فيها هو يرسمُ ثَغْرَهَا، ويصوّرهُ كَأَنَّهُ روضةٌ يَكُرُّ عذراء،
أَلَحَّ عليها الغيثُ حتى زكَا نباتُها، وحتى استطابَ الدُّبَابُ الإقامةَ فيها،
فتداعى إليها نشوان متغنياً بما يجني من طيِّباتها^(١).

* وتطلُّ عبلةٌ أغنيةَ عنترة، ولحنَ غزله، ومُنَى أمله، وأملَ مُناه، لم تبرحْ
ذاكرته وقلبه وشعره، ولم يبرحْ عنترة يقفُ بأطلالها^(٢) بين العقيق وبُرقة
ثُهمد التي أمست ملعباً للظباء، وتسرحُ فيها لاهيةً، وترتعُ غافلةً وهو يعاني
ما يعاني من أَلَمِ الحبِّ، وآلامِ الحزن:

بينَ العَقِيقِ وبينَ بُرْقَةٍ تُهمَدُ

طَلَلُ لَعْبَلَةٍ مُسْتَهْلُ المعهَدِ

يا مَسْرَحَ الأَرَامِ في وادي الحمى

هل فيك ذُو شَجَنٍ يَرُوحُ ويغتدي^(٣)

وَقَفَّةٌ نَدِيَّةٌ مَعَ جَمَالِ المَرَأَةِ عِنْدَ العَرَبِ:

* لا بدَّ لنا ونحنُ على مشارفِ نهايةِ رحلتنا مع عبلة بنتِ مالكِ العبسيّة،
من أن نشيرَ إلى مقياسِ الجمالِ ومعايره عند العرب.

* فالجمالُ محبوبٌ لذاته عند الطّبع، ومحبوبٌ لفائدته عند العَقْل، ومع
أنَّ العيونَ قد أَلِفَتْ رؤيته، والآذانَ رُوِيَتْ من سماعِ أحاديثه، فلا تزالُ
أسرارُه موضوعَ التفكيرِ، ولا تزال دقائقُ تأثيراته محلَّ الإعجاب؛ كيف
لا وهو السِّرُّ المكنون في جَذْبِ الإنسانِ إلى مقاماته العُلى من الإبداع، وقد
رأينا أنَّ عنترة قد أبدعَ في فنِّ البيانِ لما كان يرى من جمالِ عبلة.

* فقد كانت نساءُ العرب قد تناسبت أجزاءهُنَّ، وتناسقت أوضاعُهُنَّ،

(١) للاطلاع على هذه الصّورة الرائعة، انظر ديوان عنترة (ص ١٨١) وما بعدها.

(٢) كثيراً ما وقفَ الشعراء على أطلال محبوباتهم، وتغنوا وبكوا ورثوا و... والله دُرٌّ
مَنْ قال:

بَلَيْتُ بِلى الأَطْلالِ إنْ لم أَقِفْ بها وقوفَ شحيحِ ضاعَ في الثَّرْبِ خاتمُه

(٣) انظر: ديوان عنترة (ص ١٣٦) دار صادر بيروت.

واعتدلت أشكالهن، بياضهن جميل، وأدمتهن لطيفة، ليس فيها حُلْكَةٌ بَعْضِ الأَقْوَامِ، ولعلَّ مَنْ فازت من حِسَانِهِنَّ بحظٍّ عظيمٍ من الجمال، تقلَّ نظائرها في حِسَانِ الآخرين.

* والمشهورُ أنَّ الجمالَ يختلفُ في أذواقِ النَّاسِ، ولكلِّ جيلٍ قياسٌ في الحُسْنِ قد لا يأتي عليه قياسٌ جيلٍ آخر، ولكن مَنْ أُمِعَ بما يتناقله النَّاسُ من صفاتِ الحسن، يَجِدُ جهةً جامعةً، ومقياساً واحداً تَتَّفَقُ معه المقاييسُ كلها، ذلك أنَّ الحسنَ الذي لا خلافَ فيه ليس هو بلونُ الأديم، وإنما هو باعتدالِ القامةِ، واستواءِ الهامةِ، وتناسبِ أجزاءِ الوجه ومقاطعته، وحلاوةِ المبسم، وملاحظةِ العينين، ولطفِ الحاجبتين؛ ولعلَّ هذه الأشياءُ تكثرُ في العرب، بالإضافةِ إلى بياضِ البشرة، وتشربِه بحمرة أو صُفْرة، كان ذلك فضلاً في الجمال، قد يُنْلبِغ به منتهى الكمال.

* والعربُ لم يَكْثُرُوا في كلامهم من شيءٍ بمقدار ما أَكْثَرُوا مَنْ وَصَفَ الجمالَ، كما لاحظْنَا في شِعْرِ عنترة، وقد نجدُهم يستحسنون هَذَيْنِ اللونين كثيراً: البياضَ المشربَّ بحمرة، أو البياضَ الضَّاربَ إلى صُفْرة، قال ذو الرِّمَّةُ^(١) معبراً عن هذا:

بَيِّضَاءَ صَفْرَاءَ قَدْ تَنَازَعَهَا لُونَانِ مِنْ فَضَّةٍ وَمِنْ ذَهَبٍ
* وقال أحمد بن عبد ربه الأندلسي:

عَقَائِلُ كَالْأَرَامِ أَمَّا وَجُوهُهَا فَدُرٌّ وَلَكِنَّ الخُدُودَ عَقِيقُ
* ومنَ الجديرِ بالذِّكْرِ أَنَّ هذا اللونَ هو لونُ اللؤلؤ، وقد جاءَ في القرآنِ

(١) «ذو الرِّمَّة»: غيلان بن عتبة بن نهيس العدوي، أبو الحارث، من فحول الطبقة الثانية في عصره؛ قال أبو عمرو بن العلاء: فُتِحَ الشَّعْرُ بِأَمْرِ القَيْسِ، وَخُتِمَ بِذِي الرِّمَّةِ.

أَكْثَرُ شَعْرِهِ تَشْبِيهًُ وَبِكَاءٍ وَأَطْلَالٍ، يَذْهَبُ فِي ذَلِكَ مَذْهَبُ الْجَاهِلِيِّينَ، كَانَ يَقِيمُ بِالْبَادِيَةِ، وَيَحْضُرُ إِلَى الْإِمَامَةِ وَالْبَصْرَةِ كَثِيراً، وَعَشَقَ مِثَّةَ الْمُنْقَرِيَةِ وَاشْتَهَرَ بِهَا. تُوْفِيَ بِأَصْبَهَانَ، وَقِيلَ بِالْبَادِيَةِ سَنَةَ (١١٧ هـ). (وفيات الأعيان والشعر والشعراء) ترجمة ذي الرمة.

العظيم تشبيه حِسان الجَنَّة باللؤلؤ المكنون في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصَّافَات: ٤٩] ^(١)، ولا يختلف أحدٌ في أنَّ هذا اللون هو الذي تكون صاحبه أقرب إلى الكمال في الجمال، خصوصاً إذا أخذت بحظٍّ من تناسب بقية الأعضاء.

* ولكثرة البياض اللطيف في العرب، شبهوه بالصُّبح، واشتقوا من الصُّبح لوناً فقالوا للأبيض: صَبِيح، وللبيضاء: صَبِيحَة؛ واشتقوا من الزَّهر لوناً فقالوا للأبيض المُشَرَّب بحمرة: أزهَر، وللبيضاء المشربة بحمرة: زَهْرَاء ^(٢).

* وليس بعجيبٍ بعد أن كانَ الجمالُ الرَّائع من جملة خصائصِ نساء العرب في الجاهلية، إذ نجدهم مغرمي القلوب بمجالي تجلياته، منصرفي الوجوه إلى مشارق أنواره، ثم لا بدَّ بعد ذلك إذا وجدنا حبَّ الجمال قد هذَّب أذواقهم، ورقَّق طبائعهم، وعودهم على الاستحسان، ونقلهم من حالٍ إلى حالٍ، كما رأينا تطور حياة عنترة، ورقة أسلوبه، ورقائق معانيه، وهمسات مغانيه، كلُّ هذا من شَغَفه بابنة مالكِ عبلة التي خلَّدها بمعلَّته ^(٣).

(١) قال جُمهور المفسرين: هو البياض قد خالطته صفرة حسنة.

(٢) وقال أبو دَهْل، واسمه: وهب بن زمعة بن أسد الجُمحي، وهو أحد الشعراء العشاق المشهورين توفي سنة (٦٣ هـ):

وَهِيَ زَهْرَاءُ مِثْلُ لَوْلُؤَةِ الْغَوَا
ص مِيزَتْ مِنْ جَوْهَرِ مَكْنُونِ
(٣) لَعَلَّهُ مِنَ الطَّرِيفِ وَالْمَفِيدِ أَنْ نَشِيرَ إِلَى أَنَّ عِدْداً كَبِيراً مِنْ فُحُولِ الشُّعْرَاءِ قَدْ اشْتَغَلُوا بِمُعَارَضَةِ مَعْلَقَةِ عَنْتَرَةَ فِي الْقَدِيمِ وَالْحَدِيثِ، وَكَانَ مِنْ عَارِضِهَا مُحَمَّدُ سَامِي الْبَارُودِي - رَحِمَهُ اللَّهُ - حَيْثُ صَدَحَ بِمُعَارَضَةِ مَعْلَقَةِ عَنْتَرَةَ بِقَصِيدَةٍ تُعْتَبَرُ مِنْ فُخْرِيَّاتِهِ، وَعِيُونَ شِعْرِهِ، نَظَمَهَا فِي آخِرِيَّاتِ أَيَّامِهِ فِي سَنَةِ (١٨٩٩ م)، وَفِي إِحْدَى نَدَوَاتِهِ سَأَلَهُ الْأَدِيبُ الشَّابَّ - آنَ ذَاكَ - مُصْطَفَى صَادِقُ الرَّافِعِيِّ شَيْئاً مِنْ شِعْرِهِ الْحَدِيثِ، فَقَالَ: إِنَّ عَنْتَرَةَ بْنَ شَدَادِ الْعَبْسِيِّ يَقُولُ:

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مَنْ مَتَرَدَمَ
أَمْ هَلْ عَرَفْتَ الدَّارَ بَعْدَ تَوْهَمِ
وَقَدْ نَقَضَتْ هَذِهِ الْقَصِيدَةُ بِقَوْلِي:

كَمْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مَنْ مَتَرَدَمَ
وَلَرَبَّ تَالٍ بَدَأَ شَأْوَ مَقْدَمَ

وشعره بين نساءِ التَّاريخ، وتاريخِ نساءِ الفرسان .

* وختاماً، وبعد رحلتنا اللطيفة مع عبلة، وحياتنا في أجواءِ شعرِ عنترة فيها، فلا نعرفُ كيفَ ومتى كانت نهايتها، إلا أننا ندرك أنها ما تزال حيّة فيما رسمه عنترة بالكلمات، وذلك في وصفها بأشعاره الحسان، التي عبرت الليالي والأيام إلى وقتنا الحالي، وأرجو أن أكون قد وفّقتُ في توضيح بعض الصُّور للمرأة العربية في أعصرها الخوالي، والله أعلمُ بحقيقة الصَّواب .

* * *

١٩

فاطمة بنت مراحمة

من صُور حَيَاةِ الْجَاهِلِيَّةِ:

* لعلَّ أَوَّلَ مظاهر البيئَةِ الاجتماعيَّةِ في العَصْرِ الجاهلي، وخصوصاً في مكة، مظهر العقيدةِ الدِّينيةِ، وما ينشأ عنها من مناسكٍ وتعبُّداتٍ واعتقاداتٍ، وعنوانُ ذلك عند العرب قاطبةً هو الوثنيَّةُ التي تقومُ على التَّقْلِيدِ الموروثِ، والتي لا تسمَعُ لصوتِ العَقْلِ، ولا تصغي إلى الشُّعورِ ونداءِ الوجدانِ، وقد حكى القرآنُ الكريمُ عنهم هذا الاعتقادَ في معرض الرَّدِّ على دعوتهم إلى الهدى ودينِ الحقِّ، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [البقرة: ١٧٠]، ثم إنَّ القرآنَ قد بكَتَمَهم على هذه البلادةِ العقليَّةِ التي لا تناسبُ إنسانيتهم فقال: ﴿أَوَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ لَيَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠].

* وقد دفعهم الفراغُ عن جدِّ الحياةِ وجادتها القيومة إلى التَّمنُّنِ في وثنيَّتِهم الهزيلةِ الفارغةِ، فعدَّدوا الآلهةَ، واتَّخذوا لها الأنصابَ والتَّمائيلَ والأصنامَ والأوثانَ، وبنوا لها البيوتَ والمتعبَّداتِ، حتى أصبح لكلِّ قبيلةٍ صنمٌ في بيتٍ خاصٍ به، تُؤدِّي مناسكها في كَنَفِهِ، وكانت أغلَبُ بيوتِ العرب قد اتَّخذ أهلها صنماً يعبدونه، لذلك عَجِبُوا حينما دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى التوحيد، فقالوا - كما حكى القرآنُ عنهم -: ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

* إلى جانبِ هذه الوثنيَّةِ، كانت هناك قَلَّةٌ منشورةٌ تنفردُ باعتقاداتٍ خاصَّةٍ، وتدينُ بدياناتٍ أخرى، وإلى جانب ذلك كلِّه كان للعرب أيضاً اعتقاداتٌ وخيالاتٌ يقيمون حياتهم عليها، منها: الكهانةُ، والعرافةُ، والتَّطَيُّرُ بالسَّوَاحِجِ والبوارحِ من الطَّيْرِ، وشيوع الخرافاتِ، حتى غدا الكهانُ والكواهنُ ممن يديرون دفةَ القومِ في كثيرٍ من الأحيان، كما سنرى في الصَّفَحَاتِ التَّالِيَةِ إن شاء الله .

جَوْلَةٌ فِي رَحَابِ الْكُهَانَةِ وَالكَاهِنَاتِ:

* لعلَّ مِنْ طَبِيعَةِ النَّفْسِ البشريَّةِ في تكوينها، أَنَّ النَّاسَ يَتَشَوَّقُونَ لمعرفةِ

كلّ جديد في الحياة، وخصوصاً ما يتعلّق بنفس الإنسان من معرفة أحوالهم في المستقبل من رزق ونعيم وبؤس وموت، وما شابه ذلك؛ وإرضاء لتلك الرغبة يلجأ كثيرٌ منهم إلى الكهّان الذين يفرضون سلطتهم - المزعومة - على المجتمع، فتتوفّر لهم الفائدة المادية ثمّ المعنوية.

* وكان علّم الكهانة شائعاً في العرب قبل ظهور الإسلام، وكان عليه مدار فضل خصوماتهم، وفضّ منازعاتهم، وظهر عددٌ من الكهنة والكاهنات واشتهر أمرهم في الجاهلية^(١)، ومنهم امرأة هذه الصفحات التي نتعرّف سيرتها بعد قليل.

* وقد بسط أهل العلم والأخبار أقوالهم في الكهانة، وذهبوا بذلك مذاهب شتى، وطرائق قديداً^(٢).

* قال الفيروز أبادي - رحمه الله -: تكهّن تكهناً: قضى له بالغيب فهو

(١) «الجاهلية»: الزمان الذي كثر فيه الجهال. والمقصود بهذه الكلمة: ما كان قبل مجيء الإسلام. وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم في أربعة مواضع هي:

﴿يُظَنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

و: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

و: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [الأحزاب: ٣٣].

و: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةَ﴾ [الفتح: ٢٦].

وفي السنّة المطهرة وردَ لفظُ الجاهلية كثيراً، من ذلك قولُ النبي ﷺ لأبي ذر الغفاري - رضي الله عنه - حين عيّر رجلاً بأمه: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، وقول أمّنا عائشة - رضي الله عنها -: «كان النّكاح في الجاهلية على أربعة أنحاء»، وقولهم: «يا رسول الله كُنا في جاهلية وشر»؛ فالمقصودُ في هذا كله: حال جاهلية، أو طريقة جاهلية، أو عادة جاهلية ونحو ذلك. فالجاهلية من حيث كونها اسماً لزمن تُطلق على الفترة التي كانت قبل بعثة النبي ﷺ ولا تُطلق على زمن بعد هذه البعثة.

(٢) «قديداً»: مختلفة، وفي القرآن الكريم: ﴿كُنَّا طَرِيقَ قَدَدًا﴾ [الجن: ١١]، يعني: كنا فرقاً مختلفة الأهواء.

كاهنٌ؛ والجمع: كَهَنَة وكَهَّان؛ وحِرفته: الكِهانة؛ والكاهن: مَنْ يقومُ بأمرِ الرّجل، ويسعى في حاجته^(١).

* وزعم المسعودي - رحمه الله - في «مُروجه»^(٢) إلى أنّ الكهانة صفاءٌ نفسي يتولّد من صفاء المزاج الطّبيعي، وقوة النّفس، ولطافة الحسّ.

* وذهب بعضهم إلى أنّ الكهانة مطالعة الغيب والإخبار بالحوادث الماضية والآتية.

* وقيل: الكهانة: هي ادّعاء علم الغيب كالإخبار بما سيقع في الأرض مع الاستناد إلى سبب، والأصل فيها: استِراقُ الجنّي السّمع من كلام الملائكة، فيلقيه في أذن الكاهن.

* وزعم بعضُ الكهّان أنّ لهم أتباعاً من الجنّ يسترقون السّمع ليأتوهم بالأخبار ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِلْئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [الجن: ٨]، وأنّ الشّياطين ليوحون إلى أوليائهم، وكان العربُ يتنافرون إلى الكهّان في خصوماتهم.

* والكاهنُ: لَفْظٌ يُطْلَقُ على العرّاف، والذي يضربُ بالحصي، والمنجّم.

* ويختصُّ الكاهنُ بعلم المستقبل، والعراف بعلم الماضي^(٣).

(١) القاموس المحيط (ص ١٥٨٥) طبعة مؤسسة الرسالة الثانية.

(٢) «مروجه»: أي: في كتابه الشّهير: مروج الذهب.

(٣) قال الأصفهاني في كتاب «الذريعة»: الكهانة مختصة بالأمور المستقبلية، والعرافة بالأمور الماضية. والعراف يشبه الكاهن في بعض شأنه، فقد كان العرّاف يكشفُ المخبأ في الماضي، وكان أيضاً طبيباً، بل هو أشهر في الطّب من الكاهن، ولكنّه أدنى منه منزلةً، فإنّ العرافة ليست منصباً دينياً كالكهانة.

ومن مشاهير العرافين: عرّاف نجد، واسمه: الأبلق الأسدي، وعرّاف اليمامة، واسمه: رباح بن عجلة.

قال عروة بن حزام في معرض حبّه لعفراء من قصيدة له شهيرة جاء فيها:

جَعَلْتُ لِعَرَّافِ الْيَمَامَةِ حُكْمَهُ وَعَرَّافِ نَجْدٍ إِنَّهُمَا شَفِيَانِي=

* وقال الخطّابي: الكهنة قومٌ لهم أذهانٌ حادّةٌ، ونفوسٌ شريرةٌ، وطباعٌ ناريةٌ، فألفَتَهُم الشّياطينُ لما بينهم من التّناسبِ في هذه الأمور، وساعدتهم بكلّ ما تصلُّ قدرتهم إليه^(١).

* وقال بعضُ الأفاضل: كانتِ الكهانةُ في الجاهليةِ فاشيةً خصوصاً في العرب لا تقطعُ الثبوتَ فيهم^(٢).

* ومنَ المعروفِ لدى الباحثين بأنَّ الكهانةَ قد انتشرت بين اليهود وغيرهم من الأمم قديمها وحديثها؛ وفي السيرة النبوية نماذجٌ من ذلك يحسُن الرجوع إليها لمن أراد أن يستزيدَ في هذا المجال.

* ويبدو أنَّ الكهانةَ قد مدّت جناحيها في معظم أصقاع الأرض، ولا زال

= فقالا نَعَمْ نشفي من الدّاء كلّهُ وقاما مع العُودا يتتدران
فما تركا من حيلة يعلمانها ولا رقية إلا وقد رقياني
فقالا شفاك الله والله مالنا بما حُمِلت منك الضلوعُ يدان
وقال آخر في عراف اليمامة:

فقلتُ لعرافِ اليمامةِ داوِني فإنّك إن داوَيْتَنِي لطبيبُ
والذي يجبُ أن نلاحظه: أنَّ طبَّ العرافين هو الطبُّ البدوي القائم على الدّكاء
والتجربة والاختبار، وليس من الطبِّ المزاجي المبني على علمٍ ودراسةٍ، فهو
يخطئ ويصيب، وفيه عنصرٌ روحي نفساني، ولذلك لا تبرأ به في الغالب إلا
الأمراض النفسية، والأدواء اليسيرة.

(١) انظر: بلوغ الأرب (٣/٢٦٩).

(٢) بلوغ الأرب (٣/٢٦٩)؛ وقال الدكتور عمر فروخ في كتابه: «تاريخ الجاهلية ص ١٦٢»: وكان في الجاهلية كهانٌ على نمط الكهان الذين عرفهم السّاميون (العبرانيون مثلاً)، والآريون (اليونان مثلاً). والكهانة كانت في الواقع منصباً دينياً ذا جانب سياسي وجانب تجاري. فالكاهنُ كان يدّعي أنّه رجلٌ قريبٌ من الله يعرفُ الغيب، ويترجمُ عن الأصنام، وينظرُ في النجوم، ويعرفُ ما يكتمه الناس، وكان مقامه عادة في بيت الصنم، أو في بيته هو.

وكان الكاهنُ فوق ذلك طبيباً، كما كان يتقبَّل التّدور باسم الأصنام، ويقدمُ القرابين عن الرّاعيين. وكلّ ذلك منافع اقتصادية له، وكان من النّساء كواهن أيضاً.

بعضُ النَّاسِ في عصرنا - ونحن في عصر الذَّرة، وعصر الاختراعات والابتكار، وعصر العقول الالكترونية وغيرها - يقدون إلى مشعوذين ومشعوذات، يلتمسون عندهم ما عساه أن يكون نافعا لكشف ضرر، أو لجلب نفع.

* إنَّ معرفة هؤلاء المشعوذين لبعض الأخبار الشخصية لمن يُراجعهم، يتمُّ عن طريق المصادفة، ممَّا يجعل كثيراً من النَّاس يصدِّقُ كلامهم، دون أن يُدْخله شكٌّ أو ريب.

* وبعضُ المشعوذين يتمتَّعون بقدراتٍ عقلية نافذة، وحِدة في الذِّكاء، فيستطيعون كَشْفَ الأسْتارِ من خلال الأخبارِ من المتحدِّث دون أن ينتبه أو يشعر، ويحيطون أنفسهم بهالةٍ من المعرفة الخاصة، وأنهم يستطيعون فعلَ أمورٍ خارقة، فيختلقون حوادثَ عابرة، وأحاديثَ جذابة، وإذ ذاك يصدِّقها أصحابُ العقول البسيطة، وعندها يتهافتون على المشعوذين بدافع غريزة معرفة كلِّ غريب، وإن أكثر مَنْ يتصل بهؤلاء المشعوذين النِّساء من مختلفِ المستويات الاجتماعية والثقافية.

* وأكَّد أحدُ الباحثين - في عصرنا - أنَّ كثيرات من نسوةٍ متعلّقات ومتقفات ثقافة عالية يغشَّين منازل العرافات فقال: وإنني رأيتُ في عُمان امرأةً من هؤلاء المشعوذين تتهافتُ عليها نساء وصلن إلى درجات سامية من العلم والثقافة، ومن ضمنهن زوجات لسفراء أجانب، وربما يُعلَّلُ ذلك أنَّ النِّساء يتمتَّعن بتفكير شفاف، وإحساس بالخيال، يسيطرُ على العواطف، فيغلبُ الانفعال المتأثر بحيثيات الأوهام على حقائق الأمور، فلا يُعلَّلُ الأمرُ طبقاً للواقع والحقيقة، بل حسبما يرتسمُ في مجالات الظُّنون والحدوس، فالمرأة تتكلَّمُ على الأغلب بعواطفها لا بعقلها^(١).

* ويروى أنَّ الكهَّان كانوا يأتون بالخوارق من الأعمال، وادَّعى بعضهم

(١) انظر كتاب «الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي» (ص ٣٨٤ و ٣٨٥) د. زهدي الخواج.

أنَّه كان يعتمدُ على الجنِّ في استراقِ السَّمْعِ .

* وقيل : بل لهؤلاء النَّاسِ أرواحٌ شفافة تستطيعُ بوسائلٍ معينة أنْ تتخلَّصَ منَ الجسدِ لتسبحَ في عالمِ الأفلاك العلوية ، فتأتي بالمستور من الأمور لكشف سرقة ، أو كشف سرٍّ مخفي .

* ومما يُروى منْ أعمالِهِم الغريبةِ في هذا المجال : أنَّ هندَ بنتَ عتبة - رضي الله عنها - وهي أمّ معاوية بن أبي سفيان - رضي الله عنهما - كانت في الجاهلية عند الفاكه بن المغيرة المخزومي ، وكانت دارُهُ مثابةً يَغْشاها النَّاسُ ، وأقبل رجلٌ يَغْشى الدَّارَ ، وكانت هندُ نائمةً ، فلَمَّا أبصرها رجعَ هارباً ، فأبصره الفاكه ، فأقبل إليها فضربها برجله وقال :

مَنْ هذا الذي خرجَ مِنْ عندك ؟!

قالت : ما رأيتُ أحداً ولا انتبهتُ حتى أنْبهتني .

فقال لها : الحقِّي بأبيك .

* وتكلَّم النَّاسُ فيها ، وفشَّ خبرها ، فخرجَ بها أبوها إلى بعض كهَّانِ اليمن يستخبرُهُ عنْ أمرها ، وأخرجَ معها نسوةً من قومها ، وأقبل معهم الفاكه بن المغيرة في رجالٍ من قومه ، فلَمَّا شارفوا ديار الكاهن ، رأى عُتْبةً من ابنته انكساراً وتغيُّراً ، فقال لها : يا بُنية ، لا تكتميني منْ أمرِك شيئاً ، فإنْ كان ما بك لريبةٍ نرجعُ ولا بأس عليك . فقالت هند - وكانت امرأةً عاقلةً منجبةً ذات رأي وعقل وفصاحة وبلاغةٍ وأدب وعزَّة نفس - : لا واللهِ يا أبت ، ما ذاك لريبةٍ ولا فاحشةً ، ولكنَّكم تقدمون على بشرٍ يخطئُ ويصيبُ ، وأخشى أنْ يسمَّني بسمَةِ تبقى عليَّ وضمةٌ عارٍ إلى آخرِ الدَّهرِ !

قال : سألُوه لك .

* ثم إنَّ عتبةَ خبأَ خبيثاً ، وأقبلوا حتى أتوا الكاهن ، فأخبرهم بخبيثتهم ، ثم استنظروه في أمرِ النسوة ، فجعل يتصفَّحُهُنَّ واحدةً واحدةً ، ثم أقبل على

هند بنت عتبة فقال لها: انهضي غير رسحاء^(١)، ولا زانية، وتلدين ملكاً اسمه معاوية^(٢).

* وكان العرب يعتقدون بصحة نبوءة الكاهن، وأن ما قاله لا بدّ واقع، وعلى الرغم من إيمان العرب بالكهّان، ومقدرتهم على معرفة الأمور الغيبية، فإنّ بعضهم بحكمتهم، وإمعان تفكيرهم، استطاعوا أن يكتشفوا كذب المنجمين والمنجمات، وزيف الكهّان والكاهنات؛ ومنهم لبيد بن ربيعة الذي يقول مكذباً النسوة اللواتي يضربن بالرّمْل ويزجرن الطّير: لَعْمَرُكَ مَا تَدْرِي الضُّوَارِبُ بِالْحَصَى وَلَا زَاكِراتُ الطَّيْرِ مَا اللَّهُ صَانِعُ * وقال غيره مُكذِّباً الكهّان وغيرهم ممّن يتعاطون الرّجر، ويؤمنون بالفأل، وما شابه ذلك:

لَا يَعْلَمُ الْمَرْءُ لَيْلًا مَا يُصَبِّحُهُ إِلَّا كَوَاذِبٌ مِّمَّا يَخْبِرُ الْفَالُ وَالْفَالُ وَالرَّجْرُ وَالْكُهَّانُ كُلُّهُمْ مُضِلُّونَ وَدُونَ الْغَيْبِ أَقْفَالُ

* ولعلنا - عزيزي القارئ - قد أطلنا عليك هذه المقدمة قبل أن نتعرّف امرأة هذه الصّفحات التي تطلّ علينا من تاريخ نساء عصر الجاهلية، ولكن لنا عذرنا في ذلك، إذ الحديث ذو شجون، وفيه فائدة كبيرة بإذن الله، كيما تتوضّح بعض الصّور التي كانت غامضة في بعض الأذهان.

* أمّا ضيفه حلقتنا اليوم، فهي فاطمة بنت مرّ الخثعمية^(٣) إحدى النسوة

(١) «الرسحاء»: القبيحة.

(٢) انظر: بلوغ الأرب (٣/ ١٣١ و ١٣٢)، وأعلام النساء (٥/ ٢٤٠ و ٢٤١) مع الجمع والتصرف والاختصار؛ ولل قصة بقية ليست محل شاهد هنا، ومن أراد معرفتها فليرجع إلى المصادر المذكورة آنفاً.

(٣) الدرّ المنثور في طبقات رباب الخدور (ص ٣٦٢ و ٣٦٣)، وبلوغ الأرب (٣/ ٣٠٥ و ٣٠٦)، والكمال في التّاريخ لابن الأثير (٢/ ٨ - ١٠)، ونهاية الأرب (١٦/ ٥٨ - ٦٣)، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/ ٧٧٠) وشاعرات العرب (ص ٣٠٣ و ٣٠٤)، والبداية والنهاية (٢/ ٢٥٠ و ٢٥١)، والطبقات الكبرى لابن سعد (١/ ٩٥ و ٩٦)، ومجمع الأمثال للميداني (٢/ ٦٩ و ٧٠) منشورات مكتبة دار =

اللواتي اشتهرن بالكهانة والعرافة في العصر الجاهلي، وهي إحدى كواهن النساء الشهيرات بين العرب في الجاهلية.

* كانت فاطمة بنت مَرَّ شاعرةً من شواعر العرب، وكاهنةً من كاهناتهم الشهيرات، وكانت من أجمل النساء وأعفهنَّ، وكانت من الكواهن المشهود لهنَّ بالفِراسة، وقد اشتهر صيتها في عِلْم الكهانة.

* ومن الجدير بالذكر أنه قد اشتهر في ذلك العصر كاهنات أخريات في مناطق متفرقة من الجزيرة العربية ومنهن: طريفة بنت الخير الحجورية، وكانت من أشهر كاهنات العرب، بل من أشهر كهّان عصرها، وهي التي أنذرت عمرو بن عامر أحد الملوك بزوال ملكه، وأخبرته بخراب سدّ مارب، وإتيان سيلِ العرم، وذلك بمقتضى ما ظهر لها من الكهانة^(١).

ومنهن: زبراء الكاهنة، حيث كانت من الكهنة المذكورين عند العرب، وكلامها له وقع في نفوسهم، ولها في ذلك نواذر كثيرة^(٢).

ومنهن: سلمى الهمدانية الحميرية، وكانت بنت سيّد همدان، وكان قومها عن رأيها يصدرون، ويستشيرونها في جل أمورهم^(٣).

ومنهم عُفراء الكاهنة، وقد ذكر رواة أخبار العرب نواذر طريفة لعفراء الحميرية هذه^(٤).

صِفَاتُهَا وَفِرَاسَتُهَا:

* لم تحرم النساء الكهانة في العصر الجاهلي، وإنّما كان لهنّ في هذا

= الحياة ببيروت؛ والأعلام للزركلي في عدة طبعات، ترجمة فاطمة بنت مَرَّ.
(١) انظر ترجمتها في: بلوغ الأرب (٣/ ٢٨٣ - ٢٨٨)، وأعلام النساء (٢/ ٣٦٧ و ٣٦٨).
(٢) انظر ترجمتها في: أمالي القاضي (١/ ١٢٦)، وبلوغ الأرب (٣/ ٢٨٨ - ٢٩١)، وأعلام النساء (٢/ ١٦ و ١٧).
(٣) انظر ترجمتها في: أمالي القاضي (٢/ ١٢٢ و ١٢٣)، وبلوغ الأرب (٣/ ٢٩٥ و ٢٩٦).
(٤) انظر أخبارها في: بلوغ الأرب (٣/ ٢٩٦ - ٢٩٩) وانظر أسماء هؤلاء النسوة في المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٦/ ٧٧٠).

المضمار حصّة ونصيب، وكانت فاطمة ابنة مَرّ الخثعمية إحدى النسوة اللواتي رسمَ التَّاريخ جوانبَ من حياتهنَّ، وذكرَ بأنَّهنَّ كُنَّ قارئاتِ كاتباتِ شاعرات؛ فقد ذكر أهل الأخبار أنَّها قد قرأتِ الكُتُب^(١)، ودرستَ علائمَ النَّبي المنتظر الذي سيظهر قريباً.

* ففي كتابه «الطبقات الكبرى» ذكر ابنُ سَعْدٍ - رحمه الله - بأنَّ فاطمة بنتَ مَرّ الخثعمية كانت من أجْمَلِ النَّاسِ وأشَبَّهَ وأعفَّه، وكانت قد قرأتِ الكُتُب، وكان شابُّ قريش يتحدَّثون إليها، فرأتِ التَّبوةَ في وجهِ عبد الله بن عبد المطلب^(٢).

* ويبدو أنَّ فاطمة بنتَ مَرّ توقَّعت أن يكون للنور الذي رآته بوجهِ عبد الله بن عبد المطلب شأنٌ، فتفرَّست فيه، وتوقَّعت أنَّه سيخرجُ منه مولودٌ يكون له شأنٌ عظيم، فأحبَّت أن يكون ذلك المولودُ منها، ولذلك عرضت نفسها عليه.

* وكانَ مِنَ الطَّبيعي في بيئَةِ قريش ومكةَ وحرَمِها، أن يستشرفَ كثيراتُ مِنَ النسوة إلى عبدِ الله بن عبد المطلب كيما يكونَ لهنَّ، وينجبنَ منه، فهو أنهد شبابِ الحرم، وأشَبَّ ما يكونَ فتى من فتيان مكة، وأجْمَلِ رجالِ قريش وأنضرهم، وهو المختارُ لذلك الحادثِ الخطير، والقصةُ الشهيرة، قصّة نذر عبد المطلب، ومُحصلُها ومُلخَصُها: أنَّ عبدَ المطلب نذرَ نَحَرَ بعضِ ولده إن سَهَلَ اللهُ له حَفَرَ بئرٍ زمزم، فلما تمَّ له ما أرادَ أسَّهَمَ بينَ ولده، فخرج السَّهْمُ على عبد الله والدِ رسولِ الله ﷺ، وكان أصغرَ بنيهِ وأحبَّهم إليه، ففداه بمئةٍ من الإبل، فكان عبدُ الله هو الذَّبيحُ المفدَى.

* وكان ذلك الحدثُ الخطيرُ والغريبُ حديثَ قريش ومكة كلّها في محافلها وبيوتها، إلى جانبِ ما كان يتناقله المحدثون في مجالسِ السَّمر،

(١) انظر: الروض الأنف (١/١٠٤)، وبلوغ الأرب (٣/٣٠٥)، وأعلام النساء (١٤٢/٤).

(٢) طبقات ابن سعد (١/٩٥ و٩٦)، وانظر: البداية والنهاية (٢/٢٥٠ و٢٥١).

ومحافل الملأ من أنباء وبشارات، تلقفها التجار والسَّمَّار والمتألّهون من أفواه الأخبار، والرُّهبان، والكهنة، والكواهن، ومن قارئ كُتُب الأقدمين عن نبي يُبعث من العرب قد أظّل النَّاس زمانه؛ ومن أجدر بالنبوة من قريش، وهي من سُكَّان الحرم وجيران البيت المعظّم؟! ومن أحقّ بها في قريش من بني عبد المطلب وهم أصحاب مراتب الشرف الديني في الحرم؟ بل من أخرى بها بحمل نورها من هذا الفتى الذي كان الذبيح المفدى!!!

* إِنَّ النِّسَاء - بشكل عام في كلّ زمان ومكان - مُولَعَات بالغرائب والفرائد؛ فليس من المستغرب أن تعرّض امرأة؛ أو أكثر نفسها على عبد الله الذبيح، عقب فدائه بمئة من الإبل، ولكنّ الله - عزّ وجلّ - قد أدخر ما حمّل عبد الله من شرف نوراني، ونور قدسي، لأشرف عقائل قريش، وسيّدة نساء بني زُهرة آمنة بنت وهب^(١)، وهو الذي صانّه وحفّظه عن الاستجابة إلى من تعرض له منهم.

* ويبدو أنّ النسوة اللاتي عرضن أنفسهن على عبد الله كنّ كثيرات، ولكن اشتهر منهن فاطمة بنت مرّة الخثعمية، التي حفظت ذاكرة التاريخ فراستها في عبد الله بن عبد المطلب.

* وتروي المصادر المتنوعة قصّة فراستها هذه فتقول: أقبل عبدُ المطلب، ومعه ابنه عبد الله، يريد أن يزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب، ومرّ في طريقه على فاطمة بنت مرّة الخثعمية، وهي بمكة، فرأت فاطمة نور النبوة في وجه عبد الله بن عبد المطلب، وتفرّست فيه، وعادت إلى ما كانت قد قرأته من كُتُب، وما درسته من علائم النبي المنتظر، وعندها تقدّمت من عبد الله، وقالت له: مَنْ أنت يا فتى؟! قال: أنا عبدُ الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي.

* فتفرّست فيه فاطمة ثانية، ودعته إلى نكاحها، وقالت له: يابن

(١) اقرأ سيرة آمنة بنت وهب في هذه الموسوعة.

عبد المطلب هل لك أن تَقَعَ عليّ وأعطيك مئة من الإبل^(١)؟!

* فأجابها عبدُ الله بلسانِ العِفَّةِ والطَّهر، ووجهه^(٢) الجميل يقطرُ حياءً ويسيلُ بهاءً:

أَمَّا الْحَرَامُ فَاطْمَآتُ دُونَهُ وَالْحِلُّ لَا حِلٌّ فَاسْتَيْنَهُ
فَكَيْفَ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَبَغَيْنَهُ يَحْمِي الْكَرِيمَ عِرْضَهُ وَدَيْنَهُ^(٣)

* كانت فاطمة بنتُ مرٍّ تستمتعُ إلى رَجَزِ عبدِ الله بن عبد المطلب وهي مبهورةٌ به، معجبةٌ بعِفَّتِهِ، وقطعَ عليها ذهولها بقوله: يا هذه، أنا مع أبي، ولا أقدرُ أن أفارقه.

* ثم إنَّ عبدَ المطلب مضى بابنه، فزوَّجه أمنة بنتَ وهب الزُّهرية، فأقام عندها ثلاثاً، فاشتملتُ بالنَّبي ﷺ^(٤)، ثمَّ انصرف راجعاً، فمرَّ بفاطمة

(١) هناك بعض روايات تقول: إنَّ عدداً من النسوة اعترضنَ عبد الله وعرضنَ عليه العرض نفسه، وقد تكفَّلتِ المصادر المتنوعة بذكر أسمائهن وبعض أحوالهن وأخبارهن.

(٢) قال الزبير بن بكار - رحمه الله - يصفُ جمالَ وصباحة عبد الله بن عبد المطلب: وكان عبدُ الله أحسنَ رجل مرئي في قريش قط. (عيون الأثر ٧٥/١) طبعة دار ابن كثير المحققة.

(٣) انظر: السيرة الحلبية (٦٣/١)؛ في الحقيقة، في النَّفسِ شيءٌ من هذه الرواية، إذ تواتر أنَّ الحرائر قد عُرفنَ بالعِفَّةِ الممزوجة بالأنفة؛ بل إنَّ البيئةَ العربيةَ وخصوصاً في مكة لم تكنْ تسمَعُ بعرضٍ كهذا العرض من فاطمة بنت مرٍّ التي طلبتُ من عبد الله بن عبد المطلب ما طلبتُ، فأجابها أنه بعيدٌ عن الحرام، كما في البيتين السابقين، وإنَّ كانَ بعضُ المشتغلين بالسَّيرة قد فسَّرَ عرض فاطمة الخثعمية لنفسها على عبد الله بأنه عرضٌ وراءه الزَّواج بها، ولكنَّ إجابة عبد الله لا تلتقي مع قَصْدِ الزَّواج منها بالحلال. وأودَّ أن أُشيرَ إلى أنَّه قد وردتُ في البيتين تعبيراتٌ ومعانٍ إسلامية، وهذا يدلُّ على أنَّهما مصنوعان بُعيدَ عَصْرِ النَّبوة، ولعلَّ القصةَ كلّها أو جلّها من وضع صُنَّاع الكلام والأخبار، إذ كان أصحاب السَّير جميعهم يوردونها بـ «يزعمون»، ناهيك بأنَّ القصةَ من غير سَنَد. والله أعلم بحقيقة الصَّواب.

(٤) إنَّ الله تعالى قد صانَ عبد الله بن عبد المطلب عن إجابة المرأة الخثعمية إلى ما أرادت، وأدخِر هذا الشَّرَفَ فوضعه حيث أراد، قال ابنُ كثير - رحمه الله -: وهذه

الخشعية، فدعته نفسه إلى الإبل، فأتاها وقال لها: هل لك فيما كنت أردت؟!

* فقالت - ولم يرَ فيها حرصاً -: قد كانَ ذلكَ مرّةً فاليوم فلا . فأرسلتها مثلاً يُضربُ في التَّدَمُّمِ والإنابةِ بعد الاحترام . ثم إنها قالت له : يا فتى ، إنني والله ما أنا بصاحبةِ ريبة ، ولا حاجة لي فيك ، فأَيُّ شيءٍ صَنَعْتَ بعدي ؟

فقال عبدُ الله : زَوَّجَنِي أَبِي آمَنَةُ بنتَ وهب الزُّهرية ، فأقمتُ عندها ثلاثاً .

فقالت فاطمةُ ومرارةُ الحسرةِ تملأُ جوانحها : يا هذا ! إنك مررتَ وبين عينيك نورٌ ساطعٌ إلى السَّماءِ ، ورأيتُ في وجهك نورَ التَّبَوُّةِ ، فأردتُ أن يكونَ ذلكَ فيَّ ، وأبى الله تعالى إلا أن يجعله حيثُ أرادَ ، ولما وقعتَ عليها ذهبَ ذلكَ النُّورُ ، فأخبرها أنها حَمَلَتْ خَيْرَ أَهْلِ الأَرْضِ ^(١) .

تَحْشُرُ فَاطِمَةُ بِنْتَ مَرْ :

* بعد أن رحَلَ عبدُ الله بن عبد المطلب عن فاطمة بنت مَرْ ، غبِطَتْ آمَنَةُ بنت وهب التي حظيتُ بأجملِ شَبَابِ قريش ، بل ظفرتُ بخيرٍ ما سبقها إليه أحد من النساء ، لذلك أنشأتُ فاطمةُ تقول :

إِنِّي رَأَيْتُ مَخِيلَةً لَمَعَتْ فَتَلَأَلَتْ بِحَنَاتِمِ الْقَطْرِ
فَلَمَائِهَا نُورٌ يَضِيءُ بِهِ مَا حَوْلَهُ كإِضَاءَةِ الْبَدْرِ

= الصَّيَانَةُ لعبد الله ليست له ، وإنما هي لرسول الله ﷺ ، فإنه كما قال الله تعالى : ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

(١) انظر : طبقات ابن سعد (٩٧/١) ، وبلوغ الأرب (٣٠٥/٣) ، وأعلام النساء (١٤٢/٤) ، والخصائص الكبرى للسيوطي (٤٠/١) مع الجمع والتصرّف بينها . وذكر النويري - رحمه الله - أن فاطمة بنت مَرْ قالت لعبد الله مررتَ وبين عينيك غرةٌ مثل غرةِ الفرس ، ورجعتَ وليس هي في وجهك (نهاية الأرب ٥٩/١٦) .

وأخرج البيهقي ، وأبو نُعيم عن ابن شهاب قال : كان عبدُ الله أحسن رجلٍ رُؤي قط ، خرج يوماً على نساءِ قريش ، فقالت امرأةٌ منهن : أيتكن تتزوَّج بهذا الفتى ، فتأخذ النور الذي بين عينيه ، فإني أرى نوراً؟! فتزوَّجته آمَنَةُ بنتُ وهب ، فحملتُ برسولِ الله ﷺ . (الخصائص الكبرى ٤١/١ و ٤٢) .

وَرَأَيْتُ سُقْيَاهَا حَيَا بَلَدٍ وَقَعْتُ بِهِ وَعِمَارَةَ الْقَفْرِ
وَرَأَيْتُهُ شَرْفًا أَبْوًى بِهِ مَا كُلَّ قَادِحِ زَنْدِهِ يُؤْورِي
لِلَّهِ مَا زُهْرِيَّةً سَلَبْتُ مِنْكَ الَّذِي اسْتَلَبْتُ وَمَا تَدْرِي^(١)

وقالت بعد أن تزوج عبدُ الله آمنه، وغادره ذلك الثور الذي كان بوجهه:

بني هاشمٍ قَدْ غَادَرْتُ مِنْ أَخِيكُمْ
أَمِينُهُ إِذْ لِلْبَإِهِ يَعْتَلِجَانِ
كَمَا غَادَرَ الْمِصْبَاحَ بَعْدَ خُبُوهِ
فَتَائِلٌ قَدْ مِثَّتْ لَهُ بَدَهَانِ^(٢)
فَمَا كُلُّ مَا نَالَ الْفَتَى مِنْ نَصِيهِ
بِحَزْمٍ وَلَا مَا فَاتَهُ بِتَوَانٍ
فَأَجْمَلُ إِذَا طَالَبْتَ أَمْرًا فَإِنَّهُ
سَيَكْفِيكَهُ جَدَانُ يَصْطَرَعَانِ
سَيَكْفِيكَهُ إِمَّا يَدٌ مُقْفَعَلَةٌ
وَأَمَّا يَدٌ مَبْسُوطَةٌ بَيْنَانِ^(٣)

(١) انظر: الدر المنثور (ص ٣٦٣)، وأعلام النساء (٤/١٤٣)، وشاعرات العرب (ص ٣٠٣ و ٣٠٤) وغيرها من مصادر.

«المخيلة»: السحابة التي هي مظنة المطر، و«الحناتم»: سحائب سود لأن السواد عندهم خضرة، والحنتم: الجزة الخضراء، وشجرة الحنظل، ومفرد حناتم: حنتمة بدون لام، وحنتمة أم عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - وهي بنت ذي الرمحين، وليست بأخت أبي جهل، كما وهم كثير ممن كتب في السيرة، بل هي بنت عم أبي جهل. و«زهريّة» منسوبة إلى زهرة حي من قريش والمقصود بها آمنة أم الرسول ﷺ.

(٢) «ميثت»: المرس والإذابة، والميثاء: الأرض السهلة، وتميشت الأرض: مُطِرَتْ فلانت.

(٣) «مقفعة»: اقفعلت يده اقفعلالاً: تشنّجت وتقبّضت.

ولَمَّا قَضَتْ مِنْهُ أَمِينَةً مَا قَضَتْ

نَبَا بَصْرِي عَنْهُ وَكَلَّ لِسَانِي^(١)

* وهكذا فات فاطمة بنت مَرَّ الخثعمية ما تَمَنَّتْهُ، فقد شاء الله - عزَّ وجلَّ - أن تكون أَمَنَةً بنتُ وهب الزَّهرية هي المرأة القرشية التي تحظى بهذا الشَّرَفِ العظيم، والخير العميم، وتكون أمَّ الحبيب المصطفى ﷺ و﴿اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

* ويطوي التَّاريخُ صفحةَ فاطمة بنت مَرَّ الخثعمية، وتطوى معها كهانتها، وأحلامها، وحسراتها، ولا يُحدِّثنا الأخباريون عن نهايتها، أو وفاتها، أو بقية حياتها^(٢)، إلا أنَّ تاريخها قد احتفظَ لنا بأشعارها وكلمتها

(١) انظر: بلوغ الأرب (٣/٣٠٥)، والخصائص الكبرى (١/٤١)، وشاعرات العرب (ص٣٠٤)، والدر المنثور (ص٣٦٣)، وأعلام النساء (٤/١٤٣)، وقد روى الأبيات الطبري في «تاريخه»، والشَّهيلي في «الروض الأنف»، بروايات وكلمات متقاربة، وبينها زيادة أو نقصان فآلفنا بينها، حتى لقد وَرَدَ البيت الأخير في بعض المصادر على التَّحو التالي:

ولما حوَتْ مِنْهُ أَمِينَةً مَا حَوَتْ حَوْتُ مِنْهُ فَخِرًا مَا لَدُنْكَ ثَانِ
هَذَا وَيُسْتَمُّ مِنْ هَذِهِ الْأَبْيَاتِ رَائِحَةُ الْوَضْعِ، فَكَأَنَّهَا قَدْ صِيغَتْ عَلَى لِسَانِ فَاطِمَةَ
الْخَثْعَمِيَّةِ، لِتَوَافَقَ الْحَدِيثُ وَالْأَحْدَاثُ وَالْمَوَاقِفُ؛ فَفِي هَذِهِ الْأَبْيَاتِ تَوْضِيحٌ لِدَوَافِعِ
الرَّغْبَةِ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَهُوَ شَابٌ بَاهِرُ الطَّلَعِ، جَمِيلُ الْمَحْيَا، شَبَّ
عَنِ الطُّوقِ، طَوِيلُ النِّجَادِ، لَا يُرَى فِي قَرِيشٍ فَتَى أَوْسَمَ مِنْهُ، وَلَا أَحْلَى مِنْهُ مَنْظَرًا
وَقَدًّا، بَلْ وَلَا أَمْلَحَ مِنْهُ وَجْهًا، نَاهِيكَ بِأَنَّهُ أَرْفَعُ قَرِيشٍ حَسْبًا، وَأَعْرَقَهُمْ نَسَبًا،
وَأَزْكَاهُمْ أَبَا، وَأَكْرَمَهُمْ مُحْتَدًّا.

أمَّا حديث الثَّور الذي رَأَتْهُ فَاطِمَةُ وَغَيْرُهَا مِنَ النِّسْوَةِ الْمُعْتَرِضَاتِ لَهُ، فَقَدْ يَكُونُ
رِوَاءُ الشَّبَابِ، وَإِشْرَاقُ الْجَمَالِ، وَلَيْسَ بِعَجِيبٍ أَنْ يَكُونَ عَبْدُ اللَّهِ وَالِدُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
قَدْ تَمَيَّزَ بِجَمَالٍ فَوْقَ جَمَالِ أَتْرَابِهِ، وَحَسَنَ وَحْيِيَّةٍ لَمْ تُوجَدْ بِأَقْرَانِهِ، وَذَلِكَ لِمَا
يَحْمِلُ مِنْ بَذَرَةِ النَّبَوَّةِ الَّتِي اسْتَنَارَتْ عَلَى وَجْهِهِ حَسَنًا وَجَمَالًا حَسَبَهُ الرَّأُوْنُ غَرَّةً فِي
وَجْهِهِ تَسْطَعُ، أَوْ نُورًا فِي جَبِينِهِ يَلْمَعُ.

(٢) قالت زينب يوسف فواز في نهاية ترجمتها لفاطمة بنت مر هذه ما نصّه :

وبقيت فاطمة في حالها، حتى وُلِدَ النَّبِيُّ ﷺ، وتربَّى، وكبر، ونزل عليه الوحي، =

مثلاً على مرور الأيام والأعوام .

وعلى الرغم من ذلك كله ، تبقى فاطمة بنت مَر الخثعمية واحدةً من نساءِ التاريخ اللواتي أطلَّت على الدُّنيا بمعارفها التي وصلت إلينا ، والتي دلَّت على مكانتها في عالم النساء ، وفي نساءِ التاريخ .



= ووفدت عليه ، وأسلمت على يديه ، وماتت في مدته رحمها الله . انظر (الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ص ٣٦٣) .

أقول : وقد كلّفني هذا القولُ عناءً ، ومشقةً ، وتعباً ، فقد عدتُ إلى كثيرٍ من كتب التّراجم من مثل : الطّبقات الكبرى لابن سعد ، والاستيعاب لابن عبد البر ، وأسد الغابة لابن الأثير ، والإصابة لابن حجر ، وغيرها من كتب السّيرة والتّاريخ ، فلم أجد - فيما قرأت - أن أحداً ذكر بأنَّ فاطمة الخثعمية هذه قد أدركت النبي ﷺ ، أو أنها أسلمت على يده ، لذلك أحببت التّنويه إلى ذلك ، والله تعالى أعلم بحقيقة الصواب ، فهو العليم الخبير ، وهو علام الغيوب .

٢٠

فاطمة الشريفة

بَيْنَ أَنْفَاسِ الذَّكْرِ:

* في بيتٍ يُذكرُ فيه اسمُ اللهِ كثيراً، ويُسبَّحُ له فيه بالغدوِّ والآصال، ولدتُ ضيفَةً حلقتنا اليوم، هذه المرأةُ التي عاشتْ طوال القرنِ الرابعِ عشرِ الهجري، وتوفيتْ منذ سنوات.

* وقبل أن ندليَ دلونا في سيرةِ هذه الفاضلة - التي تُعتبر من كنوزِ المعرفة والتصوِّف في عصرنا الحالي - لا بدَّ أن نلقي الأضواء على حياةِ والدها الذي يُعدُّ شيخَ الطَّريقةِ الشاذليَّة في عصره.

* فوالدها هو الشيخُ علي نور الدين بن محمَّد بن يشرط، الحسني أباً، الحسيني أمّاً، الشاذلي، التُّونسي، المغربي، المشهور بلقبه علي الشرطي المولود سنة (١٢٠٨ هـ) في مدينة بنزرت من أعمالِ تونس الغرب.

* نشأ منذ صغره وهو يتردَّدُ على دروسِ العُلَماء والأفاضل، حتى غدا أحد الأعلام في الفقه، وأحد المبرِّزين في علوم اللغة العربيَّة، واشتغل بالتدريس في علمِ الأصول والمنطق واللغة العربيَّة في جامع الزيتونة بتونس، وجامع الزيتونة عصر ذاك كجامع الأزهر في القاهرة بمصر.

* وبعد أن بلغ الشيخُ علي الشرطي أشدَّه واستوى، قامَ بسياحةٍ كبرى داعياً^(١) إلى الله، وجاورَ في المدينة أربعة أعوام، وحجَّ أربعَ مرَّات، ثم رحلَ إلى مصرَ، ثم قصدَ زيارة بيت المقدس في فلسطين، على أمل أن يعودَ إلى تونس بعد تلك السيَّاحة والزيارة، ولكنَّ المقادير الإلهيَّة ألقَتْ به في مدينة عكا بفلسطين، وكان دخوله عكاً في سنة (١٢٦٦ هـ)، وكان عمره إذ ذاك (٥٨ سنة).

* وانتقل الشيخُ علي الشرطي إلى الرِّفيقِ الأعلى في ١٦ رمضان سنة

(١) وصفته ابنته - ضيفة حلقتنا - بقولها: كان مطواعاً لأوامر الحق، مجتنباً لنواهيه، أميناً في إقامة شعائر الدين الحنيف، وإحياء سُنَّة الرسول العظيم، عليه أفضل الصَّلَاة والتَّسليم.

(١٣١٦ هـ) بعد أن عاش مئة وثمانية أعوام هجرية ، وكانت وفاته في الزاوية الشاذلية في مدينة عكا بفلسطين .

* وأما ابنته ضيفة حلقتنا اليوم فقد شاء الله أن يكون مولدها عند بلوغ والدها تمام المئة ، حيث كان ميلادها في أوائل سنة (١٣٠٨ هـ) .

* والآن فقد حان اللقاء مع هذه التي ملأت الدنيا وشغلت الناس ؛ إنها فاطمة بنت علي الشرطية الشاذلية الحسينية الحسينية التونسية الأصل العكاوية المولد .

* فهل تعرفون هذه المرأة الصوفية؟ وهل سمعتم بهذه التي غرّدت في سماء التصوف أكثر من ثلاثة أرباع قرن من الزمان؟!

* ولدت فاطمة الشرطية في عكا في الزاوية الشاذلية الشرطية ، وروت فاطمة قصة مراحل ولادتها والظروف التي أحاطت بها آنذاك فقالت : ولدت عندما كان والدي ابن مئة عام ، وقد عمّت الفرحة بيتنا والزاوية ، فلم يعش لوالدي أولاد كثيرون ، وقد ولدت أمي - أنيسة الشرطية - ثلاثة أولاد : وهم : شقيقي محمد جلول الذي توفي وهو طفلاً ، وأنا ، وشقيقتي السيّدة مريم .

* ولتسمية فاطمة بهذا الاسم سبب طريف ، ترويه لنا فاطمة نفسها فتقول : كان والدي يحترم أهل الله ، وكان في زاويتنا عابدة معتقد بصلاحها ، فلما وضعتني أمي ، ذهب والدي إلى تلك العابدة وسألها قائلاً : أريد منك اسماً مباركاً لطفلي التي رزقت بها أخيراً .

* فقالت له العابدة : وهل يوجد أشرف من اسم جدتك سيدتنا فاطمة الزهراء - رضي الله عنها - ابنة رسول الله ﷺ؟! وهكذا شرفت بهذا الاسم الكريم^(١) .

مِنْ طَالِبَاتِ الْمَعْرِفَةِ وَالتَّصَوُّفِ :

* فتحت فاطمة الشرطية عينها في عكا على بيت كان ملتقى أهل العلم

(١) مسيرتي في طريق الحق لفاطمة الشرطية (ص ٢٤٢) .

والفكر والمعرفة والتَّصَوُّف والأدب، ومنذ أن ترعرعت وجدت نفسها تعيش مع هؤلاء الأعلام من العلماء في حلقات الدَّرس والمذاكرة، وفي مجالس أهل العِلْم والمعرفة، وراح أبوها يسعى لتوجيهها إلى ناحية العِلْم والتَّصَوُّف، وإلى الثَّقافة الإسلامية والدينية.

* وكان الشيخ علي الشرطي يتكلَّم في مجلسه في جلسات يحضرها العلماء والفضلاء، وكانت ابنته فاطمة تجلس بين يديه معهم كيما تتلقَى العِلْم والمعرفة، وعمرها إذ ذاك لا يتجاوز الرابعة، وكانت الأنثى الوحيدة والطفلة المُعْتَنَى بها مع أولئك الكبار.

* ولقد مَنَّ الله على الطفلة فاطمة بذكاء وفهم، فكانت تتلقَى علوم القرآن الكريم وحفظه على يد امرأة من حَفَظَةِ القرآن كانت تؤمُّ بيت والدها وتُدعى: «عائشة محمد شاهين»، وكان الشيخ علي الشرطي يزود ابنته الصَّغيرة بشتى ألوان المعارف التي تتناسب مع سنِّها.

* واستطاعت فاطمة أن تحفظ أجزاء كثيرة من القرآن الكريم وهي في سنِّ الطفولة، وكانت تظهر عليها علامات الجدِّ والنشاط والاجتهاد، ويبدو أنَّه كان لوالدها كبير الأثر في توجيهها نحو العِلْم حيث غدت تقتفي آثاره في أقوالها وفي أفعالها^(١).

* هكذا كانت تربية فاطمة الشرطية تربية صوفية، وتهذيبها تهذيباً روحياً، وتعليمها تعليماً شرعياً، فمنذ أن كانت في الخامسة من عمرها، كانت من المحافظات على أداء الصَّلوات الخمس، وتلاوة الأوراد والأدعية بتوجيه من والدها الشيخ علي نور الدين الشرطي.

* وبالإضافة إلى تلك التربية الفريدة، كان الشيخ علي يعود ابنته فاطمة

(١) تحدّثت فاطمة الشرطية عن ذلك فقالت: وكان والدي يقدمني وأنا طفلة إلى أكابر إخواننا العلماء والفقهاء والعارفين بالله، ليجعل بينهم وبينني مودة ورحمة وأخوة في جانب الله، وليغرس في قلوبهم المحبة والعطف والاحترام لي!! (مسيرتي في طريق الحق ص ٢٤٦).

منذ نعومة أظفارها على مكارم الأخلاق وفعل الخيرات، والعمل الصالح، والشكر لله بالبذل والعطاء والتضحية، فكانت تنفق على الأطفال وتعطيهم بعض الأشياء التي تدخل السرور إلى نفوسهم، وأبوها مسرور بتصرفاتها، وكثيراً ما كانت تُعطي أترابها - من بيت والدها - الطعام والخبز بتشجيع منه، وذلك ليغرس في قلبها حب الخير، ومساعدة المحتاجين، فإنَّ فعل الخيرات كنز عظيم، وفضل جسيم.

حَيَاتُهَا بَعْدَ وَالدِّهَا :

* عاشت فاطمة الشيرطية ثمانية أعوام كواحد في كنف أبيها الشيخ علي الشيرطي، تتلقى عنه المعرفة والعلم، وتقتبس كثيراً من أخلاقه.

* وعندما بلغ الشيخ علي الشيرطي مئة وثمانية أعوام، كان يؤدي الفرائض جميعها، ويقوم شطراً من الليل، ثم يأوي إلى فراشه يذكر الله، وظلَّ هذا شأنه إلى أن كان يوم الأربعاء في السادس عشر من شهر رمضان من سنة (١٣١٦ هـ)^(١)، حيث أَدَّى الشيخ علي واجباته وفروضه، ثم أوى إلى فراشه، وفي تلك الليلة صعدت روحه إلى بارئها قبيل الفجر.

* ولما تنفَّس صبحُ ذلك اليوم، استفاقت مدينة عكا على نبأ وفاة الشيخ علي الشيرطي، فغدا النَّاس يأتون منزله زرافاتٍ ووحداناً وهم يبكون، بينما راحت الطفلة فاطمة تبكي والدها، وهي لا تملك إلا الدُّموع.

* وشيَّع جثمانُ الشيخ علي في موكبٍ حافلٍ بأكابر العلماء والعارفين من عكا، ومن البلاد المجاورة، ودُفِنَ في عكا في مكانٍ معروف، أمَّا فاطمة ابنة الشيخ علي، فقد شعرت بالفراغ الكبير الذي يُسوِّر دارَ أبيها الرَّاحل، وأحسَّتْ بأنَّها قد فقدت العطفَ الأبوي والرَّحمةَ والحنانَ، وظلت هي وشقيقتها مريم - التي تصغرها بسنتين - يتيمتين بلا حول ولا قوة، إلا أنَّ الله - عزَّ وجلَّ - قد هَيَّا لهما حنان والدتها التي عطفَ عليهما عطفاً شديداً صاحبَهُما طيلة حياتهما.

(١) رحلة إلى الحق لفاطمة الشيرطية (ص ٣٢١).

* وعلى الرغم من أنَّ عُمَرَ فاطمة الشرطيّة لم يتجاوزَ ثمانية أعوام عندما انتقل والدها إلى جوارِ ربّه؛ إلا أنَّها قد تأثّرت بتوجيهاته التي حدّدت مسلكَ حياتها، ممّا جعلها تستسلم للعزيرِ الحميدِ استسلامَ المؤمنينِ الحامدينِ.

وتروي فاطمةُ نفسها قصّةَ فيها بعضُ الغرابة والطَّرَافَةِ عَمَّا اعترأها بُعِيدَ وفاةِ والدها فتقول: أَذْكَرُ أَنَّنِي فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ لَوفاةِ والدي، أَصِبتُ بمرضٍ ألْزمني الفراشَ، وذلك من شدةِ الحزن والألم، فأمسكتُ بالقرآنِ الكريمِ، وأخذتُ أقرأ سورةَ الكهفِ، فمررتُ بِالآيَةِ الْكَرِيمَةِ الَّتِي تَقُولُ: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَرْهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [الكهف: ٨٢]، فشعرتُ بهذهِ الآيَةِ الْكَرِيمَةِ تَبَعْتُ السَّكِينَةَ فِي نَفْسِي، وَالرَّاحَةَ إِلَى عَقْلِي، وَالطَّمَأْنِينَةَ إِلَى قَلْبِي الْجَرِيحِ، وَقَدْ تَحَقَّقْتُ عِنْدُكَ أَنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَنْ يَتْرَكَنِي، وَأَنَّ رَعَايَةَ وَالدي لِي مِنْذُ أَنْ وُجِدْتُ فِي هَذَا الْعَالَمِ لَهِيَ الدَّلِيلُ السَّاطِعُ عَلَى أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - آخِذٌ بِيَدِي، وَسَوْفَ يَسُدُّ خَطَايَ، وَيَنْبِرُ قَلْبِي، فِي دِينِي وَدُنْيَايَ^(١).

أَثَرُ وَالدَّتِيهَا فِي حَيَاتِهَا الْعِلْمِيَّةِ:

* لم تستسلم فاطمةُ الشرطية للظُّروفِ الَّتِي مَرَّتْ بِهَا، وَلَمْ تَرْكَنْ إِلَى الْفَرَاغِ، وَإِنَّمَا دَامَتْ صِلَتُهَا بِأَهْلِ الْعِلْمِ الَّذِينَ ظَلُّوا عَلَى صِلَةِ بَيْتِ وَالدَّهَا، وَالسُّؤَالِ عَنْ حَالِهَا، وَيَبْدُو أَنَّ وَالدَةَ فَاطِمَةَ كَانَتْ عَلَى قَدْرِ كَبِيرٍ مِنَ الْمَعْرِفَةِ، فَقَدْ كَانَتْ تَدْفَعُ ابْنَتِيهَا فَاطِمَةَ وَمَرِيَمَ إِلَى تَنْمِيَةِ رُوحِ الْعِلْمِ وَالتَّصَوُّفِ فِي شَخْصِيَّتِهِمَا.

* وَمِمَّا سَاعَدَ فَاطِمَةَ عَلَى الْمُضِيِّ فِي تَحْقِيقِ رَغْبَةِ وَالدَّتِيهَا، وَالْوَصُولِ إِلَى سِدَّةِ الْمَعْرِفَةِ وَالْعِلْمِ وَالتَّصَوُّفِ، أَنَّهُ كَانَ فِي بَيْتِ وَالدَّهَا مَكْتَبَةٌ كَبِيرَةٌ تَحْتَوِي نَفَائِسَ الْكُتُبِ الْقِيَمَةِ مِنْ مَطْبُوعٍ وَمَخْطُوطٍ؛ فَراحتُ فَاطِمَةُ تَقْرَأُ بِشَغَفٍ شَدِيدٍ تِلْكَ الْكُتُبَ؛ كَيْمَا تَحْصِلَ عَلَى مَا فَاتَهَا مِنَ الْعِلْمِ الَّذِي فَقَدَتْهُ بِمَوْتِ أَبِيهَا.

(١) مسيرتي في طريق الحق (ص ٢٦٢).

* ويبدو من أخبارِ فاطمة الشرطية أنَّ المرضَ^(١) قد صاحبها طيلة فترة طفولتها، فكانت والدتها تسهر على تريضها الليالي العديدة، وكثيراً ما كانت تعالجها وتسعفها في ساعات متأخرة من الليل.

* ولما بلغت فاطمة سنَّ الشَّباب تماثلت إلى الشِّفاء، وأخذت تستعيد قواها الجسدية، وكانت قد قرأت كثيراً من كُتب التفسير، والحديث الشريف، والتَّاريخ، والأدب، والشعر، وبعض الكُتب المترجمة إلى اللغة العربية من صُنف المعارف الأجنبية المختلفة، ثم تعمقت بقراءة الفقه الشافعي، بعد أن تعلّمت أصول النحو والصرف على يدي أحد الفضلاء في عكا.

رحلاتها ومعارفها:

* عندما أخذت فاطمة الشرطية تستعيد قواها، وتستردّ صحتها، وعندما أخذت الأمراضُ تفارقها بعد زيارة طويلة، هنالك اشتدَّ عودُها، وبدأت تعدّ برنامجاً جديداً لحياتها في أحضان الصحة والعافية، فقد أشار عليها الأطباء والمتخصصون أن تنتقل في البلدان المختلفة، والبعد عن صحب المدينة؛ وذلك لكي تحافظ على صحتها، وتبعد عنها شبح المرض الذي لازمها مدة طويلة.

* ووجدت فاطمة في نفسها استعداداً لما يقوله الأطباء، واطمأن قلبها إلى ذلك، فلا شك بأنّ في هذه الرحلات فوائد عظيمة، ومنها ازدياد المعرفة والعلم، لذلك أعدت العدة، وأخذت تقوم برحلات متعددة في فصلي الربيع والصيف، وتقصد جبال فلسطين ولبنان ودمشق وغيرها، وأينما حلّت كانت تُقابل بالترحاب من أصدقاء والدها الذين انتشروا في البلاد المجاورة.

* تحكي فاطمة أنّها كانت في شهور الربيع تذهب كثيراً إلى مدينة يافا في فلسطين، أو تذهب إلى صيدا في لبنان لوجود صديقات عزيزات عليها.

(١) كانت فاطمة الشرطية مصابة بمرض الربو لمدة عشر أعوام كوامل في بداية حياتها.

وكانت تتمتع في صيدا نظراً لطقسها الجميل في أيام الربيع، وطبيعتها الخلابة الساحرة الآسرة، ولانتشار عبير زهر شجرها الذي يعبق في الفضاء الرّحب مع التّسيم اللطيف الذي يداعب الأحاسيس، وكلّ ذلك يبعث الرّاحة والبهجة في النفوس.

* وتصف فاطمة الشرطة رحلاتها وقتذاك، وتذكر وسائل التّقلّ وحالة المسافرين فتقول: أذكر أنّنا حينما كنّا نسافر من عكا إلى صيدا أو بيروت أو مصايف جبّل لبنان - حتى دمشق وباقي المدن السّورية - لم نكن نحمل جوازات سفر، ولم تكن تُوجد في الطّرق مراكز جمرك أو أية قيود أخرى، فالبلاد كلّها كانت بلداً واحدة، على أنّ المسافر لم يكن يجد السّفر سهلاً ميسوراً - كما هو في العصر الحالي - فقد كنا نركب الباخرة التي كانت تشقّ عباب البحر لمدة يوم كامل من حيفا إلى بيروت، وكذلك كان سفرنا في القطار من حيفا إلى دمشق يستغرق يوماً كاملاً، وكنا نذهب في العربة التي تجرّها الجياد من بيروت إلى صيدا في سبع ساعات كاملة، كما كنّا في بعض الأحيان نصعد من بيروت إلى مصيف «عاليه» في عربة تجرّها الجياد، وأيضاً لمدة أربع ساعات كاملة^(١).

* وتصف فاطمة أيضاً ما كانت تلاقيه من ترحاب في البلاد التي تزورها فتقول: وقد كانت لي في بيروت وصيدا وطرابلس، وبعض قرى جبّل لبنان والبقاع عائلات كثيرة من مريدي والدي الشّيخ علي الشرطة، ولهذا كنّا نقضي أشهر الصّيف في لبنان، يغمرنا الأنس والصّفاء بوجود هؤلاء المريدين المخلصين، دون أن نشعر بالوحدة أو الوحشة، لأنّنا كنّا نعيش هناك كما لو كنّا في الزّاوية في مدينة عكا، فقد كان هؤلاء المريدون يستقبلوننا في بيوتهم بكلّ ترحيب وفرح!!^(٢)

* ومن الواضح أنّ فاطمة الشرطة كانت تزيد من رصيدها في عالم

(١) مسيرتي في طريق الحق (ص ٢٧٦ و ٢٧٧).

(٢) المصدر السابق.

الصَّدَاقَاتِ، وتضيفُ إلى معارفها بعضَ الشَّخصياتِ المشهورة في العِلْمِ والأدبِ والطِّبِّ وغيرِ ذلك من خلال رحلاتها العديدة المتنوّعة.

فاطمةُ في دِمَشقَ :

* خلال الحربِ العالميّة الأولى اضطربت الأوضاعُ فقدمتُ فاطمةُ في صحبةِ والدتها وشقيقتها مريم دِمَشقَ، ونزلوا على الشَّيخ محمود أبي الشَّاماتِ؛ ثمَّ بعد مدّة استأجَرَ لَهُنَّ بيتاً في شارع «السَّنْجِقْدَار» وسَطَ دِمَشقَ، وكان البيتُ من أجملِ دُور دِمَشقَ، يملكه أحدُ أعيانها من عائلة «اليُوسف»، ثمَّ انتقلت فاطمةُ ومَن معها إلى بيتٍ آخر في طريق الصَّالحيّة.

* وقد أنصفتُ فاطمةُ الشرطيّة أهلَ دِمَشقَ إذ قالت عنهم: إنَّ أهلَ دِمَشقَ على جانبٍ عظيمٍ من اللطف والإيناس والعاداتِ العربيّة الأصيلّة، والغريبُ يعيشُ بينهم على الرَّحْبِ والسَّعة والإكرام، وكأنَّه واحدٌ منهم، لا يشعر أنَّه بعيدٌ عن أهلِهِ وعشيرته، في أثناء إقامته بينهم في دِمَشقَ، فهم وأهل مدينة عكا سواء في محبة الغرباء.

* وفي دِمَشقَ وجدتُ فاطمةُ الشرطيّة في صديقاتها الدِمَشقيّات ذلك الودَّ والإخلاص الذي يفوقُ حدَّ الوصفِ، إذ كُنَّ بمنزلة أخواتٍ لها، فكُنَّ يبادلنَّها الأحاديثَ والمعارفَ والعلومَ والمتنوّعة، وكانت هي تحدثهنَّ عن موطنها عكا، وعن كراماتِ والدها الشَّيخ علي الشرطي!!!!

رحلتُها إلى مِصرَ :

* بعد انتهاء الحربِ العالميّة الأولى بولاياتها ومآسيها، وبعد أن اطمأنَّ النَّاسُ إلى عودة الحياة الطَّبيعيّة إلى المنطقة، رجعت فاطمةُ وأمُّها وأختها ومَن معهنَّ إلى مدينة عكا، ثمَّ كانت فاطمة تذهبُ بين حينٍ وآخر إلى دِمَشقَ أو لبنان بقصدِ الزيارة أو النَّزهة، ثمَّ تعودُ إلى عكا، وكثيراً ما كانت تسافرُ إلى مِصرَ، وتقيمُ في القاهرة في فصلِ الشَّتاء، وهناك في القاهرة استفادتُ في مجالِ الدِّين والفقه والعِلْم والأدبِ والمعرفة، وكانت رحلتُها الأولى إلى القاهرة بعد انتهاء الحربِ العالميّة الأولى بستَين أي عام (١٩٢٠ م)،

وسافرت من فلسطين إلى مصرَ بالقطارِ .

* وفي القاهرة كانت تجتمعُ مع رجالاتِ العلمِ والفقه والأدب، وكانت هوايتها المفضّلة هنالك المطالعة والبحث في الكتبِ القديمة، والحديثة، وكُتِبَ المعارفِ المتنوّعة المترجمة من شتى اللغاتِ، ثمّ توسّعتْ آفاقُها في مطالعةِ المجالاتِ العلميّة، والأدبيّة التي كانت نشطةً عَصَرَ ذاك .

* وتشيرُ فاطمةُ الشرطيةُ إلى أنواعِ صديقاتها اللواتي كُنَّ في القاهرة فتقول: ومعظم صديقاتي أدبيات، وكاتبات، ومنهن الشاعرات، وزعيمات النهضة النسائية من الرائدات الأول؛ فقد بدأت نهضة المرأة في جميع الأقطارِ في مختلف النواحي الاجتماعية، وتألّفت الجمعياتُ والاتحاداتُ النسائية في العديد من البلدان العربية، وكانت المرأة يومذاك تكتبُ من وراء حجاب، وتخطبُ وهي ساترةٌ وجهها^(١) .

* هذا؛ وقد قدّرَ لفاطمة الشرطية خلال قضاء رحلاتها في فصل الشتاء في القاهرة، أن تستفيدَ كثيراً من تلك المحاضرات والمناظرات التي كان يتكلّم فيها أعلامٌ معروفون بشتى ألوان المعرفة من أدباء وعلماء وشعراء ورجال سياسة، وكانت تحرصُ أشدَّ الحرص على ألا يفوتها شيءٌ من تلكم المجالس النفيسة، أو مما يُنشر في صحفٍ ومجلات ذلك العصر .

تَنْمِيَةُ ثَقَافَتِهَا:

* في سنة (١٩٣٥ م) انتقلت فاطمةُ مع والدتها وأختها إلى بيروت لتكون تحت إشرافِ الأطباء، حيث أُصيبَتْ ببعض الأمراض التي أوهنت جسمها، واستأجرت بيتاً في بيروت لتلقّي العلاج، وخلال وجودها هنالك، راحت تنهلُ من المعارف، وتبحرُ في مطالعة الكتب في شتى العلوم، فقد كانت تشتري الكتب التي تتوالى طباعتها وتقرأها وتستفيد من تعدد الآراء والأفكار في كلّ المواضيع، كما أنّ وجودها في تلك الحقبة ببيروت ساعدها في معرفةٍ عديدٍ من العلماء والمفكرين والأدباء، وذلك في الندوات

(١) المصدر السابق .

والمحاضرات أو الزيارات، وقد استفادت في تلك الفترة، وتوسّع أفقها في النواحي الفكرية، وخصوصاً الصّوفيّة منها.

* ولما كانت الحرب العالمية الثانية، انتقلت فاطمةُ ووالدتها وأختها إلى دمشق، ثمّ كانت إقامتهن في بيروت، وعكا، ودمشق حسب ما تسمّح به ظروفُ المواصلات يومذاك؛ وكانت الأيام والأعوام تمرُّ وهنَّ ينتقلن بين هذه المدن على أمل العودة إلى عكا.

* وعلى الرّغم من تلك الطّروف والاضطرابات فإنّ فاطمة لم تكن بمنأى عن العِلْم والمعرفة، بل راحت تؤلّف وتصحّف وتجمع المعلومات، ووضعت بذور أفكارها في كتاب اسمه «رحلة إلى الحق» الذي هو عبارة عن مقدمة في علم التّصوّف، وبيان لمقام والدها، وأثره في التّصوّف، وفي الطّريقة الشاذلية^(١).

* وبعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، عاشت فاطمة في بيروت لأنها اعتادت على الحياة بها، لكنها ظلت تتردّد على مدينة عكا مرّة أو مرّتين في

(١) ترجم الزركلي - رحمه الله - للشرطي فقال ما نصّه: الشرطي (١٢١١ - ١٣١٦ هـ) (١٧٩٦ - ١٨٩٩ م)؛ عليّ بن أحمد المغربي الشرطي الشاذلي، شيخ الطّريقة المعروفة بالشرطية، من طريق الشاذلية، وُلد في بنزرت، وتفقه، وحجّ مرّات، وتصوّف، واستقرّ في عكا بفلسطين، وترشيحاً من قرى عكا سنة (١٢٦٦ هـ). وانتشرت طريقته في بعض البلاد الشّامية، فخافت الحكومة العثمانية الفتنة، فنفاه أحد ولاتها إلى جزيرة قبرص، فأقام ومنّ معه ثلاث سنين، وسعى الأمير عبد القادر الجزائري للإفراج عنه، فعاد إلى عكا، وقد أُخِذَتْ عليه الموائيق بأن يترك ما كان عليه.

ولم يلبث أن تجددت حركته، وظهر من بعض أتباعه «أمور مذمومة واعتقادات مشؤومة» كما يقول مؤرخوه، فنفتهم الحكومة إلى قرّان، واكتفت بترك الشرطي شبه سجين في منزل الأمير عبد القادر إجابة لرجائه، ثم أعيدت جماعته من قرّان، وأعيدت إليه حريته، فرجعوا في طريقتهم، واستمروا على ذلك إلى أن توفي. والشرطي: نسبة إلى قبيلة من قبائل المغرب تقول إنها حسنية الأصل. (الأعلام ٦٦/٥).

السَّنة، واستمرّت على تلك الحال، إلى أن كانت النكبة في عام (١٩٤٨ م).

* ولقد أتاح لفاطمة استمرارُ الإقامة في بيروت أن تستمرّ في متابعة النشاط الفكري، على الرغم من سوء حالتها الصحيّة، فكانت على اطلاع دائمٍ على معظم المجلات التي كانت تصدرُ هناك، أو تصلُ بيروت في ذلك العصر. وكذلك لم تكن تتركُ كتاباً في الثقافة الإسلامية أو الفلسفيّة أو الأدبيّة أو العلميّة إلا قرأته، مما زاد في صقل موهبتها، وعزّز ثقافتها برافدٍ ثرٍّ من المعارف المتنوّعة.

أحداثٌ ومؤثّراتٌ في حياتها:

* لا بدّ لنا ونحن نترجمُ لامرأة عاشت في عصرنا أن نتعرّضَ لبعض المؤثّرات في حياتها مع أسرتها، فلعلّ ذلك يزيّدنا في فهمٍ وتوضيح هذه الشخصية النسوية الفريدة في القرن العشرين.

* كان لفاطمة أخٌ يدعى إبراهيم الشرطي، وكان يكبرها بعشرات السنين من أمّ غير أمّها؛ وكان إبراهيم وحيداً لأبيه الشّيخ علي الشرطي، فقد تركه أبوه في مدينة بنزرت بتونس - وهو طفلٌ صغير - قبل رحلته إلى ديار المشرق.

* ولما أيفع إبراهيم هذا، أحبّ رؤية أبيه عندما علّم أنّه موجودٌ في مدينة عكا، فقدم عكا من تونس، والتقى أباه الشّيخ علي نور الدين الشرطي، وانخرط في صفوفِ طلاب العلم في حلقة أبيه، وكان متفتّحاً، على الرغم من أنّه كان أمياً^(١) متقدماً في السن.

* كان إبراهيم أخاً رؤوفاً عطوفاً على أخته فاطمة، فقد منّحها من حُبّه وأفاضَ عليها من حنانه، ما عوّضها كثيراً مما فقدته من عطفٍ والدها الذي انتقل إلى جوار ربّه، وهي ما تزال طرية العود في عمر الزّهر.

(١) لاحظ التّقنُح والتّقدم مع الأمية!!

* هذا؛ وقد تولى إبراهيم الشرطي دَقَّةَ الطَّرِيقَةِ الشَّاذِلِيَّةِ^(١) بعد وفاة أبيه في (١٦) رمضان سنة (١٣١٦ هـ)، وكان عمره إذ ذاك قد أشرف على الخامسة والستين أو كاد، وقد استمرَّ في موقع المشيخة مدة ثلاثين عاماً هجرية إلا بضعة أيَّام، إلى أن التحق بالرَّفِيقِ الأعلى في اليومِ الأوَّل من رمضان سنة (١٣٤٦ هـ).

* وتركت وفاة الشَّيخ إبراهيم الشرطي أثراً غائراً في نفسِ أخته فاطمة التي استمدَّت من عطفِهِ قرابةً ثلاثين سنة بعد وفاة أبيهما، وكان يتصف بالفضل والورع والعبادة والذكر والانقطاع في العبادة إلى آخرِ نفسٍ من حياته.

(١) الطَّرِيقَةُ الشَّاذِلِيَّةُ نسبةً إلى الشَّاذلي، وهو أبو الحسن عليّ بن عبد الله بن عبد الحميد المغربي الزَّاهد، شيخ الطائفة الشَّاذلية، سكن الإسكندرية، وصَحْبُهُ بها جماعة، وله في التَّصوِّف مُشْكِلَةٌ تُوهِم، ويُنكَلَفُ له في الاعتذار عنها، وعنه أخذَ الشَّيخ أبو العبَّاس المرسِّي. وقال المناوي: إنَّه من ذرية محمد بن الحسن. والشَّاذلي نسبةً إلى شاذلة قرية بإفريقية، نشأ ببلدِهِ، فاشتغل بالعلوم الشرعية حتى أتقنها، وصار يناظر عليها مع كونه ضريباً، ثم سلك منهاج التَّصوِّف، وجدَّ واجتهد حتى ظهر صلاحه وخيره، وطار في فضاء الفضائل طيره، وحُمدَ في طريق القوم سِرَّاهُ وسيرُهُ. نظمَ فرَّقَقَ ولُطَفَ، وتكلَّم على الناس فقرَّط الأسماعَ وشَتَّفَ، وطافَ وجالَ، ولقي الرجالَ، وقدم إلى إسكندرية من المغرب، وصار يلزم ثغرها من الفجر إلى المغرب، ويتنفعُ الناس بحديثه الحسن وكلامه المطرب، وتحول إلى الديار المصرية، وأظهر فيها طريقته المرضية، ونشر سيرته السَّريَّة، وله أحزابٌ محفوظة، وأحوالٌ بعين العناية ملحوظة.

وحجَّ الشَّاذلي مراراً، واختلفت الآراءُ حوله، بعضهم عدَّه من العارفين، وآخرون عدَّوه من الزَّنادقة. ومن كلامه: كل علم تسبُّقُ إليك فيه الخواطر، وتميلُ النفس، وتلتدُّ به، فارم به وخذْ بالكتاب والسَّنة. ومن مبالغاته في كلامه قوله: لولا لحامُ الشريعة على لساني لأخبرتكم بما يحدثُ في غدٍ وما بعده إلى يوم القيامة!! وأخبار كثيرة مشهورة. مات وهو قاصد الحج في أواخر ذي القعدة سنة (٦٥٦ هـ). (شذرات الذهب ٧/ ٤٨١ - ٤٨٣) طبعة دار ابن كثير المحققة، بتصرف واختصار.

* أما الأثر الثاني في حياة فاطمة فهو وفاة والدتها السيِّدة «رتيبة تُوسيز»، التي نشأت في عكا في جوٍّ مفعم بالتقى والصَّلاح والعبادة والزَّهد، بالإضافة إلى تلقيها كثيراً من المعارف عن زوجها الشيخ علي الشرطي، وكانت والدتها السيِّدة رتيبة مثلاً ربيعاً في التَّضحية والتُّبَل، وقد عاشت قرابة نصف قرنٍ بعد وفاة زوجها.

* توفيت السيِّدة رتيبة في أواسطِ سنة (١٣٧٥ هـ)، وقد فقدت فاطمةُ بوفاتها ركناً مهمّاً من أركانِ أسرتها، وشعرتُ بأنَّها فقدت أعظم شيءٍ في الوجود، حيثُ لازمتُ والدتها معظمَ أطوارِ حياتها.

* والأثر الثالث الذي مرَّ في حياة فاطمة هو وفاةُ أختها «مريم الشرطية» التي عاشت (٨٥) سنة، وتوفيت في أواسطِ سنة (١٣٩٥ هـ)؛ ومريم هذه كانت تجمعُ بين العَقْلِ الراجح، والفكرِ الثاقب، والبصيرةِ النافذة، والنَّفْسِ الهادئة، وكانت شديدةَ الكرمِ سخيةً، تفيضُ بالعطفِ على مَنْ حولها، ولها مواقفُ في البرِّ مشهورة؛ وكانت خاتمةَ حياتها مباركةً، فقبل وفاتها بلحظاتٍ نطقت بالشَّهادتين وأسلمت روحها، وبموتِ مريم فقدتُ فاطمة آخر رفيقاتِ حياتها، وبذلك تفجَّرتُ عواطفُ شتى في نفسِ فاطمة.

* تحدثتُ فاطمةً عن وفاةِ أختها مريم فقالت: ولشدةِ تأثري على وفاةِ شقيقتي، تفاعلتِ العواطفُ في نفسي، ورأيتني أكتبُ الأبياتَ الآتيةَ مع أنني لم أنظم الشعرَ في السَّابق، ولم أتعلم العَرُوضَ، قلتُ:

صِدِّيقَةُ أَتْنَى عَلَيْهَا رَبُّهَا	فِي مُحْكَمِ التَّنْزِيلِ وَالْآيَاتِ
عَاشَتْ وَمَاتَتْ مَرِيْمٌ مَعْصُومَةٌ	وَلَكَمْ لَهَا فِي الْكَوْنِ مِنْ حَسَنَاتِ
هِيَ مِنْ مَظَاهِرِ رَحْمَةِ اللَّهِ الَّتِي	نَهَجَتْ مَائِرُهَا إِلَى الْخَيْرَاتِ
هِيَ صُورَةٌ فِي الْخُلُقِ وَالْخُلُقِ الَّذِي	قَدْ شَابَهَتْ فِيهِ أَبَاهَا الذَّاتِي
هِيَ مِنْ جَمَالِ اللَّهِ فِي مَلَكُوتِهِ	كَالشَّمْسِ أَوْ كَالْبَدْرِ فِي الظُّلُمَاتِ ^(١)

(١) مسيرتي في طريق الحق (ص ٢٣١).

* ومن الجدير بالذكر أنَّ الشَّاعر الكبير «عمر أبو ريشة»^(١) - وهو سبط^(٢) الشَّيخ إبراهيم الشَّريطي - قد رثى مريم الشَّريطية، وأرَّخ وفاتها فقال:

دُنْيَاكَ بِذِكْرِكَ لَا يَفْنَى مَا فِي أَيْدِيهَا مِنْ خَيْرَاتٍ
عَرَفْتُكَ عَلَى مَرٍّ الْآيَا مِ أَجَلٍ عَذَارَاهَا الْخَفِرَاتِ
أَقْبَلْتُ وَمِئْزَرَ الْقُدْسِ يُيْ يَعْطُرُ فِي فَمِهَا الْبَسَمَاتِ

(١) عمرُ أبو ريشة شاعرٌ من كبار شعراء العصر الحالي، ولد في «منبج» إحدى مدن سورية سنة (١٣٢٨ هـ) التي توافق (١٩١٠ م) ومنبج هي مدينةٌ البحري، وأبي فراس الحمداني؛ كان مولدُ عمر في أسرة لها في عهد العثمانيين شأن، فقد شغل أبوه بضعَ وظائفٍ في سورية حتى وصل إلى منصب «قائمقام» منبج، وانتقل عمرُ إلى مدينة حلب فتعلَّم في مدارسها الابتدائية ثم انتقل بعد ذلك إلى الجامعة الأمريكية في بيروت لإتمام دراسته الثانوية، وأرسله والده سنة (١٣٤٩ هـ) إلى انكلترا كي يدرس صناعة النسيج، ولكن نسج الشعر كان الأغلب في نفسه الشاعرية التي نسجت أجمل ألوان الشعر ومعانيه في عصرنا الحالي.

وفي انكلترا ازدادَ عمر تمسكاً بإسلامه، وراحَ يخطبُ في جامع لندن بالمسلمين ويدبجُ المقالات الإسلامية في الصحف الإنكليزية، ثم ذهبَ إلى باريس ليعيش أجواء الأدب الفرنسي، ولكنه سرعان ما عادَ إلى حلب في سنة (١٣٥١ هـ) التي توافق (١٩٣٢ م) ليشترك في الحركة الوطنية في سورية أيام الاحتلال الفرنسي.

وقد تولَّى عمر عدَّة مناصبٍ سياسية في سورية وخارجها، فكان سفيراً لسورية في عددٍ من الدُّول من مثل: إسبانيا، والبرازيل، والهند، وقد أفادت شاعريته من رحلاته وسفرائه الكثيرة، وله ديوان شعرٍ جميل، وكان شديد الإعجاب بشعر البحري وأبي تمام من القدماء، وبشعر شوقي من المحدثين، ناهيك ببعض شعراء وأدباء الغرب من مثل: شكسبير، وشيل، وكيثس، وبودلير، وبو، وكان شديد الإعجاب بالأخيرين: بودلير، وبو. هذا وشعر عمر يجمع التراث والقدم والمعاصرة والمشاركة في أحداث وطنه العربي. وقضى عمر بقية حياته في السعودية حيث وافاه الأجل في عاصمتها مدينة الرياض في (٢٢) ذي الحجة عام (١٤١٠ هـ) بعد معاناة من المرض، ثم نقل ودُفن في مسقط رأسه - رحمه الله -.

(٢) «السَّبْطُ»: خاصة الأولاد، وقيل: أولاد الأولاد؛ وقيل: أولاد البنات، وهو المتعارف عليه. (لسان العرب والقاموس المحيط).

وَأَبُوكَ عَلِيٌّ نَوْرُ الدِّيِّ مِنْ يَبْدُدُ فِي الدَّرْبِ الظُّلُمَاتِ
وَدُعِينَتْ وَتَارِيخُكَ لَبَّى يَا مَرْيَمُ مَثْوَاكِ الْجَنَّاتِ^(١)

* كما رثى مريم الشريفة عددٌ من الأفاضل والأماثل، ومنهم الشاعر الكبير: عبد الكريم الكرمي أبو سلمى.

مُؤَلَّفَاتُهَا وَآثَارُهَا الْعِلْمِيَّةُ وَالصُّوْفِيَّةُ:

* إذا أردنا أن ندرك مكانة فاطمة الشريفة في عالم المعرفة ودنيا العلم، فما علينا إلا أن نشير إلى مكانتها في عالم التأليف والتصنيف والإعداد.

* إن نظرة فاحصة إلى كُتُبِ فاطمة تدلُّ على كونها كنزاً من كنوز العلم في التصوف والمعرفة في عالم نساء القرن العشرين.

* لقد اشتهرت نساءٌ كثيراتٌ معاصرات في دنيا العلم والأدب والمعرفة وفي مجالات أخرى مختلفة، وظهرت نابغات من النساء في بلادٍ مختلفة ومنهن الكاتبة الشهيرة وداد سكاكيني في كتابها الشهير «أمهات المؤمنين» وغيره من الكتب الأخرى النافعة، وظهرت كذلك في مصرَ الدكتورة عائشة عبد الرحمن المشهورة بابنة الشاطئ^(٢) وأطلت على العالم الإسلامي

(١) قوله: (لبى يا مريم مَثْوَاكِ الْجَنَّاتِ) إذا حُسِبَتْ بحساب الجُمْل كان مجموعها (١٣٩٥) والتاريخ بالشعر فن يدل على عبقرية الشاعر ومعرفته بالحروف وما يقابلها من أرقام، وللمزيد من هذا العلم؛ راجع ذلك في حديثنا عن عائشة التيمورية من هذا الكتاب، ففيه ما يروي الغلة بإذن الله.

(٢) عائشة محمد عبد الرحمن المشهورة ببنت الشاطئ، ولدت في محافظة دمياط سنة (١٣٣١ هـ) التي توافقت سنة (١٩١٣ م)، وتربّت تربيةً إسلامية أصيلة، درست الآداب، ومن ثم حصلت على درجة الدكتوراه في الآداب من جامعة القاهرة، وشغلت منصب أستاذ كرسي اللغة العربية عام (١٩٦٣ م)، وهي كذلك أستاذة التفسير والدراسات العليا بكلية الشريعة بجامعة القرويين في المغرب العربي. وتدرجت في عدة وظائف، وحاضرت في عديد من جامعات الدول العربية.

وعائشة هي زوجة الأديب الكاتب أمين الخولي. وقد حصلت على جائزة الدولة التقديرية للآداب في مصر عام (١٩٧٨ م)، ووسام الاستحقاق من الطبقة الأولى، =

بكتابها الشهير «تراجم سيّدات بيت النبوة» كما لها كتب كثيرة في مجال الأدب والدين. وظهر كذلك شواغرُ أخريات لهن نصيبٌ في عالم الأدب والمعرفة، كما ظهر كثيراتٌ في مجال الأدب والتّصوّف والتّاريخ الإسلامي وغير ذلك من معارف وعلوم، ولا يسعُ المقام هنا لإيراد أسمائهن.

* ولكنّ ضيفَةَ الصّفحات اليوم فاطمة الشرطيّة - رحمها الله - كانت ذا باع طويل في علوم الفقه والتّصوّف، بل كانت في التّصوّف أكثر عمقاً ومعرفة؛ وقد خلّفت أربعة كتبٍ تشيّد وتشهد بمقدرتها على ما ذكرنا؛ وهذه الكتب الأربعة قد تضمّنت بعض علوم التّصوّف^(١)، وكذلك تضمّنت سيرة ذاتية لوالدها الشيخ علي الشرطي، وبعض الترجمة الذاتيّة التي اختصّت بها نفسها.

* وتبدو فاطمة الشرطيّة في مؤلفاتها ذات غزارة في الاطلاع، وسعة المعرفة، نتيجةً لأسفارها ورحلاتها في مختلف البلدان، وتلقيها شتّى المعارف عن أكابر العلماء والمتصوّفة وبعض المستشرقين الذين التفتّهم في ترحالها في القاهرة، وهنا وهناك في بقاع شتى.

* ومن خلال استقرائنا لحياة فاطمة، تبيّن لنا أنّها لم تبدأ الكتابة، إلا

= شهادة تقدير من منظمة اليونسكو عام (١٩٨٠ م)، ووسام الكفاءة الفكرية في المغرب، وجائزة الأدب من الكويت عام (١٩٨٨ م) وأطلق اسمها على العديد من المدارس وقاعات المحاضرات بالعديد من الدول العربية.

وقد فازت بجائزة الملك فيصل للأدب العربي مناصفة مع الدكتورة وداد القاضي عام (١٤١٥ هـ) عام (١٩٩٤ م) ومن أهم مؤلفاتها العلمية: التفسير البياني للقرآن الكريم، الإعجاز البياني للقرآن، الإسرائيليات في الغزو الفكري، الحياة الإنسانية عند أبي العلاء المعري، رسالة الغفران، الخنساء، سرّ الشاطئ، تراجم سيّدات بيت النبوة، في الدّراسات الأدبيّة واللغوية وغيرها. ومن الجدير بالذكر أنّي التقيتُ أخاها محمد عبد الرحمن في الكويت في إحدى التّدوات سنة (١٩٨٩ م) وتجاذبنا أطراف الحديث حول أخته عائشة.

(١) انظر تعليقاتنا المفيدة على المتصوّفين في شخصيّة رابعة العدوية، وشخصية نفيسة بنت الحسن، ولا مجال هنا للتعليق.

بعد أن اكتملَ لها أمرُها من الحياة، ومن بعد أن اختزنت كثيراً من المعارف والملاحظات في ذاكرتها وفي عقلها، وإذ ذاك بدأت في العطاء، عطاء الزاهدات المتصوّفات، فأخذت تصوغ ما اكتنزته من المعرفة الكامنة في صدرها، كيما تقدّمه إلى الناس - المتصوّفة منهم خاصة وأتباع أبيها وأخيها -، ليكون وسيلةً لهم، كي يطلّع عليه الرّاعبون - كما قالت هي -، فتعمّ الفائدة المرجوة، فانكبّت على التّأليف، وأخرجت أربعة كتُب في مجال التّصوّف، زاد واحداً عن مئات الصّفحات، وهي :

أ - رحلة إلى الحقّ: وفي هذا الكتاب أبحاث عن التّصوّف، وبيان الطّريقة الشاذلية، وسرد كافٍ وافٍ عن الشّيخ علي نور الدّين الشرطي .

ب - نفحات الحقّ: ويحتوي هذا الكتاب بعضَ مواضع التّصوّف، وباقية من أقوال أبيها، وشذرات من توجيهاته إلى التّصوّف .

ج - مواهب الحقّ: وفي هذا الكتاب دراسةً وافيةً عن الكرامات الصّوفية عامّة، ثم إنّها أوردت مجموعةً من الكرامات التي أظهرها الله على يد أبيها الشّيخ علي الشرطي !!! .

د - مسيرتي في طريق الحقّ: وفيه أبحاثٌ تصوفية متعدّدة، وهو آخر كتبها، وقد ألّفته في أواخر عمرها، وكانت قد تجاوزت التسعين عاماً، وكان شعارها إذ ذاك قول الله - عزّ وجلّ - : ﴿ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه : ١١٤] .

في سِجِلِّ الْمُتَصَوِّفَاتِ :

* رأينا في الصّفحات الخاليات كيف عاشت فاطمة الشرطية، وكيف كانت حياة التّصوّف هي الغالبة عليها، حيث عاشت للمعرفة الصّوفية وللطريقة الشاذلية، فكانت من خوالد نساء العصر الحالي، ومن كبرى الشّهيرات في عالم التّصوّف .

* لقد عاشت فاطمة دون أن تتزوّج، وتعتبر من النّساء المُعَمَّرات، فلقد بلغت التسعين، وزادت قليلاً عنها؛ ولما كان عام (١٩٧٩ م)، وفي مطلع القرن الخامس عشر الهجري، أصاب المرضُ فاطمة الشرطية، وكانت قد

بلغت درجةً عاليةً من الشَّفافيةِ والإحساسِ الخاصِّ نتيجةَ اجتهادها في ذاتِ الله .

* ثم ثَقُلَ عليها المرضُ، وزادت عليها الآلامُ والأوجاعُ، وخصوصاً الآلامُ التي جثمتُ على صدرِها، وسكنتُ حناياها، ثمَّ الانحطاطُ في جسمها مما جعلها تعاني وتعاني هذه الآلامَ، وجاءَ الأطباءُ والمتخصِّصونُ لعلاجها، ولكنَّ يَدَ المنيَّةِ سبقتهم إليها، وانتقلتُ إلى جوارِ ربِّها في دمشقَ، ثمَّ نُقِلْتُ في يومِ وفاتها إلى بيروتَ لتكونَ في مثواها الأخيرِ في مقبرة الأوزاعي .

* وبعد - عزيزي القارئ الكريم - فهذه امرأةٌ من نساءِ العصرِ الحاليِّ المعاصر، سجَّلتْ آثاراً وضيئةً في دنيا النسوةِ، وفي سماءِ المعرفةِ والتصوِّفِ، وأرجو الله - عزَّ وجلَّ - أن أكونَ قد وفَّقتُ في رَسْمِ معالمِ سيرتها - وإن كانت موجزة - كيما تكونَ ممنَ لهنَّ في تاريخِ نساءِ الإسلامِ نصيبٌ، وأعتقدُ أنَّه لم يترجمْ لهذه المرأةِ أحدٌ إلى هذا التاريخِ، على أنِّي حاولتُ جَمْعَ المعلوماتِ من محبِّيها ومن معارفها في عددٍ من البلدانِ والعواصمِ .

* وإنِّي أرجو اللهَ تعالى أن تكونَ أعمالنا جميعاً خالصةً لوجهه الكريمِ، وألاً نبتغي بها إلا مرضاته، ورضوانه، ومغفرته، وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين .

* * *

٢١

ليلى بنت محامل

جَوَانِبُ مِنْ أَخْلَاقِ الْجَاهِلِيَّةِ :

* امرأةٌ حالفها الحظُّ منذ أن كانت جنيناً في أحشاء أمها، فقد نَجَتْ من الوأد^(١) في الوقت الذي لم ينجُ فيه كثيرٌ من الوليدات في العصر الجاهلي .

 * كان وأد البنات في الجاهلية عادةً انتشرت بين بعض القبائل العربية المتناثرة هنا وهناك على صعيد الصحراء الواسعة .

* وكان من هوان النفس الإنسانية عَصَرَ ذاك انتشار تلك العادة، وذلك خوف العار، أو خوف الفقر^(٢) وحكى القرآن الكريم عن هذه العادة ما يسجل هذه الشناعة على الجاهلية التي جاء الإسلام ليرفع أمة العرب من وهنتها، ويرفع البشرية كلها، فقال : ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل : ٥٨ و ٥٩] .

* كان الوأد يتم في صورة قاسية، إذ كانت البنت تُدفن حية، وكانوا يفتنون في هذا بشتى الطرق .

* فمنهم من كان إذا وُلدت له بنت تركها حتى تكون في السادسة من عمرها، ثم يقول لأمتها: طيِّبها وزينها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئراً في الصحراء، فيبلغ بها البئر، فيقول لها انظري فيها، ثم يدفعها دفعا، ويهيل عليها التراب .

(١) «الوأد»: دفن البنات عند الولادة وهنّ أحياء، يُقال: وأد بنته يئدها: دفنها حية، وهي: وثيد، ووثيدة، وموودة، ويُقال: توادت عليه الأرض: غيبتته وذهبت به . (القاموس المحيط ص ٤١٣) مادة (وأد) . وقيل: إنَّ أول من وأد البنات من العرب هو قيس بن عاصم التميمي، وهو سيّد من سادات قومه، وقد عاش طويلاً حتى أدرك الإسلام، فسئل مرة عن ذلك فأجاب: كنت أخاف سوء الأحداثِ والفضيحة في البنات فما وُلدت لي بنت قط إلا وأدتها .

(٢) أشار القرآن الكريم إلى الفقر والخوف منه، فقال: ﴿ وَلَا تَقْنَلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَلْبَهُمْ كَانَ خِطْأً كَبِيرًا ﴾ [الإسراء : ٣١] .

وعند بعضهم كانتِ الوالدةُ إذا جاءها المخاضُ، جلستُ فوقَ حفرةٍ محفورة، فإذا كان المولودُ بنتاً، رمتَ بها فيها وردمتُها، وإن كان ابناً قامت به معها^(١)، ومنه قول الرَّاجز:

سَمَيْتُهَا إِذْ وُلِدَتْ تَمُوتُ وَالْقَبْرُ صَهْرُ ضَامِنٍ زَمَيْتُ^(٢)
وبعضهم كانَ إذا نوى ألاَّ يئد الوليدة، أمسكها مهينةً إلى أن تقدَرَ على الرعي، فيلبسها جبّةً من صوفٍ أو شعر، ويرسلها في البادية ترعى له إبله. قال قتادة - رحمه الله -: كانت مضرٌ وخزاعةٌ يدفنون البناتِ أحياءً، وأشدّهم في هذا تميم^(٣).

وقال القرطبي - رحمه الله -: كانوا يدفنون بناتهم أحياءً لخصلتين: إحداهما: كانوا يقولون: إنّ الملائكةَ بناتُ الله، فألحقوا البنات به. الثانية: إمّا مخافة الحاجة والإملاق، وإمّا خوفاً من السّبي والاسترقاق^(٤).

ونُقِلَ عن قتادة أيضاً أنّه قال: كانتِ الجاهليةُ يقتل أحدهم ابنته، ويغذو كلبه، فعاتبهم اللهُ على ذلك وتوعّدهم بقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سِيلَتْ﴾ [التكوير: ٨].

قال المفسّرون: كان أحدهم إذا ضربَ امرأته المخاض، توارى إلى أن يعلمَ ما يُولد له، فإن كان ذكراً سرّ به، وإن كان أنثى لم يظهرَ أياماً يدبّر كيف يصنعُ في أمرها^(٥).

ومن الأسبابِ الدّاعية للوَأْدِ في عرفِ الجاهليين: حفاظهم على الشرف

(١) انظر: تفسير القرطبي (٢٣٣/٢٠) بتصرّف من قول عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما -.

(٢) «الزّميت»: الوقور. (القاموس المحيط ص ١٩٥) مادة (زَمِت).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (١١٧/١٠).

(٤) انظر: تفسير القرطبي (٢٣٢/٢٠ و ٢٣٣).

(٥) انظر: زاد المسير (٤٥٨/٤).

- كما زعموا -، وهذا السَّبب قد أَيْده كثيرٌ من أخبارِ العرب، وكثيرٌ من أشعارهم وشعائِرتهم، وتدلُّ أخبارُ التَّعْمان بنِ المنذرِ أَنَّهُ علَّلَ ظاهرةَ الوأْدِ أمامَ كسرى مَلِكِ الفرس عندما سألَه عن أسبابِ الوأْدِ^(١)، فقال التَّعْمانُ مُدافعاً عن العرب: وأما قولك أَيُّها الملك؛ يئدون أولادهم، فإنما يفعلُه مَنْ يفعلُه منهم بالإناث أنفةً منَ العارِ، وغيره من الأزواج.

* هذا؛ وقد كان الجاهليون يئدون الإناث دونَ الذَّكور، كما أفصحَ القرآن الكريم عن ذلك: ﴿وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴿بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ﴾﴾ [التكوير: ٨ و٩]؛ فكان العارُ - بزعمهم - لا يأتي غالباً إلا منَ النِّساءِ، كما أَنَّهُم كانوا بحاجةٍ إلى الرِّجال لتوفيرِ الرِّزق، وللحفاظ على الشرف.

* ويمكننا أن نقول: إِنَّ مِنْ أسبابِ الوأْدِ الغيرة على الشرفِ والأعراضِ، ولعلَّ ما يوضح مقولتنا ما رُوي عن امرئِ القيس، أَنَّهُ كان شديدَ الغيرة، فإذا وُلدت له بنتٌ وأدها، فلمَّا رأى ذلك نساؤه غيَّبَ أولادهم في أحياءِ العرب، فبلغه ذلك، فتتبعَهُنَّ حتى قتلَهُنَّ.

* هذه نظرةُ الجاهليةِ إلى المرأةِ في بعض الأحياء، حتى جاء الإسلامُ يشنُّ بهذه العادات ويقتبَحها، وينهى عن الوأْدِ، ويغلظُ فعلته، ويجعلها من موضوعاتِ الحسابِ يومَ القيامة^(٢).

* ومن الجديرِ بالذكرِ أَنَّهُ كان ذوو الشرفِ منَ أهلِ الجاهلية، يمتنعون من الوأْدِ ويمنعون منه، حتى افتخر به الفرزدق فقال:

ومنا الذي منَعَ الوائِداتِ فأحيا الوئيدَ فلم يوأْد^(٣)

(١) وأد الجاهليون أولادهم الذكور في أحوال نادرة منها: إذا ولد لأحدهم ولداً مشوهاً، أو كان فقيراً كثيرَ العيال، أو ما شابه ذلك.

(٢) قال ابنُ كثير - رحمه الله -: يوم القيامة تُسأل الموءدة على أي ذنب قُتِلت، ليكون ذلك تهديداً لقاتلها، فإنَّه إذا سُئِلَ المظلوم فما ظنُّ الظالم إذا؟! (تفسير ابن كثير ٥٦٣/٤) طبعة دار ابن كثير بدمشق.

(٣) يعني بذلك جدَّه صعصعة بن ناجية، كان يشتريهن من آبائهن، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موءودة.

* وكان الفرزدقُ يفتخر أيضاً بجده الذي كان يجيرُ البنات من الوأدِ، وذلك في قصيدةٍ طويلةٍ مشهورة.

* ولعلنا قد أطلعنا قليلاً في هذه التقديم، إلا أنَّ عُدْرنا في ذلك توضيح تلكم الصورة - قَدْر الإمكان - كيما نتعرفَ الأحوالَ والطُرُوفَ التي ساعدت ضيفةَ حلقتنا لتنجوَ من الوأدِ ومن موتٍ محقق.

* ولا بدَّ لنا - ونحن في الحديث عن إحدى نساء الجاهلية - من أن نلقيَ الأضواءَ على هُويّتها كما أثبتَّها كثيرٌ من المصادرِ الأدبية والتاريخية وغير ذلك؛ على أنني لم أجِدْ - في حدود بحثي واطلاعي - أحداً قد أفردَها بالحديث، أو خصَّ شخصيتها بدراسةٍ منفصلة مفصَّلة.

* ويطيبُ لي الآن أن أقدمَ هويةَ هذه المرأة، فهي إحدى نساء التَّاريخ اللواتي كُنَّ من ذوات الشَّأن والمكانة، فقد كانت صرختها في يوم من الأيام سبباً لمقتل أحد الملوك العظام، وجعلَ كَأَمْسِ الدَّابر؛ إنَّها ليلي بنتُ مهلهل بن وائل التَّغلبية^(١)، ذات المكانة العُليا في نساء بني تغلب في العصر الجاهلي، بل في نساء العرب في الجزيرة العربيَّة، تلك الأرض التي أُنبتت كثيراً من النِّساء اللواتي سجَّلن المكارمَ في ديوان العظائم.

لَيْلَى تَنْجُو مِنَ الْوَأْدِ:

* كان المهلهلُ بنُ وائل التَّغليبي فارسَ قومه، قد تزوَّجَ هندَ بنَ عُتيبة إحدى عاقلات نساء عَصْرِهِ، فولدتُ له بنتاً، فحارَ في أمرِهِ وفكَّرَ في وأدِها، وقال لزوجِهِ هند: يابنة عُتيبة، اقتلي هذه الوليدة لئلا نفتضح بينَ العربِ، فأشارتْ هندُ بأنَّها ستفعل ذلك.

(١) انظر: الكامل لابن الأثير (٥٤٩/١)، والمفصل في تاريخ العرب (٢/٢٥٥ و ٢٥٦)، والأغاني (١١/٥٩ و ٦٠)، وبلوغ الأرب (٢/١٤١ و ١٤٢)، والمحبَّر (ص ٢٠٣ و ٢٠٤)، والنقائض (ص ٨٨٤ و ٨٨٧)، والأعلام (٦/١١٧ و ١١٨) وسمط اللآلي للبكري (١/٢٧) و (٢/٦٣٦) وفيه أسماء بدلاً من ليلي. وانظر مصادر أخرى متنوعة.

* ولكنَّ هنداً قد تحرَّكتْ لواعجُ العطفِ والحبِّ والحنانِ في قلبها، وأسَرَّتْها صرخاتُ الوليدةِ التي لم يكن لها من ذَنْبٍ سوى أنها بنْتُ، هنالك دَعَتْ خادماً^(١) لها أميناً، وأمرتهُ أن يغيبَ الوليدةَ عنها، ويبعدها عن أنظارِ مهلهلٍ لكيلا يكون نصيبها الوأد.

* واطمأنَّ مهلهلٌ إلى أنَّ العارَ الذي لحقه سيتلاشى، ويُدفن في رمالِ الصَّحراءِ، وبين ثنايا التَّلالِ.

وفي مساءِ ذلك اليوم أوى مُهلهلٌ إلى مضجعه، وركنَ إلى الرَّاحةِ واستسلم للنَّوم، فلمَّا استغرقَ هتَفَ به هاتفٌ^(٢) في ليلته تلك وهو ينشدُ ويقول:

كَمْ مِنْ فَتَى مُؤْمِلٍ وَسَيِّدٍ شَمَزْدَلٍ^(٣)
وَعَدَّةٍ لَا تُجْهَلِ فِي بَطْنِ بَنَاتِ مُهْلَهْلٍ

* وانتبه مهلهلٌ من نومه، وكلماتُ ذلك الهاتف لا تبرحُ ذاكرته، ودلفَ إلى زوجه هند، وقال لها: يا هند، أين بنتي؟ قالت هند: وأدُّتها كما أشرتَ آنفاً.

فقال مهلهلٌ: كلا وإله ربيعة.

* ثم صمَتَ هنيهة وقال لها: يا هند، اصدقيني؛ أين الوليدة؟ وهنا لم تستطعَ هندُ أن تسيطرَ على عواطفها عندما رأتَ بوارقَ الخيرِ في وجه

(١) «خادم»: هذه الكلمة تُذكَّرُ وتوَنَّثُ يقال: هي خادم وخادمة.

(٢) هذه الأخبارُ وأشباهاها كثيرة في الأعصرِ الخالية، منها ما وردَ أنَّ سودةَ بنتَ زهرة بن كلاب لما وُلِدَتْ كانت مشوَّهة، فأمر أبوها بوأدها، فأرسلها إلى الحجون لتدفن هناك، فلمَّا حفر لها الحافر، وأراد دفنها، سمعَ هاتفاً يقول: لا تئدِ الصَّبية؛ فالتفت، فلم يرَ شيئاً، فعاد لدفنها، فسمعَ الهاتف مرةً أخرى، فرجع إلى أبيها فأخبره بما سمع فقال: إنَّ لها لشأناً، وتركها، فكانت كاهنة قريش. (بلوغ الأرب ٤٣/٣).

(٣) «شمردل»: الشمردل: الفتيُّ السَّريع من الإبل وغيره، والحسنُ الخَلْق (القاموس المحيط ص ١٣١٩).

مهلهل، ولمست مشاعر الرقة في نفسه، وقالت: لقد غيبتها عنك، ثم أخبرته قصتها مع الخادم.

* فقال مهلهل: حسنًا فعلت، أحسني غداءها، وأطلقني عليها اسم ليلى.

* وعادت الوليدة إلى أحضان أمها، وأخذت هند في رعايتها، فنشأت ليلى في أعز بيوت تغلب، ونجحت من الوأد، ومن الموت الأكيد المحقق^(١).

لَيْلى زَوْجُ فَارِسٍ وَأُمُّ شَاعِرٍ:

* عاشت ليلى بنت مهلهل في قومها عزيزة الجانب، فقد استقت رفعة الجانب، وعزة النفس من أبيها مهلهل^(٢) الذي كان رئيس تغلب، والقائم بأمور الحرب، فقد عرفت تغلب بالمنعة والبأس في الحرب والقتال، حتى لقد قيل: لو أبطأ الإسلام لأكلت بنو تغلب الناس^(٣).

* واستقت ليلى من أمها هند الهدوء، والتعقل، والنظر في الأمور، وحسن الأحداث، فنشأت تحتفظ بأعز القيم، وأشرف الخصال، بل عرفت بأنها واحدة من بليغات نساء تغلب اللاتي لهن نصيب وافر في ميدان الفصاحة والبيان.

* وبلغت ليلى مبلغ النساء، فتزوجها كلثوم بن مالك، أحد فرسان تغلب وشجعانها، حيث عاشت في عز وسودد.

* وتمضي الأيام، فإذا بليلى ترى في المنام - وقد حملت واقترب موعد ولادتها - من يقول لها:

يَا لَيْلى مَنْ وَلَدَ يُقْدَمُ إقْدَامَ الْأَسَدِ

(١) انظر: بلوغ الأرب (١٤١/٢)، وسمط اللآلي للبكري (٦٣٦/٢) مع الجمع والتصرف.

(٢) انظر ترجمة مهلهل التغلبي في الشعر والشعراء (٢٩٧/١ - ٢٩٩).

(٣) انظر: خزانة الأدب (٥١٩/١).

من جشم فيه العدِدِ أقول قِلاً لا فَنَدٌ^(١)

* وقصّت ليلى بنت مهلهل على زوجها كلثوم قصّة رؤياها التي حُفرت في وجدانها، وأنشدته ما جاءها الهاتفُ في منامها، فظهر السرور والبشر على وجه كلثوم، ثم إنّ ليلى وضعت حملها بعد مُدّيدة فكان غلاماً، فأسموه عَمراً، وفرحت ليلى بعمره وفرحاً شديداً، وراحت تغذوه وتحنو عليه وترعاه أفضل رعاية.

* ولما بلغ عمرو بن كلثوم العام الأوّل من عمره، سمعت أمّه ليلى ذات يوم هاتفاً يرتجز قائلاً:

إنّي زعيمٌ لك أمّ عمرو بماجد الجدّ كريم التّجر^(٢)
أشجع من ذي بُدٍ هزبرٍ وقاصّ آدابٍ شديد الأسر
يسودّهم في خمسةٍ وعشر

* واستبشرت ليلى بهذا الهاتف، ونظرت إلى ابنها عمرو نظرة حنانٍ وضمّته إلى صدرها، وأخذت تعتني بتربيته وتنشئته، وراحت تغذيه بالوان الآداب والمعارف والبلاغات، حتى غدا فصيحاً بليغاً سيّداً من سادات تغلب، بل ساد عشيرته أمرد في الخامسة عشرة - كما أخبرها الهاتف من قبل -، واجتمعت حوله قبيلة تغلب، ذلك أنّ عمراً قد جمع أصول السّيادة من أطرافها، فهو شاعرٌ، وفارسٌ مقدام، جريء القلب، معروف النسب بين قبائل العرب، ويكفيه فخراً أنّ أمّه ليلى بنت مهلهل أعزّ نساء تغلب، ويضرب المثل بأنفتها وسوددها.

كَلِمَةٌ مِنْ لَيْلَى تَقْتُلُ مَلِكَ الْحِيرَةِ:

* لم تقتصر عزة النفس على الرجال دون النساء في العصر الجاهلي، بل كانت نساء الفرسان، وأمّهات الأبطال يشعرون بعزة النفس وإبائهن، وكانت

(١) «الفند»: الخَرْفُ، وإنكار العقل لهرم أو مرض، والخطأ في القول والرأي، والكذب. (القاموس المحيط ص ٣٩٢).

(٢) انظر: سمط اللّالي للبكري (٢/ ٣٣٦) و«النجر»: الأصل.

إحداهن لا تقبل أن يُنلّم كبرياؤها، فحياة العِزّ هي المنى كلّ المنى .

* إِنَّ النَّفْسَ العَزِيزَةَ لا تقبلُ الهوانَ، ولا تقبلُ إلا ذروة المكارم في كلّ مجالات الحياة، ولقد تميّزت المرأة العربية في جاهليتها بإبائها وعلوّ همّتها، وكانت ليلي بنتُ مهلهل مثلاً للمرأة العربية التي تؤثرُ الأحداثُ الجميلة، من الحياة التي تخالطها الدّنية، بل لم تقبل كلمةً واحدةً تحطُّ من مكانتها، أو تمسّ أنفثها، إذ اعتبرت أن ذلك ذلاًّ وعبأً .

* ومن المثير حقّاً في شخصيّة هذه المرأة، أنها صرخت صرخةً بكلمة واحدة، فأودت بحياة ملكٍ خطير الشّأن، وذلك حينما شعرت بأنّ أصابع المهانة تمتدُّ إليها، وإشاراتُ الامتهان تكادُ تتوجه نحوها .

* وهذا ما حدث فعلاً - كما روت تلك المصادر المتعدّدة - فقد فتك ابنها عمرو بنُ كلثوم بعمرو بنِ هند ملكِ الحيرة في دار مُلكِهِ، وهتك سرادقه، وانتهب خزائنه، وانصرف ببني تغلب وهم موفورون لم يُصَبِّ واحدٌ منهم، وكان معه أمّه ليلي وهي تركبُ مراكب العِزّ والافتخار والفخار .

* وكان سببُ ذلك أنّ عمرو بنَ هند^(١) ملك الحيرة قال ذات يومَ لندمائه وجُلاسه وقد أخذته عِزّةُ الجاهليّة مأخذاً بعيداً، ولعبتُ به أصابعُ الكِبَرِ: هل تعلمون أنّ أحداً من العربِ تأنّفُ أمّه من خدمةِ أمي؟

فقال النّدماء: نعم أيها الملك الخطير المُهاب .

قال عمرو في لهجةٍ شرسةٍ غضبي: ومنْ تكونُ هذه التي تدّعون؟

(١) كان عمرو بنُ هند ظالماً مستبدّاً، سفاكاً للدماء، شديد البأس، وقد سُمّي المُحرّق، ومُضَرَّط الحجارة؛ قال أبو عبيدة - رحمه الله - : كان عمرو بن هند شريراً، وكان يُقال له: مُضَرَّط الحجارة لشدّته، وكان يُعرف بأمه هند بنت الحارث بن حُجر آكل المرار الكندي .

هذا وقد كان مقتل عمرو بن هند سنة (٥٧٤ م) . (سرح العيون ص ٤٣١) بتصرف واختصار .

قالوا: لا نعلمها إلا ليلي أم عمرو بن كلثوم التغلبي في أرض الحجاز.

قالت الملك: ولم ذلك؟

فقالوا: لأن أباه مهلهل بن ربيعة خال امرئ القيس، وعمّها: كليب وائل أعزّ العرب.

* وبعلمها: كلثوم بن مالك بن عتاب أفرس العرب وفارس تغلب، وابنها: عمرو بن كلثوم سيّد قومه، وليث كتيبته.

* وأسّر عمرو بن هند هذا في نفسه، وشعر بأحوال مرارة الغضب تلوّث قلبه؛ وأخذ الشيطان يلعب بعطفه، ويلهو به ذات اليمين وذات الشمال، ويقرب له ويبعد، ويزين له الأمور ليركب سبل الغواية وإذلال هذه المرأة التي خدشت كبرياءه على السماع.

* وبعد مدة اهتدى عمرو بن هند إلى فكرة خبيثة، أحب أن يذل من خلالها ليلي بنت مهلهل، وظنّ أنه يقدر على أن يعث بأنفتها وعزتها، وذلك بأن يقيمها مقام العبيد في خدمة أمّه هند، وبذلك يكون قد سقاها كأس الذلّ والمهانة، وعرفها مكانتها في بيوت وخيامه.

* ولما اختمرت فكرة إذلال ليلي بذهن عمرو بن هند، دعا أحد خواصّه، وأرسله إلى عمرو بن كلثوم في الحجاز، وأمره بأن يطلب من عمرو بن كلثوم أن يزوره في الحيرة، ويسأله أن يصحب أمّه ليلي بنت مهلهل كيما تزور هنداً أم ملك الحيرة، كما أوصاه بأن يصحب معه جماعة من فرسان بني تغلب وأبطالهم وشجعانهم.

* واستجاب عمرو بن كلثوم لهذه الدّعوة، وانتخب جماعة من خيرة رجال بني تغلب ممن عُرِفوا بجودة الطّعان، ولقاء الأقران في حومة الميدان؛ وأقبل من الجزيرة إلى الحيرة، وأقبلت معه ليلي بنت مهلهل أيضاً في ظُنْ (١) من بني تغلب قد اختارتهنّ ليصحبنها في هذه الرحلة الشّائقة،

(١) «ظُنْ»: جمع ظعينة، وهي الهودج، والمرأة ما دامت فيه.

لكي يشاهدن الحيرة وهاتيك الأطلال والدّمن .

* واستعدّ عمرو بنُ هند لهذا اللقاء الحافل ، وأمرَ برواقه فضربَ فيما بين الحيرة والفُرات ، وفرّشه بالنّمارق ، وزيّنه بالتّحف ، وأرسل إلى وجوه أهل مملكته فحضروا ، وأتاه عمرو بن كلثوم في وجوه بني تغلب وهم يرفلون في ثياب العزّ والفخار .

* ودخل عمرو بنُ كلثوم على عمرو بنِ هند في رواقه ، وأحسن ابن هند استقباله مع قومه ، وفي قلبه نيرانٌ تتلظى ، وجمراتٌ تتوقّد مما رآه من أنفة التّغليبيين .

* ودخلت ليلى بنتُ مهلهل أمّ عمرو بن كلثوم على هند في قبة في جانب الرّواق ، وكان عمرو بنُ هند قد أمرها أن تنحّي الخدم وتبعدهم إذا دعا بالطّرف^(١) ، وسَتخدم ليلى بنت مهلهل التّغلبية أمّ عمرو بن كلثوم ، فإنّما استقدمها لذلك .

* ودعا عمرو بن هند بمائدة فنصبها ، فأكلوا ، ثمّ دعا بالطّرف ، فتناولوها ، وكذلك أدخلت الطّرفُ خيمة أمّ الملك ، وهنالك قالت هندُ بشيء من الاستهتار لضيفتها : يا ليلى ، ناوليني ذلك الطّبق !

* فقالت ليلى بنتُ مهلهل في اتّزانٍ وهدوءٍ دون أن تلتفتَ إليها : يا هذه لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها .

* ويبدو أنّ هنداً قد تجاهلت ما ألقتّه من كلام إلى ليلى ، فأعادت عليها ، وأشارت أن ناوليني يابنة مهلهل ذلك الطّبق . فأجابتها ليلى : قد قلتُ لك : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها ! .

* وأعادت هندُ على ليلى وألحّت بطلبها ذاك ، وعندها صاحت ليلى : واذالاه ! يا تغلب !

(١) «الطرف» : جمع طرفة ، ما تعطيه غيرك ما لم يعطِ أحدٌ قبلك ، ويُرادُ به هنا ما يُتَنفّل به بعد الطعام .

* وتساقطت كلمتها على سَمْع ابنها عمرو بنِ كلثوم، فانتفضَّ كالعصفور بلَّله القطرُ، وثارَ الدَّمُ في وجهه، واحتملته حميَّة الجاهليَّة، فهبَّ واقفاً وقال: لا دُلَّ لتغلب بعدَ اليوم، ثمَّ نظرَ إلى عمرو بن هند فعرفَ الشَّرَّ في وجهه، وفهمَ مقاصده، وأدرك ما تنطوي عليه نواياه، فوثبَ إلى سيفِ لعمرو بن هند معلِّق بالرواق وليس هناك سيفٌ غيره، فسكَّه من غمده، وضربَ به رأسَ الملك عمرو بن هند فقتلَه، ونادى في بني تغلب، فانتهبوا جميعاً ما في الرواق، واستاقوا نجائب^(١) الملك، وحَمَل أمَّه ومَنْ معها، ثمَّ ساروا نحو الجزيرة، وقام خطيباً^(٢) ينشدُ قصيدته المشهورة في عالم المعلّقات ومنها:

(١) «نجائب»: المرادُ هنا الإبل. يُقال: ناقَةٌ نجيبٌ ونجينة وجمعها نجائب. (القاموس المحيط ص ١٧٤).

(٢) «الخطابة»: حَدِيثٌ أو شِعْرٌ يُقصدُ به إثارة المشاعر، وإلهابُ العواطف في الحال، والحياء في العصر الجاهلي جعلت الخطابةَ ضرورةً لهم في جميع أطوار حياتهم. وقد ثبتَ أنَّهم كانوا يخطبون في مناسباتٍ شتى، فبالخطابة كانوا يحرصون على القتال، استشارةً للهِمَم، وشحذاً للعزائم، وبالخطابة كانوا يدعون للسَّلم حقناً للدماء، ومحافظةً على أواصرِ القربى أو المودة والصَّلة.

وبالخطابة كانوا يقومون بواجب الصَّلاح بين المتنازعين أو المتنازعين، ويؤدّون مهام السَّفارات جُلّاً لمنفعة، أو درءاً لبلاء، أو تهنئةً بنعمة، أو تعزيةً أو مواساةً في مصيبة، وكانت تُلقى الخطب أيضاً في المصاهرات، وربطاً لأواصرِ الصَّلة بين العشائر. ومن أشهر الخطباء في الجاهلية: قسّ بن ساعدة الإيادي، وسحبان بن وائل الذي ضُربَ المثلُ بفصاحته فقيل: «أخطبُ منْ سحبان»؛ وضمرة بنُ ضمرة، وأكثم بنُ صيفي، وعمرو بن الأَهم المنقري، وقيس بنُ عاصم.

قال أبو عثمان الجاحظ: وكانَ الخطباء يحفلون بخطبتهم، ويتخيرون لها أشرفَ المعاني، وأقوى الألفاظ، وأشدّها وقعاً على القلوب، ليكون تأثيرها أعظم، وكانوا يخطبون، وعليهم العمائم، وبأيديهم المخاصر، ويعتمدون على الأرض بالقسي، ويشيرون بالعصي والقنا، راكبين، أو واقفين على مرتفع من الأرض. (البيان والتبيين ٧/٣).

أَيَا هِنْدٍ^(١) فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا وَأَنْظِرْنَا نَخْبِرَكَ الْيَقِينَا
وفيهما يقول:

بَأَيِّ مَشِيئَةٍ عَمَرُو بَنَ هِنْدٍ تُطِيعُ بَنَا الْوَشَاءَ وَتَزْدَرِينَا
تَهْدِدُنَا وَتَوَعِدُنَا رُويِدَاً مَتَى كُنَّا لِأُمِّكَ مَقْتُونَا^(٢)

* وفي هذا الموقفِ وعن تلكم الحادثةِ الخطيرةِ يتحدث «أفنون
التغلي»^(٣) مصوراً عزةَ ليلي ابنة مهلهل، وما حدثَ لهند أم عمرو بن هند،
وكيف فتك^(٤) عمرو بن كلثوم بابن هند فقال:

لَعَمْرُكَ مَا عَمَرُو بَنَ هِنْدٍ إِذَا دَعَا لَتَخْدَمَ لَيْلَى أُمَّهُ بِمَوْفَقٍ
فَقَامَ ابْنُ كُلْثُومٍ إِلَى السَّيْفِ مُصَلَّتَاً وَأَمْسَكَ مِنْ نَدْمَانِهِ بِالْمَخْنَقِ
وَجَلَّلَهُ عَمْرُو عَلَى الرَّأْسِ ضَرْبَةً بِذِي شَطْبٍ صَافِي الْحَدِيدَةِ رَوْنَقٍ^(٥)

* وهذا وقد سارت قصيدةُ عمرو بن كلثوم في بني تغلب مسيرةَ الماءِ في
الوديان، وعدوها من مفارحهم وتراثيم التلبد، وأصبحت سلوتهم في سائر
أحوالهم، وأمسَتْ أَمَلٌ دنياهم ودُنْيَا أَمْلَهُمْ، ولهذا ردّوها وتغنوا بها في كلِّ

(١) «أبو هند»: عمرو بن هند الملك، وهو أبو المنذر، وإلى هند أم الملك عمرو هذا،
يُنسب دير هند الكبرى من أديرة الحيرة، حيث بُنيَ في أيام ابنها عمرو.

(٢) «المقتون»: الخدم؛ الواحد: مقتوي.

(٣) «أفنون التغلي»: اسمه: صُرَيْم بن مَعْشَر من بني تغلب، وسمي «أفنون» ببيت شعر
قاله وهو:

مَنِيتْنَا الْوَدَّ يَا مَضْنُون مَضْنُونَا أَيَامِنَا إِنَّ لِلشَّبَابِ أَفْنُونَا
(الاشتقاق لابن دريد ص ٣٣٦).

(٤) يُقال في المثل: أَفتك مِنْ عمرو بن كلثوم.

وقد كان عمرو بن كلثوم قد جَمَعَ أصول السَّيَادَةِ، فهو شاعرٌ فارسٌ مقدّام، وفاتكُ
جريءُ القلب، ضَرَبَ بهِ المثلُ فُقِيل: فتكاتُ الجاهلية ثلاث: ويذكرون منها فتكه
بعمرُو بن هند ملك الحيرة، قتله في دارٍ ملكه بين الحيرة والفُرات، وهتكَ سرادقه،
وانتهبَ خزائنه، وانصرفَ بالتَّغَالِبَةِ موفورين لم يُصب واحد منهم. (ثمار القلوب
ص ١٢٩ و ١٣٠).

(٥) انظر: الشعر والشعراء (١/ ٢٣٥)، والمحبر (ص ٢٠٤)، والكامل لابن الأثير (١/ ٥٤٩).

نادٍ وواد، وأنشدَها الكهولُ والشُّيوخُ والصِّبيانُ، وغدَتْ شعارهم في
المُفاخرة^(١) والمُنافرة^(٢)؛ ولشدة شغفِ بني تغلب بهذه القصيدة، وكثرة
روايتهم لها، قال بعضُ الشعراء وقد أخذَ عليهم ذلك:

ألهى بني تغلب عن كُلِّ مكرمةٍ قصيدةٌ قالها عمرو بنُ كلثومٍ
يفاخرون بها مُذْ كان أولُهم يا للرجال لشعرٍ غيرِ مسؤولٍ
إنَّ القديمَ إذا ما ضاعَ آخره كساعِدٍ فلَّه الأيَّامُ محطومٍ^(٣)

مُلْهِمَةُ الأبطالِ وصانعةُ الرِّجالِ:

* تلکم هي لیلی بنتُ مهلهل التَّغلبیة، التي غدتْ مضربَ المثلِ في
الإباء^(٤) وعِزَّةِ النفس، فقد كانت صرختها «واذلاًه» ذات صدیٍّ واسعٍ في

(١) «المفاخرة»: محاورَةٌ كلامیَّةٌ بین اثنين أو أكثر، وفيها يتباهى كلٌّ مِنَ المتفاخرين
بالأحسابِ والأنسابِ، ويشيد بماله من خصال، وما قامَ به من جلائل الأعمال،
وكانتِ المفاخرةُ تحدثُ في بعضِ القبائلِ العربيَّة. كربيعة ومُضَر، وبكرٍ وتغلب من
ربيعة، وقيس وتميم من مُضَر، وغيرهم كثير.

(٢) «المنافرة»: وهي كالمفاخرة وأشدّ، وكان الرِّجالان إذا تنازعا في الفخر، وادعى كلٌّ
منهما أنَّه متفوقٌ على صاحبه، نفَّرا إلى حاكمٍ يرضيانه ليقضیَ بينهما، فَمَنْ فَضَّلَهُ
على صاحبه كان له غنمُ الحكم، ولكنَّ الحكمَ كثيراً ما كان يتحاشى الحكم
لأحدهما على الآخر، ويعمد إلى الصِّلح بين المتنازعين حسماً للنزاع، وتفادياً
للشَّرِّ، ويلقي عليهما كلاماً بليغاً يدعوهما فيه إلى الصِّفاء، والسلام، والمودة،
والمحبة.

(٣) انظر: البيان والتبيين (٤/٤١)، والكامل للمبرد (ص ١٤٠)، والشعر والشعراء
(٢٣٦/١)، والأغاني (٩/١٧٦).

(٤) في رحلةِ إباءِ المرأةِ العربيَّة في العصر الجاهلي، استوقفتني صرخةُ امرأةٍ أخرى
تغلبیة، وهي الزَّهراءُ أختُ كليب وائل، وهي عمَّة لیلی بنتِ مهلهل؛ فمما يروى
في ذلك أنَّ لبيدَ بنَ عنبسة كان عاملاً لملوك كندة، تزوج الزَّهراءُ أختَ كليب،
فطغى على ربيعة، فأنكرتِ الزَّهراءُ عليه صنيعه، وقال لها مرة: وما بال أخيك
ينتصر لمُضَر، ويتهدد الملوك كأنَّه يعزِّ غيرهم؟ فقالت: ما أعرفُ أعزَّ من كليب
وهو كفءٌ لها، فغضبَ لبيد، ولطمها لطمَةً أعشت عينها، فخرجت باكية إلى كليب
وهي تقول:

عالم الجاهلية، فقد ملأت الدنيا وشغلت الناس، وتركت في الدنيا دويًا ما يزال صداه يملأ الآذان إلى الآن، بل كانت صرختها إحدى الصّرخات النسائية الخالدة في التاريخ، وهل ينسى الناس صرخة تلك المرأة التي نادى: وامعتصماه؟! .

* لقد كانت المرأة في الجاهلية ذات مكانة راقية، ولا سيما إذا كانت من مثل ليلي بنت مهلهل، ولو قورنت المرأة العربية في جاهليتها مع المرأة في الأمم الأخرى، لألفينا أنّ المرأة العربية كانت ذا بال وأهميّة تفوق مكانة المرأة في أي أمة أخرى، فلم تكن العربية الحرّة تُمتَهَنُ كغيرها، بل احتفظت بأعزّ خاصية النساء: الشرف والعفة والإباء.

* ولذلك فقد امتازت المرأة العربية الحصينة بأنّها سيّدة حافظت على إباءها، فاشتهر أنّ الرجل هو الذي يسعى إليها، وينشد رضاها، لأنها صانعة الرجال، وملهمّة الأبطال، وهي التي تغرس فرائد الحكمة في نفوس الرجال.

* وقد عُرفت ليلي بنت مهلهل بحسن الأحداث، وجودة الحكمة، وكمال الأدب، وكلّ هذه الفضائل قد غرستها في نفس ابنها عمرو بن كلثوم، الذي غدا أحد حكماء الشعراء في العصر الجاهلي، فقد اقتبس شيئاً من البلاغة والفصاحة عن أمّه.

* وفي وصيته لأبنائه، تظهر آثار البلاغة في قوله، فقد ذكّر أنّه لما حضرته الوفاة، وقد أتت عليه مئة وخمسون سنة، جمّع بنيه^(١) . . .

= ما كنتُ أحسبُ والحوادثُ جمّةً أنا عبيدُ الحي من قحطانٍ
حتى أتتني من لبيدٍ لطمّة فعشتُ لها من وقعها العينانِ
لا يبرحوا الدهرَ الطويلُ أدلّةً هدل الأعنة عند كلّ رهانٍ
فلما سمعَ كليب قولها، ورأى ما بها من أثر اللطمّة، ثارت حميته، وتوقدت في نفسه العزة والإباء، فامتشق حسامه، وانقض على لبيد وقتك به قائلاً:

إن تلمني عجائز من نزار فأراني فيما فعلتُ مجيداً
(١) قال ابن قتيبة - رحمه الله -: لعمر بن كلثوم عقب، منهم العتّابي الشاعر المشهور، =

وأوصاهم قائلاً:

* يا بني! قد بلغت من العمر ما لم يبلغه أحد من آبائي، ولا بد أن ينزل بي ما نزل بهم من الموت، وإنّي والله ما عيّرتُ أحداً بشيءٍ إلا عُيرتُ بمثله، إن حقاً فحقاً، وإن كان باطلاً فباطلاً.

* وَمَنْ سَبَّ سُبَّ، فكفُّوا عن الشتم، فإنه أسلم لكم، وأحسنوا جواركم يحسن ثنائكم، وامنعوا من ضيم الغريب، فرب رجل خير من ألف رجل، ورد خير من خلف، وإذا حدثتم فعوا، وإن حدثتم فأوجزوا، فإن مع الإكثار تكون الأهدار، وأشجع القوم العطوف بعد الكَرّ، كما أنّ أكرم المنايا القتل، ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب، ولا من إذا عوتب لم يُعْتَب، ومن الناس من لا يرجى خيره، ولا يُخاف شرّه، فبكؤه^(١) خير من درّه، وعقوقه خير من برّه، ولا تتزوجوا في حيكم فإنه يؤدي إلى قبيح البغض^(٢).

ذَكَأَوْهَا وَفَطَنْتُهَا:

* هذه ليلي ابنة مهلهل التغلبية إحدى نساء العرب في عصر الجاهلية، وإحدى النساء اللواتي صنعن أمجاد أولادهن، وخلدن مآثر قومهن، وظلت ليلي واحدة ممن وعى التاريخ طرفاً من أخبارهن، فقد أشارت الأخبار إلى ذكائها، وإلى فطنتها وفهمها للشعر وخصوصاً أشعار والدها المهلهل؛ بل إنها اكتشفت جريمة قتل أبيها من خلال استقرائها لبيت من شعره، وكان هذا البيت سبباً في مقتل اثنين.

* روت كتب الأدب أنّ عبدّين من عبيد جساس قد التقيا المهلهل، فعزّما على قتله، فاستحلفهما المهلهل إنّ هما انتهيا من قتله أن يخبرا ذويه بهذا البيت:

= واسمه: كلثوم بن عمرو، ويكنى أبا عمرو، وكان كاتباً مجيداً في الرسائل، وشاعراً مجيداً. (الشعر والشعراء ١/٢٣٦). أقول: مات العتّابي سنة (٢٢٠ هـ).

(١) «البكء»: قلة اللبن، أو انقطاعه، والمراد: فمّعه خير من عطائه.

(٢) انظر: الأغاني (١١/٥٩ و٦٠).

مَنْ مَبْلَغِ الْأَقْوَامِ أَنَّ مُهْلَهْلًا اللَّهُ دَرَكَمَا وَدَرَّ أَبَيْكَمَا^(١)

* فلم يريا أدنى غضاضة في إبلاغه لهما، لاعتقادهما أن ليس ثمة معنى ينم عن فعلتهما، وما قاما به من قتل، ثم إن هذا البيت ليس فيه ما يبعث على الخوف أو الريبة.

* ولما قتلاه، أبلغا ابنته بهذا البيت، فلطمت على خديها وقالت: والله، لقد ودّ والدي أن يقول:

مَنْ مَبْلَغُ الْأَقْوَامِ أَنَّ مُهْلَهْلًا أَمْسَى قَتِيلًا فِي الْفَلَاةِ مَجْدَلًا
لِلَّهِ دَرَكَمَا وَدَرَّ أَبَيْكَمَا لَا يَبْرَحُ الْعَبْدَانِ حَتَّى يَقْتُلَا

* فقبضوا على العبدَيْن، وأوسعوهما ضرباً، فاعترفا بما فعلا، فقتلوهما انتقاماً للمهلل^(٢)؛ ورثته ليلي وأختها أبداع رثاء^(٣).

(١) ورد في سرح العيون كلمة «الحَيْن» بدلاً من «الأقوام» (سرح العيون ص ٩٨).

(٢) انظر: سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون (ص ٩٩)، وبلوغ الأرب (٢/١٥٧)، وسنط اللّالي (١/٢٧) مع الجمع والتصرف. ولعلّ هذه القصّة وأشباهاها من القصص التي وُضعت للتسلية، وقضاء الأوقات بالحكايات السّالفة؛ وعلى أي حال فإن فيها إشارة إلى ذكاء المرأة الجاهلية.

(٣) يروى أنّ سُلَيْمى ابنة مهلهل قد رثته ببضع قصائد حسان منها قولها من قصيدة طويلة:

أَعَيْنِي جُودًا بِالدَّمْعِ السَّوَافِحِ	على فارس. الفُرسان في كلّ صافح
أَلَا تَبْكِيَانِ الْمَرْتَجَى عِنْدَ مَشْهَدِ	يثيرُ مع الفُرسان نَقْعَ الْأَبَاطِحِ
رَمْتُهُ بَنَاتُ الدَّهْرِ حَتَّى انْتَضَمَتْهُ	بَسْهُمْ الْمَنَايَا إِنَّهَا شُرُّ رَائِحِ

وقالت سُلَيْمى في قصيدة أخرى تقتطف منها قولها:

مُنِعَ الرُّقَادُ لِحَادِثِ أَضْنَانِي	وَوْنَى الْعِزَاءُ فَعَادَنِي أَحْزَانِي
لَمَّا سَمِعْتُ بِنَعِي فَارِسٍ تَغْلِبِ	أَعْنِي مُهْلَهْلَ قَاتِلِ الْأَقْرَانِ
لَهْفِي عَلَيْهِ إِنْ تَوَسَّطَ مُغْضِلِ	حُصْنُ الْعَشِيرَةِ ضَارِبُ بَجْرَانِ
لَهْفِي عَلَيْكَ إِذَا الْيَتِيمُ تَخَاذَلَتْ	عَنْهُ الْأَقَارِبُ أَيُّمَا خِذْلَانِ
فَاذْهَبْ إِلَيْكَ فَقَدْ حَوَيْتَ مِنَ الْعُلَا	يَابْنَ الْأَكَارِمِ أَرْجَحَ الرَّجْحَانِ

(شاعرات العرب ص ١٧٠ و ١٧١).

* ويصمتُ التَّاريخُ، فلم يَعدُ يطالعنا بأخبارِ ليلي بنت مهلهل، ولئن سكتَ التَّاريخُ عن نهايتها، لقد أفصحَ عن مواقفها الحِسانَ، وأبانَ ذكاءها، وحفظَ كلماتها، واحتفظَ بنداائها: واذا لآه!! أمامَ والدَةِ عمرو بن هند، وكشفَ جلوةَ هذه الكلمة، لتظلَّ ليلي أبيّة النَّفس، لا ترضى الذَّلَّ، ولا تقبَلُ الهوان.

* وبعد؛ إنَّ أدبَ المرأة، وحياتها، وآثارها، وأخبارها، كلُّ هذا جديرٌ بأنَّ تُسلَّطَ عليه أضواءٌ جديدةٌ كاشفةٌ لماضي المرأة في الجاهلية والإسلام.

* فقد كانَ في العصر الجاهلي للمرأة شأنٌ رفيعٌ في معظمِ الأحياء، إذ أصبحتْ ملكةً في اليمن، وفي تدمر، وكانت تنشدُ الشعرَ أمامَ الفُصحاء كالخُنساء وغيرها، ناهيك بأنَّ بعضَ النِّساء قد اشتهرنَ بالفطنة والدهاءِ واللسن، وكانتِ المرأةُ تُجِيرُ أحياناً وتقبلُ إجارتها، وكانت بعضُ الحروب تنشبُ بسببِ إهانةِ امرأةٍ أو ظلمها، كما أنَّ المرأةَ كانت تُظلمُ أحياناً، وتؤادُ عند بعضِ الأقوام، لكنَّ مكانتها على الأغلبِ كانت ساميةً باسقةً.

* وفي الصَّفحات الفائتة، حاولتُ إلقاءَ الأضواءِ على شخصيةِ امرأةٍ لها نصيبٌ في تاريخِ النِّساء العربيات في العصر الجاهلي، ممن أثَّرنَ تاريخَ المرأةِ العربيَّة بعزَّة النَّفس، وحُسنِ الأحدوثة، وأدبِ اللسان، وقوةِ الجنان، ألا تستحقُّ ليلي - هذه - أن تكونَ من خِوالدِ النِّساء؟! *

* * *

٢٢

مُحَرَّرَاتُ الْحَارِثِ

مَعْلَمَةُ الزُّهَادِ:

* لم تدرس هذه المرأة في جامعة، ولم تكن ممن يُشار إليها بالبنان، لولا أن تخرّج في مدرستها أحد عباقرة الزُّهاد في دنيا الزُّهد.

* ولعلّ القارئ الكريم لم يسمع بهذه المرأة بين قائمة شهيرات نساء التاريخ، ولم يقرأ شيئاً عنها؛ فهي وإن لم تكن من الشهيرات في عالم الشهرة، إلا أنه قد تخرّج على يديها أشهر الأصفياء في أخريات القرن الثاني الهجري وأوائل القرن الثالث.

* ولقد راق لي البحث في غضون المصادر - على قلتها وندرتها - عن أخبار هذه العالمة المعلمة، الزاهدة الورعة، حيث إنّ للعلم جلالاً في القلوب؛ وللزهد مكرمة في النفوس، وللصلاح آثاراً في الوجوه:

وَكَمْ مِنْ قَصِيرٍ فِي عُلُومٍ كَثِيرَةٍ لَهُ مَخْبِرٌ لِلصَّالِحَاتِ وَصُورٌ فَمَا الْعِلْمُ إِلَّا خَشْيَةُ اللَّهِ وَالتَّقَى فَكُلُّ تَقِيٍّ فِي الْعُيُونِ جَلِيلٌ

* اختارت هذه المرأة العبادة طريقاً، والورع سلوكاً، ومحبة الله رفيقاً، ولازمت الطاعات والفرائض، وحافظت على مرضاة الله ومراقبة النفس، فقد كانت ترجو لقاء الله على حالٍ صافية وقلبٍ سليم.

* قال بعض أهل البصائر في قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَيَأْتِيَنَّكَ [العنكبوت: ٥]: لما علم الله سبحانه شدة شوق أوليائه إلى لقاءه، وأنّ قلوبهم لا تهتدي دون لقاءه، ضرب لهم أجلاً وموعداً للقاءه، تسكن نفوسهم به، وأطيب العيش وألذّه على الإطلاق عيش المحبين المُشتاقين المستأنسين، فحياتهم هي الحياة الطيبة في الحقيقة، ولا حياة للقلب أطيب ولا أنعم ولا أهنأ منها، وهي الحياة الطيبة في قوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّاهُ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، ليس المراد منها الحياة المشتركة بين المؤمنين والكفار، والأبرار والفجار، من طيب المأكّل والمشرب والمنكح، بل ربما زاد أعداء الله على أوليائه في ذلك أضعافاً مضاعفة؛ وقد ضمن الله سبحانه لكلّ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا أَنْ يحييه حياةً طيبةً، وهو صادق الوعد الذي لا يخلف وعده، وأيّ

حياة أطيب من حياة من اجتمعت همومه كلها، وصارت همّاً واحداً في مرضاة الله؟، ولم يتشعب قلبه، بل أقبل على الله، فإن سكّت سكّت بالله، وإن نطق نطق بالله، وإن سمع فيه يسمع، وإن بصر فيه يبصر، وبه يحيا، وبه يموت، وبه يُبعث^(١).

* وهذه المرأة كان همُّها ذلك، فهي تنظرُ إلى الأمور جميعها بمنظارِ مرضاة الله ومحَبته، حتى غدت معلّمة الورعين والزهاد.

* ان لنا أن نتعرّف هذه الفاضلة العابدة الورعة، والتي أثنى عليها الإمام أحمد بن حنبل، وحَمِدَ طريقَتها وشهد بفضلها. وفاضلة هذه الصّفحات اسمها: مُحَّة بنت الحارث المروزيّة ثمّ البغدادية^(٢)، الزاهدة الصّالحة التّقية الورعة، أخت بشر بن الحارث الموفّق في الورع والزهد، المعروف ببشر الحافي.

* ولم تكن مُحَّة^(٣) أخت بشرٍ وحيدة في الورع، وإنّما كان له أخواتٌ غيرها قد بلغن السُّها في الزهد والعلم والورع؛ قال الخطيبُ البغدادي، وابن خلّكان - رحمهما الله -: كان لبشر ثلاث أخوات وهُنّ: مُضَغَة، ومُحَّة، وزُبْدَة، وكُنَّ زاهداتٍ، عابداتٍ، ورعاتٍ، وأكبرهنّ مُضَغَة وزبدة تكنى أم علي، وكانت مضغّة أكبر من بشر^(٤). ولزبدة هذه أقوالٌ نفيسة منها: أثقلُ شيء على العبد الذنوب، وأخفُّه عليه التوبة، فماله يدفع أثقل شيءٍ بأخف شيء^(٥).

(١) انظر الداء والدواء (ص ٣١٤ و ٣١٥) باختصار يسير جداً، طبعة دار ابن كثير بتحقيق: يوسف علي بديوي.

(٢) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي (٤٣٦/١٤ و ٤٣٧)، وحليّة الأولياء (٣٥٣/٨)، وصفة الصّفوة (٥٢٤/٢ - ٥٢٧)، ووفيات الأعيان (٢٧٦/١ و ٢٧٧)، ومراة الجنان لليافعي (٩٣/٢ و ٩٤)، وأعلام النساء (٣١/٥ و ٣٢).

(٣) «مُحَّة»: معناها نقي العظم، وخالص كلّ شيء. (القاموس المحيط ص ٣٣٢).

(٤) انظر: تاريخ بغداد (٤٣٦/١٤)، ووفيات الأعيان (٢٧٦/١) مع الجمع بينهما.

(٥) انظر: صفة الصّفوة لابن الجوزي (٥٢٦/٢).

* ويبدو أنَّ مَحَّةَ - رحمها الله - كانَ لها كبيرُ الأثرِ في أخيها بشرَ الحافي، الذي فاقَ أهلَ عصره في الزُّهد والورع، وتفرَّدَ بوفورِ العقلِ، وأنواعِ الفضلِ، وحسنِ الطَّريقة، واستقامةِ المذهب، وعزوفِ النَّفسِ، وكرمِ الشَّمائلِ، لذلك لم يملكْ ببغدادَ ملكاً قطَّ، وكان لا يأكلُ إلا من مالٍ حلالٍ لشدةِ ورعه وتحريه لمصدرِ المالِ.

* أمَّا أختُه مضغة، وهي أكبرُ البناتِ الثلاثِ، فقد كانت تنعمُ في حياةِ الأُنسِ مع الله - عزَّ وجلَّ - وتسلكُ مَسْلَكُ الورع والزُّهد والتَّوكلِ على الحيِّ الذي لا يموتُ، ولذا فقد كان بشرٌ يجلُّها ويكبرُها إلا أنَّ الأجلَ قد وافاها فماتت قبل موتِه، فحزنَ عليها حُزناً شديداً، وبكى بكاءً شديداً لفقدِها، وداوَمَ على البكاءِ مدَّةَ حتى قيلَ له في ذلك فقال: قرأتُ في بعضِ الكتبِ؛ أنَّ العبدَ إذا قصَّرَ في خدمةِ ربِّه سَلَبَه أنيسه، وهذه أختي مضغة كانت أنيسي في الدنيا^(١).

مُحَّةٌ وأثرُها في بشرٍ:

* يبدو من أخبارِ مَحَّةِ بنتِ الحارث أنها كانت تعملُ في غَزَلِ القطنِ، فكانت تشتريه، ثم تغزله وتبيعه، وتنفقُ من عملِ يدها؛ وقد ورثتُ أخاها بشراً وعلمته هذه الصَّنعة، فكان يعملُ المغازلَ ويعيشُ منها حتى ماتَ.

* وكانت مَحَّةُ - رحمها الله - على جانبِ كبيرٍ من الصَّلاحِ والتَّقوى، والصَّلاةِ والقيامِ وصيامِ التَّطَوُّعِ، فقد أخرجَ الخطيبُ البغدادي عن أبي عبد الله القحطبي قال: كان لبشرٍ أختٌ صوَّامة قوَّامة^(٢).

* وكانت مَحَّةُ مع صيامِها وقيامِها وصلاتها وعبادتها عفيفة النَّفسِ، لا تقبلُ من أحدٍ شيئاً، بل كان مغزله كالسَّيفِ في يدِ المجاهد الذي يغنمُ، لذلك فقد نشأ بشرٌ على هذا المنوال، فكان لا يقبلُ من أحدٍ عطيةً أو هديةً،

(١) انظر: وفيات الأعيان (٢/٢٧٦) بتصرف يسير، وانظر: تاريخ بغداد (١٤/٤٣٦)، وصفة الصفوة (٢/٣٢٧).

(٢) تاريخ بغداد (١٤/٤٣٧)، وانظر: صفوة الصفوة (٢/٥٢٤).

وكان يقول: لو علمتُ أنَّ أحداً يعطي الله لأخذتُ منه، ولكنَّ يعطي بالليل، ويتحدَّث بالنَّهار؛ وقد وُفِّقَ الإمامُ الدَّهبيُّ - رحمه الله - في وصفِ بشر بقوله: الإمامُ العالمُ المحدثُ الزَّاهدُ الرِّبانيُّ القدوةُ، شيخُ الإسلام، أبو نصر المروزي ثمَّ البغدادي المشهور بالحافي، ابن عمِّ المحدث علي بن خنَّسرم^(١). وقال: كان رأساً في الورع والإخلاص.

* وَيُتَسَنَّم من أخبار مَحَّةَ أَنَّها كانت تألفُ أخاها بشراً، وتُكَبِّرُ زهده الذي لا يطيقه إلا عظماء الزَّهاد، كما كان بشرٌ نفسه يجدُ في أخته مَحَّةَ مَنبَعِ الورع والزَّهد، ولذلك إذا أَلَمَّ به شيءٌ كان مرجعه إليها، فقد كان شديدَ التَّحريِّ للحلال، كثيرَ الورع.

* قال الدَّهبيُّ في «السِّير» متحدثاً عن هذا الورع: أقام بشر بن الحارث بعبادان يشربُ ماءَ البحر، ولا يشرب من حياضِ السُّلطان، حتى أضربَ بجوفه، ورجعَ إلى أخته وجِعاً، وكان يعملُ المغازل ويبيعها، فذاك كسبه^(٢).

* ولم تكنْ هذه القصَّة هي الوحيدة التي تركت أثراً في نفسِ بشر الحافي مع أخته، وإنَّما هناك قصَّةٌ نفيسةٌ تدلُّ على ذِروة الورع التي بلغها، وحرص على اقتعادِ سدةِ الورع والزَّهد بها.

* روى أبو عمران الوركاني طريقةَ زهد بشر مع أخته مَحَّةَ بنت الحارث فقال: تخرَّقَ إزارُ بشر الحافي، فقالت له أخته لما رأَتْ حاله: يا أخي، إنَّ إزارَكَ قد تمزَّقَ وتخرَّقَ، وإنَّ هذا البردَ الشَّدِيد قد يؤذيك، فلو جئتني ببعض القطن، فأغزلُ لك مكانَ الخرق.

قال: فكان يجيُّ بالإستارَيْن^(٣) والثَّلاثة.

فقالت له: يا أخي إنَّ العَزَلَ قد اجتمعَ عندي ويكفي لرقع الخرق، أفلا تسلمني إزارَكَ كي أصلحه؟! فأعطاها الإزار، ثمَّ أصلحتَه، فقال لها: هاتيه

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/٤٦٩).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/٤٧١).

(٣) «الإستارَيْن»: «الإستار»: في الوزن: أربعة مثاقيل ونصف.

يا أُخَيَّةَ، فأعطته إياه، فوزنه بشر، وأخرج ألواحَه، وجعل يحسبُ الأساتير، فإذا به يجدُ أنَّ أخته قد زادت فيه، فقال لها: يا أُختي، كما أفسدتِ الإزار فخذيه، ورفض أن يلبسه^(١).

* وبهذه الأخلاق وهذا الورعُ بلغَ بشرٌ ذرّوةَ القناعة، فقد كان يرى أنَّ القناعة عَزٌّ، وفي هذا أثّر عنه قوله: لو لم يكن في القناعة شيءٌ إلا التَّمَتُّعُ بعزِّ الغنى لكان ذلك يجزىءُ. وكان ينشد:

أَفَادَتْنِي الْقَنَاعَةُ أَيَّ عَزٍّ وَلَا عَزٌّ أَعَزُّ مِنَ الْقَنَاعَةِ
فَخَذْتُ مِنْهَا لِنَفْسِيكَ رَأْسَ مَالٍ وَصَيَّرْتُ بَعْدَهَا التَّقْوَى بِضَاعَةِ
تَحَزُّرٍ حَالَيْنِ تَغْنَى عَنْ بَخِيلٍ وَتَسَعَّدَ فِي الْجَنَانِ بِصَبْرِ سَاعَةِ^(٢)

* وفي قصّةٍ أخرى شائقة تظهرُ معالمَ لطيفةٍ من آثارِ مَخَّةِ بنتِ الحارث في أخيها بشر الذي اقتادَ سَحْبَ الزُّهْدِ أَمَامَهُ، وحلَّقَ فوقَ الغمامِ بورعه، ولم يستجبَ لنوازعِ نفسه وشهواتها في أَكَلَةٍ واحدةٍ لمرّةٍ واحدةٍ في حياتِه، وإنّما كبَحَ جماحَ نفسه وأخبرَ أخته أنّه يشتهي طعامها منذ أكثر من ربع قرن، ولكنّ لن يرجعَ في شيءٍ تركه الله - عزَّ وجل - ابتغاءَ الوصولِ لمرضاته ومغفرته.

* وعن هذه القصّةِ اللطيفةِ يحدثنا محمّد بنُ الهيثم من ذكرياته عن مَخَّةٍ فيقول: كنتُ أدخلُ على أُختِ بشر بنِ الحارث في صِغري، ففي ذاتِ يومٍ منَ الأيامِ، أعطتني أخته كَبَّةً من غَزَلٍ، وقالت لي: يا محمّد، خُذْ هذه الكَبَّةَ، واذهب بها إلى السُّوقِ وبيِعها، ثم اشترِ لنا بثمنها خبزاً وسَمَكاً.

* قال محمّد بنُ الهيثم: فذهبتُ إلى السُّوقِ وفعلتُ ما أمرتني به، وأحضرتُ لها ما طلبتُ؛ ولم يمضِ وقتٌ طويلاً حتى جاء أخوها بشر، فدخل فرأى الخبزَ والسَّمَكَ موضوعاً في البيتِ؛ فقال لها بشرٌ متعجباً: ما هذا الطَّعامُ يا أُختي؟ قالت له: يا أخي، لقد رأيتُ في المنامِ أُمِّي وأُمَّكَ، فقالت لي: يا بنتي، إذا أردتِ فرحي وإدخالك السُّرورَ عليّ، فبيعي من

(١) انظر: صفة الصفوة (٢/ ٣٢٨ و ٣٢٩) بتصرف يسير.

(٢) شذرات الذهب (٣/ ١٢٥).

غزلك شيئاً، ثم اشتري خبزاً وسمكاً، فإنَّ أخاك بشراً يشتهي ذلك منذ مدة طويلة.

* قالت: فلما ذكرتُ له أمِّي وأمه، استعبرَ باكياً، ثم قال: رحمَ اللهُ أمِّي، وأحسنَ نزلها، تغتمُّ من أجلي حياةً وميتةً. ثمَّ إنَّ بشراً قال لأخته والدموع لا تفارقُ عينيه: والله يا أختي، إنِّي لأشتهيه منذ خمسٍ وعشرين سنة، ما كان الله - عزَّ وجلَّ - يراني أن أرجعَ في شيءٍ تركته الله.

* قال محمد بنُ الهيثم: ثمَّ إنَّ بشراً ترك الطَّعام، ولم يأكلُ منه^(١).

* وكان لبشر ابن أخت يسمَّى عمر، فكان يحضُّه على العمل ويقول له: يا بني، اعملْ فإنَّ أثره في الكفين أحسنُ من أثر السَّجدة بينَ العينين^(٢).

* وبلغَ بشرٌ مرتبةً عاليةً في الورع، وكانت أخته مَحَّةً معلَّمةً له بذلك، لذا فإنَّه لم يشغل نفسه إلا بالعبادة، ولكنه عزَّف وأعرضَ عن الزَّواج^(٣).

(١) انظر: حلية الأولياء (٥٣٥ / ٨) بشيء من التصرف.

(٢) شذرات الذهب (١٢٤ / ٣).

(٣) يمكنني أن أقول: إنَّ عزوف وإعراضَ بشر الحافي - رحمه الله - عن الزَّواج خاصٌّ به، ولا يُقتدى به في هذا المضمار، ولا بغيره مهما بلغ من درجة علمية، أو ارتقى ذروة الزَّهد والورع؛ لأنَّ الزَّواج سُنَّةٌ من سنن الأنبياء والمرسلين، وبذلك جرت العادة في الخلق أجمعين.

لذا فإنَّه ينبغي أن يرغب كلُّ مسلم ومسلمة في الزَّواج؛ لما يترتَّب على ذلك من مصالح الدِّين والدُّنيا، ولما في ذلك من التعاون على الحياة الاجتماعية، ولما في ذلك أيضاً من الشُّرور والغبطة، وراحة النفس وطمأنينة القلب.

ثم إنَّ الزَّواج سببٌ من أسباب وجود الأولاد الذين هم قرة العيون، كما أشار بذلك القرآن الكريم: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتَنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْ لَنَا لِمُنْقِبِينَ﴾ [إماماً] [الفرقان: ٧٤]، ناهيك بأنَّ الزَّواج من سنن الرسل والمرسلين، أليسَ اللهُ - عزَّ وجلَّ - قد قال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد: ٣٨]؟؟؟!

وقد امتنَّ اللهُ - عزَّ وجلَّ - على عباده بالأزواج والبنين، وقال عزَّ شأنه: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَيْنَ وَحَفْدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ [النحل: ٧٢].

تورّعاً وخوفاً من عدم القيام بحق الزوجية، وكان يقول: لا يفلح من أفلأ أفخاذ النساء^(١).

* ذكر ابن العماد في «شذراته» إعراض بشر عن الزواج فقال: ولم يتزوج بشر قط، ولم يعرف النساء، قيل له: لم لا تتزوج؟

* قال: لو أظلني زمان عمر بن الخطاب - رضي الله عليه - وأعطاني كنت أتزوج.

* وقيل له: لو تزوجت تم نسكك.

* قال: أخاف أن تقوم الزوجة بحقي، ولا أقوم بحقها؛ قال تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨]^(٢).

* قال الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله -: لو تزوج بشر لتم أمره^(٣).

* إن حقيقة زهد بشر قد تعلمها من أخته مخة، واقتفى بذلك أثرها، وكان يذكر ذلك دائماً بقوله: تعلمت الزهد من أختي، فإنها كانت تجتهد ألا تأكل ما لمخلوق فيه صنع^(٤).

ورعها ونساء الإمام أحمد عليها:

* إذا كان الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله ورضي عنه - قد شهد لمخة بالفضل، فإننا نضع هذه الشهادة في ذروة الفضل، ونعتز بها، ونكبر

= هذا؛ وإن كثيراً ممن عزفوا عن الزواج عزف الدهر عن تخليدهم، فكانوا كأمنس الدابر، وكانوا نسياً منسياً، فالزواج سنة الرسول ﷺ، وقد نهى النبي ﷺ ثلة من أصحابه عزموا على ترك الزواج، والانقطاع إلى العبادة، فهداهم إلى صراط العزيز الحميد، وقال لهم: «لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأنام، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» متفق عليه.

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/٤٧٢).

(٢) شذرات الذهب (٣/١٢٤).

(٣) تاريخ بغداد (٧/٣٣)، وسير أعلام النبلاء (١٠/٤٧٢).

(٤) تاريخ بغداد (١٤/٤٣٧)، ووفيات الأعيان (١/٢٧٧).

صاحبتهَا، فأكرم بهذه الشهادة! وأكرم بهذه المرأة!

* والإمام أحمد - رحمه الله - لا يجاملُ أحداً، ولا يثني على أحدٍ إلا إذا فاحَ عَرَفُ الفضلِ مِنْه، فهو شيخُ الأُمَّة، وعالمُ أهلِ العصر، وإمامُ المحدثين والفقهاء والورعين والزهاد، وكان من خواص أصحاب الإمام الشافعي - رحمه الله -، وكان الشافعي يأتيه إلى منزله، فعُتِبَ في ذلك فأنشد:

قَالُوا يَزُورُكَ أَحْمَدُ وَتَزُورُهُ قُلْتُ الْفَضَائِلُ لَا تُفَارِقُ مَنْزِلَهُ
إِنْ زَارَنِي فِيفَضْلِهِ أَوْ زُرْتُهُ فَلِفَضْلِهِ فَالْفَضْلُ فِي الْحَالَيْنِ لَهُ
* هذا هو الإمام أحمدُ يشهد بالفضل لهذه الزاهدة، كما ويشيد بورعها الذي لا يُلْحَقُ شَأُوهُ، وخصوصاً عندما تُسأل عن الورع.

* حَدَّثَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ^(١) عَنْ وَرْعِ مَخَّةَ بِنْتِ الْحَارِثِ فَقَالَ: جَاءَتْ مَخَّةُ أُخْتُ بَشْرِ بْنِ الْحَارِثِ الْحَافِي إِلَى أَبِي، فَقَالَتْ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَقَالَتْ لَهُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، إِنَّ رَأْسَ مَالِي الَّذِي أَمْلَكَهُ هُوَ دَانِقَان، وَإِنِّي أَذْهَبُ إِلَى السُّوقِ، فَأَشْتَرِي بِهِمَا قِطْنًا، ثُمَّ أَعْمَلُ فِي غَزْلِ ذَلِكَ الْقِطْنِ، وَبَعْدَ ذَلِكَ أَبِيعُهُ بِنِصْفِ دِرْهَمٍ؛ فَأَنْفِقُ دَانِقًا وَاحِدًا فِي أَسْبُوعٍ، وَذَلِكَ مِنَ الْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ وَأَنْقَوْتُ بِهِ، وَقَدْ اتَّفَقَ أَنْ مَرَّ ابْنُ طَاهِرِ الطَّائِفِ لَيْلَةً، وَكَانَ مَعَهُ مِشْعَلٌ وَلَهُ ضَوْءٌ وَشِعَاعٌ، فَوَقَفَ يَكَلِّمُ أَصْحَابَ الْمِصَالِحِ، وَغَزَلَتْ طَاقَاتُ فِي ضَوْئِهِ ثُمَّ غَابَ عَنِّي، فَعَلِمْتُ أَنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - سَيَطْلُبُنِي فِي ذَلِكَ، وَأَنَا

(١) كان للإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله - ولدان عالمان هما: صالح، وعبد الله، فأما صالح فقد وُلِدَ سنة (٢٠٣ هـ)، وتوفي في رمضان سنة (٢٦٦ هـ)، وكان قاضي أصبهان فمات بها.

وأما عبد الله فكنتيته أبو عبد الرحمن، وبه كان يكنى الإمام أحمد، وكان عبد الله إماماً خبيراً بالحديث وعلمه، مقدماً فيه، وكان من أروى الناس عن أبيه، وهو الذي رتب مُسْنَدَ والده، وكان ثبناً فهماً، ثقة. ولد عبد الله بن أحمد في جمادى الآخرة سنة (٢١٣ هـ)، ومات في جمادى الآخرة سنة (٢٩٠ هـ)، وعمره (٧٧ سنة)، وكان كآبيه رحمهما الله.

(أُخِذَتْ هَذِهِ التَّرْجُمَةُ عَنْ بَضْعَةِ مَصَادِرٍ).

أرجوك أن تخلصني من هذا، خلّصك الله تعالى مما تكره.

* فقال لها أبي: يا هذه، تخرجين الدّانقين، ثمّ تبقيين بلا رأسٍ مال حتى يعوّضك الله خيراً من ذلك.

* قال عبد الله بنُ أحمد: فقلتُ لأبي: لو قلتَ لها: لو أخرجتِ الغزل الذي أدركتِ فيه الطّاقات في ضوءِ المشعل لكان أصلح لحالها.

* فقال أبي: يا بني، إنّ سؤالَ هذه المرأةِ الورعةِ الزّاهدة لا يحتمل التّأويل.

* ثم إنّ أبي قال لي: مَنْ هذه المرأة يا بني؟!

فقلت: يا أبتِ هي مَخّة بنتُ الحارث المروزية أخت بشر الحافي.

فقال أبي: من ها هنا أتيتُ، ومن ها هنا أتى الورع^(١).

* وفي روايةٍ أخرى تقول: إنّ مَخّة أخت بشر الحافي أتت الإمامَ أحمد بنَ حنبل تستفتيه وقالت له: يا أبا عبد الله، إنّ مشاعلِ الولاية والطّائفين تمرُّ بنا، ونحنُ جلوس على سطوحنا، أفيحلُّ لنا أن نغزِلَ في شعاعها؟! أفَتينا بهذا يرحمك الله.

فقال الإمامُ أحمد: مَنْ أنتِ يا أمةَ الله يرحمك الله؟!

فقلت: أنا مَخّة ابنة الحارث أخت بشر الحافي.

فقال الإمامُ أحمد - رحمه الله - قولاً فيه شهادة زاكية لها وليبتها:

* صدقتِ من بيتكم يخرجُ الورعُ الصّافي؛ أو قال: آه يا آل بشر لا عدمتكم، لا أزالُ أسمعُ الورعَ الصّافي من قبلكم. ثمّ إنّهُ قال لها لما علِمَ أنّها تنشدُ الورعَ وتحرّاه: يا بنّة الحارث، لا تغزلي في شعاعها^(٢).

(١) انظر: تاريخ بغداد (٤٣٧/١٤)، وصفة الصفوة (٣٢٥/٢ و ٣٢٦)، و امرأة الجنان (٩٤/٢) مع الجمع والتصرف بينها؛ وانظر: وفيات الأعيان (٢٧٦/٨ و ٢٧٧)، وأعلام النساء (٣١/٥ و ٣٢).

(٢) حلية الأولياء (٣٥٣/٨)، و امرأة الجنان (٩٤/٢) مع الجمع والتصرف اليسير.

قِصَّةُ أُخْرَى مَعَ الْإِمَامِ أَحْمَدَ:

* يبدو أنَّ ضيفتنا مَحَّة ابنة الحارث كانت على جانبٍ كبيرٍ من العلم، كما كانت على جانبٍ كبيرٍ من الورع، ومع ذلك كانت تستفتي الإمام أحمد بن حنبل في أمورٍ تدلُّ على فقهها وزهدها، فقد كان فؤادها مُعلِّقاً بالحقِّ، تخشى أن تذهب أعمالها هباءً منثوراً، لذلك كانت تُقبل لتسأل عن الحلال والحرام.

* قال عبدُ الله بنُ أحمد بن حنبل: كنتُ مع أبي يوماً من الأيام في المنزل، فدقَّ داقُّ الباب؛ فقال لي: اخرجْ فانظر مَنْ بالباب؛ فخرجتُ فإذا بامرأة، فقالت لي: استأذن لي على أبي عبد الله. قال: فاستأذنته؛ فأذن لها وقال: أَدْخِلْهَا.

* قال عبدُ الله بنُ أحمد: فدخلتُ، فسلمتُ عليه، وقالت له: يا أبا عبد الله، إنِّي امرأة صَنَاع اليد، أغزلُ في الليل على ضوء سراج لنا، وربما طفيء السراج، فأقوم بالغزل على ضوء القمر، فهل عليَّ أن أبين للناس غزل السراج من غزل القمر؟! فقال لها أبي: يا هذه، إن كان عندك فرقٌ بينهما، وتستطيعي أن تعرفي الفرقَ، فعليك أن تبيني ذلك.

* ثمَّ إنَّ المرأةَ سألتُ أبي سؤالاً يدلُّ على فقهها وعقلها فقالت له: يا أبا عبد الله، أنينُ المريض هل هو شكوى؟

* فقال لها أبي: إنِّي أرجو ألا يكون شكوى؛ ولكن هو اشتكاء إلى الله تعالى. ثمَّ إنَّ المرأةَ انصرفتُ.

* قال عبد الله: فقال لي أبي: والله يا بني، ما سمعتُ إنساناً قطُّ يسأل عن مثلِ ما سألت هذه المرأةَ العالمةَ الفقيهة! اذهب فاتبعها.

* قال عبدُ الله: فتبعتُ تلك المرأةَ، إلى أن دخلت دارَ أبي نصرٍ بشر الحافي، فعلمتُ حينذاك أنها أختُ بشر. وعند ذلك رجعتُ إلى أبي فقلت له: إنَّ هذه المرأةَ هي أختُ بشر الحافي.

* فقال أبي متعجباً: هذا والله هو الصَّحيح، مُحال أن تكونَ هذه المرأةُ

إلا أخت بشر الحافي، فالزهد والورع من علامات سؤالها^(١).

* قال ابن الجوزي - رحمه الله -: قرأت بخط أبي علي الرّاذاني قال: كانت مَحَّة من بين أخوات بشر، تقصدُ أحمد بن حنبل، وتسأله عن الورع والتّقشف، وكان أحمدُ يعجبُ بمسائلها^(٢).

* هذه صفةُ أهل الزّهد، وأهل التّقشف والورع، فكَلِّمُوا أَذْهَبَ الأعمارِ طُلُوعُهُمْ وَغُرُوبُهُمْ، سالتُ من الأَجْفَانِ غُرُوبَهُمْ^(٣)، وكَلِّمُوا لاحتْ لَهُمْ في مرآةِ الفِكرِ ذُنُوبُهُمْ، تجافَتْ عن المضاجعِ خوفاً جنُوبُهُمْ، وكَلِّمُوا نظروا فسَاءَهُمْ مَكْتُوبُهُمْ ﴿وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]. شاهدوا الأخرى باليقين كراي العين، وعلموا بمقتضى الدّين أنّ التّقَى دَيْنٌ، قد قنعوا بكسرتين وجرعتين، هذا مأكولهم وهذا مشروبهم ﴿إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٥].

* وقد كانت مَحَّةٌ وَمَنْ شابهها ممن عَنَاهم الشّاعر بقولهم:

إِلَى الزُّهَادِ فِي الدُّنْيَا	جَنَّانُ الْخُلْدِ تَشْتَاقُ
عَبِيدُ مَنْ خَطَايَاهُمْ	إِلَى الرَّحْمَنِ أَبْأَقُ ^(٤)
حَدَتَهُمْ نَحْوُهُ الرَّغْبَةُ وَالْ	رَّهْبَةُ فَاَنْسَأَقُوا
وَرَأَقَتْ لَهُمُ الدُّنْيَا	وَعَاقَتَهُمْ فَمَا انْعَاقُوا
عَلَيْهِمْ حِينَ تَلَقَّاهُمْ	سَكِينَاتٌ وَإِطْرَاقُ

(١) وفيات الأعيان (٢/٢٧٦)، وتاريخ بغداد (٤٣٦/١٤ و ٤٣٧)، ومرآة الزمان (٩٣/٢ و ٩٤)، وصفة الصفة (٢/٥٢٥) مع الجمع والتصرف بينها. وأعتقد أنّ هذه القصة من القصص المتكلفة لتزيين شخصية هؤلاء الزهاد نساءً ورجالاً، هذا؛ وإن سمة التكلف تبدو من خلال القصة.

(٢) صفة الصفة (٢/٥٢٦).

(٣) «غروبهم»: «الغرب»: عُرُقٌ في العين يسقى ولا ينقطع، والدّمع، ومسيله، أو انهلاله من العين، والفيض من الدّمع. (القاموس المحيط ص ١٥٣)، والمعنى هنا: سالت دموعهم من خشية الله تعالى.

(٤) «الأَبَاقُ»: يُقال: أبق العبد: ذهب بلا خوف، أو استخفى ثم ذهب، والمعنى هنا: فروا إلى الله تعالى.

يَضْجُونَ إِلَى اللَّهِ وَدَمَعُ الْعَيْنِ مَهْرَاقٌ^(١)

* وبعد - قارئ العزيز -، فهذه امرأة قد غفل عنها التاريخ غفلةً، لكنه لم ينسها، وإنما رسمها في دائرته، وحفظها في سجله لتكون من ربّات الورع والعبادة في عالم النساء التاسكات. وأرجو أن أكون قد عرّفت - القارئ الكريم - سيرة امرأة عابدة عاشت في مرحلة شباب الدولة العباسية، وفي العصر الذهبي لكبار العلماء والزهاد في الدنيا، وفي عاصمة الخلافة في نهاية القرن الهجري الثاني وأوائل القرن الثالث.

* ولا نعلم متى توفيت مخّة بنت الحارث، إلا أن وفاتها كانت بعد وفاة أخيها بشر^(٢) في حدود سنة (٢٣٠ هـ) على أغلب الظن، والله أعلم.

تلكم مخّة ابنة الحارث معلّمة الزهاد، ومرشدة الورعين، وسيّدة زاهدات آل الحارث، فرحمها الله، وجعلها من الصالحين، والحمد لله ربّ العالمين.

* * *

(١) إنّ هؤلاء الزهاد الذين عرفوا الله - عزّ وجلّ - معرفةً حقيقيةً، قد اتصلت قلوبهم به على أساس صحيح، فإنّ دموعهم في الدجى ذوارف، لما بين أيديهم من المخاوف، يغسلون بالبكاء ذنوب الصّحائف، إذا جنّ الليل فالتقدم واقف، والدمع مساعد والحزن مساعف، يفرعون إلى التذكر إذا مسهم طائف، أحوالهم عجاب وأمورهم طرائف، والله درّ من وصف أحوالهم فقال:

أولئك قومٌ إنّ بنّوا أحسنوا البنا
وإنّ عاهدوا أوفوا وإنّ عقّدوا شدّوا
وإنّ كانت النعماء فيهم جزوا بها
وإنّ أنعموا لا كدّوها ولا كدّوا
وحديثني يا سعد عنهم فزدتني
جنوناً فردني من حديثك يا سعد
(٢) توفي بشر الحافي في شهر ربيع الآخر من سنة (٢٢٦ هـ)، وقيل سنة (٢٢٧ هـ) ودُفن ببغداد.

وهناك إشارات تدل على أن مخّة قد توفيت قبل أخيها بشر، إلا أن هذه الإشارات لا توحي بأنّها هي المتوفاة قبل أخيها، بل تدلّ على أن أختها مضغة هي التي توفيت قبله، وقد بكأها كثيراً، وأشار إلى مكانتها في نفسه؛ والله تعالى أعلم.

٢٣

نفيسة بنت الحسن

الأصلُ الطاهرُ الثَّابِتُ:

* هذه امرأةٌ سليلَةُ المكارمِ والطُّهرِ، وإحدى نساءِ البيتِ النَّبويِّ الطَّاهِرِ،
ممن أذهبَ اللهُ عنه الرَّجسَ وطَهَّرَه تطهيراً، إِنَّهَا نَفِيسَةٌ بنتُ الحسنِ بنِ
زيدِ بنِ الحسنِ بنِ عليٍّ - رضي اللهُ عنهما -، السَّيِّدَةُ المَكْرَمَةُ الصَّالِحَةُ،
العلويَّةُ الحُسَيْنِيَّةُ الحُسَيْنِيَّةُ، الكريمةُ النَّسِيبَةُ، صاحبةُ المناقبِ الجسيمةِ^(١).

* ونَفْسِيَّةٌ ذاتُ أصلٍ نديٍّ شذِيٍّ ثابتِ الأصولِ، متطاوُلُ الفروعِ في ذِرا
المكارمِ، يَعْرِفُهَا الخاصُّ والعامُّ، كما يَعْرِفُ كَمَالَ أَهْلِ البيتِ، دُونَ علامةٍ،
إِذْ سِيماهُمْ في وجوههم دَلِيلٌ عليهم يَشْهَدُ لهم، ولقد أَصابَ ابنُ جابرٍ
الأندلسيُّ حينما قالَ:

جَعَلُوا لِأَبْنَاءِ الرَّسُولِ عَلامَةً

إِنَّ العَلامَةَ شَأْنٌ مَن لَمْ يُشْهَرِ

نورُ النَّبَوَّةِ في كَريمٍ وجوهِهم

تَغني الشَّريفَ عَنِ الطَّرَازِ الأَخْضَرِ

* وقالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بنِ بركة الدَّمَشْقِيِّ المَزِينِ المَتوفى سَنَةَ

(٨١١ هـ):

أَطْرَافُ تَيْجَانٍ أَتَتْ مِنْ سُنْدُسٍ

خُضِرَ بِأَعْلَامٍ عَلَى الْأَشْرَافِ

(١) وفياتُ الأعيان (٤٢٣/٥ و ٤٢٤)، وفياتُ الوفيات (٦٠٧/٢)، والتَّجْوَيمُ الزَّاهِرَةُ
(١٨٥/٢ و ١٨٦)، وسيرُ أعلامِ النَّبلاء (١٠٦/١٠ و ١٠٧)، وحُسْنُ المُحَاضَرَةِ
(٢١٨/١)، وشذراتُ الذَّهَبِ (٤٣/٣)، وخططُ عليٍّ مَبَارَكٍ (٣٠٧/٧ - ٣١٢)،
والدُّرُّ المُنْثُورُ في طبقاتِ رَبَّاتِ الخُدُورِ (ص ٥٢١ - ٥٢٤)، والحَقِيقَةُ والمَجَازُ
لِلنَّابِلِسِيِّ (ص ١٨٩ و ١٩٠)، ورحلَةُ ابنِ بطوطة (ص ٣٤ و ٣٥)، ومِراةُ الجَنانِ
(٤٣/٢ و ٤٤)، والبدايةُ والنِّهايةُ (٢٧٤/١٠)، وأعلامُ النِّساءِ (١٨٧/٥ - ١٩٠)،
ونورُ الأبصارِ (ص ٢٠٧ - ٢١٤)، وجامعُ كراماتِ الأولياء (٥٠٩/٢ - ٥١٣)،
والرُّوضَةُ الفِحاءُ في تواريخِ النِّساءِ (ص ٢٥٩ و ٢٦٠) وغيرها كثيرٌ جداً.

والأشرفُ السُّلْطَانُ خَصَّهُمْ بِهَا

شَرَفاً لِيَفْرُقَهُمْ مِنَ الْأَطْرَافِ^(١)

* ولدت هذه المرأة الشريفة الصالحة الخيرة في البلد الأمين، في أمّ القرى مكة المكرمة سنة (١٤٥ هـ)، وأمّها أمّ وَلَدٍ، تزوّجها إسحاق بن جعفر الصادق بن محمّد الباقر، فولدت له ولدين هما: القاسم^(٢)، وأمّ كلثوم.

* وبعد زواجها من إسحاق، تزوّجها الحسنُ بنُ زيد بن الحسن، فولدت له بطلةً ترجمتها نفيسة، ذات المزايا النفيسة.

وفي ظلالِ هذا البيت الطاهر، نشأت نفيسة بين أنفاس التوبة، وعبق الطهارة، وأنداء المكارم، وعلى هذه الخلال الطاهرة، درجت نفيسة حتى غدت من أشهر نساء عصرها ديناً وصيانة، وبلغت حدّاً من الصّلاح والرّهد لا مزيد عليه.

* كان أبوها الحسنُ بنُ زيد بن الحسن «أبو محمّد» شيخ بني هاشم في زمانه، ومن الأشرافِ التّابِهيّين، وهو معدودٌ من التّابعين، وكان بنو هاشم يرجعون إليه في أمورهم، حيث حبّاه الله معرفةً وعِلْماً وفضلاً وفُضْلاً خِطَاب، ناهيك بما ألبسه الله من تاج الهيبة والدين وزكاء الأصل.

* ففي خلافة أبي جعفر المنصور^(٣) الخليفة العباسي، استعمل

(١) انظر: شذرات الذهب (٣٨٧/٨) طبعة دار ابن كثير المحقّقة؛ وسبب هذه الأبيات

والتي قبلها، أنّه في سنة (٧٧٣ هـ) أمّر السُّلْطَانُ الْمَلِكُ الْأَشْرَفُ الْأَشْرَافُ أَنْ يَمْتَازُوا عَنِ النَّاسِ بِعَصَائِبِ خَضِرٍ عَلَى الْعِمَائِمِ، فَفَعِلَ ذَلِكَ بِمِصْرَ وَالشَّامِ وَغَيْرِهَا.

(٢) قال الإمامُ الذّهبي - رحمه الله -: وكان أخوها القاسمُ رجلاً صالحاً، زاهداً، خيراً، سكن نيسابور، وله بها عقب، منهم السيّد العلوي الذي يروي عنه الحافظ البيهقي (سير أعلام النبلاء ١٠٧/١٠).

(٣) أبو جعفر المنصور، عبدُ الله بن محمّد العباسي، المؤسّسُ الحقيقي لخلافة بني العبّاس، كانت خلافته (٢٢) سنة، وكان ذا حزم وعزم ودهاء ورأي وشجاعة وعقل؛ رُوي أنّه لما عزم على قتل أبي مسلم الخراساني فيما كتب إليه ابن عمّه =

المنصور الحسن بن زيد أميراً على المدينة المنورة خمس سنوات كوامل، كان خلالها من أفضل الناس رياسةً وشهامةً وقدرًا، وشهدت نفيسة أيام عز أبيها، ورأت مكانته ورفعته بين الناس، فلم تزد إلا عبادةً وتقرباً من العلي الكبير، وكانت لا تفارق مسجد النبي ^(١) ﷺ.

* وطارَت شهرة الحسن بن زيد في الدنيا، مما جعل أبا جعفر المنصور يعزله عن المدينة، ثم أوجس المنصور خيفةً في نفسه من الحسن بن زيد هذا، فاستدعاه إلى بغداد، وأودعه غياهب السجن، بعد أن أخذ ماله، وما كان يملكه، ولم يزل الحسن في حبس المنصور، حتى مات المنصور ليلة السبت، في السادس من ذي الحجة سنة (١٥٨ هـ)، وهو في طريقه إلى الحج.

* وبُوع بالخلافة لابنه المهدي فأتته الخلافة منقادةً تجرُّ أذيالها، وكان المهدي محمود السيرة والعهد، محبباً إلى الرعية، حسن الخلق، جواداً يجلس للمظالم بنفسه، وأخباره كثيرة، ولم يل الخلافة أحدٌ أكرم منه ^(٢).

* وكان المهدي - رحمه الله - يعلم علم اليقين ما للحسن بن زيد من مكانة في نفوس الناس، وماله من محبة في القلوب على اختلاف المشارب والأهواء؛ هنالك دعا بالحسن وأخرجه من السجن، وأحسن مثواه، وردَّ

= عيسى بن موسى :

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكنْ ذا رويةٍ فإنَّ فسادَ الرأي أنْ تتعجَّلا
فكتبَ إليه المنصور :

إذا كنتَ ذا رأيٍ فكنْ ذا عزيمةٍ فإنَّ فسادَ الرأي أنْ تترددا
وُلِدَ المنصور سنة (٩٥ هـ) وتوفي في ذي الحجة سنة (١٥٨ هـ) في مكة وعمره (٦٣) سنة . (مرآة الجنان ١ / ٣٣٤ - ٣٣٩).

- (١) ذكر «مؤمن الشلبنجي» أنَّ أباهما الحسن كان يأخذ بيدها إلى القبر النبوي الشريف ويقول: يا رسول الله، إنِّي راضٍ عن بنتي نفيسة، ويرجع، فما زال يفعل، حتى رأى النبي ﷺ في المنام وهو يقول: أنا راضٍ عن ابنتك نفيسة برضاك عنها، والحق سبحانه وتعالى راضٍ عنها برضاي عنها. !!! (نور الأبصار ص ٢١٤ و ٢١٥).
- (٢) مرآة الجنان للياضي (١/ ٣٥٦).

عليه كلّ ما كان أخذه أبوه المنصور منه^(١)، وبالغ في إكرامه وإعظامه، وعرف له مكانه من البيت النبوي الطاهر، ومكانته من الناس، ومن بني هاشم بشكل خاص. لذلك قرّبه وأدناه منه، فلم يزل معه، وطلب منه أن يرافقه في رحلته إلى البيت الحرام لأداء فريضة الحج، واستجاب الحسن، فخرج مع المهدي في حجه سنة (١٦٨ هـ)، ولما كان بالحاجر^(٢) وافته المنية، وعمره (٨٥) سنة، - رحمه الله تعالى -، وصلى عليه علي بن المهدي^(٣).

* وكان لوفاة الحسن كبير الأثر في نفس السيّدة نفيسة التي عرفت حقيقة الدنيا، فعزفت عنها، وتفرّغت لأموار دينها وآخرتها، لتسجل بذلك سجلاً فريداً وضيئاً في مرآة جبين الأيّام، ولتكون درّة العقد الفريد في نساء الأنام، في تلکم الأيّام.

صُورٌ مِنْ زُهْدِهَا وَعِبَادَتِهَا:

* بلغت نفيسة ابنة الحسن شأواً بعيداً في العبادة والفلاح، وكانت من الصّلاح والزهد بمكان لا ترتقي إليه امرأة ممن عاصرناها، فمنذ بداية نشأتها، تعلّقت بحبّ كتاب الله تعالى، فكانت موصولة القلب بالعزیز الحميد، تقرأ كتابه حين تصبح، وحين تمسي، وحين تُظْهر، وواظبت على قراءته مدة حتى حفظته، وأجادت استظهاره كاملاً.

* ثم إنَّ نفسها تابقت لمعرفة علوم القرآن، فراحت تتابع علوم التفسير حتى رسخت في هذا الفن، وتمّ لها ما أرادت، وغدت متفردة في معرفة تفسير القرآن العظيم، والوقوف على أسرار معانيه، والتبحر في آفاق مثانيه،

(١) انظر: النجوم الزاهرة (٢/ ١٨٥ و ١٨٦).

(٢) «الحاجر»: قرية مشهورة على خمسة أميال من المدينة المنورة. قال اللغويون عن معنى الحاجر: الحاجر الأرض المرتفعة التي وسطها منخفض. والحاجر أيضاً: ما يمسك الماء من شقة الوادي.

(٣) انظر: وفيات الأعيان (٥/ ٤٢٣ و ٤٢٤) بشيء من التصرف اليسير.

فامتلاَّت نفسُها نوراً، وقلبها علماً وحكمةً من معرفتها إتقان علوم القرآن وحفظه وتفسيره^(١).

* ولما اكتملت لها هذه الأمور النفيسة، حرصت أشدَّ الحرص على الطَّاعات، وأداء الفروض، فكانت وهي في المدينة، ثم في بغداد تكثُر من أداء فريضة الحجِّ إلى البلد الأمين، وهناك تتزاحمُ ذكرياتُ البلد الأمين والبيت العتيق في مخيلتها، فإذا بها تتعلَّقُ بأستارِ الكعبة الشَّريفة، وتناجي مولاها، وهي تذرفُ دموعَ الخشية وتقول: إلهي وسيدي ومولاي، متَّعني وفرحني برضاك عني.

* ولشدة شغفها بفريضة الحجِّ، وامتعتها في أداء هذه الفريضة، حجَّت ثلاثين حجةً في حياتها، وهذا شيءٌ عجيبٌ في حياة نساء ذلك العصر، لما كان من مشقَّة في أداء هذه الفريضة العظيمة.

* ويبدو أنَّ نفيسة - رحمها الله - قد وجدت لذةً عظيمةً في العبادة، ومناجاة الله تعالى، فكانت كثيرة البكاء والخُضوع بين يدي الله، تديمُ قيامَ الليل، والدُّعاء في الأسحار، ثمَّ تصومُ النَّهار، بل كانت ممن سرَّدن الصَّيام أكثر من ثلث قرن من الزَّمان، ووردَ أنَّها كانت تقلُّ من تناولِ الطَّعام، فلا تأكل إلا مرَّةً واحدةً في كلِّ ثلاث ليال، وكانت في ذلك شديدة الورع، فلا تأكل من غير مال زوجها شيئاً، خيفة أن يكونَ مال غيره مشوباً بشيءٍ من الحرام.

* إنَّ هذه العبادة المباركة التي اقتربت من نصفِ قرن، قد لفتت نظرَ زينب بنت يحيى المتوج - ابنة أخيها -، فوصفت صورة عبادتها، ولزومها الطَّاعات فقالت: خدمتُ عمَّتي نفيسة أربعين سنة، فما رأيُّها نامتِ الليل، ولا أفطرت بنهار، فقلتُ لها: أمَّا ترفقين بنفسك يا عمَّته؟

* فقالت: يا ابنة أخي، وكيف أرفقُ بنفسي، وقدَّامي عقبات لا يقطعها إلاَّ الفائزون^{(٢)؟!!}

(١) انظر: الخطط التوفيقية (٣٠٧/٧) بتصرف.

(٢) أعلام النِّساء (١٨٧/٥) بتصرف يسير جداً.

* وكانت نفيسة مع هذا كله ذات مال وغنى، فكانت تنفق أموالها في الإحسان إلى الفقراء، والزمنى، والمرضى، وعموم الناس تبتغي بذلك وجه الله ومرضاته^(١).

زَوَّجَهَا وَاسْتَقَرَّاهَا فِي مِصْرَ:

* لما بلغت نفيسة مبلغ النساء تزوجها ابن عمها إسحاق بن جعفر المشهور بلقب «المؤتمن»، وأنجب له ولداً اسمه القاسم، وبنثاً اسمها أم كلثوم.

* ومكثت نفيسة مدة في المدينة المنورة، ثم انتقلت إلى مصر مع زوجها، ولقدوم نفيسة مصر سبب لطيف، وذلك أنها حجّت ثلاثين حجة راکبة في بعضها، وماشية في بعضها، وكانت تقرأ القرآن الكريم وتفسره وتقول: إلهي عليّ زيارة قبر خليلك إبراهيم - عليه السلام -، فحجّت سنة، وقضت حجتها، وتوجّهت مع زوجها إلى بيت المقدس، فزارت قبر الخليل، وأتت مع زوجها إلى مصر في رمضان، وذلك في سنة (١٩٣ هـ) وعمرها إذ ذاك (٤٨ سنة).

* كان لقدوم نفيسة إلى مصر أمرٌ عظيم، فتلقّاها الرجال والنساء بالهوادج من العريش، ونزلت أول الأمر عند كبير التجار بمصر ويدعى: جمال الدين عبد الله بن الجصاص؛ وكان من أصحاب المعروف والبر، فأقامت عنده شهوراً يأتي إليها الناس من سائر الآفاق للتبرّك، ثم إنها تركت منزل ابن الجصاص، وانتقلت إلى مكانها المدفونة به الآن، وقد وهب لها هذا المكان السري بن الحكم أمير مصر آنذاك.

* ولهبة أمير مصر السري بن الحكم بيت نفيسة قصة عجيبة، وذلك أن بنتاً من بنات اليهود كانت مريضة مرضاً مزمناً، ولا يتوقع أحد شفاءها لملازمة المرض إياها منذ أمدٍ طويل، فجاءت أم هذه البنت الزمنة إلى

(١) الخطط التوفيقية (٧/٣٠٨) بتصرف يسير.

نفيسة، وتركتها عندها، وذهبت إلى الحمام، فشفأها الله بركة السيِّدة نفيسة - رضي الله عنها - .

* ولما كُتِبَ الشِّفاء المفاجيءُ لهذه الفتاة اليهودية، أعلنت إسلامها على يدِ نفيسة، وجاءت أمُّها فرأت ابنتها معافاةً سليمةً، هنالك أسلمت الأمُّ أيضاً، ثمَّ امتدَّ ظلالُ الإسلام ليشمل أبا الفتاة، وشملتْ تلَكم التَّفحات أيضاً جماعةً من الجيران، حتى قيل: إنّ عددَ مَنْ أسلمَ في هذه الحادثة سبعون نفرًا وداراً في ذلك النَّهار، أو تلك الليلة^(١).

* وشاعتْ هذه القصَّة في مصرَ، وفاح أريجُها في القاهرة، ولما علمَ النَّاسُ ذلك، لم يبقَ أحدٌ إلا جاءَ يقصدُ زيارتها، ويتبرَّك بها، وكثر النَّاسُ عليها حتى اتخذوا إلى بابها طُرُقاً، هنالك طلبتِ الرِّحيلَ إلى بلاد الحجاز، وإلى موطنها الأصلي، فشقَّ ذلك على المصريين، وصعُبَ عليهم فراقها، فسألوها الإقامة، ورجوها ألا ترحل، ولكنَّها أَبَتْ ذلك، هنالك ركبَ إليها السَّري بن الحكم، وسألها الإقامة في الدِّيار المصرية، فقالت له: أيُّها الأمير، إنِّي امرأةٌ ضعيفة، وقد شغلني أهلُ مصرَ عن جَمْع زادي لمعادي، ثمَّ إنّ مكاني هذا قد ضاقَ بالجموعِ الكثيفةِ الغاديةِ والرَّائحةِ.

* فقال لها السَّري: يابنة الكرام، وسليلة الأطهار الأخيار؛ أمّا ما تجدينه من ضيق المكان، فإنَّ لي داراً واسعة في درب السَّباع، وإنِّي أشهدُ الله تعالى أنِّي قد وهبْتُها لك، وأسألك أن تقبليها مِنِّي؛ وأمّا الجموعُ الوافدة، فَلَكِ أن تقرري معهم موعداً، وذلك أن يكون في يومين في الجمعة إذا رغبتِ، واجعلي باقي أيَّامك في خدمةِ العزيز الجليل.

* هنالك قبلتْ نفيسة هذه الشُّروط، وجعلتْ للنَّاس يومَ السَّبت، ويومَ الأربعاء، إلى أن لقيتْ وجه ربِّها في هذا المكان^(٢).

(١) الخطط التوفيقية (٣٠٩/٧) بتصرف يسير.

(٢) الخطط التوفيقية (٣٠٩/٧) بتصرف يسير، وانظر الدر المنثور (ص ٥٢٢)، والنجوم الزاهرة (١٨٦/٢)، ونور الأبصار (ص ٢٠٨ و ٢٠٩).

* ولما وردَ الإمامُ الشَّافعي - رحمه الله - مصرَ، كانت نفيسةٌ تحسُنُ إليه، وربَّما صلَّى بها التَّراويحَ في شَهْرِ رَمَضانَ^(١)؛ ويروى أنَّ الشَّافعيَ لما دخلَ مصرَ سنة (١٩٩ هـ) حضرَ إليها، وسمعَ عليها الحديثَ^(٢)، وكانت نفيسةٌ تكرمه وتري له الفضلَ والمنزلةَ والمكانةَ العليا، وقد ورد أنَّ الشَّافعيَ قد زارَ نفيسةَ وهي من وراءِ حجابٍ وكان بصحبته عبد الله بن الحكم، وقال لها: يا نفيسة، ادعي لي^(٣)؛ ولما توفي الشَّافعي، أُدخِلَتْ جنازته إليها، فصلَّت عليه في دارها.

نَفِيسَةُ وَعَالَمٌ مِنَ الْكَرَامَاتِ :

* قال صاحب «النَّجوم الزَّاهرة» عن نفيسة في ختام ترجمته لها: وهي صاحبةُ الكراماتِ والبُرْهان، وقد شاعَ ذِكْرُها شرقاً وغرباً^(٤).

* وقال علي مبارك - رحمه الله - في خُططه: وللمصريين فيها اعتقادٌ عظيمٌ، وهو باقٍ إلى الآن كما كان باقٍ^(٥).

* وقال أيضاً: لما وردت مصرَ صار لها الشَّهرة التَّامة، وصار لها القبول التَّام بين الخاص والعام^(٦). وقال: وكراماتها ومناقبها جليلة، وقد أقبلَ على زيارتها في الحياة وبعد الممات خلُقٌ لا يحصون من العلماء والخلفاء والأولياء وغيرهم^(٧). وقد أخذ أربابُ الدَّولة في العمارة بجوار ضريح السَّيدة نفيسة للتَّبَرُّك بها قديماً وحديثاً، فمنهم صاحبة السَّتر الرَّفيع، والحجاب المنيع، أم السُّلطان الملك العادل سيف الدِّين أبي بكر بن أيوب،

(١) الحقيقة والمجاز (ص ١٨٩).

(٢) وفيات الأعيان (٤/٤٢٤).

(٣) أعلام النِّساء (٥/١٨٨) بتصرف يسير جداً. وانظر: الخطط التوفيقية (٧/٣٠٧).

(٤) النجوم الزاهرة لابن تغري بردي (٢/١٨٦).

(٥) الخطط التوفيقية (٧/٣٠٨).

(٦) المصدر السابق (٧/٣٠٨).

(٧) المصدر السابق (٧/٣٠٩).

أنشأت رباطاً بجوارها، والملك الناصر محمد بن قلاوون أمر بإنشاء جامعٍ بخطبةٍ وشيّد بناءه .

* ولما مات أحمد بن العباس^(١) المعروف بالأسمر سنة (٧٠١ هـ)، أمر السلطان محمد بن قلاوون أن يُدفنَ بالمشهد النفيسي، فدفنَ هنالك، وبُنيت له قبةٌ، وهو أوّل خليفة دُفِنَ بمصر من العباسيين، وبجوار المشهد قبور جماعة من العباسيين^(٢).

* ومما لا ريب فيه أنّ السيّدة نفيسة - رحمها الله - كانت من الصّالحات من النّساء العوابد، وممن أثرت عنهنّ العبادة والتّقوى وخوف الله، إلّا أنّنا من خلالِ قراءة أخبارها؛ أنه قد ورد عنها بعض الكرامات التي لا ترضاها هي في حياتها أو بعد مماتها، ولعلّ سواد النّاس هم الذين بالغوا في أخبارها، وألحقوا بها من الكرامات أشياء توصلُ بهم إلى الشّرك - والعياذ بالله تبارك وتعالى - وخصوصاً بعد وفاتها، وإلى أيّام قريبة من أيامنا هذه .

* وللإمام الذهبيّ - رحمه الله - قولٌ نفيس عن نفيسة، يصلحُ أن نوردَه حيث قال : لم يبلغنا كبير شيءٍ من أخبارها^(٣).

* ومما يثلجُ الصّدور، ويدفئُ المقرور، ويقرّ العيون المبصرة، ما أورده الإمامُ الذهبيّ عن المغالاة في حق السيّدة نفيسة حيث قال : ولجهلة المصريين فيها اعتقادٌ يتجاوزُ الوصف، ولا يجوز مما فيه من الشّرك،

(١) قال الياضي : وفي سنة (٧٠١ هـ) توفي أمير المؤمنين أبو العباس أحمد العباسي، ودفنَ عند السيّدة نفيسة - رضي الله عنها -، وكانت خلافته أربعين سنة وأشهر . (مرآة الجنان ٤/ ٢٣٥).

(٢) قال ابنُ العماد الحنبلي - رحمه الله - : توفي أبو العباس أحمد العباسي ليلة الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة (٧٠١ هـ)، وصُلّي عليه العصر بسوق الخيل تحت القلعة، وحضر جنازته رجال الدّولة والأعيان كلّهم مشاة، ودفنَ بقرب السيّدة نفيسة، وهو أوّل مَنْ دُفِنَ منهم هنالك، واستمرّ مدفنهم إلى الآن، قاله السيوطي (شذرات الذهب ٧/ ٦ و٧) طبعة دار ابن كثير المحققة .

(٣) سير أعلام النبلاء (١٠/ ١٠٦).

ويسجدون لها، ويلتمسون منها المغفرة.

* وللحافظ ابن كثير - رحمه الله - قولٌ يتوافق مع ما قاله الذهبي في المبالغة بكرامات السيدة نفيسة فيقول: وإلى الآن - أي: عصر ابن كثير وهو القرن الثامن الهجري - قد بالغ العامة في اعتقادهم فيها، وفي غيرها كثير أجداً، ولا سيما عوام مصر، فإنهم يُطلقون فيها عبارات بشعة مجازفة تؤدي إلى الكُفر والشُّرك؛ وألفاظاً كثيرة ينبغي أن يعرفوا أنَّها لا تجوز، وربما نسبها بعضهم إلى زين العابدين، وليست من سلالة، والذي ينبغي أن يُعتقد فيها ما يليق بمثلها من النساء الصالحات، وأصل عبادة الأصنام من المغالاة في القبور وأصحابها، وقد أمر النبي ﷺ بتسوية القبور وطمسها، والمغالاة في البشر حرام، ومن زعم أنَّها تفك من الخشب أو أنَّها تنفع أو تضرُّ بغير مشيئة الله، فهو مشرك^(١).

مِنْ قَصَصِ الْكَرَامَاتِ الْمَرْعُومَةِ:

* أمامي عددٌ هائلٌ من القصص والكرامات التي نسبت إلى السيدة نفيسة، لا يمكن قبولها بسهولة وبساطة، أو وزنها في ميزان الشريعة السليم؛ حيث إنَّ بعضها يدعو إلى الضحك أحياناً، وإلى المغالطات التاريخية التي لا يقبلها من له أدنى اطلاع على تواريخ وفيات الأعيان في تاريخنا الوضيء الزاهر.

* وها نحن أولاء نوردُ بعض تلكم القصص وهاتيكم الكرامات، ونُعلّق على بعضها، ونترك بعضها لذوق القارئ الكريم، كيما يعالج ويناقش ويحاكم هذه الخرافات التي تفسد المزاج، ناهيك بأنَّها تشوّه الصورة الحقيقية للسيدة نفيسة، وتفسد صفاء نفسها التي عرفت بها في حياتها.

(١) انظر: البداية والنهاية لابن كثير (٢٧٤/١٠)؛ والحقيقة فهذا كلام نفيس من ابن كثير.

* فمن هذه القصص ما ادّعه قوم بأنّ السيّدة نفيسة قد التقت رابعة العدوية، وكانتا متعاصرتين^(١).

* وقريبٌ من هذا، بل ممّا يضحك ويبكي في آنٍ واحد هذه القصة التي تجاوزت التاريخ لتؤكد كرامة السيّدة نفيسة، تقول القصة:

* لما ظلمَ أحمد بن طولون قبل أن يعدلَ، استغاثَ النَّاسُ من ظلمه، وتوجّهوا إلى نفيسة يشكونه إليها. فقالت لهم: متى يركب؟ قالوا: في غد. فكتبتُ رقعةً، ووقفتُ بها في طريقه، وقالت: يا أحمد بن طولون؛ فلما رآها عرفها، فترجّل عن فرسه، وأخذَ منها الرقعة وقرأها، فإذا فيها: ملكتم فأسرتم، وقدرتم فقهرتم، وخولتم فعسفتم، وردّت إليكم الأرزاق فقطعتم، هذا وقد علمتم أنّ سهامَ الأسحار نافذةٌ غير مخطئة لا سيما من قلوب أوجعتموها، وأكبادٍ جوّعتموها، وأجسادٍ عريتموها، فمحال أن يموتَ المظلوم ويبقى الظالم، اعملوا ما شئتم فإنّا صابرون، وجوروا فإنّا بالله مستجيرون، واذلموا فإنّا إلى الله متظلمون، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٢٢٧]؛ فعَدَلَ لوقته^(٢).

* وسأوردُ بضعَ قصصٍ أتركُ الحكمَ عليها للقارئ الكريم، لكي يدركَ

(١) هذا الادعاء باطل، حيث إن نفيسة ولدت سنة (١٤٥ هـ) بينما كان موت رابعة العدوية سنة (١٣٥ هـ) - على رأي بعضهم - فكان بين مولد نفيسة وموت رابعة عشر سنين.

(٢) انظر القصة في أعلام النساء (١٨٨/٥). وهذه القصة المُختَرعة تنافي التاريخ، حيث إنّ أحمد بن طولون المذكور قد وُلِدَ في سامراء في (٢٣) رمضان سنة (٢٢٠ هـ)، ودخل مصر سنة (٢٥٤ هـ)، ومات سنة (٢٧٠ هـ) بمصر، ونفيسة ماتت سنة (٢٠٨ هـ)، وبين مولده ووفاتها (١٢) سنة فمتى التقيا وكيف؟! ثم إنّ نفيسة كانت تقرأ القرآن فقط، ولا تحسنُ الكتابة، فمتى كتبتُ هذه الرسالة التي يعجزُ فحولُ البلغاء عن صياغتها؟! ناهيك بأنّ أسلوبَ هذه الرسالة يقتربُ من القرن الرابع الهجري عصر النثر الفني، ولكن هكذا طابَ لواضع القصة أن يتخطى الزّمان، ويجمعَ بين الأشخاص!!

مدى الشُّخْرية والسُّخْف فيما نُسِبَ إلى نفيسة، فمن ذلك ما أورده مؤمن الشُّبْلَنْجِي في كتابه «نور الأبصار» عن كراماتها حيث أوردَ عن سعيد بن الحسن قال: توقَّفَ النَّيْلُ في زمنِ نفيسة - لاحظ توقُّفَ النَّيْلِ -، فجاءَ النَّاسُ إليها، وسألوها الدُّعاء، فأعطتهم قناعها، فجاءوا به إلى البَحْرِ - أي: النَّيْلِ - وطرحوه فيه، فما رجعوا حتى أوفى البحر، وزادَ زيادةً عظيمةً^(١).

* وذكرَ الشُّبْلَنْجِي أيضاً في كتابه أنَّ «جوهرة» جارية السيِّدة نفيسة أخذت إبريق السيِّدة تملؤه، فوضعتُه، فجاءَ ثعبانٌ يتمسَّحُ برأسه كأنَّه يتبرَّك به^(٢).
- لاحظ تبرَّك الزَّواحِف بالإبريق -.

* ومع فيضِ الكرامات المزعومة، يُروى أنَّه استجارَ بالسيِّدة نفيسة رجلاً ثري مشهورٌ من ظلم بعض الولاة، وتعدَّيهم عليه، وأخذهم لماله، حتى غدا فقيراً لا يملك شيئاً، فدعت له، فلم يلبث أن عادَ معزَّزاً مكرَّماً، فأرسلَ إليها بمالٍ عظيم شكراً لها؛ فوزَّعته على الفقراء كلَّه، وكانت في ذلك اليوم لا تملك قوتَ يومها.

* واقرأ هذه الكرامة التي يعتقدها كثيرٌ ممن أكلت الخرافات عقولهم؛ تقولُ الكرامةُ العَجَفَاء: قيل لزينب بنت أخي السيِّدة نفيسة: ما كان قوتُ السيِّدة نفيسة؟

* قالت: كانت تأكلُ في كلِّ ثلاثةِ أيَّام أكلةً، وكانت لها سلَّةٌ معلَّقة أمامَ مصلاها، فكانت كلما اشتَهت شيئاً وجدته في السلَّة، وكنتُ أجِدُ عندها ما لا يخطرُ بخاطري، ولا أعلم مَنْ يأتي به!! فتعجَّبتُ من ذلك!! فقالت لي: يا زينب من استقامَ لله تعالى كان الكونُ بيده وفي طاعته^(٣).

(١) نور الأبصار (ص ٢١٠).

(٢) انظر: نور الأبصار لمؤمن بن حسن مؤمن الشُّبْلَنْجِي (ص ٢٠٧ - ٢١٤) حيث تجد فيه مثل هذه القصص التي لا تسمُن ولا تغني من جوع، ناهيك بركاكتها، وهلهلتها!!

(٣) انظر: نور الأبصار (ص ٢٠٧).

* ومن كراماتها: ما رُوي أيضاً أنَّ فتاةً يهوديةً قد أصابها مرضٌ أقعدها عن المشي سنواتٍ طويلة حتى يئست ويئس أهلها من شفائها، ولكنها لجأت إلى السيِّدة نفيسة فشُفيت، فكيف كان ذلك؟! وكيف لحق الشِّفاء هذه المسكينة المُقعَّدة؟!

* تقولُ القِصَّة المزعومة: كان في جوارِ نفيسة حينما قدمت إلى مصر - ونزلت في دار جمال الدِّين عبد الله بن الجصاص فأقامت بها مدَّة شهور - يهود من جملتهم امرأة يهودية لها ابنة زَمَنَة لا تقدُرُ على الحركة، فأرادتِ الأمُّ أن تذهبَ إلى الحَمَّام، فسألت ابنتها الزَّمنة أن تُحملَ إلى الحمام، فامتنعتِ البنتُ من ذلك، فقالت لها أمُّها: تقيمين في الدَّار وحدك!!

* فقالت لها: أشتهي أن أكونَ عند جارتنا الشَّريفة حتى تعودِي .

* فجاءتِ الأمُّ إلى السيِّدة نفيسة، واستأذنتها في ذلك، فأذنتُ لها، فحملتها ووضعتها في زاويةٍ من البيت وذهبت، ثمَّ إنَّ السيِّدة نفيسة توضأت، فجرى ماء وضوئها إلى البنتِ اليهودية، فألهمها اللهُ سبحانه وتعالى أن أخذت من ماءِ الوضوء شيئاً قليلاً بيدها ومسحتُ به على رجليها، فوقفَتْ في الوقتِ بإذنِ الله تعالى، وقامت تمشي على قدميها كأنَّ لم يكنْ بها مرضٌ قط؛ هذا والسيِّدة نفيسة مشغولة بصلاتها، لم تعلمْ ما جرى، ثمَّ إنَّ البنتَ لما سمعتْ بمجيءِ أمِّها من الحَمَّام، خرجتْ من دارِ السيِّدة حتى أتَتْ إلى دار أمِّها، وطرقتِ الباب، فخرجتِ الأمُّ تنظرُ مَنْ يطرقُ الباب، فبادرتِ البنتُ، واعتنقت أمِّها، فلم تعرفها، وقالت لها: مَنْ أنت؟!

فقالت لها: أنا بنتُك .

قالت لها: وكيف قضيتُكِ؟!

* فأخبرتها بما فعلت؛ فبكتِ الأمُّ بكاءً شديداً وقالت: هذا والله الدِّين الصَّحيح، وما نحن عليه من الدِّين قبيح .

* ثم دخلتْ فأقبلتْ تقبَّل قدم السيِّدة نفيسة وقالت لها: امددي يدك، أنا أشهدُ أن لا إله إلا الله، وأنَّ جدَّك محمداً رسول الله؛ فشكرتِ السيِّدة نفيسة

رَبَّهَا - عَزَّ وَجَلَّ - وحمدته على هداها، وإنقاذها من الضلال، ثُمَّ مضت المرأة إلى منزلها، فلما حضرَ أبو البنت، وكان اسمه أيوب، ولقبه أبو السرايا، وكان من أعيان قومه؛ ورأى البنت على تلك الحالة ذُهِلَ، وطاش عقله من الفرح، وقال لامرأته: كيف كان خبرها؟! فأخبرته بقصتها مع السيِّدة نفيسة، فرفع اليهودي رأسه إلى السماء وقال: سبحانك هَدَيْتَ مَنْ تشاء، وأضللتَ مَنْ تشاء؛ والله هذا هو الدين الصحيح، ولا دينَ إلا دين الإسلام.

* ثُمَّ أتى إلى باب السيِّدة نفيسة، فمرَّغَ خَدَّيه على عَتَبَةِ بابها وأسلم وقال: أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ جدَّك محمداً رسول الله.

* ثُمَّ شاع خبر البنت وإسلامها، وإسلام أبيها وأمها، وجماعة من الجيران اليهود^(١).

* ومن القَصَصِ المزعومة التي تمتزجُ فيها أهواء شتى، ما ذكره يوسف النبهاني قال: ومن كراماتها رضي الله عنها: أنَّ رجلاً تزوَّجَ بامرأة ذمَّية، فرزقَ ولداً، وكبرَ الولدُ، ثُمَّ سافر، فأُسِرَ في بلاد العدو، فجعلت أمه تدخُلُ البيعَ، وتتضرَّع وولدها لا يأتي، فقالت لبعلها: بلغني أنَّ بين أظهركم امرأة يقال لها: نفيسة بنت الحسن الأنور؛ اذهبِ إليها لعلَّها تدعو لولدي أن يأتي، فإنَّ نجا آمنتُ على يديها، فخرجَ الرجل فأتى معبدها - لاحظْ معبدها - فقصَّ عليها القصَّة، فدعتْ له، فعادَ إلى زوجته فأخبرها، فلمَّا كان الليلُ إذا الباب يُطرق، فقامتِ المرأةُ ففتحتِ الباب، فإذا بولدها قد جاء، فقالت له: كيف كان أمرك؟

* قال: لم أشعرُ إلا ويدٌ وقعتْ على القيد، وسمعتُ قائلاً يقول: أطلقوه

(١) انظر: جامع كرامات الأولياء (٥٠٩/٢ و ٥١٠)؛ والقصة - كما ترى - ركيكة المعاني، نسجها الخرافة، وسداها التلفيق، ولحمتها الاستخفاف بالعقول. والقارىء الفطن يدرك ذلك.

فقد شفَعَتْ فيه نفيسةُ بنتُ الحسن، فما شعرتُ حتى وقفتُ على هذا الباب، فأسلمتِ المرأةُ وحَسُنَ إسلامُها^(١).

* ومن القصص المتداولة في الكتب؛ زيارة أقطاب الزهد لنفيسة، وزيارتها لهم، من ذلك ما روي أنَّ بشر بن الحارث الحافي^(٢) كان يزور السيِّدة نفيسة، فمرض بشرٌ مرّةً فعادته نفيسة، فيينا هي عنده، إذ دخل الإمام أحمد بن حنبل يعودُه، فنظر إلى نفيسة، فقال لبشر: مَنْ هذه؟

فقال له بشرٌ: هذه نفيسة بلغها مرضي فجاءت تعودني.

فقال الإمام أحمد لبشر: فاسألها تدعو لنا.

فقال لها بشر: ادعي الله لنا.

فقالت: اللهم إنَّ بشر بن الحارث وأحمد بن حنبل يستجيران بك من النَّار فأجرهما يا أرحم الرَّاحمين^(٣).

* ومن قصص الكرامات - المزعومة - ما روي أنَّ جاريتهَا «جوهرة» قد

(١) المصدر السابق (٢/ ٥١٠ و ٥١١)، وهذه القصة لا تصلح حتى «لفيلم فاشل» لركاكتها من جميع الجوانب، ولما فيها من السَّذاجة المموجة، وقد أورد ياقوت الحموي هذه القصة عن بقي بن مخلد. انظر (معجم الأدباء ٧/ ٨٤ و ٨٥) بأسلوب مقارب.

(٢) بشر بن الحارث بن عبد الرحمن أبو نصر المروزي المعروف بالحافي، ولد بشر في سنة (١٥٠ هـ) بمرو، وهو من كبار الصالحين، وأعيان الأتقياء المتورعين، والزباني القدوة، وله في الزهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث؛ ولم يتزوج قط، ف قيل له: لِمَ لا تتزوج! قال: لو أظلني زمان عمر بن الخطاب، وأعطاني كنت أتزوج. سكن بشر بغداد، وتوفي بها سنة (٢٢٧ هـ) - رحمه الله - .
(وفيات الأعيان ١/ ٢٧٤ - ٢٧٧) و(شذرات الذهب ٣/ ١٢٢ - ١٢٦).

(٣) انظر: أعلام النساء (٥/ ١٨٧ و ١٨٨)؛ وهذه القصة المزعومة لا تجوز في حق هؤلاء الأعلام الثلاثة الذين ملؤوا الدنيا علماً وزهداً، وذلك لما فيها من مخالفات شرعية واضحة.

خرجت ليلة ذات مطر شديد لتأتيها بماء للوضوء، فخاضت ماء المطر، ولم يبتل قدمها^(١)!!!

قِصَّةُ النَّفْسِ الْمَرْعُومِ فِي الْمَشْهَدِ النَّفْسِيِّ :

* من مهازل الكرامات، ونوادر الحكايات والخرافات التي تدلُّ على الاستخفاف ببعض العقول، تلك النادرة التي حصلت في مشهد السيِّدة نفيسة، والتي ذكرها عبد الرحمن الجبرتي في تاريخه حيث قال في حوادث سنة (١١٧٣ هـ) ما مفاده :

* إِنَّ خَدَّامَ الْمَشْهَدِ النَّفْسِيِّ أَظْهَرُوا عِزّاً صَغِيراً مُدَّرباً، وَكَانَ كَبِيرَهُمْ إِذْ ذَاكَ الشَّيْخُ عَبْدِ الْلطِيفِ، وَزَعَمُوا أَنَّ جَمَاعَةً أُسْرَى بِبِلَادِ النَّصَارَى، تَوَسَّلُوا بِالسَّيِّدَةِ نَفِيسَةَ، وَأَحْضَرُوا ذَلِكَ الْعِزَّ لَذْبْحِهِ فِي لَيْلَةٍ يَجْتَمِعُونَ فِيهَا لِلذِّكْرِ وَالِدَّعَاءِ، وَيَتَوَسَّلُونَ فِي خِلَاصِهِمْ مِنَ الْأَسْرِ، فَاطْلَعَ عَلَيْهِمُ الْكَافِرُ، فَزَجَرَهُمْ وَسَبَّهَهُمْ وَمَنَعَهُمْ مِنْ ذَبْحِ الْعِزِّ، فَرَأَى فِي الْمَنَامِ رُؤْيَا^(٢) أَهَالَتَهُ، فَأَعْتَقَهُمْ وَأَعْطَاهُمْ دَرَاهِمَ، وَصَرَفَهُمْ مَكْرَمِينَ. فَحَضَرُوا إِلَى مَصْرَ وَمَعَهُمُ الْعِزُّ، وَذَهَبُوا بِهَا إِلَى الْمَشْهَدِ النَّفْسِيِّ، وَكَثُرَتْ فِيهِ الْخَرَافَاتُ . . .

فمن قائل : إنَّهم أصبحوا فوجدوها عند المقام .

ومن قائل : فوق المنارة .

ومن قائل : سمعناها تتكلَّم .

ومنهم من يقول : السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ أَوْصَتْ عَلَيْهَا، وَأَنَّ الشَّيْخَ سَمِعَ كَلَامَهَا

(١) انظر : إسعاف الراغبين بهامش نور الأبصار (ص ٢٣٣)، وجامع كرامات الأولياء (٥١٢/٢)، وإنا نترك للقارئ الكريم تصوُّر هذه الحادثة، إذ ضاق تصورنا عن ذلك .

ولو أردنا أن نجمع ما نُسب إلى نفيسة من كرامات وأشعار وأوراد وما شابه ذلك لحصلنا على كتاب كبير .

(٢) لاحظ - عزيزي القارئ - هذه الرؤيا الفريدة من ذلك الرجل الفريد .

من القبر!! ثمَّ إِنَّه أبرزها للنَّاس وجعلها بجانبه، وجعلَ يقولُ ما يقولُ منَ الخرافاتِ التي يستجلبُ بها الدُّنيا.

* وتسامع النَّاسُ بذلك، وأقبلوا من كلِّ فجٍّ رجالاً ونساءً لزيارتها، وأتوا للشيخ بالتَّذور والهدايا؛ وعَرَفهم الشَّيخ عبد اللطيف هذا أنَّ العنزَ لا تأكلُ إلا قلب اللوز والفسق، ولا تشرب إلا ماء الورد والسُّكَّر المكرر^(١).

* وأتى المريِّدون من ذلك اللوز والسُّكَّر بالقناطير المقنطرة، وعملَ النَّاسُ لذلك العنز - المبارك صاحب الكرامات - قلائدَ الذهب، وأطواقَ الذهب والفضة، وافتتنوا بها.

* وشاعَ خبرُ العنز المحظوظ المبارك عند الأمراء وأكابر النساء، فجعلنَّ يرسلنَّ كلَّ على قَدَرٍ مقامه من التَّذور، وازدحمن على زيارتها^(٢).

* ولما افتتن النَّاسُ به، أرسلَ الأميرُ عبد الرحمن كتحدا إلى الشَّيخ عبد اللطيف، يلتمسُ منه حضوره إليه بالعنز المبارك، ليتبرَّكَ هو وحريمه بها، كيما تحصلَ لهم الكرامات والإشراقات.

* وركبَ الشَّيخ عبد اللطيف بغلته، والعنزُ في حجره، - ولكي تكتملَ أصولُ الكرامة - صَحْبَتُهُ الطُّبُولُ والبيارقُ، وجَمٌّ غفيرٌ من النَّاس حتى دخلَ بيت الأمير عبد الرحمن كتحدا على تلك الحالة، وتلك الهالة المزعومة.

-
- (١) لاحظْ هذه المأكولات التي لا يحظى بها سلاطين أولئك الزَّمان، ويبدو أنَّ هذا الشَّيخ قد اشتهى المأكولات، واتَّهم العنز المحظوظ!! إنَّ هذا شيءٌ عجيب!!
- (٢) يبدو أنَّ العنز له حظٌّ في كلِّ مكانٍ وزمان، فمنذ بضعة أعوام ظهرَ عنزٌ - تيس ذَكَرٌ هذه المرَّة - في شمالِ الشَّام بإحدى قُرى الجزيرة، وزعم صاحبه أنَّه يحلبُ، وأنَّ حليبه نافعٌ للعواقر ولمن لا تحملُ من النساء، هنالك تسابقُ الرجال والنساء زرافاتٍ ووحداناً، ووقفوا في صفوف أمام بيت صاحب التَّيس الذي اشتهر شهرةً عظيمةً، وأصبح حديث الساعة على كلِّ لسان، وفي كلِّ مكان، بل أصبح سَمَرُ المجالس، وألصقوا فيه من الكرامات ما ليس له حدٌّ، وقيل: إنَّ فلانة قد حملت ببركة التَّيس بعد أن أخبرها الأطباء ألا سبيلَ إلى حملها، ولكنَّ التَّيس له كرامات!! بل ربما هذا التَّيس من ذرية العنز المبارك في المشهد التَّفيسي!!! وما أشبه اليوم بالبارحة!!!

* ثُمَّ إِنَّ الشَّيْخَ عَبْدِ اللطيفِ صَعِدَ بِالْعِزِّ إِلَى مَجْلِسِ الْأَمِيرِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَعِنْدَهُ كَثِيرٌ مِنَ الْأُمَرَاءِ، فَتَلَمَّسَ بِهَا الْأَمِيرُ وَمَنْ مَعَهُ، ثُمَّ أَمَرَ بِادْخَالِهَا إِلَى الْحَرِيمِ كَيْ يَتَبَرَّكَنَ بِهَا، وَيَلْتَمِسْنَ مِنْهَا الْبَرَكَةَ وَالْكَرَامَاتِ، وَكَانَ الْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ قَدْ أَوْصَى جَمَاعَتَهُ سِرًّا بِذَبْحِهَا وَطَبْخِهَا - لِإِنْهَاءِ هَذِهِ الرِّوَايَةِ وَتَلَكُمُ الْمَشَاهِدَ - .

* فَلَمَّا أَخَذُوهَا ذَبَحُوهَا، وَطَبَخُوهَا، وَأَخْرَجُوهَا مَعَ الْغَدَاءِ، فَأَكَلُوا مِنْهَا، وَصَارَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللطيفِ - قِيَمَ الْعِزِّ - يَأْكُلُ بِشَهْيَةٍ، وَالْأَمِيرُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَقُولُ لَهُ سَاخِرًا: كُلْ يَا شَيْخَ عَبْدِ اللطيفِ مِنْ هَذَا التَّيْسِ السَّمِينِ؛ فَيَقُولُ الشَّيْخُ عَبْدُ اللطيفِ بِبَلَاهَةٍ: وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ إِنَّهُ طَيِّبٌ وَنَفِيسٌ، وَهُوَ لَا يَعْلَمُ أَنَّهَا عِزُّهُ الْمُبَارَكُ صَاحِبُ الْكَرَامَاتِ، وَكَانَ الْأَمِيرُ وَصَحْبُهُ يَتَغَامِزُونَ وَيَتَضَاحِكُونَ وَيَضْحَكُونَ مِنْ شِرَاهَةِ الشَّيْخِ الَّذِي أَكَبَّ عَلَى الْخَوَانِ وَكَانَ خِفًّا، فَلَمَّا قَامَ أَثْقَلَهُ الْقِيَامُ لِكَثْرَةِ مَا أَزْدَرَدَ مِنَ الطَّعَامِ الطَّيِّبِ النَّفِيسِ .

* وَلَمَّا أَكَلُوا وَشَرَبُوا الْقَهْوَةَ، طَلَبَ الشَّيْخُ عَبْدُ اللطيفِ الْعِزَّ، فَعَرَفَهُ الْأَمِيرُ جَلِيَّةَ الْأَمْرِ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ الْعِزَّ قَدْ صَارَتْ فِي جَوْفِهِ، وَأَنَّهَا الَّتِي كَانَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ فِي الصَّحْنِ قُبِيلَ لِحْظَاتٍ، وَأَكَلَ مِنْهَا، فَبُهِتَ الشَّيْخُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَأَخَذَتْهُ رِغْدَةٌ، وَعَلَاهُ الْإِصْفَرَارُ، وَغَلَّفَهُ الْحُزْنُ، وَسَاوَرَتْهُ الْهَمُومُ .

* وَلَكِنَّ الْأَمِيرَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ قَطَعَ عَلَيْهِ تِلْكَ الدَّهْشَةَ، ثُمَّ بَكَتَهُ وَوَبَّخَهُ عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ وَالِاسْتِخْفَافِ بِالنَّاسِ، وَأَكَلَهُ أَمْوَالَهُمْ بَغِيرِ حَقٍّ، وَاسْتَهْزَأَ بِهِمْ بِعُقُولِهِمْ وَأَحْوَالِهِمْ، ثُمَّ إِنَّ الْأَمِيرَ أَمَرَ أَنْ يُوضَعَ جِلْدُ الْعِزِّ عَلَى عِمَامَتِهِ، وَأَنْ يَذْهَبَ بِهِ كَمَا جَاءَ بِمُوكِبِهِ، وَيُبَيِّنَ يَدَيْهِ الطُّبُولَ وَالْبِيَارِقَ وَالْأَشَايِرَ، وَوَكَّلَ بِهِ مَنْ أَوْصَلَهُ إِلَى مَحَلِّهِ عَلَى تِلْكَ الصُّورَةِ لِكَيْ يَحْذَرَهُ النَّاسُ؛ وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الْأَدِيبُ وَالشَّاعِرُ وَالتَّائِرُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ سَلَامَةَ الْإِدْكَاوِي مِصُورًا تِلْكَ الْقِصَّةَ بِشِعْرِ لَطِيفٍ خَفِيفٍ ظَرِيفٍ:

بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ طَيِّبَةُ السَّنَا

نَفِيسَةٌ لَذْ تَظْفَرُ بِمَا شِئْتَ مِنْ عِزٍّ

وَرَمَ مِنْ جَدَاهَا كُلَّ خَيْرٍ فَإِنَّهَا
لَطَلَا بِهَا يَا صَاحِ أَنْفَعِ مَنْ كُنْزِ
وَمَنْ أَعْجَبِ الْأَشْيَاءِ تَيْسٌ^(١) أَرَادَ أَنْ
يَضِلَّ الْوَرَى فِي حُبِّهَا مِنْهُ بِالْعَنْزِ
فَعَاجَلَهَا مَنْ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ
بَذِيحٍ وَأَضْحَى الشَّيْخُ مِنْ أَجْلِهَا مَخْزِي
كَرَامَاتٍ أُخْرَى وَأَوْرَادٌ وَأَشْعَارٌ:

* أَلْصِقْتُ بِسِيرَةِ نَفِيسَةٍ كَرَامَاتٌ كَثِيرَةٌ لَا يُمْكِنُ أَنْ تُعْقَلَ، وَمِمَّا أَلْصَقَ فِيهَا
مِنْ كَرَامَاتٍ - وَهِيَ مِنْهَا بَرَاءَةُ الْكَرْبَاءِ الدَّثْبِ مِنْ دَمِ يَوْسُفَ - أَنَّ بَعْضَ الْأَوْلِيَاءِ
زَعَمَ أَنَّهَا قَدْ خَاطَبَتْهُ مِنْ قَبْرِهَا، وَحَكَى بَعْضُ الْأَوْلِيَاءِ لِلشَّيْخِ عَبْدِ الْغَنِيِّ
النَّابِلِيِّ أَنَّهَا قَدْ خَاطَبَتْهُ مِنْ مَوْضِعِهَا فِي قَبْرِهَا^(٢).

* وَوَصَفَ الْيَافِعِيُّ - وَهُوَ مِنْ أَعْيَانِ الْقُرْنِ الثَّامِنِ الْهَجْرِيِّ وَالْمُتَوَفَّى سَنَةَ
(٧٦٨ هـ) - مَرَّاهُ فِي مَشْهَدِ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةٍ مِنْ أَخْلَاطِ النَّاسِ الَّذِينَ أَتَوْا
لِلتَّمَسِّكِ بِالْبَرَكَةِ فَيَقُولُ: قَدْ قَصِدْتُ زِيَارَةَ مَشْهَدِهَا، فَوَجَدْتُ عِنْدَهُ عَالِمًا مِنْ
الرِّجَالِ وَالتَّنَوُّانِ وَالصَّحَّاحِ وَالْعَمِيَانِ، وَوَجَدْتُ النَّاطِرَ جَالِسًا عَلَى
الْكُرْسِيِّ، فَقَامَ لِي وَأَنَا لَا أَعْرِفُهُ، فَمَضَيْتُ لِلزِّيَارَةِ وَلَمْ أَلْتَفِتْ إِلَيْهِ^(٣).

* وَوَصَفَ الشَّيْخُ عَبْدُ الْغَنِيِّ النَّابِلِيُّ الْمَشْهَدَ النَّفِيسِيَّ، وَازْدَحَامَ النَّاسِ
هُنَاكَ، فَقَالَ: فَدَخَلْنَا نَحْنُ وَالْجَمَاعَةُ الَّذِينَ كَانُوا مَعَنَا إِلَى مَزَارِهَا الْمَعْمُورِ؛
فَإِذَا هُوَ مَلَأَنَ مِنَ النَّاسِ حَوْلَهُ مَعَ كِمَالِ الْخُشُوعِ وَالْحُضُورِ، وَالتَّنَاسُّعِ هُنَاكَ
وَحَدَّاهُنَّ تَقْرَأُ لَهُنَّ الْقُرْآنَ امْرَأَةٌ حَافِظَةٌ بِالصَّوْتِ الْعَالِيِّ، وَكُوكَبُ الْهَيْبَةِ
وَالْجَلَالِ فِي سَمَاءِ تِلْكَ الْحَضْرَةِ مُتَلَالِي، فَوْقَنَا وَقَرَأْنَا الْفَاتِحَةَ مَعَ النَّاسِ،

(١) المقصود بالتيس هنا: الشيخ المفضل.

(٢) رحلة الحقيقة والمجاز للنابلسي (ص ١٨٩).

(٣) مرآة الجنان (٢/ ٤٤).

ودعونا الله تعالى الكريم المتعال، ثمَّ دخلنا إلى معبدها هناك، وصلينا فيه ركعتين بقصد حُصول البركة^(١)!!!

* وقد بلغَ ببعضِ محبيِّها منَ النَّاسِ، أنَّ أَلْفُوا في زيارتها جملةً منَ الأوراد والآداب، وكتبوا بعضَ الأدعية عند زيارة مشهدها^(٢)؛ وتطور هذا إلى المديح، فإلى المبالغة والغلو، فقد نظَّم أحدُ مريديها قصيدةً طويلةً يمتدحها، ويضفي عليها بعض الكرامات، نقتطفُ منها هذه الأبيات الكاشفة:

نَفِيسَةٌ وَالْمُصْطَفَى جَدُّهَا	أَسْرَارُهَا بَيْنَ الْوَرَى ظَاهِرُهُ
كَمْ مِنْ كَرَامَاتٍ لَهَا قَدْ بَدَتْ	وَكَمْ مَقَامَاتٍ لَهَا فَآخِرُهُ
يَا حَبِّذَا سَيِّدَةً شَرَفَتْ	بِهَا أَرْضُ مِصْرَ وَالْقَاهِرُهُ
عَابِدَةٌ زَاهِدَةٌ جَامِعَةٌ	لِلْخَيْرِ فِي الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرِهِ
سَبْحَانَ مَنْ أَعْلَى قَدْرُهَا	لَأَنَّهَا بَيْنَ الْوَرَى نَادِرُهُ

ومن هذه القصيدة:

تتلو كتابَ الله في لحدها	وهي لمن قَد زارها ناظره!!
حَجَّتْ ثَلَاثِينَ عَلَى رِجْلِهَا	صَائِمَةً عَنْ أَكْلِهَا قَاصِرُهُ
كَانَتْ تَصَلِّي وَتَقُومُ الدَّجَى	دُومًا عَلَى أَقْدَامِهَا سَاهِرُهُ ^(٣)

وكان بعضُ زائريها يقول عند مشهدها:

يَا رَبِّ إِنِّي مُؤْمِنٌ بِمُحَمَّدٍ	وَبِأَلِ بَيْتِ مُحَمَّدٍ بِتَوَالٍ
فَبِحَقِّهِمْ كُنْ شَافِعًا لِي مُنْقِذًا	مِنْ فِتْنَةِ الدُّنْيَا وَشَرِّ مَالٍ
وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَشْدُو أَيْضًا:	
يَا بَنِي الزَّهْرَاءِ وَالتُّورِ الَّذِي	ظَنَّ مُوسَى أَنَّهُ نَارٌ قَبَسَ

(١) رحلة الحقيقة والمجاز (ص ١٨٩ و ١٩٠).

(٢) انظر إن شئت: الدر المنثور (ص ٥٢٢ و ٥٢٣)، والخطط التوفيقية (٣٠٩/٧ و ٣١٠)، ونور الأبصار (ص ٣١٢ و ٣١٣)، وغير ذلك كثير.

(٣) نور الأبصار (ص ٢١٣)، وتوجد بعد هذه القصيدة قصيدة أخرى، هي أقرب إلى الشرك لما فيها من مخالفات ظاهرة.

لا أُولِي قَطٍّ مَنْ عَادَاكُمْو إِنَّهُمْ آخِرُ سَطَرٍ فِي عَبَسَ^(١)

* وللشيخ عبد الغني النَّابلسي قصيدتان في امتداح نفيسة، الأولى:
نظمها بعد أن زارها وقرأَ عندها الفاتحة مرتين؛ يقول النَّابلسي: وقرأنا
الفاتحة ثانياً، ودعونا اللهَ تعالى، وخرجنا بأدبٍ وحُضورٍ، وفرح بكمالِ
المسرة والأجور، وقلنا في ذلك من النِّظام^(٢)، على حَسَبِ مَا اقتضاه
المقام:

نُورُ قَلْبِ المُوَحِّدِينَ نفيسة	تتجلى بها الأمورُ النَّفِيسَة
وبها تُكشَفُ الكُروبُ وينجو	قاصدوها من الهموم الخسيسة
درةً صانها المهيمَنُ قَدْماً	في بحاركم قُدِّسَتْ تقديسه
في سِراةٍ مِنْ آلِ بيتٍ شريف	أحكمَ اللهُ في الصِّلا تأسيسه
فهي ذاتُ الفخارِ والمجدِ طالت	يدها في الوغى فأحمت وطيسه
نسبةً هاشميّة هي فيها	لم تنزلْ غُصّة الكمالِ رئيسه
ومن الكونِ أبطلت شيطاناً	كان فيه وعظمت إبليسَه
حضرة تملأُ القلوبَ حضوراً	وعن العقلِ قد نَفَتْ تدليسه
كلُّ مَنْ جاءها رأى تطهيراً	عنه ينفي من ذنبه تنجيسَه
يابنة الطَّاهرين من آلِ طه	سِرُّك المحض لا يضيّم جليسه
آل بيتِ النَّبي أنتم كرامٌ	كم هزبر منكم يطارح خيسه
جئتُ هذا المقام بالذلِّ أشكي	زمناً منه لم أجِد تنفيسه
وأرومُ الذي أروم عسى أن	يَجِدَ القلبُ بالأمانِ أنيسه
كلُّ حين ما قال عبد غني	نُورُ قَلْبِ المُوَحِّدِينَ نفيسه

* وهي قصيدة - كما قرأتَ ورأيتَ - فيها ما فيها من المبالغاتِ التي شَبَّتْ
عن طوقِ المعقول، ودخلت في عالمٍ غير عالمِ أهلِ العِلْم الذين لا يقبلون
إلا ما جاء صحيحاً عن الحبيبِ المصطفى مُحَمَّد ﷺ.

(١) الخطط التوفيقية (٣١٠/٧)، والدر المنثور (ص ٥٢٢ و ٥٢٣)، والمقصود بآخر

سطر من عبس، قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ [عبس: ٤٢].

(٢) الحقيقة والمجاز (ص ١٩٠)، والقصيدة تبلغ (٢٧ بيتاً) اقتطفنا منها تلكم الأبيات.

* ولعبد الغني النَّابلسي أيضاً وقفةً أخرى، وقصيدة أخرى مع نفيسة، ولكن هذه المرة، نجد أنَّ نفس الكرامات أقلَّ حرارة من سابقه في الشعر، بيدَ أننا نسمعُ من النَّابلسي أنه رأى في منامه السيِّدة نفيسة بعد أن أَرَقَّتْهُ الهموم وساورته الأحزان، يقول النَّابلسي في ذلك: رأينا في واقعة المنام السيِّدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - وهي مُتَكَفِّةٌ بَثَابٍ بيض، وجاءتْ حتى جلستُ عند رأسي، وأنا مستلقٍ على قفائي، ثم استيقظتُ وأنا مسرورٌ بحصولِ الفرج، متحقق بزوال الهمِّ والخرج، وكان ذلك على يدِ آل البيت يقظةً ومناماً، خصوصاً وهي حَسَنِيَّة، وبمجردِ استيقاظي من المنام، كنتُ أنشدُ هذا المصراع الجاري على لساني من النظام بطريقِ الإلهام: «نَفَسَ اللهُ كَرْبَنَا بنفيسة»^(١).

* وقد أنشأ النَّابلسي على هذا المصراع قصيدة قوامها (٢٤ بيتاً) نقتطف منها بضعة أبيات كاشفات، يقول في أولها:

نَفَسَ اللهُ كَرْبَنَا بنفيسة بنت فضل ذات الصفات النفيسة

* ثم إنَّه من خلالِ هذه القصيدة يمدحُ النبي ﷺ فيقول:

كلُّ هذا بسرٌّ قصْدُ نبِيٍّ	قد أتيَّاهُ نَقَتَفي تَأْسِيسَه
فوقفنا بذلَّةٍ وخضوعٍ	وفؤاد المشوقِ أبدى رسيَّه
ودخلنا عليه بابَ سَلامٍ	بسلام له التُّفوس فريَّه
يا رسولَ اللهِ يا خيرَ مولى	منه صُبْحُ الهدى محا تفلِيسَه
وأزِيلَتْ بشمسه ظلماتٌ	عن مشوقٍ إليه يشكو ميسَه
وعلى الأنبياءِ والرَّسل طرّاً	فضَّل اللهُ في الأنام ريسَه

* وبعد ذلك يعودُ إلى ذِكْرِ نفيسة في نهاية القصيدة فيقول:

وَصَلَاةٌ تَكَرَّرَتْ وَسَلَامٌ	ضَارِبٌ تخميسَه تسديسَه
أمدَ الدَّهر ما أتتكَ نياقٌ	وللقياك حتَّ مثلي عيسَه

(١) رحلة الحقيقة والمجاز (ص ٣٢٧).

أَوْ أَتَى قَائِلًا عُيِيدَ غَنِي نَفْسَ اللَّهِ كَرَبْنَا بِنَفْسِهِ^(١)

* إِنَّ الْأَمْثَلَةَ كَثِيرَةٌ فِي هَذَا الْمَجَالِ ، وَالتَّوَسُّلَاتِ وَالْقَصَائِدِ وَالْمَقْطُوعَاتِ
الَّتِي قِيلَتْ فِي السَّيِّدَةِ نَفِيسَةٍ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ تُحْصَى :
وَكَمْ هَتَفُوا عِنْدَ الشَّدَائِدِ بِأَسْمِهَا

كَمَا يَهْتَفُ الْمُضْطَرُّ بِالصَّمَدِ الْفَرْدِ

* لَقَدْ لَعِبَتِ الْمَحَبَّةُ الْمُضْطَرِبَةَ بِالنَّاسِ ، وَفَرَّقَتْهُمْ وَتَفَرَّقَتْ بِهِمُ الْأَهْوَاءُ
ذَاتِ الْيَمِينِ وَذَاتِ الشَّامِلِ ، فَاضْطَرَبَتِ الْمَوَازِينُ الصَّحِيحَةُ ، وَأَضْحَى الْغُلُوُّ
شَائِعًا فِي الصَّالِحِينَ إِلَى حَدِّ الْإِغْرَاقِ مِمَّا صَرَفَهُمْ عَنِ الْعِبَادَةِ الصَّحِيحَةِ الَّتِي
خُلِقُوا لَهَا ، وَلِلَّهِ دُرُّ ابْنِ قَيْمٍ الْجَوْزِيَّةُ حِينَما قَالَ :

هَرَبُوا مِنَ الرَّقِّ الَّذِي خُلِقُوا لَهُ

فَبُلُّوا بِرَقِّ النَّفْسِ وَالشَّيْطَانِ

* وَلَنَا فِي الْفِقْرَةِ التَّالِيَةِ وَقْفَةٌ وَضِيئَةٌ مَعَ الْغُلُوِّ غَيْرِ الْمَحْمُودِ فِي الْأَوْلِيَاءِ
وَالصَّالِحِينَ .

الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ :

* نَحْنُ نَحِبُّ الصَّالِحِينَ وَالْأَوْلِيَاءَ حُبًّا مَا عَلَيْهِ مِنْ مَزِيدٍ ، وَلَكِنَّا نَكْرَهُ لَهُمْ
تِلْكَ الْأَشْيَاءَ الْغَرِيبَةَ الَّتِي أُلْصِقَتْ بِهِمْ ، وَلَا تَلِيقُ بِمَقَامِهِمْ ؛ فَالْمَرَادُ بِالْغُلُوِّ
فِي مَحَبَّةِ الصَّالِحِينَ وَالْأَوْلِيَاءِ وَالْأَصْفِيَاءِ رَفْعَهُمْ فَوْقَ مَنْزِلَتِهِمْ الَّتِي أَنْزَلَهُمُ اللَّهُ
إِيَّاهَا ، كَالطَّوَافِ بِقُبُورِهِمْ ، وَالتَّبَرُّكِ بِتَرْتِبِهِمْ ، وَذَبْحِ الْقَرَابِينِ لِأَضْرَحَتِهِمْ ،
وَوَفَاءِ النَّذُورِ عِنْدَ قُبُورِهِمْ ، وَطَلْبِ الْمَدَدِ مِنْهُمْ .

* وَكَمَا نَعْلَمُ بِأَنَّ الشَّيْطَانَ يَجِدُ سَوْقًا رَائِجَةً عِنْدَ عَامَةِ النَّاسِ ، إِذْ يَزِينُ لَهُمْ
الْغُلُوَّ فِي تَعْظِيمِ الصَّالِحِينَ وَمَحَبَّتِهِمْ ، وَالْعُكُوفِ عَلَى قُبُورِهِمْ ، وَسُؤَالِهِمُ
الشَّفَاعَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ - عَزَّ وَجَلَّ - ، وَمَا يَزَالُ الشَّيْطَانُ بِالنَّاسِ حَتَّى يُوْرِدَهُمْ
مَوَارِدَ الْبَوَارِ وَالْهَلَاكِ .

(١) انظر : رحلة الحقيقة والمجاز (ص ٣٢٧) باختصار .

* إِنَّ مُحَبَّةَ الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ تَكُونُ عَلَى وَفْقٍ مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَالشُّتَّةِ الْمُطَهَّرَةِ، وَذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ فَضْلِهِمْ وَعِلْمِهِمْ وَعَمَلِهِمْ، وَالِاقْتِدَاءِ بِهِمْ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ مِنْ غَيْرِ إِفْرَاطٍ وَلَا تَفْرِيطٍ.

* كَمَا أَنَّهُ يَجِبُ الْحَذَرُ مِمَّنْ يَرِغِبُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا أَصْلَ لَهَا، كَالَّذِي نُسِبَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ أَخْلَصَ الْعِبَادَةَ لِلَّهِ تَعَالَى أَرْبَعِينَ يَوْمًا ظَهَرَتْ يَنَابِيعُ الْحِكْمَةِ مِنْ قَلْبِهِ عَلَى لِسَانِهِ»^(١).

* لِذَلِكَ تَجِبُ الْمُبَادَرَةُ إِلَى الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، وَالِامْتِنَاعُ عَمَّا نَهَى اللَّهُ، وَالتَّضَرُّعُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ، وَطَلَبُ الْعِلْمِ النَّافِعِ، لِيَحْظِيَ بِكَنُوزِ الْبِرِّ وَمَرْضَاةِ اللَّهِ.

ثَنَاءُ الْعُلَمَاءِ وَالْأَفَاضِلِ عَلَيْهَا:

* حَظِيَّتِ السَّيِّدَةُ نَفِيسَةُ - رَحِمَهَا اللَّهُ - عَلَى ثَنَاءِ الْعُلَمَاءِ وَالْأَفَاضِلِ عَلَى مَرِّ الْعَصُورِ، فَلَقَدْ اشْتَهَرَتْ بِالصَّلَاحِ وَالْعِبَادَةِ وَمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، نَاهِيكَ بِنَسَبِهَا الَّذِي يَطَاوُلُ الْجُوزَاءَ.

(١) انظر: اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي (٣٢٧/٢)، وتنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الموضوعة لابن عراق (٣٠٥/٢)، وحلية الأولياء لأبي نعيم (١٨٩/٥)، والشذرة في الأحاديث المشتهرة (ص ٩٠٣)، والغماز على اللماز (ص ٢٦٥)، ومختصر المقاصد (ص ٩٦٨)، وكشف الخفاء رقم (٢٣٦١) وغيرها. وهذا الحديث قد أورده أبو الفرج ابن الجوزي - رحمه الله - في كتابه التَّنْفِيسُ «الموضوعات» (٣/ ١٤٥ و ١٤٦)، وقال عنه:

هذا حديث لا يصحُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فِيهِ سَوَارٌ بَنُ مُصْعَبٍ، مَتْرُوكُ الْحَدِيثِ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ مَعِينٍ: لَيْسَ بِثِقَةٍ، وَلَا يُكْتَبُ حَدِيثُهُ.

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: وَقَدْ عَمِلَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَصَوِّفَةِ وَالْمُتَزَهِّدِينَ عَلَى هَذَا الْحَدِيثِ الَّذِي لَا يَثْبُتُ، وَانْفَرَدُوا فِي بَيْتِ الْخُلُوةِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، وَامْتَنَعُوا عَنْ أَكْلِ الْخَبْزِ، وَكَانَ بَعْضُهُمْ يَأْكُلُ الْفَوَاكِهِ، وَيَتَنَاوَلُ الْأَشْيَاءَ الَّتِي تَتَضَاعَفُ قِيَمَتُهَا عَلَى قِيَمَةِ الْخَبْزِ، ثُمَّ يَخْرُجُ بَعْدَ الْأَرْبَعِينَ، فَيَهْذِي وَيَتَخِيلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِالْحِكْمَةِ، وَلَوْ كَانَ الْحَدِيثُ صَحِيحًا، فَإِنَّ الْحَدِيثَ يَتَعَلَّقُ بِقَصْدِ الْقَلْبِ لَا بِفِعْلِ الْبَدَنِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

* فقد افتتح الإمام الذهبي ترجمته لنفيسة بالثناء عليها فقال: نفيسة، السَّيِّدَةُ المَكْرَمَةُ الصَّالِحَةُ، ابنةُ أمير المؤمنين الحسن بن زيد بن السَّيِّدِ سِبْطِ النَّبِيِّ ﷺ الحسن بن علي - رضي الله عنهما - العلويةُ الحسنيَّةُ صاحبةُ المشهد الكبير المعمول بين مصر والقاهرة^(١). وقال أيضاً: كانت من الصَّالِحَاتِ الْعَوَابِدِ^(٢).

* وأثنى ابن جُبَيْر في رحلته على نفيسة فقال: السَّيِّدَةُ نفيسة بنت الحسن، كانت مجابةً الدَّعْوَةَ، مجتهدةً في العبادة^(٣).

* ونقلَ عليّ مبارك عن المقرئ قولة: كانت نفيسة من الصَّالِحِ والزَّهْدِ على الحدِّ الذي لا مزيد عليه^(٤).

* وعندما تعرَّضَ ابنُ تغري بردي لترجمتها، افتتح ذلك بذكر نسبها قائلاً: السَّيِّدَةُ نفيسة، ابنة الأمين الحسن بن زيد بن السَّيِّدِ الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشميَّة، الحسنيَّة الحسنيَّة النَّفِيسَةُ صاحبة المشهد بين مصر والقاهرة. ثمَّ اختتم ترجمتها بذكر كراماتها فقال: وهي صاحبةُ الكراماتِ والبرهانِ، وقد شاع ذِكْرُها شرقاً وغرباً^(٥).

* وقال ابنُ خلكان: كانت نفيسةً من النِّسَاءِ الصَّالِحَاتِ التَّقِيَّاتِ^(٦).

* وفي «مرآته» قال اليافعي ذاكراً نسبها، ومادحاً فضلها، وكذلك ابنُ العماد في «شذراته» قالاً: السَّيِّدَةُ الكريمة، صاحبةُ المناقب الجسيمة،

(١) سير أعلام النبلاء (١٠/١٠٦ و ١٠٧).

(٢) سير أعلام النبلاء (١٠/١٠٦ و ١٠٧).

(٣) رحلة ابن جبیر (ص ٣٥) طبعة دار الفكر، بيروت (١٣٨٨ هـ).

(٤) الخطط التوفيقية (٧/٣٠٧).

(٥) النجوم الزاهرة (٢/١٨٥ و ١٨٦).

(٦) وفيات الأعيان (٥/٤٢٤).

نفيسة بنتُ الحسن، صاحبة المشهد الكبير المفخم، الشَّهير بمصر، وكانت من النِّساء الصَّالحات^(١).

* وقال ياسين العمري في «روضته»: كانت من العابدات، الصَّالحات، القانتات، ولها كراماتٌ واضحة، وأسرارٌ لائحة^(٢).

* وأثنى عليها الشَّيخ عبد الغني النَّابلسي فقال: نفيسة بنتُ الحسن، نشأت في العبادة بالمدينة، فكانت تصومُ النَّهار وتقومُ الليل^(٣).

* وقال عمر رضا كحالة في مطلع ترجمته لها: نفيسة بنت الحسن من ربَّاتِ العبادة والصَّلاح والزُّهد والورع^(٤).

* هذا؛ وقد أجمع كلُّ مَنْ عاصر نفيسة، وكلُّ مَنْ ترجمَ لها على صلاحها وفضلها، وبرِّها وإحسانها، وتفردَّها في العبادة والزُّهد، وحبِّها للقرآن العظيم، وشغفها بالتفسير.

نَفَائِسُ مِنْ أَقْوَالِ نَفَيْسَةَ :

* أثرت عن السَّيِّدة نفيسة كلماتٌ لطيفاتٌ تشيرُ إلى فضلها، وإلى مدى رسوخها في العِلْم، وإلى مكانتها في عالمِ الفَهم.

* ففي مجالِ العبادة حُفِظَتْ عنها أقوالٌ مهمَّةٌ وضيئةٌ ومنها قولها: نحنُ بيتُ الثُّبوةِ أحقُّ بالعبادة من غيرنا؛ لأنَّ القرآنَ نزلَ على جدِّنا محمدٍ ﷺ.

* ومن بدائع أقوالها في الطَّاعة والعبادة والأخلاق قولها: الطَّاعةُ قَلْبُ الإيمان، والعبادةُ جسده، والزُّهدُ رداؤه، والصَّدقُ حجَّته، والإخلاصُ بهجَّته، والعفوُ عمن أساء أجمل وأحسن للمؤمنِ لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: ٢٣٧].

(١) مرآة الجنان (٢/٤٣)، وشذرات الذهب (٣/٤٣).

(٢) الرِّوضة الفيحاء (ص ٢٥٩).

(٣) رحلة الحقيقة والمجاز (ص ١٨٩).

(٤) أعلام النساء (٥/١٨٧).

* وفي التحذير من المعصية كانت تقول: ويل لمن عصى ربه، وخالف أمره، وأعرض عن ذكره، واتبع هوى نفسه.

* ومن نفائس كلامها قولها: العبد الطائع حجة على العباد العصاة.

* وللسيدة نفيسة أدعية لطيفة ومنها: اللهم إني أعوذ بك من كلام السوء وفعل السوء، ومرام السوء، وجار السوء، اللهم لا تكلني إلى نفسي فأعجز، ولا إلى أحد من خلقك فأضيع؛ اللهم ألهمني رشدي، وأحسن رفدي، واغفر زلتي، وقني شر وساوس الشيطان، وأجرني منه يا رحمن حتى لا يكون علي سلطان^(١).

﴿لَهُمْ دَارُ السَّكْرَةِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾:

* أقامت نفيسة مدة في مصر، حظيت فيها بشهرة عظيمة طبقت الآفاق. وفي سنة (٢٠٨ هـ) بدأت الأمراض توهن جسمها، وكان زوجها إسحاق المؤمن غائباً في المدينة المنورة في بعض أعماله، فأرسلت تعلمه بمرضها.

* وكانت نفيسة - قبل أن تلم بها الأمراض تتفكر في الموت، وتعد العدة والزاد إلى لقاء الله تعالى - قد حفرت قبرها بيدها في زاوية من زوايا بيتها، فكانت تنزل فيه، وتصلّي كثيراً، وتذكر الله، حتى قيل: إنها قرأت القرآن الكريم كاملاً في هذا القبر (١٩٠ مرة)^(٢).

* وظلت السيدة نفيسة على مداومة الذكر في القبر وتلاوة القرآن، والبكاء بين يدي الله حتى احتضرت في شهر رمضان من سنة (٢٠٨ هـ)، وكانت عند احتضارها صائمة، فأشار عليها أهلوها، وألزموها بالفطر، وألحوا وأبرموا وهي لا تريم عن موقفها وتمسكها بالصوم؛ ولما أكثروا الإلحاح عليها قالت لهم: واعجباً، منذ ثلاثين سنة أسأل الله تعالى أن ألقاه

(١) الروضة الفيحاء (ص ٥٩ و ٢٦٠).

(٢) ذكر الشيخ عبد الغني النابلسي أنها قرأت فيه (٦٠٠٠ ختمة). (رحلة الحقيقة والمجاز ص ١٨٩).

وأنا صائمة، أفطر الآن؟! هذا لا يكون!!

* ثُمَّ إِنَّ السَّيِّدَةَ نَفِيسَةً شَرَعَتْ تَقْرَأُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ، وَكَانَ اللَّيْلُ قَدْ أُرْخِيَ سَدُولَهُ، وَهَدَأَتِ الْحَرَكَةُ، وَخَفَّتِ الْأَصْوَاتُ، وَأَخَذَتْ عِنْدَهَا تَقْرَأُ سُورَةَ الْأَنْعَامِ، فَلَمَّا وَصَلَتْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧]^(١) غُشِيَ عَلَيْهَا، ثُمَّ إِنَّهَا شَهِدَتْ شَهَادَةَ الْحَقِّ، وَنَطَقَتْ بِالتَّوْحِيدِ، وَقَبِضَتْ إِلَى رَحْمَةِ اللَّهِ، وَصَعِدَتْ رُوحَهَا إِلَى بَارئِهَا رَاضِيَةً مَرْضِيَةً^(٢).

* وَلَمَّا مَاتَتْ اجْتَمَعَ النَّاسُ مِنَ الْقَاهِرَةِ وَمِنَ الْقُرَى وَالْبُلْدَانِ، وَأَوْقَدُوا الشَّمْعَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ، وَسُمِعَ الْبَكَاءُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ بِمِصْرَ، وَعَظُمَ الْأَسْفُ عَلَيْهَا، وَكَثُرَ الْحُزْنُ لِفَقْدِهَا؛ وَفِي تِلْكَ السَّاعَاتِ الْحَرِجَةِ وَصَلَ زَوْجُهَا الْمُؤْتَمَنُ مِصْرَ قَادِمًا مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، فَأَرَادَ أَنْ يَنْقَلِبَهَا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَيُدْفِنَهَا فِي الْبَقِيعِ، فَسَأَلَهُ أَهْلُ مِصْرَ أَنْ يَتْرَكَهَا عَنْدهُمْ، فَأَبَى ذَلِكَ، وَاجْتَمَعَ أَهْلُ مِصْرَ إِلَى الْوَالِي، وَاسْتَجَارُوا بِهِ لِكَيْ يَرُدَّ إِسْحَاقَ الْمُؤْتَمَنِ عَمَّا عَزَمَ عَلَيْهِ، فَأَبَى الْمُؤْتَمَنُ أَيْضًا، فَبَاتُوا مِنْهُ فِي أَمْرٍ عَظِيمٍ؛ فَلَمَّا أَصْبَحُوا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ ثَانِيَةً، فَوَافَقَ عَلَى دَفْنِهَا بِمِصْرَ^(٣).

(١) ﴿دَارُ السَّلَامِ﴾: الْجَنَّةُ؛ قَالَ أَبُو الْوَلِيدِ السَّمَرْقَنْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: طُوبَى لِمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ الْفَهْمَ، وَأَيَقَظُهُ مِنْ سِنَةِ الْغَفْلَةِ، وَوَفَّقَهُ لِلتَّفَكُّرِ فِي أَمْرِ خَاتَمَتِهِ، فَتَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ خَاتَمَتَنَا فِي خَيْرٍ، وَيَجْعَلَ خَاتَمَتَنَا مَعَ الْبَشَارَةِ، فَإِنَّ الْمُؤْمِنَ لَهُ بَشَارَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عِنْدَ مَوْتِهِ، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ لَا تَخَافُ وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبَشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].

(تنبيه الغافلين ص ٤٢) طبعة دار ابن كثير بتحقيق يوسف بديوي.

(٢) وَقِيلَ: إِنَّ نَفِيسَةً لَمَّا احْتَضَرَتْ خَرَجَتْ مِنَ الدُّنْيَا، وَقَدْ انْتَهَتْ فِي حَزْبِهَا إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كُنَّ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةُ﴾ [الأنعام: ١٢] (الخطط التوفيقية ٣٠٧/٧).

(٣) هُنَاكَ أَقْوَالٌ وَقَصَصٌ عَدِيدَةٌ فِي هَذَا الشَّأْنِ مِنْهَا مَا يَقُولُ: إِنَّ أَهْلَ مِصْرَ جَمَعُوا لَهُ =

* ثُمَّ إِنَّهُ صَلَّى عَلَى السَّيِّدَةِ نَفِيسَةٍ فِي مَوْضِعِهَا ، وَذَلِكَ فِي مَشْهَدٍ حَافِلٍ لَمْ يُرْ مِثْلُهُ ، بِحَيْثِ امْتَلَأَتْ الْفُلُوتُ وَالْقِيعَانُ ، وَكَانَ يَوْمَ وَفَاتِهَا مَشْهُوداً مِنْ أَيَّامِ مِصْرَ ، ثُمَّ دُفِنَتْ فِي مَنْزِلِهَا الَّذِي كَانَتْ تَسْكُنُهُ فِي مَحَلَّةٍ كَانَتْ تُعْرَفُ قَدِماً بِاسْمِ «دَرْبِ السَّبَاعِ» ، وَكَانَتْ وَفَاتُهَا بَعْدَ وَفَاةِ الشَّافِعِيِّ بِأَرْبَعَةِ أَعْوَامٍ وَعَمَرُهَا (٦٣ سَنَةً) - رَحِمَهَا اللَّهُ - .

* هَذَا ؛ وَقَدْ عَمِلَ لَهَا الْمُحِبُّونَ مَشْهَداً كَبِيراً ، قَالَ النَّابِلِيُّ : وَقَبْرُ نَفِيسَةٍ عَلَيْهِ مَهَابَةٌ وَنُورٌ ، مَقْصُودٌ لِلزَّيَارَةِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ^(١) .

وَمِنْ الْجَدِيرِ بِالذِّكْرِ أَنَّ أَهْلَ مِصْرَ يَعْنُونَ عَنَاقَةَ بِالْمَدَافِنِ وَالْقُبُورِ مِمَّا لَفَتَ نَظَرَ الرَّحَالَةِ ابْنَ بَطُوطَةَ ، وَكَذَلِكَ ابْنُ جَبْرِ ، فَقَدْ تَحَدَّثَ ابْنُ بَطُوطَةَ عَنْ قَرَافَةٍ مِصْرَ فَقَالَ : وَلِمِصْرَ الْقَرَاةُ^(٢) الْعَظِيمَةُ الشَّأْنُ فِي التَّبَرُّكِ بِهَا ، وَقَدْ جَاءَ فِي فَضْلِهَا أَثَرٌ أَخْرَجَهُ الْقُرْطُبِيُّ .

* وَقَالَ أَيْضاً : وَهُمْ يَبْنُونَ بِالْقَرَاةِ الْقُبَابَ الْحَسَنَةَ ، وَيَجْعَلُونَ عَلَيْهَا الْحِيطَانَ ، فَتَكُونُ كَالدُّورِ ، وَيَبْنُونَ بِهَا الْبُيُوتَ ، وَيَرْتَّبُونَ الْقُرَاءَ يَقْرَأُونَ لَيْلاً وَنَهَاراً بِالأَصْوَاتِ الْحَسَنَةِ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْنِي الزَّوَايَا ، وَالْمَدْرَسَةَ إِلَى جَانِبِ التَّرْبَةِ ، وَيَخْرُجُونَ كُلَّ لَيْلَةٍ جُمُعَةٍ إِلَى الْمَبِيتِ بِهَا وَبِأَوْلَادِهِمْ وَنِسَائِهِمْ ، وَيَطُوفُونَ عَلَى الْأَسْوَاقِ بِصُنُوفِ الْمَأْكَلِ .

* ثُمَّ يَصِفُ الْمَزَارَاتِ ، وَمِنْهَا : مَزَارُ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَبَعْدَهَا يَذْكُرُ مَشْهَدَ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةٍ فَيَقُولُ : وَمِنْهَا تَرْبَةُ السَّيِّدَةِ نَفِيسَةٍ بِنْتِ

= مَالاً عَظِماً حَتَّى وَسَقَ بَعِيرُهُ الَّذِي أَتَى عَلَيْهِ وَسَلَّوَهُ دَفَنَهَا عِنْدَهُمْ . وَمِنْهَا مَا يَقُولُ :
 إِنَّ أَهْلَ مِصْرَ قَالُوا لَهُ مُتَعَجِّبِينَ : إِنَّ لَكَ شَأْناً عَظِماً فِي مَوَافِقَتِكَ دَفَنَهَا عِنْدَنَا !
 فَقَالَ لَهُمْ : نَعَمْ ، رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي الْمَنَامِ وَهُوَ يَقُولُ لِي : رَدُّ عَلَيْهِمْ أَمْوَالُهُمْ وَادْفَنُهَا عِنْدَهُمْ ، وَلَا تَعَارِضْ أَهْلَهَا فِي نَفِيسَةٍ فَإِنَّ الرِّحْمَةَ تَنْزِلُ عَلَيْهِمْ بِبَرَكَتِهَا !!
 وَهَنَّاكَ أَقْوَالٌ كَثِيرَةٌ لَا تَخْرُجُ عَنْ هَذَا الْمَضْمَارِ فَتَأْمَلْ !!

(١) رَحْلَةُ الْحَقِيقَةِ وَالْمَجَازِ (ص ١٨٩) بِاخْتِصَارٍ .

(٢) «الْقَرَاةُ» : التَّرْبَةُ أَوْ الْجَبَانَةُ ، وَهِيَ الْمَدَافِنُ ، وَكَانَتْ الْمَدَافِنُ فِي ضَوَاحِي الْقَاهِرَةِ مِنْ نَاحِيَةِ الْغَرْبِ .

الحسن، وكانت مجابة الدعوة، مجتهدة في العبادة، وهذه التربة أنيقة البناء، مشرقة الضياء، عليها رباط مقصود^(١).

* وقد أكثر الكتاب والرّحالة والمصنّفون من الحديث عن التّرب، وعن القبور، وعن العناية بها، والاهتمام بشأنها.

* قال ابن خلّكان: كانت نفيسة من النّساء الصّالحات، وقبرها معروف بإجابة الدّعاء عنده، وهو مجرّب!! - رضي الله عنهما -^(٢).

* وذكر الإمام الذهبي - رحمه الله - في كتابه القيم التّفيس «سير أعلام النّبلاء»^(٣) في ترجمة السيّدة نفيسة ما نصّه: كانت من الصّالحات العوابد، والدّعاء مُستجاب عند قبرها، بل وعند قبور الأنبياء والصّالحين^(٤)، وفي المساجد، وعرفة، ومزدلفة، وفي السّفر المباح، وفي الصّلاة، وفي السّحر، ومن الأبوين، ومن الغائب لأخيه، ومن المضطر، وفي كلّ وقتٍ وحين، لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ولا يُنهي الدّاعي عن الدّعاء، وفي وقتٍ إلا وقت الحاجة، ويتأكّد الدّعاء في

(١) رحلة ابن بطوطة (ص ٣٤ و ٣٥).

(٢) وفيات الأعيان (٥/٤٢٤).

(٣) سير أعلام النّبلاء (١٠/١٠٧).

(٤) لعلّه من المفيد هنا أن نشير إلى التّعليق التّفيس الذي أفاده محقّق الجزء العاشر من

كتاب الذهبي «سير أعلام النّبلاء» فإنّ في إشارته فائدة كبرى حيث قال:

لم يثبت عن النّبي ﷺ في كون الدّعاء مستجاباً عند قبور الأنبياء والصّالحين، والسّلف الصّالح لا يُعرف عنهم أنّهم كانوا يقصدون قبور الأنبياء والصّالحين للدّعاء عندهم؛ ويرى ابن الجزري في «الحصن الحصين»: أنّ استجابة الدّعاء عند قبور الأنبياء والصّالحين ثبت بالتّجربة، وأقرّه عليه الشّوكاني في «تحفة الذاكرين ص ٤٦» لكن قيّده بشرط: ألا تنشأ عن ذلك مفسدة، وهي أن يُعتدّ في ذلك الميت ما لا يجوز اعتقاده، كما يقع لكثير من المعتقدين في القبور، فإنّهم قد يبلغون الغلو بأهلها إلى ما هو شرك بالله - عز وجل - فينادونهم مع الله، ويطلبون منهم ما لا يُطلب إلا من الله - عز وجل - وهذا معلومٌ من أحوال كثير من العاكفين على القبور، خصوصاً العامّة الذين لا يفتنون لدقائق الشّرك. (سير أعلام النّبلاء ١٠/١٠٧) الهامش.

جوف الليل ، ودُبِرَ المكتوبات ، وبعد الأذان .

* هذه هي نفيسة بنت الحسن ، أرجو أن أكون قد وفقتُ في الحديث عنها ، وإبراز صورتها بشكل صحيح . ومع وداع السيِّدة نفيسة التي قضينا معها أوقاتاً نفيسة ، تعالوا نردِّدُ معها دعاءها الذي كانت تقولهُ دائماً : إلهي ، وسيدي ، ومولاي ، متّعني ، وفرحني برضاك عني .

* رحم الله نفيسة ، وأسكنها من الجنان فراديسه .

والحمد لله رب العالمين . . ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

* * *

المصادر والمراجع^(١)

- ١ - القرآن الكريم .
- ٢ - الآداب الشرعية : لابن مفلح . طبعة دار الرسالة المحققة وطبعة مصر .
- ٣ - إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين : للزبيدي - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٩٨٩ م .
- ٤ - الإتيقان في علوم القرآن : للسيوطي - تقديم وتعليق د . مصطفى ديب البغا - دار ابن كثير - دمشق ط ١ - ١٩٨٩ م .
- ٥ - أحكام القرآن : لابن العربي - تحقيق علي محمد البجاوي - دار المعرفة - بيروت .
- ٦ - الأخبار الطوال : للدينوري - تحقيق عبد المنعم عامر - مراجعة د . جمال الدين الشيال - مصر - ١٩٥٩ م .
- ٧ - أخبار القضاة : لوكيع محمد بن خلف بن حيان - عالم الكتب - بيروت .
- ٨ - أخبار مكة : للأزرقي - تحقيق رشدي الصالح ملحس - دار الأندلس - بيروت ط ٤ - ١٩٨٣ م . وطبعة مكتبة الباز - السعودية .

(١) عدنا إلى مئات المصادر - كما سلاحظ القارئ ذلك - من خلال القراءة، كما أنني قمت برحلات متنوعة إلى بعض العواصم والمدن العربية لاستكمال هذا البحث، والله وحده يعلم كم لاقيت من المصاعب، ولكن ذلك كان يهون عندما أجد المعلومات التي أبحث عنها . والله من وراء القصد .

- ٩ - الأخبار الموفقيات: للزبير بن بكار - تحقيق د. سامي مكي العاني - مطبعة العاني - بغداد - ١٩٧٢ م.
- ١٠ - أخبار النساء: لابن قيم الجوزية - مصر - ١٣٠٧ هـ - وطبعة دار مكتبة الحياة ببيروت.
- ١١ - أدب الدنيا والدين: للماوردي - تحقيق ياسين السواس - دار ابن كثير - دمشق ط ١ - ١٩٩٢ م.
- ١٢ - الأزمنة والأمكنة: للمرزوقي - حيدر أباد الدكن - ١٣٣٢ هـ.
- ١٣ - أساس البلاغة: للزمخشري - دار الفكر - بيروت - ١٤١٥ هـ.
- ١٤ - أسد الغابة: لابن الأثير - دار الفكر - بيروت - ١٩٨٩ م.
- ١٥ - الاشتقاق: لابن دريد - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة - ١٩٥٨ م.
- ١٦ - الإصابة في تمييز الصحابة: لابن حجر العسقلاني - تحقيق د. طه محمد الزيني - مكتبة ابن تيمية - القاهرة ط ١ - ١٤١١ هـ.
- ١٧ - الأصمعيات: للأصمعي - تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون - دار المعارف - مصر - ١٩٥٥ م.
- ١٨ - الأعلام: للزركلي - دار العلم للملايين - بيروت ط ٨ - ١٩٨٤ م، وطبعة مصورة في عشرة أجزاء.
- ١٩ - إعلام الناس: للأتليدي - دار صادر - بيروت.
- ٢٠ - أعلام النساء: لعمر رضا كحالة - مؤسسة الرسالة - بيروت ط ٩ - ١٩٨٩ م.
- ٢١ - الأغاني: لأبي الفرج الأصبهاني - طبعة مصورة عن دار الكتب المصرية - وطبعة دار الفكر ببيروت.
- ٢٢ - الإكمال في رفع الارتباب في المؤلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: لأبي نصر بن ماکولا - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٤١١ هـ.
- ٢٣ - الأمالي: للقالبي - مصر ط ٣ - ١٩٥٣ . وطبعة مؤسسة الرسالة.
- ٢٤ - أمالي المرتضى: للشريف المرتضى - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - ١٩٥٤ م.

- ٢٥ - إنباء الغمر : لابن حجر - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٢٦ - أنساب الأشراف : للبلاذري - تحقيق محمد حميد الله - دار المعارف - مصر - ١٩٥٩ م .
- ٢٧ - الأوائل : لأبي هلال العسكري - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٤٠٧ هـ .
- ٢٨ - البداية والنهاية : لابن كثير - دار الفكر - بيروت - ١٩٧٨ م .
- ٢٩ - بديعيات الآثار : لشعبان بن محمد القرشي الآثاري - تحقيق وتقديم هلال ناجي - بغداد - ١٩٧٧ م .
- ٣٠ - البرصان والعرجان : للجاحظ - تحقيق محمد مرسي الخولي - القاهرة - ١٩٧٢ م .
- ٣١ - البصائر والذخائر : لأبي حيان التوحيدي - تحقيق د . وداد القاضي - دار صادر - بيروت ط ١ - ١٤٠٨ هـ .
- ٣٢ - بغية الوعاة : للسيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - القاهرة - ١٩٦٤ م .
- ٣٣ - بلوغ الأرب : للآلوسي - تحقيق محمد بهجة الأثري - ط ٢ - ١٩٢٤ م .
- ٣٤ - بهجة المحافل وبغية الأمثال : لأبي بكر العامري - طبعة مصورة - دار صادر - بيروت .
- ٣٥ - بهجة المجالس وأنس المجالس : لابن عبد البر - تحقيق محمد مرسي الخولي - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٣٦ - البيان والتبيين : للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة - ١٩٦١ م .
- ٣٧ - تاج العروس : للزبيدي - المطبعة الخيرية - مصر - ١٣٠٦ هـ .
- ٣٨ - تاريخ الأدب العربي : لعمر فروخ - دار العلم للملايين - بيروت ط ٤ - ١٩٨١ م .
- ٣٩ - تاريخ الإسلام : لحسن إبراهيم حسن - دار الجيل - بيروت .
- ٤٠ - تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام : للذهبي - تحقيق د . عمر تدمري - دار الكتاب العربي - بيروت ط ١ ١٩٨٧ م .

- ٤١ - تاريخ الأمم والملوك: للطبري - دار الكتب العلمية - بيروت ط ٢ - ١٩٨٨ م.
- ٤٢ - تاريخ بغداد «أو مدينة السلام»: للخطيب البغدادي - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان.
- ٤٣ - تاريخ ابن العمراني: لابن العمراني - تحقيق د. إبراهيم السامرائي - لندن - ١٩٧٣ م.
- ٤٤ - تاريخ القضاء: للقضاي - طبعة جامعة أم القرى - مكة المكرمة - ١٤١٥ هـ.
- ٤٥ - تاريخ مدينة دمشق: لابن عساكر (تراجم النساء) - تحقيق سكيئة الشهابي - دار الفكر - دمشق.
- ٤٦ - تاريخ المدينة المنورة: لابن شبة - تحقيق فهد محمد شلتوت - دار التراث - بيروت ط ١ - ١٩٩٠ م.
- ٤٧ - تاريخ مكة: للأزرقي - المكتبة التجارية - مكة المكرمة ط ١ - ١٤١٦ هـ.
- ٤٨ - تاريخ اليعقوبي: لليعقوبي - دار صادر - بيروت - ١٩٦٠ م.
- ٤٩ - تثقيف اللسان: لابن مكي الصقلي - تحقيق د. عبد العزيز مطر - القاهرة - ١٩٦٦ م.
- ٥٠ - تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذي: للمباركفوري - صححه عبد الوهاب عبد اللطيف - مكتبة ابن تيمية - القاهرة ط ٣ - ١٩٧٨ م.
- ٥١ - الترغيب والترهيب: للمنذري - بعناية مصطفى محمد عمارة - مطبعة البابي الحلبي - مصر ط ٣ - ١٩٦٨ م.
- ٥٢ - تزيين الأسواق: لداود الأنطاكي - القاهرة - ١٢٩١ م - وطبعة بيروت.
- ٥٣ - التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق: د. زكي مبارك - دار الكتاب العربي - القاهرة - ١٩٥٤ م، وطبعة بيروت.
- ٥٤ - التعازي والمرثي: للمبرد - تحقيق محمد الديباجي - مجمع اللغة العربية - دمشق - ١٩٧٦ م.

- ٥٥ - تفسير البحر المحيط : لأبي حيان الأندلسي - دار الفكر - بيروت ط ٢ - ١٩٨٣ م .
- ٥٦ - تفسير الخازن وبهامشه البغوي : للخازن والبغوي - مطبعة البابي الحلبي - مصر ط ٢ - ١٩٥٥ م .
- ٥٧ - تفسير القرآن العظيم : لابن كثير - مكتبة المنار - الأردن ط ١ - ١٩٩٠ م ، وطبعة دار ابن كثير بدمشق .
- ٥٨ - التفسير الكبير «أو مفاتيح الغيب» : للفخر الرازي - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٩٩٠ م .
- ٥٩ - تلبيس إبليس : لابن الجوزي - دار الكتاب العربي - بيروت ط ٦ - ١٤١٣ هـ .
- ٦٠ - تلقيح فهوم الأثر : لابن الجوزي - مكتبة الآداب - مصر . وطبعة الهند .
- ٦١ - تنبيه الغافلين : للسمرقندي - تحقيق يوسف بديوي - دار ابن كثير - دمشق ط ١ - ١٩٩٣ م .
- ٦٢ - تهذيب الأسماء واللغات : للنووي - دار الكتب العلمية - بيروت - وطبعة دار الفكر - بيروت .
- ٦٣ - تهذيب تاريخ دمشق الكبير : صنعة الشيخ عبد القادر بدران - دار المسيرة - بيروت ١٣٩٩ هـ .
- ٦٤ - تهذيب التهذيب : لابن حجر العسقلاني - دار الكتاب الإسلامي - القاهرة - طبعة مصورة . وطبعة دار الفكر .
- ٦٥ - ثمار القلوب : للثعالبي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار نهضة مصر - ١٩٦٥ م .
- ٦٦ - ثمرات الأوراق بهامش المستطرف : للحموي - طبعة دار الفكر المصورة .
- ٦٧ - جامع البيان في تفسير القرآن : للطبري - دار الفكر - دمشق - ١٩٨٤ م .
- ٦٨ - جامع كرامات الأولياء : للنبهاني - مصر .
- ٦٩ - الجامع لأحكام القرآن : للقرطبي - دار إحياء التراث العربي - بيروت .

- ٧٠ - الجانب الخلقي في الشعر الجاهلي : د. زهير الخواجا - دار الناصر - الرياض ط ١ - ١٤٠٤ هـ .
- ٧١ - جمهرة الأمثال : لأبي هلال العسكري - ضبطه د. أحمد عبد السلام ، خرّج أحاديثه محمد سعيد زغلول - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٤٠٨ هـ .
- ٧٢ - جمهرة أنساب العرب : لابن حزم الأندلسي - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٩٨٣ م .
- ٧٣ - الجواهر والدرر في ترجمة شيخ الإسلام ابن حجر : للسخاوي - القاهرة .
- ٧٤ - حادي الأرواح : لابن قيم الجوزية - تحقيق يوسف بدوي - دار ابن كثير - دمشق ط ٢ - ١٩٨٦ م .
- ٧٥ - حجة الله على العالمين : للنبهاني - تحقيق محمد مصطفى أبو العلا - مكتبة الجندي - مصر - ١٩٧١ م .
- ٧٦ - حسن المحاضرة : للسيوطي - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار إحياء الكتب العربية - مصر .
- ٧٧ - الحقيقة والمجاز في الرحلة إلى بلاد الشام ومصر والحجاز : للنابلسي - تقديم وإعداد د. أحمد عبد المجيد هريدي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٩٨٦ م .
- ٧٨ - حلية الطراز «ديوان عائشة التيمورية» مع القصائد التي لم يسبق نشرها : لعائشة التيمورية - نشرتها لجنة المؤلفات التيمورية - مطبعة الكتاب العربي .
- ٧٩ - الحيوان : للجاحظ - تحقيق عبد السلام هارون - القاهرة - ١٩٤٥ م .
- ٨٠ - خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب : للبغدادي - دار صادر - بيروت .
- ٨١ - الخصائص الكبرى : للسيوطي - طبعة مصورة - دار الكتب العلمية .
- ٨٢ - الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة : لعلي مبارك - طبعة مصورة عن الطبعة الثانية بالقاهرة - ١٩٦٩ م .

- ٨٣ - خطط الشام: لمحمد كرد علي - بيروت - ١٩٦٩ م.
- ٨٤ - الداء والدواء: لابن قيم الجوزية - تحقيق يوسف علي بديوي - دار ابن كثير - دمشق ط ٢ - ١٩٨٩ م.
- ٨٥ - دائرة المعارف الإسلامية: الترجمة العربية - إعداد د. عبد الحميد يونس.
- ٨٦ - الدارس في تاريخ المدارس: للنعمي - تحقيق جعفر الحسيني - مجمع اللغة العربية - دمشق - ١٣٧٠ هـ.
- ٨٧ - الدر الكامنة في أعيان المئة الثامنة: لابن حجر - دار الجيل - بيروت.
- ٨٨ - الدر المنثور في التفسير المأثور: للسيوطي - دار الفكر - بيروت ط ١ - ١٩٨٣ م.
- ٨٩ - الدر المنثور في طبقات ربات الخدور: لزينب فواز العاملة - مصر - ١٣١٢ هـ.
- ٩٠ - دلائل النبوة: لأبي نعيم الأصبهاني - تحقيق د. عبد المعطي قلنجي - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٩٨٥ م.
- ٩١ - الديارات: للشابشتي - تحقيق كوركيس عواد - مكتبة المثنى - بغداد ط ٢ - ١٩٦٦ م.
- ٩٢ - ديوان أبي الأسود الدؤلي: تحقيق محمد حسن آل ياسين - بيروت - ١٩٧٥ م.
- ٩٣ - ديوان أبي تمام: بشرح الخطيب التبريزي - تحقيق محمد عبده عزام - دار المعارف - مصر - ١٩٦٤ م.
- ٩٤ - ديوان أبي العتاهية: تحقيق د. شكري فيصل - دار الملاح - دمشق - ١٩٦٥ م.
- ٩٥ - ديوان ابن الرومي: تحقيق د. حسين نصار - دار الكتب المصرية - القاهرة - ١٩٧٣ م.
- ٩٦ - ديوان ابن الفارض: دار بيروت - ١٣٨٢ م.
- ٩٧ - ديوان أمية بن أبي الصلت: جمع وتحقيق ودراسة د. عبد الحفيظ السطلي - المطبعة التعاونية - دمشق - ١٩٧٤ م.

- ٩٨ - ديوان البارودي: للبارودي - حققه وصححه وضبطه وشرحه علي الجارم ومحمد شفيق معروف - دار المعارف - مصر - ١٣٩١ هـ.
- ٩٩ - ديوان البحري: دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٤٠٧ هـ.
- ١٠٠ - ديوان البوصيري: تحقيق محمد سعيد كيلاني - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة - ١٣٧٤ هـ.
- ١٠١ - ديوان حسان بن ثابت: تحقيق د. سيد حنفي حسين - دار المعارف - مصر - ١٩٧٤ م.
- ١٠٢ - ديوان الحطيئة: تحقيق نعمان أمين طه - مطبعة البابي الحلبي - مصر ط ١ - ١٩٨٥ م.
- ١٠٣ - ديوان زهير بن أبي سلمى: دار الكتب المصرية - ١٩٤٤ م. وطبعة بيروت.
- ١٠٤ - ديوان صفى الدين الحلبي: دار صادر - بيروت.
- ١٠٥ - ديوان طرفة بن العبد: تحقيق درية الخطيب ولطفي الصقال - مجمع اللغة العربية - دمشق - ١٩٧٥ م.
- ١٠٦ - ديوان الطرماح: تحقيق عزة حسن - دمشق - ١٩٧٠ م.
- ١٠٧ - ديوان عبيد الله بن قيس الرقيات: تحقيق د. محمد يوسف نجم - بيروت - ١٩٥٨ م.
- ١٠٨ - ديوان علقمة الفحل: حققه لطفي الصقال ودريّة الخطيب - دار الكتاب العربي - حلب ط ١ - ١٩٦٩ م.
- ١٠٩ - ديوان علي بن الجهم: تحقيق خليل مردم بك - دمشق - ١٩٤٩ م.
- ١١٠ - ديوان عمر بن أبي ربيعة: بيروت - ١٩٦١ م.
- ١١١ - ديوان عنترة: تحقيق محمد سعيد مولوي - المكتب الإسلامي - دمشق - ١٩٦٥ م. وطبعة بيروت.
- ١١٢ - ديوان كثير عزة: جمع وشرح د. إحسان عباس - دار الثقافة - بيروت - ١٩٧١ م.
- ١١٣ - ديوان مجد الإسلام: لأحمد محرم - حققه وراجعته محمود أحمد محرم - مكتبة الفلاح - الكويت ط ١ - ١٤١٢ هـ.

- ١١٤ - ديوان المعاني : لأبي هلال العسكري - القاهرة - ١٣٥٢ هـ .
- ١١٥ - ذمّ الهوى : لابن الجوزي - تحقيق مصطفى عبد الواحد - مصر ١٣٨١ هـ .
- ١١٦ - ربيع الأبرار ونصوص الأخبار : للزمخشري - تحقيق د . سليم النعيمي - دار الذخائر للمطبوعات - إيران .
- ١١٧ - رجال مبشرون بالجنة : لأحمد خليل جمعة - دار ابن كثير - دمشق ط٣ - ١٩٩٦ م .
- ١١٨ - الرحلة الأنسية في الرحلة القدسية : للنابلسي - تحقيق أكرم حسن العلبي - دار المصادر - بيروت ط١ - ١٩٩٠ م .
- ١١٩ - رحلة ابن جبير : لمحمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي - دار المعارف - بيروت - ١٤٠٠ هـ .
- ١٢٠ - رحلة إلى الحق : لفاطمة الشريطية - دمشق .
- ١٢١ - الرسالة القشيرية : للقشيري - تحقيق د . عبد الحليم محمود ، ود . محمود بن الشريف - دار الكتب الحديثة - القاهرة - ١٩٧٢ م . وطبعة بيروت .
- ١٢٢ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني : للآلوسي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - وطبعة دار الفكر بدمشق .
- ١٢٣ - الروض الأنف - بهامش السيرة النبوية - : للسهيلي - تحقيق طه عبد الرؤوف سعد - مكتبة الكليات الأزهرية - مصر - ١٩٧١ م .
- ١٢٤ - روض الرياحين : لليافعي - مؤسسة عماد الدين - قبرص - وطبعة البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٥٥ م .
- ١٢٥ - روضة العقلاء ونزهة الفضلاء : لابن حبان البستي - مكتبة نزار الباز - مكة المكرمة ط١ - ١٤١٧ هـ .
- ١٢٦ - الروض الفائق في المواعظ والرقائق : للحريفيش - المطبعة الميمنية - القاهرة - ١٣٠٤ هـ .
- ١٢٧ - الروضة الفيحاء في تواريخ النساء : لياسين العمري - تحقيق د . رجاء السامرائي - الدار العربية للموسوعات - بيروت ط١ - ١٩٨٧ م .

- ١٢٨ - روضة المحبين: لابن قيم الجوزية - بيروت - ١٩٦٧ م. وطبعة حلب.
- ١٢٩ - زاد المسير في علم التفسير: لابن الجوزي - المكتب الإسلامي - دمشق - ١٩٦٤ م.
- ١٣٠ - زاد المعاد: لابن قيم الجوزية - تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة - بيروت ط ٦ - ١٩٨٤ م.
- ١٣١ - الزهد: لأحمد بن حنبل - مطبعة أم القرى - مكة - ١٣٥٧ هـ. وطبعة بيروت.
- ١٣٢ - زهر الآداب وثمر الألباب: للحصري القيرواني - حققه وضبطه وشرحه علي محمد البجاوي - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة ط ٢ - ١٩٧٠ م.
- ١٣٣ - سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون: لجمال الدين بن نياتة المصري - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - منشورات المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - ١٤٠٦ هـ.
- ١٣٤ - سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر: للمرادي - دار الشائر الإسلامية - بيروت ط ٣ - ١٤٠٨ هـ.
- ١٣٥ - سمط اللآلي في شرح أمالي القالي: للبكري - تحقيق عبد العزيز الميمني - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - مصر - ١٣٥٤ هـ.
- ١٣٦ - سنن ابن ماجه: تحقيق فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ١٩٧٥ م.
- ١٣٧ - سنن أبي داود: إعداد وتعليق محمد محيي الدين عبد الحميد - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ١٣٨ - سنن الترمذي: إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس - حمص ط ١ - ١٩٦٦ م.
- ١٣٩ - سنن النسائي: بشرح السيوطي وحاشية السندي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ١٤٠ - سير أعلام النبلاء: للذهبي - تحقيق جماعة من العلماء والأفاضل -

- مؤسسة الرسالة - بيروت ط ٣ - ١٩٨٥ م .
- ١٤١ - السيرة الحلبية: لعلي بن برهان الدين الحلبي - مطبعة البابي الحلبي - مصر ط ١ - ١٩٦٤ م .
- ١٤٢ - سيرة عمر بن عبد العزيز: لابن الجوزي - مصر - ١٣٣١ هـ، وطبعة بيروت .
- ١٤٣ - السيرة النبوية: لأحمد زيني دحلان - الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت - ١٩٨٣ م .
- ١٤٤ - السيرة النبوية: لابن هشام - تحقيق السقا ورفاقه - مطبعة البابي الحلبي - مصر ط ٢ - ١٩٥٥ م .
- ١٤٥ - السيرة النبوية: لابن هشام - تحقيق د. عمر تدمري - دار الكتاب العربي - بيروت ط ٢ - ١٩٨٩ م .
- ١٤٦ - السيرة النبوية: لابن هشام - مع شرح أبي ذر الخشني - تحقيق د. همام سعيد ورفيقه - مكتبة المنار - الأردن ط ١ - ١٩٨٨ م .
- ١٤٧ - شاعرات العرب: جمع وتحقيق عبد البديع صقر - المكتب الإسلامي - ط ١ ١٩٦٧ م .
- ١٤٨ - شذرات الذهب: لابن العماد الحنبلي - تحقيق محمود الأرناؤوط ومراجعة وإشراف عبد القادر الأرناؤوط - دار ابن كثير - دمشق ط ١ ١٩٨٦ م .
- ١٤٩ - شرح ديوان المتنبي: للعكبري - تحقيق السقا والأبياري وشلبي - القاهرة ١٩٣٦ م . وطبعة عبد الرحمن البرقوقي .
- ١٥٠ - شرح شواهد المغني: للسيوطي - القاهرة - ١٣٢٢ هـ . وطبعة بيروت .
- ١٥١ - شرح مقامات الحريري: لأبي العباس الشريشي - مصورة دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط ١ ١٣٩٩ هـ .
- ١٥٢ - شرح نقائض جرير والفرزدق: ليدن - ١٩٠٥ م .
- ١٥٣ - الشعر والشعراء: لابن قتيبة - تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر - دار المعارف بمصر ١٩٦٦ م ، وطبعة بيروت .

- ١٥٤ - شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام : للفاسي - تحقيق د. عمر تدمري - دار الكتاب العربي - بيروت ط ١ - ١٩٨٥ م.
- ١٥٥ - شهيدة العشق الإلهي : لعبد الرحمن بدوي - مطبعة النهضة - القاهرة.
- ١٥٦ - الشوقيات : لأحمد شوقي - دار الكتاب العربي - بيروت ط ١١ - ١٤٠٦ هـ.
- ١٥٧ - صبح الأعشى في صناعة الإنشا : للقلقشندي - مصورة عن طبعة القاهرة - ١٩٦٣ م.
- ١٥٨ - صحيح ابن حبان : بعناية كمال الحوت - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٩٨٧ م.
- ١٥٩ - صحيح الجامع الصغير وزيادته : للألباني - المكتب الإسلامي - دمشق ط ٢ - ١٤٠٦ هـ.
- ١٦٠ - صحيح مسلم : تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ١٦١ - صفة جزيرة العرب : للحسن بن أحمد الهمداني - تحقيق محمد علي الأكوع - منشورات دار اليمامة - الرياض - السعودية - ١٣٩٤ هـ.
- ١٦٢ - صفة الصفوة : لابن الجوزي - تحقيق محمود فاخوري ود. محمد رواس قلعجي - دار المعرفة - بيروت ط ٢ - ١٣٩٩ هـ.
- ١٦٣ - الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : للسخاوي - مكتبة القدسي - القاهرة - ١٣٥٣ هـ.
- ١٦٤ - الطب النبوي : لعبد اللطيف البغدادي - تحقيق يوسف بديوي - دار ابن كثير - دمشق ط ١ . ١٩٩٠ م.
- ١٦٥ - طبقات الأولياء : لابن الملقن - تحقيق نور الدين شريعة - مكتبة الخانجي - القاهرة - ١٣٩٣ هـ.
- ١٦٦ - طبقات الحفاظ : للسيوطي - تحقيق علي محمد عمر - مكتبة وهبة - مصر ط ١ - ١٩٧٣ م. وطبعة بيروت.
- ١٦٧ - طبقات الصوفية : للسلمي - تحقيق نور الدين شريعة - القاهرة - ١٩٥٣ م.

- ١٦٨ - طبقات فحول الشعراء: لابن سلام - قرأه وشرحه محمود محمد شاكر - مطبعة المدني - القاهرة .
- ١٦٩ - الطبقات الكبرى: لابن سعد - تحقيق إحسان عباس - دار صادر - بيروت .
- ١٧٠ - الطبقات الكبرى: للشعراني - القاهرة - ١٢٩٩ هـ .
- ١٧١ - الطبقات الكبرى: للمناوي - مخطوطة دار الكتب المصرية .
- ١٧٢ - العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: للفاسي - تحقيق فؤاد سيد - القاهرة ١٣٥٨ هـ .
- ١٧٣ - العقد الفريد: لابن عبد ربه - تحقيق أحمد أمين ورفاقه - لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة ط ٢ - ١٩٦٢ م - وطبعة محمد سعيد العريان .
- ١٧٤ - عمدة القاري شرح صحيح البخاري - لبدر الدين العيني - طبعة مصورة عن المطبعة الميمنية - بيروت .
- ١٧٥ - عوارف المعارف: للسهروردي - دار الكتاب العربي - بيروت - ١٤٠٣ هـ .
- ١٧٦ - عون المعبود شرح سنن أبي داود: لأبي الطيب الآبادي - تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان - مكتبة ابن تيمية - القاهرة ط ٣ - ١٩٨٧ م .
- ١٧٧ - عيون الأثر في فنون المغازي والسير: لابن سيد الناس - دار الآفاق الجديدة - بيروت ط ٣ - ١٩٨٢ م - وطبعة دار الكلم الطيب بدمشق .
- ١٧٨ - عيون الأخبار: لابن قتيبة - مصورة عن دار الكتب - مصر - ١٩٦٣ م .
- ١٧٩ - غوطة دمشق: لمحمد كرد علي - دار الفكر - دمشق ط ٣ - ١٩٨٤ م .
- ١٨٠ - فتح الباري بشرح صحيح البخاري: لابن حجر العسقلاني - حققه محب الدين الخطيب - رقمه وبوبه محمد فؤاد عبد الباقي - أشرف على التصحيح قصي محب الدين الخطيب - المكتبة السلفية - القاهرة ط ٤ - ١٤٠٨ هـ .
- ١٨١ - الفرج بعد الشدة: للتنوخي - تحقيق عبود الشالجي - دار صادر - بيروت - ١٩٨٧ م .

- ١٨٢ - الفصول في سيرة الرسول: لابن كثير - تحقيق محمد العيد الخطراوي ومحبي الدين مستو - دار ابن كثير - دمشق ط ٤ - ١٩٨٥ م .
- ١٨٣ - الفهرست: لابن النديم - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٤١٦ هـ .
- ١٨٤ - فوات الوفيات: لابن شاعر الكتبي - تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٩٧٣ م . وطبعة مصر المحققة أيضاً .
- ١٨٥ - الفوائد المجموعة: للشوكاني - تحقيق عبد الرحمن اليماني - دار الكتب العلمية - بيروت - ١٣٧٩ هـ .
- ١٨٦ - القاموس المحيط: للفيروز أبادي - مؤسسة الرسالة - بيروت ط ٢ - ١٩٨٧ م .
- ١٨٧ - قصص العرب: لمحمد أحمد جاد المولى ورفاقه - مطبعة البابي الحلبي - القاهرة - ١٩٥٦ م .
- ١٨٨ - الكامل في التاريخ: لابن الأثير - دار صادر - بيروت .
- ١٨٩ - الكامل في اللغة والأدب: للمبرد - عارضه بأصوله وعلق عليه محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي - القاهرة - وطبعة مؤسسة الرسالة في بيروت .
- ١٩٠ - كتاب ألف باء: للبلوي - مصورة عالم الكتب - بيروت .
- ١٩١ - كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة: لأبي إسحاق الحربي - تحقيق حمد الجاسر - دار اليمامة - الرياض - ١٣٨٩ م .
- ١٩٢ - كتاب منتخبات التواريخ لدمشق: لمحمد أديب تقي الدين الحصني - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت ط ١ - ١٣٩٩ هـ .
- ١٩٣ - كشف الخفاء ومزيل الإلباس: للعجلوني - بعناية أحمد القلاش . دار التراث - القاهرة .
- ١٩٤ - كشف الظنون عن أسامي الكتب والقنون: لحاجي خليفة - دار الفكر - بيروت ط ١ - ١٤١٤ هـ .
- ١٩٥ - كنز العمال: لعلاء الدين علي المتقي الهندي - بعناية حياني والسقا - مؤسسة الرسالة - بيروت ط ٥ - ١٩٨٥ م .

- ١٩٦ - الكواكب السائرة في أعيان المئة العاشرة: للغزي - حققه وضبط نصه جبرائيل سليمان جبور - دار الفكر - بيروت .
- ١٩٧ - لسان العرب: لابن منظور - طبعة دار صادر - بيروت - ١٩٥٥ م .
- ١٩٩ - لسان الميزان: لابن حجر - حيدر آباد الدكن - ١٣٣١ هـ .
- ٢٠٠ - لطائف الأخبار - للتونسي - دار عالم الكتب - الرياض - ١٤١٤ هـ .
- ٢٠١ - اللطائف والظرائف: للثعالبي - مصر - ١٣١٠ هـ .
- ٢٠٢ - اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة: للسيوطي - القاهرة - ١٣٥٢ هـ . وطبعة دار المعرفة ببيروت - ١٤٠٣ هـ .
- ٢٠٣ - ماذا عن المرأة: د. نور الدين العتر - دار الفكر - دمشق ط ٣ - ١٣٩٩ هـ .
- ٢٠٤ - مجمع الأمثال: للميداني - تحقيق محيي الدين عبد الحميد - مطبعة السنة المحمدية - القاهرة - ١٩٥٥ - وطبعة بيروت .
- ٢٠٥ - مجمع الزوائد: للهيتمي - دار الكتاب العربي - بيروت .
- ٢٠٦ - المحاسن والمساوىء: للجاحظ - تحقيق محمد سويد - دار إحياء العلوم - بيروت .
- ٢٠٧ - المحاسن والمساوىء: للبيهقي - دار صادر - بيروت - ١٩٧٠ م .
- ٢٠٨ - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء: للراغب الأصفهاني - دار مكتبة الحياة - بيروت .
- ٢٠٩ - المحبر: لابن حبيب - رواية السكري - صححه الدكتوراة إيلزة ليختن شتير - دار الآفاق الجديدة - بيروت .
- ٢١٠ - مختصر تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر: لابن منظور - تحقيق عدد من الأفاضل - دار الفكر - دمشق ط ١ - ١٩٩٠ م .
- ٢١١ - مدارج السالكين: لابن قيم الجوزية - دار الكتب العلمية - بيروت .
- ٢١٢ - مرآة الجنان: لليافعي - حيدر آباد - ١٣٣٨ هـ .
- ٢١٣ - المرأة في الشعر الجاهلي: لأحمد الحوفي - دار نهضة مصر - القاهرة - ١٩٨٠ م .

- ٢١٤ - المرأة في عالمي العرب والإسلام: لعمر رضا كحالة - مؤسسة الرسالة - بيروت ط ١ - ١٩٧٨ م.
- ٢١٥ - المرأة في القديم والحديث: لعمر رضا كحالة - مؤسسة الرسالة - بيروت ط ١ - ١٩٧٨ م.
- ٢١٦ - مروج الذهب: للمسعودي - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - دار المعرفة - بيروت.
- ٢١٧ - المستجد من فعلات الأجواد: للتنوشي - تحقيق محمد كرد علي - دمشق - ١٩٤٦ م.
- ٢١٨ - المستدرك على الصحيحين: للحاكم النيسابوري - مكتب المطبوعات الإسلامية - حلب.
- ٢١٩ - المستطرف في كل فن مستظرف: للأبشيهي - مصر - ١٢٧٧ هـ.
- ٢٢٠ - المسند: للإمام أحمد - دار الفكر - بيروت ط ٢ - ١٩٧٨ م.
- ٢٢١ - مسيرتي في طريق الحق: لفاطمة الشرطية - دمشق.
- ٢٢٢ - مصارع العشاق: للسراج القاري - دار صادر - بيروت - ١٩٥٨ م.
- ٢٢٣ - المعارضات في الشعر العربي: د. محمد سعد حسين - مطابع الفرزدق التجارية - الرياض - ١٤٠٠ هـ.
- ٢٢٤ - المعارف: لابن قتيبة - تحقيق د. ثروت عكاشة - دار المعارف - مصر ط ٢ - ١٩٧٧ م.
- ٢٢٥ - معجم الأدباء: لياقوت الحموي - دار المأمون - القاهرة - ١٩٣٦ م.
- ٢٢٦ - معجم البلدان: لياقوت الحموي - دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ٢٢٧ - المعرفة والتاريخ: للبسوي - تحقيق د. أكرم ضياء العمري - مؤسسة الرسالة - بيروت ط ٢ - ١٩٨١ م.
- ٢٢٨ - معلقة عمرو بن كلثوم بشرح أبي الحسن بن كيسان: دراسة وتحقيق د. محمد إبراهيم البنا - دار الاعتصام - القاهرة ط ١ - ١٤٠٠ هـ.
- ٢٢٩ - المغانم المطابة في معالم طابة (قسم المواضع): للفيروز أبادي - تحقيق حمد الجاسر - منشورات دار اليمامة - الرياض ط ١ - ١٩٦٩ م.

- ٢٣٠ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام - لجواد علي - مصر ط ٢ - ١٤١٣ هـ.
- ٢٣١ - المفضليات: للمفضل الضبي - تحقيق عبد السلام هارون وأحمد شاکر - دار المعارف - القاهرة ١٩٨٣ م.
- ٢٣٢ - مقاتل الطالبين: لأبي الفرج الأصفهاني - تحقيق السيد أحمد صقر - مؤسسة الأعلمي - بيروت ط ٢ - ١٩٨٧ م.
- ٢٣٣ - المكافأة: لأحمد بن يوسف الكاتب - بيروت.
- ٢٣٤ - المواهب اللدنية: للقسطلاني - تحقيق صالح الشامي - المكتب الإسلامي - بيروت ط ١ - ١٩٩١ م.
- ٢٣٥ - الموشح في مأخذ العلماء على الشعراء: للمرزباني - تحقيق وتقديم محمد حسين شمس الدين - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٤١٥ هـ.
- ٢٣٦ - الموطأ: للإمام مالك - صححه ورقمه محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة.
- ٢٣٧ - الموضوعات: لابن الجوزي - تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان - المدينة المنورة - ١٩٦٦ م.
- ٢٣٨ - النثر الفني في القرن الرابع الهجري: لزكي مبارك - بيروت.
- ٢٣٩ - النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: لابن تغري بردي - طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.
- ٢٤٠ - نزهة الجلساء في أشعار النساء: للسيوطي - تحقيق د. صلاح الدين المنجد - بيروت - ١٩٥٨ م، وطبعة مصر.
- ٢٤١ - نساء من عصر التابعين: لأحمد خليل جمعة - دار ابن كثير - دمشق ط ٢ - ١٩٩٢ م.
- ٢٤٢ - نساء من عصر النبوة: لأحمد خليل جمعة - دار ابن كثير - دمشق ط ٢ - ١٩٩٢ م.
- ٢٤٣ - نسب قریش: لمصعب الزبيري - تحقيق ليفي بروفنسال - دار المعارف - مصر - ١٩٥٣ م.

- ٢٤٤ - نظم العقيان في أعيان الأعيان: للسيوطي - المكتبة العلمية - بيروت .
- ٢٤٥ - نفحات الأزهار على نسيمات الأسحار: للنبلسي - عالم الكتب - بيروت .
- ٢٤٦ - نكت الهميان في نكت العميان: للصفدي - بعناية أحمد زكي بك - المطبعة الجمالية - مصر - ١٩١١ م .
- ٢٤٧ - نهاية الأرب في فنون الأدب: للنويري - طبعة مصورة عن طبعة دار الكتب - مصر .
- ٢٤٨ - نوادر المخطوطات: تحقيق عبد السلام هارون - مطبعة البابي الحلبي - مصر ط ٢ - ١٩٧٢ م .
- ٢٤٩ - نور الأبصار: لمؤمن الشبلنجي - مطبعة البابي الحلبي - مصر - الطبعة الأخيرة - ١٩٤٨ م .
- ٢٥٠ - الهفوات النادرة: لأبي الحسن الصابي - تحقيق د. صالح الأشر - دمشق - ١٩٦٧ م .
- ٢٥١ - الوافي بالوفيات: للصفدي - جمعية المستشرقين الألمانين - مطابع مختلفة - ١٩٣١ - ١٩٨٤ م .
- ٢٥٢ - الوزراء والكتاب: للجهشياري - تحقيق مصطفى السقا ورفاقه - القاهرة - ١٩٣٨ م .
- ٢٥٣ - الوفا بأحوال المصطفى: لابن الجوزي - تحقيق مصطفى عطا - دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ - ١٤٠٨ هـ .
- ٢٥٤ - وفاء الوفا: للسهمودي - تحقيق محيي الدين عبد الحميد - دار إحياء التراث العربي ط ٤ - ١٩٨٤ م .
- ٢٥٥ - وفيات الأعيان: لابن خلكان تحقيق د. إحسان عباس - دار صادر - بيروت - ١٩٦٨ م .



رَفَعُ
عبد الرَّحْمَنِ المَجْدِي
أُسْكُنْهُ المِنَى المَفْرُوسَ
www.moswarat.com

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
بين يدي الكتاب : بقلم الأستاذ يوسف علي بديوي	٥
مقدمة الكتاب	١١
(١) آمنة بنت وهب	١٧
سليلة الأمجاد	١٩
آمنة وصفاء النشأة	٢٢
أفضل فتاة	٢٤
بشائر الخير	٢٥
أحلام وآمال	٣٣
وداع الحبيب	٣٧
الخبر الأليم	٤٠
لوعة الفراق ورثاء الحبيب	٤٣
آمنة والبشريات بالحمل المبارك	٤٥
آمنة ومولد المصطفى ﷺ	٤٧
أم اليتيم ورحلة رضاعه ﷺ	٥٤
حليمة ترجو آمنة	٦٠
ما أقدمك به يا حليمة؟!	٦٣
في أحضان آمنة	٦٧

٧٠	آمنة والرحلة الأخيرة
٧٣	(٢) أمامة بنت الحارث
٧٥	نفحة من مكارم المرأة
٧٧	أم عاقلة حكيمة
٧٩	من أخبار أمامة وابنتها
٨٠	أمامة وخطبة ابنتها
٨٣	كيف خطب الملك ابنة أمامة؟
٨٤	وصايا أمامة العشر لابنتها
٨٧	أضواء على مقدمة وصايا أمامة
٨٨	وقفات عطرات مع وصايا أمامة
٩٧	(٣) أم البنين بنت عبد العزيز
٩٩	في رحاب الطهر والصلاح
١٠٢	العابدة العالمة الفقيهة :
١٠٦	ورعها وقصتها مع محمد بن يوسف الثقفي
١٠٩	قصتها مع الحجاج بن يوسف
١١٦	سखाؤها وأقوالها في الجود
١١٨	اصطناعها للمعروف وجبرها عثرات الكرام
١٢٥	هل صحيح ما يُنسب إلى أم البنين؟!
١٤٠	مع فاضلات الخالدات
١٤٣	(٤) أم جعفر بن يحيى
١٤٥	امرأة من العصر الذهبي
١٤٧	دخولها على الرشيد
١٤٩	حوارها مع الرشيد
١٥٤	استشفاع زوج أم جعفر

١٥٦	أتعرف هذه؟!
١٥٩	(٥) أم سلمة بنت يعقوب
١٦١	من حازمات النساء
١٦٢	أم سلمة تخطب أبا العباس
١٦٤	هل بقي السفاح وفيأ لأم سلمة؟
١٦٥	أم سلمة تكشف سرأ
١٦٧	صدقت والله يا عماء
١٧٠	أم سلمة والأيام الأخيرة
١٧١	(٦) أم عوف امرأة أبي الأسود
١٧٣	إحدى فصيحات نساء العلماء
١٧٦	فصاحتها في شكوى زوجها
١٧٨	من أسباب طلاقها وفراقها
١٨٠	أم عوف تذيع مثالب زوجها
١٨١	اللهم اكفني شرها
١٨٢	أم عوف والشعر
١٨٣	وداعاً أم عوف
١٨٥	(٧) أم كلثوم بنت عقبة
١٨٧	من سوابق المؤمنات
١٩١	أولى المهاجرات
١٩٣	أم كلثوم وقصة هجرتها
١٩٦	امتحان النساء المؤمنات
١٩٩	مقامها وزواجها في المدينة
٢٠١	علمها وروايتها للحديث

(٨) أنس بنت عبد الكريم	٢٠٣
هل نعرف نساء العلماء؟!	٢٠٥
تلميذة إمام الحفاظ ، وتلميذة العلماء	٢٠٨
قد صرت شيخخة	٢٠٩
من تلامذتها	٢١١
زهر من رياض أخبارها	٢١٢
أنس في ذاكرة الزمن	٢١٤
(٩) بكارة الهلالية	٢١٧
من هذه الخطيبة البليغة؟	٢١٩
مكانة أهل البيت وصفاتهم	٢٢١
كلمات بكارة أمام معاوية	٢٢٣
أنا قائلة ما قالوا	٢٢٤
(١٠) الخيزران بنت عطاء	٢٢٩
من الرق إلى عالم الشهيرات	٢٣١
أم خليفيتين	٢٣٢
الخيزران وعيون السعادة	٢٣٣
من طرائف أخبارها	٢٣٤
الخيزران في خلافة الهادي	٢٣٦
أما لك مغزل يشغلك؟	٢٣٩
الخيزران وموت ابنها الهادي	٢٤١
أدب الخيزران وظرفها	٢٤٤
من أخبارها مع أبي دلامة	٢٤٥
من أخبارها إحسانها ومروءتها	٢٤٧
الخيزران ونائب البصرة	٢٥٠

٢٥١	من آثارها في مكة والمدينة
٢٥٣	خالدة في ذاكرة الزمان
٢٥٥	(١١) رابعة العدوية
٢٥٧	في رحاب الزاهدين والنسك
٢٥٩	نشأتها وبداية حياتها
٢٦٣	طريقتها في العبادة والمناجاة
٢٦٨	رابعة وزهاد عصرها وقصصهم
٢٧٢	رابعة وقصص لا تُعقل
٢٧٥	إعراضها عن الزواج
٢٧٨	شاعرة الزاهدات
٢٨٦	قلائد من جمان حكمها
٢٩١	رابعة في ميزان وأقوال العلماء
٢٩٤	رابعة والرحلة الأخيرة
٢٩٩	(١٢) زبيدة بنت جعفر
٣٠١	في رحاب العظائم
٣٠٤	مقامها ومكانتها وتفردا في الفضل
٣٠٧	اقتران زبيدة بالرشيد
٣٠٨	مروءتها ونبيلها
٣١٠	من آثارها في الحج
٣١٧	المواضع والمنازل التي نزلتها زبيدة في حجها
٣٢٧	أدبها وأنسام من معارفها
٣٣١	تذوقها للشعر وإكرامها للشعراء
٣٣٧	زبيدة والأمين والمأمون
٣٤٣	وداعاً سيدة نساء الخلفاء

٣٤٥	(١٣) زينب بنت حدير
٣٤٦	تربية فريدة
٣٤٧	زينب وأمها
٣٤٩	عليكم بنساء بني تميم
٣٥٤	أنت سيدة نسائهم
٣٥٧	إنها أُمي
٣٥٩	عشرون عاماً من الصفاء
٣٦٠	وماذا بعد يا زينب؟
٣٦٢	وداعاً نعيم الحياة
٣٦٥	(١٤) ست الـركب بنت علي العسقلانية
٣٦٧	نشأة علمية وتربية صافية
٣٧٠	مولدها وتسميتها
٣٧٠	القارئة التقية والكاتبة الذكية
٣٧٢	معلمة أمير الحفاظ والعلماء
٣٧٤	من معالم سيرتها
٣٧٥	رثاؤها وذكرها
٣٧٧	(١٥) ست الملك بنت العزيز بالله الفاطمية
٣٧٩	من نساء التاريخ
٣٨٠	ست الملك وأخوها الحاكم
٣٨٣	ست الملك وبداية نهاية أخيها
٣٨٤	هل كانت ست الملك وراء اختفاء أخيها؟!
٣٨٩	بماذا كافأت ست الملك ابن دؤاس؟!
٣٩١	ثروتها ووفاتها

٣٩٣	(١٦) عائشة بنت يوسف الباعونية
٣٩٥	فاضلة الزمان وحليفة الأدب
٣٩٦	شغفها بالعلم وحافظتها العجيبة
٤٠٠	دخولها القاهرة ولقاؤها الأدباء
٤٠٥	مؤلفاتها وألوان من شعرها
٤٠٩	المدائح النبوية وبيدائع مدائحها
٤٣٥	السيرة النبوية في أدب عائشة
٤٣٧	امتداح العلماء والفضلاء لعائشة
٤٣٩	وداعاً فاضلة الزمان
٤٤١	(١٧) عائشة التيمورية
٤٤٣	من أميرات البيان
٤٤٥	نشأتها وصور من حياتها
٤٤٧	عائشة وهمسات من ذكريات والديها
٤٥٠	بين الأدب والزواج
٤٥٢	عواصف في حياة عائشة
٤٥٣	خنساء العصر ویتيمة الدهر
٤٦٠	أميرة شعر الرثاء في عصرها
٤٦٣	أخلاقها ومعالم من سيرتها
٤٦٩	تدينها وابتهاالاتها وتأثرها بالقرآن
٤٧٢	الأنبياء في شعر عائشة
٤٧٤	عائشة والمديح النبوي
٤٨٠	ثقافتها ومعارفها
٤٨٦	تفننها في نظم الشعر
٤٩٢	شذرات وطرائف من أخبارها

٤٩٨	موقفها وسخريتها من الأطباء
٥٠١	عائشة وجميل الصبر
٥٠٢	نثرها ومكانته في عالم البدائع
٥٠٦	وأخيراً لا بد من الوداع
٥١١	(١١) عبلة بنت مالك
٥١٣	من شهيرات نساء الفرسان
٥١٥	إنقاذ عبلة من الأسر
٥١٧	انتشار صيت عبلة وشهرتها
٥٢٢	هل تزوج عنتره عبلة
٥٢٥	جمال عبلة في شعر عنتره
٥٣١	وقفة ندية مع جمال المرأة عند العرب
٥٣٥	(١٩) فاطمة بنت مر الخثعمية
٥٣٧	من صور حياة الجاهلية
٥٣٧	جولة في رحاب الكهانة والكاهنات
٥٤٤	صفاتها وفرادتها
٥٤٨	تحسُّر فاطمة بنت مر
٥٥٣	(٢٠) فاطمة اليشرطية
٥٥٥	بين أنفاس الذكر
٥٥٦	من طالبات المعرفة والتصوف
٥٥٨	حياتها بعد والدها
٥٥٩	أثر والدتها في حياتها العلمية
٥٦٠	رحلاتها ومعارفها
٥٦٢	فاطمة في دمشق
٥٦٢	رحلتها إلى مصر

الموضوع	الصفحة
تنمية ثقافتها	٥٦٣
أحداث ومؤثرات في حياتها	٥٦٥
مؤلفاتها وآثارها العلمية والصوفية	٥٦٩
في سجل المتصوفات	٥٧١
(٢١) ليلي بنت مهلهل	٥٧٣
جوانب من أخلاق الجاهلية	٥٧٥
ليلى تنجو من الوأد	٥٧٨
ليلى زوج فارس وأم شاعر	٥٨٠
كلمة من ليلي تقتل ملك الحيرة	٥٨١
ملهمة الأبطال وصانعة الرجال	٥٨٧
ذكاؤها وفطنتها	٥٨٩
(٢٢) مخّة بنت الحارث	٥٩٣
معلمة الزهاد	٥٩٥
مخّة وأثرها في بشر	٥٩٧
ورعها وثناء الإمام أحمد عليها	٦٠١
قصة أخرى مع الإمام أحمد	٦٠٤
(٢٣) نفيسة بنت الحسن	٦٠٧
الأصل الطاهر الثابت	٦٠٩
صور من زهدا وعبادتها	٦١٢
زواجها واستقرارها في مصر	٦١٤
نفيسة وعالم من الكرامات	٦١٦
من قصص الكرامات المزعومة	٦١٨
قصة التيس المزعوم في المشهد النفيسي	٦٢٤
كرامات أخرى وأوراد وأشعار	٦٢٧

الموضوع	الصفحة
الغلو في الصالحين	٦٣١
ثناء العلماء والأفاضل عليها	٦٣٢
نفائس من أقوال نفيسة	٦٣٤
﴿ولهم دار السلام عند ربهم﴾	٦٣٥
المصادر والمراجع	٦٤٠
فهرس الموضوعات	٦٥٩

صدر للمؤلف

- ١ - رجال مبشرون بالجنة - جزءان - دار ابن كثير .
- ٢ - نساء مبشرات بالجنة - جزءان - دار ابن كثير .
- ٣ - نساء من عصر النبوة - جزءان - دار ابن كثير .
- ٤ - نساء من عصر التابعين - جزءان - دار ابن كثير .
- ٥ - المبشرون بالنار - جزءان - دار ابن كثير .
- ٦ - نساء الأنبياء في ضوء القرآن والسنة - جزء واحد - دار ابن كثير .
- ٧ - فرسان حول الرسول - جزءان - دار الكلم الطيب - ودار البشير .
- ٨ - الصبر والصابرون - جزء واحد - دار الكلم الطيب .
- ٩ - الصدق والصادقون - جزءان - دار الكلم الطيب .
- ١٠ - التوبة - جزءان - دار الكلم الطيب .
- ١١ - المناجاة - جزءان - دار الكلم الطيب .
- ١٢ - القرآن وأصحاب رسول الله - جزءان - دار الكلم الطيب .
- ١٣ - التوكل في القرآن والسنة - جزءان - دار الكلم الطيب .
- ١٤ - الطاعة في ضوء القرآن والسنة - جزءان - دار الكلم الطيب .
- ١٥ - نساء من الإسلام ٣ أجزاء - دار الهجرة
- ١٦ - رجال من الإسلام ٣ أجزاء - دار الهجرة

وصدر للمؤلف عن دار اليمامة بدمشق

- ١- نساء أهل البيت في ضوء القرآن والحديث مجلد واحد - دار اليمامة
- ٢- نساء من التاريخ مجلد واحد - دار اليمامة
- ٣- التقوى في القرآن والسنة جزء واحد - دار اليمامة
- ٤- الإحسان جزء واحد - دار اليمامة
- ٥- البشرى جزء واحد - دار اليمامة
- ٦- النجاة جزء واحد - دار اليمامة
- ٧- الفلاح جزء واحد - دار اليمامة

وسيصدر للمؤلف قريباً بعون الله...

- المرأة في حياة الأنبياء مجلد .
- علماء الصحابة مجلد .
- نساء في قصور الأمراء مجلد .
- رجال أهل البيت مجلد .
- رجال من عصر النبوة مجلدان .
- رجال من عصر التابعين مجلد .
- نفحات أنسية من الأحاديث القدسية مجلد .
- الطفل في ضوء القرآن والسنة مجلد .
- الطب في ضوء القرآن والسنة مجلد .